بهجة النفوس

وتحليها بمعرفة ما لها وعليها

شرح مختصر صحيح البخاري

ويليه كتاب

المرائي الحسان

تأليف الإمام

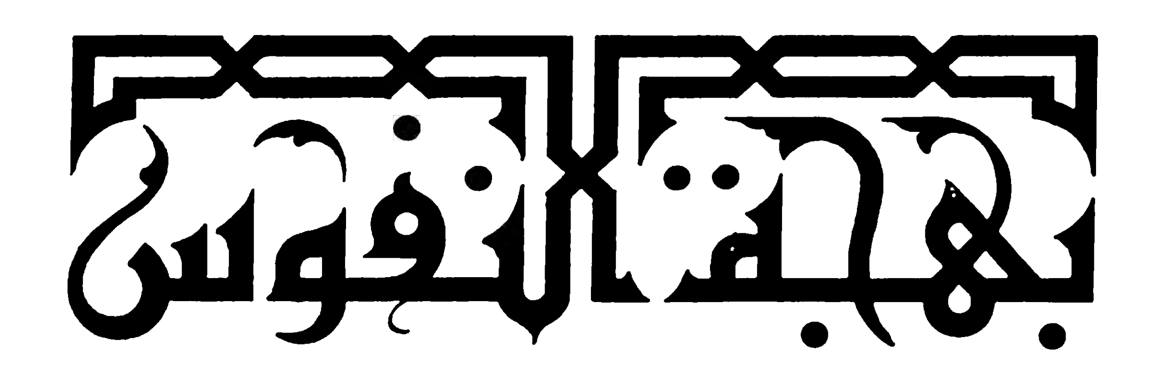
عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي

تحقيق وتقديم

الدكتور بكري شيخ أمين

الجزء الثاني

دار العلم للملايين



بهجة النفوس

وتحليها بمعرفة ما لها وعليها

شرح مختصر صحيح البخاري

ويليه كتاب

المرائي الحسان

تأليف الإمام

عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي

تحقيق وتقديم

الدكتور بكري شيخ أمين

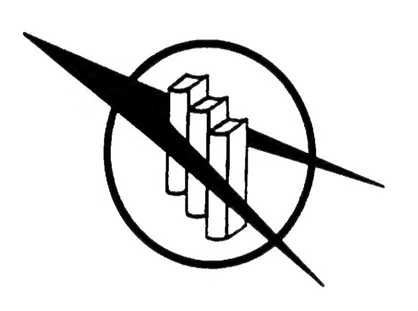
الجزء الثاني

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون ٣٠٤٤٤٥ - ٧٠١٦٥٥
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

ـ ١٤٩ ـ

حديث زيادة الأجر

عَن أبي بُرْدةَ[١]، رضيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: ثَلاثَةٌ يُؤتَوْن أَجرَهُم مَرَّتَينِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَـةُ فَيُعلِّمُها فَيُحسِنُ أدبَها، ثُمَّ يُعتِقُها فَيَتَزوَّجُها، فَلَهُ أجرانِ. وَمُؤمِنٌ مِن أهلِ الكِتابِ الَّذي كانَ مُؤمناً ثُمَّ آمنَ بالنَّبيِّ ﷺ فَلهُ أجرانِ. والعَبدُ الَّذي يُؤَدِّي حَقَّ الله، وَينصَحُ لِسَيِّدِه، فَلَهُ أجرانِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على تضعيف الأجر لهؤلاء المذكورين فيه. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام (ثلاثةٌ يُؤتَونَ أَجرَهم مَرَّتَيْنِ) يحتمل معناه وجوهاً:

(الأول) أن يكون تضعيف الأجر عند اجتماع الأعمال المذكورة، لأن كل واحد منها فعل يؤجر صاحبه عليه على انفراده، فلما أن اجتمع مع صاحبه ضوعف الأجر في كل منهما ضعفين على ما لو كان منفرداً.

(الثاني) أن يكون صاحب هذه الأفعال وُفِّي له بأجر كل فعل، ولم يُنقَص له من أجر الآخر شيء. فأخبر، عليه السلام، بما حصل له في الحال، كما يقال في المُتَـمَتِّع[٢] أنه حصل له أجران: أجر العُمرَة وأجر الحج.

---

(١) أبو بُردَة: هانيء. صحابي شهد العقبة الثانية مع السبعين صحابياً، وشهد بدراً وأُحداً وسائر المشاهد مع النبي ﷺ وروى عنه أحاديث، روى له الشيخان حديثاً واحداً، هو هذا الحديث، وشهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حروبه. ولا عقب له. توفي سنة ٤١ هـ وهو خال البراء بن عازب. (وأبو بردة التابعي: هو ابن أبي موسى الأشعري) ـ من تهذيب النَّووي ـ.

(٢) المتعة (بضم الميم وكسرها): العُمرة إلى الحج، وقد تمتَّع واستمتع. قال تعالى: ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ ﴾؛ وصورة المتمتع بالعُمرة إلى الحج: أن يُحرِم بالعُمرة في أشهر الحج فإذا أحرم بالعمرة بعد إهلاله شوّالاً فقد صار متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وسمّي متمتعاً بالعُمرة إلى الحج، لأنه إذا قدِم مكة فطاف بالبيت وسعى بين الصَّفا والمَروَة حَلّ من عُمْرَتِهِ وحَلَق رأسه وذبح نُسُكه الواجبَ عليه لتمتّعه، وحلّ له كل شيء كان حَرُم عليه في إحرامه من النساء والطِّيب. ثم ينشيء بعد ذلك إحراماً جديداً للحج وقت نهوضه إلى منى أو قبل ذلك من غير أن يجب=

(الثالث) أن يكون الأجر على قسمين: أجر على الأفعال بمقتضى ما جاء في ذلك عن الشارع عليه السلام، وأجر على العناية بجمعها ومجاهدة النفس على ذلك، والصبر عليها.

وقد يَرِد على هذه التوجيهات (بحث) وهو: أن تضعيف الأجور على أحد هذه المحتملات. أو على مجموعها على ما ذكرناه، هل هو خاص بالثلاثة المذكورة، أو هو متعدٍ لغيرها؟ يحتمل الوجهين معاً. فإن قلنا بأنه مقصور على الثلاثة فلا بحث. وإن قلنا بأنه متعدٍ فما العلة التي بها يتعدى؟ وهل العلة واحدة في الثلاثة، أو هي مختلفة؟ محتمل أيضاً. فأما على القول بأن العلة فيها واحدة فهي ما أشرنا إليها آنفاً في أحد المحتملات، وهي العناية بجمعها، ومجاهدة النفس على ذلك، والصبر عليها. فحيثما وجدت طاعات مجموعة على هذا التعليل رجي فيها التضعيف. ولا نقول بالقطع في ذلك، لأن حقيقة الأجور في الأعمال إنما تصح بقول الشارع ﷺ. وأما على القول بأن العلة في الثلاثة مفترقة فنحتاج إلى بيان كل علة منها.

فالعلة في الأَمَة ـ والله أعلم ـ من ثلاثة أوجه: (الأول) صبره على تعليمها. (الثاني) عتقه لها حين قرَّت العين بها. (الثالث) تركه لحظ نفسه في تزويجها ورفع منزلتها. فهذه ثلاثة أوجه مجموعها في اثنين، وهما بذل ما أحبَّت النفس لله، ومجاهدة النفس في ترك حظها لما يرضي الله. فحيثما وجدت هذه العلة رجي التضعيف أيضاً.

وأما العلة في المؤمن من أهل الكتاب فهو أنه بإيمانه الثاني أحرز الإيمان الأول، لأنه لولا الإيمان الثاني لَحَبِط إيمانه الأول. فإيمانه بالنبيّ ﷺ حَصل له الأجر عليه، وأحرز له أجر ما تقدم من إيمانه. يشهد لهذا قول النبيّ ﷺ لبعض أصحابه حين قال له: أمور كنت أتحنث بها في الجاهلية، فقال له عليه السلام: (أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير)(1). فإذا كان الإسلام يحرز ما كان في الجاهلية، فمن باب أولى إحرازه لأجر الإيمان الذي هو أعلى أفعال البر. فعلى هذا فإذا وجدت طاعة فصاحبها مأجور فيها، وهي تحرز أجر غيرها من الطاعات، رُجِي فيها التضعيف.

وأما العلة في العبد فهي اجتماع الحقوق عليه مع قلة اتساع الزمان لها، فأجهد نفسه حتى وفى بها. فإذا وجدت هذه العلة أيضاً في طاعة من الطاعات رجي فيها التضعيف.

الوجه الثاني من البحث الأول: قوله عليه السلام: (الرجل تكون له الأمة فيعلمها ويحسن تعليمها ويؤدبها فيُحسِن أدبها) هل التعليم والأدب اسمان لمعنى واحد أو لمعنيين؟ يحتمل الوجهين

= عليه الرجوع إلى الميقات الذي أنشأ منه عمرته، فذلك تمتّه بالعمرة إلى الحج أي انتفاعه وتبلغه بما انتفع به من حِلاقة وطيب وتنظّف وقضاءِ تَفَثٍ وإلمام بأهله، إن كانت معه. وكل هذه الأشياء كانت محرّمة عليه فأبيح له أن يَحِلّ وينتفع بإحلال هذه الأشياء كلها مع ما سقط عنه من الرجوع إلى الميقات والإحرام منه بالحج، فيكون قد تمتع بالعمرة في أيام الحج أي انتفع، لأنهم كانوا لا يرون العمرة في أشهر الحج فأجازها الإسلام.

(1) رواه الشيخان عن حكيم بن حِزام رضي الله عنه.

معاً، لأن المعلم يسوغ أن يُطلَق عليه: مؤدّب، وكذلك بالعكس. ويحتمل أن يكونا لمعنيَيْنِ ـ وهو الأظهر ـ والله أعلم. وإذا قلنا بأنهما لمعنيين فما هما؟ احتملا وجوهاً.

(الأول) أن يكون التعليم لأمور الدين من الواجبات وغيرها، يشهد لهذا قوله عليه السلام (علموا ويسروا)[1]. ويكون الأدب بتهذيب الطباع، وحسن الخلق في التصرف والمعاملات، والزجر عن المكروهات في الأقوال والأفعال، وتعليم مكارم الأخلاق. يشهد لهذا قوله عليه السلام (لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق بصاع طعام)[2].

وأما الحسن في التعليم فهو ما أشار، عليه السلام، إليه في الحديث آنفاً من التيسير، هو حسن الإلقاء وترك الشواذ من التشديدات والرخص. ولهذا أشار مالك، رحمه الله، حيث قال خرجت من عند الخليفة فقيهاً، لأنه لما أن أراد أن يؤلف كتاب المُوَطَّأ قال له الخليفة: تجنَّبْ شدائدَ ابن عمر، ورُخَصَ ابنِ عباس. وإلى المعنى الأول أشار العلماء بقولهم (وتتواضعون لمن تتعلّمون منه وتتواضعون لمن تعلّمونه)، ويكفي في ذلك شاهداً قوله عليه السلام (يسروا ولا تعسروا).

وأما الحسن في الأدب فهو أن يحملها برفق دون عنف، لقوله عليه السلام (ما كان الرِّفق في شيءٍ إلاّ زانَه، ولا كان الخُرْق في شيءٍ إلا شَانَه)[3].

(الثاني) أن يكون التعليم المراد به ما تحتاج الأَمَة إليه من أشغال البيت، وحفظ متاع البيت والمال، وحسن الأمانة في ذلك، لأنه غالب المقصود من الإماء، وبقدر تحصيل الأمة لهذا يُتنافس في ثمنها. ويكون الإحسان في التعليم على هذا التوجيه إتقان كل شغل بحسب العادة فيه، لقوله عليه السلام (رحم الله امرأ صنع شيئاً فأتقنه)[4]. ويكون الأدب حملها على رياضة النفس وأحكام الشريعة، لقوله عليه السلام (أدَّبني ربي فأحسَنَ تأديبي)[5]. والذي أُدِّب به، عليه السلام، ما مُنَّ عليه من حسن الخلق، واتباع الأمر والنهي. وقد قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلقه فقالت (كان خلقه القرآن)[6]. ويكون الحسن في الأدب على هذا التوجيه حملها في ذلك على إيضاح السنَّة.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما. وتمام الحديث: ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت.

(٢) رواه الترمذي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه. وليس فيه كلمة (طعام).

(٣) رواه الضياء في المختارة عن أنس والبخاري عن شعبة رضي الله عنه قال: كنت على بعير فيه صعوبة فقال النبي ﷺ: عليك بالرفق فإنه لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه. ورواية ابن أبي جمرة هي ما رواه الضياء عن أنس رضي الله عنه.

(٤) في هذا المعنى روى البيهقي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

(٥) تقدم تخريجه في الحديث (١٢٨).

(٦) رواه مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(الثالث) أن يكون التعليم فيما تحتاج إليه المرأة في نفسها، لأن النساء يحتجن إلى أشياء تخصّهن، والأَمة لا والدة لها ولا والدَ حتى يعلّماها ذلك، فقام مقام الأم في تعليم ذلك وتبيينه، ويكون الأدب هنا ما تحتاج المرأة من الأدب مع الزوج أو السيد إن كانت للفراش، لأن ذلك سبب لرفع منزلتها وحظوتها عند السيّد أو الزوج إن تزوجت، ويكون الإحسان في هاتين: التواضع لها، والإغضاء عن العيوب التي في البشرية. وقد يحتمل أن يكون المراد بالتعليم والأدب جميع ما ذكر وأكثر من ذلك، لأنه، عليه السلام، أوتي جوامع الكلم[١].

الوجه الثالث من البحث الأول: تقديمه، عليه السلام، الأَمة على المؤمن، والمؤمن على العبد. ما الحكمة في ذلك، وإن كانت (الواو) لا تعطي الترتيب في لسان العرب، لكن الحكيم لا يقدم شيئاً عبثاً؟ ومثل ذلك قوله تعالى في الكفّارات ﴿ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[٢] فأتى عزّ وجلّ بـ (أو) التي هي للتخيير، توسعة على المكلَّف ورفقاً به. وعلى مقتضى الحكمة في الترتيب ابتدأ أولاً ببذل المال الذي هو أشد على النفوس، ثم جعل بذله في أعلى القُرَب وهو الإطعام الذي به حياة النفوس، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[٣] فإن عدم هذا الوجه فيكون بذله في دفع الأذى وهي الكسوة التي بها يتقى أذى الحر والبرد. فإن عدم هذا الوجه ففي إدخال السرور وهو رفع الحال من مقام العبودية إلى مقام الحرية. فإن عدم هذا الوجه فمجاهدة النفس وهو الصوم.

يشهد لما ذكرناه ـ من أن الإنفاق أشد الأمور على النفس وأعلاها قربة ـ الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[٤] والمال أكثر تعلقاً بالقلب مما ذكر بعده، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾[٥] فقدم الإنفاق أيضاً. وأما السنة فقوله عليه السلام (لا يخرج أحدكم صدقةً حتى يَفُكَّ لَحْيَي سبعينَ شيطانا)[٦].

وإلى ما نحن بسبيله أشار، عليه السلام، في الصفا والمَرْوَة حيث قال (نبدأ بما بدأ الله

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ومَطلعه: نُصِرتُ بالرعب، وأُعطيتُ جوامع الكَلِمِ.
(٢) سورة المائدة، من الآية ٨٩.
(٣) سورة المائدة، من الآية ٣٢.
(٤) سورة آل عمران، من الآية ٩٢.
(٥) سورة آل عمران، من الآية ١٣٤.
(٦) سبق تخريجه في الحديث ١٢٧.

به)[1]. والواو من جهة التكليف لا تفيد الترتيب. فاختار، عليه السلام، فيما خُيّر فيه من جهة التكليف ما اقتضته الحكمة في التقديم لحكمة الحكيم، وموافقة اللفظ للقرآن. فإذا كان الكتاب على ما قررناه فالحديث كذلك أيضاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[2] فكلاهما صادر عن حكمة حكيم. فينبغي أن تكون الأُمّة مع ألفاظ القرآن والحديث كذلك، ينظرون من طريق الحكمة ما تقتضي. وإلى هذا المعنى أشار عليه السلام بقوله (لكل آية ظَهر وبطن، ولكل حرف حَدٌّ ومطلع)[3]. فالظاهر هو اللفظ، والباطن هو المعنى، والحَدّ هو التحليل والتحريم، والمَطلع هو ما نحن بسبيله من النظر بمقتضى الحكمة في هذا النوع وغيره من أنواع ما تحتوي عليه الحكمة.

ثم نرجع الآن إلى الانفصال عن الحديث، والانفصال عنه بما قد ذكرناه آنفاً من العلة المنفردة فيه للتعدي، وهو جمعه ثلاثة أشياء، وهي ترجع لشيئين على ما تقدم، وهما: بذل ما أحبت النفس لله، ومجاهدتها في ترك حظها لما يرضي الله.

وأما تقديم المؤمن على العبد فهو من باب تقديم الأصل على الفرع، لأن مجاهدة النفس فرع عن الإيمان، والإيمان هو الأصل فقدم، عليه السلام، الأصل على الفرع لأن ذلك هو مقتضى الحكمة.

الوجه الرابع من البحث المتقدم: قوله عليه السلام: (الرجل تكون له الأَمَة) يَرِد عليه سؤال وهو أن يقال: لِمَ قال تكون له الأَمة، ولم يقل اشتراها أو غير ذلك من الألفاظ؟ (والجواب) عنه أن هذا لفظ يحوي جميع أنواع التمليك، وغيره لا ينوب عنه، لأنه جمع بذلك جميع ما يتملك الأَمَةَ به من ميراث وشراء وهبة وسبي وغير ذلك، وهذا أدل دليل على فصاحته عليه السلام، لأنه قد جمع في هذا الحديث الإخبار بعظيم الأجور إرشاداً إلى الخير، وأشار إلى الحكمة تنبيهاً عليها، وأبدى ما منّ الله تعالى به عليه من البيان والفصاحة.

أعاد الله علينا من بركته ورزقنا اتباع سنته. إنه ولي حميد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الإمامان مالك وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن جابر رضي الله عنه.

(٢) سورة النجم، من الآية ٣.

(٣) رواه أبو يَعْلَى في مسنده رقم ٥١٤٩ وصحّحه ابن حِبّان رقم ٧٥، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٥٢ وقال: رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط باختصار آخره، ورجال أحدهما ثقات.

ـ ١٥٠ ـ

حديث النهي عن قتل النساء والصبيان في دار الحرب

عَن ابنِ عُمَرَ، رَضِيَ الله عَنهُمَا: نَهى رَسُولُ الله ﷺ عَن قَتلِ النِّساءِ والصِّبيانِ.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على أن قتل النساء والصبيان لا يجوز، لكن هل النهي على العموم أم لا؟ محتمل. والأظهر أنه ليس على العموم، لأن المَعْنِيَّ به (في غزو المشركين بعد القدرة عليهم). وهذا بقيد، وهو: أن يكون النساء والصبيان لم يقاتلوا حين الحرب. فإن قاتلوا فقتلُهم جائز. هذا في حال القدرة عليهم. وأما حين الحرب ورميهم بالنبل والمجانيق فلا يتوقى ما أصيب منهم إذا كان بغير تعمد، ولا يدخل قاتلهم تحت النهي، لقوله عليه السلام في هذه الحالة (هم من آبائهم).

ثم هذا النهي هل هو لعلة أم لا؟ الظاهر أنه لعلة أن النساء والصبيان من جملة الغنائم، ولم يدخل بهم ضرر على المسلمين في حين حربهم.

ثم هذه العلة هل هي متعدية أم لا؟ فإن قلنا بأنها غير متعدية فلا بحث. وإن قلنا: إنها متعدية ـ وهو الظاهر، لأنه اللائق بكلام الشارع، عليه السلام، الذي أوتي جوامع الكلم ـ فحيثما وُجِد من كلامه حكم وفُهِمت له علة، أو حيثما وُجِدت تلك العلة يكون الحكم مَنوطاً بها. والعلة في الحديث ما ذكرنا، وهو ما حصل للمسلمين من الفائدة في غنيمة النساء والصبيان من غير ضرر لحقهم، كما تقدم. فحيثما وجدنا فائدة لم يتعلق بها ضرر في الدين وجب استعمالها. وإنما قلنا: أن تكون لم يتعلق بها ضرر، لأن أكبر الضرر في الدين مقاتلة المشركين للمؤمنين، وقتالهم يهدف إلى إطفاء نور الله تعالى، والنساء والصبيان لم يقاتلوا فلم يدخل من قِبَلِهم ضرَر، فكانت فائدة بغير ضرر في الدين.

ثم هذه العلة هل يتعدى الحكم بها للباطن أم لا؟ الظاهر تعديها على البحث الذي قدمناه، لأن أهل الباطن والظاهر من بحره، عليه السلام، اغترفوا، كل منهم على مقتضى طريقه ﴿قَدْ عَلِمَ

﴿كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[1] فتعديها للباطن هو أن تُعرَف تلك العلة في الباطن كما عُرِفت في الظاهر. فالمرأة في الباطن كناية عن الدنيا لأنها من زينتها، والصبيان كناية عن الهوى لأنه مثلهم في مخالفة العقل وغلبة الشهوة، والصبيّ يوصف بعدم العقل واتباع المُزدِيات وهي صفة الهوى. فإن تعلق القلب بواحد منهما، دون ضرر في الدين، جاز استعماله على مقتضى العلة. فمثال تعلقه بالدنيا هو مثل أخذ شيء حلال لإحياء رمق يستعان به على طاعة، ولم يقع فيه خلل بلسان العلم، ولم يكن تعلق القلب به يمنعه من أداء الأعمال والحضور فيها. فهذا جائز، ولا يضر اتباع النفس والهوى فيه.

ومثل هذا كانت أفعال الصحابة، رضوان الله عليهم، مثل علي رضي الله عنه، حيث كان يقول لأهله اعملوا الطعام مشروباً فإن بين المأكول والمشروب كذا وكذا آية[2] فلم يكن نظره للطعام للشهوة، وكان تقليله الطعام لزيادة القرب وترجيح زيادة العبادة، لأن تعلق القلب بالشهوة الباعثة في المطعم وغيره من المباحات، وإن كان جائزاً على لسان العلم، فهو ممنوع عند أهل الباطن. فوجب قتله عندهم، وقتله هو تركه، لأنهم يقولون: **ترك الشهوات قرع الباب، وترك الحظوظ رفع الحجاب.**

ولهذا المعنى كان عمر، رضي الله عنه، يقول: إني لأتزوج النساء وما لي إليهن حاجة، وأطأهن وما لي إليهن شهوة. فقيل له: ولمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رجاء أن يخرج الله من ظهري ما يَكثُر به محمّد الأمم يوم القيامة. وإن كانت الشهوة في النكاح والوصول إليها جائزة على لسان العلم ومأجور صاحبها، لأنه، عليه السلام، قد قال في حديث تعداد الأجور للمؤمنين (يُؤجَر المؤمن حتى في بُضعِهِ لامرأته. فقيل: كيف يا رسول الله ينال أحدنا شهوته ويكون فيها مأجوراً؟ قال: أرأيت لو وضعها في الحرام أكان يكون مأثوماً؟ قيل: نعم. قال: كذلك إذا وضعها في الحلال يكون مأجوراً)[3] أو كما قال عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٦٠.

(٢) لعله يشير إلى قوله تعالى في سورة الإنسان ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

(٣) هو معنى لحديث أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن أناساً من أصحاب النبيّ ﷺ قالوا للنبي ﷺ يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور، يُصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تَصدَّقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وَضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضَعها في الحلال كان له أجر.

وقد طلّق عمر رضي الله عنه إحدى نسائه فقيل له: لم طلّقتها، وهي من أجمل نسائه، وأثني عليها بأنواع الخير؟ فقال: أعرف فيها أكثر مما تقولون، ولكن مال قلبي إليها، فخشيت أن تشغلني به عما يلزمني من أمور المسلمين ففارقتها. فهكذا هم أرباب القلوب إذا كانت الأمور جارية على لسان العلم، وكان فيها بعض شغل عن توفية آداب الشريعة والحضور في التعبدات، تركوها لأن ما طلبوا أجلّ، لأن من علم ما طلب هان عليه ما ترك. فما يكون لهم من هذه الخواطر والشهوات فهو من النوع الذي يُقتَل، وقتله هو دفعه.

وقد قال عزّ وجلّ في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] والطائف هو الخاطر الذي يخطر من إغواء الشيطان. وقد قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها حين سألته عن الرجل يلتفت في صلاته فقال: (تلك خُلْسة يختلسها الشيطان من صلاة أَحَدِكم)[2]. وقال عليه السلام: (إن الله لا يقبل عمل امرىءٍ حتى يكون قلبُه مع جوارحه)[3] ولا يكون القلب مع الجوارح إلا بدوام الحضور دون حديث نفس أو خطرة من شيطان أو هوى.

ولهذا المعنى قال بعض الصحابة: لا أحب أن يكون لي دكان على باب المسجد، لا تفوتني صلاة مع الجماعة، أربح فيه كل يوم ديناراً أتصدق به في سبيل الله لا أوثر ذلك على الفقر. وإنما قال ذلك لأنه يشتغل بالبيع والشراء والأخذ والعطاء عن الحضور والذكر. والفقير ليس له شغل غير التعبد والحضور.

وأما صفة تعلق خطرات الهوى فهو مثل أن يكون هواه مما يوافق قربة، فيفعل هو القربة ولا يبالي بموافقة الهوى، لأن الهوى كان سبباً للغنيمة، وهي غنيمة الأجر الذي حصل في ذلك الفعل. وما كان سبباً لشيءٍ فهو مثله، فهو إذ ذاك غنيمة. فلهذا المعنى قال عليه السلام: (من سعادة المرء أن تكون شهوته فيما يُرضِي ربه) أو كما قال. ومثل ما نحن بسبيله الأضحية لأنها قربة، وفيها الأكل والعطاء والتمتع والادخار، ومثل هذه الخصال هي التي تحضّ عليها النفس والهوى، فيكون المرء في ذلك مأجوراً، وإن كانت النفس والهوى يريدان ذلك. وهذا إذا قصد بها السنة، وأما إذا لم يقصد ذلك وقصد بها مباهاة وفخراً فهو من النوع الذي يقتل، لأنه ضرر في الدين. وقتله تركه، لأن قتل النساء والصبيان إعدام لهم، وترك هذا هو إعدامه، فيناط الحكم بالعلة حيث وجدت، كما ذكرنا.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

(٢) رواه الشيخان من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) تقدم تخريجه في الحديث (٢٠).

ومن ذلك أيضاً لبس الثياب والطيب والزينة في الأعياد والجمع إذا قصد السنّة، ويكون في ذلك مأجوراً، لأن فيه أيضاً راحة النفس وحظها وتنعمها، ومع ذلك فله الأجر في فعله ذلك، ومثل هذا كثير. والكل مثل الأول إن كان لامتثال السنة، فالأجر فيه حاصل، ولا يضر تعلق النفس والهوى بذلك، وإن كان لشهوة أو لحظٍ فالحكم كما تقدم. وعلى هذا فَقِسْ.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ١٥١ ـ

حديث النهي عن التعذيب بالنار

عَن أبي هُريرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: إنّي أمرتُكم أن تحرقوا فُلاناً وفُلاناً، وإنَّ النّـارَ لا يُعَذِّبُ بِها إلا الله عَزَّ وجَلَّ، فإن وَجَدتُموهما فاقتُلوهُما.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن العقاب والحدود لا تكون بالحرق، وإنما تكون بغيره، وإن كان قد ورد عن أبي بكر، رضي الله عنه، أنه أحرق لوطياً، لكن كان ذلك منه مرة واحدة ولم يفعله بعد، ولعله فعل ذلك لعدم بلوغ الحديث إليه، ورجع عنه ببلوغه إليه. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أنه يجوز للمجتهد، إذا حكم بحكم ثم ظهر له غير ما اجتهد فيه، أن ينزع عن اجتهاده ذلك إلى غيره إذا كان الحكم باقياً لم يمضِ، لأن النبيّ ﷺ قد كان أمر بحرق هذين، ثم نزع عن ذلك وقال: (فإن وجدتموهما فاقتلوهما).

الوجه الثاني: أن المجتهد إذا حكم بحكم ثم ظهر له غيره أن يذكر العلة الموجبة لتغيير الحكم، لأن النبيّ ﷺ بيّن العذر الذي لأجله رجع بقوله عليه السلام: (إن النار لا يعذب بها إلا الله).

الوجه الثالث: جواز النيابة في الأحكام، لأن النبيّ ﷺ أمر بقتل هذين ولم يأمر بأن يؤتى إليه بهما.

الوجه الرابع: أن مَن سَبَّ الله، عزّ وجلّ، ورسوله ﷺ قتل ولم يُستَتَب، لأن فلاناً وفلاناً المذكورين في الحديث قد سُمِّيا في حديث غير هذا. وقيل كان سبب ذلك أنهما كانا يؤذيان الله ورسوله.

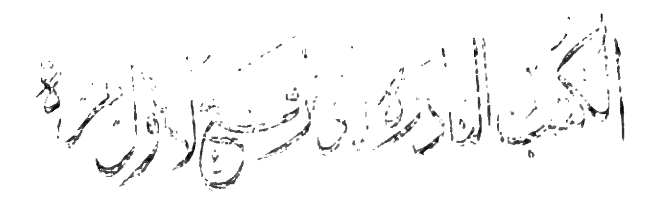
الوجه الخامس: أن إطالة الزمان لا ترفع العقاب، لأن النبيّ ﷺ أمر بقتل هذين حين رجا القدرة عليهما، وقَبِلَ ذلك حين كانت الإذاية[١] منهما صادرة، ولَوْ لَمْ ترج القدرة للمسلمين عليهما، لم يأمر فيهما بشيء.

---

(١) أي: الأذيّة.

ويترتب على هذا من التنبيه أن من وقع في شيء يوجب العقاب، فستر الله، عزّ وجلّ، عليه وأسبغ نِعَمَه وأمهله، فلا يَغتَرّ بذلك ويَدومُ على المخالفة، ويقول: أرجو العفو لما ظهر من صفة الرحمة من دوام الستر وإدراز النعم. وليبادر إلى التوبة والإقلاع قبل مفاجأة المنايا أو النقم، لأن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه العزيز ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾[1] وقال ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[2] والغَرور هو الشيطان. والغُرور - بضم الغين - هو ما يلقيه من تسويلاته وتخيلاته، من ترك الخوف والطمأنينة بما أظهر عزّ وجلّ من إمهاله وإدرار إنعامه. قال النبيّ ﷺ (إن الله يُمهل الظالمَ حتى إذا أخذه لم يفلته)[3]. والتنبيه هنا لكل نوع من نوعه، لأهل الظاهر من تنوعهم، ولأهل الباطن بمشربهم. فتنبَّهْ إن كنت لبيباً. وما يتذكر إلا من ينيب. والله حسبنا وكفى.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



---

(١) سورة الشعراء، من ٢٠٥ إلى ٢٠٧.

(٢) سورة لقمان، من الآية ٣٢ وسورة فاطر، من الآية ٥.

(٣) متفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه بلفظ: إن الله لَيُملِي للظالم إلخ.

ـ ١٥٢ ـ

حديث قتل الكافر والمرتدّ وإن التجأ إلى الحرم

عَن أنسِ بن مالِكٍ، رَضيَ الله عَنهُ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ عام الفتح وعلى رأسه المِغفَر[١]، فَلمّا نَزَعَهُ جاء رَجُل فَقالَ: يا رَسُولَ الله، إنَّ ابنَ خَطَلٍ[٢] مُتعَلِّق بأستار الكعبة فَقالَ: اقتُلوهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن الحَرَم لا يجير من الحدود. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله (دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر) إنما أبهم الفتح ولم يبيّن أي فتح كان للعلم به وشهرته، وللقرينة التي قارنته في الحديث تبيّن أي فتح كان، وهو من الفصيح في الكلام: حذف الألفاظ للعلم بالمعنى.

وفيه دليل لمن ذهب من الفقهاء أن مكة دُخِلت عنوة، لأن المِغفر من السلاح الذي لا يُتخذ عند الأمن، وأيضاً فلو كان دخوله لها صلحاً لم يكن ابن خطل ليهرب منه ويستجير بالحرم، إذ إن الصلح مجير له، ولم يكن النبيّ ﷺ ليأمر بقتله وهو قد صالحهم. وقد جاء بالنص ما يردّ قول من ذهب إلى أن دخولها كان صلحاً، وهو قوله عليه السلام: (أُحِلَّت لي ساعةً من نهار، ولم تحلّ لأحد قبلي ولا لأحدٍ بعدي)[٣]. وهذا نص في موضع الخلاف.

الوجه الثاني: جواز لبس السلاح في حال الإحرام، إذا كان ذلك لضرورة مثل الخوف من اللصوص وما أشبهه، لأن النبيّ ﷺ لبس السلاح في حال إحرامه لضرورة القتال.

الوجه الثالث: لبسه، عليه السلام، للسلاح فيه دليل على أن من بلغ في الحقيقة والتوحيد

---

(١) المِغفَر: زَرَد يُنسَج من الدروع على قدر الرأس، يُلبَس تحت القَلَنسُوة. جمع: مغافر.

(٢) ابن خَطَل: اسمه عبد العزّى، قتله سعيد بن حُرَيث: وسبب قتله أنه كان أسلم فارتدّ، وكانت له قَينَتَان تغنّيان بهجاء المسلمين، وكان قتله يوم فتح مكة.

(٣) تقدم تخريجه في الحديث (١٢٣) وأوله: إن الله حبس عن مكة الفيل.

المنتهى فالخطاب له بامتثال الحكمة لم يزل، لأن النبيّ ﷺ أرفع الناس منزلة في الحقيقة، ومع أنه قد وعده الله، عزّ وجلّ، بالنصرة والعصمة فقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] لكن مع هذا كله لم يترك عن امتثال الحكمة في كل أجزاء أعماله، مثل ما نحن بسبيله من لبس السلاح وغيره. يوفي في الظاهر من طريق الحكمة المجهود، وفي الباطن ما يجب من التوحيد برد الحَوْل والقوة لله والخروج عن رؤية أعماله.

الوجه الرابع: أن الحدود لا تجب إلا بإذن من الإمام، لأن من أبصر هذا الرجل متعلقاً بأستار الكعبة لم يقتله حتى استأذن النبيّ ﷺ فيه، ولأنْ بحضور الإمام لا يجوز الحكم لغيره، وإن علم مقتضاه.

الوجه الخامس: جواز النيابة في الأحكام والحدود، لأن النبيّ ﷺ أمر بقتله، ولم يأمر بإحضاره بين يديه.

الوجه السادس: أن الرعية لا يجوز لهم أن يخفوا عن راعيهم شيئاً من أمورهم، ولا يفعلوا شيئاً حتى يشير به عليهم، لأن هذا الصحابي، رضي الله عنه، لم يكتم شأن ابن خطَل حين رآه، وما وسعه إلا أن يخبر النبيّ ﷺ. فكذلك جميع الرعاة يجب عليهم ألاّ يخفوا من أمورهم شيئاً عن راعيهم إذا كان عدلاً، لأن إخبارهم له بذلك عليه تترتب مصالحه ومصالحهم. وقد قال عليه السلام: (الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين ولخاصتهم وعامتهم)[2]. والإخبار له بما لا يعلم من باب النصيحة.

ثم هذا الوجه يحتاج فيه إلى (بحث) وهو أنه: هل تتعدى علته أم لا؟

فعلى القول بأنها غير متعدية فلا بحث. وعلى القول بأنها متعدية ـ وهو الأظهر ـ لما بينّاه في الأحاديث قَبْلُ، لكثرة الفوائد في كلام الشارع، عليه السلام، ولأنه، عليه السلام، قد قال: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته)، فيجب على كل من كان مسترعىً أن يخبر راعيه بأجزاء أموره حتى لا يكون منه فعل إلا بأمر راعيه ومشورته. وكل أحد بالنسبة إلى حالة راعيه، فالسيد في قومه راعٍ

---

(١) سورة المائدة، من الآية ٦٧.

(٢) أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وأبو عوانة وابن خزيمة وابن حبان والبغوي والبارودي وابن قانع والبيهقي وأبو نعيم عن تميم الداري وأخرج الترمذي وقال حديث حسن والنسائي والدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس وابن عساكر عن ثوبان رضي الله عنهم أن النبيّ ﷺ قال: إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

عليهم، والرجل في بيته كذلك، ومن كان عَرِياً عن القبيلة والأهل فهو أقل وظيفة من غيره، لأنه لم يبق عليه غير وظيفة الجوارح وهي مسترعاة إلى النظر فيها بالعقل والشرع. هذا في حكم الظاهر.

وكذلك يجب أيضاً في المعاني، وهو حكم الباطن. وهو ما يخطر من الخواطر النفسانية والشيطانية والهوائية فكلها مسترعاة، وراعيها هو العقل. والحاكم على الجميع هو الشرع. فإذا خطر للمرء خاطر أو وقع له واقع فليعرضه أولاً على العقل. والعقل إذ ذاك ينفذ بمقتضى الأمر والحكمة، فإن كان فيه مصلحة أجازه وإلا منعه. وإن كان المرء ممن أمد بالتوفيق وكانت شهواته وخطراته في مرضاة ربه فهذه قاعدته أبداً، وليحذر من الغفلة عنها لأن بها قوام[1] أمره، لأنه إذا لم يكن على هذا الحال فقد تستفزه النفس في مرة ما وهو لم يشعر.

ومثل هذا ما حكي عن بعضهم حين لقي إبليس اللعين فسأله: هل قدر عليه قط أو نال منه شيئاً؟ فقال اللعين: نعم، ليلة أحضرتَ بين يديك عَشَاءك، فشهّيْتك الطعام حتى زدت فيه على العادة، فنمتَ بسبب ذلك عن وِردك. فقال: والله لا أشبع بعدها أبداً. فإذا كان المرء يستعمل نظره أبداً على القاعدة التي قررناها كان أكله ونومه ويقظته مضبوطاً بلسان العلم. وأيضاً فإنه بنفس نظره إلى تلك القاعدة كان له من الأجر ما لا يكون للصائم القائم الغافل عنها، لأنه لا يحمله على هذه المحاسبة والمراقبة إلا الخوف من الله عز وجلّ والإجلال له وقوة اليقين.

ولهذا المعنى كان بعض الفضلاء يقول: يحتاج العاقل أن يكون محاسباً ومراقباً. ومعنى المحاسب هو الذي يحاسب نفسه فيما مضى من عمره، فإن كان بقي عليه شيء فليخلص نفسه مادام في هذه الدار. والمراقبة هي مهما خطر له خاطر عرضه على العقل ونظره بلسان العلم، فما حسن منه فعل، وما قبح منه ترك ولم يفعل، وإلا كان كالتاجر ينفق ولا يعرف حتى يفلس. وقد قال عليه السلام: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا)[2].

ولأجل ترك النظر إلى هذه القاعدة أو الجهل بها وقع كثير من الخلل والفساد عند بعض المدعين للطريق المنتسبين إليه، لأنه يخطر لأحدهم التصرف في مرضاة نفسه، وما يشير به عليه هواه. وقد يسمع وسوسة من الشيطان، فيأخذ ذلك من حينه على الإطلاق، من غير أن يلحظ القاعدة التي قررناها، فيضل مع الضالين، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً فيقول: قيل لي، وقلت، وخطر لي، ووقع لي. وهيهات هيهات؛ ليس التعبد بالخواطر ولا بالشهوات، وإنما هو بالامتثال. والامتثال لا يتصور وجوده إلا مع العلم، والعلم قد شاء عزّ وجلّ وسبقت إرادته أنه لا يؤخذ إلا

---

(١) قِوام الأمر: نظام الأمر وعماده ومِلاكه.

(٢) من كلام عمر رضي الله عنه.

بالتعلم، لقوله عليه السلام: (إنما العلم بالتعلم)[1]. والمراد بهذا العلم هو علم النقل، وهو الأمر والنهي، لأنه لا يؤخذ بصفاء القلب ولا بغيره، وإن أخذ بصفاء القلب فلا يجوز التعبد به حتى يكون نقلاً، وإنما يكون بصفاء القلب العلم اللدني. ومع ذلك فالعلم المنقول لا بدّ منه فيه، لأن به يختبر صحته من سقمه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) قطعة من حديث أوله: يا أيها الناس إنما العلم بالتعلُّم، والفقه بالتفقُّه، إلخ.. رواه الطبراني في الكبير.

- ١٥٣ -

حديث رد فرس ابن عمر رضي الله عنهما إليه

عَنِ ابنِ عُمَرَ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: ذَهَبَ فرَس لَهُ فأخَذَهُ العَدوّ. فَظهَرَ عَلَيهِمُ المُسلِمونَ، فَرُدَّ عليهِ في زَمَنِ رَسولِ الله ﷺ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على رد الفرس لابن عمر رضي الله عنهما بعدما ملكه العدو. والكلام عليه من وجهين:

الوجه الأول: قوله (ذهب) يرد عليه سؤال وهو أن يُقال: لم قال (ذهب) ولم يأت بغيرها من الصِّيغ؟ الجواب عنه أنه إنما عدل عن ذكر غيرها إليها لأنها جامعة لأنواع طرق الذهاب، لأنك تقول: ذهب مال فلان، وقد يكون ذهابه بالسرقة، أو الإنفاق، أو النسيان، أو الغضب، إلى غير ذلك من وجوه الذهاب. و(ذهب) يدل على كل واحد منها على سواء، فهذا من الفصيح في الكلام.

الوجه الثاني: قوله (فرُدَّ عليه) فيه بحث وهو أنه: هل رُدَّ عليه من طريق إحسان النبيّ ﷺ إليه فهو كالنفل؟ أو رُدَّ عليه لأن حصوله بيد المشركين لم يُزِل مِلكَه عنه، وكان رده من طريق الوجوب؟ يحتمل الوجهين معاً. وقد اختلف العلماء هل المشركون يملكون أموال المسلمين أم لا؟ على قولين: فذهب قوم إلى الجواز مطلقاً، واحتجوا بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1] والاحتمال الذي في الحديث وهو كون الفرس رُدَّ على طريق النفل. وذهب قوم إلى المنع مطلقاً. وحجتهم الاحتمال الذي في الحديث، وهو كون الفرس رُدَّ على طريق المِلك، وبالقياس وهو أن المشركين لا يَحِل لهم ملك رقاب المسلمين، فأموالهم كذلك.

وفرَّق قوم فقالوا: لا يخلو أن يُدْرِبَ العدو بها[2] أوْ لا. فإن أدْرَبَ مَلَكَ، وإن لم يُدْرِب لم يَملِك. وهذا قول ثالث، وكأن صاحب هذا القول يرى أنهم ما لم يُدْرِبوا فصاحب الشيء لم ينقطع

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٢٨.

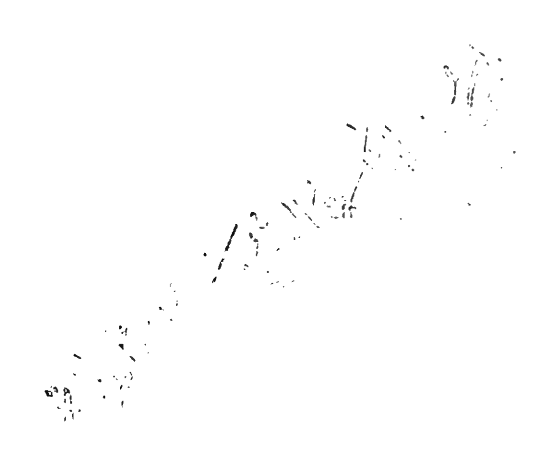
(٢) يدرب بها: يدخل بها بلاده.

رجاؤه منه، لأنه قد تعود الكرّة عليهم، فتؤخذ منهم، ويغنَمون أو يتركون ما أخذوا ويهربون. وأما إذا أدبروا فقد انقطع الرجاء من العودة عليهم. وهذا استحسان قول بين قولين.

والأظهر ـ والله أعلم ـ أن العدو لا يَملِك، بدليل الحديث والقياس. أما الحديث فأحد الاحتمالين المذكورين في الحديث الذي نحن بسبيله. ويرجحه على الوجه الآخر ما روي أن العدو غزا مرّة المدينة، وأخذ منها ناقة النبيّ ﷺ المسمّاة بالعضباء، وأُخِذت امرأة من المسلمين في الأسر في جملة ذلك. فلما جَنَّ عليها اللّيلُ قامت تريد الفرار بنفسها، فأرادت أن تركب ناقة تنجو عليها، فأتت تأخذ ناقة لتركبها فكل ناقة أو دابة تضع يدها عليها تنفر فتتركها وتذهب لغيرها، حتى أتت إلى العضباء، وكانت ذلولاً فلم تنفر، فركبتها وأتت بها إلى المدينة، ونذرت في طريقها أنها إن نجت عليها فسوف تنحرها وتهديها. فلما أتت المدينة رآها الناس فعرفوها، فأتوا بها إلى النبيّ ﷺ، فذكرت له القصة فقال لها عليه السلام: (لا نَذْرَ فيما لا يُملَك). ووجه الحجة فيه أنها لو أتت على ناقة كانت مِلكاً لمشركين قبل لم تؤخذ منها، فلما أن كانت مما غُنِم من المسلمين قال لها عليه السلام: (لا نذرَ فيما لا يُملك)[1] وأُخِذت منها.

وأما القياس فقد تقدم لصاحب هذا المذهب وهو أنهم لا يملكون الرقاب. وهذا يبين أن الاحتمال الذي في الحديث وهو كون الفرس ردَّ من طريق الملك أو الوجوب هو المراد، وهو الأظهر في الموضع. وفي هذين دليل واضح لا خفاء فيه أنهم لا يملكون الرقاب، فالأموال كذلك.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) جزء من حديث أوله: لا نذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم. أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

ـ ١٥٤ ـ
حديث أجر المجاهد في سبيل الله

عَن أبي هُريرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: تَـكفَّلَ اللهُ لمَن جاهد في سَبيلِهِ، لا يُخرِجُهُ إلاّ الجهادُ في سَبيلِهِ وتَصديقُ كلِماتِهِ، بأن يُدخِلَهُ الجَنَّة. أو يرجعهُ إلى مَسكَنِهِ الّذي خَرجَ مِنهُ مَعَ ما نالَ مِن أجرٍ أو غَنيمَةٍ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن من خرج إلى الجهاد بالنية المذكورة فيه فله أحد الوجهين المذكورين فيه، وهو أن يرجع بالأجر والغنيمة، أو يُستشهَد فيدخل الجنة ويكون فيها حياً يُرزق لقوله تعالى ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام: (تكفـل الله) معناه ضمِن الله، لأن الضمان له في اللغة سبعة أسماء، ومن جملتها الكفيل. والضمان من الله سبحانه ضمان إفضال لا ضمان وجوب. فإن معناه تأكيد التصديق بحصول الأجر الذي تفضل به على المجاهد في سبيله، لأن الوجوب في حقه تعالى مستحيل.

الوجه الثاني: قوله عليه السلام: (لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته) الجهاد في سبيل الله يحتمل وجوهاً، وأظهرها في هذا الموضع قتال العدو الذي هو الكافر. وكيفية النية فيه هو أن يخرج للغزو يريد به القتال في سبيل الله وإعلاء كلمته، لا يريد بذلك غير الله، ويَحتَسِب قَتْلَ نفسه إن قُتِل وكلَّ ما يلاقي من شدة الحروب وهَوْلِها في حق الله تعالى، لا لظهورٍ ولا لكسبِ دينار ولا لغير ذلك.

والتصديق على ضربين: تصديق بوجوبه ـ والوجوب على ضربين: فرض عين وفرض كفاية. وهو مذكور في الفقه ـ وتصديق بما جاء فيه من عموم الأجور والإحسان على مقتضى الآيات في الوجهين معاً.

---

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٦٩.

الوجه الثالث: هل تقصر هذه الأجور على الوجه الظاهر ـ وهو قتال العدو ـ أو تحمل على ما يقتضيه عموم الجهاد في طاعة الله تعالى، وهو الأظهر؟ كما ذهب إليه بعض الصحابة حيث قال لأخيه، حين لقيه في طريق المسجد وقد اغبرت قدماه فسأله: أغَيرُ الصلاة أخرجك؟ فقال: لا، لم أخرج لغيرها. فقال: شهدت على رسول الله ﷺ أنه قال: (ما اغبرّت قَدَما عبد في سبيل الله إلا حرّمهما الله على النار)[1] فقال له الرجل: ذلك خاص بالقتال؟ فقال الصحابي: أفعال الخير كلها في سبيل الله. وقد قال، عليه السلام، في الخارج إلى المسجد: (هو في ذمة الله، إن مات أدخله الله الجنة، وإن رجع إلى منزله كان كالمجاهد رجع بالأجر والغنيمة)[2]. وهذا نص في المسألة، فيجب تعديه في جميع وجوه البر، ويكون الأول منها أظهرها وأعلاها.

الوجه الرابع: هل يتعدى الحديث للجهاد المعنوي أم لا؟ أما ظاهر اللفظ فلا يؤخذ منه التعدي، لأنه ذكر في الجهاد الحسي. وأما على القاعدة التي قررناها في كلام الشارع، عليه السلام، بأنه محمول على كل الفوائد ـ إن أمكن ـ فهو متعد لا شك فيه، سيما[3] في هذا الموضع الذي قد نص، عليه السلام، أن الجهاد المعنوي أكبر من الحسي، وهو قوله عليه السلام: (هبطتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس)[4]. فإذا كان حكم يناط بعلة فحيثما وجدت العلة أنيط الحكم بها. فالدخول في الجهاد المعنوي يكون بتلك النيَّتَينِ المذكورَتينِ في الحديث، وهما: الجهاد في سبيل الله، والتصديق بكلماته. ولا يُعوَّل على العيش بعدها إلا إن قُدِّر له بذلك، لأن الراجع من أثناء الطريق لم تتم له صفقة. وتمام الصفقة هنا هو الموت على ما هو عليه من مجاهدة النفس في ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ولهذا المعنى لما أن جاء لبعضهم ثلاثة نَفَر[5] يطلبون منه التربية في السلوك فقال لأحدهم: كم تصبر؟ فعَدَّ له أياماً محصورة. فقال له الشيخ: ما يجيء منك شيء. ثم سأل الآخر فقال: أطيق أكثر منه. وعدَّ له الأيام، فقال له: ما يجيء منك شيء. ثم سأل الثالث فقال: أصبر حتى أموت. فقال له: ادخل. وقد قال بعض الفضلاء من أهل هذا الشأن: من صَدَق وصدَّق قُرِّبَ لا محالة.

وإنما يقع الخلل في الجهادَينِ معاً إذا كان الدخول لحظٍ دنيوي أوْ نفساني. ومن دخل بهذا

---

(١) تقدم تخريجه في الحديث ١٣٤.

(٢) في هذا المعنى روى أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: ثلاثة في ضمان الله عزّ وجلّ، رجل خرج إلى مسجد الله، ورجل خرج غازياً في سبيل الله، ورجل خرج حاجّاً.

(٣) كذا بحذف «لا».

(٤) تقدم تخريجه في الحديث «١٣٠».

(٥) النَّفر: من ثلاثة إلى عشرة من الرجال. والجمع: أنفار.

قصده في الحياة وهو يؤملها فقليل أن يقع النصر لمثل هذا، لأنه عند أقل شيء يرى من العدو يولي مدبِراً للطمع في الحياة. وأما إذا كانت النية ما أشرنا إليه فالخلل لا يدخل هناك. لأن من دخل بنية ألاّ يعيش فقلّما ينهزم، لأنه إذا عاين الموت لا يفر منه ويقول: هو المطلوب والمقصود. وأعظم ما في الجهادين من الوقائع: المَوْت. فإذا كانت أعظم الوقعات هي المقصودة، فكيف يولي عما هو أقل منها؟

ولهذا المعنى كان النبيّ ﷺ حين الجهاد يخطب الناس ويذكّرهم ويعلّمهم بما لهم فيه من الأجور مثل قوله عليه السلام: (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[1] ونفى بهذا دليله أن الله عز وجلّ جعل الفرار منه من الكبائر، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] وقد روي أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا بعد وفاة النبيّ ﷺ يسوّون صفوفهم ويذكّرون أصحابهم ويَعِظونهم، حتى كان بعضهم ينظر من هو أفصح في الكلام وأعلى صوتاً فيأمره بالمشي بين الصفوف، فيعِظ الناسَ ويذكرهم بما جاء في الجهاد. وكل هذا مندرج في ضمن قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾[3] وما ذكرناه وأوردناه من جملة التحريض.

وكذلك ينبغي في الجهاد الأكبر: إذا كان المرء عالماً بكيفيته، وبما كان فيه، فبها ونعمت، وإن لم يكن عالماً بذلك فليتخذ شيخاً يستند إليه عارفاً بذلك الشأن، حتى يبيّن له لسان العلم في جهاده ولسان الطريق وما يشترط فيه. ولأجل ترك النظر إلى هذه القاعدة كانت المجاهدة اليوم عند جلّ الناس لا تفيد شيئاً، لأجل أنهم يدخلون في المجاهدات جاهلين بها من الطريقين، وإن كان لأحدهم علم فيكون في الطريق الواحد ويترك الآخر. ومن حصل له العلم بالطريقين فهو المرجُوّ له الخير، وهو على طريق الهدى والتوفيق. فطوبى له ثم طوبى له.

ومن رُزق التوفيق ولم يكن له علم بهذين الطريقين يحتاج أن يبذل نفسه فيهما، لعله أن ينال منهما شيئاً أو من بركة أهليهما، وقد قال امرؤ القيس[4]:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود في الجهاد والترمذي في فضائل الجهاد كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) سورة الأنفال، الآية ١٦.

(٣) سورة الأنفال، من الآية ٦٥.

(٤) أشعار الشعراء الستة الجاهليين: اختيار الأعلم الشَّنْتَمري، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٥ صفحة ٦٧.

ومطلع القصيدة:

سَمَا لَكَ شَوقٌ بعد ما كان أقصَرَا　　　وحَلَّتْ سُلَيمى بطن قوٍّ فعرعرا

بكى صاحِبي لَمَّا رأى الدَّرْبَ دُونَهُ وأيقَنَ أنَّا لاحِقَانِ بقَيْصَرَا

فقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّما نُحاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فنُعْذَرَا

فإذا كان هذا في طلب مُلك الدنيا فكيف في طلب الآخرة؟ وقد قال عليّ رضي الله عنه: لو كانت الدنيا من فضة والآخرة من خزف، والدنيا فانية والآخرة باقية، لكان الواجب أن يُزهَد في الفانية وإن كانت من فضة، ويُرغَب في الآخرة وإن كانت من خزف. فكيف والأمر بضد ذلك؟

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ١٥٥ ـ
حديث جواز التحلل من اليمين المنعقدة

عَن أبي موسَى[١]، رَضي الله عَنهُ، قالَ: أتيتُ رَسولَ الله ﷺ في نَفَرٍ من الأشعريِّين نَستَحمِلهُ[٢]، فقالَ: وَالله لا أحمِلُكُم، وما عِندي ما أحمِلُكُم عَليهِ. وأُتي رسولُ الله ﷺ بنَهْبِ[٣] إبلٍ فَسألَ عَنّا. فقالَ: أينَ النَّفَرُ الأشعَريُّونَ؟ فأمرَ لنا بِخَمسِ[٤] ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرى[٥]. فَلمّا انطلَقنا قُلنا: ما صَنَعْنا؟ لا يُبارَكُ لَنا. فَرجعنا إلَيه فقُلنا: إنا سألناك أن تَحملنا فحلفت ألاّ تَحمِلَنا. أفَنسيتَ؟ قَالَ: لَستُ أنا حَملتُكُم، وَلكِنَّ الله حَمَلكُم. وإنّي، والله إن شاء الله، لا أحلِفُ على يَمينٍ فأرى غَيرَها خَيراً مِنها إلاَّ أتَيْتُ الّذي هُوَ خَيرٌ وَتَحلَّلتُها[٦].

* * *

ظاهر الحديث يدل على جواز التحلل من اليمين المنعقدة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله: (أتيت رسول الله ﷺ في نفر من الأشعريين) يَرِد عليه سؤالان:

(الأول) أن يُقال: لم قال (أتيت) ولم يقل (أتينا) وهم كانوا جماعة؟ فعدل عن اللفظ الحقيقي إلى غيره مع الاحتياج إلى الزيادة في اللفظ، لأنه لو قال (أتينا) لم يحتج إلى ذكر النفر، فلما قال (أتيت) احتاج أن يبيّن مع من أتى، وهذا ينافي لغتهم وفصاحتهم لما فيه من الاختصار والإبلاغ؟
(الثاني) أن يُقال: لم سمّى النفر من أي قبيلة كانوا؟

(والجواب) عن الأول من وجهين:

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديثين ٦١ و١١٧.
(٢) نستحمله: نطلب منه أن يحملنا لنجاهد في سبيل الله.
(٣) نهب إبلٍ: إبل الغنيمة.
(٤) بخمس ذودٍ: أي بخمس من الذَّود. والذَّود: هو القطيع من الإبل بين الثلاثة إلى العشرة.
(٥) غُرُّ الذّرى: في أعالي أسنِمَتِها بياض.
(٦) تحلّلتها: كفَّرت عنها.

(الأول) أن أبا موسى، رضي الله عنه، هو سيّد الأشعريين ورئيسهم، وهو صاحب رأيهم ومدبّر أمرهم، لأن قبائل العرب كانوا لا يفعلون شيئاً حتى يسألوا فيه سيد قبيلتهم. فهو يخبر أنه كان السبب في مجيء الأشعريين إلى النبيّ ﷺ، وبرأيه ومشورته أتوا. فإن قال قائل: لو كان كذلك لقال: أتيتُ رسول الله ﷺ بنفر من الأشعريين. قيل له: إنما عدل عن تلك الصيغة لما نطق به تواضعاً منه لإخوانه الأشعريين، لأنه لو قال ذلك لكان في اللفظ ما يدل على جبرهم في المجيء. فلما ترك ذلك وأتى بـ(في) زال ذلك، وبقي هو مع إخوانه في اللفظ كأنه واحد منهم.

(الثاني) من الجواب يحتمل أن يكون خصّ ذكر نفسه دون غيره تبركاً منه باسم النبيّ ﷺ حتى يكون اسمه يلي الاسم المبارك. ومثل هذا كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يفعلون كثيراً تبركاً منهم بالاسم المرفع.

(والجواب) عن السؤال الثاني أنه إنما ذكر الأشعريين وعَيَّنهم لأن الجمع إذا أتى النبيّ ﷺ في هذا القدر، ويراجعهم ويرجعون إليه بهذا القدر من المحاولة التي ذكرت في الحديث، فلا يكون في الوقت إلا مشهوراً، فكان ذكر القبيلة وتعيينها قرينة لقوة التصديق. وهذا كان دأب الصحابة، رضوان الله عليهم، مثل عثمان، رضي الله عنه، حين أخبر عن حديث الوضوء وقال فيه: لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، فأشار إلى القرينة الدالة على التصديق مع أنه واحد ممن يؤخذ عنه الدين لقوله عليه السلام: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)[1].

ثم يرد (سؤال) أيضاً على قوله (نستحمله) وهو أن يُقال: لم قال (نستحمله) ولم يذكر فيما أرادوا والحملان منه؟ والجواب عنه: إنما سكت عن ذلك للعلم به للقرائن التي قارنته في الحديث يعلم بها أنه أراد الاستحمال في الجهاد، فحذف ذكر الجهاد إبلاغاً في الاختصار، وهو من الفصيح في الكلام.

الوجه الثاني من البحث المتقدم: قوله عليه السلام: (والله لا أحملكم وما عندي ما أحملكم عليه) ظاهر اللفظ يدل على جواز اليمين على ألا يفعل الإنسان فعلاً من أفعال البر إذا لم يقدر عليه، لأن حمل هؤلاء إلى الجهاد من أفعال البر، فحلف، عليه السلام، على ألا يحملهم، لكونه لم يقدر على ذلك. وقد بيّن، عليه السلام، العلة بقوله (وما عندي ما أحملكم عليه). وهذا معارض لقوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[2].

---

(١) قطعة من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وصحّحه الترمذي وابن حبّان.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٢٤.

والجمع بين الآية والحديث أن اليمين هنا ليس المراد منه ظاهر لفظه لما قارنه من القرائن التي دلت على بطلانه. وذلك ما عُلِم من حال النبيّ ﷺ أنه كان في أفعال البر يبذل المجهود. فكيف يقع منه يمين على هذه القربة العظمى ألا يفعلها؟ ذلك محال في حقه، عليه السلام. وإنما حلف، عليه السلام، لهم ليقطع مادة التشويش عنهم لتعلّق خاطرهم في الرجاء لعله يعطيهم فيما بعد. فكان يمينه عليه السلام رفعاً لهذا التشويش، وراحة لنفوسهم عند قطع الإياس. وكل ما كان سبباً لرفع تشويش فهو مستحب.

فإن قال قائل: فما فائدة قوله عليه السلام: (لا أحملكم وما عندي ما أحملكم عليه) وأحدهما يغني عن الآخر؟ قيل له: النبيّ ﷺ كان إذا جاء أحد يطلب منه إن كان عنده شيء أعطاه. وإن لم يكن عنده شيء يكلم أصحابه إن كان فيهم من يقدر على إعطائه شيئاً. فأتى، عليه السلام، بتينك اللفظتين ليقطع عنهم مادة التشويش مرة واحدة، حتى لا يبقى لهم تعلق خاطر بإعطائه ولا بكلامه لمن يقدر على أن يعطيهم. فقوله (وما عندي ما أحملكم عليه إشارة لهم بأنه ليس عنده ما يحملهم عليه. وقوله (لا أحملكم) إشارة بألاّ يتسبب لهم في ذلك.

لكن يرد على هذا (سؤال) وهو أن يقال: لم قطع عليه السلام، العادة التي كان يفعل لهؤلاء الأشعريّين دون غيرهم، وهو كونه إذا لم يكن عنده شيء نظر في أصحابه وتكلم لهم؟

(والجواب) عنه أنه قد يكون النبيّ ﷺ علم أن أصحابه ليس عندهم في ذلك الوقت شيء إلا قَدْر ما يقوم بحركتهم، ولا يفضل لهم على ذلك فضل حتى يعطوه غيرهم، وهم كانوا خارجين إلى الجهاد، فيحتاجون إلى القوة والشدة. فإن شاركهم غيرهم فيما عندهم قد[1] يضعفون عن القتال بسبب ذلك، سيما الصحابة رضوان الله عليهم. وقد كان قُوتُهم التمرة والتمرتين، فإذا شاركهم غيرهم في هذا النزر اليسير المعلوم فإنهم لا يطيقون القتال، لأن البشر لا بدّ له من شيءٍ ما يسدّ به رمقه.

وقد روي عن بعضهم أنه كان قوتهم في غزوة من الغزوات تمرة تمرة، ففرّق التمر فجاء أحدهم يأخذ تمرته، فقيل له: قد أخذتها. فغشي عليه فلم يفق حتى أعطيها وأكلها، فقام. فإذا كانوا على هذا الحال فالزائد عليهم ضرر بهم لا مصلحة في خروجه معهم، فترك، عليه السلام، الطلب لأصحابه لأجل هذا المعنى. والله أعلم.

الوجه الثالث من البحث المتقدم: قوله، عليه السلام (وأُتِي رسولُ الله ﷺ بنَهبِ إبل فسأل

---

(١) كذا، والصواب: فقد.

عن) النهب هو ما يؤخذ من أموال المشركين وهي الغنيمة التي يضرب عليها بالخيل والرَّجِلِ[1] فتؤخذ أموالهم وتنهب من أيديهم. وسؤاله، عليه السلام، عن النفر الأشعريين حين أتاه النهب دليل واضح على أنه ما أراد بيمينه إلا الوجه الذي ذكرناه، وهو رفع التشويش عنهم.

الوجه الرابع: قوله (فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ[2] الذُّرَى) الذود عند العرب هو الجمل الواحد، فهو أخبر أنه، عليه السلام، أعطاهم خمسة أبعرة. وغُرّ الذّرى: صفة للجمال وهو بياض يكون في أعلى أسنمتها، وإنما أتى بصفتهم[3] لأنها قرينة تذهب التهمة في النسيان والغلط، لأن من يذكر هذا القدر من الجزئيات فقد انتفت عنه التهمة في القضية بكل ممكن.

الوجه الخامس: قوله (فلما انطلقنا قلنا ما صنعنا)؟ فيه دليل على أن المرء إذا حصل له مراده يُسرّ بذلك في وقته حتى قد ينسى ما كان قبله من شدة فرحه به، لأن مراد هؤلاء الأشعريّين كان أن لو وجدوا إعانة للجهاد في سبيل الله وبين يدي رسوله ﷺ، فلما ظفروا بذلك شَغَلهم الفرح الذي دخل عليهم بالطاعة التي قالوها عن ذكر يمين النبيّ ﷺ. فلما أن سكن ذلك عنهم قليلاً ورجعوا إلى أنفسهم فحينئذ أُلهموا لذلك، فرجعوا إذ ذاك. وهذا أمر قلّ أن يثبت عنده إلا القليل النادر، ولا يحصل التثبت هناك إلا لمن داوم على محاسبة نفسه في كل أنفاسه، واستغرق في المراقبة حتى يذهل عن لذة الطاعة ولذيذ النعم، مع أن من وجد هذه اللذة بالطاعة حتى يذهل في الحين عن أموره لما توالى عليه من محبتها فهو مقام سَنِيّ، لكنّ ما أشرنا إليه أرفع وأعلى.

الوجه السادس: قولهم (لا يبارك لنا). هذه البركة التي خافوا من زوالها احتملت وجهين:

(الأول) أن يكونوا أرادوا بزوالها أنهم لا يبلغون بها ما أملوا.

(الثاني) أن يكونوا أرادوا لا يبارك لهم في أثمان تلك الجمال ولا في رقابها لكونهم لم يأخذوها على الوجه المَرْضِيّ، لأنه تعيَّن عليهم فيه النصح للنبيّ ﷺ لقوله، عليه السلام: (النصيحة لله ولرسوله)[4] وهم كانوا عالمين بيمين النبيّ ﷺ، فتعيَّن عليهم نصحه، فخافوا من زوال البركة

---

(١) الرَّجِل: اسم جمع للراجل، وهو عكس الفارس.

(٢) الذَّود: للقطيع من الإبل الثلاث إلى العشر، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر، وقيل إلى أكثر من ذلك. وقول بعضهم: الذود إلى الذود إبل يدل على أنها في موضع اثنتين لأن الثنتين إلى الثنتين جمع. وقال ﷺ: (ليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة) فقد جعل الناقة الواحدة ذوداً. وعلق أبو منصور على ذلك فقال: هو مثل قولهم: رأيت ثلاثة نفر وتسعة رهط وما أشبهه. قال اللغويون: الذَّوْد جمع لا واحد له من لفظه كالنَّعَم، وقال بعضهم: الذود واحد وجمع.

(٣) كذا، والصواب: بصفتها.

(٤) تقدم تخريجه في الحديث (١٥٢).

لأجل ما تعيّن عليهم بسببه فلم يفعلوه، لأن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يتوقّون أشياء حلالاً محضاً مخافة وقوعهم في الحرام، كما قال بعضهم: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام، لأن الحرام ترتفع منه البركة ظاهراً وباطناً.

أما الباطن فإنه يحدث الظلمة في القلب والقساوة. وأما الظاهر فإنه يحدث الكسل عن العبادة والامتهان بحقها، مع أن البركة ترتفع منه ارتفاعاً محسوساً، لأنه إذا كان الشيء حراماً ما يقوم بشيء يستعمله رجل واحد ولا يكفيه لزوال البركة منه وذهابها. وكذلك أيضاً في الضدّ، وهو الحلال، لا بد من ظهور البركة فيه محسوسة ومعنوية، وبالمحسوسة يستدل على المعنوية في كلا الطرفين، في الحلال والحرام. فإذا بورك في طعام وقام باثنين منه ما يقوم بالواحد علم أن البركة المعنوية حاصلة فيه بالضمن.

ولهذا المعنى لما أن وجد أبو بكر، رضي الله عنه، في الصحفة التي قدمها إلى الأضياف فأكلوا منها، وهي باقية على حالها لم تنقص، ثم أكل هو وأهل بيته وهي على حالها لم تنقص، أتى بها النبيّ ﷺ يُعْلِمه بتلك البركة المعنوية فيها بما شهد له ظاهرها، فاستدل بالحسي على المعنوي.

ولأجل هذا المعنى كان طعام أهل الخير والصلاح أبداً فيه من البركة ما ليس في غيره، لأجل أنهم يبحثون على الحلال أكثر من غيرهم، فكانت البركة لديهم ظاهرة وباطنة، فاستعانوا بذلك على العبادة والاستمرار عليها، وتنوَّرت بواطنهم، وقلّ تسبّبهم في أسباب الدنيا للبركة الحسية والمعنوية الموجودة في طعامهم.

الوجه السابع من البحث المتقدم: قوله (فرجعنا إليه فقلنا إنّا سألناك فحلفت ألاّ تحملنا أفنسيت)؟ فيه دليل على أن الشيء إذا كان فيه محتَمَلات وأحدها أبرأ للذمة فالسنة فيه أن يؤخذ بما هو الأبرأ للذمة، لأن عطية النبيّ ﷺ لهم الإبل تحتمل وجهين: (أحدهما) أن يكون أعطاهم ذلك مع علمه باليمين، (والثاني) أن يكون أعطاهم ناسياً له.

فإن كان الأول فليس عليهم فيه شيء، لأنه، عليه السلام، هو المشرع، وما يفعل إلا ما هو الأمر الذي يتدين به، لأن منه يُؤخذ الدِّين، وتُتلقّى الأحكام. وإن كان الثاني فليس عليه أيضاً فيه شيء، لقوله، عليه السلام (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)[1]. لكن يتعيّن عليهم في ذلك النصح، لأنهم سمعوه حين حلف، وهم الآن ذاكرون لذلك، قادرون على زواله إن كان نسياناً، فخافوا من أحد المحتملات فأخذوا بالأبرأ للذمة حتى أزالوا ما كان هناك من الشبهة، وعلموا وجه الصواب في المسألة. والشبهة هناك ما أشرنا إليها، وهي تركهم النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تقدم تخريجه في الحديث (٨٣).

الوجه الثامن: قوله، عليه السلام، (لست أنا حملتكم ولكن الله حملكم) فيه دليل على أن المرء ينظر في عمله الصالح بنظر الحقيقة والتوحيد، فكل ما يصدر منه من أنواع الخير يرى أن الله تعالى هو الفاعل لذلك حقيقة، ومنَّ عليه وتفضل بأن اظهر ذلك وأجراه على لسانه أو يديه، لأن النبيّ ﷺ لما أن أجرى الله تعالى هذا الخير على يديه ـ وهو حمل الأشعريين إلى الغزو ـ تبرأ من فعله ذلك ونسب حملهم إلى الله تعالى لا لنفسه المكرمة وتدبيره.

وكذلك أيضاً يجب أن ينظر بالعكس عند ترك الأعمال أو وقوع المخالفة وكل ما فيه نقص، ينسب كل هذا وما أشبهه إلى النفس، وينظر إذ ذاك من طريق التكليف والأمر، لأن النبيّ ﷺ لما أن امتنع من حمل الأشعريين نسب الامتناع لنفسه المكرمة فقال: (والله لا أحملكم) ولم يقل لهم: الله منعكم من الحمل لأنه ما أعطاني ما أحملكم عليه. وهذا من التأدب مع الربوبية، والتعمق في ميدان الحقيقة والتوحيد مع النظر بالحكمة والتكليف. فمن كانت قاعدته هذه فهو السعيد، لأن وجود هذه الخصلة عَلَم على التوفيق.

يدل على ذلك قصة آدم، عليه السلام، لما أن يسر للسعادة نظر إلى هذه القاعدة فسلك هذا المنهاج، فنسب الخطيئة التي وقعت منه لنفسه فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[1] فتاب الله عليه وجعله من أصفيائه. ومن كانت قاعدته عكس ما قررناه، أو كان نظره في كل أموره بغير نظر التوحيد، فذلك عَلَم على شقائه وخسرانه، لأن وجود هذه الخصلة يدل على ذلك.

يشهد لذلك قصة إبليس اللعين، لما أن يُسِّر للبعد والشقاء والطرد والخذلان حين امتنع من السجود لم يعترف بعد ذلك على نفسه بالخطأ، وإنما نظر إلى الحقيقة فقال: لو شاء الله أن أسجد لسجدت. فكان ذلك سبباً إلى خذلانه.

الوجه التاسع: قوله عليه السلام (وإنّي، والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأَرى غيرَها خيراً منها إلا أتيتُ الذي هو خيرٌ وتحلَّلتها) فيه دليل على جواز التحلل من اليمين. وقد تقدم.

وقد اختلف الفقهاء: هل الكفارة تكون قبل الحِنْث عند العزم عليه أو لا تكون إلا بعد وقوعه؟ على قولين. وسبب الخلاف هذا الحديث، وما جاء في رواية أخرى أنه، عليه السلام، قال: (ثم تحلَّلتُ من يَميني)، فجاء فيما نحن بسبيله بـ (الواو) وهي ليست تفيد الترتيب، وأتى في الحديث الآخر بـ(ثم) التي تفيد أن الحِنث وقع قبل، لأنها للمهلة والتراخي. واستثناؤه، عليه

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٢٣.

السلام، هنا هو من باب التأدب مع الربوبية، لأن اليمين بغير استثناء قطع على القدر ألا ينفذ. وبهذا المعنى قال مالك، رحمه الله، لمن أخبره أنه وقف بعرفة وتاب وحلف أنه لا يقع في مخالفة أبداً، فقال له: بئسَ ما صنعتَ، ما وقعتَ فيه أشدُّ مما تبتَ منه، لأنك آليت على الله ألاّ ينفذ قضاءه وقَدَرُه. فكان استثناء النبيّ ﷺ لأجل هذا المعنى.

ولأجل النظر إلى ما أشرنا إليه ذهب ابن عباس، رضي الله عنهما، إلى أن الاستثناء يجوز ولو بعد سنين. فالاستثناء له سائغ، لأنه نظر أن اليمين بغير استثناء قطع على القدرة، وذلك قلة أدب واحترام بجانب الربوبية، وإن كانت الأيمان قد أُبيحت لنا في شرعتنا، لأن ذلك من باب الفسح والتوسعة. وقد كان عيسى عليه السلام، يقول لبني إسرائيل: «وأنا وصَيْتُكُمْ ألا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين». فجعل ابن عباس، رضي الله عنهما، الاستثناء في هذا اليمين إذا وقع كالتوبة من الذنب، والتوبة مرغَب فيها إلى وقت التعزير. فإذا كان استثناء المرء لأجل هذا المعنى - وهو الرجوع عما وقع منه من سوء الأدب - فاستثناؤه سائغ وهو يخرجه عمّا عقد من اليمين

وإنما ذهب، رضي الله عنه، إلى هذا لأجل أنه في خير القرون، فقلّ أن تقع اليمين من أحدهم، وإن وقعت فيكون رجوعهم للاستثناء لأجل هذا المعنى لا لشهوات أنفسهم. فلما استقرّ من أحوال أهل زمانه وما هم عليه كانت فتياه بهذا. ولأجل عدم هذا أنكر قوله من أتى بعده من الفقهاء ولم يعلموا له وجهاً في الغالب، لأن الناس قد تغيروا عما كانوا عليه. فمن العلماء من فهم معناه، ومنهم من لم يفهمه، ومن فهمه لم يقدر أن يبدي ذلك لأهل زمانه لأن الغالب عليهم تفضيل شهواتهم وتقديمها، فقد يدّعون أنهم أرادوا الوجه الذي ذكرناه، وهم لم يريدوا إلا شهوات أنفسهم واتباع أهوائهم، فكان ترك ذكر بيان مذهبه سداً للذريعة.

ولأجل هذا يقال: لا بد في كل زمان من عالم يبين الدين بحسب ما يحتاج إليه في الوقت. يؤيد هذا قوله عليه السلام: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيّ جاء بعده نبيّ. وإنه لا نبيَّ بعدي، وإن علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)[1].

---

(١) مؤلف من حديثين، الأول من قوله: كانت بنو إسرائيل إلى وإنه لا نبيّ بعدي. والثاني من قوله: وإن علماء أمتي إلى آخره.

أما الأول فمتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وأنه لا نبيّ بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعله الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم.

وأما الثاني فقد أورده الألباني في السلسلة الضعيفة ٦٦٦ والفتني في تذكرة الموضوعات ٢٠ وعلي القاري في الأسرار المرفوعة ٢٤٧ والعجلوني في كشف الخفا ٢/ ٨٣، والشوكاني في الفوائد المجموعة ٢٨٦ والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١١٣.

ثم اختلف الفقهاء اختلافاً كثيراً: متى ينفع الاستثناء؟ كل منهم ذهب إلى ما اتضح له عليه الدليل، ولكل واحد منهم نظر صحيح، ولولا التطويل لأوضحنا تصحيح مذاهبهم وبيّناها.

فإن قال قائل: لو كان الوجه في الاستثناء ما ذكرتم لم يصدر اليمين من النبيّ ﷺ بغير استثناء، لأنه قد حلف ألاّ يحملهم، ولم يستثن؟ قيل له: قد بيّنا الوجه الذي لأجله حلف هناك، فلو استثنى إذ ذاك لزال المقصود مما أريدت اليمين له، وبقيت النفوس متشوفة متطلعة.

فإن قال قائل: لم قال، عليه السلام، ذلك عن نفسه المكرمة ولم يقل: من حلف على يمين ورأى خيراً منها يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه؟ قيل له: إنه لو عَدَل عن ذكر نفسه المكرمة إلى ذكر غيره لكان في المسألة توقف من باب الورع، لأنه قد يؤخذ ذلك منه على باب الرخص والتوسعة، ويُرى أن الأَولى البقاءُ على اليمين من غير إيقاع الحِنث. فلما أن أَخبَر بذلك عن نفسه المكرمة عُلِم أن الأَولى ما فَعَل هو عليه السلام، .

يبين هذا ويوضحه قصة أم سَلَمة حين قالت للنبيّ ﷺ: (إنهم لم يعصُوكَ وإنَّما اتَّبَعوك)[1]، وقد أوردناه في حديث الإفك، وبيّنا هذا المعنى بنفسه. والله المستعان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) تقدم تخريجه في الحديث (١١٩).

ــ ١٥٦ ــ
حديث تحريم أكل الحمر الأهلية

عَن عَبدِ اللهِ[١] بنِ أبي أوفى، رَضي الله عَنهُ، يَقولُ: أصابَتنا مَجاعَةٌ لَيالي خيبر. فلمّا كانَ يَومُ خَيبرَ وقَعنا[٢] في الحُمُرِ الأهليَّةِ فانتَحرناها، فلمّا غلَتِ القُدورُ نادى رسولُ الله ﷺ: أكْفِئوا[٣] القُدورَ ولاَ تَطعَموا مِن لُحومِ الحُمُر شَيئاً. قالَ عَبدُ الله: فَقُلنا: إنّما نهى رَسولُ الله ﷺ عَنها لأنّها لَم تُخَمَّس[٤]، قَالَ: وَقالَ آخَرون: حَرَّمها البتَّة. وَسألتُ سعيد بن جُبَيرٍ[٥] فقالَ: حَرّمها البَتَّةَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على تحريم أكل الحمر الأهلية. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله (أصابتنا مجاعة ليالي خيبر)[٦] هذه (الليالي) هل هي على العموم في جميع الليالي أو هو لفظ عام يراد به الخاص، ويكون معناه في (بعض ليالي خيبر)؟ محتمل للوجهين معاً. وإضافة (ليالي) إلى (خيبر) يحتمل وجهين أيضاً: (أحدهما) أن يكون أراد حين السير إليها. (الثاني) أن يكون أراد حين مشيهم على حصونها. فعلى القول بأن الإضافة إلى الليالي على العموم ـ وهو الخروج من أول السفر ـ فهو مرجوح، لأن أحداً لا يخرج بغير شيء من الزاد، فإن كان على معنى التخصيص احتمل. وأما إن كان المراد المشي على حصونها، فاحتمل الوجهين معاً: العموم والخصوص.

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث (١٤٤).

(٢) وقعنا: غنمنا وأخذنا.

(٣) أكفِئوا: اقلبوا.

(٤) لم تُخمَّس: لم يؤخذ خُمسُها، وهو حق الله في الغنائم.

(٥) تقدمت ترجمته في الحديث (٤٨).

(٦) ليالي خيبر: وخيبر: بلدة شمالي المدينة المنورة مشهورة بزراعة النخيل، وكان يسكنها اليهود، وفتحها النبي ﷺ سنة سبع أو ثمانٍ من الهجرة عنوةً، نازلهم شهراً أو قريباً من شهر ثم صالحوه على حقن دمائهم ثم صالحوه على شروط أقرها ورضي بها، ولما تولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أجلاهم عنها تحقيقاً لقوله ﷺ: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب.

الوجه الثاني: قوله (فلما كان يوم خيبر) يوم خيبر يحتمل وجهين: **(أحدهما)** أن يكون أراد يوم فتح خيبر. **(الثاني)** أن يكون أراد يوم قدومهم على خيبر. أما الأول فمرجوح، لأنه لو كان المراد به الفتح لم يكونوا لينحروا الحمر الأهلية، لأن الفتح إذا كان بالضرورة يكون الطعام كثيراً لديهم، لأن حصناً من الحصون يكون معموراً لا يخلو من الطعام البتة.

الوجه الثالث: قوله (وقعنا في الحمر الأهلية) الوقوع فيها هو غنيمتهم إياها بغير قصد، لأنك تقول: فلان وقع في كذا إذا لم يقصده وإنما وقع فيه بحكم الوفاق.

الوجه الرابع: قوله (فانتحرناها) نحرهم لهذه الحمر لا يخلو أن يكونوا عالِمين بتحريمها، أو لم يكن لهم علم بذلك. فإن كانوا عالمين بالتحريم فيكون ذبحهم لها من أجل الاضطرار إليها ـ وهي المَخْمَصَة[1] التي أصابتهم ـ ففعلهم هذا اتباع للأمر، لأنه قد أحل للمضطر أكل الميتة، وذلك إذا مرت عليه ثلاثة أوقات. والحمر الأهلية مثل الميتة سواء، كلاهما يعمهما التحريم لغير موجب، فعمتهما الإباحة للموجب، لأن ما لا يؤكل إذا ذُكِّي فهو ميتة، فحكمه حكم الميتة. وإن كانوا غير عالمين بالتحريم (ففيه دليل) لمن ذهب من العلماء أن الأصل الإباحة حتى يَرِد النهي، لأن العلماء اختلفوا في هذا المعنى على قولين: فمنهم من ذهب إلى أن الأصل الحظر حتى يتبين التحليل، ومنهم من ذهب إلى أن الأصل الإباحة حتى يرد النهي. فإن كان الأصل الحظر فما استباحوها إلا لموجب وهو العذر، وإن كان الأصل الإباحة فهم ما أحدثوا شيئاً، وإنما استصحبوا الأصل.

وقوله: (انتحرناها) احتملت وجهين: **(أحدهما)** أن تكون من أبنية المبالغة أي سارعوا إليها بأنفسهم، ولم يتركوا لها غيرهم. واحتمل أن تكون بمعنى التسبب أي تسببوا في نحرها بالأمر.

ثم بقي على الفصل سؤال وهو أن يقال: لم انتحروها أولاً عند وقوعهم في الحمر، من غير أن يستأذنوا النبيّ ﷺ في ذلك؟ **(والجواب)** عنه من وجهين وهما ما تقدم: هل الأصل الإباحة أو الحظر؟ فإن كان الأصل الإباحة فقد تقدم توجيهه، وإن كان الأصل الحظر فقد تقدم توجيهه أيضاً.

الوجه الخامس: من البحث المتقدم قوله (فلما غلت القدور نادَى منادي رسول الله ﷺ: أكفِئوا القدور، ولا تَطْعَموا من لحوم الحمر شيئاً) أكفئوا القدور بمعنى: حوّلوها عن النار. ولا تَطعَموا من لحوم الحمر شيئاً، أي لا تأكلوا منها شيئاً.

ويرد على هذا الفصل سؤالان: **(الأول)** أن يقال: لم أمر بالإكفاء عند غليان القدور ولم يأمر به قبل ذلك؟ **(الثاني)** أن يقال: لم نهاهم عن أكلها وقد كانت لهم مباحة لوجود الاضطرار إليها؟

---

(١) المَخمَصَة: المجاعة.

(والجواب) عن الأول أنه قد جاء في رواية أخرى زيادة تبيّن هذا المعنى فقال فيها: لما رأى كثرة النيران سأل عنها، فقيل له: انتحرنا الحمرَ الأهلية، فأمر، عليه السلام، بإراقتها (ففي هذا دليل) على كثرة مشاهدته، عليه السلام، لشأن أصحابه وما يزيد عليهم وما ينقص، والسؤال عن جميع أحوالهم. فعلى هذا فيجب على كل من كان راعياً على أي شيء، مثلُ هذا من التفقد لرعيته، والالتفات لما يزيد فيه وينقص، حتى يعلم ما حكم الله تعالى فيما يقتضيه من الزيادة والنقص فيه. وهذا على التفسير الذي ذكرناه قبل في غير هذا الحديث من رعاية الأعضاء التي للآدمي حتى على جوارحه، لأن الغفلة عن ذلك توقع الخلل. يؤيد هذا قوله عليه السلام، في صفة المؤمن: (كَيِّسٌ حَذِرٌ فَطِنٌ)[1].

(والجواب) عن الثاني أنه، عليه السلام، إنما نهاهم عن أكلها لوجود ما هو أحسن منها، وهي الخيل، لأنه قد جاء في حديث غير هذا أنهم انتحروا الخيل هناك. فقد يكون الصحابة، رضوان الله عليهم، تركوا الخيل لاحتياجهم إليها للقتال، فاختاروا أكل الحمر للمنفعة التي يؤملونها في ترك الخيل، فأمرهم النبيّ ﷺ أن يتركوا ما أرادوا فعله، وأن يقيموا ضرورتهم بالخيل لأنها ليست بحرام، ففضل، عليه السلام، أقل الضَّرَرَيْن، لأن الحمر عينها حرام لا يجوز أكلها شرعاً، والفرس حلال على المشهور من الأقاويل ليس فيه غير ما يؤمل من فائدة القتال عليه، والضرر الذي يلحق من أجل ذبحه متوقع هل يقع أو لا يقع؟ وهو احتياجهم إليها حين القتال. وهذه الخيل يحتمل أن يكون وقعوا فيها مع الحمر فتركوها للجهاد وفضلوا أكل الحمر عليها، لأجل علة الجهاد، ويحتمل أن تكون خيلهم التي خرجوا بها.

وفيما قررناه دليل على أن المرء ينظر في أموره وتصرفاته، فإذا اجتمع له أمران فإن كانا خيراً أخذ أعلاهما، وإن كانا شراً أخذ أدناهما.

ولأجل العمل على هذه القاعدة استراح أهل الصوفة من مكابدة الدنيا وهمّها، لأنهم أخذوا أقل الضَّرَرين - وهو ما لهم في الدنيا من المجاهدات - لتحصل لهم الراحة الدائمة في الآخرة، فحصل لهم بضمن ذلك الراحتان معاً، لأن أكبر الراحات في الدنيا هو الزهد فيها، وهو أول قدم عندهم في السلوك. وقد قال عليّ، رضي الله عنه: لو كانت الدنيا من فضة والآخرة من خزف، وكانت الدنيا فانية والآخرة باقية، لكان الأَوْلى أن يُزهَد في الفانية ويُعمل للباقية. فكيف والأمر بضد ذلك؟

ولأجل ترك النظر إلى هذه القاعدة تعب أهل الدنيا التعب الكلّي، فهم أبداً يؤملون الراحة

---

(١) رواه القضاعي عن أنس رضي الله عنه.

لأنفسهم ويعملون عليها، والشقاء والتعب يستقبلهم، فلم يزالوا على هذا الحال حتى يفاجئهم الموت وهم في تعب وضنى، ثم يرجعون إلى تعب أكثر مما كانوا فيه، وهي المحاسبة على ما جمعوا، وفيما أنفقوا، ولهذا قال الغزالي رحمه الله: مساكين أهل الدنيا طلبوا الراحة فأخطأوا الطريق فاستقبلهم العذاب. ومعناه ظاهر، لأنهم قصدوا الراحة ورأوا أنها لا تكون إلا بحطام الدنيا، فأخذوا في جمعها وصبروا على ما فيها من الكد، وفاجأهم الموت ولم يحصل لهم ما أملوا من الراحة فيها، ثم انتقلوا إلى التعب الآخرِ الذي تقدم ذكره.

ثم بقي على الفصل سؤال وارد وهو أن يقال: لِم ذكَر الإكفاءَ وتركَ الإطعام[١]، وذِكْرُ أحدهما يغني عن الآخر؟ (والجواب) عنه أنه إنما أمر أولاً بالإكفاء لأن ما ظهر منكر يحتاج إلى تغييره فقدّمه.

(وفيه دليل) على الإسراع لتغيير المنكر عند معاينته، لأن النبيّ ﷺ لم يتركه حين رآه حتى غيَّره، وتغييره على أقسام، وقد ذكرناه في غير ما حديث. ووجه ثان وهو أنه لو اقتصر لهم على قوله: (أكفِئوا القدور) لحملوه على العموم في الكل. ويحتمل أن يكون في القدور ما هو حلال، فلما عقب ذلك الأمر بذكر المُحَرَّم أعطاه قوة الكلام ألا يُكفَأ من القدور إلا ما نُصّ على تحريمه.

وفي هذا دليل على أن أمر الشارع، عليه السلام، يؤخذ على عمومه، ولا يخصص، ولا يتأول إلا في مواضع لا يمكن فيها العموم لقرينة تخصصه. ومما يؤيد هذا فعله عليه السلام، حين أنزل الله عليه ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[٢] فأخذها على العموم، ولم يخصص ناساً دون آخرين، ولا وقتاً دون وقت، وإنما قال لأصحابه (اذهبوا فإن الله قد عصمني من الناس)[٣]، وكان كذلك وبقي فيما بعد لا يقي نفسه المكرمة بشيء ثقة منه ﷺ بالله تعالى، وبعموم اللفظ.

ولأجل أخذه على العموم من غير تأويل على ما قررناه سعد أهل التوفيق السعادة العظمى، لأنهم سمعوه، عزَّ وجلَّ، يقول في كتابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٤] فعملوا على الاتباع ولم يلتفتوا لغيره، فصدّقوا وصَدَقوا في الإيمان والاتباع، فأنجز لهم ما وُعِدوا، والمتأولون دخلوا في التعب والحيرة.

---

(١) كذا، ونصّ الحديث يقتضي: ترك الطعام.

(٢) سورة المائدة، من الآية ٦٧.

(٣) رواه الترمذي عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرَس ليلاً حتى نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله تعالى.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٦٤.

وقد حكي عن بعض الفضلاء أنه رأى شيئاً من آثار القدرة، ولم ير نفسه لذلك أهلاً، فجعل يعتذر ويتذلل، فقيل له: عملتَ على الحق فأُريتَ الحقيقة، وعملوا على التأويل فعوملوا بحسب ما عملوا. وعند الله تجتمع الخصوم.

وفيه دليل أيضاً على أن الإمام ينظر في مصالح رعيته على العموم وعلى الخصوص، ويحذر من أن ينفع قوماً ويتضرر آخرون بسببه، لأن النبيّ ﷺ لما أن أمر بإكفاء القدور خشي أن يقع بأحدٍ مضرة لعموم اللفظ، فأتى بما يخصص المقصود، ولا يلحق به مضرة لمخلوق، كما ذكر.

الوجه السادس من البحث المتقدم: قوله (فقلنا إنما نهى النبيّ ﷺ عنها لأنها لم تُخمَّس. وقال آخرون: حرّمها البتة) إلى آخر الحديث. فيه وجوه.

(الأول) أن السؤال والبحث في الأمر لا يكون إلا بعد الامتثال، لأن الصحابة، رضوان الله عليهم، لما أن أمرهم النبيّ ﷺ بما أمر امتثلوا الأمر في الحين ولم يعترضوا ولم يبحثوا. فلما أن كان بعد امتثالهم حينئذ رجعوا إلى البحث المتقدم في التحريم، هل هو لعلة أو لغير علة؟ وأفاد اجتهاد بعضهم أنه تعبُّد لغير علة، واجتهاد بعضهم الآخر أنه لعلة وذكرها.

(الثاني) أن المجتهدين إذا اختلفوا في الحكم وكان في زمانهم من هو أعلم بالفتوى منهم يأتون إليه ويسألونه عن قضيتهم، لأن الصحابة، رضوان الله عليهم، لما أن وقع الخلاف بينهم، وقال كل منهم باجتهاده أتوا إلى سعيد بن جبير، الذي هو من كبار التابعين وفضلائهم، فسألوه.

(الثالث) هل التحريم لعلة أم لا؟ فإن قلنا: إن التحريم تعبد فلا بحث. وإن قلنا: إنه لعلة فهل هي معقولة المعنى أم لا؟ الظاهر أنها لعلة وهي معقولة المعنى. بيان ذلك أن الله، جلّ جلاله، هو بالمؤمنين رؤوف رحيم كما أخبر في كتابه ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1] فهو عزَّ وجل يختار لهم ما هو الأصلح في حقهم، فيأمرهم به، وما يعلم أنه ضرر في حقهم ينهاهم عنه. وبنو آدم بذلك جاهلون. فلو قيل لهم: افعلوا أوْ لا تفعلوا، ولا يناط بذلك ثواب ولا عقاب لكان بعضهم يفعلون أشياء يضرون بها أنفسهم. فمن لطفه، عزَّ وجلَّ، جعل الثواب والعقاب على ارتكاب المخالفة حتى يَسلَموا من بليّتها، ثم جاد، عزَّ وجلَّ، وتفضل بالتوبة على من وقع فيها إذا رجع عنها. كل هذا لطف منه، عزَّ وجلَّ، بالمؤمنين ورحمة، وكل مخالفة بلاؤها ظاهر لا يخفى، وإنما يقع الكلام على ما نحن بسبيله. وما كان من جنسه نشير إليه لِيُتَيَقَّظ إلى هذه الحكمة العظمى واللطف الأكبر.

بيان ذلك أن الحمار معروف بالبلادة، وهي تتعدى لآكله على ما عهد مع قساوة القلب الذي

---

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٤٣.

تحدث[1] به، وهذا ضد صفة المؤمن، لأن من صفة المؤمن أن يكون كيِّساً حَذِراً فَطِناً. والبلادة تذهب بهذه الأوصاف أيضاً. فعلى المؤمن أن يكون خائفاً راجياً. وقساوة القلب تذهب بذلك. فحرمه الشارع، عليه السلام، لأجل هذا المعنى، لأن الله، جلَّ جلاله، أرسله رحمة للعالمين. ومما يقاربه في الشبه الميتة أيضاً لأنها سم قاتل، فإذا أكلت عادت بالضرر، فحرمها، عزَّ وجلَّ، لأجل هذا المعنى. فإذا بقي المرء ثلاثة أوقات كثر سم بدنه فغلب على سم الميتة فلم تضرَّه، فأحلها، عزَّ وجلَّ، لزوال المضرة منها. ولما كان الفرَس ليس فيه مضرة غير أنه إذا ديم على أكله أحدث القساوة في القلب كان أكله مكروهاً.

ثم بهذه النسبة جميع الأشياء، الكراهيةُ فيها والتحريم بحَسَبِ ما كان فيها من الضرر. ومن رزق النظر بالنور يجده محسوساً ومعنوياً على ما ذكره العلماء والفضلاء. وبالله التوفيق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



---

(١) أي: تحصل وتصير.

ــ ١٥٧ ــ

حديث استحباب أوقات الشروع في القتال

عَنِ النُّعمانِ بنِ مُقرِّنٍ[١] رضيَ الله عَنهُ قالَ: شَهدتُ القِتالَ مَعَ رَسول الله ﷺ. وَكانَ إذا لَم يُقاتِل في أوَّلِ النَّهارِ انتَظرَ حَتَّى تَهُبَّ الأرواحُ[٢] وَتحضرَ الصَّلاةُ.

۞ ۞ ۞

ظاهر الحديث يدل على أن السنة في القتال غُدْوَة[٣] النهار أو عشيّته. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا القتال غُدوة أو عشيّة لعلة أم لا؟ فإن قلنا: إنه لغير علة فلا بحث، ويبقى تعبداً. وإن قلنا: إنه لعلة فما هي العلة؟ الظاهر أنه لعلة، والعلة فيه على ضربين: محسوسة ومعنوية. والمحسوسة على ضربَين: عامة وخاصة.

فالعامة هي ما يكون في هذين الوقتين ـ أعني أول النهار وعشيته ـ من هبوب الأرواح، وقوة الأبدان من عاقل وغير عاقل ونشاطها إذ ذاك، لما في الوقتين من برودة الهواء وجمام[٤] النفوس من الراحة المتقدمة. فمتقدم راحة الغدو استراحة الليل لأنه جعل سكناً[٥]، ومتقدم راحة العشي

---

(١) النعمان بن مقرّن المزني، أبو عمرو، صحابي فاتح، من الأمراء القادة الشجعان. كان معه لواء «مزينة» يوم فتح مكة، وسكن البصرة، ثم تحول عنها إلى الكوفة، ووجَّهَهُ سعد بن أبي وقاص بأمر الخليفة عمر إلى محاربة الهرمزان، فزحف بجيش الكوفة إلى الأهواز وهزم الهرمزان، وتقدم إلى تستر، فشهد وقائعها، وعاد إلى المدينة بشيراً بفتح القادسية.. ووصلت أخبار إلى عمر بن الخطاب باجتماع أهل أصبهان وهمدان والري وأذربيجان ونهاوند، فأقلق ذلك عمر، فولاه قتالهم. وخرج النعمان إلى الكوفة فتجهَّز، وغزا أصفهان ففتحها، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها. ولما بلغ عمر مقتله دخل المسجد ونعاه إلى الناس على المنبر ثم وضع يده على رأسه يبكي. وكان استشهاده سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢م (الأعلام ٩/ ٩).

(٢) الأرواح: مفردها ريح وهو الهواء إذا تحرك. ويجمع كذلك على أرياح ورياح. والأرواح ـ أيضاً ـ مفردها رَوح وهو نسيم الريح، والرحمة، والراحة. تقول: وجدت رَوح الشمال: برد نسيمها. ويوم رَوح: طيب الريح.

(٣) الغُدوَة: ما بين الفَجر وطلوع الشمس.

(٤) الجَمام: الراحة.

(٥) السَّكَن: كل ما سكنت إليه واطمأننتَ به. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾.

استراحة القائلة[١] لأن استراحة القائلة من السنة، لقوله عليه السلام، (قيلوا فإن الشياطين لا تَقيل). هذه هي العامة.

وأما الخاصة التي هي للعاقل دون غيره فما يحصل له من قوة اليقين ونشاط النفس، وما لها في هذا الفعل من الأجر العظيم لنكاية العدو، لأن قوى الأبدان العاقلة وغير العاقلة من أعظم مواد النكاية للعدو

وأما المعنوية فما في الوقتين من الزيادة في الإيمان، وقوة المدد المعنوي، وهو في النصر أقوى من الحسي. فأما قوة الإيمان فإن هذين الوقتين إثر تعبد وطاعة لله تعالى، والإيمان يقوى عند التعبد والطاعات، كما يضعف عند المخالفات. وأعظم موجبات النصر هو الإيمان، لأن الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] فقوة الإيمان أعظم في مواد النصر من المحسوسات للوعد الجميل.

وقد روي أن عمر، رضي الله عنه، بعث سريّة من السرايا ثم جاء البشير بالنصر والفتح، فقال: أي وقت كانت المقاتلة؟ فقالوا: غَدوة. فقال: ومتى كان النصر؟ فقالوا عشية. فبكى، رضي الله عنه، حتى بلت دموعه لحيته. فقالوا: كيف تبكي والنصر لنا؟ فقال: والله ما الكفر يقف أمام الإيمان من غَدوة إلى عَشيّة إلا من أمرٍ أَحدثتموه أنتم أو أنا. فلم ينظر إلى النصر إلاّ بقوة الإيمان.

وأما قوة المدد المعنوي أيضاً فهو من وجهين، وقد نص، عليه السلام، عليهما في غير هذا الحديث. فأحدهما الريح لأنه عليه السلام، قال (نُصِرتُ بالصَّبا)[٣] حتى لقد ذهب بعض العلماء أنه لم يكن قَطّ نصرٌ بغير ريح. والصَّبا ريح ليّنة شرقية. وقد قيل: إنها من الجنة، وما كان من الجنة فهو للمؤمنين عَون، وعلى الكافرين وبال.

أما الوجه الآخر فهو الدعاء من المؤمنين، لأنه قد جاءت زيادة في رواية غير الحديث الذي نحن بسبيله (ويدعو لكم إخوانكم المؤمنون)[٤]، وقال عليه السلام، في حديث ذكر فيه فضيلة (الدعاء جند من جنود الله)[٥]. فيجب أن يغتنم هذا الوقت الذي يكون فيه هذا المدد العظيم.

ويترتب على هذا من الفقه أن يدعو المرء، بعد صلواته وفي الأوقات التي يرجى فيها القبول، لإخوانه المؤمنين شرقاً وغرباً، ليكثر لهم المدد الذي يرجى به النصر.

---

(١) القائلة: النوم في الظهيرة. والفعل: قال يَقِيلُ.
(٢) سورة الروم، من الآية ٤٧.
(٣) تقدم تخريجه في الحديث (١٤٤).
(٤) تقدم تخريجه في الحديث (١٤٤).
(٥) رواه ابن عساكر عن نُمير بن أوس مرسلاً.

وقد روي أن عبد الملك بن مروان خرج في بعض غزواته، فسأل عن بعض صالحي الوقت، فطُلِب فوجده في مسجد متوجهاً يصلي. فقال: أخرجوا على بركة الله، سبّابته في القبلة عندي خير من كذا وكذا فارساً. فلما بلغوا الحصن الذي أملوا انهدّت شقة من سُوره، ففرح الجيش، فقال: ليس ذلك منكم، وإنما هو ببركة تلك السبابة التي في القِبلة.

الوجه الثاني من البحث المتقدم: فيه دليل على أن الحكم بالغالب في ارتباط العادات، لأنه قال (انتظر حتى تهبّ الأرواح وتحضرَ الصلاة) وهذه الريح قد تكون في ذلك الوقت وقد لا تكون. لكن لما أن كان الغالب عليها أنها تأتي في ذلك الوقت - وهو بعد الزوال - حُكِم لها به وانتُظِرت إليه.

الوجه الثالث: أن النادر لا يعمل عليه، لأنه قد يوجد الريح في بعض الأيام في غير هذا الوقت، فلم يُـنَط به الحكم لندارته.

الوجه الرابع: قوله (انتظر) يرد عليه سؤالان: (الأول) أن يقال: لم أتى بهذا اللفظ، وعدل عن غيره من الألفاظ؟ (الثاني) أن يقال: لم قال (انتظر) ولم يقل (انتظرنا)، ومعلوم أن الانتظار كان من الجيش كله؟.

والجواب عن الأول أن قوله (انتظر) فيه إشعار بأنهم أخذوا أهبة القتال واستعدوا ولم يغفلوا، وهذا مثل قوله، عليه السلام، (لا يزال العبد في صلاة ما دام ينتظر الصلاة)(1). ومعلوم أن المراد من كـان متطهراً في المسجد ينتظر الصلاة، وأما من كان ينتظر الصلاة في بيته فلا يطلق عليه، باعتبار ما أراده الشارع، عليه السلام، أنه ينتظر الصلاة. وكذلك هنا سواء، أتى بقوله (انتظر) ليبين ما قررناه.

والجواب عن الثاني أن المقصود من الجماعة: رئيسهم، والمعوَّل عليه فيهم. فإذا انتظر الرئيس انتظر الكل، فأتى بهذه الصيغة تعظيماً للنبيّ ﷺ وتأدباً معه، كما هو الواجب.

الوجه الخامس من البحث المتقدم: هل يتعدى الحديث للقتال المعنوي أم لا؟ الظاهر تعديه. إذ إن حكم المعاني عنه، عليه السلام، تؤخذ كما يؤخذ عنه حكم الظاهر، وقد تقدم من هذا ما فيه كفاية للحجة بالتعدي في غير ما حديث. وتعديه يحتمل وجوهاً، ويجمعها وجه واحد، وهو أن أول النهار في المحسوس هو أول بدء ظهور خلقه، فكذلك الوقائع الحسية والمعنوية - أعني من

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: لا يزال أحدكم في صلاة ما دام ينتظرها ولا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما كان في المسجد تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه، ما لم يُحدِث. وللحديث روايات أخرى بألفاظ مختلفة.

التصرف والخواطر غير المستقيمة ـ يُبادَر عند ظهورها إلى قتالها. ومقاتلتها هي إزالتها، لقوله، عليه السلام، في المارّ بين يدي المصلي (فلْيقاتله فإنما هو شيطان) ومعناه فلْيدفَعْه ولْيُزِلْه، لأن أول الوقت في وقوع المخالفة أو الغفلة يكون الإيمان فيها أقوى من وقت التمكن فيها.

وأما نسبة العشيّ في المعنوي فهو الذِكْر بعد الغفلة، لأن الذِّكرَ يُحيي الإيمان، وقد قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] والفرق بين القتالين أن الأول يكون بالدفع كما ذكرنا، والثاني بالتوبة والإقلاع. والتوبة هنا هي حقيقة النصر، والذِّكر بعد الغفلة هي الريحُ المبشّرة بالنصر المذكور.

وأما الصلاة في المعنوي فهو ما تقدم من مقتضى رحمة المولى لإثارته ريح التذكار بعد الغفلة الموجب للتوبة ـ وهي حقيقة النصر ـ لأن الصلاة من العباد دعاء، والصلاة من الله تعالى رحمة. فمن سبقت له الرحمة ختم له بالنصر.

وأما الانتظار في المعنوية فهو استصحاب دوام انكسار القلب إما لوقوع غفلة أو لوقوع مخالفة، لأن النبيّ ﷺ قال إخباراً عن ربه، عزَّ وجلَّ، يقول (اطلبوني عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلي)[2]، لأن انكسار القلب من أجل الرب من أجلّ الطاعات، لأنه لا يدخله رياء، وهو أرجى الوسائل بمقتضى الوعد الجميل، لأن معنى قوله تعالى (اطلبوني عند المنكسرة قلوبهم) أي هو معهم. فإذا كان معهم فهو يلطف بهم ويوقظهم من الغفلة، ويحرك لهم أسباب التوبة، ويمنّ عليهم بالنصر والغنيمة.

جعلنا الله ممّن لَطَف به، وأدخله في حفظ عنايته. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٨.

(٢) ذكره السخاوي في المقاصد وقال: ذكره الغزالي في البداية، وتعبه القاري في الأسرار المرفوعة ٧١ بقوله: ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ الغاية. قلت ـ أي القاري في الأسرار ـ وتمامه: وأنا عند المندرسة قبورهم لأجلي. ولا أصل لهما في المرفوع.

ـ ١٥٨ ـ

حديث برّ الوالدين وإن كانا كافرين

عَن أسماءَ بِنتِ أبي بكرٍ[١]، رَضي الله عَنهما، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركةٌ. في عهد قُرَيشٍ، إذ عاهَدوا رَسُولَ الله ﷺ، وَمُدَّتِهِم، مع أبيها. فاستفتيتُ رسول الله ﷺ فَقُلتُ: يا رَسُولَ الله، إنَّ أُمّي قَدِمَت عَليَّ وَهي راغِبة، أفأصِلُها؟ قال: نعم، صليها

* * *

ظاهر الحديث يدل على جواز صلة الولد لأمه الكافرة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: هل الحديث مقصور على الصلة للأم لا غير؟ أو الصلة جائزة على العموم، للمشركين كلهم؟ ظاهر صيغة الحديث للأم، لكن يؤخذ تعديه لغير الأم من غير هذا الحديث، وهو قوله عليه السلام: (في كل كبدٍ حَرّى أجر)[٢].

الوجه الثاني: قولها (قَدِمت عليَّ أمي) يَرد عليه سؤالان: (أحدهما) أن يقال: لم قالت (قَدِمَت) ولم تقل (جاءت) وما أشبهها من الصيغ؟ (الثاني) أن يُقال: لم قالت (عليّ) ولم تقل (إليّ)؟ إذ إنهم لا يخصّصون الألفاظ بالذكر دون غيرها إلا لمعنى مفيد، على ما تقرر.

والجواب عن الأول: أنها لو أتت بغيرها من الصيغ لاحتمل اللفظ أن تريد أنها جاءت من سفر أو غيره، و(قدمت) ليس فيه احتمال غير القدوم من السفر، لأنك إذا قلت: فلان قدم أو فلان

---

(١) تقدمت ترجمتها في الحديث (١٠٥).

(٢) رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي رواية للشيخين: في كل ذات كبد حرّاء أجر. وتمام الحديث: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أنزع في حوضي حتى إذا ملأته لإبلي ورد عليّ البعيرُ لغيري فسقيتُه، فهل في ذلك من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: في كل ذات كبدٍ حرّاء أجر. وفي حديث آخر: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثلَ الذي كان بلغ مني، فنزل البئرَ فملأ خفّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رَقِي فسقى الكلبَ، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله: وإن لنا من هذه البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر).

قدم على فلان، ولم تذكر من أي موضع كان قدومه، علم أنك أردت أنه أتى من سفر، ولو قلت: فلان جاء أو فلان جاء إلى فلان، لم يفهم عنك ما أردت بمجيئه هل من سفر أو غيره حتى تبينه. فخصصت تلك الصيغة دون غيرها رفعاً للاحتمال.

والجواب عن السؤال الثاني: أن القادم من السفر لا بد وأن[1] يكون معه رحل، فيحتاج أن يحط بموضع، فأتت بقولها (عليّ) لأنه ظرف، لتبيّن أين كان نزول أمها حين قدومها، ولو أتت بغيرها من الصيغ لم تقم مقامها في ذلك المعنى.

الوجه الثالث من البحث المتقدم: قولها (في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ) فيه دليل على أن المهادنة بين المسلمين والمشركين جائزة بشرط ألاّ يكون على المسلمين فيه حَيف، ولا يعطون[2] شيئاً لهم، لأن النبيّ ﷺ قد صالحهم بنص هذا الحديث، ولم يصالحهم عليه السلام قط بشيء على المسلمين فيه حيف، ولا أعطاهم شيئاً قَطّ، وقد قال، عليه السلام (الإسلام يعلو ولا يعلى عليه)[3]. فعلى هذا فإذا كثر العدو بموضع حتى لا يقدر على قتاله فالخروج من الموضع إذ ذاك، ولا سبيل إلى الإذعان لهم لا بالمال ولا بالخدمة، وقد قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[4].

الوجه الرابع: قولها (ومدتهم) تعني مدة المهادنة. وإنما أتت بذلك لتبين أن قدوم أمها عليها لم يكن حين العهد، وإنما كان في أثناء مدته.

الوجه الخامس: قولها (مع أبيها) يَرِد عليه سؤال، وهو أن يُقال: ما فائدة ذكرها للأب؟ (والجواب) عنه أنها إنما قالت ذلك لتزيل ما يتخيل هناك من فقر أمها وحاجتها، لأنها قالت في آخر الحديث (وهي راغبة). والرغبة تحتمل أن تكون من المحبة، وتحتمل أن تكون طلباً للإحسان من أجل الفاقة. وهذا الاحتمال الأخير يلحق به من النقص للموصوف به ما لا يخفى. فأتت بذكر أبيها معها لتبين أنها لم تطلب هذه الرغبة التي أشرنا إليها أخيراً، وإنما أرادت الأولى، لأن المرء إذا جاء مع من يكفله فليس بفقير.

الوجه السادس: قولها (فاستفتيت رسول الله ﷺ) الكلام على هذا الفصل من وجوه:

---

(١) كذا بزيادة الواو.
(٢) كذا أيضاً، برفع الفعل المعطوف على المنصوب: يكون.
(٣) تقدم تخريجه في الحديث (١٢٣).
(٤) سورة الأعراف، من الآية ١٢٨.

(الأول) التعلم والسؤال قبل العمل، لأنها لم تَصِل أمها حتى استفتت النبيّ ﷺ وسألته، وتعلمت، وحينئذ عملت.

(الثاني) أن الأمر إذا كان العمل به مستصحَباً ثم عارضه علة فالتوقف إذ ذاك حتى يتبين بلسان العلم: هل يقع بها المنع أو يبقى على بابه؟ لأن الصلة للوالدين تتردد بين الواجب والمندوب بحسب اختلاف الأحوال. فلما أن عارض ذلك علة الكفر لم تُقْدِم على العمل حتى تبين لها الأمر على لسان العلم باستفتائها للنبيّ ﷺ.

(الثالث) أن الأصل هو الدين وهو المُعوَّل عليه مع الأقارب والأجانب، لأنه يُعلم بالضرورة أن الولد يحب والديه المحبة الكلية، لكن لم تنظر لأمها حين أقبلت عليها في شيء حتى سألت: هل ذلك لها سائغ في الدين أم لا؟ فقدَّمت الدِّين على أحب الأشياء إليها، وهو المراد بقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾[١] فهؤلاء، رضي الله عنهم، ممن فهموا هذه الآية وعمِلوا بمقتضاها.

(الرابع) فيه دليل لأهل الصوفة في كونهم يؤخِّرون الأعمال في بعض الأوقات حتى يصحّحوا النية، لأنها[٢] لم تعمل على هذه القربة لأجل ما عارضها، حتى استفتت النبيّ ﷺ، لأن تُخلص النية بغير شبهة ولا ارتياب، اتباعاً لقوله ﷺ: (خير العمل ما تقدمته النية)[٣].

(الخامس): لقائل أن يقول: لم قالت (فاستفتيتُ) ولم تقل (فسألتُ) كما قيل عن غيرها في غير هذا الحديث؟ (والجواب) عنه أن الاستفتاء أخص من السؤال، لأنه لا يُطلَق[٤] (مستفتياً) إلا على من له معرفة بالحكم، وبقي عليه بعض إشكال في واردٍ وَرَدَ، أو إشكال عَرَض، ويُطلَقُ عليه[٤] (سائلاً) إذا لم يكن له معرفة بالحكم ولا بطرف منه. ولأجل هذا قال ﷺ (استَفْتِ نفسَك وإن أفتاك المفتون)[٥] ولا يسوغ أن يقال: سَلْ نفسك، لأن الاستفتاء تحقيق أحد أمرين أن تعلم أيهما أصلح بك، لمعرفتك بجزئيات أمرك أكثر من غيرك، ولا يفهم ذلك من قولك: سل نفسك.

---

(١) سورة التوبة، من الآية ٢٤.

(٢) أي: لأن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

(٣) لم نعثر عليه بهذا اللفظ، وإنما رأينا قوله عليه السلام: (خير العمل ما نفع) (كشف الخفاء للعجلوني ١/ ٤٥٧ و٤٧٤) وقوله: خير العمل أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله (كنز العمال ١/ ١٧٧٢). أما ما يتصل بالعمل والنية ففيها أحاديث أخرى بغير اللفظ الذي أورده ابن أبي جمرة رضي الله عنه. والله أعلم.

(٤) أي: المتكلم.

(٥) رواه البخاري في التاريخ والإمام أحمد عن وابصة رضي الله عنه.

الوجه السابع: قولها (يا رسول الله إن أمي قَدِمَت عليّ وهي راغبة أفأَصِلُها) الرغبة قد تقدم الكلام على معناها وهي على ضربين، وقد بيّناها. والصِّلة أيضا قد ذكرناها وهي على ضربين، وهي هنا من القسم المندوب.

الوجه الثامن: قولها (قال: نَعَم صِلِيها) فيه دليل على أن النبيّ ﷺ له أن يحكم باجتهاده وبما يرى من رأيه، لأنه عليه السلام أمرها بالصلة لأمها من غير أن ينزل عليه وحي فيها. أعني الوحي بالواسطة. وأما وحي الإلهام فكل كلامه، عليه السلام، وتصرفه منه تعالى لقوله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1].

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) سورة النجم، الآيتان ٣ و٤.

ـ ١٥٩ ـ

حديث رحمة الله تعالى لعباده

عَن أبي هُرَيرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: قال رَسولُ الله ﷺ: لمّا قَضى الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ الخَلْقَ كَتبَ في كِتابٍ، فَهوَ عِندهُ فَوقَ العَرشِ: إنَّ رَحْمَتي سَبقَت غَضَبي.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على أن رحمة الله تعالى لعباده أكثر من غضبه. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله ﷺ (لما قضى الله، عزّ وجلّ، الخلق) قضى بمعنى: خلق، ومنه قوله تعالى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾(١) أي خلقهن.

الوجه الثاني: قوله عليه السلام: (كتب) بمعنى: أوجب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(٢) أي أوجبها. وهذا الوجوب من الله تعالى وجوب تفضّل وامتنان، لا وجوب حق عليه محتوم، لأن الوجوب في حقه تعالى مستحيل.

الوجه الثالث: قوله عليه السلام: (في كتاب) هذا هو الذي يحمل على ظاهره، ويجب الإيمان به كما ورد الخبر، وهو أن ثَمَّ كَتْباً محسوساً في كتاب محسوسٍ. لكن بقي احتمال في الكتاب. هل فيه غير ما ذكر في الحديث، ويكون ما ذُكِر من جملة الكتْبِ الذي فيه، أو ليس فيه غير ما ذكر. وهو إيجاب غلبة الرحمة على الغضب؟ احتمل المعنيين معاً، والقدرة صالحة لكليهما.

الوجه الرابع: قوله عليه السلام: (فهو عنده) إنما أضاف، عليه السلام، الكتاب إلى الله تعالى لعدم المشاركين له من المخلوقات في حفظه هناك، بخلاف ما جرت الحكمة في غيره من الأماكن مثل السماواتِ والأرض، لأن ما في السماوات والأرض وما بينهما وما فوقهما، وما فوق العرش، يضاف إليه، عزّ وجلّ، حقيقةً، لكن لما أن جعل، عزّ وجلّ، حفظ ما في السماوات

---

(١) سورة فُصِّلَت، من الآية ١٢.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ٥٤.

والأرض على أيدي من شاء من خلقه بمقتضى حكمته لم يضف ما في تلك المواضع إليه، وأضافها إليهم بمقتضى الحكمة. ولما لم يكن هناك مشارك في الحفظ بمقتضى الحكمة ـ أعني فوق العرش ـ أضافه إلى نفسه، ومثله قوله تعالى ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ؟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1] والمُلك له عزّ وجلّ في دار الدنيا، لكن أجرى الحكمة بأن جعل له في الدنيا نُوّاباً، وأجرى الحكمة على أيديهم، فأضافها إليهم. ولما لم يجعل في دار الآخرة خليفةً في المُلك ولا نائباً أضاف المُلكَ إليه، عزّ وجلّ، فقال: لله الواحد القهّار.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام: (فوق العرش) فيه دليل على أن فوق العرش ما شاء الله تعالى بمقتضى حكمته، من أمره ونهيه مما يشبه هذا أو غيره.

وقد يرد على هذا الفصل سؤال، وهو أن يُقال: لِم كان الكتاب فوق العرش ولم يكن في السماوات؟

(والجواب): أن العرش قد جرت الحكمة بأنه يبقى على حاله لا يتغير ولا يتبدل، بحسب الأخبار الواردة في ذلك، والسماوات والأرض تتغيّر وتتبدل، فخصَّ بأن كان هناك لأجل هذا المعنى. فإن قال قائل: لِمَ لَم يكن في الجنان، إذ إن الجنان لا تتغير ولا تتبدل؟ قيل له: إنما جعل الجنان للجزاء والنعيم، والأمر والنهي ليس هناك، وقد شاءت الحكمة بأن الأحكام والشرائع والأمر والنهي تختص بالعرش، ومنه منبع ذلك كله.

وفي هذا دليل على أن الله، عزّ وجلّ، منزَّه عن الحلول على العرش، لأنه قد جرت الحكمة أن يكون العرش ظرفاً لما شاء، عزّ وجلّ، من أمره ونهيه وحكمته، بمقتضى هذا الحديث في قوله عن الكتاب (فهو عنده فوق العرش)، وقد مرّ الكلام عليه. فعلى مقتضى هذا الحديث فيكون معنى قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[2] أي: استوى أمره ونهيه وما شاء من حكمته، ومثله قوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾[3] أي جاء أمرُ ربك. وهذا مستعمَل في ألسنةِ العرب كثيراً.

ومما يزيد هذا بياناً وإيضاحاً ـ أعني: تنزيه الذات الجليلة عن الحلول والاستقرار ـ قوله عليه السلام: (لا تُفضّلوني على يونسَ بن مَتّى)[4] والفضيلة قد وجدت بينهما في عالم الحس، لأنه، عليه السلام، رفع حتى رقي السبع الطباق، ويونس، عليه السلام، ابتلعه الحوت في قعر البحار.

---

(١) سورة غافر، من الآية ١٦.
(٢) سورة طه، الآية ٥.
(٣) سورة الفجر، من الآية ٢٢.
(٤) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنه بلفظ: لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن مَتّى.

فالفضيلة موجودة مرئية في هذا العالم الحسي، ولم يكن، عليه السلام، ليحكي شيئاً [illegible] حساً، ولا يقول إلا حقاً، فلم يبق معنى لقوله، عليه السلام: (لا تفضلوني على يونس بن متى) إلا لأن النسبة إلى القرب من الله سبحانه. فمحمّد، عليه السلام، فوق السبع الطباق، ويونس، عليه السلام، في قعر البحار، وهما بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه على حدٍّ سواء. ولو كان [illegible] مقتضى المكان أو الزمان لكان النبيّ ﷺ أقرب إليه. فثبت بهذا نفي الاستقرار والجهة في حقه جل جلاله.

الوجه السادس: قوله عزّ وجلّ: (إن رحمتي غلبت غضبي) [illegible] أني [illegible] حكمتُ بذلك لعبادي، بأن أكثرتُ لهم النصيبَ من رحمتي على النصيب من غضبي. لكن هذا يُحتاج فيه إلى كلام وبيان، لأنا قد وجدنا مقتضى هذا الكتاب موجوداً حساً في الدنيا، لأن الرحمة قد عمَّت الخلق بأجمعهم، فيولد الكافر وأبواه يشركان بالله ويعبدان الأوثان وهو يخدم على الطغيان والضلال، وهو، عزّ وجلّ، يغذيه بألطافه وييسر له ما يحتاج إليه من غذاء ولباس، وكذلك غيره من العصاة. هذا مشاهد مرئيّ لا يحتاج فيه إلى بيان، والقليل النادر من عموم صفة الغضب، لكن الآخرة قد وردت الأخبار فيها بضد هذا.

فمنها قوله عليه السلام: (يقول الله عزّ وجلّ لآدم يوم القيامة: أخرج بعث النار من بنيك. فيقول: يا ربّ، ما بَعْثُ النار؟ فيقول: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعةً وتسعين)[1] فشق ذلك على الصحابة، رضوان الله عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: (منكم رجل ومن يأجوج ألف، وإنكم فيمن تقدم من الأمم كالشامة البيضاء في جنب البعير الأسود) إلى غير ذلك من الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى، فكان الغضب في الآخرة على مقتضى هذا الظاهر أكثر من الرحمة، وذلك مخالف لنص الحديث.

(والجواب) عن هذا الإشكال أنه، عليه السلام، لم يقل: (لما قضى الله خلق بني آدم) وإنما قال (لما قضى الله الخلق) فعَمَّ ولم يخصص. وبنو آدم في مخلوقات الله تعالى البعض من الكل، وقد قال، عليه السلام: (إن في هذه الدار من مخلوقات الله تعالى ألف عالم، أربعمائة في البر،

---

(١) رواه الإمام أحمد وعبد ابن حميد والبخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه: يقول الله تبارك وتعالى: يا آدم فيقول: لبّيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. قالوا: يا رسول الله، وأين ذاك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف، والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار.

وستمائة في البحر)[١]. هذا ما هو في هذه الأرض، فكم في الأرضِينَ الأُخَر، وكم في السماوات من الملائكة، وكم تحت العرش؟ وكل هذه المخلوقات تُحشَر يوم القيامة حتى يقتصّ الله، عزّ وجلّ، ممن شاء، لمن شاء، كيف شاء، ثم يقول، عزّ وجلّ، لِما عدا الثقلَينِ[٢] والملائكة: كونوا تراباً. فعند ذلك ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[٣] لأن النجاة من عذاب الله رحمة.

وقد جاءت الأخبار والآثار أن النار لا يدخلها غير الثَّقلَينِ، ولا يدخلها من الثقلين إلا الكفار منهما والعصاة. فالعصاة لا يخلَّدون ويخرجون منها بعد القصاص أو بالشفاعة، ويصيرون إلى النعيم الأكبر، ولا يبقى فيها مخلّداً إلا الكفار، وهم أقل المخلوقات عدداً، فتبقى الرحمة أعمّ، وهي في تلك الدار أعم وأشمل منها في هذه الدار. وقد قال عليه السلام (إن الله تعالى جعل الرحمة في مائة جزء، فأخرج منها لهذه الدار واحدة، بها يتراحم الخلق حتى الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن يصيبه، وادَّخر للآخرة تسعة وتسعين)[٤] فصح كثرتها بالنظر كما ذكرنا وبالإخبار، والله المستعان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) تقدم الكلام عليه في الحديث (٣).

(٢) الثقلان: الجِنّ والإنس، وفي التنزيل العزيز: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وتأتي بمعنى الشيء النفيس الخطير، وقد جاء في الحديث: إني تارك فيكم الثقلينِ: كتاب الله وعِترتي.

(٣) سورة النبأ، من الآية ٤٠.

(٤) متفق عليه.

ـ ١٦٠ ـ

حديث الإسراء والمعراج بنبيِّنا ﷺ

عن مالك بنِ صَعْصعةَ[1]، رضي الله عنه، قال: قال النبيّ ﷺ: بَيْنا أنا عند البيت بين النائم واليقظان (وذكر بينَ الرّجلَين)[2] فأُتيتُ بطَسْتٍ من ذَهَبٍ مُلِيءَ حكمةً وإيماناً. فشقّ من النّحرِ إلى مَراقِّ[3] البطنِ، ثم غُسِل البطنُ بماءِ زمزمَ، ثم مُلِيءَ حكمةً وإيماناً. وأُتيتُ بدابةٍ أبيضَ[4] دون البغل وفوق الحمار (البُراق).

فانطلقتُ مع جبريلَ حتى أتينا السماءَ الدنيا. قيلَ: مَن هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: مَن معك؟ قال: محمّد. قيلَ: أوَقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولَنِعْمَ المجيءُ جاء. فأتيت على آدمَ فسلَّمتُ عليه. فَقالَ: مَرحباً بِكَ مِن ابنٍ وَنَبيٍّ. فأتَينا السَّماءَ الثانيةِ. قيلَ: مَن هَذا؟ قالَ: جبريل. قيلَ: مَن معكَ؟ قالَ: مُحمّد. قيلَ: أوَقَد أُرسِلَ إليهِ؟ قالَ: نَعم. قيلَ: مَرحباً بِهِ، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ. فأتيتُ على عيسى ويحيى فَسلَّمتُ عليهما. فَقالا: مَرحباً بِكَ مِن أخٍ وَنبيٍّ. فأتَينا السَّماءَ الثالثة. قيلَ: مَن هذا؟ قالَ جبريل. قيلَ: مَن مَعك؟ قالَ: مُحمّد. قيلَ: أوَقَد أُرسِلَ إليهِ؟ قالَ: نَعم. قيلَ: مَرحباً بهِ، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ. فأتيتُ على يوسُفَ فَسلَّمتُ عليهِ، فقالَ: مرحباً بِكَ مِن أخٍ وَنبيٍّ.

فأتَيْنا السَّماءَ الرابعةَ، قِيل: مَن هذا؟ قِيل: جِبريلُ. قال: مَن معَكَ؟ قال: محمَّد.

---

(١) مالك بن صعصعة: هو الأنصاري الخزرجي الصحابي المدني. روي له خمسة أحاديث، اتفق الشيخان فيها على حديث الإسراء والمعراج. وأنس بن مالك رضي الله عنه حدّث الصحابة عن مالك بن صعصعة بهذا الحديث وهو من قومه وسكن مالك المدينة. (من الإصابة، والاستيعاب وتهذيب النووي).

(٢) أي: ذكر الراوي أن النبي ﷺ كان بين الرجلين، وهما حمزة عمه وجعفر ابن عمه أبي طالب، فإنه كان نائماً بينهما (وهذا يسمّى في مصطلح الحديث: إدراج).

(٣) مَراقّ البطن: ما رَق منه ولان، جمع مَرَقّ، أو لا واحد لها.

(٤) كذا بالتذكير، لأن «الدّابة» تذكر وتؤنث.

قيل: أوَقد أرسِل إليه؟ قال: نَعَمْ. قيل: مَرْحباً بِهِ، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ. فأتيتُ على إدريسَ فسلَّمتُ عليه، فقال: مرحباً بكَ مِن أخٍ ونبيّ.

فأتَينا السَّماءَ الخامسة. قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جبريل. قيلَ: ومَن مَعك؟ قالَ: مُحمّد. قيلَ: أوَقَد أرسِلَ إليهِ؟ قالَ: نَعم. قيلَ: مَرحباً بِهِ، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ. فأتيتُ على هارونَ فَسلَّمتُ عليهِ، فقالَ: مرحباً بِكَ مِن أخٍ وَنبيٍّ. فأتَينا السَّماءَ السادسة. قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جبريلُ. قيلَ: مَن مَعك؟ قالَ: مُحمّد. قيلَ: أوَقَد أُرسِلَ إليهِ؟ قالَ: نَعم. قيلَ: مَرحباً بِهِ، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ. فأتيتُ على موسى فَسلَّمتُ عليهِ، فقالَ: مرحباً بِكَ مِن أخٍ وَنبيٍّ. فلمّا جاوزتُه بكى. فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا ربِّ، هذا الغلامُ الذي بُعِث بعدي، يَدخُلُ الجنةَ من أمته أفضلُ ما يَدخُل من أمتي. فأتَينا السَّماءَ السابعة. قيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جبريلُ. قيلَ: مَن مَعك؟ قالَ: مُحمّد. قيلَ: أوَقَد أرسِلَ إليهِ؟ قالَ: نَعم. قيلَ: مَرحباً بِهِ، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ. فأتيتُ على إبراهيم فَسلَّمتُ عليهِ، فقالَ: مرحباً بِكَ مِن ابنٍ وَنبيٍّ.

فرُفِع إليَّ البيتُ المعمورُ، فسألتُ جبريلَ، فقال: هذا البيتُ المعمورُ، يُصلّي فيه كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَكٍ، إذا خرجوا لم يَعودوا آخر ما عليهم. ورُفعت إليَّ سِدْرةُ المُنْتَهى، فإذا نَبـْقُها[١] كأنه قِلالُ[٢] هَجَرٍ[٣]، وورقها كآذان الفِيَلة، في أصلها أربعة أنهارٍ، نهران باطنان، ونهران ظاهران. فسألت جبريلَ، فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالفرات والنيل.

ثم فُرِضت عليَّ خمسون صلاة. فأقبلتُ حتى جئتُ إلى موسى. فقال: ما صَنَعتَ؟ قلت: فُرِضتْ عليَّ خمسون صلاة. قال: أنا أعلمُ بالناس منك. عالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، وإنّ أُمّتك لا تطيق، فارجِع إلى ربك فاسألْه التخفيفَ. فرجعتُ، فسألته، فجعلها أربعين، ثم مثلَه، فجعلها ثلاثين، ثم مثلَه، فجعلها عشرين، ثم مثلَه، فجعلها عشراً. فأتيت موسى فقال مثلَه، فجعلها خمساً. فأتيتُ موسى فقال: ما صنعتَ؟ قلت: جَعَلها

---

(١) النَّبْق: شجرة السِّدْر.

(٢) القِلال: ج قلة: إناء من فخار يشرب منه.

(٣) هَجَر: هي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وتسمى اليوم: الأحساء.

خمساً. فقال مثلَه. فقلت: سلَّمتُ. فنودِي: إنِّي قد أمضيتُ فريضتي، وخفَّفتُ عن عبادي، وأَجزي الحسنةَ عشراً.

* * *

ظاهر الحديث يدل على الإسراء بذات محمد المباركة، وفرض الصلاة بغير واسطة. والكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله عليه السلام: (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان) فيه دليل على جواز النوم في الحرم، لكن هل ذلك جائز مطلقاً أو لا يكون إلا لعلة؟ الظاهر أنه لعلة، لأنه يعارضه قوله عليه السلام: (إنما المساجد لما بنيت له)[1]. والعلة في نومه، عليه السلام، في الحرم ظاهرة من وجوه:

فمنها: أن البيت قلّ أن يخلو من الطائف به، فقد يكون، عليه السلام، أتى إلى الحرم فوجد الناس يطوفون، فقعد ينتظر فراغ الناس، ثم يدخل في الطواف فغلبته عيناه.

فمنها: أن يكون، عليه السلام، قعد يشاهد البيت، لأن مشاهدته من المرغب فيها والمندوب إليها.

ومنها: أن يكون، عليه السلام، قد طاف وتعب من الطواف، فقعد قليلاً يستريح من التعب المتقدم، ولكي تجمّ[2] النفس إلى عبادة أخرى. وإذا كان النوم بهذه النية فهو طاعة، والطاعات سائغ إيقاعها في الحرم. يشهد لما قلناه، من أن النوم يكون طاعة إذا صحبته تلك النية، مثل قصة معاذ وأبي موسى، رضي الله عنهما، حيث سأل أحدهما الآخر عن قراءة القرآن، فقال المسؤول: أقرأه قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وأفوّقه تفويقاً[3]، ولا أنام. وقال الآخر: أما أنا فأقوم وأنام وأحتسب[4] نَوْمَتي كما أحتسب قَوْمَتي. فلم يسلّم أحدهما للآخر، فترافعا إلى النبيّ ﷺ فقال عليه السلام للذي كان يفوّقه تفويقاً (هو أفقه منك) يعني الذي كان يحتَسِب نومَه كقيامه. وهذا نصّ في أن النوم إذا كان بالنية التي ذكرنا فهو طاعة، والطاعة سائغة هناك. ومن هذا الباب أجاز العلماء نوم المعتكف في المسجد لأنه غلبة وعون على الطاعة، ومنعوه للغير. ولهم حجة فيما نحن بسبيله على ما ذهبوا إليه.

---

(١) رواه مسلم عن بريدة رضي الله عنه أن رجلاً نَشَدَ في المسجد، فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر، فقال رسول الله ﷺ: لا وجدت، إنما المساجد لما بنيت له.

(٢) تَجِمّ النفس: تجتمع وتتهيأ.

(٣) أُفَـوِّقه (وأتفوَّقه) أي لا أقرأ جزئي بمرَّة، ولكني أقرأ منه شيئاً بعد شيء في آناء الليل والنهار. وهو من فُواق الناقة: وتعني الزمنَ بين الحَلبَتَين، لأنها تحلب ثم تترك سُوَيعة يرضعها الفصيل لتدُرّ ثم تُحلب.

(٤) احتسب: ادّخر الأجرَ عند الله.

الوجه الثاني: فيه دليل على تحرّي النبيّ ﷺ للصدق في المقال، وأنه لا يترك الحقيقة ويرجع إلى المجاز إلاّ لأمر لا بدّ منه في الكلام، لأنه من كان بين النائم واليقظان يسوغ أن يُطلِق عليه في اللغة نائماً، ويسوغ أن يُطلِق عليه يقظاناً[1]، لكن ذلك على المجاز، ولو قال: يقظاناً لكان نطق بالحقيقة أو قاربها، لأنه، عليه السلام، قلبه في نومه كما هو في يقظَته. يشهد لذلك قوله عليه السلام: (تنام عيناي ولا ينام قلبي)[2]. فلم يبق نومه، عليه السلام، إلا في الجوارح الظاهرة، ثم الجوارح في هذه المدة لم يكن النوم قد تسلّط عليها، والظاهر كان كالمتيقظ، والباطن متيقظ في كل حال. لكن عدل، عليه السلام، عن ذكر اليقظة ليبيّن الأمر على ما كان عليه، دفعاً للمجاز.

الوجه الثالث: قوله (وذكر بين الرجلين) يريد أنه كان مضطجعاً بين رجلين. (وفي هذا دليل) على تواضعه، عليه السلام، وحسن خُلُقه، إذ إنه في الفضل حيث هو، ولكنه كان يضطجع مع الناس، ويقعد معهم، ولم يجعل لنفسه المكرمة مزيّة عليهم.

الوجه الرابع: فيه دليل على جواز النوم جماعة في موضع واحد، لكن يشترط في ذلك أن يكون لكل واحد منهم ما يستر به جسده عن صاحبه.

الوجه الخامس: قوله عليه السلام: (فأُتيتُ بطَسْت من ذهب مُلِيءَ حكمة وإيماناً) الطست هو: إناء يعمل في الغالب من نحاس، وهو مبسوط القاع، معطوف الأطراف إلى ظاهره، يتخذه الناس لغسل أيديهم في الغالب.

الوجه السادس: فيه دليل على فضيلة هذا الإناء، إذ إنه أُتِي به للنبي ﷺ وخُصِّص به دون غيره.

الوجه السابع: لقائل أن يقول: لِمَ أُتِي له، عليه السلام، بالطّست من ذهب، والذهب في شريعته، عليه السلام، محرَّم؟

(والجواب) أن تحريم الذهب إنما هو لأجل الاستمتاع به في هذه الدار، وأما في الآخرة فهو للمؤمنين خالصاً، لقوله، عليه السلام: (هو لهم في الدنيا وهو لنا في الآخرة)[3]. ثم إن الاستمتاع بهذا الطست لم يحصل منه، عليه السلام، وإنما كان غيره هو الجالب له، والمتناول لِما كان فيه

---

(١) كذا بالتنوين، وهو جائز على لغة بعض العرب.

(٢) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أتوتر قبل أن تنام؟ قال: إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي.

(٣) قطعة من حديث رواه الشيخان عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ولفظه: قال رسول الله ﷺ: لا تشربوا في إناء الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة.

حتى وضعه في القلب المبارك. فسَوَقان الطَّسْت من هناك، وكونه كان من ذهب، دال على ترفيع المقام. فانتفى التعارض بدليل ما قررناه.

الوجه الثامن: فيه دليل على أن الإيمان والحكمة جواهر محسوسات لا معان، لأنه عليه السلام، قال عن الطست أنه أُتِيَ به مملوءاً حكمة وإيماناً، ولا يقع الخطاب إلا على ما يفهم ويعرف، والمعاني ليس لها أجسام حتى تَملأ الإناء، وإنما يمتلىء الإناء بالأجسام والجواهر وهذا نص من الشارع، عليه السلام، بخلاف ما ذهب إليه المتكلمون في قولهم بأن الإيمان والحكمة أعراض.

والجمع بين الحديث وما ذهبوا إليه هو أن حقيقة أعيان المخلوقات التي ليس للحواس إليها إدراك، ولا من النبوة بها إخبار، أن الإخبار عن حقيقتها غير حقيقة، وإنما هو غلبة ظن، لأن للعقل بإجماع أهل العقل المؤيَّدين بالتوفيق حدّاً يقف عنده ولا يتسلط فيما عدا ذلك، ولا يقدر أن يصل إليه. فهذا وما أشبهه منها، لأنهم تكلموا على ما ظهر لهم من الأعراض الصادرة عن هذه الجواهر التي ذكرها الشارع، عليه السلام، في الحديث، ولم يكن للعقل قدرة أن يصل إلى هذه الحقيقة التي أخبر بها، عليه السلام. فيكون الجمع بينهما أن يقال: ما قاله المتكلمون حق، لأنه الصادر عن الجوهر، وهو الذي يدرك بالعقل، والحقيقة هي ما ذكره، عليه السلام، في الحديث.

ولهذا نظائر كثيرة بين المتكلمين وآثار النبوة، ويقع الجمع بينهما على الأسلوب الذي قررناه وما أشبهه، وقد نشير لشيء من ذلك ليتنبه لما عداه. فمثل ذلك (الموت) كيف أخبر، عليه السلام، في الحديث أنه يُؤتَى به يوم القيامة كبشاً أملح[1]، فيذبح بين الجنة والنار بعدما يعرض لأهل تلك الدارين فيعرفونه. ومثل ذلك أيضاً الأذكار والتلاوة لأن ما ظهر منها هنا معان، وتوجد يوم القيامة جواهر محسوسات، لأنها توزن في الميزان، ولا يوزن في الميزان إلا الجواهر.

الوجه التاسع: فيه دليل لأهل الصوفة وأصحاب المقامات والتحقيق لأنهم يقولون: إنهم يَرَوْن قلوبَهم وقلوبَ إخوانهم وإيمانَهم وإيمانَ إخوانهم بأعين بصائرهم جواهر محسوساتٍ، فمنهم من يُعايِن إيمانَه مثلَ المصباح، ومنهم من يعاينه مثلَ الشمعة، ومنهم من يعاينه مثل المِشعل، وهو أقواها. ويقولون بأنه لا يكون المحقِّق محققاً حتى يعاين باطن قلبه بعين بصيرته كما يعاين كفَّه بعينِ بَصره، فيعرف الزيادة فيه من النقصان. وكذلك أيضاً يقولون في الحكمة بأنهم يعاينونها بأعين بصائرهم تَتَنابَع من جوانب أفئدتهم كما تَتَنابَع عيون الماء على اختلافها، فبعضها ينبع نبعاً يسيراً وبعضها ينبع نبعاً كثيراً.

---

(١) كبش أملح: خلط بياض جلده سواد.

فمن قوي منهم إيمانه وكثرت حكمته لا يطيق السكوت، لأنه يتنعم بذكر تلك الحكم كما يتنعم صاحب الغذاء بحسن الغذاء، وربما إذا اشتد عليهم الحال ومنعوا من الكلام كان ذلك سبباً لموتهم، حتى لقد حكي عن بعضهم أنه كان إذا جاءه الحال، وهو في مجلس شيخه، لا يطيق السكوت، فيغلب عليه الحال فيتكلم، فكلمه شيخه في ذلك وأمره بالسكوت، فلما أن ورد عليه الحال بعد ذلك التزم السكوت انصياعاً لأمر الشيخ به، فتحمل ذلك فمات من حينه.

يؤيد ما قررناه عنهم أولاً ويوضحه قوله عزّ وجلّ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾[1] نقل صاحب التحصيل[2] في مختصره عن العلماء أنهم قالوا: إن الضمير عائد على المؤمن، تقديره: مثل نور المؤمن كمشكاة، والمشكاة هي الحديدة التي في وسط القنديل الذي يوضع فيه الفتيل، فقالوا: المشكاة مَثَل لصدر المؤمن، والزجاجة قلبه، والمصباح إيمانه.

ونقل أيضاً عن العلماء في معنى قوله تعالى ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[3] أن الذين يعلمون الناس السحر ببابل إذا أتاهم من يريد تعلّمَ سحرهم يقولون له: إنما نحن فتنة فلا تكفر. فإن أبى إلا أن يتعلم قالا له: ائتِ هذا الرَّمادَ فَبُلْ فيه. فإذا بال في ذلك الرماد خرج منه نور يسطَع إلى السماء، وهو الإيمان، وخرج من الرماد دخان أسود يدخل في أذنيه، وهو الكفر. فإذا أخبرهما بما رآه عَلَّماه.

فهذه الآيُ بظواهرها ومعانيها مع نص الحديث الذي نحن بسبيله حجة لأهل التحقيق والمكاشفات فيما نقلناه عنهم. وقد حُكي عن بعض الفضلاء منهم، رحمه الله، في حكاية يطول كَتْبُها هنا أنه قدر عليه بأن يتنصّر، ثم عاد بعد ذلك إلى الإسلام وحَسُن حالُه أكثر مما كان أولاً، فكان يقول: إنه رأى أولاً قبل كفره طائراً أخضرَ قد خرج من فمه، فمنذ خرج منه لم يلتفت إلى الإيمان ولم يرجع إليه، وكان إذا ذُكِّر بالإسلام ووُعِظ يقول: أعلمُ كل ذلك. ولم يجد سبيلاً إلى الرجوع، فلما أن تلافاه الله تعالى بعفوه وإفضاله فإذا بالطائر الأخضر قد أتاه فدخل في حلقه، فإذا هو قد رجع إليه الإيمان وانشرح صدره بالحكمة، واتسع.

---

(١) سورة النور، من الآية ٣٥.

(٢) صاحب التحصيل هو أحمد بن عمار المهدوي المغربي المتوفى بعد سنة ٤٠٠هـ و(التحصيل) كتاب في التفسير مختصر من كتاب (التفصيل الجامع لعلوم التنزيل في التفسير). (من كتاب كشف الظنون ص ٤٢٦ وإنباه الرواة ١/ ٩١).

(٣) سورة البقرة، من الآية ١٠٢.

يؤيد ما قالوه وما شاهدوه قوله عليه السلام: (من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[1] وهم قد عاينوا ينابيع الحكمة كيف هي على من نفسه عنهم، وعاينوا حقيقة الإيمان كما وصفنا. رزقنا الله من الهدى والنور ما رزقهم، وألحقنا في الدنيا والآخرة بهم بمنّه. إنه وليّ كريم.

هذا ما تضمنه اعتقاد أهل التحقيق وما تضمنته أحوالهم. وأما أئمتنا في الفقه فظاهر مذهب الشافعي، رحمه الله، موافق لأهل الكلام، لأن أصحابه ينقلون عنه أن الإيمان يزيد موافقة لما ذكر الله عزّ وجلّ، في كتابه، ويقولون بأن النقص لا يمكن فيه، لأنه على زعمهم عرض، والنقص في العَرَض ذهابه. وأما أبو حنيفة، رحمه الله، فيقول بأنه لا يزيد ولا ينقص. وظاهر مذهب مالك، رحمه الله، موافق لأهل الحقيقة فيما قررناه عنهم، لأن أصحابه ينقلون عنه أن الإيمان عنده يزيد وينقص. وقد مثله بعض أصحابه بماء العين، يزيد مرة وينقص أخرى، ولم يعدم الماء من العين.

وهذا هو الحق الذي لا خفاء فيه، بدليل ما قررناه من الآي والأحاديث، وما شهده أهل التحقيق عِياناً، ولأنه، عليه السلام، قد قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[2] الحديث بكماله. وجاء من طريق آخر قال فيه (إن الإيمان يخرج منه حين الفعل فيبقى على رأسه كالظُّلّة)[3] ولو كان عَرَضاً لم يتأتَّ أن يقوم بنفسه، حتى إنه يبقى كالظلّة على رأسه.

هذا ما تضمنه البحث في حقيقة الإيمان ما هو على طريقة أهل الفقه وأهل التحقيق، مع أنه ليس أحد الوجهين ـ أعني هل يكون الإيمان جوهراً أو عَرَضاً ـ بالنسبة إلى القدرة من طريق المستحيل. ولهذا كان الصحابة والسلف والصدر الأول، رضوان الله عليهم، لم يتكلموا في هذا ولا أمثاله، لأن المقصود منا الذي لأجله أنزلت علينا الكتب، وأرسلت إلينا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، إنما هو التصديق الخالص والعمل الصالح. والشغل بهذين الأمرين أولى، بل هو الواجب، ويجب الإضراب عن الشغل بغيرهما، لأن الاشتغال بغيرهما شغل عنهما، وذلك سبب لترك ما أريد منا.

لكن لما أن تشاغل قوم بالأخذ في هذا وأشباهه، وأطلقوا أن الأمر كما ظهر لهم من علم العقل ـ على زعمهم ـ حتى صار الأمر عندهم أن من لم يعتقد مثل اعتقادهم منسوب إلى المذاهب

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. وللحديث عدة روايات بطرق مختلفة ومعان متشابهة.

(٣) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع القميص من رأسه.

الفاسدة، فاحتجنا لأجل هذه العلة أن نبين مذهب أهل التحقيق والتوفيق ومذهب الصحابة والسلف، رضوان الله عليهم، بنص الكتاب والسنة كما ذكرناه قبل، لكي يتبين بذلك الحق من الباطل والضعيف من القوي.

فإن اعترض معترض لتخصيص لفظ الحديث من طريق علم العقل فقد سقط بحثه فلا يُعَبأ به، لأنه قد قدّمنا في الأحاديث المتقدمة قول فقهاء الدين وأئمته أن عموم القرآن يُخصَّص بالقرآن. واختلفوا هل يُخصَّص عموم القرآن بالسنة المتواترة أم لا؟ على قولين. ولم يختلفوا أن القرآن لا يخصَّص بأخبار الآحاد، وكذلك اتفقوا على أن عموم الحديث يُخصَّص بالحديث. واختلفوا هل يخصَّص بإجماع جلّ الصحابة أم لا؟ على قولين.

ولأجل ذلك اختلف مالك والشافعي، رحمهما الله، في عمل أهل المدينة إذا وجد الحديث بخلافه. فقال مالك، رحمه الله: أهل المدينة أهل دار الهجرة ومجمع جلّ الصحابة العارفين بأحكام الله وسنة نبيه، عليه السلام، ولم يتركوا العمل بحديث إلا وقد صح عندهم نسخه، ولم يبلغنا نحن ذلك. وأبى الشافعي، رحمه الله، ذلك، وأخذ بمقتضى الحديث.

وأما تخصيص لفظ الحديث بنظر غير الصحابة ورأيه فلا يجوز بالإجماع، لأن الحكم لقول الشارع، عليه السلام، لا لغيره.

لكن قد يسوغ الجمع بين ما ذهب إليه المتكلمون وبين ما ذهب إليه أهل التحقيق بمعنى لطيف، وهو: أنه لما نظر أهل العقل إلى الآي والأحاديث بنفس الدعوى، وحصروا قدرة القادر بمقتضى دليل عقلهم، جاء لأجل هذه الدعوى في عين البصيرة ضعف، فلم يروا شيئاً، فرجعوا إلى مقتضى ما دل عليه عقلهم، فقالوا: الإيمان عَرَض. وغطّى عليهم إذ ذاك مفهوم ما احتوى قوله، عليه السلام: (إيمان المؤمن نور يتوقد في صدره). ولما نظر أهل التحقيق بخالص الصدق والتصديق وتعظيم القدرة وإجلال القادر رأوا النور فقالوا: الإيمان نور، والتصديق عَرَض، فزادهم إيماناً وقالوا: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل.

يؤيد هذا ويوضحه ـ أعني ما ذكرناه من الجمع بين المذهبين ـ ما حكي عن بعض الفضلاء من أئمة التحقيق أنه كشف له عن شيء من آثار القدرة، فنظر إليها عِياناً، فأدركه الخجل لعظم ما رأى، فأخذ في التذلل والاعتذار، لكونه يرى أن ليست نفسه لذلك أهلاً، فخوطب بأن قيل له: عملت على الحق فأُرِيتَ الحقيقة، وعملوا على التأويل فعوملوا بحسب ما عملوا، وعند الله تجتمع الخصوم. ولأن الحقيقة في الأمور كلها لقول الشارع، عليه السلام، وقول غيره في ذلك ردّ، وليس يمكن أخذ جميع الأمور بمجرد العقل، لا بالحاضرة منها ولا بالغائبة. ومن ادّعى ذلك فهو منه

جهل، لأنه لو كان ذلك كذلك لكان فيه مشاركة للربوبية، وهو باطل، لأنه لا يعلم الغيب إلا عَلاّمها، وبذلك تصح الوحدانية.

فقلِّدْ أيها السامع أيَّ الطرق شئتَ، فقد أوضحتُ لك الطرق وما فيه الرشد، وبينت سبله.

(تنبيه) لقائل أن يقول: لِمَ رأى، عليه السلام، مزيد الإيمان، وأنه بالإيمان [illegible] أولاً، لأن الأنبياء والرسل عليهم السلام، أقوى إيماناً من جميع العالمين؟

(والجواب عنه) أن نفس رؤية المزيد فيها من الحكمة وجوه: (منها) زيادة حقيقة الإيمان والحكمة جواهر حتى يتحققها على ما هي عليه، وهذه مزية له، عليه السلام، خُصّ بها. (ومنها) أن المعاينة لذلك بشارة برفع المنزلة. (ومنها) أنْ بنفس الرؤية لذلك يزيد الإيمان قوة حساً ومعنى، فالحسي هو وضعه في القلب، والمعنوي هو ما يحصل من قوة الإيمان بسبب الزيادة المذكورة. (ومنها) أنه، عليه السلام، لما أن كان في هذه الدار كان أقواهم إيماناً بحسب ما هو الإيمان في أهل الدنيا، فلم يحتج لرؤيته لقوة ما عنده من التصديق، ولما أن شاء الله الإسراء به إلى العالم العلوي، وهم أقوى إيماناً من هذا العالم، إذ هم مشاهِدون لأشياء لا يشاهدها أهل هذا العالم، فعل ذلك لنبيه ﷺ حتى حصل له الإيمان بالتصديق والمشاهدة، وزيد له فيه بالحس والمعنى، حتى كان أعلى من ذلك العالم إيماناً. يشهد لذلك قوله تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ. لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[1] فلم يقع الثبات مع معاينة تلك الآيات الكبار إلا لما قوي عنده من الإيمان والحكمة، فكان، عليه السلام، جديراً بما خُصّ به من الثناء والمدحة. ووجوه كثيرة من هذه المعاني تتعدد، وفيما أشرنا إليه كفاية.

الوجه العاشر: فيه دليل على أن ما بعد الإيمان أجلّ من الحكمة، ولولا ذلك ما قرنت معه. ومنه قوله تعالى ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2]

الوجه الحادي عشر: في معنى الإيمان والحكمة. أما الإيمان فقد تقدم الكلام عليه، وأما الحكمة فقد اختلف العلماء فيها. فقيل: الحكمة هي وضع الشيء في موضعه. وقيل: الحكمة هي الفهم في كتاب الله، عزّ وجلّ. والكلام معهم فيما قالوه فيها قد أشرنا إلى بعضه آنفاً. والجواب عنها كالجواب عن الإيمان. وقد أشرنا لكل ذلك، فأغنى عن إعادته.

الوجه الثاني عشر: هل الإيمان والحكمة متلازمان لا يوجد أحدهما حتى يوجد الآخر، أو كل واحد منهما مستقل بنفسه؟ الظاهر أن كل واحد منهما مستقل بنفسه، لأن الإيمان ليس من شرطه

---

(١) سورة النجم، الآيتان ١٧ و ١٨.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٦٩.

أن تكون الحكمة معه، بدليل قوله عليه السلام (من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[1]. فقد شهد له، عليه السلام، بالإيمان، والحكمة لم تكن عنده إذ ذاك، لأنه، عليه السلام، قال (مَنْ أخلَص) والإخلاص هو حقيقة الإيمان. فعلى هذا فكل واحد منهما مستقل بنفسه، وجمعهما هو الأعلى والأرفع.

لكن بقي بحث، وهو أنه إن كانت الحكمة المراد بها الوجه الأول الذي ذكرناه من الاختلاف فيه، فقد توجد مع الإيمان، وقد توجد مع عدمه. وبهذا التوجيه يتقرر ما ذكرناه وهو أن كل واحد منهما مستقل بنفسه، لكن هذا الاستدلال مرجوح وليس بالقوي، لأنه إذا قلنا بأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه فالإيمان أولى أن تدل عليه الحكمة لأنه هو الأول، والكفر من الحمق، والحمق ينافي الحكمة. فعلى هذا فهي مرتبطة بالإيمان لا بد منه عند وجودها، وإلا فلا حكمة إذ ذاك.

وإن قلنا بأن الحكمة هي الفهم في كتاب الله تعالى فهي مرتبطة بالإيمان على كل حال لا بد منه أولاً. فعلى هذا فقد يوجد مؤمن عَرِيّ عن الحكمة، وقد يوجد بهما معاً ولا ينعكس، وهو أن يوجد حكيم عريّ عن الإيمان.

الوجه الثالث عشر: فيه دليل على أن الملائكة، عليهم السلام، تعرف بني آدم وتميزهم، كل واحد بعينه، لأن الملائكة أتوا للنبيّ ﷺ وأخذوه من بين أصحابه، وكذلك أيضاً أخذوه من بين إخوانه وهو صبي صغير السن، وكذلك الآن. فلو لم يكن لهم ميز بالأشخاص لاختلط عليهم. وهذا دليل على عظيم قدرة الله تعالى، إذ إن أهل العالم العلوي يميزون أجزاء هذا العالم.

الوجه الرابع عشر: قوله عليه السلام (فشق من النحر إلى مراق البطن) فيه دليل على أن قدرة الله، عزّ وجلّ، لا يعجزها شيء، ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده، وليست مربوطة بالعادات، لأنه على ما يعرف ويعهد أن البشر إذا شقّ بطنه كله انجرح ومات، ولم يعش، وهذا النبيّ ﷺ قد شق بطنه المكرمة[2] حتى أخرج القلب فغسل، وقد شق بطنه المكرم[2] كذلك أيضاً وهو صغير، وشق عن قلبه وأخرجت منه نزغة الشيطان. ومعلوم أن القلب إذا وصل له الجرح مات صاحبه. وهذا النبيّ ﷺ شق بطنه في هاتين المرتين ولم يتألم بذلك ولم يمت. لما أن أراد الله، عزّ وجلّ، ألا يؤثر ما أجرى به العادة أن يؤثر فيها موت صاحبها عندها أبطل تلك العادة مع بقاء جوهرها، لأن الشق قد وجد على البطن والقلب، وما يتولد من ذلك في جري العادة قد عدم.

وكذلك جميع الأشياء على هذا الأسلوب، مثل النار والماء وغيرهما من الخواص إن شاء عزّ

---

(١) تقدم تخريجه قبل عدة صفحات.
(٢) كذا بالتأنيث والتذكير.

وجلّ، ألا يروي الشارب بقُلّة الماء فعَل، وإن شاء ألا يحرق [illegible] تجربة فيما نحن بسبيله. وقد رمي إبراهيم، عليه السلام، في [illegible] بردًا وسلامًا، وكل الخواص بهذه المثابة، إن شاء، عزّ وجلّ، أبقى لها خاصيتها، وإن شاء سلبها مع بقاء جوهرها.

الوجه الخامس عشر: لقائل أن يقول: لم كان شق البطن وحشوه إيمانًا وحكمة، والله، عزّ وجلّ، قادر على أن يوجد له ذلك في بطنه من غير أن يفعل به ما فعل؟

والجواب عنه: أنه، عليه السلام، لما أن أعطي قوة الإيمان والحكمة، وقوة التصديق إذ ذاك، أعطي برؤية شق البطن والقلب عدم الخوف من جميع العادات الجارية بالمهلكات. فحصلت له قوة إيمان من ثلاثة أوجه: بقوة التصديق، وبالمشاهدة، وبعدم الخوف من العادات المهلكات فكمل له بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان بالله، عزّ وجلّ، وعدم الخوف مما سواه.

ولأجل ما أعطي مما أشرنا إليه، كان، عليه السلام، في العالمين أشجعهم، وأثبتهم وأعلاهم حالاً ومقالاً. ففي العلوي كان، عليه السلام، كما أخبر أن جبريل، عليه السلام، لما أن وصل معه إلى مقامه قال له (ها أنت وربك. هذا مقامي لا أتعداه) وزج، عليه السلام، في النور زجّة ولم يتوانَ ولم يلتفت، وكان هناك في الحضرة كما أخبر عزّ وجلّ عنه بقوله ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ[1] ﴾. وأما حاله، عليه السلام، في هذا العالم فكان إذا حمي الوطيس في الحرب ركض ببغلته في نحر العدو، وهم شاكون في سلاحهم، ويقول (أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب)[2]. وقد كانت الصحابة، رضوان الله عليهم، يقولون: الشجاع منا الذي كان يتقي به عند شدة الحرب.

الوجه السادس عشر: فيه دليل لأهل الصوفة في قولهم: بأن عمل المبتدي كسب، وعمل المنتهي ترك، لأن النبيّ ﷺ في ابتداء أمره كان تخليه بالضم والغط، وهي زيادة في الشدة والقوة - كما مر الكلام عليه في حديث ابتداء الوحي - وكان تخليه هنا بالغسل وهو تنظيف المحل، وكذلك حال المبتدي والمنتهي عندهم. فالمبتدي شأنه الكسب، وهو الأخذ في الأعمال الصالحات، وهي القوة والشدة، والمنتهي شأنه النظر في الباطن، وما يتعلق به من الشوائب. فكل شيء يرى فيه شيئاً ما من تعلق الشوائب تَرَكَه حتى يتنظف الباطن من الأكدار، ولا يبقى فيه غير الله تعالى.

فإن قال قائل: فيلزم على هذا أن يكون في باطن النبيّ ﷺ شيء من الكدر حتى احتيج إلى غسله وذلك باطل. قيل له: ذلك لا يلزم، لأن الغسل له، عليه السلام، ليس من باب إزالة

---

(١) سورة النجم، من الآية ١٧.

(٢) متفق عليه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

الأكدار، وإنما هو تشريع لأمته فيما أشرنا إليه، وإعظام لشعائر الله، عزّ وجلّ، لأن ما يلقى في ذلك المحل الشريف من شعائر الله تعالى، وقد قال تعالى ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾(١).

الوجه السابع عشر: قوله عليه السلام (فأُتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار: البُراق) فيه دليل على أن البُراق أفضل الدواب وأشرفها، إذ إنه خص بهذا المقام وهو سيره إلى العالم العلوي، وركوب خير البشر عليه من هنا إلى هناك.

الوجه الثامن عشر: لقائل أن يقول: لم اختص، عليه السلام، بركوب البُراق دون غيره من الدواب مثل الخيل والنوق وغيرهما. والجواب عنه أنه إنما خص، عليه السلام، بركوب البُراق زيادة في التشريف والتعظيم، لأن غيره من الدواب يقدر غيره على ملكه والتمتع به، والبراق لم يُنقل أن أحداً مَلَكه وتمتع به كما يتمتع بغيره من البهائم. وهذا هو نفس التعظيم والتشريف، إذ إن القدرة قد أحكمت أن كل ما عدم في الوجود وُجدانُه غلا خطره.

فإن قيل: فلو كان ذلك زيادة في التشريف والتكريم لكان ركوبه على دابة من دواب الجنة إذ هي أفضل وأبرك، أو لَرَفَعَه جبريل، عليه السلام، على جناحه أو أحد من الملائكة، أو أعطي قوة حتى يصعد بنفسه ولا يحتاج إلى مركوب. والجواب عنه أن هذا كله إنما هو زيادة له، عليه السلام، في التشريف والتعظيم. ولو كان ركوبه، عليه السلام، على دابة من دواب الجنة، أو لأحد من الملائكة، أو مشى بنفسه المكرمة، لم يكن له فيه ما كان له في ركوبِ البُراق والسيرِ به.

بيان ذلك: أنه لو صعد بنفسه لكان ماشياً على رجليه، والراكب أعز من الماشي، فأُعطي المركوب ليكون أعزَّ له وأشرف، ولكي يُعلَم أن له ﷺ عند الله تعالى مكاناً حتى إنه يأتي وهو راكب، فيكون ذلك له بشارة بالخير والحظوة عند ربه؛ لأن الإتيان بالمركوب من الله تعالى بشارة له، عليه السلام، برفع المنزلة والكرامة. ومثل هذا في الدنيا والآخرة موجود. ففي الدنيا محسوس وفي الآخرة بالأخبار منقول. أما في الدنيا فلأن المَلِك إذا بعث إلى شخص بالخِلَع والمركوب فبقدر الخِلَع وحسن المركوب يستدل على منزلته عند الملك. وفي الآخرة ما روي أنْ يوم القيامة يأتي المؤمنون منهم من هو راكب نُوَق اللحم، ومنهم من هو راكب نُوق الذهب وأَزِمَّتها الزَّبَرْجَدُ، إلى غير ذلك مما جاءت الأخبار به. كل إنسان بحسب منزلته، والملائكة تأتيهم أفواجاً بالبشارة وتقول لهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الحج، من الآية ٣٢.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٣.

وإنما لم يكن مركوبه، عليه السلام، دابة من دواب الجنة، أو جناح ملك، لأنه لو كان على ذلك لكان الظاهر أن المركوب حمل الراكب، فلما أن ركب البراق، والذي هو محمول بقدرة، وهو مخلوق في الدنيا، وليس من عادته الطيران في الهواء، وإنما هو من دواب الأرض المشي، فعلم عند ذلك أن الراكب هو الحامل لنفسه والحامل لمركوبه، إذ إن هذه الدابة لا معرفة لها بالصعود في الهواء أصلاً.

فإن قيل: فالنبي ﷺ من البشر، ومحال في حق البشر الصعود في الهواء، كما هو محال في حق الدواب. قيل: (الجواب) أن البشر ليس هو الصاعد بنفسه، وإنما المحمول، الصاعد به هو القوة الإيمانية الذي مُنَّ عليه به، والنبي ﷺ لم يكن ليُسرى به حتى مُلئت بطنه المكرمة بالإيمان والحكمة، فلما أن امتلأ بالإيمان والحكمة كان له من القوة ما يحمل نفسه وغيره، فبقدر الإيمان، قوته يكون السمو والترقي، ولهذا قال عليه السلام (رحم الله أخي عيسى لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء)(١) هذا من طريق مقتضى الحكمة.

وفي الحقيقة القدرةُ هي حاملة للكل كالعرش وحملته، لأن حملة العرش حين أُمروا أن يقوموا بالعرش لم يطيقوا حتى قيل لهم: قولوا (لا حول ولا قوة إلا بالله) فلما أن قالوها قاموا بالعرش، فالتفتوا فإذا أقدامهم على غير شيء، فهم متمسكون بالعرش لا يفترون من قولهم (لا حول ولا قوة إلا بالله) خيفة لئلا يفلت أحدهم فلا يعرف أين يهوي، فهم حاملون العرش، والعرش حامل لهم، والكل محمولون بالقدرة. وهم في عظم خلقهم كما أخبر، عليه السلام، عن بعضهم حيث قال (أُمرت أن أحدثكم عن أحد حملة العرش: ما بين شحمة أذني أحدهم(٢) مسيرة الطائر مائة سنة. وأمرت أن أحدثكم عن أحد حملة العرش غلظ قرنه ما بين المشرق والمغرب)(٣). ولكل واحد منهم، على ما جاء في حديث آخر (قرنان مثل قرون الوعول). فإذا كان كل واحد من هذين القرنين غلظه هكذا فناهيك بالرأس الذي يكون فيه ذانك القرنان، وناهيك بالجسد الذي يكون فيه هذا الرأس. فسبحان من أظهر بديع حكمته بعظيم قدرته.

---

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) يريد: ما بين شحمتي أذني أحدهم.

(٣) رواه أبو داود وابن عساكر والضياء في المختارة عن جابر رضي الله عنه بلفظ: أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حَمَلة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام. وفي رواية لأبي نعيم في الحلية عن جابر وابن عباس رضي الله عنهم بلفظ: أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السابعة السفلى على قرنه العرش، ومن شحمة أذنه إلى عاتقه كخفقان الطير مسيرة مئة عام. وفي رواية للخطيب البغدادي: (مسيرة سبعمائة سنة خفقان الطير).

الوجه التاسع عشر: فيه دليل لأهل الصوفة حيث يقولون: فلان مقامه في سماء الدنيا، وفلان مقامه في الثانية. ثم كذلك إلى أن يبلغوا إلى (قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى). ويعنون بذلك ما رزقوا من قوة الإيمان واليقين، فكشفوا بأسرارهم ذلك العالم، كل منهم بحسب قوته في إيمانه ويقينه.

ولهم فيما نحن بسبيله أدل دليل، لأن النبيّ ﷺ لم يُسرَ به حتى مليء حكمة وإيماناً، ثم لما أن مُنّ عليه بذلك أسري به من سماء إلى سماء، إلى (قاب قوسين أو أدنى). وهم الوارثون له، عليه السلام. فلهم في ذلك نسبة، لكنّ بينهم وبين النبيّ ﷺ في ذلك فرقاً، وهو أنه، عليه السلام، حصلت له الخصوصية لكونه سرى بذاته المباركة، وتكلم بلسان فمه، ورأى بعين رأسه - على ما قاله ابن عباس - وسمع الخطاب بأذن رأسه وأذن قلبه. وغيره من الوارثين له لم يصلوا هناك إلا بأسرارهم. ولم يروا إلا بأعين قلوبهم.

ومما يبيّن هذا ويوضحه ما حكي عن بعض فضلائهم أنه لمّا أنْ مُنَّ عليه بقوة الإيمان واليقين، واتبع سنّة هذا السيد الكريم على ربه، صاحب هذا المقام العظيم ﷺ في كل حركاته وسكناته وأنفاسه. أسري بسرّه من سماء إلى سماء، إلى (قاب قوسين أو أدنى) ثم نودي: هنا أسري بذات محمّد السنية حيث أسري بسرك.

ولأجل هذا كانوا أبداً ليس لهم شغل غير النظر في تقوية إيمانهم ويقينهم، لأن به يسلكون، وهو حاملهم. ومما يزيد هذا وضوحاً وبياناً قوله، عليه السلام (ما فَضَلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بشيءٍ وَقَر في صدره) والشيء الذي وَقَر في صدره هو قوة اليقين والإيمان. وقد صرح، رضي الله عنه، بذلك حيث قال (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً).

الوجه العشرون: فيه دليل لأهل الصوفة في قولهم: (لا يكون تَحَلٍّ إلا بعد تَخلٍّ)، لأنه لم يوضع الإيمان والحكمة في البطن المباركة حتى شُقّت وغُسِلت، وحينئذ مُلِئت. فالشق والغسل هو التخلي، وما مُلِيء به من الإيمان والحكمة هو التحلي. فعلى قدر التخلي يكون التحلي. ولهذا أشار بعضهم بقوله (من سرّه أن يرى ما لا يسوؤه فلا يتخذ له شيئاً يخاف له فقداً، لأن ما سوى الله مفقود). فمن أراد الفوز بهذا التحلي فليعزم على قوة هذا التحلي حالاً ومقالاً، ومن لم يقدر على الكل فلْيعمل على البعض، لأن التحلي يكون بقدر التخلي. والحذَرَ الحذَرَ من أن تهملَ نفسك، وترضَى بحظٍ بخسٍ، فذلك هو الحرمان.

الوجه الحادي والعشرون: قوله عليه السلام (ثم غسل البطن بماء زمزم) ما المراد بالبطن هنا؟ هل البطن نفسه أو ما في البطن وهو القلب؟ الظاهر أن المراد القلب، لأنه جاء في رواية أخرى ذكر

القلب ولم يذكر البطن، وقد يحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع الجمع بينهما بأن يقال: أخبر، عليه السلام، مرةً بغسل البطن ولم يتعرض لذكر القلب، وأخبر مرة بغسل القلب ولم يتعرض لذكر البطن، فيكون قد حصل فيهما معاً مبالغة في تنظيف المحل.

الوجه الثاني والعشرون: لقائل أن يقول: لِمَ غُسل البطن وقد كان طاهراً مقدساً وقابلاً لما يُلقى إليه من الخير، وقد غسل أولاً وهو، عليه السلام، صغير السن، وأُخرجت من قلبه نزغة الشيطان؟ فما فائدة هذا الغسل الثاني؟

والجواب عنه: أن هذا الغَسل إنما كان إعظاماً وتأهباً لما يلقى هناك. وقد جرت الحكمة بذلك في غير ما موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متنظفاً، لأن الوضوء في حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، وكذلك أيضاً الزيادة على الواحدة أو الاثنتين إذا أسبغ بالأولى، لأن الإجزاء قد حصل، وبقي ما بعد الإسباغ إلى الثلاث إعظاماً لما يُقدم عليه. وكذلك غسل البطن هنا. وقد قال تعالى ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[1] فكان الغسل له، عليه السلام، من هذا القبيل وإشارة لأمته بالفعل بتعظيم الشعائر، كما نص لهم عليه بالقول، وإشارة لهم أيضاً فيما تقدم ذكره من التخلّي والتحلّي.

فإن قال قائل: لو كان الأمر بالزيادة على الإسباغ إعظاماً للشعائر لكانت الزيادة على الثلاث أولى، إذ إنه بحسب الزيادة كان تعظيم الشعائر أكثر. قيل له: الأمر كذلك، لكن الله عزّ وجلّ بالمؤمنين رحيم، فمن رحمته، عزّ وجلّ، بهم أن منعهم الزيادة على الثلاث تخفيفاً عليهم ولطفاً بهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2].

الوجه الثالث والعشرون: فيه دليل على فضيلة بئر زمزم على غيره من المياه، إذ إنه، عليه السلام، اختص بأن غسل منه هذا المحل الجليل في هذا الموطن الرفيع.

الوجه الرابع والعشرون: لقائل أن يقول: لِمَ يغسل بماء الجنة الذي هو أطيب وأبْرَكُ؟ (والجواب) عنه أنه لو غسل بماء الجنة دون استقراره في الأرض لم يبق لأمته أثر بركةٍ. فلمّا غسل بماء زمزم - وهو مما استقر من ماء السماء بالأرض، على ما قاله ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾[3] فقال: كل ماء في

---

(١) سورة الحج، الآية ٣٢.

(٢) سورة الملك، الآية ١٤.

(٣) سورة المؤمنون، من الآية ١٨.

الأرض إنما هو مما نزل من السماء. وقد جاء في الأثر (أن ما من مطر ينزل إلا وفيه مزاج من الجنة، وتكون البركة فيه بقدر المزاج ـ فعلى[1] هذا فقد غسل بماء كله من الجنة أو بعضه، مع زيادة فوائد جمة.

(منها) ما ذكرناه من إبقاء البركة لأمته. (ومنها) أنه خص مقره بهذه الأرض المباركة. (ومنها) أنه خص به الأصل المبارك وهو إسماعيل، عليه السلام. (ومنها) أنه خص بما لم يخص غيره من المياه بأن جعل فيه لهاجر أم إسماعيل، عليه السلام، غذاء، فكان يغنيها عن الطعام والشراب. (ومنها) أن ظهوره كان بواسطة الأمين جبريل، عليه السلام، فكان أصلاً مباركاً في مقرٍ مباركٍ لسيّدٍ مباركٍ بواسطة فعلِ أمينٍ مباركٍ، فاختص به هذا السيّد المبارك، فكان ذلك زيادة له في التشريف والتعظيم. والله، عزّ وجلّ، يفضل ما يشاء من مخلوقاته، حيواناً كان أو جماداً. فجاء بالحكمة العجيبة في المِلة الجليلة، ملة أبيك إبراهيم بالمقال، وفي الماء ملك أبيك إسماعيل بلسان الحال.

الوجه الخامس والعشرون: قوله عليه السلام (ثم مُلِيء حكمة وإيماناً) قد مر الكلام على معنى الحكمة والإيمان، وبقي الكلام هنا على المملوء ما هو؟ هل البطن أو القلب؟ فعلى ظاهر هذه الرواية هو البطن، وعلى ما جاء في رواية غيرها هو القلب، فاحتمل أن يكونا مُلِئا معاً، وأخبر، عليه السلام، في هذه الرواية بالبطن، وأخبر في الأخرى بالقلب، واحتمل أن يكون أراد القلب، وذكر البطن توسعة، لأن العرب تسمي الشيء بما قاربه، أو بما كان فيه، وقد قال تعالى ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[2] ومعنى الصدر في الآية: القلب. فسماه باسم ما هو فيه وهو الصدر.

الوجه السادس والعشرون: قوله عليه السلام (فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السّماء الدنيا إلى قوله: ولنعم المجيء جاء) فيه دليل على أن قدرة الله، عزّ وجلّ، لا يعجزها شيء، لأنه، عليه السلام قال: (حتى أتينا السماء الدنيا)، فأفاد ذلك أنهم كانوا يمشون في الهواء، وقد جرت العادة بأن البشر لا يمشي في الهواء، سيما وقد كان راكباً على دابة من ذوات الأربع. لكن لما أن شاءت القدرة ذلك كان، فكما بسط، عزّ وجلّ، لهم الأرض ومهّدها لهم يمشون عليها كذلك يُمشيهم في الهواء، كل ذلك بيده، لا ترتبط قدرته بعادة جارية حتى يظهر عند وجودها تأثير في الوجود ويعدم عند عدمها. بل القدرة صالحة لأن تبدي ما شاءت عند وجود العادة وعند عدمها، وإنما العادة من الله تعالى لحكمة استأثر بها، فإن شاء أبقاها وإن شاء أزالها. وقد سئل، عليه السلام، حين أخبر

---

(١) هنا جواب «لمّا».
(٢) سورة الأنعام، من الآية ١٢٥.

عن الأشقياء المساكين الذين يمشون على وجوههم يوم القيامة، كيف يمشون؟ فقال، عليه السلام (الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادر على أن يُمشيهم يوم القيامة على وجوههم)[1].

الوجه السابع والعشرون: فيه دليل على أن النبي ﷺ كان مستقلاً بنفسه في صعوده. ولم يحتج إلى من يعينه، لأنه، عليه السلام قال (انطلقت مع جبريل) فأفاد ذلك أنهما صعدا معاً لا يحتاج أحدهما للآخر. ولو قال (انطلق بي جبريل) لأفاد ذلك أن جبريل، عليه السلام، كان حاملاً له أو معيناً.

وهذا (أدل دليل) على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزها شيء - كما تقدم قبل - وعلى كرامة النبيّ ﷺ وعلوّ منزلته، لأن الله، عزّ وجلّ، قد أجرى العادة بأن البشر لا يصعد في الهواء. وأجرى العادة للملائكة بالصعود والنزول بحسب ما شاء، لأنهم خلقوا من جوهر لطيف، وخلق البشر من جوهر كثيف، فأبقى على النبيّ ﷺ صفة البشرية، وأعطي حال العالم العلوي حتى صار مع جبريل، عليه السلام، كما ذكر. بل زاد على ذلك ما هو أعظم في المعجزة وأبهر، وهو ركوبه على دابة من دواب الأرض التي لا استطاعة لها بالصعود. كل هذا إكراماً له، عليه السلام، وتعظيماً، وإظهاراً لقدرة الله تعالى، حتى رجع له عليه السلام ما كان عنده علم يقين - من أن القدرة صالحة لكل شيء - عينَ يقين في هذه الأحوال المذكورة. فما طلبه أبوه إبراهيم، عليه السلام، من الانتقال من علم يقين إلى عينِ يقينٍ في قوله ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ؟ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2] أعطي ذلك للنبي ﷺ بغير طلب.

الوجه الثامن والعشرون: فيه دليل على أن للسماوات أبواباً، وعليها بوابين وخداماً، وأنه لا يصعد أحد من الملائكة ولا من غيرهم ممن شاء الله، عزّ وجلّ، حتى يستأذنهم في الفتح، لأنه، عليه السلام، أخبَر أنهم حين أتوا إلى السماء قرَع جبريل الباب فقيل: من هذا؟ فأخبر باسمه واسم من معه، وحينئذ فتح له. وفائدة هذا الإيمانُ بعظيم القدرة وصنعها ما شاءت كيف شاءت.

الوجه التاسع والعشرون: سؤال الملائكة، عليهم السلام، لجبريل، عليه السلام، بقولهم (من معك)؟ احتمل وجهين:

(أحدهما) أن تكون تلك عادة لهم لا يصعد أحد ولا ينزل حتى يُسأل: هل هو وحده أو مع

---

(١) رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِل: كيف يُحشر الكافر على وجهه قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة. وفي الباب رواية مشابهة للترمذي رقم ٣١٤٢ والإمام أحمد ٢/ ٣٥٤، و ٣٦٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٦٠.

غيره؟ وإن كان جبريل، عليه السلام، هو الأمين، لكن اقتضت الحكمة أنه لا ينفذ هو وغيره إلا بعلمهم وسؤالهم تمشية للحكمة وإظهاراً للقدرة.

(الثاني) أن يكون سؤالهم له لِما رأوا حين إقباله عليهم من زيادة الأنوار وغيرها من المآثر الحسان، زيادة على ما يعهدونه منه، فكان لهم ذلك دليلاً على أن معه غيره فسألوه عنه، وهذا هو الأظهر، بدليل قولهم (من معك)؟ ولو كان لغير زيادة رأوها لكان الاستفهام بأن يقولوا: (أمعك أحد)؟ فلما جاءت الصيغة بقولهم (من معك) دل ذلك على أنهم سألوا: من الشخص الذي من أجله هذه الزيادة التي معك؟ فأخبرهم بما أرادوا، وهو تعيين الشخص باسمه حتى عرفوه.

الوجه الثلاثون: *قول جبريل، عليه السلام، حين سئل: (من معك، فقال: محمّد)* فيه دليل على أن الأسماء أرفع من الكنى، لأنه أخبر باسمه ولم يخبر بكنيته، وهو، عليه السلام، مشهور في العالَمَينِ العلوي والسفلي. ولو كانت الكنية أرفع من الاسم لأخبر بكنيته.

الوجه الحادي والثلاثون: استفهام الملائكة بقولهم (أوَقد أُرسِل إليه)؟ فيه دليل على أن أهل العالم العلوي يعرفون رسالته، عليه السلام، ومكانته، لأنهم سألوا عن وقتها: هل حَلّ؟ لا عنها، ولذلك أجابوا بقولهم: (مرحباً به، ولَنِعْمَ المجيءُ جاء). وكلامهم بهذه الصيغة أدل دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلال مكانته، عليه السلام، وتحقيق رسالته، ولأن هذا أجلّ ما يكون من حسن الخطاب والترفيع على المعروف من عادة العرب. وقد قال بعض العلماء في معنى قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[1]: إنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة.

الوجه الثاني والثلاثون: قول الملائكة: (مرحباً به ولنعم المجيء جاء) مرحباً أي: صادفت[2] رُحْباً وسَعة. (ولنعم المجيء جاء) احتمل وجهين: (أحدهما) أن يكونوا قالوا ذلك لِما عاينوا من بركاته، عليه السلام، التي سبقته للسماء مبشرة بقدومه، وهي الأنوار وما أشبهها، (الثاني) أن يكونوا قالوا ذلك لِما عاينوا له من الخير العظيم المدَّخر له هناك لوقته هذا. وقد يحتمل الوجهين معاً.

الوجه الثالث والثلاثون: قوله، عليه السلام (فأتيت على آدم فسلمت عليه) فيه دليل على أن السنة في السلام أن يبدأ به المار على القاعد، لأنه لما أن كان النبيّ ﷺ ماراً على آدم، عليه السلام، ابتدأه بالسلام.

---

(١) سورة النجم، الآية ١٨.

(٢) كذا، والوجه أن يقول: صادف.

الوجه الرابع والثلاثون: فيه دليل على أنه لا يجوز في رد السلام غير الصيغة المشروعة، لأنه لم يقل له آدم عليه السلام (مرحباً) إلا بعد ردّ السلام عليه، على ما جاء في رواية أخرى: فسلمت عليه (فرد ثم قال: مرحباً).

الوجه الخامس والثلاثون: قول آدم، عليه السلام (مرحباً بك من ابنٍ ونبيّ) هل هذه تحفة من آدم، عليه السلام، تأنيس للنبيّ ﷺ لأن الغريب أشدّ أنسه[1] في غربته بلقاء الأقارب، أو ذلك سرور منه بقُرّة عينه به؟ احتمل الوجهين معاً.

أما في حق آدم، عليه السلام، فظاهر، لأن المرء أبداً يفرح بزيادة ابنه عليه، فإنه له منه في الحقيقة، ولهذا قال تعالى ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾[2] قال بعض المفسرين في معناه: لا تدرون من يكون يوم القيامة أعلى درجة عند الله تعالى فيشفع في صاحبه حتى يبلغه معه، وهذه خصوصية بين الآباء والأبناء لا توجد في غيرهم، فقد فيه أحدهما ترفيع للآخر. وقد حصل لآدم، عليه السلام، من هذا أوفر نصيب، لأنه يكون يوم القيامة في أحد ركابي النبيّ ﷺ حين إعطائه لواء الحمد، وإبراهيم، عليه السلام، يكون في الركاب الآخر. فحصل لآدم وإبراهيم، عليهما السلام، اللّذين هما الأبوان خصوصية في أوفر حظ في هذه المنزلة ما لم يكن لغيرهما من الأنبياء، عليهم السلام.

وأما في حق النبيّ ﷺ فلأن الأبوة تقتضي الإدلال عليها، فكان ذلك تأنيساً للنبيّ ﷺ.

الوجه السادس والثلاثون: قوله عليه السلام (فأتينا السماء الثانية إلى قوله فأتيت عيسى ويحيى فسلمت فقالا: مرحباً بك من أخ ونبي) الكلام على الصعود إلى السماء الثانية واستفتاحها وقول الملائكة مرحباً كالكلام على السماء الأولى، وقد مر. وبقي الكلام هنا في قول عيسى ويحيى له: مرحباً بك من أخ ونبي. وإنما قالا له ذلك لأن الأنبياء، عليهم السلام، كالإخوة كما أخبر، عليه السلام، حيث قال (لا تفضلوا الأنبياء بعضهم على بعض، نحن جميع الأنبياء أولاد علات)[3]. وأولاد علات في لغة العرب أن يكون الأب واحداً والأمهات مختلفة. فنسبة الأب هنا - أعني بين الأنبياء، عليهم السلام - هو اجتماعهم في درجة النبوة، ونسبة الأمهات بينهم هو اختلافهم في رفع المنازل واختلاف الشرائع.

---

(١) يعني: أُنْسُه أشدّ.

(٢) سورة النساء، من الآية ١١.

(٣) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: لا تفضلوا بين أنبياء الله الخ. وفي رواية أخرى لهما بلفظ: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبيّ، والأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.

الوجه السابع والثلاثون: قوله عليه السلام (فأتينا السماء الثالثة إلى قوله فأتيت على السماء السادسة) الكلام على ذلك كله كالكلام على السماء الأولى والثانية.

وبقي هنا بحث في قوله، عليه السلام (على السماء) معناه (إلى السماء) السادسة، لأنه معلوم أنهم كانوا صاعدين إليها، ولا تكون (على) هنا على بابها إلا أن لو كانا نازلين من السماء السابعة، فلما أن كانا صاعدين كانت (على) بمعنى (إلى) بالضرورة، وهو سائغ في ألسنة العرب ومستعمل عندهم كثيراً. فعلى هذا فيكون معنى قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[2] أي: أتى العرش، فاستوى إلى العرش، فيكون مثل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[3] أي عمد إلى خلقها. وكذلك هنا أي عمد إلى خلق العرش، والذي عمد لذلك هو أمره عزّ وجلّ ـ كما تقدم في الحديث قبل هذا ـ أن أمره، عزّ وجلّ، هناك بمقتضى حكمته وإرادته. فبطل بهذا احتجاج أهل البدع والعناد، إذ إن ما قررناه سائغ في ألسنة العرب، وهو في كلامهم كثير، والقرآن بلغتهم نزل.

وإنما ضل من ضل بسبب أنه يأخذ ألفاظ القرآن والحديث فيتأولها بحسب لغته وفهمه، فيضل بالضرورة، وإنما ينظر في القرآن بمقتضى لغة العرب التي بها نزل. ولأجل هذا لم يستشكل أحد قط من الصحابة شيئاً من ألفاظ القرآن ولا الحديث، ولا وقع لهم كلام فيما وقع لمن بعدهم، لمعرفتهم بمعناه ومقتضاه، فلا يحتاجون فيه إلى بيان ولا إلى سؤال، فلما أن انتقلوا إلى رحمة ربهم طاهرين قلّت معرفة لغتهم عند بعض الناس، فلم يتكلموا بها، فدخل الخلل عند ذاك الإشكال على بعضهم، وتوهموا الفساد لعدم المعرفة باللغة العربية. فمن تأوّل القرآن والحديث بمقتضى لغتهم انتفت عنه تلك التوهمات، ورجع القرآن والحديث عنده كالشيء الواحد بعضه يبين بعضاً.

وقوله عليه السلام (فأتيت موسى فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من أخ ونبيّ) الكلام عليه كالكلام على الأنبياء قبله، وقد مرّ.

الوجه الثامن والثلاثون: قوله عليه السلام (فلما جاوزت موسى بكى فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بُعِث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مِمَّا يدخل من أمتي) يَرِد على هذا الفصل ثلاثة أسئلة (الأول) أنه يقال، لِمَ كان بكاء موسى، عليه السلام؟ (الثاني) من هو الذي قال

(١) سورة طه، من الآية ٥.
(٢) سورة الأعراف من الآية ٥٤، يونس، من الآية ٣، الرعد، من الآية ٢، الفرقان، من الآية ٥٩، السجدة، من الآية ٤، الحديد، من الآية ٤.
(٣) سورة فصلت، من الآية ١١.

له: ما أبكاك؟ هل الملائكة أو الخالق، عزّ وجلّ؟ (الثالث) لِمَ قال موسى عليه السلام (هذا الغلام) ولم يقل غيرَ ذلك من الصِّيَغ؟

(والجواب) عن الأول أن الأنبياء، عليهم السلام، قد جعل الله تعالى في قلوبهم الرحمة والرأفة لأممهم، وركّبهم على ذلك. وقد بكى النبيّ ﷺ، فسئل عن بكائه فقال (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[1]. والأنبياء، عليهم السلام، قد أخذوا من رحمة الله، عزّ وجلّ، أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم. ولأجل ما كان لموسى، عليه السلام، من الرحمة واللطف بكى إذ ذاك رحمة منه لأمته، لأن هذا وقت إفضال وجود وكرم، فرجا لعل أن يكون وقت القبول والإفضال، فيرحم الله تعالى أمته ببركة هذه الساعة.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا وأمته لا تخلو من قسمين: قسم مات على الإيمان وقسم مات على الكفر. فالذي مات على الإيمان لا بدّ له من دخول الجنة، والذي مات على الكفر لا يدخل الجنة أبداً. فبكاؤه لأجل ما ذكرتم لا يسوغ، إذ إن الحكم فيهم قد مرّ ونفذ؟

قيل له: وذلك أن الله، عزّ وجلّ، قدّره على قسمين بما شاء. فقدر قدّره وقدّر أن ينفذ على كل حال من الأحوال، وقدَر قدّره وقدّر ألا ينفذ. ويكون دفعه بسبب دعاء أو صدقة أو غير ذلك. ومثال ذلك دعاء النبيّ ﷺ بالثلاث دعوات لأمته، وهي: ألا يُظهِر عليهم عدواً من غيرهم، وألا يُهلِكهم بالسنين، فأعطيهما. ودعا ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعها. فاستجيب له، عليه السلام، في الاثنتين ولم يستجب له في الثالثة[2]. وقيل له: هذا أمر قد قدّرتُه، أي أنفذته فكانت الاثنتان من القدر الذي قدره الله، عزّ وجلّ، وقدر ألا ينفذ بسبب الدعاء، وكانت الدعوة الثالثة من القدر الذي قدّره، عزّ وجلّ، وقدّر إنفاذه على كل الأحوال لا يرده راد. وسيأتي لهذا زيادة إيضاح في الكلام على آخر الحديث في فرض الصلاة خمسين.

فلأجل ما ركب موسى، عليه السلام، من اللطف والرحمة بالأمة طمع لعل أن يكون ما اتفق لأمته من القدر الذي قدره الله، عزّ وجلّ، وقدر ألا ينفذ بسبب الدعاء والتضرع إليه، وهذا وقت

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ولفظه: أمرني رسول الله ﷺ فأتيته بابنة زينب ونفسها تَقَعقَع كأنها في شنّ، فقال رسول الله ﷺ: لِلّه ما أخذ، وله ما أبقى، وكلٌّ إلى أجل. قال: فدمعت عيناه؛ فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله، أترقّ، أولم تَنهَ عن البكاء؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

(٢) هذا معنى لحديث رواه الإمام أحمد والطبراني عن أبي بصرة الغفاري أن النبي ﷺ قال: سألت ربي أربعاً فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة؛ سألته ألا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها، وسألته ألاّ يُهلِكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم فأعطانيها، وسألته ألا يُظهِر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته ألا يُلبِسَهم شِيَعاً ولا يُذيقَ بعضَهم بأسَ بعض فمنعنيها.

يرجى فيه التعطف والإحسان من الله تعالى، لأنه وقت أسري فيه بالحبيب ليخلع عليه خِلع القرب والفضل العميم، فطمع الكليم لعل أن يلحق لأمته نصيب من ذلك الخير العظيم. وقد قال عليه السلام (إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله)[1] وهذه نفحة من النفحات. فتعرض لها موسى، عليه السلام، فكان أمر قد قدر. والأسباب لا تؤثر إلا بما سبقت القدرة بأنها فيه تؤثر. وما كان من قضاء نافذ لا ترده الأسباب فإنه حتم قد لزم، كما تقدم في الدعوة الثالثة من دعوات النبي ﷺ لأمته.

ومثل هذا ما حكى الله، عزّ وجلّ، في كتابه عن عيسى، عليه السلام، حيث يقول يوم القيامة ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] وعيسى عليه السلام عالم بكفرهم، إذ إنهم جعلوا لله ولداً، وجعلوا لله صاحبة، وعالم بأن الكفار لا مدخل لهم في المغفرة، لكن قال ذلك رجاء لعل أن يكون ذلك من القدر الذي قدره الله تعالى وقدر ألا ينفذ. فكان من القدر الذي قدره الله تعالى وقَدَّرَ إنفاذه على كل حال، فقال عزّ وجلّ عند ذلك ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[3] أي الأمر كذلك. لكن سبقت إرادتي وحكمتي ونفذ قضائي بأني لا أرحم اليوم إلا الصادقين دون غيرهم. فكان بكاء موسى، عليه السلام، من هذا القبيل.

(ولوجه آخر) أيضاً وهو البشارة للنبي ﷺ وإدخال السرور عليه. يشهد لذلك بكاؤه حين ولى ﷺ عنه، وقبل أن يبعد منه لكي يسمعه، لأنه لو كان البكاء خاصاً بموسى، عليه السلام، على الوجه المتقدم لم يكن ليبكي حتى يبعد عنه النبيّ ﷺ فلا يسمع، لأن بكاءه والنبيّ ﷺ يسمعه فيه شيء ما من التشويش عليه. فلما أن كان المراد ما يصدر من البشارة له، عليه السلام، بسبب البكاء بكى، والنبيّ ﷺ منه بحيث يسمعه. والبشارة التي يتضمنها البكاء هي قول موسى، عليه السلام، الذي هو أكثر الأنبياء أتباعاً (أن الذين يدخلون الجنة من أمة محمّد، عليه السلام، أكثر مما يدخلها من أمة موسى عليه السلام).

فإن قال قائل: لو كان بكاؤه، عليه السلام، لأجل هذا المعنى لصدر منه حين قدوم النبيّ ﷺ عليه. قيل له: إنما لم يبك إذ ذاك لأن البكاء سبب للنفور والوحشة، والقادم: السنّةُ فيه أن يُبَشَّ إليه ويُكرم. فعمل أولاً سنَّـةَ القدوم، فلما أن انفصل مجلس البشاشة أعقبه ببكاء البشارة.

---

(١) روى الحكيم الترمذي في النوادر والطبراني في الأوسط عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ لربكم في أيام دهركم نفحاتٍ فتعرضوا لها، لعل أحدكم يصيبه منها نفحة فلا يشقى بعدها أبداً).

(٢) سورة المائدة، الآية ١١٨.

(٣) سورة المائدة، من الآية ١١٩.

(والجواب) عن السؤال الثاني وهو: هل المتكلم لموسى، عليه السلام، المخلوق أو الخالق؟ الظاهر أن ذلك من الله تعالى. يدل على ذلك قوله في الحديث [illegible]

(والجواب) عن الثالث: أن العرب إنما تطلق على الصغير غلاماً [illegible] وفيهم [illegible] في هذا اللفظ من الاختصاص على غيره من الألفاظ بالأفضلية ذكره موسى، عليه السلام، ولم يذكر غيره تعظيماً للنبيّ ﷺ، وأن الغلام عند العرب هو الصغير السن وهو، عليه السلام، في عمره لا سيما في ذلك الوقت، بالنسبة إلى أعمار من تقدمه من الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، صغير السن، ومع ذلك تقدم الجميع ورقي عليهم لما خصّه الله به من الرفعة والتفضيل وما أمدّه في الباطن وغذاه به من روح قدسه. فلأجل ذلك سماه موسى، عليه السلام، بهذا الاسم دون غيره والله أعلم.

الوجه التاسع والثلاثون: قوله عليه السلام: (فأتينا السماء السابعة إلى قوله مرحباً بك من ابنٍ ونبيّ) الكلام عليه كالكلام على آدم عليه السلام.

وبقي هنا (سؤال) وهو أن يُقال: لم كان هؤلاء الأنبياء، عليهم السلام، في السموات دون غيرهم من الأنبياء، عليهم السلام؟ ولم كان كل واحد منهم في سماء تخصصه دون غيره؟ ولم كان في السماء الثانية نبيّان وفي غيرهما واحد؟

(والجواب) عنه أنه لا يخلو أن يكون ذلك من الله تعبّداً أو لمعنى ظاهر، ومعنى (تعبد أنه لا يَفهم البشر له حكمة)، وأما الفعل في نفسه فهو لحكمة لا بدّ منها فيه، والله، عزّ وجلّ، يعلمها ومن شاء أطلعه عليها. وإن كان ذلك لمعنى ظاهر، وهي الحكمة المفهومة من ذلك الترتيب فما هي؟ فنقول:

وجه الحكمة فيه ـ والله أعلم ـ أنه إنما كان آدم، عليه السلام، في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء، وأول الآباء، وهو الأصل، ومنه تفرع من بعده من الأنبياء وغيرهم، فكان أولاً في سماء الدنيا لأجل هذا المعنى، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة، كما ذكرنا في الغربة[1].

وأما عيسى، عليه السلام، فإنما كان في السماء الثانية لأنه أقرب الأنبياء إلى النبيّ ﷺ، ولا امَّحت شريعة عيسى، عليه السلام، إلا بشريعة محمّد عليه السلام، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة النبيّ ﷺ بشريعته ويحكم بها. ولهذا قال عليه السلام (أنا أولى الناس بعيسى)[2] فكان في السماء

---

(١) يشير المؤلف إلى ما جاء في الوجه الخامس والثلاثين من أنس الأبوة بالنبوة، ويقصد أُنس آدم عليه السلام بالنبيّ ﷺ. وقد تكون إشارة المؤلف: تمهيداً لما سيورده بعد قليل من أنس النبي ﷺ بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام حيث التقيا في السماء السابعة.

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

الثانية لأجل هذا المعنى. وإنما كان يحيى، عليه السلام، معه هناك لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد. فلأجل التزام أحدهما بالآخر كانا هناك معاً.

وإنما كان يوسف، عليه السلام، في السماء الثالثة لأنَّ على حسنه تدخل أمة النبيّ ﷺ الجنة[١]، فأُرِي له هناك لكي يكون ذلك بشارة له، عليه السلام، فيُسَرّ بذلك.

وإنما كان إدريس، عليه السلام، في السماء الرابعة لأنه هناك توفي، ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر[٢].

وإنما كان هارون، عليه السلام، في السماء الخامسة لأنه ملازم لموسى عليه السلام لأجل أنه أخوه وخليفته في قومه، فكان هناك لأجل هذا المعنى. وإنما لم يكن مع موسى، عليه السلام في السماء السادسة لأن لموسى مزية وحرمة، وهو كونه الكليم، واختص بأشياء لم تكن لهارون، عليه السلام، فلأجل هذا المعنى لم يكن معه في السماء السادسة، ولأجل المعنى الأول كان في السماء الخامسة ولم يكن فيما دونها أو في الأرض.

وإنما كان موسى، عليه السلام، في السماء السادسة لأجل مااختص به من الفضائل، ولأنه الكليم، وهو أكثر الأنبياء أتباعاً بعد النبيّ ﷺ، فكان فوق مَن ذُكِر لأجل ما اختُصَّ به من الفضائل.

وإنما كان إبراهيم، عليه السلام، في السماء السابعة لأنه الخليل، والأب الأخير، ولأن النبي ﷺ يصعد من هناك إلى عالم آخر غير ما هو فيه الآن، وهو اختراق الحجب، فيحتاج إذ ذاك أن يتجدّد له أنس أيضاً، لأن الغربة زادت إذ ذاك، فكان إبراهيم، عليه السلام، هناك لأجل ما يجد النبيّ ﷺ من الأنس به، وذلك لثلاثة معان: لكونه الأب الأخير، ولكونه أباً من طرفين: بالنسب في الأبوة وبالاتباع في الملة، كما قال تعالى ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٣]، ولأنه الخليل كما تقدم، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، والحبيب ها هو ذا قد علا ذلك المقام. فكان الخليل فوق الكل لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل لأجل ما اختص به مما زاد به عليهم.

يدل على ما قررناه الكتابُ والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[٤] وأما السنة فقوله عليه السلام: (أنا سيّدُ ولدِ آدمَ

---

(١) كأن المعنى: تدخل أمة النبيّ ﷺ الجنة قبل أمة يوسف عليه السلام.

(٢) رفع إدريس عليه السلام وهو حي كعيسى عليه السلام وهو في قلب السماوات، له شأنه العظيم بين الأنبياء. ويفيض الشيخ الأكبر ابن عربي في سرّ موضعه من السماوات.

(٣) سورة الحج، من الآية ٧٨.

(٤) سورة البقرة، من الآية ٢٥٣.

يوم القيامة ولا فخر)[١]، وقوله عليه السلام: (آدم ومن دونه تحت لوائي) فخصصهم بالكمال والدرجة الرفيعة. وهي درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض درجات بمقتضى الحكمة، ترفيعاً للمرفوع دون تنقيص بالمتروك. والله عزّ وجلّ أعلم.

الوجه الأربعون: رؤيته عليه السلام لهؤلاء الأنبياء، عليهم السلام، يحتمل وجوهاً

(الأول) أن يكون، عليه السلام، عاين كلّ واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه؛ فيكون الله، عزّ وجلّ، قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة بما أدرك ذلك. يشهد لهذا الوجه قوله، عليه السلام: (رأيت الجنة والنار في عُرض هذا الحائط)[٢] وهو محتمل لوجهين: (أحدهما) أن يكون، عليه السلام، رآهما في ذلك الموضع، كما يقال: رأيت الهلال في منزلي من الطاق. والمراد من موضع الطاق. (الوجه الثاني) أن يكون مُثّل له صورتهما في عُرْض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما.

(الثاني) أن يكون، عليه السلام، عاين أرواحهم هناك في صورتهم

(الثالث) أن يكون الله، عزّ وجلّ، لما أن أراد إسراء نبيه، عليه السلام، رفعهم في قبورهم لتلك المواضع، إكراماً لنبيه، عليه السلام، وتعظيماً، حتى يحصل له من قبلهم ما أشرنا إليه من الأنس والبشارة وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن، وإظهاراً له، عليه السلام، للقدرة التي لا يغلبها شيء ولا تعجز عن شيء. وكل هذه الوجوه محتملة ولا ترجيح لأحدها على الآخر، إذ إن القدرة صالحة لكل منها ولكلها معاً.

الوجه الحادي والأربعون: فيه دليل لأهل الصوفة حيث يقولون بأن الأعلى يكاشف من دونه في المقامات، ولا يكاشفونه في مقامه الخاص؛ لأن النبيّ ﷺ لما أن كان أعلى الأنبياء، عليهم السلام، مقاماً اطّلَع على مقاماتهم حين صعوده، ولم يطلع أحد منهم على مقامه الخاص.

الوجه الثاني والأربعون: قوله عليه السلام: (فرفِع إليّ البيت المعمور) معناه أنه أري له. وقد يحتمل أن يكون المراد: الرفع والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرُفِع إليه وأُمِدَّ في بصره وبصيرته حتى رآه. وقد يحتمل أن تكون تلك العوالم التي كانت بينه وبينه أزيلت حتى أدركه ببصره. وقد يحتمل أن يكون بقي العالم على حاله والبيت على حاله،

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه وتتمة الحديث: وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر.

(٢) رواه البخاري في الفتن بلفظ: والذي نفسي بيده لقد عرضت عليّ الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط وأنا أصلي، فلم أر كاليوم في الخير والشر.

وأُمِدَّ في بصره وبصيرته حتى أدركه وعاينه، والقدرة صالحة للكل. يشهد لذلك قوله عليه السلام: (رفع إليّ بيت المقدس) على ما سيأتي. والتأويل فيه كالتأويل في البيت المعمور.

الوجه الثالث والأربعون: قوله عليه السلام: (فسألت جبريل) فيه دليل على أن أهل الفضل، وإن تناهوا في السؤدد والرفعة، إذا رأوا شيئاً لا علم لهم به أن يسألوا عنه من يعلم ذلك، وليس ذلك مما يخل بمنصبهم، لأن النبيّ ﷺ في الفضل والسؤدد حيث قد علم، وفي هذا الحال قد كان تناهى ارتقاؤه حيث أخبر، لكن لما أن رأى شيئاً لا علم له به ووجد من سأل عنه سأله.

الوجه الرابع والأربعون: قوله (هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف مَلَك، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم) فيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزها شيء، لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبداً، ومع أنه قد روي (أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر - وقيل قدر أربعة أصابع - إلا ومَلَكٌ واضع جبهته هناك ساجد)[1]. ثم البحار ما من قطرة إلا وبها مَلَك موكّل بها. فإذا كانت السماوات والأرض والبحار هكذا فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء، ولا تتوقف عن شيء.

الوجه الخامس والأربعون: فيه دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه إذا كان سبعون ألف ملَك كل يوم يصلّون في البيت - على ما تقدم ذكره - لم لا يعودون آخر ما عليهم، مع أن الملائكة في السماوات والأرض والبحار - على ما تقدم ذكره - فهم على هذا الظاهر أكثر المخلوقات. وقد روي أن لله مَلَكاً له خَلْق عظيم، يطول وصفه، يَغتَسِل كل يوم، ثم ينتفض في ريشه، فكل قطرة تقطر منه يخلق الله، عزّ وجلّ، منها مَلَكاً. وقد روي أن ثَمّ ملائكةً يسبّحون الله، عزّ وجلّ، فيخلق الله تعالى بكل تسبيحة مَلَكاً. هذا عدا الملائكة التي خُلِقت للتعبّد، وعدا الملائكة الموكّلين بالنبات والأرزاق والحَفَظة. وقد روي أن ما لله تعالى من المخلوقات من حيوانات وغيرها - عدا بني آدم الذين لهم الحفظة - إلا ومعه مَلَكان: أحدهما يَهديه إلى رزقه، والآخر إلى مصالحه. فكانوا أكثر المخلوقات بمقتضى هذه الظواهر.

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئِط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله تعالى ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفراش، ولخرجتم إلى الصَّعدات تجأرون إلى الله عزّ وجلّ.

الوجه السادس والأربعون: فيه دليل على أن الصلاة أفضل العبادات، لأنها جمعت عبادة أهل العالَـمَين العلوي والسفلي. أعني أنهم مأمورون بجنسها.

الوجه السابع والأربعون: فيه دليل على استغناء الله تعالى عن خلقه، وأنه لا تنفعه منفعة الطائع، ولا تضره مخالفة المخالف، لأنه، عزّ وجلّ، خلق هذا الخلق العظيم، ووكل بعضهم بحفظ منافع بعض، ووكل بعضهم بفعل أشياء وإتقانها، والكل ليس بيدهم في ذلك شيء، ولا لهم على ما يفعلون قدرة، بل قدرة الله، عزّ وجلّ، هي الحافظة لكل ذلك، والمصلحة له، وجعل ذلك من الله تعبد يتعبد به مِن خلقه مَن شاء، كيف شاء، بما شاء.

ثم إنه، عزّ وجلّ، خلق الخلق وقسمهم على أقسام، فقوم خلقهم للسعادة لا غير، وخصصهم بعبادته، وجعل العبادة لهم قوتاً وعيشاً ويسّرها عليهم، وأجارهم من المخالفة لحظة، وهم الملائكة. وقوم خلقهم للشقاوة والطرد والبعد، وجعلهم أهلاً لذلك وأسبابه، وهم الشياطين. وقوم خلقهم وأدارهم بين هذين القسمين شقيّ وسعيد، وجعل لهم الثواب على الطاعات، والعقاب على المخالفات، وهم بنو آدم والجن.

ثم قسم بني آدم والجن على أقسام. فمنهم القسمان المتقدمان، وخلق منهم طائفة يعصون فيتوب عليهم، لقوله عليه السلام: (لو لم تذنبوا لأتى الله بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم)[1] وخلق منهم قوماً يعصون فلا يغفر لهم، ولا حيلة لهم في السعادة بعدها للمقدور الذي سبق عليهم، وخلق منهم قوماً فيهم نصيب للعذاب ونصيب للرحمة.

فلو كان، عزّ وجلّ، تنفعه طاعة الطائع لخلق الكلّ للطاعة، ولو كانت تضرّه معصية العاصي لم يكن ليعفو عمن عصاه، ولعاقبه على كل حال. ولأجل هذه المعاني التي أشرنا إلى شيء منها قال عليه السلام (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)[2] وفي رواية (خير من عبادة الدهر). لأنه إذا تفكر المرء في شيء من هذه القدرة العظمى والحكمة الكبرى بان له الحق واتضح، فأذعن عند ذلك لله وسلّم له في مقدوره، وازداد بذلك محبة في التعبّد لمن له هذا الملك العظيم، إذ بالعبادة يتقرب إليه، فأنس عند ذلك بها، واستوحش من ضدها، وأنس بالخلوة عن الخلق لأجل فراغه للتعبد والنظر فيما أشرنا إليه، واستوحش عند المخالطة لذهاب ذلك الوصف عنه.

ولهذا المعنى لما أن دخل بعضهم على بعض الفضلاء من أهل الصوفة وجده وحده، فسأله:

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم.

(٢) تقدم تخريجه في الحديث (١).

وحدك؟ قال رضي الله عنه: الآن أنا وحدي. يعني أنه كان في خلوته مشتغلاً بشيء مما أشرنا إليه، إما من تعبد أو فكرة، فأنس ذلك مع ربه، ثم لما أن جاءه ذهب ذلك عنه، وهو يجد بذلك الوحشة، فكان وحده لأجل هذا المعنى.

ولهذا المعنى قال بعض الفضلاء: أوصيك بأن تديم النظر في مرآة الفكرة مع الخلوة، فهناك يبين لك الحق.

والتفكر في معاني هذا الحديث يزيد في الإيمان أضعاف أضعافه إذا رزق صاحبه التوفيق. وإنما تكلمنا على هذا المعنى إشارة ليتنبه الطالب والمريد لما عدا تلك المعاني التي أشرنا إليها، لعلها تكون له سلّماً وسبباً إلى الارتقاء والفهم فيما عداها.

الوجه الثامن والأربعون: قوله عليه السلام: (ورفعت إليَّ سدرة المنتهى) الكلام عليه كالكلام على قوله (ورفع إليَّ البيت المعمور) وقد مر. وإنما سميت بهذا الاسم لأن إليها تنتهي الأعمال، ومن هناك ينزل الأمر، وتتلقى الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم ولا يتعدونها، فكانت (منتهى)، لأن إليها ينتهي ما يصعد من السفل، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العليّ القدير.

الوجه التاسع والأربعون: قوله عليه السلام: (فإذا نَبِقُها كأنه قِلال هَجَر، وورقها كأنه آذان الفِيَلة) النَّبِق هو الثمرة التي تثمرها هذه الشجرة، وقدرها قدر قُلَّة هَجَر. وقُلَّة هَجَر أكبر أواني أهل الأرض من جنسها، على ما كان أهل الحجاز يعهدون. وإنما شبه، عليه السلام، نَبِقَها بالقِلال، وورقها بآذان الفِيَلة، لأنه ليس في الدنيا ما يُشبِهُهُمَا من جنسها، فأشار إلى ذلك ليُعلَم قَدرُها. وأما حسنها فلا يتوصل إليه إلا من أطلعه الله، عزّ وجلّ، عليها أو يراها في الآخرة إن شاء الله تعالى.

الوجه الخمسون: قوله عليه السلام: (في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران) هذا اللفظ يحتمل أن يكون على الحقيقة، ويحتمل أن يكون من باب تسمية الشيء بما قاربه. فإن كان على الحقيقة فتكون هذه الأنهار تنبع من أصل الشجرة نفسها، فتكون الشجرة حلوة الثمر، وأصلها ينبع منه الماء. والقدرة لا تعجز عن هذا ولا عن شيء ممكن مهما كان. وإن كان من باب تسمية الشيء بما قاربه فتكون الأنهار تنبع قريباً من أصل الشجرة.

ثم بقي احتمال: هل الشجرة مغروسة في شيء أم لا؟ محتمل للوجهين معاً، لأن القدرة صالحة لكليهما، فكما جعل، عزّ وجلّ، هنا الأرض للشجرة مقراً كذلك يجعل الهواء لتلك مقراً، وكما رجع النبيّ ﷺ يمشي في الهواء كما كان يمشي في الأرض، وكما كان جبريل، عليه السلام، جالساً على كرسي بين السماء والأرض ـ والقدرة لا تَعجِز عن هذا كله، ولا عن أمثاله، وأمثال أمثاله، إلى ما لا نهاية له ـ ولأنّ بالقدرة استقرت الأرض وتمهدت مع أنها على الماء، لأن الأرض

بما فيها على الماء ـ على ما جاءت به الأخبار ـ فإمساكها بمن يمشي عليها أعظم في القدرة من إمساكها وحدها، ومن إمساك المخلوقات دونها. وإنما يتعاظم هذا لكونه، عزّ وجلّ، أجرى العادة بالمشي على الأرض والاستقرار عليها، ولم يُجرِ ذلك في الهواء، والقدرة ليست متعلقة بالعادة الجارية، ولو شاء، عزّ وجلّ، أن يجعل الأمر بالعكس لفعل، ولو فعل ذلك لعظم بعضه في أعين الناظرين من يمشي على الأرض لأجل العادة الجارية.

وقد روي أن أنهار الجنة تجري في غير أُخدود، فهي تجري في مواضع معلومة لا تتعداها من غير شيء يمسكها ولا يردّها. فمن كانت هذه قدرته فكيف يقع الإنكار أن تكون شجرة في الجنة مع عظيم هذه القدرة؟ ويحتمل أن تكون الشجرة مغروسة بأرض ـ وهو الأظهر ـ بدليل قوله: (ونهران باطنان)، ولا يطلق هذا اللفظ وما أشبهه إلا على ما يفهم. والباطن لا بدّ له أن يكون مستوراً تحت شيء يستره، وحينئذ يطلق عليه اسم الباطن. ثم بقي الاحتمال في الأرض إذا قلنا بها هل هي من تراب الجنة أو هي تورية أو غير ذلك؟ محتمل لكل ذلك.

الوجه الحادي والخمسون: قوله عليه السلام: (فسألت جبريل) الكلام عليه كالكلام على سؤاله، عليه السلام، قبل ذلك.

الوجه الثاني والخمسون: قوله عليه السلام: (وأما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالفرات والنيل) فيه دليل على أن الفرات والنيل ليسا من الجنة، لأنه، عليه السلام، أخبر أن جبريل، عليه السلام، أخبره أن هذه الأنهار منبعها من سدرة المنتهى، فيروح الباطنان إلى الجنة، والفرات والنيل ينزلان إلى الدنيا. وسدرة المنتهى ليست في الجنة حتى يقال. إنهما يخرجان منها بعد نبعهما من الشجرة، وهذا معارض لقوله عليه السلام: (أربعة أنهار في الأرض من الجنة فذكر الفرات والنيل وزاد سيحون وجيحون)[1].

والجمع بينهما ـ والله أعلم ـ أنه قد يكون الفرات والنيل منبعهما من سدرة المنتهى، وإذا نزلا إلى الدنيا يسلكان أولاً على الجنة فيدخلانها، ثم بعد ذلك ينزلان إلى الأرض. وفي المسألة خلاف ذكره العلماء.

وهذا أدل دليل على أن الأشياء لا تؤثر بذواتها، وإنما القدرة هي المؤثرة في كلها، إذ إن الأخبار قد وردت بأن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يفنى، وأنه ليس له فضلة تخرج على ما

---

(١) رواه الشيرازي في الألقاب كما في الفتح الكبير عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبمعناه في مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم بلفظ: سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة. (انظر النهاية في الفتن والملاحم ٢/٢٩٧ لابن كثير).

يعهد في دار الدنيا، وإنما خروجه رشحان مسك على البدن، فجعلت فيه هذه الخاصية العظمى، ثم لما أن شاء الله، عزّ وجلّ، بنزوله إلى هذه الدار نزعت منه تلك الخصوصية وأُبْقِيَ جوهره بحاله، وكل الخواص مثله في هذا المعنى، إن شاء الله، عزّ وجلّ، أبقى لها الخاصية، وإن شاء سلبها مع بقاء جوهرها، ليس لذوات الخواص تأثير، بل الخاصية خَلَقَها، والجوهر خلقه بدليل ما نحن بسبيله.

الوجه الثالث والخمسون: فيه دليل على أن الباطن أجلّ من الظاهر، لأنه لما أن كان الباطنان أجلّ جُعِلا في دار البقاء، ولما أن كان الظاهران أقلّ أُخرِجا إلى هذه الدار، ولهذا قال عليه السلام (إن الله لاينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[1] وإن كانا معاً مقصودين، لكن جلّ المقصود هو الباطن، كما قال عليه السلام في الحج (الحج عرفة)[2] يريد أن معظم الحج عرفة. ولأجل هذا فاق أهل الصوفة غيرهم؛ لأنهم عملوا على صلاح الباطن، فصلح منهم الباطن والظاهر، وأهل الدنيا عملوا في تعبدهم على صلاح الظاهر ولم يلتفتوا إلى الباطن، ففسد منهم الظاهر والباطن.

الوجه الرابع والخمسون: قوله عليه السلام: (ثم فرضت عليَّ خمسون صلاة) يَرِد على هذا الفصل بحث دقيق وهو: لم فرضت الصلاة في هذا الموطن دون واسطة وغَيرُها من الفرائض لم يكن لها ذلك؟ ومما يندرج في هذا البحث أيضاً أن الشارع، عليه السلام، حضّ عليها ما لم يحض على غيرها من الفرائض، وجعلها فرقاً بين الإيمان والكفر، وقال فيها (موضع الصلاة من الدين موضع الرأس من الجسد)[3]، وقال فيها: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[4]، وقال فيها (أَرِحْنا بها يا بلال)[5] إلى غير ذلك من الأحاديث الخاصّة عليها.

فنقول، والله المستعان: إنه إن كان ذلك تعبداً فلا بحث، وإن كان لحكمة فعند ذلك يحتاج إلى البيان. والأصل ـ كما قدمنا غير مرة ـ أن كل متعبَّدٍ به إنما هو لحكمة. ومما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[6] وقوله عزّ وجلّ

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

(٢) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، ورواه النسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن عبد الرحمن بن يعمر الديلمي ولفظه: الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الصبح من ليلة جمع فقد تم حجّه؛ أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه.

(٣) رواه الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنه بلفظ (كموضع) بدلاً من (موضع) الوارد عند المؤلف رحمه الله.

(٤) تقدم تخريجه في الحديث ٦.

(٥) تقدم تخريجه في الحديثين ٤٢ و٦٤.

(٦) سورة الأنعام، الآية ٧٥.

في صفة المؤمنين ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾[1] فإذا كانت السماوات والأرض لم تخلَق إلا لحكمة فكذلك كلّ ما فيها من المخلوقات. وما كلفوا فيه من التكليفات. كل شيء من ذلك صادر عن حكمة، وليس شيء منها عبثاً. لكن ما جهلت الحكمة فيه لقلة الفهم قلنا عنه: (تعبداً) أي: تعبَّدَنا الله بذلك. فعلى هذا ففرض الصلاة هناك بعين وإسعافه وتحضيض الشارع، عليه السلام، عليها بالأحاديث المذكورة لا بدّ لذلك كله من حكمة. وإذا كان ذلك لحكمة فنحتاج أن نبحث فيه ونبيّنه بحسب ما ييسر الله فيه.

فنقول، والله المستعان: أما قوله عليه السلام: (وجعلت قرة عيني في الصلاة) وقوله عليه السلام: (أرحنا بها يا بلال) فالمعنى في ذلك ظاهر من وجوه:

(الوجه الأول): أنه، عليه السلام، يتذكر بها تلك المراجعات الجليلة. وهي خمسة مواطن، كما ذكر في الحديث حين مراجعته عليه السلام، من أول الفرض إلى حين استقراره، بين ربه، عزّ وجلّ، وبين موسى، عليه السلام.

(الثاني): أنه في تلك الليلة المباركة ـ أعني ليلة المعراج ـ رأى، عليه السلام، تعبد الملائكة في العالم العلوي، فمنهم قيام لا يلتفتون، ومنهم رُكَّعٌ لا ينحرفون، ومنهم سُجَّدٌ لا يرفعون، على ما نقل عنه، عليه السلام، في الحديث الصحيح. فإذا كان يوم القيامة قالوا بأجمعهم: سُبّوح، قُدُّوس، ما عَبدناكَ حقَّ عبادتك. فجمع الله، عزّ وجلّ، لنبيه، عليه السلام، ولأمته جميع تلك العبادات في ركعة واحدة، في أقل زمان وأقرب فعل، وهو قدر اطمئنان الأعضاء، على ما نقل عنه، عليه السلام، في حديث الأعرابي، حيث قال له: (اِركعْ حتى تَطمئِنَّ راكعاً ثم ارفع حتى تعتدلَ قائماً ثم اسجدْ حتى تطمئنَّ ساجداً)[2].

(الثالث): أنها فرضت أولاً مثقّلة، ثم خُفِّفت، وأُبقِيَ الأجرُ على ما كان عليه.

(الرابع): أن الله، عزّ وجلّ، جعل فيها جملة من المراتب السنيّة لنبيه، عليه السلام، ولأمته، لأنه، عزّ وجلّ، يقول على لسان نبيه، عليه السلام (قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)[3]. فهي بالنظر إلى هذا النص على قسمين، وهي بالنظر إلى البحث في الحديث على خمس مراتب، لأن الشارع عليه السلام أخبر أنه إذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يقول الله: حَمِدَني عبدي. يقول العبد: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يقول الله: أثنى عليَّ عبدي. يقول

---

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٩١.

(٢) تقدم تخريجه في الحديث (٦٤).

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم والأربعة عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث قدسي.

العبد ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يقول الله: مجّدني عبدي. يقول العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يقول الله: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[١] يقول الله: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل.

فهذه خمس مراتب: ثلاث منها لجانب المولى، جلّ جلاله، وحقيقة النفع فيها للعبد، إذ إن الله، عزّ وجلّ، غنيّ عن عبادة الخلق إياه، فهو، عزّ وجلّ، قد رفع عبده في ثلاثة مقامات من المراتب السنيّة في هذه السورة، لأن لكل لفظ منها مَقاماً يخصّه. وقد ذكر الله، عزّ وجلّ، ذلك في كتابه حيث قال: ﴿ ٱلْحَـٰمِدُونَ ﴾ وقال: ﴿الذّاكرون﴾ وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[٢] وقد جعل الشارع، عليه السلام، لكل اسم وصفة مرتبةً بِجِدتِها، فمن حلف باسم أو بصفة فعليه كفارة واحدة، فإن جمَع في اليمين أسماءَ وصفاتٍ كانت عليه كفاراتٌ بعدد الأسماء والصفات. أعني إذا أفرد كلّ واحد من الأسماء والصفات.

فجعل، عزّ وجلّ، لكل لفظة في كتابه وعلى لسان نبيه، عليه السلام، مدحة ومنزلة. فلما أن كانت الثلاث الأول كلها ثناء على الله تعالى جعلها، عزّ وجلّ، قسماً واحداً فأضافها إلى نفسه، ولما أن كانت الآية الرابعة إقراراً له عزّ وجلّ بالألوهية، وطلباً منه للاستعانة، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولما كان باقيها طلباً للعبد لا غير، قال عزّ وجلّ: ولعبدي ما سأل. فجعلها، عزّ وجلّ، أولاً على قسمين بقوله تعالى (نصفها لي ونصفها لعبدي)، ثم جعلها عند البيان على ثلاث مراتب: خاص به، وخاص بالعبد، ومشترك بينه وبين العبد.

وهي بالتقسيم والنظر إلى البحث خمس كما قدمنا، وهذه الخمس أعني: جنس العدد، كثيراً ما يتردد في الصلاة على وجوه ومعان مختلفة.

(فمنها) أن أفعالها خمس، وأقوالها خمس، وأحوالها خمس، وأسماءها خمس، ومراتبها خمس.

فأما الأفعال ففي كل ركعة: قيام، وركوع، وسجدتان، وجلوس.

وأما الأقوال ففي كل ركعة: تكبير، وقراءة، وتحميد، وتعظيم، ودعاء.

وأما الأحوال ففي كل ركعة: تَجَلّ، وترفيع، ومغفرة، وإجابة، وقُرْب وتَدان.

---

(١) سورة الفاتحة الآيات ١ ـ ٧.

(٢) سورة المعارج، من الآية ٢٦.

وأما الأسماء فكما سماها الشارع عليه السلام: ظهر، وعصر، ومغرب، وعشاء وصبح

وأما المراتب: ففرض، وسنّة، واستحباب، ونفل، وترغيب.

❁ ❁ ❁

أما الأفعال فظاهرة لا تحتاج إلى بيان.

وأما الأقوال: فالتكبير معلوم عند الإحرام، وفي أركان الصلاة. والقراءة مثل قراءة أمّ القرآن وغيرها على ما ذكر في كتب الفقه. والتعظيم خاص بالركوع لقوله عليه السلام (أما الركوع فعظّموا فيه الرب)[1] ونهى عن القراءة فيه. والدعاء والتسبيح مشروع في السجود، لقوله، عليه السلام، حين أنزل عليه ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[2] فقال: (اجعلوها في سجودكم)[3] وقوله عليه السلام: (أكثِروا فيه من الدعاء فقَمِنٌ أن يُستجابَ لكم) أي حقيق يعني في السجود.

وأما الأحوال:

فأولها: التجلي وهو عند استفتاح الصلاة مرة وفي كل ركعة مرة. وأما الاستفتاح فمعلوم من الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[4] وأما السنة فقوله عليه السلام: (إذا دخل العبد في الصلاة أقبل الله عليه بوجهه، فإذا التفت أعرض عنه)[5] وقوله عليه السلام: (إذا كان أحدكم يصلي فلا يَبْصُقْ قِبَلَ وجهه، فإن الله تبارك وتعالى قبل وجهه إذا صلّى) وفي رواية (فإنما يناجي ربه) أو (ربه بينه وبين القِبلة)[6]. ولأجل هذا التجلي وهذه المناجاة وما

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: قال رسول الله ﷺ ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فإنه قمنٌ أن يُستَجابَ لكم.

(٢) سورة الأعلى، من الآية ١.

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه وتمام الحديث: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم.

(٤) سورة البقرة، من الآية ١١٥.

(٥) روي ذلك في عدة أحاديث، متفقة في المعنى مختلفة في اللفظ، منها ما رواه الإمام أحمد وأبو داود وصححه ابن خزيمة والحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: لا يزال الله مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفت، فإذا صرف وجهه انصرف عنه.

(٦) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في القبلة فشقّ ذلك عليه، حتى رُئي في وجهه، فقام فحكّه بيده فقال: إن أحدكم إذا قام في الصلاة فإنما يناجي ربه فإن ربه بينه وبين القبلة، فلا يبزقنّ أحدكم قِبَلَ قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدمه، ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم ردّ بعضه على بعض فقال: أو يفعل هكذا.

أشرنا إليه في الصلاة من المقامات، وما يأتي بعده كلام العلماء، رضوان الله عليهم، بصيغ مختلفة، لعله أن يحصل للمصلي مما أشرنا إليه شيءٌ (فمنها) ما قاله الغزالي، رحمه الله، في القائم إلى الصلاة عند الإحرام بعد توفية تلك الشروط الخمس[1] فيها فقال: يُمثِّل الجنةَ عن يمينه، والنارَ عن شماله، والصِّراطَ بين قدميه، واللهَ عزّ وجلّ، قُبالة وَجهِه. وقال غيره: بل يُحضِر جميعَ العوالم في خاطره، ثم يُحضِر نفسَه أنه بين يدي خالقها. والأقاويل في هذا المعنى متعددة.

والموطن الثاني من التجلي الذي هو في كل ركعة هي: **القراءة لمن قرأ بصدق وإخلاص**، لأنها تجلٍّ بالصفة الجليلة. والصفة لا تفارق الموصوف.

(وأما الترفيع) ففي كل ركعة مواطن منها: **الركوع إذا قَصَد به الخضوعَ لله تعالى كما شرع له**، لأن في ضمن ذلك الترفيع لقوله عليه السلام (من تواضع لله رفَعَه الله)[2]. ومنها: **السجود** لقوله عليه السلام (أَقرَبُ ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً وبطنُه جائعاً)[3].

(وأما المغفرة) ففي كل ركعة موطنان: **(الأول)** عند قوله ﴿آمين﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ لقوله عليه السلام في ذلك (إذا قال أحدُكم: آمينْ، وقالت الملائكة في السماء: آمينْ، فوافقت إحداهما الأخرى غُفِر له ما تقدم من ذنبه)[4]. **(والموطن الثاني)** من المغفرة قوله: (ربَّنا ولكَ الحَمدُ) بعد قوله (سمع الله لِمَن حَمِدَه) لقوله عليه السلام فيه أيضاً (مَن وافَق قولُه قَوْلَ الملائكة غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه). وقد مرَّ الكلام على الموافقة ما هي: هل هي في الإخلاص أو في الزمان؟ عند ذكر الحديث نفسه، وهو قوله عليه السلام (إذا قال الإمام: سَمِع الله لمن حَمِده. فقولوا: اللهم ربَّنا ولك الحَمد. فإنه من وافق قولُه قولَ الملائكة غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه)[5].

(وأما الإجابة) ففي كل ركعة موطنان: **(الأول)** عند قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السورة لقوله عزّ وجلّ: (ولعبدي ما سأل) كما تقدم. **(والموطن الثاني)** في السجود لقوله عليه السلام (أَكثِروا فيه من الدعاء فَقَمِنٌ أن يُستجاب لكم) كما تقدم.

(وأما القرب والتداني) ففي كل ركعة موطن واحد عند قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

---

(١) كذا، وهو جائز باعتبار الجمع مؤنثاً.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رضي الله عنه وفي مسلم: وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه وليس فيه عبارة (وبطنه جائعاً).

(٤) رواه البخاري بلفظ: إذا قال أحدكم آمين وقالت الملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غُفِر له ما تقدّم من ذنبه.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿نَسْتَعِينُ﴾ لقوله عزّ وجلّ (فهذه بيني وبين عبدي)، فسوّى عزّ وجلّ بينه وبين عبده دون ترفيع لذاته الجليلة. وهذا هو غاية التداني والقرب من طريق المنّ والإفضال.

ولا يتوهَّمْ متوهمٌ أن ما ذكرناه هنا معارض لما قدمناه من قوله عليه السلام (أقربُ ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً وبطنه جائعاً)، لأن بينهما فرقاً. وهو أن ما أخبر به، عليه السلام، مما تقدم حالُ أوصاف العبودية، لأن العبد لا يقدر على أكثرَ من هذا الحال، وهو أن يجيع بطنه، ويمرغ وجهه في التراب تذللاً لمولاه. وأما القرب والتداني: فهو فيض الربوبية. وفيض الربوبية ليست[1] من كسب العبودية حتى يوصف العبد بها.

فتلك[2] خاصة بكسب العبد فيمدح عليها ويذم، وهذه خاصة بفيض الربوبية لا مدْحة للعبد فيها. ولهذا المعنى الذي أشرنا إليه ـ أعني في هذه الخمس مراتب التي ذكرناها في أم القرآن وما تضمنته من درر العلوم الثاقبة ـ قال علي رضي الله عنه: لو شِئتُ أن أُوقِرَ[3] سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت. واغترافها من السورة يظهر في هذه الخمسةِ كنوزِ التي أشرنا إليها.

بيان ذلك أنه إذا قال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتاج أن يُبيِّن[4] معنى الحمد وما يتعلق به، والاسم الجليل الذي هو الله وما يليق به من التنزيه، ثم يحتاج إلى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وأعداده. وقد قال عليه السلام (إن لله سبعةَ عشَرَ ألفَ عالم: السمواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ وما فيهن عالم واحد). وقد أخبر عليه السلام أن في هذه الأرض ألف عالَم: أربعمائة في البر وستمائة في البحر. فيحتاج إلى بيان ما أشرنا إليه كله، إذ اللفظ يحوي ذلك كله.

فإذا قال ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يحتاج أيضاً أن يبيّن هذين الاسمين الجليلين، وما يليق بهما من الجلال، وما معناهما، ثم يحتاج في ضمن هذا البيان إلى بيان جميع الأسماء والصفات، ثم يحتاج إلى بيان الحكمة في اختصاص هذا الموضع بهذين الاسمين الجليلين دون غيرهما من الأسماء. وسنذكر طرفاً من هذه الحكمة بعد، إن شاء الله تعالى.

فإذا قال ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يحتاج إلى بيان ذلك اليوم، وما فيه من المواطن والأهوال، وكيفية ذلك العالم، وما يخص لكل عالم فيه، وأين مستقره.

---

(١) أعاد على «فيض» ضمير المؤنث لأنه أضيف إلى «الربوبية» فاكتسب منها التأنيث.
(٢) أي: حال أوصاف العبودية في الحديث الشريف.
(٣) أوقر: أحمِّل.
(٤) أي: يفسِّر.

فإذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يحتاج إلى بيان المعبودِ وجلاله، والعبادةِ وكيفيتها وصفاتها وآدابها على جميع أنواعها، والعابدِ وصفتِه، والاستعانةِ وآدابها وكيفيّتِها.

فإذا قال ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة يحتاج إلى بيان الهداية ما هي، والصراط المستقيم وأضداده ما هي، ويبيّن المغضوب عليهم، والضالّين وصفاتِهم، وما يتعلق بهذا النوع، ويبين المرضِيَّ عنهم وصفاتِهم، وطريقتهم.

فعلى ما أبديناه من هذه الوجوه يكون ما قاله الإمام علي، رضي الله عنه، أو يزيد عليه. وبما أشرنا إليه يَبِينُ معنى قوله، عليه السلام، في التارك لأم القرآن في صلاته (فهي خِداج فهي خِداج، فهي خداج)[1] أي غير تمام، لأن من فاتته تلك المراتب السنية التي أشرنا إليها فحقيق أن يكون عملُه غيرَ تمام.

وأما المراتب فهي على مذهب مالك، رحمه الله، ومن تبعه من العلماء خمس: فرض وهي الخمس. وسنّة وهي الوتر والعيدان والاستسقاء وكسوف الشمس وما أشبه ذلك. وفضائل وهي قيام رمضان وتحية المسجد وخسوف القمر. ومختلف فيه هل هو سنة أو مستحب، وهي ركعتا الفجر[2]. ومتفق عليه أنه نافلة وهو ركعتا الضحى والركوع قبل صلاة الظهر وبعدها وقبل العصر وبعد المغرب وبعد العشاء[3].

* * *

ثم نرجع الآن إلى بيان كون الشارع، عليه السلام، جعلها فرقاً بين الإسلام والكفر، ومعنى ذلك ظاهر من وجوه:

الأول: أن ذلك تنبيه للأمة على تعظيم هذا الشعار أكثر من غيره من الشعائر، لأن ما فرض في ذلك المحل الجليل[4] بغير واسطة أفضل مما فرض في هذا المحل[5] بالواسطة.

الثاني: أنها صلة بين العبد وربه، لأن اسمها مشتق من الصلة، فمن كان لا يقبل هذه الصلة مع ما يعود عليه فيها من حسن العائد، ولا يعظم منها ما عظم الله عزّ وجلّ، فجدير أن تجعل حداً

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه وابن أبي شيبة والبيهقي عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي: الركعتان قبل ركعتي الفرض.

(٣) هذا على مذهب الإمام مالك.

(٤) يعني: سدرة المنتهى.

(٥) يعني: الدنيا.

بين الإسلام والكفر[1]، لأنها أول فَرَض فُرِض على من ادعى الإسلام. فإذا لم يوف بها وهي أول ما عليه منها فيكون شبيهاً بالارتداد عما ادعى من الاستسلام والانقياد. ولهذا المعنى قال عمر رضي الله عنه: فمن ضيّعها فهو لِما سواها أضيَع. يعني الصلاة.

الثالث: أن فيها من الترفيع للنبيّ ﷺ والتأنيس ما ليس في غيرها، وأنه يتحد حكمه معه في ذلك: (فأما الترفيع) فلكونه، عليه السلام، خُصّ بالارتقاء لتلك الحضرة العلية لما فرضت الصلاة هناك، عليه السلام، بغير واسطة، وذلك لم يُفعل مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم ترداده، عليه السلام، خمساً بين ربه، عزّ وجلّ، وبين موسى، عليه السلام، ترداده وهذا فيه من الترفيع كما تقدم. (وأما التأنيس) فلِما فيها من شَبَه الحال. وهو ما ذكرناه من الأحوال الخمس.

فالتجلّي في الصلاة مقابله التجلي هناك. والترفيع مقابله الترفيع هناك في العالم العلوي وخرق الحجب ورؤية الآيات العظام والإجابة مقابلها الإجابة هناك، وهي قضاء الحاجة في الشفاعة والمغفرة مقابلها العفو هناك عن خمس وأربعين من الفرض ـ وهو الخمسون ـ وإبقاء أجر الخمسين في الخمس. والقرب والتداني مقابله هناك (قاب قوسين أو أدنى) مع نفي التكييف والتحديد.

ولهذا المعنى قال عليه السلام (لا تفضلوني على يونس بن متّى) يعني بذلك نفي التكييف والتحديد ـ على ما قاله الإمام أبو المعالي[2] ـ لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس. لأن النبيّ ﷺ سُرِي به إلى فوق السبع الطباق، ويونس، عليه السلام، نُزِل به إلى قعر البحار. وقد قال عليه السلام (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)، وقال عليه السلام (آدم ومن دونه تحت لوائي)، وقد اختُصّ، عليه السلام، بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء، عليهم السلام. فهذه الفضيلة قد وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله، عليه السلام (لا تفضلوني على يونس بن متّى) إلا بالنسبة إلى المسافة.

فمحمّد، عليه السلام، وإن سُرِيَ به لفوق السبع الطباق واخترق الحجب، ويونس، عليه السلام، وإن نُزِل به لقعر البحار، فهما بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه، على حدٍّ واحد. والمراد بقوله، عزّ وجلّ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أنه لو كان لله، عزّ وجلّ، مسافة يُمشىٰ إليه فيها لكان النبيّ ﷺ منه بذلك القرب، إشارة منه، عزّ وجلّ، إلى قرب نبيه، عليه السلام، وتشريفه إياه.

فتحصل من هذا أن ليلة الإسراء كانت خيراً خاصاً به، عليه السلام، وفرض الصلاة فيها عليه

---

(١) أي: بين إسلامه وكفره. و (أل) نائبة عن ضمير الغائب.

(٢) أبو المعالي: هو عبد الملك بن عبد الله الجُوَيْني. وقد تقدمت ترجمته في الحديث (٣).

وعلى أمته مشترك بينه وبين أمته. وذلك مثل ما كان للخليل، عليه السلام، حين ابتُلِيَ بذبح ابنه ليُظهِر الله، عزّ وجلّ، بذلك رفع منزلته في تحقيق الخُلَّة بالرضا والتسليم في ذلك الأمر العظيم الذي لم يُفعل مع غيره، ثم فُدي بالذِّبح العظيم، وجُعِلت سنة له، عليه السلام، ولأمة النبيّ ﷺ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] وقد قال النبيّ ﷺ (أُمِرت بالذَّبح وهو لكم سنّة)[2]. فكان الخليل، عليه السلام، في كل عيد يتجدد له أجر تلك المحنة بامتثال هذه السنة.

وجدير بمن تشبه بمقام الخُلة في امتثال هذه السنة أن يكون مسيره عليها إلى الجنة، وقد قال عليه السلام (تنافسوا في أثمانها فإنها مطاياكم إلى الجنة)[3]. فخص الخليل وحده بتلك المحنة لعظيم قدره في الخُلة، واشترك هو وغيره في المِنة التي هي شَبَه بتلك المحنة. فكذلك النبيّ ﷺ خص بهذه الرفعة، واشترك مع غيره من المؤمنين بالشبه بها من رحمة.

ومثل ذلك أيضاً البيت المعمور في السماء والكعبة في الأرض. فالبيت المعمور خاص بالملائكة ـ وهم أهل العالم العلوي على ما تقدم في الحديث ـ حيث قال (يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا آخِرَ ما عليهم). والكعبة مشتركة بين بني آدم والملائكة، لأنه يطوف بها كل سنة عدد معلوم من بني آدم والملائكة، فما نقص من بني آدم من ذلك العدد كمله الله، عزّ وجلّ، من الملائكة.

ومثل ذلك أيضاً ما جاء عن الملائكة حين قال لهم عزّ وجلّ: إني جاعل في الأرض خليفة. فقالت الملائكة: أتجعل فيها من يُفسِد فيها ويَسفكُ الدماءَ ونحن نسبّحُ بحمدِك ونقدّس لكَ؟ فغضب الله، عزّ وجلّ، عليهم، ثم تداركهم عزّ وجلّ بالعفو والإفضال، فألهمهم إلى الطواف بالعرش فطافوا به أسبوعاً وتابوا واستغفروا، فتاب الله عليهم وغَفَر لهم. ثم أمرهم: أنِ ابنوا في الأرض بيتاً لبني آدم فيطوفون به، فأتوبُ عليهم كما تُبتُ عليكم، وأغفِرُ لهم كما غفرت لكم.

فما من خير في العالم العلوي ولا لسيد من السادة الخواص إلا وقد جعل الله، عزّ وجلّ،

---

(١) سورة الحج، من الآية ٧٨.

(٢) للحديث روايات غير ما ذكر الشيخ ابن أبي جمرة رضي الله عنه، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه بلفظ: وأمرت بالأضحى ولم تكتب، وفي رواية لأبي يَعلى كتب عليّ النحر ولم يكتب عليكم، وفي أخرى للحاكم: ثلاث هنّ عليّ فرائض ولكم تطوّع الأضحى والوتر وركعتا الفجر.

(٣) هذا الحديث غير معروف ولا ثابت فيما علمناه. قال ابن الصلاح كما في التلخيص ٤/١٣٨ وقد أشار ابن العربي إليه في شرح الترمذي بقوله: ليس في فضل الأضحية حديث صحيح، ومنها قوله: إنها مطاياكم إلى الجنة. قال الحافظ في التلخيص: أخرجه صاحب مسند الفردوس عن أبي هريرة رفعه: استفرهوا ضحاياكم فإنها مطاياكم على الصراط. وإسناده ضعيف جداً.

شبَهاً منه لهذه الأمة، ليُجزِل لهم النصيب من تلك النعمة، فكان ذلك تصديقاً لقوله عزّ وجلّ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[1] لأنه قد ذكر في معنى هذا الموضع أن النبيّ ﷺ أكثَرَ بالدعاء لأمته لِما جَبَله الله عليه من الشفقة والرحمة لهم، فأجابه، عزّ وجلّ، بأن قال: يا محمّد وما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا. وقد ذكر العلماء أن هذا النداء كان من الله، عزّ وجلّ، قبل أن يَخلُقَ الخلق بألفي عام. فقال (يا أمة محمّد، أرحَمُكم قبل أن تسترحموني، وأغفرُ لكم قبل أن تستغفروني، وأعطيكم قبل أن تسألوني)[2] فما ذكرناه من النعم المتقدمة وما أشبهها تضمن ذلك كله هذا النداء.

أوزعنا الله شكر نعمه، وأتمها علينا في الدنيا والآخرة بمنه.

فعلى ما قدمناه من النعم، وما أشرنا إليه من تلك المراتب السنية، فيجتمع في الصلاة المفروضة في اليوم والليلة مع ركعتي الفجر والوتر من مواطن المغفرة والإجابة والترفيع والتجلي والقرب والتداني مائتا موطن وتسعة وأربعون موطناً على التقسيم المتقدم. فإن كانت الصلاة في جماعة زادهم خمسَ مواطن من أرفع المراتب لقوله عليه السلام (يضحك الله لثلاثة وعدّ فيهم القوم يصطفون للصلاة)[3]. والضحك من الله تعالى كناية عن ترفيع العبد وإعظام الأجر له، لا من قبيل الولوع والطرب. وقد أكد، عليه السلام، هذا المعنى وبينه بقوله (صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة)[4]. ثم يزداد إلى هذه المواطن من مواطن المغفرة والرحمة في الطهارة للصلاة أربعة مواطن في كل طهر.

أحدها: عند إسباغ الوضوء لقوله عليه السلام (إذا توضأ العبد المؤمن فمضمض فاه خرجت الخطايا من فيه. فإذا استنثر[5] خرجت الخطايا من أنفه. فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه

---

(١) سورة القصص، من الآية ٤٦.

(٢) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة وأبو نصر السجزي في الإبانة والديلمي عن عمرو بن عبسة قال: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: كتاب كتبه الله قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أمة محمد، سبقت رحمتي غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة.

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد رضي الله عنه رفعه بلفظ: ثلاثة يضحك الله إليهم: القوم إذا اصطفوا إلى الصلاة، والقوم إذا اصطفوا لقتال المشركين، ورجل يقوم إلى الصلاة في جوف الليل.

(٤) رواه الإمامان مالك وأحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) استنثر: أدخل الماء في أنفه ثم دفعه ليخرج ما فيه.

حتى تخرج من تحت أشفار عينيه. فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه. فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه. فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه)[١].

الثاني: قول المتوضىء عند إسباغ وضوئه (أشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)، لقوله، عليه السلام، في قائل ذلك بعد الوضوء (فُتِحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء)[٢].

الثالث: عند الخروج إلى المسجد لقوله عليه السلام (فإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة) يعني في الخُطا إلى المسجد.

الرابع: عند الخروج من المسجد والرجوع إلى بيته، لأن له في ذلك من الأجر مثل ما كان له أوّلاً في الخروج. وذلك إذا لم يرد به غير الصلاة، ولم يشرك معها غيرها، لقوله عليه السلام (لا يريد غير ذلك) يعني في الخروج إلى المسجد.

فجميع ما ذكرناه من هذه المواطن المباركة مائتا موطن وأربعة وسبعون موطناً. فإن زاد على ذلك من النوافل مثل ركعتي الضحى فله في كل ركعة مثل ما ذكرنا من أعداد تلك المراتب السنية في كل ركعة، وزيادة صدقة بقدر أعضاء جسده، لقوله عليه السلام (كل سُلامَى من الناس عليه صدقة) فذكر لهم أشياء حتى قال (ركعتا الضحى تجزىء عنه)[٣]. فإن بلغها إلى اثنتي عشرة زاده على هذه المواطن قصراً في الجنة، لقوله ﷺ (من صلّى الضحى اثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصراً في الجنة)[٤].

فإن زاد على ذلك أربع ركعات قبل الظهر، وأربعاً بعدها، وأربعاً قبل العصر، وأربعاً قبل العشاء، وأربعاً بعدها، كان له في كل ركعة مثل ما تقدم من عدد تلك المواطن الجليلة، وزاد له على ذلك بركة دعاء النبي ﷺ له بالرحمة، لأنه، عليه السلام، قال (رحم الله امرأً صلّى أربعاً قبل أربع، وأربعاً بعد أربع)[٥].

فإن زاد على ذلك ركعتين بعد المغرب كان له في كل ركعة مثل ما تقدم ذكره من المواطن

---

(١) رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله الصنابحي.
(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه.
(٣) تقدم تخريجه في الحديث (١٤٥).
(٤) رواه الترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.
(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه ابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعاً.

العَلِيَّة، وزاد على ذلك بركة اتباع السنة فيها، لأنه كان، عليه السلام، يداوم على فعلها. وتحضيض الشارع عليه السلام، أيضاً بالقول عليها، لأنه، عليه السلام قال (أسرعوا بها فإنها ترفع مع الفريضة). ولا يؤكد عليه السلام على[1] شيء ويحض عليه بالفعل والقول إلا لعظيم الأجر فيه.

فإن زاد على ذلك صلاة الأوابين - وهي بين المغرب والعشاء اثنتا عشرة ركعة - كان له في كل ركعة مثل ما تقدم من تلك المواطن الرفيعة، وزاد على ذلك قصراً في الجنة لقوله عليه السلام (من صلّى بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بني الله له قصراً في الجنة)[2].

فإن زاد على ذلك تهجداً بالليل كان له في كل ركعة مثل ما تقدم من تلك المواطن النسبية. وزاد له على ذلك أربعة منازل: ثلاثة في الحال وواحدة في القبر. فأما التي في الحال فأولها ما روي عنه، عليه السلام، أنه قال (يضحك الله لثلاثة) وعدّ فيهم القائم بالليل. أما الثاني والثالث فما روي عنه عليه السلام أنه قال (قيام الليل يُذهب الذنوبَ ويُصِحّ البدن)[3] فهذه هي الثلاثة الحالية. وأما التي في القبر فلِما روي عنه عليه السلام أنه قال (صلاة الليل تنوّر القبر)[3].

فإن بلغ بتهجّده إلى اثنتي عشرة ركعة زاده الله على ما تقدم قصراً في الجنة، لقوله عليه السلام (من قام في الليل باثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصراً في الجنة)[4]. وزاد على ذلك الوعدُ الجميلُ بمتضمَّن التنزيل الذي تحصره العقول، وهو قوله عزّ وجلّ في كتابه ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[5].

فمبلغ هذه المواطن في هذه النوافل المذكورة ستمائة موطن وثلاثة وأربعون موطناً وزيادة

---

(١) كذا، بزيادة «على».

(٢) روى السمرقندي عن أبان عن أنس رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: من صلّى بعد المغرب اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة قل هو الله أحد أربعين مرة صافحته الملائكة يوم القيامة، ومن صافحته الملائكة يوم القيامة أمن الصراطَ والحساب. وفي رواية للترمذي عن أبي سَلَمة أن رسول الله ﷺ قال: من صلّى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عَدَلْنَ بعبادة اثنتي عشرة سنة.

(٣) جاء في الترغيب والترهيب للمنذري في الترغيب في قيام الليل عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومَنْهَاة عن الإثم، ومَطْرَدَة للداء عن الجسد. أما ما أورده المؤلف رحمه الله فلم نقف عليه.

(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوّعاً غير فريضة إلا بني الله تعالى له بيتاً في الجنة، أو إلا بُني له بيت في الجنة.

(٥) سورة السجدة، الآيتان ١٦ و ١٧.

تنوير القبر، وثلاثة قصور في الجنة، والوعد المذكور في التنزيل. فيجتمع بين النوافل المذكورة والفرائض المتقدمة الذكر من هذه المواطن الجليلة تسعمائة موطن وسبعة عشر موطناً، عدا القصور المذكورة وتنوير القبر والوعد الجميل. فطوبى لمن أشغل باله بتحصيلها، وكان من الوافين فيها، ولهذا المعنى قال عليه السلام (كفى بالعبادة شغلاً)[1]. فإنْ وقعت الغفلة عنها خسر تلك المواطن الجليلة ـ ويا لها من خسارة. أعاذنا الله من ذلك ـ وكان من أحد الأقسام الثلاثة المذمومة، لأن المصلي قد قسمه الفقهاء إلى أربعة أقسام: وافٍ، وساهٍ، ولاهٍ، وجافٍ.

فالوافي: هو الذي وفى ما أريد منه، من الأقوال والأفعال والأحوال، على ما تقدم.

والساهي: هو الذي يعملها ويسهو عنها، لتعلق قلبه بغيرها.

واللاهي: هو الذي يلهو عنها بغيرها، وهو مع ذلك يعلم أنه فيها، ومثاله ما روي عن النبيّ ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث في لحيته وهو يصلي، فقال عليه الصلاة والسلام: (لو خَشَع قلبه لَخَشَعت جوارحه)[2].

والجافي: هو الذي يخلّ بأركانها، ومثاله ما روي عنه، عليه السلام، في حديث الأعرابي المشهور الذي أخل بأركان الصلاة، فقال له عليه السلام: (ارجع فصلّ فإنك لم تُصَل)[3]. وقد حض، عزّ وجلّ، على توفيتها والمحافظة عليها في كتابه ـ أعني على توفيتها بما فرض فيها وسُنّ وشُرِع ـ فقال عزّ من قائل ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾[4] والمحافظة عليها هي توفيتها بما شرع فيها، من الآداب والقراءة والحضور وغير ذلك مما قد ذكر. وقد قال، عليه السلام، في المضيّع لها أو لبعض ما فيها مما أشرنا إليه: (أسوأُ السَّرقةِ الذي يَسرق صلاته)[5]، وقال، عليه السلام، في الالتفات فيها: (تلك خُلْسة يختلسها الشيطان من صلاة أحدكم)[6]. وهذا الالتفات على ضربين: حسي ومعنوي:

(فالحسي) هو الالتفات إلى شيء يشغل عن الصلاة، كما حكي عن بعض الصحابة حين كان

---

(١) تقدم تخريجه في الحديث (٨٠).

(٢) رواه الحكيم الترمذي بإسناد ضعيف.

(٣) متفق عليه من حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه.

(٤) سورة البقرة، من الآية ٢٣٨.

(٥) رواه الإمام أحمد وصححه الحاكم وأبو يعلى عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٦) رواه البخاري والنسائي وأبو داود وابن خزيمة عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: سألت رسول الله ﷺ عن التلفت في الصلاة فقال: اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.

يصلي في حائط له، فطار دُبْسِيّ[1]، فطفق يتردد يلتمس مخرجاً، فأعجبه ذلك، فجعل يتبعه بصره ساعة، ثم رجع إلى صلاته، فإذا هو لا يدري كم صلى؟ فقال: لقد أصابتني في مالي هذا فتنة، فجاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة، وقال: يا رسول الله، هو صدقة لله فضَعْه حيث شئت[2]. ومثل هذا حكي عن غيره أيضاً في زمان عثمان رضي الله عنه [illegible] ما ضَيَّعوا فجبروا الضَّياع الذي طرأ عليهم بأن خرجوا عن حائطهم، وجعلوه صدقة لله عز وجل. وأما اليوم فقد كثر الضياع بغير جبر للجهل بما قد ضُيِّع.

(والمعنوي) على ضربين: ماضٍ ومستقبل. فالالتفات إلى الماضي يعقبه حسرة من الماضي، لأن بالالتفات إليه تقع خسارة الحال فيكون خسراناً ثانياً، ومع ذلك فإن ما مضى لا يرجع، والالتفات إلى المستقبل تضييع حاصل لممكنٍ قد يكون وقد لا يكون، والاشتغال بالحال وترك الالتفات حسّاً ومعنى من كل الوجوه المتقدمة يحصل منه ثلاث فوائد، وهي: جبر الماضي، واغتنام الحاصل، وصلاح في المستقبل. أعاننا الله على ذلك بمنّه.

ثم نرجع الآن لبيان ما اشترطنا أن نذكره بذلك أخيراً، من بيان الحكمة في اختصاص الاسمين الجليلين، من بين سائر الأسماء الجليلة، في هذه الصورة في هذا الموضع المختص من بينها، وهما (الرّحمن الرحيم) فنقول، والله المستعان: اختصاصهما بذلك لوجوه.

الأول: ان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذا فهم على ما قدمناه يقتضي الهيبة والإعظام. و ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقتضي الخوف والإرهاب. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أحد الاسمين[3] منهما يقتضي الإجابة عند السؤال، والآخر يقتضي الغضب إن ترك السؤال ـ على ما ذكره العلماء ـ ففصل، عزّ وجلّ، بهذين الاسمين، اللذين هما أبلغ شيء في الرجاء بين الاسمين الجليلين المتضمنين الهيبة والإعظام والخوف والإرهاب، رفقاً منه عزّ وجلّ بعبيده، ولطفاً بهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[4] لأنه لو كان ذانك الاسمان الجليلان اللّذان للهيبة والإعظام متصلين بذكر الاسمين اللذين للخوف والإرهاب لكانا للضعيف الحاضر سبباً لأحد أمرين متلفين: إما أن يتفطر كبِده من شدة الخوف، وقد روي أن كثيراً من الفضلاء ماتوا من عظيم الخوف الذي توالى عليهم. وإما أن يسبق للخاطر شيء من القنط لعظيم أمر ما يدل عليه معنى ذينك الاسمين، وذلك

---

(١) الدُّبسيّ: ضرب من الحمام أدكن يقرقر.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ.

(٣) يعني: الربّ والملك.

(٤) سورة الملك، من الآية ١٤.

من أكبر الخطر، لقوله، عزّ وجلّ، إخباراً على لسان نبيه، عليه السلام: (لو كنتُ معجّلاً عقوبةً لعجّلتُها على القانطين من رحمتي)[1].

الثاني: أن المقصود من العبيد الخوف والرجاء معاً، لقوله عليه السلام: (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاستويا)[2]. فاسمان يوجبان الخوف، واسمان يوجبان الرجاء، فيحصل بمتضمنهما حقيقة ما أريد من كمال الإيمان، وهو تساوي الخوف والرجاء، على ما تقدم. فكان الابتداء أولاً بالتعظيم والإجلال لحق الربوبية الذي يقتضي التقديم، ثم عقّب بالرحمن الذي يقتضي الرجاء، ثم بالرحيم مبالغة في قوة الرجاء، لطفاً بالعبد لاستقبال ما يَرِد عليه من الخوف لمقتضى الاسم الآتي بعد مع التذكير بيوم الدين.

الثالث: أن حقيقة وصول الرحمة للطالب إنما يتحقق وصولها إليه بقوة من الراحم، حتى يمنعه أذى ما قبلها وأذى ما بعدها، فكان توسط الاسمين الجليلين بين الاسمين العظيمين تحقيقاً في إيصال الرحمة لطالبها، لأن رب العالمين لعظيم قدرته يمنعه من كل ضرر في هذا العالم. ومِلك يوم الدين لعظيم سلطانه يمنعه كل ما في ذلك اليوم من الأذى. فتحقق بذلك منع الأذى أولاً وآخراً، يشهد لذلك قوله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3].

الرابع: أنه لما أن أريد من العبيد حقيقة الإخلاص والصدق عند قولهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جعل هذا الاسم الجليل إثر هذا الاسم العظيم، لكي يحصل منهم عند النطق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة الإخلاص، لأنه يأتي إثر الإرهاب. والإرهاب مثير للخوف، والخوف موجب للصدق والإخلاص. ولو كان إثر الرحمة لكان كثير من الناس لا يحصل منهم الإخلاص في هذا الموضع، لأن الرحمة توجب الرجاء والطمأنينة، وقد يكون معها الغفلة لقليل الحضور، لأنه لا يثبت عند الرحمة والنعمة إلا الفاذّ[4]، وقد قال علي بن أبي طالب رضي، الله عنه: ابتُلينا بالضرّاءِ فصَبَرنا، وابتُلينا بالسرّاءِ فلم نصبر، لأن الغالب من الناس إذا ابتلوا بالضرّاء رجعوا إلى الله تعالى بالصدق والإخلاص واللجأ والضراعة، فإن ابتلوا بالسرّاء قلّ الواقف منهم هناك على ما أريد منه من صدق اللجأ والضراعة. ومن وقف في ذلك المقام فهو الصّدّيق الذي لا شك فيه.

الخامس: أنه لما أن كان الاسمان الجليلان أحدهما يقتضي الإجابة إذا سئل، والآخر يقتضي

---

(١) لم نقف على مصدره.
(٢) انظر تخريجه في الحديث ١٣٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٧.
(٤) الفاذّ: المتفرد عن نظرائه يقال: فذّ يفذّ: تَفَرّد.

الغضب إذا لم يسأل، وعلم، عزّ وجلّ، ما في عبيده من الضعف بحيث أن تقع منهم الغفلة عنه في هذا الموطن، إما لخوفٍ أو لرغبة، أو لرجاء أو لتسليم أو لغفلة جعل، عزّ وجلّ، الدعاء منهم، وأقامه مقام الدعاء الحقيقي، ثم أجاب، عزّ وجلّ، عليه فقال: (ولعبدي ما سأل)، لئلا يفوتهم هذا الخير العظيم، ولئلا يتناولهم الغضب لعدم سؤالهم. فانظر إلى هذا اللطف العظيم والنعمة الشاملة.

وقد قال النبي ﷺ (مَنْ أُلْهِمَ الدعاء فقد فتحت له أبواب الرحمة)[1]. فلم يكِل الله، عزّ وجلّ، هذه الأمة لنفسها في فتح هذا الخير العظيم، بل فتحه لهم بفضله، ثم بعد هذه التلاوة شرع الشارع عليه السلام، خيراً ثانياً بِقَوْل العبد ﴿آمينْ﴾ بعد ختم السورة، فزادهم دعاء حقيقياً، وضمن لهم بالشرط الذي فيه المغفرة، لأن كل مؤمن في اللغة داع.

ثم بعد هذا نحتاج أن نشير إلى شيء، من فضائل هذه السورة، ولم فُضّلت على غيرها من السور؟ ولم سُميت بأسماءٍ جملة، وغيرها من السور باسم واحد؟

فنقول، والله المستعان: يحتمل أن تكون سُميت بأسماء جملة لأن لها من الخصائص والأفضلية ما ليس لغيرها، فكانت أسماؤها عديدة دون غيرها، لأن كثرة الأسماء دالة على فضل المسمَّى، إما مطلقاً أو على جنسه، ولذلك سمي النبيّ ﷺ بخمسة أسماء. وقد قال بعض العلماء، إذا تُتُبِّعَ القرآنُ، وما جعل الله تعالى له فيه من الأسماء، والحديثُ وما جعل هو ﷺ لنفسه فيه من الأسماء: إنها تبلغ إلى نحو المائة اسم، وغيره من الأنبياء، عليهم السلام، ليس لهم غير اسم واحد، لأنه، عليه السلام، صاحب اللواء والمقام المحمود، فكانت كثرة أسمائه لأجل عظيم قدره. كذلك أيضاً كثرة أسماء الله، عزّ وجلّ، لأنه ليس كمثله شيء، فكانت لا يشبهها شيء لكثرتها وعظمها.

يشهد لذلك ما روي في الأثر من الدعاء حيث قال (اللهم إني أسألك باسمك الأعظم، وبكل اسمٍ سميّتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علّمتَه أحداً من خلقك، أو استأثرت به في مكنون غيبك)[2] أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فدل بمتضمن هذا أنه لما أن كانت الذات الجليلة لا

---

(١) رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة.

(٢) لفظ الحديث: ما من عبد قال: اللهم إني عبدُك وابنُ عبدِك، ناصيتي بيَدِك، ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميّتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همّي وغمّي، إلا أذهب الله همه وحزنه وغمه، وأبدله مكانه فرحاً. قيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها.

تلحقها الأوهام، فكذلك كثرة أسمائه تعالى لا تلحقها الأوهام. ولا يتوهم متوهم أن هذا معارض لقوله عليه السلام: (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)[١]، لأن إحصاء هذا العدد المعلوم جُعِل سبباً في دخول الجنة، لا أنه ليس ثَمّ من الأسماء غيرها، فلا تعارض.

ثم نرجع إلى ذكر أسمائها ونُبيِّنَ معانيها فنقول: قد سميت بأم القرآن، والفاتحة، والحمد، والسبع المثاني، والقرآن العظيم.

فأما تسميتها بأم القرآن فلوجوه:

الأول: أن لفظها على قسمين، إفراد لله تعالى بالألوهية، ورحمة من الله لعبده المؤمن. وإذا عظم العبد مولاه فهو رحمة من الله له لقوله عزّ وجلّ: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[٢]. والذكر من الله تعالى لعبده رحمة ـ كما قد تقدم ـ وقد قال، عزّ وجلّ، على لسان نبيه عليه السلام: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومَن ذكرني في مَلإٍ ذكرته في مَلإٍ خيرٍ من مَلَئِهِ)[٣]، فإذا نطق فيها باللفظ الذي يقتضي الألوهية والعبادة فهو إقرار بحق الله تعالى على عباده، وإذا وقع هذا الإقرار على حقيقته وجبت إذ ذاك الجنة لصاحبه بمقتضى الوعد الجميل، لأن النبيّ ﷺ قال: (حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)[٤]، ثم قال: (وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً). لكن بين حق الربوبية وحق العبودية فرق، وهو أن حق الربوبية واجب حتم قد لزم، وحق العبودية حق تفضل لا وجوب.

وباقي السورة ـ وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ـ فدعاء مَرْجُوّ الإجابة بمقتضى الوعد الجميل، لقوله، عزّ وجلّ، على لسان نبيه، عليه السلام: (ولعبدي ما سأل)، فكانت خيراً كلّها، والله عزّ وجلّ يقول في كتابه ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥]. فالرحمة قد تقدم بيانها، والشفاء قد ذكر في الحديث وهو حين رَقَى أحد الصحابة بها، فشُفِيَ المَرقيُّ بها. فلما أن أخبر الراقي النبيَّ ﷺ قال له النبي ﷺ: (وما يدريك أنها رقية)[٦]؟ وليس فيها

---

(١) رواه ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن لله عزّ وجلّ تسعة وتسعين اسماً من أحصاها أو دعا بها دخل الجنة.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٥٢.

(٣) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: أنا عند حسن ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منه، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة.

(٤) تقدم تخريجه وهو حديث معاذ رضي الله عنه وأوله: كنت ردف النبي ﷺ فقال: يا معاذ الخ..

(٥) سورة الإسراء، من الآية ٨٢.

(٦) قطعة من حديث أخرجه الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه.

ذكر للكفار ولا للمنافقين، ولا للوعيد ولا للعقاب، لفظ منطوق به إلا خيراً كلها. والقرآن إنما أنزل رحمة للمؤمنين فاستحقت هذا الاسم بمقتضى ما تضمنت من اشتقاق اسم الرحمة، لأن الأم توصف بالرحمة، ولذلك أعطيت لها الحضانة ولم تعط للأب.

الثاني: أنها تضمنت بمضمونها جميع ما في الكتاب العزيز من الوعد والوعيد والأمثال وغير ذلك. بيان ذلك أن لفظ (الحمد) يتضمن كل ما في الكتاب العزيز من التحميد والشكر، لأن الحمد أعم من الشكر، على الصحيح من الأقوال، فأتى باللفظ العام الذي يدل على هاتين الصيغتين حيث وجدتا. ولفظ ﴿ٱللَّهِ﴾ يتضمّن كلَّ ما في الكتاب من أسماء الترفيع والتعظيم، لأنه قيل: إنه اسم الله الأعظم. ولفظة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب من ذكر باقي أسمائه سبحانه، وتدل على ما في الكتاب من العوالم على اختلافها، وخالقها، والمتصرف فيها، وإظهار ما فيها من الحكمة والأمثال وغير ذلك. ولفظة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب العزيز من المغفرة والرحمة والإنعام والعفو والإفضال وما أشبه ذلك. ولفظة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب من ذكر الآخرة وما فيها، وتلك الأهوال والنعيم والعقاب. ولفظة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب من أنواع التعبدات والإفراد لله، عزّ وجلّ، بالألوهية والإذعان لجلاله. ولفظة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب من طلب الاستعانة، وذكر الاضطرار واللجأ والمسكنة والافتقار وما أشبه ذلك. ولفظة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب من طلب الهداية إلى سبل الخير والإرشاد إليها، وما أشبه ذلك. ولفظة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب من ذكر الخصوص والمرضي عنهم، والمعفو عنهم، وأهل السعادة وطرقهم ومآلهم وحالهم وما أشبه ذلك. ولفظة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تتضمن كل ما في الكتاب من أنواع الكفر والمخالفات ومآلهم وحالهم وما أشبه ذلك. فاستحقت أن تسمّى أمّاً لما بيناه في هذا الوجه وما قبله. وقالوا: أم الشيء: أصله.

الثالث: أنها تنوب في العبادة عن غيرها ولا ينوب غيرها عنها، لقوله عليه السلام: (كل ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج، فهي خِداج، فهي خِداج، غير تمام)[1]. فاستحقت أن تسمَّى بالأم، لأنها تنوب في الصلاة عن غيرها ولا ينوب غيرها عنها، فهي أعلى، كما يقال: أم الرأس، أي: أعلى الرأس.

---

(١) رواه الستة إلا البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خِداج (ثلاثاً).

الرابع: أنها أنزلت أولاً على بعض الأنبياء والرسل، أحدهما نوح، والآخر ـ فيما أظن ـ آدم عليه السلام، ثم رفعت حتى أنزلت على النبيّ ﷺ. فاستحقت أن تسمى بالأم لأجل نزولها أولاً، كما سميت مكة أم القرى لأجل أنها خلقت أولاً، ثم دحيت الأرض من تحتها. فاستحقت هذه أن تُسمّى بالأم لأجل خلقها أولاً، واستحقت هذه أن تُسمَّى بالأم لأجل نزولها أولاً.

وأما تسميتها بالفاتحة فلوجوه:

الأول: أن بها استفتح الكتاب العزيز في التلاوة، بمقتضى وضع المصحف.

الثاني: أن بها استحقت تلك الخمسة كنوز، ونيل ما فيها من الخير على ما أشرنا إليه قبل.

الثالث: أنها فاتحة لِظُلَم القلوب وشرح الصدور لما فيها من الحِكَم والعِبَر لمن اعتبر، وما يحصل بها من قوة الإيمان عند تلاوتها مع تدبّرها.

الرابع: أنها فتح من الله، عزَّ وجلَّ، على نبيه، عليه السلام، وعلى أمته، لقوله عليه السلام: (وهي السورة التي أُعطِيتُ)، أي فُتِح عليَّ بها.

الخامس: أن بها تستفتح الصلاة، لقوله عليه السلام لأبيّ (كيف تقرأ إذا استفتحتَ الصلاة؟ قال فقرأت عليه: الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ حتى أَتيتُ على آخرها)(1).

وأما تسميتها بالحمد فلوجوه:

الأول: أن أولها (الحمد) فسميت بما استفتحت به، فأشبهت في هذا الاسم غيرها من السور، كسبّح، وص، وق، وما أشبه ذلك.

الثاني: أن كل آية منها نعمة على ما بيناه، والنعمة توجب الشكر، وأعلى الشكر: الحمد، على الصحيح. فسميت حمداً لمقتضى الحمد عليها.

الثالث: أن تلاوتها توجب للعبد الحمد عند مولاه، لقوله، عزَّ وجلَّ، على لسان نبيه، عليه السلام، (حَمِدني عبدي).

الرابع: أن العامل بمقتضاها يكون محموداً حالُه في الحال والمآل.

وأما تسميتها بالمثاني فلوجوه:

الأول: أنها سبع آيات، وكل آية منها خير بذاته، كما تقدم الكلام عليه لقوله عزَّ وجلَّ على

---

(1) رواه الدارقطني عن جابر رضي الله عنه بلفظ: كيف تقرأ إذا قمتَ إلى الصلاة؟ قال: الحمد لله رب العالمين. قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم.

لسان نبيه، عليه السلام (حمدني عبدي، وأثنى عليّ عبدي، ومجّدني عبدي، وهذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، وهذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[1] جواباً منه، عزّ وجلّ، لكل آية منها، فكانت خيراً ثُنِيَ سبع مرات، أي أعيد خيراً على خير سبعَ مرات.

الثاني: أن كل آية منها مثناة، لأن العبد يثني على المولى، والمولى يثني على العبد. وهي سبع آيات، ووقعت التثنية لتلك السبع آيات بين العبد ومولاه بمقتضى الحديث.

الثالث: أنها سبع مقسومة بين اثنين، على مقتضى الحديث لقوله، عزّ وجلّ، على لسان نبيه، عليه السلام (قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي).

الرابع: أن تاليها كان الخير له مَثْنَى على طريقين، من طريق الثناء عليه، ومن طريق الإحسان إليه. فأما الثناء فلقوله عزَّ وجلَّ (حمدني عبدي) إلى آخر الحديث. وأما الإحسان إليه فلأن الله، عزّ وجلَّ، إذا حمده عبده على شيء أثابه عليه. فالثناء من الله تعالى دالّ على الإحسان. فكان الخير فيها مَثْنَى بالقول والفعل.

الخامس: أن قراءتها في الصلاة مثناة، أي تعاد في كل ركعة.

وأما تسميتها بالقرآن العظيم فلوجوه:

الأول: أن فيها التعظيم من وجهين: تعظيمٌ للرب، وتعظيمٌ لمنزلة العبد. فأما تعظيم الرب فلِما فيها من الحمد والثناء والتعظيم والتحميد له، عزَّ وجلَّ، وهو أهل لذلك. وأما تعظيم منزلة العبد فلِما نال بتلاوتها من كثرة الأجر ورفع المنزلة عند الرب عزَّ وجلّ.

الثاني: أنها دلت مع قلة آياتها على ما تقدم من تلك الكنوز، ومعاني الكتاب العزيز كله على ما تقدم بيانه.

الثالث: أن الله، عزَّ وجلَّ، قد أعدّ لقارئها من الخير والنعمة ما لا يكيّف بمقتضى الحديث المتقدم، لأنه إذا كان الله، عزَّ وجلَّ، يثني على عبده فأي نعمة وخير أعظم من ذلك؟ وقد نص، عزَّ وجلَّ، ذلك على لسان نبيه، عليه السلام، حين يقول لأهل الجنة: (يا أهلَ الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربَّنا وما لنا لا نرضى؟ وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحداً من خَلقك؟ فيقول عزَّ وجلَّ: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربَّنا، وما هو أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني،

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى عليّ عبدي الخ...

فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[١]. والله، عزَّ وجلَّ، إذا أثنى على العبد فقد رضي عنه، ولا أفضل من ذلك، بمقتضى الحديث. فاستحقت أن تكون عظيمة لأجل ذلك.

الرابع: أنه ليس في القرآن سورة أقوى في الرجاء منها بسبب ما تضمنه قوله عزَّ وجلَّ (ولعبدي ما سأل). فمن أُعطِي الإعانة والهداية إلى الصراط المستقيم بإخبار الشارع عليه السلام ـ والخبر لا يدخله نسخ ـ فحقيق أن يكون عظيماً.

الخامس: أن ما فيها من الحمد لله والصفات بتعظيم الله، عزَّ وجلَّ، وما فيها من طلب الهداية والاستعانة ومنة الله تعالى بذلك على عبده، دال على تعظيم الرب، عزَّ وجلَّ، فكان نصفها تعظيماً بالنص، وباقيها تعظيماً بالضمن، لأن مَن عطاؤه هذا القَدْرُ مع استغنائه عن المعطَى له وعن غيره دالّ على تعظيمه. فاستحقت ذلك الاسم لأجل هذا المعنى.

ثم نرجع الآن نبين لمن هذا الخير كله من العبيد؟ أعني ما تضمنته السورة من الخير العظيم الذي أشرنا إليه، وما تضمَّنه قوله، عزَّ وجلَّ (ولعبدي ما سأل) هل هو على العموم أو على الخصوص؟ فظاهره العموم ومعناه الخصوص، بدليل أن لو كان ما تقدم لكل مُصَلٍّ ما دخل أحد من المصلين النار، وقد صح أنهم يدخلونها، لقوله عليه السلام (من لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكَر لم يَزدَدْ من الله إلاّ بُعْداً)[٢]، ولقوله عليه السلام (الصلاة إلى الصلاة كفّارة ما بينهما ما اجتُنِبَت الكبائر)[٣]، ولقوله عليه السلام (إن النار تأكل ابن آدم كلّه إلا موضع السجود)[٤] فدل بمجموع ذلك أن بعض المصلين يدخلون النار. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فدل ذلك على أن اللفظ المتقدم والخير على الخصوص لا على العموم.

وإذا كان على الخصوص فنحتاج أن نبيّن صفة هذا العبد الذي يطلق عليه اسم الخصوص، فنقول: قد بينه، عزَّ وجلَّ، في كتابه حيث قال ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[٥]. فصاحب هذه الصفة له الخيرات المذكورة كلها وغيرها، وعلامته اتباع الكتاب والسنة لقوله عزَّ وجلَّ

---

(١) رواه الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه ومطلعه: إن الله عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لَبَّيكَ وسَعدَيك، فيقول: هل رضيتم الخ...

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه بلفظ: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر. وفي رواية لأبي نعيم عن أنس رضي الله عنه: الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.

(٤) رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه وغيرهم بلفظ: كل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود.

(٥) سورة الحجر، من الآية ٤٢.

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] وضده ليس له فيها نصيب، لقوله عليه السلام (لم تزده من الله إلا بُعْداً).

وبقي الثالث وهو المتوسط، وهو الذي شابَ[2] عمَلَه يدخل في عموم قوله عزّ وجلّ في كتابه ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾[3] ولهذا الصنف كانت وصية النبي ﷺ حين طُلبت منه الوصيةُ، فقال عليه السلام (صَلّ صلاةَ مُوَدِّع)[4] لأن الخصوص المتقدمي الذكر في كل حال هم حاضرون تائبون، والمخلّط هو الذي يحض على الحضور والإقلاع عما كان بسبيله والإقبال بكليته على مولاه، وقوة الرجاء في فضله، لأن المودِّعَ بدَنُه مع أهله وكُلّيته حيث هو مُتوجّه. فلذلك ندبه الشارع، عليه السلام، لعل أن تحصل له هذه الصفة هنا، فيوافق قوله قول الملائكة في الصدق والإخلاص، فينال المغفرة بمتضمن الوعد الجميل، لقوله، عليه السلام (غفر له ما تقدم من ذنبه). جعلنا الله ممن منَّ عليه بالمغفرة وأسبابها، وألحقنا بالخواص من عباده بلا محنة.

فلأجل ما احتوت عليه هذه العبادة مما أشرنا إليه خصت بالفرض هناك[5]. والله أعلم.

نرجع الآن إلى استنباط الأحكام من لفظ الحديث على ما قررناه أولاً:

الوجه الخامس والخمسون: فيه دليل على فضل النبيّ ﷺ وعلو منزلته عند ربه، عزَّ وجلَّ، إذ إنه فرضت عليه الصلاة في موضع لم يطأه مَلَك مقرَّب ولا نبيّ مرسل. وقد جاء في رواية أخرى (أن جبريل، عليه السلام، لما أن وصل معه إلى مقامه الخاص به قال له: يا محمّد، هذا مقامي لا أتعداه، وها أنتَ وربُّك. فزج، عليه السلام، في النور زَجّة، واخترق من الحجب ما شاء الله تعالى وانتهى حيث أريد منه). وهذه مزية لم تكن لغيره من المخلوقين.

---

(١) سورة الأعراف، من الآيتين ١٥٦ و١٥٧.

(٢) شاب عمله: خلطه ومزج الجيد بغير الجيد.

(٣) سورة التوبة، من الآية ١٠٢.

(٤) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى أبي محمّد الإبراهيمي في كتاب الصلاة وإلى ابن النجار عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أي: عند سِدْرَة المنتهى.

الوجه السادس والخمسون: فيه دليل على أن النبيّ ﷺ كان متيقظاً في ليلته تلك، ولم يكن بين النائم واليقظان كما أخبر به أولاً، لأن الصلاة قد فرضت عليه هناك. ولم يَتَعَبَّد الله عزَّ وجلَّ هذه الأمة بالمرائي. أعني: إذا وقعت الرؤيا لغير نبي من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام. وأما إن كانت من نبي فيتعيّن التعبد بها، لأن رؤيا الأنبياء وحيٌ إذ إنهم معصومون في المنام كعصمتهم في اليقظة، ولم يكن النبيّ ﷺ ممن لا يوحَى إليه إلا في النوم، وإنما قال النبيّ ﷺ أولاً: إنه كان بين النائم واليقظان، ليبين الحالة التي كان، عليه السلام، فيها حين أتته الملائكة، لا أنه أبقي كذلك حين الإسراء به.

يشهد لذلك إنكار المشركين عليه ﷺ وطلبهم منه صفة بيت المقدس حين أخبرهم بأنه سارَ إليه. فلو كان إخباره، عليه السلام، بأنه رأى رؤيا لم يقع منهم الإنكار لما أخبرهم به، ولا كان له فيه معجزة، إذ إن سائر الناس يكون نائماً ببلد وسِرّه يجول في بلد آخر. فلما أن وقع من المشركين الإنكار، وطلبوه بالدليل على ما ادعاه، أجابهم، عليه السلام، عما سألوا عنه بغير زيادة ولا نقصان، وقال للمؤمنين: إنه رُفِع اليَّ بيت المقدس، فكنت حين يسألونني عنه أنظر إلى البيت وأقول لهم، لأنه، عليه السلام، لم يكن مُضِيّه إلى البيت لنظر جزئياتٍ فيه، وإنما كان لوجهٍ ما كما أخبر به، ثم سأله المشركون عن جزئيات لم يكن، عليه السلام، التفت إليها، فرفع إليه حتى عاين كلَّ ما سئل عنه وأجاب به. ورَفْعُ البيت إليه يحتمل وجوهاً، وهي مثل الوجوه التي تقدمت في البيت المعمور.

الوجه السابع والخمسون: فيه دليل على أن الله، عزَّ وجلَّ، إذا أراد ظهور الحق جعل من خلقه من يعانده ويريد إخماده حتى يكون ذلك سبباً لظهوره وإيضاحه، لأنه لما أن أخبر النبيّ ﷺ بالإسراء صدّقه المؤمنون ابتداءً من غير بحث ولا سؤال، كما قال أبو بكر، رضي الله عنه، حين قيل له: إن صاحبَك ادّعى أنه عُرِج به البارحة إلى مكان كذا وكذا. فقال: أَوَ قالها؟ فقالوا: نعم. فقال: الأمرُ كذلك. فلو بقي الأمر كذلك لكان الشك يدخل على بعض المتأخرين من المؤمنين الذين ليست لهم تلك القوة في الإيمان.

فلما أن أراد، عزَّ وجلَّ، إظهار ذلك حتى لم يبق فيه توهم ولا احتمال جعل الأعداء سبباً للبيان والإيضاح، لأنْ بسؤالهم حصل العلم القطعي أن ما رأى، عليه السلام، في اليقظة لا في المنام، لأنهم سألوا عن جزئيات في بيت المقدس كانوا يعلمونها، وهم يعلمون أنه، عليه السلام، لم يكن قَطُّ دخل بيت المقدس. فلما أن أعلمهم بها تحققوا أنه أسري به إلى بيت المقدس. فتصحيح البعض دال على تصحيح الكل ـ وهو باقي الإسراء ـ فكان ذلك سبباً لتقوية إيمان

المؤمنين، ولمن ختم الله، عزَّ وجلَّ، له بالسعادة من المشركين. فبان له الحق بتلك الآية فرجع عن شركه وأسلم.

ومن هذا القبيل أيضاً طلبهم منه، عليه السلام، انشقاق القمر، ومثل ذلك طلب فرعون من موسى عليه السلام، الآية، وكذلك جميع الأنبياء، عليهم السلام مع أممهم. هذه عدة أجراها الله تعالى أبداً لهم، يظهر الحق على أيديهم ويوضحه بسبب أعدائهم. وهذا فيه ظهور من حكم العدة الجارية من الله، عزَّ وجلَّ، مع أنه، عزَّ وجلَّ، قادر على إظهار الحق وبيانه من غير منازع فيه ولا متوقف.

الوجه الثامن والخمسون: لقائل أن يقول: لِمَ أُسري به عليه، الصلاة والسلام، من بيت المقدس، ولم يُسْرَ به من مكة التي هي أشرف البقع بمتقضى الأحاديث؟.

والجواب: أنه إن قلنا: إن ذلك من الله تعالى لحكمة استأثر بها، فيجب الإيمان به كما ورد الخبر به من غير تعليل. وإن قلنا: إن الحكمة في ذلك معقولة، فحينئذ نحتاج إلى إبدائها فنقول: هي ـ والله أعلم ـ كما ذكرناه آنفاً، وهو أن يكون ذلك دالاً على صدق النبيّ ﷺ، لأنه لو عرج به، عليه الصلاة والسلام، من مكة لكان الكفار ينكرون ما يدعيه، ولا يجد ما يستدل عليهم، ويلحق بسبب ذلك لمن ضَعُفَ إيمانُه الشكُّ. فلما أن أُسرِي به، عليه الصلاة والسلام، لذلك الموضع، وسأله الأعداء المنكرون عن جزئيات فيه كانوا يعلمونها، وهو، عليه السلام، لم يدخله قطّ حتى يعلم الجزئيات التي فيه، ثم أخبرهم، عليه السلام، في الحال بكل ما سألوا عنه، فكان[1] ذلك أكبرَ آية على تصديقه، عليه السلام، فيما ادعاه، بخلاف أن لو كان الإسراء به، عليه السلام، من موضعه الذي كان فيه، لأن البشر ليس له معرفة بالعالم العلوي حتى يعلموا ما فيه، فيسألوا عنه.

ولوجه ثانٍ أيضاً وهو أن بيت المقدس هو القِبلة الأولى، وهو من أحد المواضع التي تُوَجّه المطي إليها. فجُمِع له الإسراءُ من القبلتين، واجتمعت له فيه الفضيلتان.

الوجه التاسع والخمسون: قوله عليه السلام (فأقبلت حتى جئت موسى) إلى آخر الحديث فيه وجوه:

الأول: فيه دليل على أن علم التجربة علم زائد على العلوم، ولا يُقْدَر على تحصيله بكثرة العلوم، ولا يُكتَسَب إلا بها ـ أعني بالتجربة ـ لأن النبيّ ﷺ هو أعلم الناس وأفضلهم، سيما الآن الذي هو قريب عهد بالكلام مع ربه، عزَّ وجلَّ، ووارد من موضع لم يطأه مَلَك مقرّب ولا نبي

(١) كذا بزيادة الفاء في جواب «لمّا».

مرسَل، ثم مع هذا الفضل العظيم قال له موسى، عليه السلام: أنا أعلم بالناس منك. ثم أعطاه العلة التي لأجلها كان أعلم منه بقوله: عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة. فأخبره بأنه أعلم منه في هذا العلم الخاص الذي لا يؤخذ ولا يدرك إلا بالمباشرة، وهي التجربة.

الثاني: فيه دليل على جواز الحكم بما أجرى الله، عزَّ وجلَّ، بحكمته من ارتباط العوائد، لأن موسى، عليه السلام، حكم على هذه الأمة بأنها لا تطيق ذلك، وذلك بسبب ما أخبر به وهو أنه عالج بني إسرائيل. ومن تقدم أقوى وأجلد ممن يأتي بعده كما أخبر عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[1] فرأى موسى، عليه السلام، أن ما لا يحمله القويّ فمن باب أَوْلَى ألاّ يحمله الضعيف بعد. فحكم بآثار الحكمة في ارتباط العادة، مع أن القدرة صالحة لأن يحمل الضعيف ما لا يحمل القوي.

الثالث: فيه دليل على فضل النبيّ ﷺ وعلو شرفه، إذ إن موسى، عليه السلام، في الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، على ما يعلم من الفضل وعلو المقام، وكلامه هنا خدمة للنبيّ ﷺ ولأمته.

الرابع: فيه دليل على أن بكاء موسى، عليه السلام، أولاً حين صعود النبيّ ﷺ لم يكن إلا للوجه الذي أبديناه لا لغيره، لأنه لو كان لغير ذلك لبكى حين رجوع النبي ﷺ إليه أو سكت، ولكنه قام في الخدمة والنصيحة للنبي ﷺ ولأمته. فلمّا أن كان بكاؤه أولاً للوجه الذي ذكرناه ولم يصادف ما أشرنا إليه، وإنما كانت هذه النفحة من النفحات الخاصة بالنبي ﷺ وبأمته بمقتضى الحكمة والإرادة، تعرض[2] أيضاً لهذه الأمة بطلب التخفيف، فصادف تعرضه للنفحة موضعها، إذ إنها خاصة بهذه الأمة، وتكلم هو، عليه السلام، في حقها، فأسعف فيما أراد، فخفف، عزَّ وجلَّ، إذ ذاك، وردّ الخمسين إلى خمس، وزاد بالإفضال فجعل الحسنة عشراً في الثواب عليها، فأزال، عزَّ وجلَّ، عن الأمة فرض تلك الصلوات، وأبقى لهم ثوابها تفضلاً منه، عزَّ وجلَّ، وإحساناً.

الخامس: فيه دليل على أن حق الربوبية أن تُعبَد فلا تُغفَل، لأنه، عزَّ وجلَّ، فرض أولاً خمسين صلاة، والخمسون أن لو كانت لاستغرقت زمان الليل والنهار، فكان الفرض أولاً بمقتضى ما يجب من حق الربوبية، ثم ردها، عزَّ وجلَّ، بلطفه وحكمته إلى ما يقتضيه ضعف حال البشرية.

السادس: فيه دليل على رفع قدر النبيّ ﷺ عند ربه، عزَّ وجلَّ، إذ إنه لو شاء، عزَّ وجلَّ، أن يخفف أولاً ما خفف في الخمس مرات لفعل، ولكن لما أن كان الخطاب والمراجعة يزداد بهما النبيّ ﷺ شرفاً فعل، عزَّ وجلَّ، ذلك بمقتضى حكمته، تشريفاً لنبيه، عليه السلام، وترفيعاً، لأن

---

(١) سورة الروم، من الآية ٩.
(٢) هذا جواب «لمّا».

ترداد العبودية إلى المَوَالية[١]، وعَطْفَ الموالية عليها بقضاء حاجتها، دال على ترفيعهم لديه. لأنه لو طلب، عليه السلام، أولاً في التخفيف حداً محدوداً لأُسعِف فيه وأجيب. وإنما طلب نفس التخفيف مجملاً فأُسعِف في طلبه. ففي كل مرة قضيت له حاجة. فتكرار قضاء الحاجات دال على رفع المنزلة، ودال أيضاً على فضل الربوبية التي لا يشبهها فضل أحد. لأن من له فضل من المخلوقين قد يسأم عند تكرار السؤال. وأجلّ العبادات كثرة السؤال إلى الله، عزّ وجلّ. وقد نص الشارع، عليه السلام، على ذلك حيث قال: (إن الله يحب المُلْحّين في الدعاء)[٢]. وقد تقدم الكلام في معنى اسمه عزّ وجلّ بالرحمن الرحيم، وذلك لا يليق إلا بجلاله تعالى. فأعطي، عليه السلام، في هذا المقام الذي هو أجلّ المقامات أجلّ العبادات، وهو تكرار السؤال.

السابع: فيه دليل على أن من طلب من الله تعالى حاجة فقضيت له فلا يستحيي من طلب غيرها، لأن النبيّ ﷺ تكرر خمس مرات يسأل، وفي كل مرة قضيت له حاجة بنفسها كما تقدم، ولأن المحل قابل لقضاء الكل، وتكراره في طلب الحوائج قربة إلى الله تعالى وتعبد، كما ذكرناه آنفاً.

وفي هذا دليل لأهل الصوفة حيث يقولون: إن النعمة الكبرى في نفس السؤال. ومن لم ير عندهم النعمة إلا في قضاء الحاجة فذلك واقف مع حظ من الحظوظ لم ينفد بعد، لأن النعمة العظمى في لجأ العبودية إلى الموالية، وعطف الموالية عليها، فقضَاء الحاجة عندهم تابعة لهذه النعمة.

الثامن: فيه دليل على أن المرشد لوجه من وجوه المصلحة لا يلزمه فيه التحديد، لأن موسى، عليه السلام، لما أن أرشد النبيّ ﷺ لطلب التخفيف لم يحدّ له في ذلك شيئاً، ومنه قوله ﷺ (إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَع ولا ظهراً أبقى)[٣]، فأشار إلى الأخذ بالتخفيف، ولم يحدّ فيه شيئاً لاختلاف أحوال الناس في ذلك. ولو أشار، عليه السلام، إلى حدّ في التخفيف لكان في حق بعض الناس غير تخفيف بالنسبة إلى حالهم، فعمّ ولم يحدّ.

التاسع: فيه دليل على أنه إذا تعارض حقان: حق لله تعالى، وحق لمخلوق، فالسنة فيه أن يقدم حق الله تعالى ويترك غيره، لأن النبيّ ﷺ في الخمس مرات غلب عليه ما طبع عليه من الرأفة والرحمة بأمته، فلم يزل يتردد في طلب التخفيف لهم. فلما عَرَض له في السادسة إعظامُ الربوبية،

---

(١) الموالية: نسبة إلى المولى، وهو الله جلّ جلاله. ولكلمة «مَوْلى» معان أخرى.

(٢) رواه الحكيم الترمذي وابن عدي في الكامل وأبو الشيخ في الثواب والبيهقي وابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه البيهقي والزبيدي والسيوطي في الدر المنثور والحافظ ابن حجر في فتح الباري والبستي في العزلة والبغدادي في الفقيه والمتفقه.

والانقيادُ لِما صدر منها، قال: (رضِيت) وترك حق الغير، وهو طلب زيادة التخفيف لما عارضه هناك كما تقدم.

ولا يعترض على هذا بالوجه الذي قدمناه ـ وهو كثرة الإلحاح في السؤال ـ لأن كثرة الإلحاح فيه قربة مع بقاء أوصاف البشرية، والنظر إلى الاحتياج، وكثرة الإفضال من الله تعالى، والإحسان وعدم السآمة هناك للفضل العميم. وهذا هو حال البسط، فشأن صاحبه السؤال والطلب. فإن وقع الالتفات إلى العظمة والجلال لم يبق إذ ذاك إلا حال التسليم والهيبة والحياء، كما ورد على النبي ﷺ في المقام السادس.

ولهذا المعنى كان، عليه السلام، إذا رأى سحابة يَحْمَرُّ ويَصْفَرُّ ويدخل ويخرج، فإذا أمطرت سُرِّي عنه. فقيل له في ذلك، فقال: قوم رأوا سحابة فظنوا أنها مطر، فكانت بلاء[1]. وكيف يخاف عليه السلام، من نزول البلاء، وقد أخبر أنه أمان لأصحابه ما بقي بينهم، فقال عليه السلام (أنا أمان لأصحابي ما دمت فيهم، وأصحابي أمان لأمتي)[2]؟ فلم يبق أن يكون خوفه، عليه السلام، إلا من الصفة القائمة بالذات الجليلة، لأن من أسمائه، عزَّ وجلَّ، المنتقم والجبار. فكان، عليه السلام، إذا رأى أثر ما انتُقِم به من غيرهم تفكر في تلك الصفة فخافها لذاتها الجليلة، ولذلك كان، عليه السلام، إذا رأى المطرَ سُرِّي عنه، لأن المطر دال على صفة الرحمة، فسُرَّ بلحظه لتلك الصفة الجليلة، وهذا مقامه، عليه السلام، ومقام الخواص من التابعين له.

وفيه وجه آخر ـ وهو الذي يعمّ الخواص وغيرهم ـ أن ذلك على وجه التعليم أن يعظم آيات الله ويفزع عند ظهورها، فإن الله، عزَّ وجلَّ، يقول: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[3] فعلى هذا فالناس إذاً على قسمين: أصحاب أحوال، وغيرهم. فأصحاب الأحوال مخاطَبون في كل حال بما يَرِد عليهم، وبما يليق بحالهم الذي أقيموا فيه في وقتهم ذلك، كما كان النبيّ ﷺ في أحواله

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة الأحقاف، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لهواتِه، إنما كان يتبسّم. قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِف ذلك في وجهه. قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه مطر، وأراك إذا رأيتهَ عُرِف في وجهك الكراهية. فقال: يا عائشة، ما يؤمّني أن يكون فيه عذابٌ؟ عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. وروى مسلم في كتاب صلاة الاستسقاء قريباً منه.

(٢) جاء في صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة أن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل: النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعَد، وأنا أَمَنَة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعَدون، وأصحابي أَمَنَة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٥٩.

المباركة كما تقدم. ومن كان عَرِيّاً عن الأحوال فحكمه ما ذكرناه آنفاً، وهو دوام السؤال والإلحاح. ولأجل هذا يقول أهل الصوفة: مَن حالُه التعظيمُ والإجلالُ فشأنُه التسليمُ والإطراق. ومن حالُه المحبةُ والشوقُ فشأنه السرور والالتفات. وكل هذه المقامات لها علامات لا يعرفها إلا أربابها، وكلها مأخوذة من هذا الأثر الجليل على ما قررناه.

العاشر: فيه دليل على أن مَن تَرَك حقَّ الغير وآثر حقَّ الله تعالى أنه يعود عليه وعلى الغير خير مما ترك، لأن النبي ﷺ لما وقع له حال الحياء والهيبة، فسلّم ولم يطلب المزيد في التخفيف، أبدل له من ذلك تضعيفُ الحسنات بعشر أمثالها، والهدايةُ إلى الاستعانة بالله، عزّ وجلّ، في نفس هذه العبادة، لأنه، عزَّ وجلَّ، جعل من مشروعيتها في كل ركعة فاتحة الكتاب، وفيها من الخير والفضل والإحسان ما قد أشرنا إليه أو يزيد عليه.

الحادي عشر: فيه دليل على شرف النبيّ ﷺ وعلوّ قدْره عند ربه، عزّ وجلّ، إذ إنه، عليه السلام، ما دام يطلب التخفيف أُسعِف وأُجيب، فلما أن وقع منه التسليم أمضى الله، عزّ وجلّ، فريضته، فصادف اختياره، عليه السلام، ما أراد الله تعالى إنفاذه وإمضاءه. وقد نص، عزّ وجلّ، على ذلك في كتابه حيث قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] فكل ما يأمر به، عليه السلام، أو يشير به إنما هو عن الله تعالى صادر، أكان بواسطة أو بغير واسطة. قال تعالى في حقه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2].

الثاني عشر: فيه دليل على أن قدر الله تعالى على قسمين ـ كما قدمناه ـ والقدر الذي قدَّره وقـدَّر ألا ينـفُذ بسبب واسطةٍ أو دعاءٍ مثل ما هو فرضه هنا للخمسين صلاة، لأنه، عزّ وجلّ، لما أن أَمَر بالخمسين أولاً وسَبَقت إرادتُه ألا ينفُذ ذلك جعل بحكمته موسى عليه السلام هناك سبباً لرفع ذلك، والقَدَر الذي قدره، عزَّ وجلَّ، وقدر إنفاذه ولا يرده راد هو فرضه للخمس صلوات، لأنه، عزَّ وجلَّ، لما أن أمر بها وسبقت إرادته بإمضائها لم ينفع كلام موسى، عليه السلام، إذ ذاك، إذ إن ذلك كان من القدر المحتوم.

ولهذا المعنى أخذ الفضلاء من أهل الصوفة في المسارعة إلى أفعال البر على كل الأحوال، مع إذعانهم واستسلامهم لربهم، عزَّ وجلَّ، رجاءً منهم لعل أن تكون تلك الأعمال سبباً لرفع ما كان نازلاً بهم من القَدَر الذي يرجِع بالسبب، واستسلموا وأذعنوا للقِسم الآخر الذي ليس لهم فيه حيلة إلا الرضا والتسليم، وهو القدر المحتوم.

---

(١) سورة النساء، من الآية ٨٠.

(٢) سورة النجم، الآيتان ٣ و٤.

وقد نصّ القرآن والحديث على ما قررناه. أما الكتاب فقوله عزَّ وجلَّ ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[1]. فأخبر عزَّ وجلَّ أنهم لو تضرعوا إليه واضطُروا لرفع البلاء الذي كان قدر عليهم. وقد رفع، عزَّ وجلَّ، ذلك عمن صدر منه ما نص عليه في هذه الآية، وهم قوم يونس، عليه السلام، فإنهم لما أن أتاهم العذاب، وأيقنوا بالهلاك، رجعوا إلى ربهم بصدق وإخلاص فدعوه واضطروا إليه، فصرف الله، عزَّ وجلَّ، عنهم بسبب اضطرارهم ما كان نازلاً بهم من المقدور.

وأما الحديث فقوله عليه السلام (الصدقة تزيد في العمر)[2]. وهذا يفسره ما روي أن الله، عزَّ وجلَّ، لما أن خلق الخلق جعل عمرهم على قسمين: إن كان طائعاً فعمره كذا، وإن كان عاصياً فعمره كذا. فإذا بادر المرء إلى الأعمال الصالحات بورك في عمره، وزيد فيه، وكان له أطول العمرين. فإن كان العمر الذي قدر الله تعالى به إن كان من أهل المعاصي أزالته الصدقة وفعل الخير، إن وفق لذلك. وقد عاين هذا كثير من الفضلاء يطول تتبع حكاياتهم في ذلك. وإن لم يفعل شيئاً من ذلك كان عمره أقلَّهما. ولهذا المعنى كان بعض الفضلاء يقول: إذا نزلت بي نازلة فألهمت فيها للدعاء فلا أبالي بها فإنما هي رحمة.

الثالث عشر: لقائل أن يقول: لِمَ لَمْ يَصدُر الكلام من إبراهيم، عليه السلام، وهو أقرب؛ من ثلاثة أوجه: لخلّته ولأُبوته ولقرب موضعه؟ والجواب عنه: أن مقام الخُلّة إنما هو الرضا والتسليم، والكلام في هذا الشأن ينافي ذلك المقام، وموسى، عليه السلام، هو الكليم، والكليم أُعطِي الإدلال والانبساط. فكلامه هنا بالنسبة إلى حاله قربة.

الرابع عشر: فيه دليل لأهل الصوفة حيث يقولون: حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، لأن إبراهيم، عليه السلام، لم يتكلم في هذا الشأن بسبب أن مقامه أعلى من الكلام، فلو تكلم لكان ذلك في حقه، عليه السلام، سيئةً بالنسبة إلى مقامه الخاص. وموسى، عليه السلام، كان كلامه مما يتقرب به بالنسبة إلى مقامه الخاص به. كل منهما له مقام خص به لا يتعداه.

ومما يشهد لهذا من حالهم ـ أعني أهل الصوفة ـ ما حكي عن بعض فضلائهم أنه أصاب الناسَ قحط، واشتد الأمر عليهم، فتضرع إلى الله تعالى وابتهل في تفريج الكربة، فلم يزد الأمر إلا شدة. فلما أن رأى ذلك أرسل إلى أخ له يسأله الإعانة في الدعاء للمسلمين. فقال المرسَل إليه

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ٤٣.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه رفعه بلفظ: الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة وتزيد في العمر وتقي مصارع السوء.

للرسول: قل له: لو علمتُ أنه يخرج مني نَفَس لغير الله لقتلتُ نفسي. فكان الدعاء في حق هذا مما يتقرب به بنسبة مقامه، وكان في حق الآخر خطيئة بنسبة مقامه.

ولهذا المعنى يقول المتحققون منهم: (الصوفي إذا تناهى لم يبق فيه غير قلب ورب)، ومعناه: أن الصوفي إذا تناهى أذعن لما يصدر عليه من المقدور، واستسلم إليه راضياً بذلك من غير اعتراض، وذهبت عنه الفكرة في الدنيا وهمومها، والفكرة في الآخرة ونعيمها وعذابها بسبب الرضى والتسليم، وبقي بين يدي ربه مستسلماً كالميت بين يدي الغاسل. يقلّبه كيف شاء. هذا هو حال المتحققين منهم بعد توفية الاجتهاد في كل أنفاسهم وخواطرهم في كل أنواع التعبدات.

الخامس عشر: فيه دليل لأهل الصوفة حيث يقولون: بأن الحال حامل لا محمول. لأن النبيّ ﷺ لما أن ورد عليه حال الإشفاق على أمته بادر إلى طلب التخفيف عنهم، ولم ينظر لغير ذلك. ثم لما أن وَرَدَ عليه حال الحياء من الله، عزَّ وجلَّ، لم يلتفت لأمته إذ ذاك، ولا طلب شيئاً.

السادس عشر: فيه دليل على أن الله، عزَّ وجلَّ، إذا أراد سعادة عبد جعل اختياره في مرضاة ربه، لأنه لما أن كان النبيّ ﷺ بتلك المنزلة العليا التي أشرنا إليها جعل عزّ وجلّ اختياره وإيثاره لما أراد سبحانه إنفاذه وإمضاءه، وهو فرض الخمس صلوات، وذلك تكريم له، عليه السلام، وترفيع، لأنه لو رجع عليه السلام يطلب التخفيف فلم يتحف به كما أتحف أولاً لكان اختياره مخالفاً للمقدور. فلما أن اختار وأُسعِف في اختياره كان ذلك دليلاً على ما استدللنا عليه وعلى علوّ منزلته، عليه السلام، إذ إنه ما دام، عليه السلام، يطلب التخفيف أُسعِف. فلما أن رضي أُسعِف في رضاه، ففي كل حال من طلب ومن عدم طلب كان اختياره، عليه السلام، موافقاً للمقدور.

أعاد الله علينا من بركاته، وجعلنا من خيار أمته بمنّه، لا ربّ سواه، ولا مرجوّ إلا إياه.

❊❊❊

اللهم اجعل ما أنعمت به علينا في هذا الحديث الجليل الذي أظهرته على يدي محمّد نبيك الكريم من باهر عظيم قدرتك، وما أبديته لنا من أنوار سرّ حكمتك، فيما تعبدت به عبادك المؤمنين، نوراً في قلوبنا، وتقويةً في أبداننا، وثلجاً في يقيننا، وتزكيةً في أعمالنا، وبلّغنا به الزُّلفى، وحسن المآب، إنك أنت الكريم الوهاب.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ١٦١ ـ

حديث خلق الإنسان في بطن أمه ونفخ الروح فيه

عَن عَبدِ الله بنِ مَسعودٍ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: حَدَّثنا رَسولُ الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ قال: إنَّ أحدكم يُجْمعُ خَلقُه في بطن أُمِّهِ أربَعين يَوماً نُطفة، ثُمَّ يكونُ عَلقَةً مِثلَ ذلكَ، ثُمَّ يكونُ مُضغَةً مِثلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبعَثُ الله مَلَكاً فَيُؤمَرُ بأربَعِ كَلماتٍ. وَيُقالُ لَه: اكتُب عملَهُ وَرِزقَهُ وأجلَهُ وشَقيٌّ أو سَعيد، ثُم يَنفُخُ فيهِ الرُّوح. وإنَّ الرَّجُلَ مِنكُم لَيَعملُ حَتَّى ما يكونَ بينَهُ وبينَ الجنَّةِ إلاَّ ذِراع، فَيَسبِقُ عَليهِ الكِتابُ فَيَعملُ بِعملِ أهلِ النَّارِ. وَيَعمَلُ حَتَّى ما يكونَ بَينَهُ وَبينَ النارِ إلاَّ ذِراع، فَيَسبِقُ عَليهِ الكتابُ فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أهلِ الجَنَّة.

❊ ❊ ❊

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) إظهار قدرة الله تعالى في جميع خلق بني آدم في بطون أمهاتهم، على نحو ما ذكر في الحديث. (والآخر) سَبْقُ القَدَرِ في الخلق بما شاء الله، وإظهار ذلك عند الموت. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن قدرة القادر لا يحجبها شيء من الأشياء. يؤخَذ ذلك من قوله، عليه الصلاة السلام: (إن أحدَكم يُجمَع خَلقُه) ولم يجعل لذلك عِلة الجِماع، لأن المرء يجامع أهله مراراً ولا يكون بينهما مولود، حتى يشاء ذلك القادر سبحانه. ومعنى الجمع هنا هو استقرار الماء الذي هو من اجتماع ماء الرجل وماء المرأة في الرحم، لأن الشيء الكثيف إذا بقي وطال زمانُه كان أصلح له.

ولذلك لما خلق الله، عزّ وجلّ، الأرض والسماء خلق الأرض أولاً ثم عَمَدَ إلى السماء، وترك الأرض بغير فَتْق، لأنها كثيفة. وإبقاء الكثيف بمقتضى الحكمة حَسَنٌ فيه، وزيادةٌ معنوية. فلما أن خلق، عزّ وجلّ، السماء فَتَقها من حينها، وقدّر فيها أمورَها، لأن السماء من العالم اللطيف. والشيءُ اللطيف لا يحتمل البقاء، ثم بعد ذلك فتق الأرض لما أن حَسُنت الصنعة فيها بإبقائها تختمر في ذينك اليومين.

بيان ذلك من كتابه، عزّ وجلّ، قوله تعالى ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ

وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ . ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[1] وقال في آية أخرى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا . وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ . أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾[2] فذكر في الآية الأولى أن خلق الأرض كان قبل السماء، وذكر في الآية الأخرى أن دَحْيَ الأرض كان بعد خَلق السماء وفتقها.

ويحصل الجمع بينهما بالمعنى الذي ذكرناه، لأن الآيتين مُحْكَمتان[3]، ولا نسخ في إحداهما. وظاهرهما يقتضي التعارض، وليس كذلك. فإذا قلنا: إنه ـ جلّ جلاله ـ خلق الأرض أولاً، ثم عمد إلى السماء صَدَّقنا، ثم عاد إلى الأرض ففتقها، لأن الفتق خلق آخر صدقنا، وجاءت الأخبار حقاً، وظهرت الفائدة. ولو شاء، عزّ وجلّ، أن يقول للكل: كونوا في لحظة واحدة لتكونوا، ولكن لم يشأ الحكيم ذلك، لا لعجزٍ، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً، وإنما ذلك ليعلم من سر الحكمة ما أبديناه، ومن عظيم القدرة ما قررناه. وكذلك فعل بآدم، عليه الصلاة والسلام، حين خَلَقَه، عجَنَ الترابَ بالماء، وبقي زماناً حتى انتَن، وصار حمأً مسنوناً[4]، ثم صوّره، وبقي جسداً بلا روح ما شاء الله تعالى، ثم نفخ فيه الروح فصار خَلْقاً آخر. فتبارك الله أحسنُ الخالقين

وقوله (ثم يكون عَلَقة مثل ذلك) أي أربعين يوماً.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى كيف يبقى دماً أربعين يوماً ولا يتغير، ثم في ساعة واحدة يصير عَلَقة، ثم يبقى عَلَقة أربعين يوماً أيضاً لا يتغير، ثم من حينه يعود مُضغة. والمضغة: قطعة لحم تُمْضَغُ.

وإشارة أخرى إلى أن الأشياء الرطبة إذا بقيت تغيرت، وهذا الماء يبقى القدر من الزمان ثم يزداد صلابة بعد صلابة ضد ما جرت به العوائد، فدل بهذا أن التأثير في الأشياء بالقدرة لا بغيرها. مثال ذلك ما أخبر به، عزّ وجلّ، في كتابه العزيز حين قال له: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[5] أي لم يتغير، لأن الطعام والشراب جرت العادة أنه إذا بقي يسيراً من الزمان يلحقه

---

(١) سورة فصلت، من الآية ٩ إلى الآية ١٢.

(٢) سورة النازعات، من الآية ٢٧ إلى الآية ٣١.

(٣) المحكم: ضد المتشابه، وهو الذي لا يحتمل التأويل.

(٤) الحَمأ: الطين الأسود المنتن. والقطعة منه: حمأة. والمسنون: المصنوع فخّاراً.

(٥) لم يتسنَّه: لم يتغير ولم يتعفن. الآية من سورة البقرة، ٢٥٩.

التغير والفساد، ومع ذلك فعصير عنبه، وفاكهته باقية مائة عام، ولم تتغير عن حالها. والعظام التي فيها اليبوسة والصلابة تغيرت[1]. فلما تبين له ما أشير به إليه قال ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

وقوله (ثم يبعث الله ملكاً ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجلَه وشقيّ أو سعيد) هنا بحث: هل الأربع كلمات شيء آخر خلاف الأربع المذكورة بعد؟ احتمل الوجهين معاً. والأظهر - والله أعلم - أنها مفسِّرة لذلك المجمَل، بدليل أن الحديث جاء على طريق الإخبار عن علم الغيب كي يُعلَم الأمر على ما هو عليه فيُعتَبَر. فلو كانت تلك الأربع كلمات خلافَ الأربع المذكورة بعد لكان، عليه الصلاة والسلام، يخبِر بأي نوع هي، هل هي مما لا تُعلَم؟ أو هي مما تُعلَم، أو يذكرها في موضع آخر، كما ذكر، عليه الصلاة والسلام، في نفس التصوير، لأنه سكت عنه هنا، وذكر في موضع آخر. وقد تقدم الكلام عليه بما فيه كفاية.

وقوله عليه السلام: (ثم ينفخ فيه الروح) فيه بحث وهو أن يقال: هل هو على ظاهر اللفظ أن الروح لا تكون إلا بعد النفخ فيكون النفخ سبباً له، كما كان الماء سبباً للفَخَّارة[3]، أو يكون مع النفخ الجَعْل؟ احتمل الوجهين معاً. والظاهر أنه يكون بالنفخ، وأن النفخ سبب كما كان المال سبباً للتجارة، بدليل قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[4] فجاء رجوع الأرواح إلى الأجساد آخِراً بالنفخ، كما كان أولاً بالنفخ. وكما أن المَنِيّ كان أولاً سبباً للفَخَّارة، كذلك ينزل المطر مثل مني الرجال أربعين يوماً لتنبت به أجساد العالم لتصويره، وبعده يكون نفخ الأرواح ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا

---

(١) تذكر بعض كتب التفسير أن الرجل الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها وسأل كيف يُحيي هذه اللهُ بعدَ مَوتها: اسمه عُزَيْر أو الخَضِر، والقرية بيت المقدس، والذي هدمها وجعل عاليها سافلها بُخْتُنَصَّر؛ كما تذكر الكتب أن عمره يومئذ خمسون عاماً، وكان يركب حماراً، ويحمل معه عنباً وتيناً للأكل وعصيراً للشرب، كما كان قد ترك زوجته حاملاً. . . ولما سأل ذلك السؤال كيف يحيي هذه الله بعد موتها أماته الله مائة عام كما أمات حماره، ثم بعثه وسأله كم لَبِثْتَ نائماً؟ فقال: يوماً أو بعض يوم. لكنه رأى عظام حماره باليةً منخورة. . فقال له: بل لَبِثْتَ مائة عام؛ ومع ذلك فإن طعامك وشرابك لم يتغير طعمهما ولم يفسدا. . وأراه كيف يجمع عظام الحمار بعضها إلى بعض ويركب فيها اللحم والدم والعروق ويبعث فيها الحياة. . . ولزيادة إيمانه بقدرة الله جعله يعود إلى أهله ليجد ولده في المائة من عمره بينا هو في الخمسين. وتلك آية أخرى من آيات الله.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٥٩.

(٣) الفخّارة: هيكل الإنسان وجسده. وهي استعارة، لأن الله تعالى خلق آدم من الطين، ثم نفخ فيه، من روحه. (انظر تفسير الحديث ١٧٩ من هذا الكتاب).

(٤) سورة الزّمر، الآية ٦٨.

عَلَيْنَآۚ﴾[1] وبدليل ما ذكر عن عيسى عليه الصلاة والسلام أنه كان من نَفْخ جبريل عليه الصلاة والسلام في جيبِ أمّه[2].

وفي هذا دليل على نفوذ الحكم بحسب ما اقتضته المشيئة لا تبديل فيه. فليشكر صاحب الخير الذي مُنَّ به عليه، فلعله تعالى يُديمه له، وليضرع صاحب الشرّ لعل الكريم الحنان يحوله عنه. وهذه التي قطعت رقاب الرجال مع ما هم عليه من حسن الحال. منّ الله علينا بحسن الخاتمة بفضله.

وقوله عليه السلام: (فإن الرجل منكم لَيعملُ حتى ما يكونَ بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار. ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة) فيه بحث: هل هذه الأعمال المذكورة على حقيقتها في الظاهر. أعني أن الحسن فيها مقبول، ثم لا ينفع؟ أو ليس؟ وكونه أيضاً ذكر الطرفين أصحاب الجنة وأصحاب النار ولم يذكر الذين خلطوا الخير والشر، وذكر أيضاً الذين تُبدَّل أعمالهم من الخير إلى ضده وعكسه ولم يذكر الذين يدومون على الحالة الواحدة من الخير وضده.

والجواب: عن الأول احتمل الوجهين معاً.

فعلى (الوجه الأول) ـ وهو أن يكون العمل مقبولاً ثم لا ينفع ـ فالدليل لصحة هذا الوجه قوله تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[3] فدل أن العمل كان مقبولاً، ثم لما أن جاء الشرك أزاله ولم ينتفع به.

وأما (الوجه الثاني) فالدليل عليه من قول عمر رضي الله عنه، حين قال له ابنه عبدالله: هنيئاً لك يا أبتِ تصدقتَ اليوم بدينار. فقال له: والله يا بني، لو علمتُ أن الله قَبِل مني حسنة واحدة ما كان عندي شيءٌ أحبَّ إليَّ من الموت. فدل بهذا أنه لا يُقبَل العمل إلا ممّن سَبَقت له السعادة إما كليةً أو بعضِيَّـة.

ويقع الجمع بين هذين الوجهين بأن نقول: تكلم عمر، رضي الله عنه، على حقيقة الأمر، وجاءت الآية على ظاهر الحكمة، لأن عامل الخير في هذه الدار قد رأيناه فعل ما أمر به، وقد وعد على ذلك الفعل بالخير، فنحكم له بظاهر الأمر حتماً. فإذا جاءت العاقبة بضده قلنا: حبط ذلك

---

(1) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٤.

(2) يشير إلى قوله تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (سورة التحريم، من الآية ٦٦.

(3) سورة الزمر، من الآية ٦٥.

الخير الذي كان. (ومثل ذلك) ثمر الشجرة يكون في رؤية العين حسناً، وفي الغيب جائحة لا علم لنا بها، فإذا أتت على تلك الثمرة ذهب ذلك الخير الذي كان ظهر بها. فجاء هنا كلام الشارع عليه الصلاة والسلام على مقتضى الحكمة.

وأما كونه، عليه الصلاة والسلام، ذكر الطرفين ولم يذكر مختلط العمل لأن[1] هذا هو موضع التخوف الذي هو تبديل الحال إلى حال آخر، لأن المختلط قد بان بنفسه، فلا يحتاج إلى ذكره. وكذلك تركه، عليه الصلاة والسلام، ذكر الذين يدومون على الحالة الواحدة، وفيما نحن بسبيله دليل على ظهور الأشياء على حقائقها.

وأما الدليل على ظهورها فلكونه لا يخرج من هذه الدار حتى يشهد له عمله من أي الدارين هو؟ وأما إخفاؤه فهو كون العمل من الخير أو الشر دائماً، ولا يقطع لصاحبه بمقتضاه حتى إلى[2] الموت، وهو وقت يسير جداً تظهر الحقيقة عنده، كما أخبر، عليه الصلاة والسلام، بقوله (قدر ذراع). فكل عامل لا يهنأ له قرار لجهله بحاله.

وفيه أيضاً (بحث آخر) في قوله عليه السلام: (ذراع) هل هي كناية عن المساحة في تلك الدار، أو كناية عن قرب الأجل؟ احتمل الوجهين معاً. والأظهر أنها كناية عن قرب الأجل، بدليل قوله، عليه الصلاة والسلام، في غير هذا الحديث (إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغَرْغِرْ)[3]. يعني بالغرغرة بلوغ الروح إلى الحلقوم، وهو الذي بقي له ويخرج من الجسد قدر الشبر.

وفقه هذا الحديث الخوف من هذا الأمر الخطير، والاستعداد له، وإطالة الرغبة إلى المولى العظيم لعله يتعطف على العبد المسكين.

جعلنا الله ممن يعطف عليه، وأحسن خلاصنا بمنّه. إنه ولي حميد، والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) يريد: فلأنّ.

(٢) كذا بزيادة «إلى».

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والبيهقي وصححه ابن حبان والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ـ ١٦٢ ـ

حديث استراق الشياطين للسمع وإلقائه إلى الكهان

عَن عائِشةَ زَوجِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّها سَمعَت رَسولَ الله ﷺ يَقولُ: إنَّ الملائكة تنزلُ في العَنانِ ـ وَهُوَ السَّحابُ ـ فَتَذْكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السَّماءِ، فَتَسترِقُ الشَّياطينُ السَّمع فتسمعُهُ، فَتُوحيهِ إلى الكُهَّانِ فيكذبُونَ مَعَها مائَةَ كَذْبةٍ مِن عِندِ أنفُسِهم.

* * *

ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام: نزول الملائكة في السحاب وتحدثهم بما قضي في السماء من الأمر، واستراق الشياطين السمع بما تتكلم به الملائكة، وإلقاء الشياطين إلى الكهان ما سمعت، وكذب الشياطين[1] بما لم تسمع، وإلقاء كذبهم إلى الكهان أيضاً. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: ما معنى قوله (قُضِي في السماء) الكيفية في ذلك؟ أما من الحديث فليس فيه دليل على ذلك. وقد جاء في حديث ما معناه: أن الله تعالى إذا أطلع من أراد من ملائكته، على كلامه القديم الأزلي الذي هو صفة ذاته الجليلة، تضرب الملائكة بأجنحتها ويخرّون سجّداً من الهيبة، فإذا قضي الحكم رفعت الملائكة رؤوسها وقالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العليّ الكبير. فتخبر أهلُ السماء السابعة للذين دونَهم، حتى إلى[2] سماء الدنيا، ويبقون يتحدثون[3] به.

---

(١) كذا. ومثله ما سيورده بعد صفحتين، وهذا مناقض لنص الحديث، ولما يقوله المؤلف، رضي الله عنه، بعد أسطر عديدة من أن الكذِب من الكهّان لا من الشياطين.

(٢) كذا بزيادة «إلى».

(٣) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للّذي قال الحق وهو العليّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع ـ ومسترقو السمع هكذا واحد فوق واحد آخر ـ فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرقى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرقى بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة فيُصدّق، فيقولون: ألم تخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا؟ فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت في السماء.

وفي هذا من الفقه أن كلام العبيد بما يتكلم به المولى، جلّ جلاله، عبادة، وإن كان المتكلم بذلك الأمر ليس هو مخاطَباً به. وفيه أن أهل العالم العلوي يعرفون جزئيات هذا العالم الأرضي، لأنهم إذا تكلّموا بالأمر الذي تُحدِّث فيه فقد عرفوا جزئياته.

وفيه دليل على تيسير فهم كلام مولانا سبحانه على الملائكة، وأنهم يفهمونه بلغاتنا على اختلافها. يؤخذ ذلك من أن الشياطين إذا سمعته وألقته إلى الكهان، وألقاه الكهان إلى الناس ـ وهو على لغتهم ـ كل قوم بلغتهم، على ما تقدم من مرور الأزمنة، وبذلك فهموه.

وفيه دليل على ما ذكرناه أولاً من أن كلام الله سبحانه ميسَّر بلغتنا، مَتلُوٌّ حقاً كما هو بغير حرف ولا صوت، وأن الكيفية في ذلك مجهولة، لا علمَ لأحدٍ بها إلا الحكيم سبحانه وتعالى.

وفيه دليل على فضيلة العالم العلوي على هذا العالم. يؤخذ ذلك من كونهم هم الذين يتلقون أمر مولانا، جلّ جلاله، أولاً.

وفيه دليل على انفصال السحاب من السماء. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام: (تنزل) لأن النزول لا يكون إلا من شيء منفصل عن شيء.

وفيه دليل على كذب الكهان، وأنه لا يجوز أن يصدَّقوا. يؤخذ ذلك من أنهم يكذِبون بما يشاؤون ويَصدُقون في واحدة، فالحكم للغالب.

وهنا بحث: لم قال أولاً: العَنان. ثم قال: وهي السحاب؟

والجواب: أنه يقال لكل شيء اعترض بين شيئين: عَنَّ[1]. فلما اعترضت السحاب بين السماء والأرض قال (العنَان). فلما كان هذا اللفظ يدل على أشياء كثيرة خصصه، عليه الصلاة والسلام، بقوله (وهو السحاب) دفعاً للالتباس. وهذا من فصيح الكلام.

وقوله (قضي في السماء) أي أنه ذكر أهل السماء أنه أنفذ الأمر، فلما أن كان ليس فيه رجوع أخبر عنه بأنه قد كان وقضي. ولوجه آخر وهو أن العرب تخبر بصيغة الماضي وتعني به المستقبل، والمستقبل وتعني به الماضي.

وفيه دليل على قدرة الشياطين على الكذب. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (فيَكذِبون معها مائة كَذْبة من عند أنفسهم) ولا تكون الكَذَبات إلا مما يشاكل ذلك الأمر حتى يكون خروج ذلك الحق الذي سمعوه سبباً إلى تصديق كَذِبهم، لأنه إذا كان الكَذِب الذي كذَبوه على خلاف ذلك الحق بالجملة لا يكون عليه دليل قوي في تصديقهم عند كهانهم.

---

(١) جاء في القاموس: عَنَّ الشيءُ يَعِنُّ ويَعُنُّ: إذا اعترض وظهر أمامك.

وفيه دليل: على أن الخبر لا يُؤخذُ إلا من أهله، ولا يكون خيراً إلا إذا كان على هذا الوجه، وإلا فهو ضرر كله. يؤخذ ذلك من أن الأمر الذي تكلمت به الملائكة خيرٌ كله فلما سمعته الشياطين وألقته إلى الكهان وزادوا معه الكذب عاد ضرراً، لأنه لا يجوز تصديق الكهان، وإن أخبروا بذلك الحق. فمن صدَّق ذلك الحق عمِل محرَّماً فعاد عليه منه ضرر فقطع به، ولو أخذه من أهله لكان خيراً حقاً.

ومما يشبه ذلك العلوم الشرعية إذا أُخِذت من أهل البدع والأهواء عدت ضرراً، لأنه لا يخلو أن يَدسّوا فيها أو في بعضها من ذلك السمّ شيئاً ما، فعاد من أجل ذلك العلمُ الذي يؤخذ منهم الجهلُ خيرٌ منه، لأنه أسْلَمُ، وقد قال ﷺ (إن من العِلم لَجهلاً)[1] وكذلك كان السلف، رضوان الله عليهم، لا يأخذون العلم إلا عمن فيه الدين والفضل. وقد حدثني بعض شيوخي أنه كان في زمانه سيد عالم، وكان في وقته بِدعِيّ، فجاء ذلك البدعي يوماً فرغب من ذلك السيد أن يقرأ عليه آية من كتاب الله تعالى، فامتنع من ذلك ولم يفعل، فقيل له في ذلك فقال: لم يأت بتلك الآية إلا وقد دبَّر في مكيدة، فليس طلبه ذلك تعلّماً، فلا أفعل. فاحتاط لدينه. وذلك الأولى والأحسن.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) رواه أبو داود من حديث بُـرَيدة رضي الله عنه ولفظه: إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكمةً، وإن من القول عِيّاً.

ـ ١٦٣ ـ

حديث صفة مجيء الوحي للنبيّ ﷺ

عَن عائِشَةَ، رَضي الله عَنها، أنَّ الحارِثَ بن هِشام[1] سَأَلَ النبيّ ﷺ: كَيفَ يأتيك الوَحيُ؟ قالَ: كُلُّ ذلِكَ يأتي المَلَكُ أحياناً في مثلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، فَيَفصِمُ عَنّي وَقَد وَعَيْتُ ما قالَ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَليَّ. وَيَتَمَثَّلُ ليَ المَلَكُ أحياناً رَجُلاً فَيُكلِّمني فأعي ما يَقُولُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن الوحي يأتي للنَّبيّ ﷺ على صفتين لا ثالث لهما، وهما المذكورتان في الحديث. والكلام عليه من وجوه:

منها: الندب إلى السؤال عن كل ما هو متعلق بالإيمان، وإن كنا غير مكلَّفين بذلك. يؤخذ ذلك من سؤال السائل لسيدنا ﷺ عن كيفية مجيء الوحي إليه، فجاوبه ﷺ عن ذلك ولم يقل له في ذلك شيئاً. ونحن لم نتعبد بعلم ذلك، لكن لما أن كان مما يقوى به الإيمان ندب إلى السؤال عنه.

وفيه دليل: على ما أعطى الله، عزّ وجلّ، الملائكة من القدرة على التطوير في صورهم، يتطورون كيف شاءوا. يؤخذ ذلك من قوله، عليه الصلاة والسلام: (يأتيني المَلَك أحياناً مثل صلصلة الجرس) وجاء من طريق آخر (على الصَّفا) التي هي الحجارة يعني: أن كلامه مثل صلصلة الجرس، وهو على صورته لم يتغير عنها. ومرة أخرى يأتي ذلك المَلك ويتمثل على صورة رجل. قيل كان يتمثل على صورة دِحيَـةَ الكَلْبي[2]، وكان أجملَ العرب بعد سيدنا صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الحارث بن هشام المخزومي القرشي (وهو أخو أبي جهل) صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، يضرب المثل بناته في الحسن والشرف وغلاء المهر. مدحه كعب بن الأشرف. وشهد بدراً مع المشركين فانهزم وأسلم يوم الفتح، وخرج في أيام عمر رضي الله عنه بأهله وماله من مكة إلى الشام، فلم يزل مجاهدا بالشام إلى أن مات في طاعون عمواس سنة ١٨هـ/ ٦٣٩ (الأعلام ٢/ ١٦١).

(٢) دِحيَةَ الكَلبِيّ: صحابي، بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام وحضر كثيراً من الوقائع، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وشهد اليرموك على كردوس، ثم نزل دمشق، وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه، وتوفي نحو سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م (الأعلام ٣/ ١٣).

وفيه دليل: على ما فضل به سيّدنا ﷺ من القوة في باطنه، لكونه، عليه الصلاة والسلام، يأتيه الوحي على هذه الشدة والقوة، فيثبت حتى يعي ما يقال له.

وفيه دليل: على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من كون الملك يأتي في مثل صلصلة الجرس، ويلحق سيّدنا ﷺ من ذلك، الشدةُ العظيمة، حتى إنه يأتيه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينَه ليتفصّد[2] عرقاً، ومع ذلك من يكون بجنبه لا يسمع من ذلك شيئاً.

وفيه دليل: على أنه ينبغي أن يكون الرسول فيه أو عليه نسبة من أثر ما من صفة أو من صفتي مرسِله، أحدهما أو هما معاً. يؤخذ ذلك من كون الملك يأتي أحياناً في مثل صلصلة الجرس، وهذه حالة إعظام وإرهاب تناسب ما يصدر من آثار المرسِل، وإن كان لا شبه ولا مثال، لكن نسبة ما من الإعظام والإرهاب ليكون أثر ما من صفة المرسِل على رسوله. وقد قال العلماء: يعرف قدر عقل الملِك في رسوله الذي يبعث ونوابِه، لأن الحكيم العارف لا يبعث إلا من يكون فيه أهلية بحسب الشيء المتوجه فيه. والمرة الأخرى يأتي مثل المرسل إليه، وهو حين يتمثل الملك رجلاً فيخاطب الملَك سيّدنا ﷺ ويكلمه، فحصلت له نسبة ما من نسبة الخالقة. ولذلك قال، عليه الصلاة والسلام، في الأولى: وهو أشده عليّ، وأخبر بما يقاسي فيه من الشدة، فدل على أن الوجه الآخر لا شدة فيه ولا ثقل.

لكن هنا بحث لطيف وهو أن في الوجهين على الملك المرسل أثراً ما من صفة المرسِل، جلّ جلاله. فالمرة الواحدة أثر ما من الإعظام والإرهاب، والثانية أثر ما من اللطف والرحمة والإيناس. وفي هذا من الحكمة أنه لما أن جاءت النبوة بوصفين، وهما: الإنذار ومقابلة التخويف بصفة التعظيم والإجلال، والبشارة ومقابلتها التعطف بصفة الرحمة والإيناس، فجاءت الواسطة على مقتضى هذين الوصفين لتقوى تانك الصفتان عند سيّدنا صلى الله عليه وسلم.

ومما يقوي ما أشرنا إليه أنه لما كان شهر مضان شهر خير ورحمة كان جبريل، عليه الصلاة والسلام، يلقى سيّدنا ﷺ كل ليلة في رمضان يدارسه القرآن، كما جاء الحديث بعده، فلرسُول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسَلة. فلم يأتِه في شهر الخير إلا على صفة الإيناس والخير والرحمة وتدريس القرآن، لأنه لا شيء أكثر رحمة من تدريس القرآن إذ بكل حرف لمن يعلم، بِمَ رُفِع، وبِمَ نُصِب، سبعُمائة حسنة. فبانت حكمة الحكيم بما تعبَّدته هذه الأمة، وفضله العميم عليها. جعلنا الله من خيرها بمنّه في الدارين.

---

(١) يَفصِم عنه: يبتعِد دون جفاء.
(٢) يتفصّد عرَقاً: يسيل عَرَقاً.

وهذا فيه دليل لقول من قال: إنما الصوفي كخمّار بين دنَّينِ، من أيهما شرب سكر وطرب. فإن شرب من خمر التخويف والتعظيم سكر خوفاً وتمايل حزناً. وإن شرب من خمر الرجاء سكر فرحاً وتمايل سروراً وطرباً. فإن مزجهما خرج من مقام الحال إلى حد التمييز والتكليف.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ١٦٤ ـ
حديث مجيء جبريل إلى النبيّ ﷺ وتدريسه للقرآن معه في شهر رمضان

عَنِ ابنِ عبَّاسٍ، رضيَ اللهُ تعالى عَنهُما، قال: كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ أجوَدَ النَّاسِ، وكانَ أجوَدَ ما يكُونُ في رَمضانَ حينَ يَلقاهُ جِبريلُ. وَكانَ جِبريلُ يَلقاهُ في كُلِّ لَيلةٍ مِن رَمَضان فيُدارِسُهُ القرآن. فَلَرَسُول اللهِ ﷺ أجوَدُ بالخَيرِ مِنَ الرِّيحِ المُرسَلَةِ.

* * *

ظاهر الحديث الشهادة لسيدنا ﷺ بالتقدم في الخير والحق، وزيادته، عليه الصلاة والسلام، في الخير في رمضان حين يدارسه جبريل، عليه الصلاة والسلام، القرآن. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن فيه دليلاً على تعظيم شهر رمضان. يؤخذ ذلك من كثرة نزول جبريل، عليه الصلاة والسلام، فيه لتدريس القرآن ليس إلا. ونزول القرآن هو أكبر الرحمات وأعم البركات التي خصت به هذه الأمة.

وفيه دليل: على أن تعظيم الأزمنة التي عظمها الله تعالى أو الأمكنة إنما هو بزيادة العبادة فيها. يؤخذ ذلك من فعل جبريل، عليه الصلاة والسلام، مع النبيّ ﷺ الذي كان في كل ليلة يدارسه القرآن، وما ذاك إلا لِينبّه الأمة على كيفية التعظيم له. وقد قال، عليه الصلاة والسلام فيه (من قامه إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذَنبه)[١]، وقال (فإن شَتَمك أو سبَّك أحد فقل: إني صائم، إني صائم)[٢]، كما قال، عليه الصلاة والسلام. وقد قال الله، عزّ وجلّ، في حق الأشهر الحرم تعظيماً لها ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾[٣] وعدم الظلم يتضمن الإحسان، وهو زيادة العبادة.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والضمير في (قامه) يعود على رمضان.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: وإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتله فليقل... إلخ.

(٣) سورة التوبة، من الآية ٣٦.

وفيه دليل: على أن تلاوة القرآن توجب زيادة الخير، لأن الفعل هو ثمرة التلاوة، فإن تلا ولم يفعل كان كشجرة بلا ثمر. وكذلك كان ﷺ إذا كان في تهجده إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب استجار، وإذا مرّ بآية تنزيه سبّح وعظّم[1] حتى يحصل له حال مما هو ذاكرٌ له، لأن هذه هي أوصاف العبودية. وكذلك ينبغي في حديثه ﷺ لأنه عليه الصلاة والسلام قال: (تركت فيكم الثَّقَلَيْنِ لن تضِلوا ما تمسَّكتم بهما: كتابَ الله وعِترتي أهلَ بيتي)[2]. وعِترَتُهُ أهلُ بيته هم الذين يَرْوُونَ عنه ما قال، لقوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وفيه دليل: على تذكار الفاضل في الخير وإن كان يعلمه. يؤخذ ذلك من تدريس جبريل، عليه الصلاة والسلام، لسيّدنا ﷺ القرآن كل ليلة من رمضان. وسيّدنا ﷺ يعلم ما في ذلك، وهو حافظ للقرآن، وذلك هو الذي ينفع فيه الموعظة والتذكار، لأن الله، عزّ وجلّ يقول ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[4] وقال عزّ وجلّ في ضده ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾[5].

وفيه دليل: على أن أعظم الموعظة والتذكار كلام الله تعالى، ولو كان شيء غيره أرفع منه لفعله جبريل، عليه الصلاة والسلام، مع سيّدنا صلى الله عليه وسلم.

وفيه دليل: على أن ليل رمضان أفضل من نهاره. يؤخذ ذلك من أن جبريل، عليه السلام، لم يكن يأتي لرسول الله ﷺ إلا بالليل. وفي مجيئه له ليلاً إشارة إلى أن التلاوة المقصود منها الحضور والفهم، لأن الليل فيه أشياء تعين على ذلك، منها (التفرغ) من جميع الأشغال. ولذلك قال مولانا سبحانه: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[6].

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد وفي الباب عن زيد بن ثابت عند الإمام أحمد والطبراني وزيد بن أرقم عند النسائي. ولفظ الحديث في المسند: (إني تارك فيكم الثَّقَلَيْن أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض). وفي رواية زيد بن أرقم زيادة هي (فانظروا كيف تخلفوني فيهما).
جاء في النهاية لابن الأثير في تفسير كلمة (الثقلين) قال: سماهما ثقلين لأن الأخذ منهما والعمل بهما ثقيل، وسماهما بذلك إعظاماً لشأنهما.

(٣) سورة الأحزاب، من الآية ٣٤.

(٤) سورة غافر، من الآية ١٣.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٢٠٦.

(٦) سورة المزمل، الآية ٦.

وفيه[1] أن النفس قد ذهب عنها مجاهدة الصوم وتعبه فكان أجمع لها، لأنها بالنهار مشغولة بما تحمله من مجاهدة الصوم، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وإن كان سيدنا ﷺ حاضراً في كل وقت، لكن هذا تشريع لأمته. ومن أجل هذا النوع كره مالك رحمه الله القراءة على القبور، لأنا مكلفون بأن نتفكر فيما قيل لهم، وماذا لقوا، ونحن مكلفون بالتدبر في القرآن، والجمع بينهما في الزمن الفرد محال، فآل الأمر إلى إسقاط أحد الأمرين.

وفيه دليل على جواز ضرب المثال ليفهم عن المتكلم ما قصده. يؤخذ ذلك من أنه لما قال الصحابي عن سيّدنا ﷺ: إنه كان أجود الناس، فما كان أمامه أن يعبر عن كيفية هذه الزيادة في الجود والخير إلا الريح، لأن الريح المرسلة إذا جرت دامت ولم تنقطع. وعبر عن خير سيدنا ﷺ أنه كان أكثر من الريح، لأن الريح قد تسكن وقتاً ما، والمرسل منها دائماً لا يفتر مدة إرساله.

ومما يقوي ذلك أنه، عليه الصلاة والسلام، كان في العشر الأواخر من رمضان يشد المئزر ويقول لأهله (اطووا الفِراش)[2] وهذا عند الزمان الذي يلحق الناس فيه الضعف، وهو آخر الشهر فكان، عليه الصلاة والسلام، يزيد في التعبد إذ ذاك حتى يترك النوم مرة واحدة، وما ذاك إلا لقوة الباعث على الخير حتى يخرجه عن أوصاف البشرية. وفي هذا دليل لأهل السلوك الذين يقولون: (بالهمَم تُنال المقامات لا بالأبدان).

وفيه من الفقه أنه من أراد زيادة الخير فلينظر في الأسباب المقوية للعزائم يأتيه العون، ولا يأخذ الأمور من خارج وينظر إلى الأشباح ليس إلا، فإنه إن فعل لحقه الفتور والعجز الذي هو وصف البشرية، ولهذا أشار ﷺ بقوله (طوبى لمن جعل همّه همّاً واحداً)[3] لأنه إذا جعل همه واحداً - وهو همّ الآخرة - ذهبت عنه أوصاف البشرية وطلبها لحظوظها، وخفّت عليه العبادة، وجاءه العون من حيث لا يحتسب.

وفيه دليل: على فضل الصحابة، رضوان الله عليهم، وكثرة نباهتهم. يؤخذ ذلك من قول الراوي (من الريح المرسلة) لأن الريح المرسلة هي ريح الخير، لأن الله، عزّ وجلّ، يقول:

---

(١) أي: في الليل.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر من رمضان أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجَدَّ، وشدّ المئزر. (وليس في الحديث أنه يقول لأهله اطووا الفراش). وفي رواية عن أنس أوردها صاحب مجمع الزوائد ٣/ ١٧٤ قال: كان النبيّ ﷺ إذا دخل العشر الأواخر طوى فراشه، واعتزل النساء، وجعل عشاءه سحوراً.

(٣) روى ابن ماجه رقم ٢٥٧ أن رسول الله ﷺ قال: من جعل الهموم همّاً واحداً، همّ آخرته كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك. وإسناده ضعيف.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾[2] وقال عزّ وجلّ في الريح التي هي نقمة ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾[3] وقال عزّ وجلّ في قوم عاد ﴿ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾[5] فنعتها بالصفة المهلكة. فحيث ما وجد ذكر الرياح مجملة أو نكرة، تجدها منعوتة بالإرسال ليس إلا، فهي خير. والضد تجدها معرفةً مفردةً بما يدل على المخوفات كما ذكرنا آنفاً.

ويترتب على ذلك من الفقه ألا يمثَّل الخير إلا بخير مثله، وكذلك على الضد، ولا يعكس الأمر في ذلك. والله الموفق للصواب بمنّه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) سورة الحِجر، من الآية ٢٢.
(٢) سورة الأعراف، من الآية ٥٧.
(٣) سورة آل عمران، من الآية ١١٧.
(٤) سورة الذاريات، من الآية ٤١.
(٥) سورة الحاقّة، من الآية ٦.

ـ ١٦٥ ـ

حديث وجوب طاعة الزوجة لزوجها للفراش

عَن أبي هُريرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: قال رَسولُ الله ﷺ: إذا دَعا الرَّجُلُ امرأتَـهُ إلى فِراشِـهِ فَأبَت، فَباتَ غَضبانَ عليها، لَعنَتها الملائِكَةُ حَتَّى تُصبحَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن المرأة إذا لم تجب زوجها إذا دعاها إلى فراشه، وغضب عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح. والكلام عليه من وجوه:

(منها) قوله (إلى فراشه) هل هو على ظاهره أو هو من الكناية عن الجماع؟ والظاهر أنه كناية عن الجماع. ويقوي ذلك قوله ﷺ في حديث آخر (الولد للفراش)[١] أي للذي يكون وطؤه في الفراش.

وفيه دليل على أن المستحسن في الشرع الكناية عن الأشياء المستقبحة، وهذا فيه موجود كثير مثل قوله تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٢] وما أشبهه، وهو كثير.

وهل هذا في الليل لا غير أو يكون ذلك سواء متى دعاها إلى حاجته المعلومة منها في الليل فمنعته، كان الأمر على حد واحد في اللعنة لها؟ ظاهر الحديث يدل على أن اللعنة مختصة بامتناعها ليلاً، وذلك ـ والله أعلم ـ لتأكد ذلك الشأن في اللّيل، وقوة الباعث عليه، وبالنهار قد تجب عليها مساعدته، ولا يجوز لها امتناعها عنه، إلا أنه لا يتأكد الأمر حتى تلعنها الملائكة. ولو كان ذلك كان الشارع، عليه الصلاة والسلام، يقول: ذلك في النهار أيضاً.

وقد يقال: إن الشارع، عليه الصلاة والسلام، إنما خصّ الليل بالذكر دون النهار لأن المَظنَّة في الغالب لذلك الشأن، فإذا وقع ذلك في النهار فلا فرق، بل يكون بالنهار آكد في النهي، لما ورد

---

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة وأبي هريرة، رضي الله عنهما، وهو حديث متواتر. وتمامه: وللعاهر الحجر.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٨٧.

عنه عليه الصلاة والسلام يقول (من رأى منكم امرأة تعجبه فليأت أهله)[1]. ومعلوم أن ذلك إنما هو خوف الفتنة أن تقع، ولا يمكن الاحتراز منها إلا بوقوع ذلك الشأن في وقته ذلك خشية على نفسه، واحترازاً لدينه، فيكون على هذا في النهار أبلغ في الزجر والنهي. والله أعلم.

وهل الملائكة التي تلعنها هم الحفظة أو غيرهم؟ احتمل. غير أن فيه دليلاً على قبول دعاء الملائكة من خير أو شرّ، ولولا ذلك ما خَوَّف سيّدنا ﷺ به.

وفيه بالضمن الإرشاد إلى مساعدة الزوجة في مرضاته. وقد جاء هذا أيضاً منه عليه الصلاة والسلام، وهو قوله ﷺ: (جهاد المرأة حسن التبعل)[2].

وفيه دليل على أن الصبر عن شهوة الجماع على الرجال أضعف مما هو على النساء. ويؤخذ ذلك من حض الشارع، عليه الصلاة والسلام، لهنَّ على مساعدة الرجال على ذلك لقوة صبرهن. ولولا ذلك لكان الأمر بالعكس.

وفيه دليل على أن أقوى التشويشات على الرجل في دينه داعية النكاح، ولأجل ذلك حض الشارع، عليه الصلاة والسلام، النساء على مساعدة الرجال في ذلك، وقال عليه الصلاة والسلام (من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء)[3] ولم يقل ذلك للنساء.

وهل من شرط غضبه أن يكون دائماً الليل كله، أو بنفس الغضب وجبت اللعنة؟ احتمل. لأن العرب قد تسمي الكل بالبعض، والبعض بالكل. فاحتمل قوله (بات) أي بات ليلته كلها، واحتمل أن يكون (بات) أي عند أخذه في المبيت، وهو ذلك الزمان اليسير. وهو الأظهر ـ والله أعلم ـ لأن النوم ما يبقى معه غضب ولا غيره.

(وهنا بحث) لم علق لعنة الملائكة لها بالوصفين وهما: امتناعها وغضبه؟

والجواب، والله أعلم: قد يكون دعاؤه لها من وجوه: منها التَّطْيِيب لقلبها لا رغبة فيها، وقد يكون في حقها لأنه يرى منها ما يدل على رغبتها في ذلك الشأن، أو لِحَظّ نفسه، وليس له ذلك الباعث القوي، وقد يكون لذلك الباعث القوي، فذلك هو الذي يوجب الغضب. فمن أجل الاحتمالات قرنه ﷺ بالغضب. فتحتاج المرأة على هذا أن تعرف الوقت الذي يكون فيه الغضب من

---

(١) رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه بلفظ: إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة تعجبه فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه.

(٢) عزاه المناوي في كنوز الحقائق /٦٦/ للطبراني.

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومطلعه: يا معشر الشباب، من استطاع إلخ....

زوجها فتساعده، وإن جهلت فالمساعدة لها أولى. وهذا كله مع عدم الأعذار، وإن كانت هناك أعذار فأصحاب الأعذار لهم حكم خاص. إلا أنه يشترط أن يكون العذر شرعياً، وإلا فليس بعذر.

وفيه دليل على ترك المَنهِيّات وإن لم يكن فيها حدّ من الحدود، لأن الحفظ فيها كثير، يؤخذ ذلك من كون هذا الموضع لا حدّ فيه، والأمر فيه أخطر، لأن نقمة الملائكة ما يعرف أين تبلغ؟ ولذلك قال ﷺ (ما نهيتكم فلا تقربوا)[1].

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: اترك ما عندك تجد عند الحبيب، وسلكوا التفريق إلى حظوظ النفس مرة واحدة، لأنهم رأوا أكثر المهلكات منها.

وهنا (إشارة لطيفة) فكما مولاك لا يترك لك حقاً من حقوقك إلا جعل لك من يقوم به وإن لم تطلبه، فمن المروءة أن توفي أنت حقوقه وهو طلبها منك. انظر من عصمة واحدة منك على عدم مساعدتك على شهوة من شهواتك جعل عزّ وجلّ الملائكة الكرام الليل كله تلعن مانعك من شهواتك - لا رعى الله من لا يلاحظ الإحسان، ولا يعرف قدر الاهتمام - ثم اهتم بك وبحقوقك، وهو الغنيّ عنك. أضعتَ حقّه وأنت المحتاج إليه. ما أقبح الجفا مع كثرة الاحتياج منك إليه، وكثرة الإحسان منه إليك! لكن الجهل عَمَى.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم.

ـ ١٦٦ ـ
حديث عَرْض الجنة أو النار على الإنسان حين موته

عَن عَبدِ الله بن عُمَر، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: إذا ماتَ أحدُكم فإنَّه يُعرَضُ عليهِ مَقعَدُهُ بالغَداةِ والعَشِيِّ. فإن كانَ مِن أهلِ الجنَّةِ فَمِن أهلِ الجنَّةِ، وَإن كانَ مِن أهلِ النَّارِ فَمِن أهلِ النَّارِ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بأنه من مات منا يعرضُ عليه مقعده، أي موضعه، بالغداة والعشي من الجنة والنار. والكلام عليه من وجوه:

(منها) قوله عليه الصلاة والسلام (أحدكم) هل يعني من جنس ابن آدم كلهم، المؤمن وغيره، أو يعني المؤمنين؟ احتمل الوجهين معاً. لكن الأظهر أنه للجنس جميعاً، بدليل قوله تعالى في آل فرعون ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾(١).

وفيه بحث وهو أن يقال: كيف قال عليه الصلاة والسلام (بالغداة والعشي) وليس في الآخرة ليل ولا نهار؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد قدر ما بين الغداة والعشي في هذه الدار، كما قال تعالى ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾(٢) قال العلماء: قدر ما بين الغداة والعشيّ في دار الدنيا.

وفيه بحث آخر وهو أن يقال: ما معنى يُعرَضون؟ هل هو بمعنى الدخول؟ أو بمعنى الرؤية؟ احتمل الوجهين معاً. لأنهم يقولون: عَرَضتُ العُودَ على النار، أي أدخلته فيها. ويقولون: عَرَضت الشيءَ على الرجل، أي أريته إياه. ومنه قولهم: عُرِض القومُ على السلطان أي أبصرَهم وعرفهم. لكن الأظهر أنه من أريته، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر (إن الميت إذا مات فُتِحت

---

(١) سورة غافر، من الآية ٤٦.
(٢) سورة مريم، من الآية ٦٢.

له كُوّة إلى الجنة وكُوّة إلى النار. فإن كان مؤمناً قيل له: من هذا عافاك الله ـ يعنون النار ـ وهذا وعَدَكَ الله يا وليّ الله، يعنون الجنة. ثم تُسَدّ عنه الكوة التي إلى النار، وتبقى التي إلى الجنة. وإن كان غير مؤمن فبالضد)[1].

وهنا أيضاً بحث آخر وهو: من الذي يُعرَض عليه؟ فعلى قول من يقول: إن الروح والنفس شيءٌ واحد، يكون على الأرواح. وعلى قول من يقول: إن الروح خلاف النفس. فيكون على الأرواح، أو يكون على النفوس، أو على الأجساد، أو على المجموع. احتمل. لكن الأظهر أنه على الأرواح، وأن الأبدان لا تعذَّب مع أرواحها مجتمعة بعد سؤال القبر إلى يوم القيامة، بدليل ما جاء في آل فرعون وهو أن أرواحهم في أجواف طيورٍ سُودٍ، تعرض على النار غدوة وعشية.

وقد ذكر بعض الناس الذين يقولون: إن النفس شيء، وإن الروح شيء ثان: أن النفس هي التي تبقى في القبر مع الجسد، وأنها من العالم الذي لا يفنى، وأنها هي التي تتنعم في القبر أو تتعذب، وأن الروح يلحقها مما هي فيه نسبة ما، وهي في موضعها من علّيّين أو من سجّينٍ، وأنه لا يكون عذابهما معاً إلا في يوم القيامة، أو نعيمهما أيضاً. والقدرة صالحة.

وفيه بحث آخر إذا قلنا: إنه للجنس: المؤمن وغيره، هل هو على العموم أو ليس؟ الظاهر أنه ليس على العموم بدليل قوله تعالى في الشهداء ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[2] ويقول سيّدنا ﷺ فيهم (إن أرواحهم في حواصل طيور خُضْر، تأكل من شجر الجنة وتشرب من أنهارها)[3]. فمن هو

---

(١) الحديث المشار إليه انفرد بروايته الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت يهودية فاستطعمت على بابي، فقالت: أطعموني، أعاذكم الله من فتنة الدّجّال، ومن فتنة عذاب القبر. قالت: فلم أزل أحبِسُها حتى جاء رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما تقول هذه اليهودية؟ قال: وما تقول؟ قلت: تقول أعاذكم الله من فتنة الدجّال ومن فتنة عذاب القبر. قالت عائشة: فقام رسول الله ﷺ ورفع يديه مداً يستعيذ بالله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر، ثم قال: أما فتنة الدجّال فإنه لم يكن نبيّ إلا حذّر أمته، وسأحذّرُكُمُوه تحذيراً لم يحذِّره نبيّ أمّته: إنه أعور، والله عزّ وجلّ، ليس بأعور، مكتوبٌ بين عينيه (كافر) يقرؤه كل مؤمن فأما فتنة القبر فَبِي تُفتَنون وعنّي تُسألون، فإذا كان الرجل الصالح أُجلِس في قبره غيرَ فَزِع، ولا مَشْعوف، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: في الإسلام؟ فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبيِّنات من عند الله عزّ وجلّ فصَدَّقناه؛ فيُفرَج له فُرجَةٌ إلى الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها، ويقال له على اليقين كنت، وعليه مِتّ، وعليه تُبعَثُ إن شاء الله. وإذا كان الرجل السَّوْءُ أُجلِسَ في قبره فزِعاً مَشْعوفاً فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا، فتُفرَج له فُرجةٌ قِبَلَ الجنّة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظرْ إلى ما صرف الله عزّ وجلّ عنك، ثم يُفرَج له فرجة قِبَل النار فينظر إليها يَحْطِم بعضُها بعضاً، ويُقال له: هذا مَقْعَدُكَ منها، كنتَ على الشّك، وعليه مِتّ، وعليه تُبعَث إن شاء الله، ثم يُعَذّب.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ١٦٩.

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: لما أصيبَ إخوانكم بأحد، جعل=

دائم في الجنة فكيف يعرض عليها غدوة وعشية، فيكون عاماً فيما عدا الشهداء. لكن يرد على هذا قوله عليه الصلاة والسلام (نسمة المؤمن طائر أبيض معلق في شجر الجنة حتى يَرُدَّها الله تعالى إلى أجسادها يوم القيامة)[1] فمن يكون في شجر الجنة فكيف يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي؟

فالجواب أنه قد يمكن الجمع بينهما من وجوه:

(منها) أنه قد أخبر ﷺ عن الشهداء أنهم سبعة ما عدا القتلى في سبيل الله[2]. ووصف، عليه الصلاة والسلام، الذين قُتِلوا في سبيل الله بأن أرواحهم في أجواف طيورٍ خُضْرٍ. فقد يكون باقي الشهداء السبعة أرواحُهم تُعلّق في شجر الجنة، ويكون الفرق بينهم وبين الذين قتِلوا في الجهاد الأكلَ والشربَ لا غير، والفرق بينهم وبين غيرهم من المؤمنين دوامُ المقام في الجنة، وغيرهم من المؤمنين يعرضون عليها غدوة وعشية، لأن هذه الأخبار كلها صحاح، والأخبار لا يدخلها نسخ.

واحتمل وجهاً آخر وهو: أن الأرواح هي التي تعلّق في شجر الجنة، وأن النفوس هي التي تُعرَض عليها مقعدها غدوة وعشية.

واحتمل أن تعلق الأرواح بشجر الجنة، وليس يكون لها تصرف في الجنة إلا غدوة وعشية، تنظر لمنازلها وتراها، فيزداد بذلك سرورها. والقدرة صالحة.

ويبقى البحث في المخلِّط المسكين، كيف حاله؟ فالله أعلم أنه قد يكون له نصيب من هذا ونصيب من هذا. وقد تقدم الكلام عليه في حديث عذاب القبر بما فيه كفاية، فأغنى عن إعادته.

وفيه دليل: على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من هذا الإخبار بهذا النبأ العظيم، وكيف هذا التصرف العجيب.

ويترتب عليه من الفقه الإيمان به، والتفكر فيما نحن إليه صائرون، والأهبة لذلك. ولذلك قال ﷺ (كفى بالموت واعظاً)[3] لأنه إذا فكر في الموت وفيما بعده من الأنباء وشبّهها حصل له فيه من الوعظ ما فيه كفاية لمن له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد.

= الله أرواحهم في جوف طير خُضر، تَرِد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: من يبلّغ إخواننا عنا أنّا أحياء في الجنة نُرزَق لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله: أنا أبلّغهم عنكم؛ فأنزل عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ . . . ﴾ إلى آخر الآيات في آل عمران ١٦٩ ـ ١٧١.

(١) رواه الإمامان مالك وأحمد والنسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمامان مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وصححه ابن حِبّان والحاكم عن جابر بن عتيك رضي الله عنه ومطلعه: الشهداء سبع سوى القتل في سبيل الله.

(٣) تقدم تخريجه في الحديث (١٤٥).

ومما يشبه ما نحن بسبيله أنه رغب بعض الإخوان من أخ له في الله مشتغل بعبادة مولاه أن يقوم له بمعيشته، فأنعم له في ذلك، فأتاه بقَدَح سويق، فلما أتاه غدوة ليأخذ القدح وجده كما كان، فخاف أنه اتهمه من طريق الكسب، فجعل يبيّن له وجوه كسبه. فقال له: والله يا أخي ما مرّ ذلك ببالي، ولكن كلما أخذتُ القدح لأن أشرب تذكرت قوله تعالى: ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[1] فلم أقدر أن أشربه حتى أصبحت على حالي. فانظر، رضي الله عنه ورضي عنا بهم، كيف حالهم وفكرتهم؟ هؤلاء الذين فهموا عن الله وعن رسوله ﷺ، وليس غيرهم ممّن ادعى الفهم فهم.

يا مَن مات. ليس كل من قاد الجياد يسوسها، ولا كل من أجرى يقال له: مُجْرٍ. كلا، بل هي دعاوى وحجج، عليه لا له. منّ الله علينا بما به منّ على أهل الخصوص والتوفيق بفضله آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٧.

ــ ١٦٧ ــ

حديث عقد الشيطان على رأس النائم

عَن أبي هُريرةَ، رضيَ الله عنهُ، أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ: يَعْقِدُ الشَّيطانُ على قافيةِ رَأسِ[1] أحَدِكُم إذا هُوَ نامَ ثَلاثَ عُقَدٍ يَضربُ على كُلِّ عُقدَةٍ مكانَها: عَليكَ لَيل طويل فارقُدْ. فإن استَيقَظَ فَذَكرَ الله انحلَّت عُقْدَةٌ، فإن توضأ انحلت عُقدة، فَإن صَلّى انحلَّت عُقَدُهُ كُلُّها، فأصبَحَ نَشيطاً طَيِّبَ النَّفسِ. وإلاَّ أصبَحَ خَبيثَ النَّفسِ كَسلانَ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بأن الشيطان يعقِد على قافية رأس النائم إذا نام ثلاث عُقَد، وأنها لا يحُلها إلا تلك الشعائر المذكورة في الحديث. والكلام عليه من وجوه:

(منها) هل ذلك العقد هو في القافية نفسها أو هو في شيء آخر يجعله الشيطان على القافية؟ وهل ذلك لكل نائم كان من أهل الخصوص أو من غيرهم؟ أو ذلك العقد يتجدد في كل يوم ينامه بالليل، وأنه إذا استيقظ وذكر وتوضأ وصلّى ثم نام عاد الشيطان فعقد ثانية أو ثالثة كلما عاد إلى النوم عاد هو إلى العقد، أو أنه إذا فعل تلك الطاعات ثم نام بعد لا يعود الشيطان إليه؟ وهل ذلك لكل مُصَلٍّ على أي حال كان، أو ذلك لمن قبلت صلاته، وكان من أهل التوفيق؟

فالجواب عن الأول وهو قولنا: هل العَقد في القافية نفسها، ومعنى القافية هنا هي آخر الرأس مما يلي الظهر، أو هو في شيء آخر؟ الظاهر أنه في شيء آخر، بدليل قوله (على) ولو كان فيها نفسها لقال (فيها) وزاد ذلك بياناً بقوله (يضرب مكان كل عقدة: عليك ليل طويل) لأن هذه الصفة صفة ما يفعله السحرة إذا سحروا شخصاً، إنما يفعلون ما يفعلونه من السحر في شيء بأيديهم

---

(١) قافية الرأس: مؤخر العنق، والقافية آخر كل شيء. وقافية الشعر: الحروف التي تبدأ بمتحرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت مثل كلمة (يُذمم) في قول زهير:

ومَنْ يَكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَلْ بِفَضلِهِ ... على قَومِهِ يُستَغنَ عنه ويُذْمَمِ

ويعقدون فيه العقد، ويسمون ما يشاؤون من أنواع سحرهم. ولا يحتمل أحد ذلك من المتعين من ليس له شَعر، ففيم يربطون، وهو الغالب من الناس؟

والجواب عن الثاني وهو: هل ذلك على عمومه في أهل الخصوص، وغيرهم؟ اللفظ يعطي العموم. لكن يخصصه الآي والحديث. أما الآي فمنها قوله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾(1) وأما الحديث فمثل قوله ﷺ (من قرأ عند النوم سورة من القرآن كانت له حرزاً من الشيطان حتى يصبح)(2)، و(من قرأ آية الكرسي عند مسائه كانت له حرزاً من الشيطان)(3) أو كما قال عليه الصلاة والسلام، و(من قال كلما أصبح وأمسى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد. وهو على كل شيء قدير؛ كانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، وليلته حتى يصبح)(4) أو كما قال ﷺ. والأحاديث في ذلك كثيرة. فهذا يخصص عموم اللفظ.

وجاء الحديث مخبراً بما يعمل من نسي التحرز من الشيطان أول ليله، ولم يكن من الخصوص الذين لم يُجعل للشيطان عليهم سلطان كما أخبر ﷺ أنه يأكل مع من لم يسمّ، وأن من سَمَّى لا يأكل معه، وكذلك الشرب، وكذلك الجماع، وكذلك دخول المنزل(5). فهو ﷺ قد نبَّه على مكايده كلها، وجميع وجوه تسليطه علينا، وبيّن المخرج منها، والتحرز منها أيضاً. فجزاه الله عنا خيراً.

---

(١) سورة الحجر، من الآية ٤٢.

(٢) روى أبو الشيخ عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال: من قرأ في ليلة الم تنزيل السجدة واقتربت الساعة وتبارك كنّ له حرزاً من الشيطان وشركه، ورفعه الله في الدرجات يوم القيامة. أما ما أورده المؤلف رحمه الله فلم نقف عليه.

(٣) روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: من قرأ حم المؤمن إلى قوله: إليه المصير وآية الكرسي حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح، ومن قرأهما حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي. وأما ما أورده المؤلف فلم نقف عليه باللفظ الذي جاء به.

(٤) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال: من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه.

(٥) حديث التسمية على الأكل وأن الشيطان يأكل مع من لم يسمّ. رواه أبو داود والنسائي وصححه الحاكم عن أمية ابن مخشي رضي الله عنه.

وأما حديث التسمية على الشراب ومن لم يسمّ يشرب الشيطان معه، فرواه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه.

وأما حديث الجماع، فرواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما حديث دخول المنزل، فرواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة عن جابر رضي الله عنه.

ومما يوضح ما قلناه أن بعض العُبّـاد جاء يدخل مسجداً في البرية، وكان ممن أُعطي شيئاً من المكاشفات، فرأى شيطانَين على باب المسجد وأحدهما يقول للآخر: ادخل أغْوِ ذلك المصلي. فقال له: لا أقدر. ذلك النائم يحرقني بِنَفَسِهِ. فتعجب العابد كيف يخاف الشيطان من النائم ولا يخاف من المصلي؟ فلما دخل أبصر النائم إبراهيم بن أدهم. فانظر هل يعقد الشيطان على قافية مثل ذلك السيد شيئاً وهو لا يقدر أن يقرب إليه؟ وكما قال سيّدنا رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه (ما سلكتَ فجّاً إلا سلك الشيطانُ فَجّاً غير فَجِّك)[1]. فإذا كان لا يقدر أن يخطر في طريقه فكيف يعقد على ناصيته؟ هذا محال.

والجواب عن الثالث وهو: هل تتعدد العقد كلما نام، وإن كان قد فعل ما ذكر، أم لا؟ ظاهر الحديث يقتضي أنه إذا فعل ذلك لا تعود العقد إليه. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (أصبح نشيطاً طيّب النفس).

والجواب عن الرابع وهو: هل ذلك لكل مصل كان حاله كيف كان؟ لفظ الحديث يعطي الاحتمال، لكن يخصصه قوله عليه الصلاة والسلام (من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)[2]. فمن هو بعيد من الله ـ أعاذنا الله من ذلك بجاه سيّدنا محمّد ﷺ ـ كيف لا يعقد الشيطان عليه، ويلعب به، كيف شاء؟ بل هو في ذاته شيطان، كما قال جلّ جلاله ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[3] كيف حال من بات آكل الحرام، ظالماً للناس، مدمناً للخمر؟ كيف لا يعقد الشيطان على هذا؟ ومتى تصبح نفس هذا طيبة؟ بل هذا خبيث النفس في كل حال. أعاذنا الله من ذلك بمنّه.

ولا يقع على مثل هذا (مصلّ) حقيقة لأنه في طبقة المبعدين الذين قال، عليه الصلاة والسلام، فيهم (من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً) ومن أجل الجهل بحقيقة هذه الأحاديث أخذها بعض الناس على ظاهرها، وعملوا عليها، وهم ضيعوا الأصول، وظنوا أنهم قد حصل لهم المقصود. وهيهات هيهات ما أكثر الجهل والعمى! ولذلك قال صاحب الأنوار[4] فيمن ارتكب هذا العمى وما شابهه: ردوا الأصول فروعاً والفروع أصولاً.

---

(١) رواه الشيخان من حديث سعد رضي الله عنه ومطلعه: إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قطّ سالكاً فجاً إلا سلك غيرَ فَجِّكَ.

(٢) رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١١٢ وتمامها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

(٤) لعله: محيي الدين بن عربي. وتسمية كتابه كاملاً: الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار. أو لعله=

وفقه هذا الحديث وأشباهه أن جميع الخيرات الواردة في الكتاب والسنة هي لأهل التوفيق. وذلك أن صحة البدن البشري هي الحِمية والدواء. وأجمع أطباؤه أن الحمية للبدن أنفع من الدواء، فكذلك الدين حِمية ودواء. فالحمية فيه أنفع من الدواء، ولاينتفع بالدواء إلا بالحمية أو بأكثرها. والحِمية في الدين هي الوقوف مع الأمر والنهي: افعل كذا، لا تفعل كذا، كما يقول طبيب الأبدان: أنْ كُلْ كذا، لا تأكلْ كذا. ودواء الدين مثل هذا الحديث وأشباهه من قوله ﷺ (من فعل كذا كان له كذا) من أنواع التعبدات والخيرات.

فإذا فعلها بعد الحمية ـ وهي اتباع الأمر واجتناب النهي ـ جاءه ما قيل له وزيادة. وإذا فعلها دون الحمية المذكورة طلب ذلك فلم يجده، فقال له لسان الحال ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] لأنه ترك الأصل وأخذ الفرع. وهذه طريقة غير ناجحة، لكن لا نقول لمن ضيّع الحمية: لا تأخذ الدواء. فلعل أخذ الدواء يجرّه إلى استعمال الحمية، فيحصل المقصود كالذي يكون مالُه غير طيّب نقول له: لا تتصدق فصدقتك غير مقبولة، لأن سيّدنا رسول الله ﷺ قد قال (لا يقبل الله صدقة من غُلول)[2] ولا نقول له: لا تتصدق. لعله يتدرج بالخير الذي هو الصدقة، وإن كانت غير مقبولة إلى التوبة والإقلاع.

وفيه دليل: على أنْ بصحة الدين يصحّ البدن وينشرح الصدر. يؤخذ ذلك من قوله، عليه الصلاة والسلام، في الذي يقوم ويذكر الله ويتوضأ ويصلي أنه يصبح نشيطاً طيّب النفس، ولا يكون نشيطاً طيب النفس إلا مع صحة البدن. وقد جاء ذلك نصاً منه ﷺ في قيام الليل، فإنه، عليه الصلاة والسلام قال فيه: (إنه ينقّي الذنوب ويُصِحّ البدن)[3].

وفيه دليل: على أن الذنوب تُمرِض البدن. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (وإلا أصبح خبيث النفس كسلان). والغالب من خباثة النفس لا تكون إلا مع تألم في البدن. ونجد ذلك مشاهداً في أهل البطالة والمعاصي أنهم يصبحون غير طيبين في أبدانهم حتى يطلع النهار، ويأخذون الأشربة والمعاجين ويعالجون ما بهم من الكسل في أبدانهم. هذا مشاهد منهم.

= أبو عبد الرحمن الصقلي وهو معاصر للشيخ عبد الله بن أبي جمرة وتلميذه ابن الحاج، وقد سمّى ابن الحاج كتاب الصقلي «الأنوار» أو لعله لرزين بن معاوية العبدري السرقسطي الأندلسي ـ وهو الأرجح ـ.

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٦٥.

(٢) قطعة من حديث أوله: لا يقبل الله صلاة بغير طهور. رواه مسلم وابن ماجه عن ابن عمر، وابن ماجه عن أنس وأبي بكرة، وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن والد أبي المليح.

(٣) قريب من هذا المعنى حديث سلمان الفارسي مرفوعاً: عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومَقْرَبَةٌ لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم. رواه الطبراني وحسّنه المنذري.

وفيه دليل : على عظيم تسليط الشيطان على بني آدم وما جعل الله ، عزّ وجلّ ، له على ذلك من القدرة . يؤخذ ذلك من كونه يعقد في شيء ، ويؤثر ذلك العقد في بني آدم .

وفيه دليل : على حرمة الطاعة ، وحرمة مَنْ أُهِّلَ للعمل بها ، كيف لا يضرهم شيء من إنس ولا من غيرهم؟ يؤخذ ذلك من حل العقد ووجود النشاط ، وفي اليوم بعده زيادة في الخير . فسبحان من جعل الخير في التوفيق ويَسَّرَه على أهله . جعلنا الله منهم بمنّه . آمين .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .



ـ ١٦٨ ـ

حديث ذكر اسم الله تعالى عند إرادة الجماع

عَنِ ابنِ عبّاسٍ، رَضي الله عَنهُما، عَنِ النبيِّ ﷺ أنه قال: أما إنّ أحدكُم إذا أتى أهلَهُ وَقالَ: بِسمِ الله، اللّهُمَّ جَنِّبنا الشّيطان، وَجَنِّبِ الشّيطان ما رزقتنا. فرُزِقا ولداً، لم يَضُرَّهُ الشّيطانُ[١].

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن من سمّى الله تعالى عند إتيان أهله، وذكر ذلك الدعاء المذكور فيه، فإنه لو قضي بينهما بمولود، لا يضرّه الشيطان. والكلام عليه من وجوه:

(منها) أن يقال: ما معنى لم يضرّه؟ هل ذلك مطلق طوال حياته، أو عند الولادة؟ لأن كل مولود يولد يَطعَن الشيطان في خاصِرته، فمن ذلك هو صراخ المولود عند وقوعه من بطن أمه، كما أخبر رسول الله ﷺ، إلا عيسى، عليه الصلاة والسلام، فإنه لم يَقرَبْهُ الشيطان[٢]. وأما سيّدنا محمّد ﷺ فعند ولادته وقع، عليه الصلاة والسلام، معتمداً على يديه، رافعاً طرفه إلى السماء[٣]، وتلقته الملائكة[٤]،

---

(١) راجع الحديث ١٧٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما من بني آدم من مولود إلا نخسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً حين يولد من نخسه إياها، إلا ابن مريم وأمه.

(٣) رواه ابن سعد وأبو نعيم بسند قوي عن حسان بن عطية. وزاد السهيلي في الروض (مقبوضة أصابع يده، مشيراً بالسّبابة كالمسبّح بها).

(٤) لم نقف على ما يشير إلى تلقي الملائكة.

وزجمت الشياطين بالشهب من السماء[1]، وأطفئت نار فارس، وارتج إيوان كسرى. فظهر له، عليه الصلاة والسلام، نور سدَّ الفضاء[2].

وظاهر الحديث يعطي العموم، وأنه لا يضرّه طوال حياته، ويكون معنى قوله (لم يضره الشيطان) لا يقدر عليه بإغواء، ويكون ممن قال الله عز وجلّ فيهم ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾[3]. فانظر إلى هذا الخير العظيم ما أعظمه! وذلك بقليل من الفعل، لكن مع ذلك ما أقلّ فاعله! فما ينفع البيان إذا وقع الحرمان.

وهنا بحث وهو: متى تكون التسمية؟ ذكر بعضهم أنها تكون عند الإيلاج. وقد جاء من طريق آخر أن يسمي خاصة، وأنه تكون الحماية للمولود، مثل ما ذكر في هذا الحديث.

وفيه دليل: على أن أنجح الأسباب في دفع المضار في الدارين ذكر اسم الله تعالى. أما في هذه الدار فما نحن بسبيله وما أشبه ذلك من الآي والأحاديث، مثل قوله ﷺ (ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله)[4]. والآي والآثار في ذلك كبيرة.

ومما يناسب هذا ما ذكر عن بعض المباركين، وكان شيخاً ضعيفاً، فبينما هو يوماً في بعض أسفاره إذ خرج عليه لص فيه شجاعة، وكان معروفاً بذلك، ويلقى الجموع وحده، وينال منهم، ولم يقدر أحد أن ينال منه. فلما قرب من الشيخ صرعه الشيخ، وأراد أن يُجهِز عليه، فناشده الله تعالى ورغَّبه في الإقالة[5] فأقاله. فلما تباعد منه عظم الأمر عليه لكونه شيخاً ضعيفاً وغلبه ولم يغلبه

---

(١) اختلف العلماء في زمن ازدياد رجم الشياطين بالشهب من السماء. فمنهم من يقول: كان ذلك قبل المولد النبوي، ولما ولد النبيّ ﷺ قوي الرجم، ويستدلون بحديث ابن عباس الذي رواه الإمام أحمد والبيهقي من طريق سعيد بن جبير رضي الله عنه.
ومنهم من يقول: إن الرجم بالشهب كان قبل المبعث وفي قديم الزمان، ولكنه لم يكن رجوماً للشياطين وإنما كان انقضاضاً، ثم صار رجوماً حين مولده ﷺ. وفي هذا القول نظر.
ومنهم من يقول: إن الرجم حدث بعد البعثة النبوية.
والجمع بين هذه الأقوال يكون في أن الرجم كان قبل مولده ﷺ فلما ولد ﷺ قوي هذا المنع حتى شمل كل سماء، وبقي من يسترق السمع. ولما بعث ﷺ ملئت السَّماوات بالحرس والشهب واشتد الرجم. رواه ابن جرير في التاريخ والبيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة والخرائطي في الهواتف وابن عساكر في التاريخ عن هانىء المخزومي مرسلاً.

(٢) رواه الإمام أحمد والبزار والطبراني والحاكم وصحّحه والبيهقي وابن حبان عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) سورة الحجر، من الآية ٤٢.

(٤) قطعة من حديث رواه ابن أبي شيبة والإمام أحمد والطبراني عن معاذ رضي الله عنه.

(٥) الإقالة: الصفح والتجاوز.

أحد قبله، فتعرض له ثانية ففعل به كما تقدّم، ثم ثالثة كذلك. فسأله: بم لك هذه القدرة وأنا فلان كما تعلم شهرتي، وأنت على ما أنت عليه من الكبر والضعف؟ فقال له: ما قابلت أحداً قط إلا ببسم الله الرحمن الرحيم، وكل من عارضني فعلت به مثلما فعلت فيك. فحينئذ تركه ولم يطمع فيه، وعلم أن هذا ليس من قوة البشر.

(نكتة صوفية) وهي لما كان الجماع أكبر شهوات النفس، وأثر هذا الممتثل ذكر اسم الله تعالى على حظ نفسه، أثّرت له هذه الفائدة العظمى هذا في لحظة من الزمان. فكيف من أثر ذكره دائماً؟ كيف حاله؟ ولذلك جاء في التوراة (قل لأهل محبتي يكثرون من ذكري فإنه لهم في الدنيا أنس وفي الآخرة جزاء) أو كما قال، عزّ وجلّ، في كتابه العزيز ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1] فلا تحصل الطمأنينة والخير إلا بذكره، جلّ جلاله.

وقد جاء في بعض الآثار لو أن رجلين على طريق، أحدهما ينفق المال، والآخر يديم الذكر، لكان الذي يديم الذكر أرفع وأكثر أجراً.

وفيه أن من أدب الشريعة حسن الكناية، كما تقدم في الحديث قبل. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (أتى أهله)، فكنى، عليه الصلاة والسلام، بالإتيان عن الجماع.

وفيه دليل على حسن بلاغته ﷺ. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (فرزقا ولداً لم يضرّه الشيطان) وسكت عن حالهما، كيف يكون، لأنه إذا كان من أجل فعل الأب ذلك الخير وصلت العناية إلى المولود فمن باب أحرى القائلُ وصاحبه، كما قال: عليه الصلاة والسلام: في قارىء القرآن (إن أبويه يُتَوَّجان يوم القيامة بتاجين من ذهب يضيئان لأهل عالم تلك الدار كما تضيء الشمس في بيوت أهل الدنيا)[2] أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فإذا كان يفعل بوالديه من أجل ذلك الخير، فكيف يكون حاله هو؟ فسكت، عليه الصلاة والسلام، في الموضعين عن حال الفاعلين لدلالة الكلام على حسن حالهما.

وفيه دليل على أن الولد يلحق في الدنيا بأبيه. يؤخذ من قوله ﷺ (أمَا إن أحدكم إذا أتى أهله)، ولم يفرق بين الأهل أن تكون مسلمة أو يهودية أو نصرانية، لأن هؤلاء مما أبيح لنا نكاحهن. فلما أن كان الولد ملحوقاً بالأب في دينه كان عمله يؤثر فيه.

---

(١) سورة الرعد، من الآية ٢٨.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن زنجويه وأبوداود ومحمد بن نصر وابن حبان عن معاذ بن أنيس أن رسول الله ﷺ قال: من قرأ القران وعمل بما فيه أُلبِس والداه تاجاً يوم القيامة، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟.

وفيه دليل على أن اسم الولد ينطلق لغة على الذكر والأنثى. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: (فرزقا ولداً).

وفيه دليل على أن إضافة الولد إلى الوالدين بالفضل لا بالاستحقاق. يؤخذ ذلك من قوله، عليه الصلاة والسلام (فرُزقا) ولم يقل (كسبا)، كما قال عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟ إلى قوله ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[(١)]؟

فانظر إلى هذه القدرة العظيمة والفضل العميم كيف أباح، عزّ وجلّ، لنا التمتع بشهوة الجماع وتفضل علينا بالولد ثم أضافه إلينا، وأثابنا على ذلك، وجعل لنا فيه المنفعة في الدارين، ثم بيّن لنا ان الذي أضاف إلينا من التسبب في الولد، وأثابنا عليه، أنه في الحقيقة ليس من كسبنا، وأنه منحة ومنّة منه، عزّ وجلّ، لنا لنقدّر قدر النعمة ونتلقاها بالشكر، فتكثر الفائدة، ونحذر من الطرف الآخر، وهو أن نميل إليهم، فتكون النعمة تشغل عن المنعم؟ قال عزّ وجلّ في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(٢)] فمن فهم المقصود اشتغل بالمنعم عن النعم، فحصل له رضى المنعم وكثرة النعم، كما قال جلّ جلاله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[(٣)] لكن وجود الغفلة أوجب حب النعم، والشغل عن المنعم (حبّ الشيء يعمي ويُصِمّ)[(٤)].

وفيه دليل على أنه إذا صلح الأصل صلح الفرع. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (أما إن أحدكم إذا أتى أهله قال بسم الله). فإنه لمّا كان بمقتضى الحكمة، على ما أخبر به الصادق ﷺ في غير هذا الحديث، أن العظم والعصب الذي هو أصل هذه الجثة هو من ماء الرجل، وأن اللحم والشعر من ماء المرأة، فلما صلح حال الرجل الذي من مائه يكون أصل هذه البنية لم يلتفت إلى حال المرأة لأنها في حكم التبع.

وفيه دليل لمقتضى اللغة، وهو أنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب في الخطاب وفي الإخبار

---

(١) سورة الواقعة، الآيات ٥٨ ـ ٦٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية ٩.

(٣) سورة سبأ، من الآية ١٣.

(٤) حديث شريف رواه الإمام أحمد وأبو داود والبخاري في تاريخه والسيوطي في الجامع الصغير عن أبي الدرداء بلفظ (حبّك الشيء). وانظر فصل المقال ص٣٢٠ والمستقصى ٢/ ٥٦ ومجمع الأمثال ١/ ١٩٦ وجمهرة الأمثال ١/ ٣٥٦ والحيوان ٤/ ٣١٦.

المذكَّرُ، وإن قَلّ. يؤخذ ذلك من أنه لما كان الولد من ماء الرجل والمرأة غلّب، عليه الصلاة والسلام، التذكير على التأنيث، وأعطى الحكم للرجل. فإنه إذا فعل ما أمر به من التسمية حسن حاله وحال الولد، ولم يكن للمرأة فيه ذكر.

وفيه دليل على أنه إذا صلح الراعي صلحت الرعية. يؤخذ ذلك من أن الرجل هو الراعي على أهله وولده، كما تقدم في الأحاديث قبل. فلما صلح حاله بامتثال ما أمر به من التسمية صلح حال المرأة والولد بعد.

ومن هنا فاق أهل التوفيق غيرهم، لأنهم نظروا إلى الأصول فأصلحوها، فصلحت لهم الفروع والأصول، والأصل عندهم هو حقيقة الإيمان والمعرفة بالمعبود على ما هو عليه من الجلال والكمال. فمن تحقق بهذين الأمرين حتى رجعا له حالاً أتاه التوفيق فيما سوى ذلك بغير اختياره.

ولذلك لما تحقق الإمام عليّ، رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين، كان من دعائه (اللهم إنك أنت كما أحب، فاجعلني كما تحب). فانظر إلى هذا الكلام العجيب من هذا الحبيب، لأن العبد إنما يحب أن يكون مولاه غنياً كريماً رحيماً قوياً محسناً عفوّاً غفوراً. ومولانا، جلّ جلاله، جمع هذه الأوصاف وزيادة من أوصاف الكمال ما لا يحصى، فهو كما نحب، وهو القادر. والعبد الضعيف العاجز يرغب منه أن يجعله كما يحب. مَنَّ الله علينا بذلك بفضله. آمين. والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



ــ ١٦٩ ــ

حديث النهي عن الصلاة حين طلوع الشمس وغروبها

عَن ابنِ عُمَر، رضيَ الله عَنهُما، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: **إذا طَلَعَ حاجِبُ الشَّمسِ فَدعُوا الصَّلاةَ حَتَّى تَبرُزَ. وَإذا غابَ حاجِبُ الشَّمسِ فَدَعُوا الصَّلاةَ حَتَّى تَغيبَ. ولا تَحيَّنُوا بِصلاتِكُم طُلوعَ الشَّمس ولاَ غُروبَها. فَإنَّها تَطلُعُ بَينَ قَرني شَيطانٍ، أو الشَّيطان. لاَ أدري أيَّ ذلكَ قالَ هِشام**[1].

* * *

ظاهر الحديث يدل على النهي عن الصلاة عند ظهور حاجب الشمس حتى تبرز، وعند غروب حاجبها أيضاً حتى تغيب. والكلام عليه من وجوه:

(منهما) هل هذا النهي على عمومه في المكتوبة وغيرها، أو في النافلة لا غير، أو هذا في النافلة مطلقاً ما كان منها مأموراً به، أو مرغباً فيه، أو ما كان منها تنفلاً دون أمرٍ به، أو ترغيب فيه؟ مثال المأمور به تحية المسجد وما أشبهها، والمرغب فيه مثل سجود التلاوة وما أشبه ذلك. وهل إذا[2] بدت كلها تجوز الصلاة أو حتى ترتفع؟

فالجواب عن الأول وهو قولنا: هل ذلك في المكتوبة أو غيرها؟

أما المكتوبة فلا يخلو أن يكون نسيها أو نام عنها، أو غير ذلك. فإن كان تركها عن نوم أو

---

(١) هشام: المقصود به هشام بن عروة. وهو أحد رواة هذا الحديث، فقد جاء في البخاري وفتح الباري: حدثنا محمد أخبرنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إذا طلع حاجب الشمس إلخ..

وهشام هذا: ابن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو المنذر، تابعي، من أئمة الحديث. من علماء المدينة المنورة، ولد وعاش فيها وزار الكوفة فسمع منه أهلها، ودخل بغداد وافداً على المنصور العباسي فكان من خاصته، وتوفي بها سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م. له نحو ٤٠٠ حديث.

(٢) كذا بإدخال «هل» على «إذا».

نسيان فليصلّها متى ما ذكر في الوقت المنهي عنه وغيره، لقوله ﷺ (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها فذلك وقتها)[1].

وأما إن كان تأخيرها لعذر شرعي مثل الحائض تطهر، والغلام يحتلم، فذلك وقت أدائها في حقهما، ومن أشبههما من أهل الأعذار الشرعية. وإن كان تأخيرها لذلك الوقت مع الذكر والقدرة فقد اختلف العلماء فيه. فمنهم من قال: إنه مؤدٍّ، واقتدى في ذلك بقوله ﷺ (من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر)[2].

وأما إن كانت الصبح فقد خرج الوقت وهو آثم بلا خلاف. ومنهم من قال: إنه في صلاة العصر مؤدٍّ آثم لقوله ﷺ (يجلس أحدهم حتى إذا اصفرت الشمس وكانت بين قرني الشيطان، أو على قرن الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً. فتلك صلاة المنافقين، فتلك صلاة المنافقين، فتلك صلاة المنافقين)[3]. وهو مشهور مذهب مالك.

وأما ابتداء نافلة من غير أن يعارض هذا الحديث أمر كما تقدم أو ندب فلا خلاف أعرف.

وأما ما كان يعارضه من ندب أو ترغيب كما ذكرنا فاختلف العلماء في ذلك على قولين: فمنهم من أجاز ـ وهو مذهب الشافعي، رحمه الله، ومن تبعه ـ ومنهم من منع ـ وهو مذهب مالك، رحمه الله، ومن تبعه ـ إلا أن في مذهب مالك، رحمه الله، في الصلاة على الجنازة قولين من أجل الخلاف: هل هي على الوجوب أم لا؟ وكذلك في سجود التلاوة في مذهب مالك قولان أيضاً.

وأما الجواب على جوازها وإذا بدا القرص كله فالظاهر من الحديث الجواز. وقد جاء في سنن أبي داود (حتى ترتفع قدر الرمح). وقد جاء في أثر آخر (حتى ترتفع قدر عصاتين)[4]. وعلى ارتفاعها قدر الرمح هو العمل عند الفقهاء، لأن هذا الحديث جاء مجملاً ولا نص بتحديد الوقت، فيكون الذي جاء فيه نص بتحديد الوقت مبيناً لهذا على عادة أهل الحديث في ذلك.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي وضعّفه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها. وفي رواية أخرى لابن أبي شيبة والإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي والدارمي وابن خزيمة عن أنس رضي الله عنه بلفظ: من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها.

(٢) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد والبيهقي وابن حبان عن أبي هريرة ومسلم عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين.

(٣) رواه الستة إلا البخاري عن أنس رضي الله عنه ومطلعه: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس إلخ.

(٤) رواه أبو داود في الصلاة رقم (١٢٧٧) باب من رخص فيهما إذا كانت الشمس مرتفعة، والنسائي ١/ ٢٧٩ في المواقيت باب النهي عن الصلاة بعد العصر. وتأنيث العصا بـ«التاء» لحن. وفي نسخة باريس «عصاءين». فليحرر.

وقوله عليه الصلاة والسلام (ولا تَحيَّنوا بصلاتكم) معناه تَتحرّوا بها وتقصدوا طلوع الشمس أو غروبها.

وقوله عليه الصلاة والسلام (فإنها تطلع بين قرني شيطان أو الشيطان) الشك هنا من الراوي. وفيه دليل على فضلهم وتحريهم في النقل، كما تقدم في غير ما موضع.

وهنا بحث في قوله عليه الصلاة والسلام (بين قرني الشيطان) هل هذا على ظاهره، أو على معنى آخر؟ وإن كان على ظاهره فكيف تكون الكيفية و الشمس إنما هي في السماء الرابعة، والشياطين ممنوعون من سماء الدنيا، فكيف بالرابعة؟

فالجواب، والله أعلم: إن قلنا: إنه على ظاهره، فقد جاءت صورة الكيفية في ذلك، وهو أنه ينتصب لها عند طلوعها، وكذلك عند الغروب. وكل شيء ينتصب للشمس في ذلك الوقت يمتد ظله على الأرض، ثم يغوي الكفار الذين يعبدون الشمس فيسجدون لها، فيكونون قد سجدوا لظل قرنه، وهو يَقنَع من بني آدم بما أمكنه من أي وجه قَدَر، ويغوي المؤمنين المصلين حتى يتحروا بصلاتهم ذلك الوقت، فيحصل له في عبادتهم مشاركة ما. وقد قالت عائشة، رضي الله عنها، في قول مولانا جلّ جلاله ﴿أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1]: (والله ما تركوها، وإنما أخّروها عن وقتها).

وتشبه مكيدته هنا كما فعل بحوّاء حين حملت، فخوّفها مما في بطنها، ثم قال لها: سَمِّيه عبد الحارث لأن اسمه الحارث، ورجّاها بكل خير إذا سمته بذلك، كما نص الله، عزّ وجلّ، على ذلك في كتابه حيث قال ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

واحتمل أن يكون على معنى ثان، وهو أنه لما كان هذا الوقت مما يُعبد فيه الشيطان، وقد نهينا أن نتشبه بأهل الكتاب الذين هم أقرب إلى الحق، فكيف بغيرهم الذين هم الكفار؟ واحتمل الوجهين معاً.

وفيه دليل على تحقيق الإخلاص في العبادة. يؤخذ ذلك في النهي عن هذه الأوقات من هذه الشُّبَـهِ الخَفِية التي لا نعلمها. فكيف بغير ذلك؟

---

(١) سورة مريم، من الآية ٥٩.

(٢) سورة الأعراف، من الآيتين ١٨٩ و١٩٠. والتفسير الذي ذكره مردود، لأنّ المراد هنا بعض الناس الذين يشغلون بأولادهم عن طاعة ربهم. (انظر التفاسير).

وفيه دليل على كثرة ما خص الله تعالى به هذه الأمة من الخير بهذا النبيّ الكريم ﷺ الذي نبّهنا على جميع مكايد عدونا بمثل هذا الحديث والأحاديث التي تقدمت والتي بعد، حتى لم يبق له مكيدة إلاّ نبّهَنا عليها، وبيّن لنا المخرج منها والتحرّز منها عليه أفضل الصلاة والتسليم. وفيه وفيما تقدم من الأحاديث دليل على كثرة اشتغال هذا العدو بنا وأنه لا يغفُل.

ويترتب على ذلك من الفقه التيقظ لذلك والاشتغال بقهره وزجره، والأخذ فيما يغيظه من الأقوال والأفعال ويقطع ظهره. أعاننا الله على ذلك بمنه.

وفيه دليل على عظيم لطف الله تعالى بهذه الأمة الذي جعل لها المخرج من ذلك كله بأيسر الأمور وأقربها، وهو ذكره عزّ وجلّ والتعلق به. يُؤخذ ذلك من قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] ففي نفس الاستعاذة به، عزّ وجلّ، ذهبت حِيَل العدو كلها.

يا لها من نعمة! لكن قلّ فاعلها، لأن صاحب الجهل محروم، لأنه يتبع عدوّه دون حجة ولا برهان، ثم يوبّخه يوم القيامة بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾[2] فمن الحمق مصاحبة العدو ومعاداة الحبيب. جعلنا الله ممّن عادى عدوه، وصحب حبيبه بمنه.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.



---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم، من الآية ٢٢.

— ١٧٠ —

حديث الأمر بالاستعاذة بالله تعالى من الشيطان عند وسوسته

عَن أبي هُريرةَ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: يَأتي الشَّيطانُ أحَدَكُم فَيقولُ: مَن خَلَقَ كَذا؟ مَن خَلق كَذا؟ حَتَّى يَقولَ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإذا بَلغهُ، فَلْيَسْتَعِذ بالله. وَلْيَنْتَهِ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار باستدراج الشيطان بكلامه بالحق أولاً، لكي يصل به إلى إلقاء الباطل ليقع بالإصغاء إليه الخلل في الإيمان، وهو أكبر مقصوده. والكلام عليه من وجوه:

منها ما ذكرنا في الحديث قبل من كثرة حيله علينا واشتغاله بنا.

ومنها أيضاً كثرة نصيحة سيّدنا محمّد ﷺ إلينا، وتنبيهه، عليه الصلاة والسلام، على عداوته ومكايده.

ومنها تعليمه ﷺ للناس: كيف المخرج منها؟

ومنها عظيم لطف الله تعالى بنا الذي جعل لنا المخرج من هذا الأمر العظيم بأيسر شيء، وهي الاستعاذة به، عزّ وجلّ. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (فليستعذ بالله).

وفيه دليل على أن مولانا جلّ جلاله منزّه عن أن يكون من شيء. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام حتى يقول (من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله) أي أن هذا محال، فليستعذ بالله. وقد تقدم الكلام على هذا في أول الكتاب من طريق العقل والنقل بما فيه كفاية، فأغنى عن ذكره هنا.

وفيه دليل على أن الخَطْرة من الشر لا يؤاخذ بها. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (فإذا بلغه فليستعذ بالله) أي إذا استعذتم بالله فلا تؤاخذون بتلك الخطرة ولا تضركم، ولذلك قالت الصحابة، رضوان الله عليهم: إنا نجد في نفوسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. فقال عليه الصلاة

والسلام (أوجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان)[1] أي في تعاظم الأمر ودفعه، لا في نفس وجوده، وهو مما يشبه هذا المعنى الذي نحن بسبيله.

وفيه دليل على أن إغواء العدو لا يكون إلا مع الغفلة. يؤخذ ذلك من قوله، عليه الصلاة والسلام (فلينته)، لأنه لو كان منتهياً لما أصغى إلى قول عدوه حتى استدرجه إلى محض الباطل، ولذلك يذكر عن عيسى، عليه الصلاة والسلام (أنه لقيه الشيطان. فقال له: قل لا إلّه إلا الله. فقال له عيسى، عليه الصلاة والسلام: كلمة حق ولا أقولها عن أمرك). هكذا يكون التحرّز من العدو، لأنه إذا ثبتت العداوة فلا يطمع منه في خير أصلاً، وإن كان ظاهر ما يقوله خيراً، فإنه في الضمن شرّ. وكذلك ينبغي أن يتحرّز من أتباعه فإنهم منه ومثله.

وفيه دليل على أن الإيمان الكامل لا يكون إلا مع الانتهاء عن المنهيات. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (وَلْينته). فلو كان كامل الإيمان كان منتهياً. وقد نص ﷺ على هذا حيث قال (المؤمن كَيّسٌ، حَذِر، فَطِن)[2].

وفيه دليل على أن اليقظة علامة الخير، وأنه لا يكون إلا فيمن أراد الله تعالى به الخير. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (فَلْيستعذ بالله وَلْيَنتَهِ). وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[3] فجعل عزّ وجلّ ذلك من صفة المتقين. والمتقون هم أهل الخير والسعادة في الدارَين. وقد قيل: غَفَلْتُ، ومن غفلتي أُتيتُ. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان رقم ١٣٢ باب بيان الوسوسة في الإيمان.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب رقم ١٢٨ عن أنس رضي الله عنه بإسناد ضعيف جداً.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

— ١٧١ —

حديث بشارته ﷺ للفقراء بأنهم أكثر أهل الجنة

عَن عِمرانَ بن حُصينٍ[١]، رضي الله عَنهُ، عَن النبيّ ﷺ قالَ: اطّلَعتُ في الجنّةِ، فَرأيتُ أكثرَ أهلِها الفُقراءَ. واطّلَعتُ في النّارِ، فَرأيتُ أكثرَ أهلِها النِّساءَ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بأن أكثر أهل الجنة الفقراء، وأن أكثر أهل النار النساء. والكلام عليه من وجوه:

منها: الكلام على هؤلاء الفقراء، وهل هم كل من هو عديم لا مال له؟ أو هو بشرط زائد على ذلك؟

ومنها: الكلام في النساء أيضاً، هل ذلك لعلة تُعقَل؟ أو أيّ نساء كنّ؟

ومنها: هل رؤيته، عليه الصلاة والسلام، الدارَينِ حقيقة، أو هو من قَبِيل التمثيل؟

فأما الجواب عن الفقراء: هل ذلك محمول على كل من كان عديماً من المال؟ فليس الحديث على عمومه، بدليل ما جاء عنه، عليه الصلاة والسلام، في حق وصف الفقراء الذين لهم المزيد على الأغنياء، في قوله، عليه الصلاة والسلام (إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام من أعوام الدنيا)[٢]، فقام إليه فقير فقال: يا رسول الله، أنا منهم. قال له: (ألك ثَوْبان، إذا غسلتَ الواحد لبستَ الآخر؟ قال: نعم. قال: لستَ منهم). فقام ثان فقال: يا رسول الله، أنا منهم، وليس كمن تقدم، أي ليس له إلا ثوب واحد. فقال له: (ألك غَداء وعَشاء؟ قال:

---

(١) عمران بن حُصَين الخزاعي، من علماء الصحابة، أسلم عام خيبر سنة سبع للهجرة، وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. بعثه عمر رضي الله عنه يفقه أهل البصرة وتولى قضاءها، وكان الحسن البصري يحلف بالله ما قدمها خير من عمران بن حصين، وهو الراوي لحديث وصف المتوكلين الذين لا يَرْقُونَ ولا يَسْتَرْقُون ولا يَتَطَيَّرون، وكان يسمع تسليم الملائكة عليه حتى اكتوى بالنار فلم يسمعهم عاماً، ثم أكرمه الله بردّ ذلك. له في كتب الحديث ١٣٠ حديثاً. توفي سنة ٥٢هـ/ ٦٧٢م (شذرات الذهب ١/ ٥٨).

(٢) رواه الترمذي في الزهد رقم (٢٣٥٤) باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم.

نعم. قال: لستَ منهم). فقام ثالث، فقال: أنا منهم، وليس كمن تقدم. قال: (ألك بيت تأوي إليه؟ قال: نعم. قال: لستَ منهم). فقام رابع فقال: أنا منهم، وليس كمن تقدم. فقال: (أتصبح وتمسي وأنت راضٍ عن الله؟ قال: نعم. قال: أنت منهم). أو كما قال، عليه الصلاة والسلام. وقد قال ﷺ (ليس الغنى بكثرة العَرَض وإنما الغِنَى غِنَى النَّفس)[١].

وكذلك يلزم في الفقير من طريق النظر إذا كان الفقير لا يقوم بما فرض عليه، فكيف يدخل الجنة، وقد قال ﷺ (أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت منه نظر في سائر عمله، وإن لم تقبل منه ألقي في النار)[٢] أو كما قال عليه الصلاة والسلام؟ فإذا كانوا فقراء تاركين للصلاة، فكيف يدخلون الجنة حتى يكونوا من أكثر أهلها؟ فدل بهذه الأحاديث أن الحديث ليس على عمومه في جميع الفقراء، وإنما يكون معناه: أن المؤمنين الذين يأتون بما أمروا به، أكثرهم فقراء.

وكذلك جاء أن أول أتباع الرسل، عليهم الصلاة والسلام، هم الفقراء، لأن الأغنياء يمنعهم من الإجابة كثرة حطام الدنيا والاشتغال بها، وإن دخلوا في الإسلام فقلّما يخلّصون أنفسهم من كثرة ما يترتب عليهم من الحقوق، إلا من أيّده الله تعالى منهم بمعونته. والفقراء أقل مؤونة، وأرق أفئدة، فيحق أن يكونوا أكثر أهل الجنة.

وقد روي عن الحسن البصري أنه وقعت نار في البصرة، فأخذ مصحفاً له وخرج، وقال لهم: يا أهل البصرة فاز المخِفّون، ما لي في بلدكم غيرُ هذا -يعني مصحفه - يشير لهم إلى هذا المعنى، لأنه بقلة دنياه نجا من نار البصرة بنفسه، وبكل ما معه، فكذلك في الدار الآخرة.

وأنتم يا أصحاب الأثقال والحطام، كما وَحَلْتُم هنا بأنفسكم ولا تقدرون على التخلص من نار البصرة، فكيف بكم في الدار الآخرة؟ وقد قالت عائشة رضي الله عنها لعبد الرحمن بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنك تدخل الجنة حَبْواً)[٣]. وكان عبد الرحمن، رضي الله عنه، حيث

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: (عن كثرة العرض) وليس (بكثرة العرض).

(٢) رواه الترمذي والنسائي والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلحَ وأنجحَ، وإن فسدت خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل به ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك.

(٣) حَبواً: زحفاً، من حبا الطفل إذا زحف على بطنه معتمداً على يديه ورجليه. أما الحديث المروي (إنك تدخل الجنة حَبْواً) فقد ردده الكثير من الشيوخ واستشهدوا به، وتكلم الكثير من الحفاظ عنه. وخلاصة ما قيل فيه ما جاء في كشف الأستار للبزار ٣/٢٠٩ أنه لا يصح في دخوله حبواً حديث، ولا يثبت في هذا شيء، وقد شهد عبد الرحمن بن عوف بدراً، وشهد له ﷺ بالجنة، وهو أحد العشرة المبشرين. وقال الإمام أحمد إنه كذب، وأمر أن يضرب عليه. ويبدو أن ابنه عبدالله سها عن الضرب عليه. ونص الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: =

كان من الفضل، إلا أنه كان أغنى أهل عصره، فكثرة المال توجب كثرة الحساب، وكثرة الحساب تبطىء بصاحبه عن الجنة، وإن كان يتخلص. فلما سمع ذلك منها ـ وكان قد أتته ثمانون بعيراً من الشام بالمتاع، وهي والغلمان الذين كانوا أتوا بها، وما كان عليها الكل له ـ فقال، رضي الله عنه: (هي في سبيل الله بكل ما عليها، والذين أتوا بها، لَعلّي أن أدخلها مشياً).

وفيه دليل على أن أكثر الصالحين من الفقراء. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام أكثر أهلها الفقراء.

وفيه دليل على أن الغالب على الأغنياء عدم التوفيق. يؤخذ ذلك من كونهم قليلين في الجنة.

وفيه دليل: للزاهدين الذين رفضوا الدنيا لكون حرامها عذاباً، وحلالها حساباً، فلا راحة فيها لصاحبها. يؤخذ ذلك من أن أكثر أهل الجنة الفقراء.

وأما الجواب عن النساء، وكونهم[1] أكثر أهل النار، فقد بيّن ﷺ علة ذلك في غير هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام (يَكْفُرْنَ العَشِير، ويَكْفُرنَ الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلَّه، ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط)[2].

وفيه دليل على أن الأعمال سبب لدخول الجنة أو النار، لأنه ﷺ قد علّل كثرة دخول الجنة بالفقر، والنار بكُفْر العشير، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾[3] و ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾[4] والآي والأحاديث في ذلك كثيرة. وفيه بالضمن التحريض على حسن العمل والنهي عن سيئه.

وأما قولنا: هل رآهما حسّاً أو تمثيلاً؟ احتمل الوجهين معاً. والقدرة صالحة لهما.

وفيه دليل لأهل السنة الذين يقولون: بأن الجنة والنار مخلوقتان حساً، موجودتان. يؤخذ ذلك من جعله ﷺ لكل واحدة منهما أهلاً من بني آدم، وبنو آدم محسوسون ولا يستقرون إلا في محسوس أيضاً.

= بينما عائشة في بيتها سمعت صوتاً في المدينة فقالت: ما هذا؟ فقالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شيء. قال: وكانت سبعمائة بعير، فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً، فبلغ ذلك عبد الرحمن، فقال: إن استطعت لأدخلنّها قائماً. فجعلها في سبيل الله بأقتابها وأحمالها.

(١) كذا بضمير جماعة الذكور.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب كفران العشير، عن أبي سعيد رضي الله عنه ومطلعه: أُرِيتُ النارَ فإذا أكثَرُ أهلِها النساءُ يَكْفُرْنَ. قيل: أيكفُرْنَ بالله قال: يكفُرْنَ العشير إلخ.

(٣) سورة البقرة، من الآية ١٣٤.

(٤) سورة الحاقة، من الآية ٢٤.

وفيه دليل على أن الخير والصلاح في الرجال أكثر من النساء. يؤخذ ذلك من أن أكثر أهل النار النساء.

وهذا الحديث منه ﷺ تَسْلِيَةٌ للفقراء حتى يطيب لهم حالهم، فإنه إذا كانت تلك الدار المباركة هم أكثر أهلها ارتاحت نفوسهم لذلك، فما أرفقه، عليه الصلاة والسلام، بأمته وأكثر إيناسه لهم. فجزاه الله عنا خير جزاء بمنّه. والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

ـ ١٧٢ ـ

حديث أول زمرة تدخل الجنة

عَن أبي هُريرَةَ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: أَوَّلُ زُمرةٍ تَلِجُ الجنَّةَ صُورَتُهم على صُورةِ القمرِ لَيلَةَ البَدرِ، لا يَبصُقونَ فيها، ولاَ يَتَمَخَّطونَ، ولا يَتَغوَّطونَ، آنيَتُهُم فيها الذَّهَب والفِضَّةُ، وَمجامِرهُم الألُوَّةُ، ورَشحُهُم المِسكُ. ولِكلِّ واحِدٍ منهُم زَوجتانِ، يُرى مُخُّ سوقِهما مِن وَراء اللحم مِنَ الحُسنِ، لا اختِلافَ بَينَهُم ولا تَباغُضَ. قُلوبُهُم قَلب واحد، يُسبِّحونَ الله بُكرةً وعَشِيًّا.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بحسن أول زمرة يدخلون الجنة، وما لهم من النظافة وحسن أزواجهم. والزمرة: الجماعة. والكلام عليه من وجوه:

منها: لِم شبَّه، عليه الصلاة والسلام، صورهم بصورة القمر ليلة البدر؟ وذلك لأنه أجمل شيء في هذه الدار، ولو كان شيء في هذه الدار أتم جمالاً منه لشبّههم به.

وفيه بحث وهو: لم قال، عليه الصلاة والسلام (صورتهم) ولم يقل (وجوههم)؟

والجواب: أنه، عليه الصلاة والسلام، ما أراد من تمثيل صورتهم بصورة البدر أنهم مثله ليس إلا، وإنما القمر هو نور، وليلة البدر يكمل نوره، فيكون معنى التشبيه أنهم نورانيون في أتمّ ما يكون من النور، بدليل قوله ﷺ (لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوؤه ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم)[١]، وقال عليه الصلاة والسلام (لو أن امرأة من نساء أهل الجنة طلعت على الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها، ولملأت ما بينهما ريحاً، وَلَنصِيفُها ـ يعني خمارها ـ خير من الدنيا وما فيها)[٢].

---

(١) رواه أحمد بن منيع في مسنده عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده رضي الله عنهم، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢١ إلى ابن مردويه.

(٢) رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه ومطلعه: لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها إلخ..

فإذا كان سواره يطمس ضوء الشمس فكيف يكون وجهه مثل البدر؟ هذا مستحيل. فبان ما أشرنا إليه أنه، عليه الصلاة والسلام، ما أراد إلاّ تمامَ نورهم بحسب نور تلك الدار، فكذلك شبّه، عليه الصلاة والسلام، بالصورة ولم يذكر الوجه ولا شيئاً من الحواس، كما مثل مولانا جلّ جلاله فرشهم فقال ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾[1] والذي هو أعلى ما في هذه الدار، ولم يخبرنا عن الوجوه لأنه ليس في هذه الدار شيء يشبهها.

وفيه دليل على أن حسن الخلقة من جملة النعم. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ ذكره بتعريض المنّ عليهم في التفضيل على غيرهم، بقوله ﷺ (صورتهم صورة القمر ليلة البدر). وفيه أيضاً ما يقوي ما قلناه، لأنه إذا كانت زوجتاه يرى من إحداهما مخ الساق منها الذي هو داخل العظم من وراء الجلد، ومن وراء سبعين حُلّة، فكيف يكون وجهها؟ فيرى الساق منها أجمل من القمر هنا فكيف الوجه؟

وهنا بحث: لم قال، عليه الصلاة والسلام (زوجتان)؟ وقد قال ﷺ (إن أقل أهل الجنة منزلة يكون له اثنتان وسبعون زوجة وثمانون ألف خادم)[2]؟ فإذا كان أقلهم منزلة باثنين وسبعين فكيف بأعلاهم؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن حسن هاتين الزوجتين هو أعلى حسن الزوجات هناك، ومن أجل ذلك فضل هؤلاء بأن أعطوا منهم اثنتين، ويكون ذلك مثل شراب أهل الجنة، المقربون يشربون من عين التَّسْنيم[3]، ويمزج به شراب الغَيْر[4]. كما أخبر الحق جلّ جلاله بقوله تعالى ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[3] حتى يكون لهم التفضيل في كل شيء؛ في الجمال والأزواج والشراب. وكذلك الفواكه، كما أخبر بقوله تعالى ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾[5] وقد قال تعالى في أصحاب اليمين ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾[6]. ففي مثل هذا فليتنافس المتنافسون.

---

(١) سورة الرحمن، من الآية ٥٤.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث غريب وصححه ابن حبان عن أبي سعيد رضي الله عنه ولفظه: أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء. وفي هذا المعنى أحاديث عدة منها ما رواه الطبراني عن أبي هريرة، وما رواه أبو الشيخ وابن أبي الدنيا.

(٣) التَّسْنيم: عين عالية رفيعة، وشرابها أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، ويشرب منها المقربون صِرفاً وتمزج بالرحيق للأبرار؛ لأن المقربين أعلى درجة ومقاماً من الأبرار بدليل الآيات: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ . تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ . خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ . وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (سورة المطففين، من الآيتين ٢٧ و٢٨).

(٤) أي غير المقربين شرابهم ممزوج ببعض ماء التسنيم.

(٥) سورة الواقعة، من الآية ٢٠.

(٦) سورة الواقعة، من الآية ٣٢.

وقد ذكر عن بعض المتعبدين أنه رآه بعض إخوانه قد أجهد نفسه في العبادة، فأخذ يندبه إلى الرفق قليلاً، فقال له: لا أقدر، لأني رأيت فيما يرى النائم حوريةً من حور العين، لها حسن وجمال، فقلت لها: لمن أنتِ؟ فقالت: لكَ وأنا أحبكَ، وأخاف أن تَـفتُر في العبادة، فأفوتَك. فعاهدتها ألاّ أفتُرَ حتى يجمعَ الله بيننا. فلا يمكنني نَكثُ العهد.

وقوله عليه الصلاة والسلام (لا يبصقون ولا يتمخطون ولا يتغوّطون) إعلام منه، عليه الصلاة والسلام، بتنزيه تلك الدار عن الفضلات المستقذرة وعن النجاسات، بخلاف هذه الدار.

وفي ذلك دليل على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من كون أهل تلك الدار ليس لهم غائط ولا بول ولا فضلة مستقذرة مع كثرة أكلهم، لأنه قد أخبر ﷺ (أنه يؤتى للمؤمن بغذائه في مائدة يكون عليها ألف زبدية من الفضة، في كل زبدية لون لا يشبه غيره). يعني في الطعم، أو كما قال عليه الصلاة والسلام (يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها). وهنا إذا أكل زيادة يسيرة تَخِمت معدته وكثرت فضلاته. فهذا أدل دليل على عظيم القدرة، وأن الأشياء هي بمقتضى الإرادة لا بالعادة ولا باللازم.

وقوله عليه الصلاة والسلام (آنيتهم فيها الذهب) فيه إخبار بالتمتع هناك بالذهب، وهو هنا محرم، وقد قال، عليه الصلاة والسلام، في حق الكفار (هو لهم في الدنيا وهو لنا في الآخرة)[1] يعني أواني الذهب. وفي إخباره، عليه الصلاة والسلام، بهذا أدلّ دليل على سعة رحمة الله تعالى وغناه عن جميع خلقه. يؤخذ ذلك من كونه، عزّ وجلّ، قد أعطى الكفار هنا أن يستمتعوا بأواني الذهب والفضة مع كفرهم حتى لا يحرموا منها بالكلية، وكذلك جعل، عزّ وجلّ، لهم حظاً من النعيم في هذه الدار.

وفيه أيضاً دليل لأهل الصوفة الذين يقولون إن أسماء الله عزّ وجلّ كلها حق، لا بد أن يظهر من كل اسم أثر في العباد يدل عليه. فمن أسمائه عزّ وجلّ (الرحمن) فأعطى من مدلول هذا الاسم نسبة للكفار ما يلحقهم في هذه الدار. ومن أسمائه عزّ وجلّ (المنتقم) فنال المؤمنون من مدلول هذا الاسم ما يلحقهم في هذه الدار من التشويشات، كل بحسب ما شاء الله تعالى وما قسم.

وهنا بحث: وهو أن يقال: ما حاجتهم لاتخاذ الأمشاط، وهم ليس معهم قذر ولا هوام ولا شيء يؤذيهم؟

---

(١) رواه الشيخان عن حذيفة رضي الله عنه بلفظ: إن النبي ﷺ نهانا عن الحرير والديباج، والشرب في آنية الذهب والفضة، وقال: هي لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة.

فالجواب: أنه قد يكون اتخاذها على جهة التنعم والترفه. لأنها مما يزيد بها الحسن. وإن لم يكن هناك قذر ولا هوام يؤذي. وفيه دليل: على كمال نعيم تلك الدار.

وقوله عليه الصلاة والسلام (ومجامرهم الألُوّة)[1] فيه دليل على فضل هذا العود الذي منه مجامر أهل الجنة، وهو أيضاً مثل ما تقدم في الأمشاط. لأن اتخاذهم المجامر لغير ضرورة بل هي من جملة الترفه.

وقوله عليه الصلاة والسلام (ورشحهم المسك) الكلام عليه مثل الكلام على صورتهم صورة البدر، لأنه أجلّ المشمومات في هذه الدار. وما يبين ذلك ما ذكرناه قبل من قوله عليه الصلاة والسلام (ولَملأت ما بينهما ريحاً) فأين هذا المسك؟ لكن يكون نسبة المثال أن عرقهم من أجلّ طيب تلك الدار، كما أن المسك هنا من أجلّ الطيب في هذه الدار.

وقوله عليه الصلاة والسلام (لا اختلاف بينهم ولا تباغض) إلى آخر الحديث. فيه من الفقه أن من أكمل النعيم اتفاق العيال، لأنه من جملة سرور النفس. ولذلك كان بعض السادة إذا رأى تغيراً في خلق أهله قال: زَلّة وقعت مني. فيرجع فينظر مخافي النفس حتى يجد تلك الغفلة التي وقعت منه، لأنه لا يكون مع الرضى والاستقامة تشويش.

وفيه دليل على توافق شهواتهم. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام (قلوبهم قلب واحدٌ).

وفيه دليل على أن سبب الافتراق في هذه الدار ما في القلوب من التباغض والضغائن فلما طهرت هناك القلوب كما أخبر جلّ جلاله في كتابه بقوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[2] جاء الود والسرور التام.

وفيه دليل على أن حال أهل تلك الدار على حالتين: تسبيح لله تعالى مرة، وتنعم أخرى. يؤخذ ذلك من كونه، عليه الصلاة والسلام، أخبر عن تسبيحهم في الزمان بقدر ما أخبر مولانا، جلّ جلاله، عن قدره في أكلهم بقوله عزّ وجلّ ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[3]. وقد جاء أنهم يُـلْهَمون التسبيح كما يُـلْهَمون النفَس. فصح لهم نعيم دائم مختلف الوجوه.

جعلنا الله منهم بفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) الألُوَّة: العود الهندي الذي يُتَبَخَّر به. ولا مانع من كون رائحة العود تفوح بغير نار، لأن الجنة لا نار فيها.

(٢) سورة الحجر، من الآية ٤٧.

(٣) سورة مريم، من الآية ٦٢.

ــ ١٧٣ ــ

حديث عِظَم شجر الجنة

عَن أنَسِ بنِ مالِكٍ، رَضيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبي ﷺ قالَ: إنَّ في الجنَّـةِ لشجَرَةً يسيرُ الراكبُ في ظِلِّها مائـةَ عامٍ لا يَقطَعُها.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بحسن ثمر أهل الجنة، إذ إن الراكب يسير في ظل الشجرة الواحدة مائة عام لا يقطعها، لأنه كلما كثر ظل الشجرة عظم حسنها. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال ما فائدة الإخبار بهذا؟ وما يترتب عليه من الفقه؟ أما فائدة الإخبار ففيه وجوه:

منها: الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، لأن خلقه، عزّ وجلّ، لتلك الشجرة على ذلك القدر بلا معالجة أحد دال على القدرة العظيمة التي ليس كمثلها شيء.

وفيه دليل على اطلاعه ﷺ على أمور الآخرة. فهي تقوية في الدلالة على رفع منزلته، عليه الصلاة والسلام، عند مَلِك الدارَينِ، وفيه تشويق للسامع إذا كان من أهل التصديق، والترغيب له في العمل عليها.

ويترتب عليه من الفقه قوة الإيمان، وهو أعلى المراتب. فإنه إذا صَدَّق الصادِقَ ﷺ فيما به أخبر عَظُم قَدرُ القادرِ في قلبه، وذلك قوة في الإيمان، ولا تُبلَغ بعمل، لأن زيادة ذرة في الإيمان خير من عمل الدهر، لأن المولى، جلّ جلاله، قد مدحهم بذلك حيث قال: ﴿يؤمنون بالغيب﴾.

وهنا بحث وهو أن يقال: لِمَ ذكر، عليه الصلاة والسلام (الشجرة) نكرةً، ولم يُعَرِّفْها؟

والجواب: أنه لما كان المقصود ما ذكرناه أولاً من الفائدة على اختلافها كان من الحكمة تنكيرها أتم في الشأن، بدليل أن شهوات الناس في الثمار المعينة مختلفة. مثال ذلك: قد يكون بعض الناس يحب شجرة التين ولا يحب شجرة الجوز، وبالعكس فقد كان يحصل لبعض الناس زهادة في تلك الشجرة، فكان التنكير أولى. وفي ذلك دلالة على ما منَّ الله، عزّ وجلّ، به على سيّدنا محمد ﷺ من تمام المعرفة بالأشياء، وحسن إرشاده لأمته، وحسن سياسته في شأنهم كله.

وفيه دليل على أن مشي الراكب في الغالب أكثر من غيره، ولذلك مثّل به، عليه الصلاة والسلام.

وهنا بحث أيضاً وهو أن يُقال: لم قال (الراكب)؟ ولم يبيّن أيّ راكب هو؟ وما هو المركوب، لأن المركوبات تختلف في الأجناس مثل الخيل والحمير والإبل، وكل جنس منها يختلف في السرعة والإبطاء اختلافاً كثيراً؟ والجواب هنا كالجواب على الشجرة سواء. وقد يحتمل وجهاً آخر، وهو أن يؤخذ بالوسط من ذلك حتى يكون فيه طريق لمعرفة قدرها.

وفيه دليل على ارتفاع هذه الشجرة وعظمها، لأن ما يكون ظلها ذلك القدر يكون ارتفاعها أكثر من ذلك، وجاء أن المؤمن إذا اشتهى من جَنَى ثمرةٍ ما هو في أعلى الشجرة أنه يتدانى له حتى يأخذه بيده[1]، والمؤمن على أي حالة كان عند اشتهائه ذلك من قيام أو قعود أو اضطجاع. فسبحان مَن هذه قُدرتُه وإبداعُ حكمته. جعلنا الله ممّن جعله من سكانها بلا محنة. إنه وليّ حميد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) هذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾. سورة الإنسان، من الآية ١٤.

ـ ١٧٤ ـ

حديث التداوي من الحُمَّى بالماء

عَن رافعِ بنِ خَديجٍ[١]، رَضيَ الله عَنهُ، سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَقولُ: الحُمَّى مِن فَوْر جهنَّم. فأبرِدُوها عَنكُم بالماءِ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بأن الحمى من جهنم، والأمر بإبرادها عنا بالماء. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يُقال: هل هذا على العموم في الحُمَّيَات كلها أم لا، لأن منها ما هي باردة، ومنها حامية ساخنَـة؟ وهل معنى إبرادها هو ما يعلم من هذه الصيغة بالعادة، وهو ضد الحر، أو يكون معناها أن يعالجها فيكون هذا على جهة التداوي؟ وكيف يكون الإبراد بالماء هل من الخارج، أو من الباطن، أو مجموعهما؟

والجواب عن الأول، وهو: هل هذا على العموم في الحُمَّيَات كلها أو في الساخنة منها؟ فالجواب: أن هذا الإخبار منه، عليه الصلاة والسلام، هو على طريق الشفقة منه، والرحمة من الله تعالى. فينبغي أن يؤخذ على أتم المحتملات، لأنه أبلغ في الفائدة، والذي يدل على حقيقة اللفظ. والوجه الآخر ـ وإن كان محتمَلاً ـ فليس بالقوي، لأنه يحتاج إلى تقدير ضمير في الكلام، وحمل الكلام على ظاهره أولى من إدخال ضمير فيه سيما إذا لم يكن هناك معارض، فكيف إذا كانت الفائدة أكثر؟

ومما يصدق هذا الوجه قوله عليه الصلاة والسلام (إنها من فور جهنم)، وقد جاء في الحديث (إن النار اشتكت إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فائذن لي بنَفَسَيْنِ في كل عام، نَفَسٍ في الشتاء، ونَفَس في الصيف)[٢]. فما كان من شدة الحر فمنها، وما كان من شدة البرد فمنها.

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٩٢.

(٢) رواه الإمام مالك والبخاري ومسلم وابن حبان والشافعي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: اشتكت=

فعلى هذا فجميع الحميات على اختلافها هي من جهنم، فينبغي تبريدها بالماء. لكن لمن يكون له تصديق بالحديث، كما قال مولانا، جلّ جلاله، في العسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[1] وكان ابن عباس، رضي الله عنه، إذا رمدت عيناه يكتحل به ويتلو الآية فيبرأ. وكان ابن عمر، رضي الله عنه، إذا طلع له نَبْت[2] يطليه به ويتلو الآية فيبرأ. وقد جاء بعض المتأخرين واستعمله على تلك النية، فحصل له فيه الشفاء لكل شيء.

والحديث المأثور الذي جاء فيه قوله، عليه الصلاة والسلام (صدق الله وكذب بطن أخيك)[3] في رجل اشتكى له، عليه الصلاة والسلام، جريان بطن أخيه. فقال له عليه الصلاة والسلام: (اسقه عسلاً) ففعل. ثم أتاه بعد ذلك يشكو له أن الأمر على حاله فقال: (اسقه عسلاً) ثم أتاه الثالثة أو الرابعة كذلك، ثم شفي به. فقال عليه الصلاة والسلام: (صدق الله وكذب بطن أخيك). ومثل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (في الحَبَّة السوداء شِفاءٌ من كلّ داء إلا السّام)[4] الباب في هذا كله واحد. فأهل التوفيق والتحقيق أخذوها كلها على العموم فوجدوها كذلك، والأخبار في ذلك عنهم كثيرة. ومما يقوي طريقهم المبارك قوله جلّ جلاله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[5] فينبغي أن تبقى الرحمة على عمومها لأنها من أرحم الراحمين للضعفاء المساكين، وهو، عزّ وجلّ يعلم ضعفهم واحتياجهم إليه.

وأما الجواب على قوله (أبردوها) فيحتمل الوجهين على انفرادهما، واحتمل مجموعهما - وهو الأظهر - للعلّة التي قدمناها آنفاً لأنه من باب الرحمة. فينبغي أخذ أتمّ الوجوه، وهو جمع الوجهين معاً، فيحصل له التبريد على ما به والشفاء بمقتضى ما فصّلناه أولاً، وهو الحق الذي لا ينبغي أن يشك فيه.

وأما كيف يكون الإبراد بها؟ هل من الخارج أو ضده أو المجموع؟ فقد جاءت الصفة عنه، عليه الصلاة والسلام. وهي حين حُمَّ في مرضه الذي توفي فيه ﷺ فقال: (خذوا لي ماءً من سبع

= النار إلى ربها فقالت: أكل بعضي بعضي. فأذِن لها بنَفَسَين، نَفَسٍ في الشتاء ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير.

(١) سورة النحل، من الآية ٦٩.
(٢) النَّبت هنا: الطفح على الجلد من بثور ودمامل وغيرها.
(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٤) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٧.

قرَبٍ لم تُحَلَّ بعدُ، واسكبوه عَلَيّ)[1]، فدل بقوله، عليه الصلاة والسلام، أن التبريد الذي هو التداوي هذه صنعته، لأن استعماله في الباطن صاحَبَ الحُمَّى بالعادة، ويفعله في الغالب من لا يقدر على الصبر عليه.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من قوله، عليه الصلاة والسلام: (إنها من فَوْر جهنم)، وقد أخرج إلى هذه الدار منها ما ذكر في الحديث الذي استشهدنا به من الحر الشديد والبرد الشديد. وقد جاء أن الحمى حَظُّ كل مؤمن من النار. ويظهر في ذلك من الحكمة، على مقتضى هذا الحديث الذي ذكرناه، أنها على المؤمن تَحِلَّة القَسَم[2]، إذ هي حظه من النار، وأنها للكافر تعجيل نقمة مما أُعِدَّ له هناك.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (فأبرِدوها عنكم بالماء) دليل على أن الحكمة تقتضي مداواةَ الشيء بضده: ما يكون حاراً تكون مداواته بالبارد، والبارد بالحارّ. ووافق في ذلك قول الأطباء في التجربة سواء بسواء.

وهنا بحث وهو أن الصادق ﷺ قد أخبر هنا أن الحمى من فور جهنم، والأطباء يقولون: إنها صادرة عن أخلاط في البدن. فهل يكون هذا من قبيل التعارض أو يمكن الجمع بينهما؟ الذي يظهر - والله أعلم - أن الجمع يمكن بينهما بوجه. وذلك أن الأطباء تكلموا على ما رأوه بالتجربة مع مرور الأزمنة، وهي مقتضى الحكمة. وأخبر الصادق، عليه الصلاة والسلام، بما هو الحق بحسب القدرة، فتكون تلك الحمى - التي هي من فور جهنم - إذا أرسلت على من شاء الله تعالى من عباده فَسَد مزاجه، وتحركت تلك الأخلاط التي أبصرها الأطباء، فأخبروا أن تلك هي الحمى. وسموها

---

(١) رواه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: اهريقوا عليّ من سبع قرب لم تحلل أو كيتهنّ، لعلّي أعهد إلى النار.

(٢) تحِلّة القَسَم: أسلوب من أساليب العرب يراد به: القلة الشديدة، وإن لم يكن هناك قَسَم أصلاً. يقولون: ما فعلت كذا إلا تحلّة القسَم، يعنون إلا قليلاً جداً قدر ما يحلل به الحالف قسمه. وفي الحديث الشريف ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلّة القسم. وفي رواية لمسلم: لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلّه القسم.

والمراد بـ (القسم) المذكور في الحديث مستفاد من قوله تعالى في سورة مريم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وقد اختلف العلماء في موضع القسم من الآية، فقال بعضهم: هو مقدر دل عليه الحديث المذكور، أي: والله إن منكم إلا واردها. وقال آخرون: هو معطوف على القسم قبله، والمعطوف على القسم قسم. والمعنى: فوربك لنحشرنهم والشياطين، وربك إن منكم إلا واردها. وقال فريق ثالث: القسم مستفاد من قوله ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي قسماً واجباً. ولكل فريق حجته ودليله.

أسماء عديدة مثل المُطْبِقَة، والحارة، والرِّبْع[1]، والغِبّ[2]، وغير ذلك من أسمائها بحسب ما هو منصوص في كتبهم. وجاء هذا مثل فعلهم مع العليل، تراهم كثيراً ما يسألونه: هل يطيب له الطعام أم لا؟ فإذا ذكر لهم أنه يطيب له الطعام فرحوا بذلك وبشروه بإمكان الصحة، وأن المرض قد ذهب.

وقد جاء عن الصادق ﷺ أن الله، سبحانه وتعالى، وكل بالطعام ملكاً وبالشراب ملكاً. فإذا شاء الله مَرَضَ العبدِ أمر، عزّ وجلّ، ملك الطعام ومَلَك الشراب أن يزيلا عن العبد طيب الشراب وطيب الطعام، فيكون عند ذلك بقدرة الله تعالى مرض العبد. فإذا أراد الله، عزّ وجلّ، بُرْأَه أمرَ ذَيْنِك المَلَكين أن يَرُدّا عليه طيب الطعام والشراب، فيكون عند ذلك بفضل الله وقدرته عافية المريض. فلما رأى الأطباء تلك العلامة بدوام التجربة دالة على عافية العليل نسبوها إلى نجح طبهم وتأثير أدويتهم، ففرحوا بذلك.

فسبحان من غطى بعظيم قدره بديع حكمته. جعلنا الله ممن عافاه في الدنيا والآخرة بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) الرِّبع: حُمّى الرِّبع. وهي التي تعرض للمريض يوماً وتدعه يومين، ثم تعود إليه في اليوم الرابع، وتسمى: ملاريا الرِّبع.

(٢) الغِبّ: حُمّى الغِبّ، وهي التي تنوب يوماً بعد يوم.

ـ ١٧٥ ـ
حديث عِظَم حَرّ نار جهنم

عَن أبي هريرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: نارُكُم جُزء مِن سَبعينَ جُزءاً مِن نار جَهنَّمَ. قيلَ: يا رَسُولَ الله إن كانَت لَكافِيةً. قالَ: فُضِّلَت عَلَيها بِتِسعَةٍ وِستِّينَ جُزءاً كُلُّهُنَّ مِثلُ حَرِّها.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بعظيم قوة حر جهنم، وأن هذه النار جزء من سبعين جزءاً منها. والكلام عليه من وجوه:

منها: الكلام في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: (إنها جزء منها) هل المراد أن جميع نار الدنيا من أولها إلى آخرها هي جزء منها، أو الجزء الذي أخرج للدنيا منها، أو نفس الحرارة التي خلقت لها؟

والجواب، والله الموفق للصواب: أما صيغة اللفظ فيحتمل الثلاثة وجوه على حَدٍّ سَواء. وأما إذا نظرنا من طريق الفائدة فيبطل اثنان ويصح الوجه الواحد، لأنه إذا قلنا: إنها جميع نار الدنيا من أولها إلى آخرها، فهذا لا نعلمه، ولا لنا طريق إليه، فكيف نجعل لنا مثالاً بما لا نعرفه؟ فهذا ما لا تقتضيه الحكمة، ولا يعرف في فصاحة العرب. وكذلك الكلام على الوجه الآخر الذي هو مقدار الجزء الذي أخرج للدنيا منها، فما بقي يصح إلا قدر الحرارة التي لها، فإن هذا المقدار نعرفه بتحقيق الأخبار. فعلى هذا يكون للتمثيل بها فائدة. وقد جاء عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه قال: (لو أن أهل النار وجدوا مثل ناركم هذه لقالوا فيها)[1] وقد جاء. (أن هذه النار تستعيذ بالله تعالى أن تعاد إلى تلك النار).

---

(١) رواه الترمذي وان ماجه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت، فهي سوداء كالليل المظلم. وقال الترمذي: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح. وورواه مالك والبيهقي في الشعب مختصراً مرفوعاً قال: أترونها حمراء كناركم هذه لهي أشدّ سواداً من القار. زاد رزين العبدري: لو أن أهل النار أصابوا ناركم هذه لَناموا فيها أو قال: لقالوا فيها. (لقالوا: أي لناموا).

وفيه دليل على أن من حسن الكلام أن يقدم المعلوم في التمثيل، ثم الإخبار عن المجهول الغائب إذا أريد التعريف بحقيقته. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (ناركم) فقدمها في الذكر على الأخرى، ليعرف قدر عظمها. وفيه من الحكمة أن الفائدة تسبق للذهن به.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من كون هذه ناراً، وتلك نار. الاسم واحد، وبينهما في الحرارة هذا التفاوت العظيم.

وفيه دليل على ترك التلفظ بالكلام الذي فيه الفائدة، إذ هناك ما يدل عليه. يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم (إن كانت لكافية) ولم يذكروا (فيم ذا)؟ للعلم به، وهو العذاب، وما يمتحن به من أنواع العذاب بها لأن النار في الغالب لهذا خلقت.

وفيه دليل على مراجعة المفضول للفاضل. يؤخذ ذلك من قول الصحابة، رضوان الله عليهم، للنبيّ ﷺ. (إن كانت لكافية).

وهنا بحث وهو أنه قد تقدم في غير ما موضع من الكتاب أن الصحابة، رضوان الله عليهم، لا يتكلمون إلا بما فيه فائدة، فكيف كان كلامهم هنا في شيء قد فرغ من خلقه بمقتضى حكمة الحكيم، فيشبه هذا تحصيل حاصل؟

والجواب عن ذلك: أن هؤلاء السادات ليس قولهم هنا على طريق العبث ـ كما يسبق للفهم ممن لايقدر قدرهم ـ ذلك أن جوابهم بهذه الصيغة كان لفوائد، فمنها: أن يكون ذلك منهم طمعاً لعله ﷺ يجاوبهم على ذلك في حقهم وحق إخوانهم بأمر خاص من التخفيف. يؤيد ذلك فعلهم معه ﷺ في غير ما موضع مما يشبه هذا. ومنها حين أخبرهم كيف يقال يوم القيامة لآدم عليه الصلاة والسلام (أخرِجْ بَعْثَ النار من بَنِيكَ. فيقول: يا ربّ وما بَعْثُ النار؟ فيقال له: تِسْعُمائةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة. فبكت الصحابة رضي الله عنهم عند ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: من يَـأجوجَ ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد منكم إلى الجنة)[1]، فعند ذلك زال عنهم ما كان أصابهم من الرعب.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول من يُدعى يوم القيامة آدم، فيتراءى ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم، فيقول: لبَّيك وسَعديك. فيقول: أخرج بعث جهنّم من ذريتك، فيقول: يا رب كم أخرج؟ فيقول: من كل مائة تسعة وتسعين. فقالوا: رسول الله، إذا أُخذ منّا من كل مائة تسعة وتسعين فماذا يبقى؟ قال: إن أمتي في الأمم كالشَّعرة البيضاء في الثور الأسود. ورواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه: فشقّ ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى الواحد؟ فأيّنا ذلك الواحد؟ فقال: من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد، وهل أنتم في الأمم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود. (انظر البدور السافرة للسيوطي رقم ١١٨ و٥٥٢).

وكذلك حين تلا عليهم قوله تعالى ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] فقالوا: ما أطوَلَه من يوم! وأخبرهم، عليه الصلاة والسلام، أنه يُخفَّف على المؤمن حتى يكون عنده قدر ما يُوقِع فيه الصلاة المكتوبة، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فزال عنهم ما كانوا وجدوا. فهم في هذا الجواب على عادتهم المباركة المفيدة. وفيه أيضاً أنه، عليه الصلاة والسلام، أفادهم فائدة بقوله (فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها)، فأفاد جوابه، عليه الصلاة والسلام، لهم أن هذه النار ليست من تلك، رداً على من زعم أنها منها.

وفيه دليل على إضافة الشيء لمن يتصرف فيه، وإن كان لا يملكه. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (ناركم) فأضافها إليهم، وهي ليست لهم، لأن عين جوهرها لا يمكن ملكه إلا للذي خلقه، غير أنا إنما نملك الشيء الذي نَسْجُرُها[2] فيه، وهو لا يدوم، لأنه ساعة ثم يغدو رماداً. ومما يؤيد ذلك قول مولانا جلّ جلاله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾[3]؟ فتلك الشجرة، وهي التي تخرج من الزَّنْد عند القدح به مَنْ يَملكها؟ أو كيف يقدر أحد على حبسها؟

وفيه من الفائدة: أن حرارة تلك النار كلها على حد واحد. ويعارضنا في هذا الوجه ما جاء أنها (سبع طباق وأن ما سفل منها أعظم من الذي يعلوه) وينفصل عنه بأن يقال: ما بين تلك الدركات من عظيم الأمر إنما هو من أجل أمر آخر، منها: سوء المحل. وله مثال هنا مثل: لو أن شخصاً يوقد ناراً على سطح بيت، وآخر يوقد مثله في بيت، وآخر يوقد مثله في مطمور تحت البيت، فنار الثلاثة في نفسها على حد سواء. فالذي أوقدها في السطح ما منعه من أذاها إلا ما كان هناك من الهواء. والذي أوقدها في البيت وجد من حرها ما لم يجد الذي في السطح لانحصاره في البيت وقلة الهواء فيه. والذي أوقدها في المطمورة أشدهم، لأنه انعكس عليه دخانها ولم يخرج عنه من جميع حرها شيء. فالمحل هو الذي زاد في التعب لسوئه.

ثم أيضاً زيادة أخرى كما أخبر عنهم أنه يرسل عليهم الثعابين والأفاعي. وقد جاء أن يوضع على كل مَفصِل من مفاصل من قدّر عليه بها سبعون نوعاً من العذاب، أو كما قال. فهذا وما أشبهه ليس من نفس حرارتها، بل هو لمعنى زائد، فبحسب زيادة تلك الأمور يكون سوء حال الشخص فيها.

---

(١) سورة المعارج، من الآية ٤.

(٢) سَجَر الإناء: ملأه. وسَجَر التَّنور: ملأه وقوداً وأحماه.

(٣) سورة الواقعة، من الآيتان ٧١ و٧٢.

ويترتب على الإخبار به من الفائدة وجوه، منها: الخوفُ منها ليكون ردعاً عن موجبها لمن له عقل، والعملُ بالأشياء المنجية منها، وإلا إذا[1] سمع مثل هذه الأخبار ولا يرجع سامعها عن موجبها فلا يخلو من أحد أمرين: إما ألاّ يصدق أو يصدق. فإن صدق ولم يرجع دخل تحت قوله تعالى ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[2]؟ قال أهل العلم: معناه ما أصبرهم على الأفعال التي يعلمون أنها توجِب لهم النار! فجاء التعجب على بابه. أعاذنا الله من ذلك بمنّه. وإن لم يصدق جاء ما هو أعظم، وهو الكفر، لأنه عزّ وجلّ قال ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾[3]؟ فلْينتبه السامع ولْيتدارك نفسه في زمان المهلة.

أيقظنا الله من سِنَةِ الغفلة بمنّه وكرمه. آمين. والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) يريد: فإذا.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٧٥.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٨٥.

ـ ١٧٦ ـ

حديث إلقاء الرجل المتظاهر بالصلاح في النار

عَن أُسامَةَ[١]، رَضيَ اللهُ عَنهُ، قالَ: سَمِعتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ: يُجاءُ بالرَّجُلِ يومَ القِيامَةِ فَيُلقى في النَّارِ فَتَندَلِقُ أقتابُهُ[٢] في النارِ، فَيدورُ كَما يَدُورُ الحِمارُ بِرَحاهُ، فَيجتَمعُ أهلُ النّارِ عَليهِ فَيقولونَ: يا فلانُ، ما شَأنُكَ؟ أَلَستَ كُنتَ تَأمُرُنا بالمَعروفِ وتَنهانا عَنِ المُنكَرِ؟ قالَ: كُنتُ آمُرُكُم بالمَعروفِ ولا آتيهِ، وأنهاكُم عَنِ المُنكَرِ وآتيهِ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بسوء حال هذا الرجل، يدخل النار فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه بعدما تندلق أقتابه، وهي الأمعاء وما قاربها. والكلام عليه من وجوه:

منها: ما فيه من الدليل على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من كون ما على أمعائه من الجلد واللحم قد ذهب وهي باقية على حالها.

ومنها: البحث على قوله عليه الصلاة والسلام: (كما يدور الحمار برحاه) هل ذلك بسائق يسوقه، أو بغير سائق؟ احتمل الوجهين معاً. لكن لفظ الحديث يعطي أنه بسوق عنيف وحالة سيئة. يؤخذ ذلك من تمثيله بالحمار، والمعلوم من الحمار أنه لا يكون منه الدوران برحاه إلا بالسَّوق والضرب، ومن أجل ذلك شبهه، عليه الصلاة والسلام، بالحمار ولم يشبهه بغيره من الدواب التي تراض، وقد تدور وحدها مثل البعير وغيره، وليس في الدواب أبلد من الحمار.

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة، من كنانة عوف، أبو محمد، صحابي جليل، ولد بمكة، ونشأ على الإسلام، وكان أبوه أول الناس إسلاماً، وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً جَمّاً، وينظر إليه نظره إلى سبطيه الحسن والحسين، وهاجر مع النبيّ ﷺ إلى المدينة، وأمّره رسول الله أن يبلغ العشرين من عمره. وفي الترمذي عن عائشة أنه ﷺ له ما تناثر من أنفه، ورفض أن يترك غسله لعائشة. وفضّله عمر بن الخطاب على ابنه في العطاء، وقال لعبد الله: إن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك. توفي بوادي القرى سنة ٥٤ هـ وحمل إلى المدينة ودفن في البقيع.

(٢) الأقتاب: جمع القِتْب. وهي المِعَى وما تَحوَّى من البطن.

وفيه تنبيه على أن صاحب المخالفة يوصف بالبلادة، وإن كان عند نفسه نبيهاً، لأنه، عليه الصلاة والسلام، قد شبّهه بأبلد البهائم. ومما يقوي ما قلناه قوله عليه الصلاة والسلام: (الكيّس من دانَ نفسَه وعَمِل لِما بعدَ الموت، والعاجز من أتبَع نفسَه هواها، وتمنّى على الله)[1]، لأنه في الغالب لا يكون العجز إلا مع البلادة، وإذا اجتمعا فهما سبب الحرمان.

وفيه دليل على أن دخول النار لمن قدّر عليه بها لا يكون إلا يوم القيامة. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (يوم القيامة).

وفيه دليل على تعارف أهل النار فيها واجتماع بعضهم مع بعض. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (فيجتمع عليه أهل النار). ويعارضنا ما جاء أن أهل النار يعذب الشخص منهم ولا يرى أحد أحداً حتى يظن أنه لا يعذب في النار غيره. ويجتمع الحديثان بأن نقول: النار هي سبع طباق، ولكل طبقة منها أمر يختص بأهلها، فيكون ما أخبر به، عليه الصلاة والسلام، في هذا الحديث هي نار المؤمنين التي هي أخفها، بدليل قوله، عليه الصلاة والسلام: (فيقولون له: كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر)، وهذا لا يكون إلا صفة للمؤمنين. ويكون الخبر الثاني عن الكفار أو من شاء الله منهم.

وفيه دليل على إبقاء الميز والمعرفة لأهل النار مع ما هم فيه من الأمر العظيم. يؤخذ ذلك من اجتماع بعضهم مع بعض، وكلام بعضهم مع بعض، ومراجعتهم وسؤالهم.

وفيه دليل على أن دخول أهل النار يكون بعنف دون اختيارهم. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار) فلولا ما هو كذلك لقال: يدخل النار.

وفيه دليل على أن أعظم الأعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يؤخذ ذلك من تعجب أهل النار من دخول هذا الشخص النار، وهم يعرفونه أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لأن أهل النار قد عاينوا الحساب وثواب الأعمال، وأي عمل أنفع لصاحبه؟ فلولا ما رأوا قدر رفع منزلة صاحب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيف هي؟ ما تعجبوا من دخول هذا النار، وهو على ما كانوا يعلمون منه أنه من أهل ذلك الخير. وصحح هو لهم بحثهم بأن فضح نفسه بما أكنّت سريرته، حتى تبقى القاعدة على ما هي عليه من الحق، لأن تلك الدار لا يمشي فيها الزور ولا يصح.

وهنا بحث وهو أن يُقال: هل كان دخوله النار بتلك الحالة من أجل ما كان يُظهِر شيئاً وهو

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويفعل ضده، أو ذلك لما اكتسب من الآثام، أو للمجموع؟ ظاهر الأمر أنه لهما معاً. ولا يقع في النفس ما يقوله بعض الجهال أنه لا ينهى عن منكر حتى يكون هو لا يفعله، ولا يأمر بمعروف حتى يكون هو ممن يفعله، وإلا لا يفعل. فهذا جهلٌ وعَميٰ. نعم ذلك هو صفة الكمال. وإنما هو مكلف بالوجهين معاً، وهو أن يأمر بالمعروف ويفعله، فإذا ترك الأمر به لكونه لم يوفق إلى فعله يكون عذابه على ذنبين، فإن أمر به ولم يفعله يكون عذابه على ذنب واحد. وكذلك في النهي عن المنكر هو أيضاً مأمور أن ينهى عنه، وألا يفعله في نفسه، فإذا لم ينه عن المنكر وفعله عذب على ذنبين، وإن نهى عنه وفعله عذب على ذنب واحد. والعذاب ـ والعياذ بالله ـ على ذنب واحد أقل مما هو على ذنبين.

ومن هنا وقع ناس كثيرون في تضييع الأوامر والنواهي يقولون: لا تنه حتى تنتهي، فيوجبون على أنفسهم عذاب ذنبين، ومثله في الأمر بالمعروف، وهو غلط عظيم، اللهم إلا أن يكون مثل هذا المذكور الذي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لأنه جمع على نفسه ذنبين وزاد لهما الرياء، لكونه أخفى وقوعه في المنكر، وعدم فعل المعروف الذي كان يتظاهر بأنه ممن يفعله. يؤخذ ذلك من تعجب أهل النار منه لما كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو يظهر أنه مثل ما يقول لهم. فلو علموا منه أنه كان حاله بخلاف ما كان يأمرهم به ما كانوا يتعجبون من دخوله النار.

وفيه دليل على أن خلط عمله بالحسن والسيّىء أنه استحق دخول النار بمقتضى العدل. يؤخذ ذلك من كون هذا كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا من أكبر أعمال الخير ـ كما تقرر قبل ـ لكن لما فعل مع ذلك الشرَّ ولم يفعل الخير استحق دخول النار.

وفيه دليل على أنه من كان له عمل خير وعمل شر فإنه يقدم له المجازاة على عمل الشر، وبعدها يتفضل عليه بما وعد من الخير. يؤخذ ذلك من كون هذا الشخص قد اجتمع له عمل خير وضده، فقدم له المجازاة على الشر. والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما كانت الجنة دار رحمة، وأنه من دخلها لا يرى شيئاً يسوؤه بعد، فقدم للذي له العمل المختلط دار العقاب، ويخرج منها بعد إلى دار الرضى. ولا يمكن العكس بمقتضى الحكمة الربانية.

وفيه دليل على حياتهم في النار وهم فيها أيقاظ. يؤخذ ذلك من كونهم يتكلمون ويجتمعون. ويعارضنا الحديث الذي ذكر فيه أنهم يموتون فيها، حتى قال بعض العلماء بظاهره، وزعم أن المؤمنين في النار موتى، ولا يحسون من عذابها شيئاً. وهذا الحديث ردّ على من زعم ذلك. والجمع بين هذين الحديثين كما تقدم في يوم القيامة لأنه مواطن مواطن، وكذلك النار أهلها فيها على أحوال، يتلونون تارة على نوع، وتارة على آخر.

وقد يكون له وجه آخر، وهو أن تكون تلك الأمور التي أخبر بها في الأحاديث ـ وهي مختلفة ـ أن كل حالة منها لقوم مختصين بها. يشهد لهذا المعنى نفس الحديث الذي نحن بسببه، لأنه عليه الصلاة والسلام، أخبر أن ذلك الشخص مشغول بدورانه ليس ينفك عنه ما هو فيه من تلك الحال، وأن غيره أتاه يسأله عن حاله، لأنهم قد اجتمعوا عليه. وكذلك ما تعددت الأحوال على هذا الأسلوب، لأن الأحاديث التي جاءت في هذا الشأن كلها صحاح، وهي كلها أخبار، والخبر لا يدخله نسخ، فلم يبق إلا الجمع بطريق التأويل نحو ما تقدم. وتكون فائدة هذا الحديث التنبيه على توفية ما يجب على الشخص من الواجبات في نفسه وغيره، لأنها هي الطريقة المخلصة

منَّ الله تعالى علينا بها بفضله آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

- ١٧٧ -

حديث الأمر بذكر الله تعالى عند كل شيء

عَن جابـرٍ، رضيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبي ﷺ قالَ: إذا استَجنَحَ اللَّيلُ[١] - أو كان جِنحُ اللَّيلِ - فَـكُفُّوا صِبيانَـكم[٢]. فإنَّ الشَّياطينَ تَنتَشِرُ حينئذٍ، فَإذا ذَهَبت سَاعَة مِن العِشاء فَخلُّوهُم. وأَغلِق بابَكَ واذكُرِ اسمَ الله. وأطفِىءْ مِصباحَكَ واذكُرِ اسمَ الله. وأَوْكِ سِقاءَكَ[٣] واذكُرِ اسمَ الله. وَخَمِّرْ[٤] إناءَكَ واذكُرِ اسمَ الله، ولَو أن تَعرِضَ عَليهِ شَيئاً[٥].

* * *

ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام منها: الإخبار بانتشار الشياطين أوّل الليل وكَثرتِهم في ذلك الوقت، والأمرُ بكَفّ الصبيان ذلك الوقت عن التصرف، والأمر بغَلْق الباب وذكرِ الله تعالى إذ ذاك، والأمر بتَوْكِية السِّقاء وذكرِ الله تعالى إذ ذاك، والأمر بإطفاءِ السِّراج وذكر الله إذ ذاك، والأمر بتغطية الإناء وذكر الله تعالى إذ ذاك، وإن لم يجد ما يغطيه يَعرِضُ عليه شيئاً. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يُـقال: هل هذه الأوامر كلها على الوجوب أو الندب؟ وما الحكمة في ذلك؟ وهل انتشار الشياطين في تلك الساعة لحكمة تفهم، أو ليس لنا سبيل إلى ذلك؟ وهل ما سمي فيها من منع الصبيان يُـفهم أيضاً علّة له أو ليس؟ وهل ذلك خاص بالصبيان أو يتعدى إلى غيرهم؟ وما الحكمة في ذكر الله تعالى عند تلك الأفعال؟ وما يترتب عليه من الحكم؟ وهل يتعدى إلى غير ذلك أو ليس؟

---

(١) استجنح الليل: أقبل الليل. وجنح الليل: ظلامه واختلاطه.
(٢) كفوا صِبيانكم: ضمّوا بعضهم إلى بعض واجمعوهم.
(٣) أوك سقاءك: شُدَّ عليه الغطاء، وأحكم غلق الإناء الذي تستسقى منه.
(٤) خَمِّر إناءك: غطِّه.
(٥) تَعرِض عليه شيئاً: تضع عليه شيئاً بالعَرض.

أما قوله (استجنح أو كان جنح الليل) فهو شك من الراوي. وفيه دليل على تحرّيهم رضوان الله عليهم في النقل كما ذكرنا قبل.

وأما قولنا: هل الأمر على الوجوب أو الندب؟ فاللفظ محتمل، لكن الأظهر فيه الندب؛ ليس من طريق التعبدات، وإنما هو طريق الإرشاد إلى ما فيه الخير والتسبب فيه وفي دفع الضرر، لأنه إذا استقريتها واحدة واحدة بان لك ذلك.

فمنها غلق الباب لأن فيه تحصيناً من العدو الذي يريد ضَرَك في مال أو بدن.

وتوكية السقاء وهو من باب التحوّط على النفس والماء والوعاء، لأنه إذا لم تُوك السقاء قد يتعلق فيه حيوان أو يدخله، فإن هوام الأرض تنتشر في الليل أكثر منها بالنهار، فقد يسقط في السقاء فينشق، ويذهب الماء منه، فيكون لك مضرة بذهاب الماء. وقد تحتاجه للطهارة وغيرها من ضرورات البشر، فيلحقك الضرر في نفسك أو دينك، وخسارة المال هو السقاء، والرسول ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، فهو يرشدهم إلى كل ما فيه صلاح في دين أو دنيا أو آخرة. وقد يدخله حيوان فيموت فيه أو يبقى بالحياة، فمن أتى لاستعمال الماء إما أن يدخل في جوفه أو ينالَه من سمّه. ومن هذا الباب نهى، عليه الصلاة والسلام، عن الشرب من فم السقاء[1] خيفة أن يكون هناك شيء يُتأذّى بسببه.

وإطفاء المصباح من جهة الاحتياط على المال والنفس، وقد نبه، عليه الصلاة والسلام، في حديث آخر حيث قال: (وإن الفُوَيْسِقَة تُضرِم البيتَ على أهله ناراً)[2] أو كما قال عليه، الصلاة والسلام، وهي الفأرة. فإنها تأتي المصباح وتأخذ طرف الفتيل وهو موقَد، فتجرّه فيحترق البيت وما فيه، وقد يكون نوم أهله ثقيلاً فيحترقون بالنار.

ويترتب على هذا من الفقه أنه لا ينبغي لأحد أن ينام ويترك مصباحه موقداً، فإن تركه قد يطرأ عليه منه ضرر، فيتعلق العتب عليه، لأنه خالف السنة وتسبب فيما كان به ضرر، اللهم إلا أن كان له عذر من مرض أو ما يشبهه، فصاحب العذر معذور.

وأما تغطية الإناء فهو من باب توقّي الضرر، لأنه جاء (أن ليلة في السنة ينزل بلاء من السماء، فكل إناء وجده مكشوفاً حلّ فيه، وتلك الليلة مجهولة)[3]. وأيضاً قد يأتي من الحيوان الذي فيه

---

(١) رواه البخاري في الأشربة ومسلم في المساقاة من حديثأبي هريرة رضي الله عنه وعندهما في النهي عن الشرب من فم السقاء عن أبي سعيد الخدري، وعند البخاري وأبي داود وعن ابن عباس رضي الله عنه والنهي للكراهة.

(٢) رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه في بدء الخلق وفي الاستئذان، ومسلم في الأشربة. ولفظه وأطفئوا المصابيح عند الرقاد فإن الفويسقة ربما اجترّت الفتيل فأحرقت أهل البيت. وهذا اللفظ للبخاري.

(٣) رواه مسلم في الأشربة بلفظ: غطّوا الإناء، وأوكوا السّقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمرّ بإناء ليس=

السم والضرر فيشرب من ذلك الماء، ويقع من سمّه في الإناء أو يقع هو بنفسه، فيلحق لشارب ذلك الماء ضرر في نفسه كما تقدم.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (ولو أن تعرض عليه شيئاً) هنا بحث: وهو أن يُقال: كيف يقوم مثلاً عود أو خيط إن عرضته على الإناء مقام تغطيته كله. لأن (شيئاً) يقع على القليل والكثير؟ فتكون هذه الإشارة هنا تبين فائدة قوله، عليه الصلاة والسلام: (واذكر اسم الله) فإن المانع للضر كله والجالب للخير كله هو ذكر اسم الله تعالى. فأمر، عليه الصلاة والسلام، بإظهار الحكمة في عمل الأسباب من غلق الباب وتوكية السقاء وغيرهما، وجعل من شرطها ذكر الله تعالى عند الفعل، لأنه سبحانه هو الواقي، لأنه، عزّ وجلّ، يقول في محكم التنزيل ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[1] وذكر الله تعالى هو الحصن الأعظم والملجأ الأكبر.

فلما لم يجد للحكمة سبيلاً ـ وهي تغطية الإناء ـ بقيت القدرة ظاهرة فقال عليه الصلاة والسلام: (واذكر اسم الله) عند قوله (ولو أن تعرض عليه شيئاً). فأفاد ذلك أن اسم الله هو الواقي، ولم يعد، عليه السلام، ذكر الله عند قوله: (ولو أن تعرض عليه شيئاً)، لأنه عطفه على قوله (وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله). وما عطف على الشيء فهو مثله، فلذلك سكت عنه اختصاراً.

وقد قال بعضهم: إنه كان له إناء، ولم يكن له ما يغطيه، فعرض عليه عوداً، فلما أصبح وجده قد وقع على هذا الإناء حيوان من ذوات السمّ ميتاً، فاحتبس على العود، ولم يكن ذلك العود من حيث أن يحبس ذلك الحيوان. فهنا ظهر أنه ما حبس ذلك الحيوان إلا ما أشرنا إليه من بركة اسم الله تعالى لا غير.

وأما قولنا: ما الحكمة في ذلك؟ فنقول: إنه لما كان الليل وقت نوم ـ وهو الموت الأصغر ـ أمر أن يفعل الأمور التي يصلح فيها حاله وحال أهله وماله في حال نومه وغيبته، لأنه في النهار متيقظ نبهان وأهله كذلك، وكل واحد يدفع عن نفسه بوضع الحيلة، فلم يؤكد عليه في هذه الأشياء.

ويترتب عليه من النظر أنه إذا كان يؤمر أن ينظر فيما يصلح به حاله وحال ماله، كما تقدم في هذا الموت اليسير، فمن باب أحرى في الموت الذي لا رجوع فيه إلى هذا العالم الدنيوي. فالمؤمن كَيِّس حَذِر فَطِن. فإن عقلتَ تنبَّهتَ وإن تنبَّهتَ، وعملتَ أفلحتَ.

= عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء إلانزل فيه من ذلك الوباء. وزاد في رواية: قال الليث: فالأعاجم عندنا يتقون ذلك في كانون الأول.

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٤٢.

وأما قولنا: هل ذلك لحكمة تعرف أم لا؟ فإن قلنا: تعرف بالنص عليها فلم يأت في ذلك شيء، فيما أعلم. وإن قلنا بالاستقراء من النظر في حكمة الحكيم، وكيف رتب هذا الوجود، وجدنا لذلك أثراً من الحكمة ظاهراً. وذلك لوجهين من الحكمة:

(أحدهما) أن الله سبحانه قد جعل حضور الشيطان ووسواسه إنما يكون مع الغفلة، كما أن حضور الملائكة وكثرتهم إنما تكون مع العبادة والحضور والاشتغال بما يرضي الله تعالى. فلما كان أول الليل الغالب على الناس فيه الغفلة والنوم، وكذلك جميع الليل هذا الغالب فيه. لكن أوله في ذلك أكثر، لأن الناس قد فرغوا إذ ذاك من تسبباتهم وكدّهم فيها. ولذلك جاء في الصلاة التي بين العشاءين من كثرة الأجر ما فيها، وسمّيت صلاة الأوابين لكونه وقت غفلة، فلما اشتغل هذا بالعبادة في ذلك الوقت عظم أجره.

و(وجه آخر) وهو أنه لما أراد الحق سبحانه بمقتضى حكمته خلق الثقلين ـ وهما الجن والإنس ـ وجعل الليل والنهار، فخصّ الإنس بكثرة الانتشار بالنهار، وخص الجن بكثرة الانتشار بالليل ليكون لكل فريق وقت يستريح فيه، كل بحسب حاله. حكمة حكيم.

وهنا إشارة: وهو أنه لا تُخشى شدة الأمور إلا عند أوائلها من خير أو ضده، فلما كان الليل وقت غفلة ونوم، وزيادة انتشار الشياطين فيه الذين هم عون على ذلك، تجد النفوس تلك الوحشة عند أوله، وأكثر ما يجد ذلك المرضى، لأنه إذا قرب الليل يزداد عليهم المرض والغم. ولما كان الصبح أول النهار الذي هو السعي، وتكثر في ذلك الوقت الملائكة، لأن الحفظة يجتمعون في ذلك الوقت حفظة الليل والنهار تجد النفوس إذ ذاك نشاطاً وانشراحاً، وأكثر ما يجد ذلك المرضى في الغالب منهم. تدبير مدبر حكيم.

وأما قولنا: هل ما أمر به من التحرز على الصبيان من الانتشار ذلك الوقت؟ وذلك[1] أنه لما كان الصبيان ذوي عقول ضعيفة، ليست تحتمل التخيلات، ومن الشياطين من يتشكل في صورة مفزعة، فقد يراها الصبيان مع ضعف عقولهم، فيخاف عليهم من أجل ذلك أن يقع في عقولهم أو أبدانهم خلل، وفي هذا دليل للقول بسد الذريعة.

وفيه دليل على أن ينظر لكل إنسان بحسب حاله. يؤخذ ذلك من أنه لما كانت عقول الصبيان كما ذكرنا، وهم لا يعقلون الوصية غالباً، أمر أولياءهم أن يمنعوهم من التصرف.

---

(١) الصواب: فذلك.

وفيه رد على أهل الطب الذين يقولون: إن جسداً لا يدخل في جسد، وأن ما يظهر من صاحب الجنون إنما هو خلط تَحرَّك عليه.

وفيه دليل على نصحه ﷺ لأمته. يؤخذ ذلك من كونه، عليه الصلاة والسلام، لم يغفل عن حق صغير ولا كبير، ولا مال ولا شيء من الأشياء، إلا نبّه ﷺ على المصلحة فيه، كما أمر العقلاء أن يحبسوا النفس من أجل ضعفها عن كثير من تصرفاتها. وأشد ما أمر في ذلك عند أول الغفلة أو الشهوة، لأن كليهما ظلمة تغلب على الباطن، ولهذا قال ﷺ (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[1]، وكما قيل أيضاً: عقلك عند أوائل الأمور فَجَرّبْه، فإن نجح سعيه وإلا فأنت سفيه.

وأما قولنا: هل يتعدى إلى غير الصبيان؟ فإن حكمنا بترك العلة التي ذكرناها هنا، فمن وجدناها فيه عدينا الحكم. وقد رأيت بعض المباركين كان لايحتمل أن يقعد وحده، لأنه كان يذكر أنه إذا كان وحده تتراءى له الجن، وما كان يحتمل رؤيتهم، فلا تراه أبداً وحده ويحرص ولو أن يكون معه صغير.

وأما قولنا: ما الحكمة في الأمر بذكر الله تعالى عند فعل تلك الأفعال المأمور بها؟ فقد ذكرناه عند قوله عليه الصلاة والسلام: (ولو أن تَعْرِضَ عليه شيئاً).

لكن بقي فيه بحث وهو أنه لا يخاطب بحال التحقيق إلا أهله، وأما الغير فيحملون على مقتضى الحكمة. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (واذكر اسم الله).

وفيه دليل على بركة هذا الاسم الجليل الذي جعل ذكره لكل طالبِ خيرٍ فيه يناله، ولدافع كل شر فيه يدفعه.

وفيه إشارة إلى ألاّ يخلّ أهل الحكمة بشيء من الحقيقة، وإن لم يعرفوها، وتمزج لهم بشيء من الحكمة من أجل ألا تفوتهم بركتها، وبهذا نطق التنزيل بقوله عزّ وجلّ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ؟ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؟[2] من أجل أن يعلموا الحكمة، ويتفكروا في حقيقة الأمر ما هو؟ ومثله فعل سيّدنا ﷺ حين قال لهم في تذكير النخل (ما أراه يجدي شيئاً) فتركوا التذكير. فلما جاءت السنة غير طيبة قالوا له: أنت أمرتنا بألا نذكّر، فأبقاهم على مقتضى الحكمة بأن قال لهم (أنتم أعرف بأمور دنياكم، وما أخبرتكم به عن الله فصدقوني فيه)[3] أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان ٦٣ و٦٤.

(٣) رواه مسلم عن طلحة بن عبيد الله في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله ﷺ شرعاً دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي رقم /٢٣٦١/ وفي ألفاظه: فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئاً.

فكان معنى قوله عليه الصلاة والسلام: (لا أراه يجدي شيئاً) في حقيقة الأمر، لا كما في زعمكم، لأن التذكير للنخل سبب من الأسباب، والله، عزّ وجلّ، يخلق عنده ما شاء إن شاء، وإلا فلا فائدة له، وكم سنة يذكّرونها وتفسد، ولا يجيء منها شيء، ولا يقولون شيئاً ويقولون: قدر الله، لأنهم علموا الحكمة الجارية عندهم، فلم ينتقدوا على القدرة، وسلموا الأمر لصاحبه. فلما كانت هذه السنة من السنين التي قدّر الله، عزّ وجلّ، أن يفسد فيها النخل، ولم يعملوا عادتهم من حكمة التذكير نسبوا ذلك لكونهم تركوا تلك العادة، فعذرهم لكونهم لم يفهموا عنه، وأضرب لهم عن الأخذ بالحقيقة شفقة على إيمانهم، وردهم إلى أثر الحكمة فلو كانت تلك السنة تجيء طيبة ما بقي أحد منهم يلتفت لحكمة التذكير، فكان يؤول الأمر بهم إلى تضييع أثر حكمة الحكيم. والشريعة ما جاءت إلا بالجمع بين أثر الحكمة والقدرة، وهي الحقيقة كما بينت في غير ما موضع من الكتاب.

وفيه إشارة صوفية، لأن أهل التصوف يقولون: أنت سفينة الوجود، وسفينة نوح، عليه الصلاة والسلام، كان إجراؤها وإرساؤها كما أخبر الحق سبحانه في كتابه بقوله ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾[1]. وقد أرشدت الشريعة المحمدية أن يكون جميع تحركاتك وسكونك بذكر الله تعالى، وتفتح بسم الله، فمنها عند نومك تقول بسم الله، وعند يقظتك كذلك، وعند أكلك وشربك، وخروجك من منزلك ودخولك فيه، ولباس ثوبك وتجريده، وكذلك عند استفتاح كلامك بذكر الله أيضاً، وعند نكاحك، وعند سفرك، وعند إيابك إلى أهلك، وعند قعودك وقيامك كذلك.

فإن كنت في حالك محمّدياً أرست سفينتك على جوديّ السلامة، وإن تخلفت عنه لم يكن لك عاصم من أمر الله، وغرقت في طوفان المهالك، ولم تشعر أنك هالك. فتيقظ من سكرة هواك تجد روحك في قارورة شهواتك غارقاً في فضلة معاصيك.

ذكر أن ابن نوح، عليه الصلاة والسلام، حين تخلف عن ركوب السفينة اتخذ قارورة من زجاج قدر ما تحمله وصعد على الجبل، فلما بلغه الماء دخل فيها وأغلقها على نفسه، فأرسل الله عليه إدرار البول حتى مات غريقاً فيه. فاكسِرْها بحجر عزيمة التوبة، وناد بلسان حالك: أنقذني يا منقذ الغرقى فإني ذاهب. لعل حنين صوت اضطرارك يشفع فيك ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[2]؟

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة هود، من الآية ٤١.

(٢) سورة النمل، من الآية ٦٢.

ـ ١٧٨ ـ

حديث فضائل رمضان

عَن أَبي هُرَيرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: إذا دَخلَ رَمضانُ فُتِّحَت أبوابُ الجنَّةِ، وغُلِّقَت أبوابُ جَهَنَّمَ، وَسُلسِلَتِ الشَّياطينُ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بهذه الثلاثة أحكام، وهي: فتح أبواب السماء، وغلق أبواب جهنم، وتسلسل الشياطين عند دخول رمضان. والكلام عليه من وجوه:

منها: الدليل على فضل هذا الشهر. يؤخذ ذلك من كونه خُص بهذه الأشياء على غيره، وقد جاءت زيادة في حديث آخر (وزخرفت الجنان)(١).

وفيه دليل على أن ذلك العالم له بقدرة الله تعالى تأثير في هذا العالم. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (وغلّقت أبواب جهنّم) فلولا أن ذلك العالم له تأثير بمقتضى الحكمة في هذا العالم لما غلقت أبواب جهنم.

وهنا بحث، وهو أن يقال: لم قال (جهنم) ولم يقل غيرها من أسماء النار، لأن النار لها سبعة أسماء، أولها جهنم(٢)؟

فالجواب: أنه لما كانت هذه خاصة للمؤمنين من جميع طبقات النيران خصت بالغلق، والكَفُّ عَمَّ المؤمنين، لأنهم الذين خُصّوا بصوم هذا الشهر دون غيرهم.

وفيه دليل على عظيم القدرة أيضاً. يؤخذ ذلك من إخباره، عليه الصلاة والسلام، أن السماء لها أبواب تفتح وتغلق.

---

(١) جاء ذلك في أحاديث واهية يشد بعضها بعضاً ذكرها المنذري في الترغيب في صيام رمضان، والتي منها أن الجنة لتُبَخَّرُ وتُزَيَّن من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان، وعزاه لأبي الشيخ والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النار سبع درجات، أعلاها جهنم ثم يأتي دونها سقر، ثم لظى، ثم الحُطَمَة، ثم السعير، ثم الجحيم وأسفلها الهاوية..

وفيه دليل على أن كثرة فتح أبواب السماء دالة على خير الأرض. وقد أخبر عزّ وجلّ، بما يدل على ذلك في كتابه حيث قال ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] ولا تفتح أبواب السماء إلا لمن يُرحَم ويُدخَل الجنة، ومن غلقت دونه فلا يُرحَم ويُدخل الجنة.

وهنا بحث، هل ذلك لكل الصائمين أو ذلك مخصوص؟ فظاهر اللفظ يقتضي العموم، والأخبار تخصصه، منها قوله عليه الصلاة والسلام: (رُبّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش)[2]. فمن ليس له من صومه إلا هذا الشقاء، ولا يقبل منه، كيف تفتح له أبواب السماء؟

وهنا بحث في قوله عليه الصلاة والسلام: (وغلقت أبواب جهنم) هل ذلك حساً أو معنى؟ ومعنى (حساً) غلقها في ذاتها. وبالمعنى: أي منع ببركة الصوم عن الطريق التي تبلغه إلى جهنم. أو (لمجموعهما) وهو الأظهر، بدليل أنه قد جاء (يا مالك: أغلقْ أبواب جهنم)[3] فهذا حساً. وقد جاء في الصوم (أنّه وِجاء)[4] أي أنه يمنع من الفاحشة وهي الزنى. وقد قال جلّ جلاله ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[5] فذكر العلماءُ أن الصبر هو الصوم لأنه عون على العبادة. فصح ما قلناه أنه لمجموعهما وهو الأظهر.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (وسلسلت الشياطين) هل هو على عمومه أم لا؟ فاللفظ عام، وقد جاء مخصَّصاً في حديث آخر (وصفدت مردة الشياطين)[6]. وهل هذا عن كل الناس عموماً أم لا؟ الظاهر العموم، وليس كذلك، بدليل قول مولانا جلّ جلاله ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾[7] فمن

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٤٠.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) قطعة من حديث طويل رواه ابن حبان في كتاب الثواب والبيهقي واللفظ له، وأوله: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن الجنة لَتُنجَّد وتزيّن من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان. ومن جملة الحديث: يقول الله عزّ وجلّ: يا رضوان افتح أبواب الجنان، ويا مالك أغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة أحمد، ويا جبرائيل اهبط إلى الأرض فاصفِد مردة الشياطين إلخ...

(٤) قطعة من حديث مطلعه: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج إلخ... متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٤٥.

(٦) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه ابن خزيمة عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن. وقال ابن خزيمة: الشياطين مردة الجن ـ بغير واو ـ وغلّقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتّحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصِرْ، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة.

(٧) سورة الأنعام، من الآية ١١٢ وقبلها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾.

هو شيطان في نفسه كيف يمنع منه شيطان؟ ولذلك إذا دخل رمضان مَن كان مثلاً مَكّاساً وبقي على مَكْسه، أو ظالماً بقي على ظلمه، لم يدخل في هؤلاء، بل هو من جملة الشياطين. أليس قد قال عليه الصلاة والسلام: (فإن سبَّك أو شتمك فقل: إني صائم)[1]؟ أو كما قال. فمن لا يَحتَرِم لا يُحتَرَم. فمن أجل إطلاق بعض الناس هذه الأحاديث على عمومها وقع لهم الاغترار، ولكن ينبغي أن يقيم الشخص لسان العلم على نفسه حتى يعرف من أي الفريقين هو؟

وفيه دليل على أن شيطان الإنس ملازم لا يزول، لأنه لا يسلسل.

وفيه دليل على أن الشياطين لهم أبدان محسوسة. يؤخذ ذلك من قوله (وسلسلت) فإن السلسلة لا تكون إلا في جسم جوهر كثيف.

وفيه دليل على أن الأعمال هي التي تَرفَع صاحبَها أو تَضَعُه. يؤخذ ذلك من كون أهل الصوم يُعتَنَى بهم هذا الاعتناء العظيم. وقد جاء أنه مَنْ أكثر الصوم ضُيّقت عليه النار، أي أنه لا يدخلها، وقد قيل: إن أردتِ عِزّاً يا نفسُ فبالتّقى فاعتَزّي، وإلا فأيقني بحقيقة الذل. ولذلك كان أهل العلامات الحميدة حالهم في الدارين حميد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



---

(١) رواه الستة عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث قدسي أوله: كل عمل ابن آدم يضاعَف؛ الحسنةُ بعَشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. . إلخ. . .

ـ ١٧٩ ـ

حديث من أتى أهله فليُسمِّ الله

عَنِ ابنِ عبَّاسٍ، رضي الله عَنهما، قالَ: قال رسُولُ الله ﷺ: لو أنَّ أحدكُم إذا أتى أهلَهُ قالَ: اللَّهُمَّ جَنِّبني الشَّيطانَ، وَجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رزقتني. فإن كان بينهُما ولدٌ لم يضرَّه الشَّيطانُ، وَلَم يُسَلَّط علَيه[1].

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بأن المرء إذا أتى أهله وقال: جنّبني الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتَني، فإن كان بينهما ولد لم يضرّه الشيطان ولم يسلَّط عليه. والكلام عليه من وجوه:

منها: أنه قد جاء في الحديث قبله بزيادة التسمية، وقوله (اللّهم). وهنا ليس فيه التسمية مذكورة، فيحتمل أن يكون سكت عن التسمية لكونها قد تقرر الأمر بها مطلقاً ومقيداً. ويحتمل أن يكون جاءه هذا بلا تسمية ولا قولة (اللّهم) تحقيقاً لغفلة بعض الناس عند ذلك الحال لغلبة الشهوة عليهم، فيكون ذلك الحديث أكمل في الفعل، ويكون هذا: المجزىء، ولا أقل من ذلك.

ويحتمل أن يكون هذا لحديث لمن نسي التسمية حتى أولج فيكون هذا اللفظ مجزياً عنه، ويحصل به المقصود من بركة الاتباع كما قال علماؤنا، رحمة الله عليهم، فيمن نسي التعوذ عند قضاء الحاجة حتى شرع في الفعل أنه يتعوذ إذ ذاك بقوله (أعوذ بك من الخُبُث والخبائِث) تنزيهاً لاسم الله تعالى أن يذكر في ذلك المحل، وتحفظاً على الأتباع أن يتركوه حين استيقظوا إليه. فهذا مثله. والله أعلم.

وفيه دليل على أن من أدب الشريعة الكناية عن الأشياء التي يستحىٰ منها وإن كانت مما أبيحت. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (أتى) لأنه كَنَى عن ذلك الأمر بالإتيان.

---

(١) راجع الحديث ١٦٨.

وفيه دليل على أن لفظ (الولد) يقع على الذكر والأنثى. وقد اختلف العلماء فيمن حبس[١] شيئاً على ولده وولد ولده، هل يدخل في الحبس أولاد البنات أم لا؟ على قولين. وفي هذا الحديث حجة للذين قالوا بدخولهم في الحبس. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (فإن كان بينهما ولد).

وأما قوله (جنبني الشيطان) فمعناه أنه لا ينكح معه، فإنه قد جاء أن المرء إذا نكح ولم يذكر الله تعالى عند ذلك أن الشيطان ينكح معه، كما أنه إذا أكل أو شرب ولم يسمّ الله أكل الشيطان معه وشرب.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: (ما رزقتني) فيه دليل على أن الأولاد من جملة ما ينعم الله تعالى به على بني آدم، لأنه، عليه الصلاة والسلام، جعلهم من جملة مايرزقون بقوله (رزقتني).

وفيه دليل على أن حقيقة تأثير الأسباب إنما هو بالقدرة لا بذواتها. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (فإن كان بينهما ولد) وقد لا يكون، مع أن السبب الذي هو النكاح واقع، فالسبب لا يؤثر إلا عند إرادة القادر، وإلا لم يكن شيء. وهذا مشاهَد في عالم الحس، لأن المرء يجامع أهله مراراً ولا يُرْزَق مولوداً، وقد يكون ذلك الفعل مرة واحدة ويوجد معه الولد. فحقيقة التأثير هو بالقدرة. وهذا حكم متعد في الأشياء كلها، لا يقصر على هذا الموضع وحده. فالأسباب أثر الحكمة، والتأثير بها أثر حقيقة القدرة. فإخفاء القدرة في أثر الحكمة من عظيم القدرة، ليضل من يشاء ويهدي من يشاء. حكمة بالغة.

وهنا بحث، وهو أن يقال: لم قال (بينهما) ولم يقل: كان لهما أو غير ذلك؟ فيه وجوه:

منها: أن يكون المعنى بينهما مما خرج منهما من الماءَيْن، فإنه قد جاء أن العظام والعصب من ماء الرجل، وأن اللحم والشعر والجلد من ماء المرأة.

ووجه آخر ـ وهو تنبيه لطيف ـ وهو أن حقيقة الخلق الذي فيه، وتنويع خلقه من كبد وقلب ومصران وجوارح على ما هي عليه هذه الصورة الآدمية من الترتيب البديع ليس ذلك من الماء الذي خرج، أين الشبه الذي بينهما؟ وإنما هو بقدرة القادر الذي جعل من تلك المنطقة اليسيرة أنواعاً مختلفة كما قال تعالى في ثمر الشجرة ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾[٢] معناه حين ينتهي طيبه أين التشابه بين عود الثمر من الحلاوة التي في ثمرها أو الحموضة أو الحمرة أو الصفرة أو

---

(١) حَبَس الشيء: وَقَفَه لا يُباع ولا يُورث، وإنما تملك غَلَّته ومنفعته. ووزارات الأوقاف تسمّى في بلاد شمال إفريقية: وزارات الحُبُوس أو الأحباس.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ٩٩.

السَّواد أو الخضرة أو غير ذلك من الألوان والعود كله على حدٍّ واحد في اللون والطعم، والثمر مختلف ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى الروح والحياة اللتين هما حقيقة الإنسان. إن ذلك ليس منهما لا من طريق أصل ولا فرع، وإنما هو مما جعله القادر فيما خلق مما كان بينهما، وكذلك قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[2] يعني عند نفخ الروح جاء خلقاً آخر، ليس من جملة تلك التطويرات التي كان بعضها أصلاً لبعض، بل هذا خلق آخر بقدرة قادر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3].

يؤيده قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[4] أي هي من أمر الله تعالى لأي سبب، وإن كان الغالب في الأشياء أنها موجودة عن الأسباب. فكل ذلك إنما هو صادر عن قدرة الله تعالى كما تقدم البحث قبل، لكن هذا بالقدرة الظاهرة دون سائر الحكمة، ولا يحيط بعلمها إلا مخترعها جلّ جلاله.

واحتمل أن يكون هنا الإشارة إلى خلق النفس على قول من يقول: إن النفس شيء والروح شيء آخر، لأنه قد ذكر العلماء القائلون بهذا: أن النفس خَلْق مجسَّد مثل خلق بني آدم، لها يدان ورجلان وعينان وجوارح مثل بني آدم سواء بسواء، وأنها من العالم اللطيف، وأنها نزلت في جسد بني آدم فتكون جسداً لطيفاً، أُلبِسَ عليها جسد كثيف وهي الفخارة[5] التي خلقت من ذلك الماء المعيَّن، وهي - أعني النفس - التي أعطيت الميز والفهم، وهي التي تتنعم وتتألم وتفرح وتحزن إلى غير ذلك مما يشبه هذه المعاني، وإنما الروح لحياة الجسد ليس إلا، ولا تفهم ولا تتنعم ولا تفرح ولا تحزن. وأما النفس فإنها من العالم الذي لا يفنى، وأنها تبقى في القبر مع الجسد، وقد يفنى الجسد إلا عَجْبَ الذَّنَب[6] وهي لا تفنى، ولم يذكر أحد أنها مخلوقة من الماء المذكور، وإنما هي بقدرة الله تعالى كما ذكر من العالم الروحاني. فسبحان مَن هذه بعض آثار قدرته التي قد حارت فيها العقول.

---

(١) سورة الرعد، من الآية ٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآيات ١٢ - ١٤.
(٣) سورة الشورى، من الآية ١١.
(٤) سورة الإسراء، من الآية ٨٥.
(٥) الفخّارة: هيكل الإنسان قبل نفخ الروح فيه. (انظر الحديث ١٦١).
(٦) عَجْبُ الذَّنَب: الجزء الصغير في أصل الذنب عند رأس العُصْعُص.

واحتمل مجموع ما ذكر.

وفي هذه العبارة أكبر دليل على ما خص به سيّدنا ﷺ من الفصاحة والإعجاز في كلامه، لكونه أتى بلفظة تحتوي على جميع ما ذكرنا وزيادة على ذلك إذا أُمْعَنَ فيها النظر.

وفيه دليل أعني في هذه اللفظة وما تحوي أن العلم الذي هو الفهم لحديثه ﷺ وما فيه من الفوائد أنه من جملة مواهب الله تعالى لمن يشاء. يشهد لذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. قال العلماء: إنه الفهم في كتاب الله تعالى، وكذلك حديثه ﷺ لأنه كله من الله، وعن الله، إما بالواسطة أو بالإلهام. وقد تقدم الكلام على هذا في أول الكتاب.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه) هل هاتان اللفظتان بمعنى واحد أو هما لمعنيين؟ احتمل. لكن الذي استُقرِىء من الشريعة أنهما لمعنيين: (أحدهما) أنه قد أخبر الصادق ﷺ بما معناه (ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته)[1] فذلك هو الضرر المشار إليه هنا والله أعلم. وأما (التسليط) فهو ما ذكره الله، عزّ وجلّ، في كتابه حيث يقول ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[2] وما جعل، عزّ وجلّ، له من التسويل والإغواء لبني آدم لقوله تعالى ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾[3] فهذا هو معنى الإشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: (ولم يسلط عليه) أي لم يكن يقدر على ضرره عند الولادة بأن يطعن في خاصرته، ولا يقدر على ضرره بالإغواء والتسويل، كما ذكرنا، ويكون ممن يدخل تحت قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[4].

وفيه دليل للأخذ بسد الذريعة. يؤخذ ذلك من قوله (وجنب الشيطان ما رزقتني) ذريعة أن يكون لهما ولد، وقد لا يكون، فما بقي القول إلا احتياطاً من أجل توقع. فهذا هو سد الذريعة بعينه.

وفيه دليل على أن الحكم بالشرع يعطى للغالب. يؤخذ ذلك من أمره ﷺ بهذا عموماً. ومن الناس من يكون عقيماً لا يولد له، فلما كان العقيم نادراً لم يُجعل له حُكم.

---

(١) تقدم تخريجه في الحديث ١٦٨.
(٢) سورة الإسراء، من الآية ٦٤.
(٣) سورة الأعراف، من الآية ١٧.
(٤) سورة الحجر، من الآية ٤٢.

وفيه من الفقه: أن الأصل إذا كان طيباً جاء الفرع طيباً. يؤخذ ذلك من أنه إذا كان الأب طيّباً باتّباعه السنّة، وفعل في هذا الموضع ما أحكمته السنة، وامتثل الأمر جاء الفرع ـ وهو الابن ـ من أهل الخصوص كما أبديناه آنفاً[1].

وفيه دليل على أن الخير كله إنما هو في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. يؤخذ ذلك من أنه من لم يعرف الكتاب والسنة لم يعرف مثل هذا الخير وما فيه، وكان نكاحه بهيمياً شهوةً ليس إلاّ، وكذلك في جميع أمره

وفيه من الفقه: أن فضيلة العلم إنما تكمل بالعمل، لأنه، عليه الصلاة والسلام قال (إذا أتى أهله) ولم يقل (اعلم).

رزقنا الله فهم كتابه وسنة نبيه ﷺ والعمل بذلك بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) هذا في الأعم الأغلب بدليل أن ابن نوح ووالد إبراهيم آزر كانا كفرة.

ـ ١٨٠ ـ

حديث هروب الشيطان عند النداء للصلاة

عَن أبي هُرَيرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: إذا نُودي بالصَّلاةِ أدبرَ الشَّيطانُ وَلهُ ضُراط، فإذا قُضيَ أقبلَ، فإذا ثُوِّبَ[١] بِها أدبرَ، فإذا قُضِيَ أقبلَ، حَتَّى يَخطُر بَينَ الإنسانِ وقَلبِهِ، فَيقولُ: اذكُر كَذا وَكذا، حَتَّى لا يَدري أثلاثاً صَلَّى أم أربَعاً. فإذا لَم يَدرِ أثلاثاً صَلَّى أم أربعاً سَجَدَ سَجدتَي السَّهوِ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بهروب الشيطان من النداء بالصلاة وله ضراط، وهروبه أيضاً كذلك من التثويب بها ـ وهو إقامتها ـ لكن بغير ضراط، وإقباله بعد، ورجوعه إلى المصلي حتى يوسوسه. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يُقال: ما الحكمة في هروبه عند الأذان والإقامة، وعدم هروبه عند الدخول في الصلاة والتلبّس بها، وهي أعظم من الأذان والإقامة، فإن الصلاة فرض، وأما الإقامة فليست بفرض. والأذان فيه ما هو فرض، وفيه ما هو سنة، وفيه ما هو مستحب، على ما نبينه في موضعه من الكتاب إن شاء الله تعالى، ورجوعه إلى المصلي: هل ذلك على عمومه في كل مصلّ أم لا؟ وما الحكمة في ضراطه عند الأذان؟ وهل تركه ذلك في الإقامة، لأنه لا يكون منه ذلك عند الهروب منه؟ وسكت عنه لما تقدم ذكره عند الأذان قبل.

فأما الجواب على: ما الحكمة في كونه يهرب من النداء والإقامة ولا يهرب من الصلاة التي هي أرفع؟ وذلك[٢] أن فريضة الأذان وفائدته الإخبار بدخول وقت الصلاة، بذكر تلك الألفاظ المأمور بها، ولذلك يجوز على طهارة وعلى غير طهارة. فلما وفينا ما أمرنا به لم يطق الشيطان

---

(١) ثـوَّب الرجل بالصلاة: دعا إلى إقامتها.

(٢) يريد: فذلك.

حمل ذلك، لأن توفية الأمر على ما أمر به تقطع ظهره، والصلاة من مشروعيتها التوجه والإخلاص والحضور كما قال ﷺ (إن الله لا يقبل عمل امرىء حتى يكون قلبه مع جوارحه)[1]. وقد ورد في الأذان: أن المؤذن له من الأجر بقدر مدّ صوته[2]، على ما بيناه في موضعه قبل. وقال في الصلاة: يكتب له نصفها، ربعها، إلى عشرها[3]. وورد (إذا لم يؤت بها على وجهها تطوى مثل الثوب الخَلَق، ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول له: ضيعتني ضيَّعك الله)[4] أو كما ورد.

فلعدم توفية الشروط التي طلبت منا في الصلاة وجد الشيطان طريقاً إلى الدخول لصاحبها. فلو وفَى ما طلب منه فيها ما قربه شيطان، وكذلك سائر الأعمال من وفى بها دخل في حزب المفلحين الذين لم يكن للشيطان عليهم سلطان لقوله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[5].

وأما قولنا: هل ذلك على العموم لكل مصل أم لا؟ فظاهر الحديث محتمل، وما قدمناه من قوله جلَّ جلاله ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ يخصص ذلك - وهو الحق - فإنه من لم يكن له عليه سلطان كيف يقربه في صلاة أو غيرها؟ هذا محال لا يعقل.

وأما الحكمة في ضراطه احتمل - والله أعلم - وجوهاً:

منها: أنه لا يحمله حتى تنحل قواه، فتسترخي حواسه ومفاصله، فيخرج منه الريح بغير اختياره، كما حكي عن فرعون أنه لما رأى الآية في عصا موسى، عليه الصلاة والسلام، حين رجعت حية ولى هارباً وبطنه قد انطلق، وغائطه يَسيل لا يقدر أن يَملك ذلك من نفسه. وكثيراً ما

---

(١) قطعة من حديث رواه النسائي عن أبي أمامة رضي الله عنه بإسناد حسن: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال: لا شيء له، فأعادها ثلاث مرات يقول: لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به أجره.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي سعيد مرفوعاً بلفظ: فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة. وفي رواية لأبي داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: المؤذن يغفر له مدى صوته، ويشهد له كل رطب ويابس. والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة.

(٣) رواه النسائي عن أبي اليسر رضي الله عنه بلفظ: منكم من يصلي الصلاة كاملة، ومنكم من يصلي النصف والثلث والربع والخمس حتى بلغ العشر. وإسناده حسن.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط وضعفه المنذري عن أنس رضي الله عنه بلفظ: من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بيضاء ومسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلاها لغير وقتها، ولم يسبغ لها وضوءها، ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيّعك الله كما ضيّعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفّت كما يلف الثوب الخلق ثم ضرب بها وجهه.

(٥) سورة الحجر، من الآية ٤٢.

يوجد ذلك من بعض الضعفاء لكثرة فزعهم، وقد يكون من سوء طبع اللعين أن يقابل الشيء بضده، كونه يسمع الأذان الذي هو دليل على الصلاة، وهي مبنية على الطهارة لقوله عليه الصلاة والسلام: (الطّهور شطر الإيمان)[١]، فيكثر من الضد وهو نقض الطهارة.

وقد يكون لوجه آخر وهو: أن يشغل سمعه عن الأذان بذلك الفعل الذميم، كما أخبر، عزّ وجلّ، في كتابه عن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن يصفقون بأيديهم وأقدامهم، وهو قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[٢] واحتمل مجموعها.

وأما قولنا: لِمَ لم يذكر ذلك الفعل عند الإقامة؟ هل لعدم وقوعه في ذلك الوقت، أو اختصره لكونه ﷺ ذكره مع الأذان؟ احتمل الوجهين ـ والله أعلم ـ لكن الأظهر أنه بغير ضراط، وهو أن الأذان أكثر ألفاظاً لأنه مثنى كله وبعضه مربع. والإقامة مفردة، وبعضها مثنى. فلزيادة تكرار الألفاظ المباركة يكون فيه زيادة في المخالفة. وأيضاً فلأن فائدة الأذان أكثر، فإنه إعلامٌ بالوقت، ويسمعه من هو حاضر ومن هو بالبعد، وهو أعلى صوتاً، وهو يدعو الناس كلهم إلى الطاعة. والإقامة إنما هي للحاضرين أن يتأهبوا للدخول في الصلاة، ولا يتعدى إلى غيرهم، فكانت عليه أخف، فإنه كلما كانت الطاعة أكثر كان عليه الأمر أشد.

يؤيد ذلك ما أخبر عنه الصادق ﷺ، (أنه لم ير أحقر منه ولا أذل في يوم عرفة يحثي التراب على رأسه)[٣] أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وذلك لما في تلك الطاعة في ذلك الوقت من الترفيع والخير، فيلحقه بتلك النسبة ذلك التحقير والهوان.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (حتى يخطر بين الإنسان وقلبه) أي أنه يشغل قلبه، فإن مدار الإنسان على قلبه، فإذا اشتغل قلبه بالوسواس فكأنه حال بينه وبين قلبه، لأن القلب لا يراد لذاته الصنوبرية، وإنما يراد لحضوره عند فعله ما تُعُبِّدَ به، ليوفّي ما عليه في ذلك.

وفيه دليل على ملازمته لبني آدم حتى يعلم كل ما يتصرفون فيه، ويجري عليهم. يؤخذ ذلك

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه وهو حديث طويل أوله: الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض إلى اخر الحديث.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٣٥.

(٣) جمع المؤلف حديثين وركّبهما وصنع منهما واحداً. الحديث الأول رواه مالك والبيهقي مُرسلاً عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال: ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة إلخ... والحديث الثاني رواه ابن ماجه والبيهقي عن العباس بن مرداس وفيه أن عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب فجعل يحثو على رأسه ويدعو بالويل والثبور إلخ..

من قوله: (اذكر كذا)، لأنه لا يذكّره إلا بشيء قد وقع ونسيه الآدمي. والعدو اللعين قد كان عرفه، ولا يكون ذلك إلا لمن هو معك ملازم لك.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى الذي هذا خَلْقُهُ، يقدر أن يصل إلى قلوبنا ونحن لا نعلم به. وفي هذا دليل على أن المولى سبحانه لا تدركه العقول، ولا يتحيز ولا يشبهه شيء. يؤخذ ذلك من أن هذا خَلْق من خَلْقه مُدرَك، وتراه يصل إلى قلوبنا ونحن بعقولنا وإدراكاتنا وجميع حواسنا، ولا نعلم به، ونجد أثر وصوله، ولا نحسُّ بذاته ولا نشعر بها. فكيف يطمع أحد أن يعرف أو يصل إلى مَن هذا بعضُ مخلوقاته؟ وبالقطع إن الصنعة لا تُشبِه صانعها.

وفيه دليل على أن ميل النفس بالسرعة إلى ما تعرفه أكثر مما لا تعرفه. يؤخذ ذلك من قوله (اذكر كذا). فلولا علمها بذلك لكان يقول: ألا تعلمين ما يكون في كذا؟ لأمرٍ لا تعلمه. فقد لا يحصل منها ذلك الميل الكلّي الذي يذهلها عن الصلاة، فلمعرفته بها أخذها من الوجه الذي هو أقرب لفائدته.

وقد روي عن بعض أهل الفقه ـ وكان ممن ينتفع الناس به في دنياهم وآخرتهم، لما منّ الله به عليه من العلم والنباهة ـ أنه ضاع لبعض التجار صرة دراهم لا يدري أين رفعها؟ فحزن لذلك. فقيل له: ليس لك إلا ذلك السيّد. فلما جاءه وأخبره بحاله، أمره ذلك السيّد بأن يصلي ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء، ويأتيه ويخبره، بمالِهِ أين هو؟ فلما سلَّم وأتى الشيخ قال له الشيخ: تذكرتَ مالَكَ أين هو؟ فقام ذلك التاجر إلى ناحية في المسجد وأحرم ودخل في تلك الركعتين، فرآه الشيخ في الركعة الثانية قد خففها، فقال لإخوانه: قد تذكّر ماله أين هو؟ قال له: نعم يا سيّدي. فقال له: اذهب فخذ مالك، واشكر الله.

فرغب منه أصحابه لِمَ أمره بتلك الصلاة وأي نسبة بين الصلاة والقضيّة؟ فقال لهم: إن الشيطان أنساه أين رفع مالَه لكي يحزِنَه، ولو لوقتٍ ما من الزمان من أجل العداوة الأصلية، فأمرتهُ بالركعتين ولا يحدّث فيهما نفسه، لأنه قال ﷺ: (من صلّى ركعتين لا يحدث فيهما نفسَه دخل الجنة)[1]، فلما تلبّس بالصلاة عازماً لا يحدث فيها نفسه رأى العدوُّ أن يذكره بماله، ولا يتركه يتم عملاً يدخل به الجنة. فمن أجل ذلك أمرته بذلك.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (حتى لا يدري أثلاثاً صلّى أم أربعاً. فإذا لم يدرِ أثلاثاً صلى أم

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث عثمان رضي الله عنه ولفظه: من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه.

أربعاً سجد سجدتي السهو) ظاهر اللفظ يعطي أن سجدتي السهو تجزيه[1] عن تمام صلاته، وإن كان ما صلاّه ثلاثاً. وليس كذلك، لأنه قد جاء ذلك مفسَّراً في حديث آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا شك أحدكم في صلاته فَلْيَبْنِ على اليقين، ثم يسجد سجدتي السهو)[2] واليقين هو الأقل. وقد تعلق بعض أهل الظاهر بظاهر هذا الحديث، وما قدمناه، عليه الجمهور، وهو الحق الذي يعطيه الفقه، لأنه إذا جاءت الزيادة من العدل قبلت. ومع ذلك على هذا الذي عليه الجمهور استمرّ عمل الخلفاء والعلماء هلُمَّ جرّاً.

وهنا بحث في قوله: ثلاثاً أم أربعاً؟ هل هو مقصور على هذا الموضع، أو هو على طريق ضرب المثال إذا تردد الخاطر بين الأقل والأكثر، كان العدد ما ذكر، أو أقل من ذلك؟ الذي عليه الجمهور أنه على ضرب المثال، إذا تردد الخاطر بين الأقل والأكثر فيكون عمله على أقل العددين مما ذكر.

وفيه دليل على أنه لا يحزن العدو إلا بزيادة الطاعة. يؤخذ ذلك من الشيطان لما جاء للمصلي ليفسد عليه صلاته بتشكيكه في عدد ركعاتها أحكمت السنة بفضل الله تعالى الأمر بزيادة ركعة احتياطاً، ثم زيادة أخرى وهي سجدتا السهو، لينقلب العدو مهزوماً خائباً مما أمله. وقد بيّن ذلك ﷺ في غير هذا الحديث، حيث قال (فإنها ترغيم للشيطان)[3] يعني السجدتين اللّتين للسّهو.

وفيه دليل لأهل الصوفة لأنهم أخذوا بدوام الاشتغال وعدم الالتفات إلى حديث النفس وغيرها، لأن هذا المصلي ما طرأ عليه النسيان إلا من أجل التفاته إلى حديث العدو، وبما ذكّره به، وميله إليه. وقد ذكر عن بعضهم أنه كان في أول رياضته إذا مرّ به خاطر غير رباني ضرب نفسه بعصا أو قضيب، فلربما كان يكسر على نفسه في اليوم الواحد حزمة أو حزمتين من القضبان، حتى استقام له خاطره بدوام الإقبال على مولاه. مَنَّ الله بذلك علينا بمنّه. آمين. والحمد لله رب العالمين.

إذا كنت ملتفتاً إلى سواه	فحجابك ذلك عن أن تراه
ولن تحظى بحضرة قدسه	حتى لا ترى إلا إياه

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) الصواب: تجزيانه.

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ: إذا شكّ أحدكم في صلاته فلم يَدْرِ كم صلّى ثلاثاً أم أربعاً فليطرح الشك، وليبنِ على ما استيقن، ثم ليسجد سجدتين قبل أن يسلّم. وفي هذا المعنى عدة أحاديث رواها البيهقي وابن حبان والحاكم.

ـ ١٨١ ـ

حديث الالتفات في الصلاة

عَن عائِشةَ، رَضيَ الله عَنها، قالَت: سَألتُ النَّبيَّ ﷺ عَن التفاتِ الرَّجُلِ في الصَّلاةِ فَقالَ: هُوَ اختلاس يَختَلِسُهُ الشَّيطانُ مِن صَلاةِ أحَدكُم.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بأن التفات الرجل في صلاته نقص يأخذه الشيطان منها. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا خاص بالرجال، أو ذلك سواء للرجال والنساء؟ ولم قال: يختلسه الشيطان، ولم يعبّر بـ: يسرقه أو يغصبه أو غير ذلك مما يشبه هذه الألفاظ؟ وهل يعني بالالتفات هنا الحسيّ ليس إلا، أو الحسيّ والمعنويّ معاً، أو أيهما كان فهو خلسة؟

فالجواب عن الأول: هل هو خاص بالرجال أم لا؟ فليس خاصاً بالرجال دون النساء، بدليل أن النساء شقائق الرجال في جميع التعبدات. لكنها سألت عن الرجال لكون الرجال أكثر قوة في الدين في الغالب، فيكون من باب الإخبار بالأعلى عن الأدنى. فإذا كان ذلك في الرجال فمن باب أحرى في النساء.

وأما الجواب عن قوله (خُلسة) ولم يذكر غيرها من الألفاظ، فإن المختلس هو الذي يتخطف المال من غير غلبة ولا قوة، ويعتمد الهروب، وذلك مع معاينة المالك له. والسارق يأخذ في خفية، والظالم يأخذ بقوة. فلما كان الشيطان يَشغَل هذا عن صلاته بأن يلتفت إلى غيرها وعقله معه بلا حجة أقامها له على ذلك، أشبه المختلس الذي يأخذ الشيء بالحيلة والناس يبصرونه. ولذلك يقول يوم القيامة كما أخبر عنه في كتابه العزيز ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٢٢.

وفيه دليل: على التعبير عن المعاني بمثل ما يعبّر عن المحسوسات. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (يختلسها)، والشيطان لم يأخذ شيئاً محسوساً من صلاة المصلي، وإنما أخذ منها معنًى من معانيها في زمانٍ ما، وهو عدم حضوره حين التفاته.

وفيه دليل على أن من حصل له شيء من الأشياء حسّاً كان أو معنًى، بحيلة غير محققة، أنه يصدق عليه اسم (مختلس). يؤخذ ذلك من كون الشيطان احتال على المصلّي حتى أوقع له الخلل في صلاته، وهو مقصود العدوّ، فسمّاه سيّدنا ﷺ مختلساً.

وهنا سؤال وهو أن يُقال: لم جُعل في السهو في الركعات جَبْر، كما تقدّم في الحديث قبل، ولم يجعل لهذا الالتفات جبر؟

فالجواب ـ والله أعلم ـ لما كان شكه في عدد الركعات نسياناً من أجل ذلك احتال عليه بتذكيره ما قد كان جرى عن الأمور، والله سبحانه وتعالى قد تفضل علينا بألا يؤاخذنا بالنسيان، جعل لنا البدل مما وقع من الخلل. ولما كان هذا الالتفات بالقصد من المصلي، وعقله معه، لم يجعل له بدلاً منه، تغليظاً وتحريضاً على التزام الأدب في العبادة. ومما يشبه ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (أَسوأُ السرقةِ الذي يَسرِق صلاتَه. قالوا وكيف يَسرِق صلاتَه يا رسول الله؟ قال: لا يُتِمُّ ركوعَها ولا سجودَها)[1].

وأما قولنا: هل أراد بالالتفات الحسيِّ أو المعنويِّ أو مجموعَهما؟ فظاهر الحديث يعطي أنه الحسيُّ. وإذا كان الحسيَّ فالمعنويُّ معه لازمٌ.

وبقي الكلام على المعنوي؛ فإذا نظرنا إلى قوله ﷺ، في حديث غيره: (إن الله لا يقبل صلاة امرىء حتى يكون قلبه مع جوارحه)[2]، فيكون الالتفاتُ المعنوي مثلَ الحسيّ. ونعني بالمعنوي ما يكون في القلب من الالتفات إلى غير ما هو بسبيله، وقد قال بهذا جماعة من العلماء لأنهم يقولون: إن دوام الحضور في الصلاة فرض واجب، وهو عدم الالتفات. والجمهور على أن دوام ذلك شرط كمال، وإنما الفرض فيه في أول العمل، وآخره على قول.

وفيه دليل على أن كل ما يكون من الخلل في الصلاة أنه من تسويل الشيطان. يؤخذ ذلك من الحديث الذي قبل هذا مع هذا الحديث إذا جمع إليه، لأنه في الذي قبلُ شغله بالحديث حتى أنساه. وهنا لم يتعرض له في الحديث، فكان أصل المكيدة خفية، حتى أخبر بها الصادق ﷺ. فعلى هذا فكل ما نجد في الصلاة من خلل نعلم أنه من العدو، عَلِمْنا سبَبَه أو لم نَعلَمه.

---

(١) رواه الإمام أحمد والدارمي والبيهقي في السنن وصحّحه الحاكم في المستدرك.
(٢) تقدم الكلام عليه في الحديث ١٨٠.

وفيه دليل على ما منّ الله به على سيّدنا ﷺ، من كثرة اطلاعه على غوامض كثيرةٍ من الغيوب، ولولا ذلك ما كان، عليه الصلاة والسلام، يخبر عن مثل هذا، وأعداد من أمثاله.

وفيه دليل على كثرة لطف الله تعالى بنا. يؤخذ ذلك من إرسال هذا السيّد ﷺ رسولاً إلينا، حتى يخبرنا بهذه الفوائد كلها، حتى نعرف كيف نتحرز من عدونا؟ وكيف الخلاص من مكايده؟ جعلنا الله ممن خلّصه منها بفضله. لا رب سواه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



ـ ١٨٢ ـ

حديث الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان

عن أبي قَتادة(١)، رَضيَ اللهُ عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: (الرّؤيا الصَّالحةُ مِنَ الله، وَالحُلُمُ مِنَ الشَّيطانِ. فإذا حَلَمَ أحَدُكُم حُلْماً يَخافُهُ فلْيَبْصُق عَن يَسارِه، وَلْيَتعوَّذْ بالله مِن شَرِّها. فَإنَّها لا تَضُرُّهُ).

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: أحدهما: الإعلام بأن الرؤيا الصالحة من الله تعالى. والآخر: الإخبار بأن الحُلُم من الشيطان، وتعليم المخرج منها. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: ما معنى قوله (من الله)، وما معنى (الصالحة)، وما معنى (الحُلُم)، والكلام على كيفية الاستعاذة منها؟ وما الحكمة في البصاق عن اليسار؟

---

(١) أبو قتادة بن ربعي الأنصاري الخزرجي، فارس رسول الله ﷺ شهد أحداً وما بعدها، رُميَ في غزوة ذي قَرَد بسهم في وجهه، فتفل رسول الله ﷺ في جرحه فبرىء، وقال: خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالنا سلمة بن الأكوع. وحرس رسول الله ﷺ ليلة بدر فقال: اللهم احفظ أبا قتادة كماحفظ نبيك هذه الليلة. شهد مع علي رضي الله عنه المشاهد كلها وتوفي بالمدينة سنة ٥٤هـ.

أما قتادة بن النعمان الأنصاري فهو الذي رد النبيّ ﷺ عينه يوم أُحد حين سقطت، وكانت أحسن عينيه، وسببه أن رماة المشركين كانوا يقصدون النبيّ ﷺ بالرمي، وكان أصحابه يقف الواحد منهم بعد الآخر في وجهه يتلقى عنه يفديه بنفسه حتى قتل عشرة، وكان قتادة الحادي عشر، فلما استتم أمر الوقعة وقد سالت عينه قال له: إن لي زوجة وأنا ضنين بها محب لها، وإنها تقذرني إذا رأتني على هذه الحال، وأنا ما فعلت ما فعلت إلا لأنال الشهادة، أو كلاماً هذا معناه، فردّها ﷺ فكانت أضوأ عينيه وأحسنهما. وفي ذلك يقول ابنه حين وقد على بعض الخلفاء الأمويين وقد سأله من أنت؟ فقال:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فردَّت بكف المصطفى أحسن الردّ

وفي معركة أُحد كان قتادة هو الذي سفَّه قريشاً وشتمها، فقال له ﷺ: مَهْ يا قتادة، قريش أهل مروءة، قريش أهل كرم.. والنبي مصاب تنزف جراحه، ثم قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون فنزلت ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فأما الجواب عن قوله، عليه الصلاة والسلام: (من الله) أي هي حق لا شك فيها. لأن كل ما هو من عند الله لا شك في أنه حق، ولذلك قال ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: (الصالحة) فكل ما فيها خير فهي صالحة في غالب الحال، كما قال شعيب، عليه الصلاة والسلام، لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] أي لا ترى مني إلا شيئاً تُسرّ به، وفيه صلاح لك.

وأما قوله (الحلم) فالحلم ما فيه تهويل للنفس وتخويف، وهو على قسمين: ما فيه تهويل وتخويف على النفس، وليس يدل بوضعه على شيء يضر، ومنه ما يدل على شيء يضر. ومن أجل ذلك قال ﷺ بعد (يخافه)، ليفرق بين ما يدل على ضرر وبين ما لا يدل على ضرر، ولذلك قالوا للعزيز ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[3].

ويلزم على هذا من الفقه أن يكون الذي رأى الرؤيا عارفاً بالتعبير، وإلا قد تكون الرؤيا في نفسها مَهُولَة وهي تدل على خير. مثال ذلك أن ترى شخصاً يضرب آخر بالسوط ويوجعه ضرباً، فإن الضارب يولي للمضروب معروفاً على قدر ضربه من شدةٍ أو لِينٍ. وقد يكون بعكس معناه، فتكون حسنة في نفسها وهي تدل على ضد ذلك. مثاله أن ترى شخصاً يعمل لشخص عرساً أو وليمة ويطعمه حلاوة وطعاماً بلحم سمين، فإن مطعم الطعام يفعل بالذي أطعمه أو أفرحه شراً بقدر حسن الحلاوة وطيب اللحم. فكلما كثر الحسن في ذلك كثر القبح في الشر الذي ينال منه.

وما أراد الشارع ﷺ بالحسن وضده إلا المعنى الذي يتضمنه نفس الواقع في النوم. فوضعه في فقهِ مَنْ لا يعرف في التعبير شيئاً أن يتعوذ مما لا يعرف لها معنى، من أجل أن تكون مما تدل على مكروه. فإن كانت تدل عليه فيندفع عنه ذلك المكروه باتباعه الأمر. وهذا من باب سد الذريعة، لأن الاحتياط كله من هذا الباب، وهو الأولى.

ولا يجوز له أن يعبر الرؤيا بغير علم، لأنها من النبوة، وما كان من النبوة فلا يجوز أن يُهْزَأَ به، لأن الحكم بغير علم هزءٌ، وتجرّؤ على ما لا يجوز. ولذلك كان سيّدنا ﷺ كل يوم إذا صلى الصبح يدور بوجهه إلى الصحابة، رضوان الله عليهم، ويقول: (هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟

---

(١) سورة النساء، من الآية ٨٢.
(٢) سورة القصص، من الآية ٢٧.
(٣) سورة يوسف، من الآية ٤٤.

فمن رأى منهم شيئاً ذكره وفسَّر لهم ليعلّمهم علم التعبير)[1]، وكما قال يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾[2] يعني به علم تعبير الرؤيا.

وقد يكون من الرؤيا ما يؤلم النفس، وهو حق. فقد قال العلماء: إنه إذا كانت حقاً وامتثل الرائي ما أمر به النبيّ ﷺ فإنها لا تضره، ويصرف الله تعالى عنه ببركة السنَّة تلك الأمورَ المشوّشة، لأنه ﷺ ما بُعث إلا رحمة، وهو، عليه الصلاة والسلام، يعلم أن في الحلُم ـ وهو كل ما فيه تهويل وتشويش على النفس ـ ما هو حق، فحملها كلها، عليه الصلاة والسلام، مَحمِلاً واحداً وجعلها من الشيطان، لكون هذا هو الغالب فيها. والشريعة إذا تأمّلتَها إنما أطلقت الأحكام على الغالب في جميع الأمور، رحمة من الله تعالى وتوسعة على عبيده، فجعل المخرج من الكل واحداً، وهو الاستعاذة بالله.

وهنا بحث لطيف أيضاً في كونه ﷺ جعله ـ أعني الحلم ـ من الشيطان، لأن أصل كل ما يصيب المرء من البلاء والمحن في الغالب إنما هو مما اجترأ به الشخص على نفسه، وأن الله تعالى يقول ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[3] وقال عزّ وجلّ ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾[4]، وأصل المخالفات إنما هي وسواس الشيطان وتسويله، لأن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾[5] فقام ذكر اسم الله سبحانه في هذا الموضع مقام التوبة والاضطرار. فالتوبة تَجُبّ ما قَبلَها، والمضطر مستجاب له بمقتضى الوعد الجميل، وهو قوله تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[6] رحمة من الله تعالى ونعمة لمن قبلها. فلذلك قال عليه الصلاة والسلام: (لا تضره).

وأما الجواب عن: ما الحكمة في أن يبصق يساره؟ فلأن فيه خزياً للشيطان، لأن جانب الشمال هو مقعده. و(وجه آخر) لأن ريق المؤمن شفاء، فيه أيضاً إحراق الشيطان، لأنه لا يحمله.

---

(١) إشارة إلى حديث رواه البخاري في صفة الصلاة، وفي التهجّد، وفي البيوع، وفي التعبير، ورواه مسلم في الرؤيا من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه ومطلعه: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح أقبل علينا بوجهه فقال: هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟ إلخ...

(٢) سورة يوسف، من الآية ٣٧.

(٣) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(٤) سورة فاطر، من الآية ٤٥.

(٥) سورة البقرة، من الآية ٢٦٨.

(٦) سورة النمل، من الآية ٦٢.

فيكون بصاقة ينشأ عنه تألم الشيطان وطرد له من أجل ألا يعود إلى تخويفه ثانية. وقد تكون للمجموع وزيادة. والله أعلم.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (وليتعوذ بالله من شرها) دليل على ما قدمناه من أن المقصود من الرؤيا ما تدل عليه، لا نفس الرؤيا.

وهنا بحث وهو أن يقال: هل هذا على عمومه أم لا؟ الظاهر يعطي العموم والبحث يعطي التخصيص، لأنه إذا كان الرائي شيطاناً في نفسه فكيف يفرّ منه الشيطان؟ ومما يؤيد ما أشرنا إليه قوله (أحدكم) يعني: من هو على طريقكم الذي تقتضيه حقيقة الإيمان. فلو كان، عليه الصلاة والسلام، عنى بقوله (أحدكم) جنس بني آدم لكان الكفار والمنافقون يدخلون تحت هذا، ولا قائل به. فما بقي إلا التخصيص بأن يعني به المؤمنين، ولذلك قال، عليه الصلاة والسلام، في حديث آخر (الرؤيا الصالحة يَراها الرجل الصالح أو تُرَى له)[1].

ولا يعترض علينا ببعض مَرَاءٍ رآها بعض الكفار ورويت عنهم وخرجت حقاً. والانفصال عنه أن نقول: ذلك نادر، والنادر لا حكم له. وفيه وجه آخر وهو: أنه إذا تأملت تلك المرائي التي رئيت عن بعض الكفار إنما الفائدة فيها للمؤمنين غالباً، مثل رؤيا العزيز إنما كانت سبباً لأن يتولى يوسف، عليه الصلاة والسلام، مُلْك العزيز، ومثل المرائي التي رآها بعض كفار مكة قبل خروجهم إلى قتال سيّدنا ﷺ هي من جملة الفتنة لهم والظهور لسيّدنا ﷺ، وكذلك نجد كل واحدة منها الخير فيها للمؤمنين.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من كون المرائي تُرى فيها تماثيل وأشكال تدل على أشياء وتخرج في عالم الحس كذلك. وقد قال أهل العلم بهذا الشأن: إنه لا يقع لأحد شيء في هذا العالم إلا وقد رآه في النوم، عَقَلَه من عَقَلَه، وجَهِلَه من جَهِلَه. قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2] والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني والسيوطي في الدرّ المنثور عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة فصّلت، من الآية ٥٣.

ـ ١٨٣ ـ
حديث ثواب من قال: (لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له) كل يوم مائة مَرَّة

عَن أبي هُريرةَ، رَضيَ الله عَنهُ، أنَّ رَسولَ الله ﷺ قَالَ: مَن قال: لا إلَه إلاَّ الله وَحدَهُ لا شريكَ لهُ، لَـهُ المُلكُ، وَلَـهُ الحمدُ، وَهُوَ على كُلِّ شَيءٍ قَدير. في كُلِّ يَومٍ مائة مَرَّةٍ كانَت لَـهُ عَدلَ عَشرِ رقابٍ، وَكُتِبَ له مائةُ حَسنةٍ، وَمُحِيَت عَنهُ مائَةُ سَيِّئةٍ، وكانَت لَهُ حِرزاً مِنَ الشَّيطانِ يَومَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمسِي. وَلَم يأتِ أحَد بأفضَل ممَّا جاءَ بِهِ إلاَّ أَحَد عَمِلَ أكثَرَ مِن ذلكَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) الإخبار بأن من قال: لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مائة مرة، كان له هذا الأجر العظيم، وهو ثواب عتق عشر رقاب، ومائة حسنة زائدة على ذلك، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك. (والحكم الآخر) الإخبار بأن ذلك أرفع الأعمال، ولا شيء من الأعمال أرفع منه إلا الزيادة على ذلك العدد. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: ما الحكمة بأن جعل هذا الثواب محدوداً بهذا العدد؟ هل يمكن له فهم، أو هو مما لا يفهم له معنى؟ ومنها: الكلام على قوله (حتى يمسي) ما هو حدّ المساء هنا؟ ومنها: لم فُضِّلَ هذا العمل على كل الأعمال من حج وجهاد وصوم وصدقة وغير ذلك من أفعال الخير؟ وهل من قال بعض العدد مثل النصف أو أقل أو أكثر هل يكون له من الثواب بتلك النسبة أم لا؟

فأما الجواب على قولنا: ما الحكمة بأن جعل هذا الأجر العظيم منوطاً بهذا العدد المسمَّى، وهي المائة مرة؟ فإن قلنا: تعبداً، فلا بحث. وإن قلنا: له وجه من الحكمة فما هو؟ فنقول، والله أعلم: إنه لما أخبرنا الصادق ﷺ أن الله، عزّ وجلّ، جعل الرحمة في مائة جزء، فأخرج منها إلى الدنيا واحدة، وادَّخر بفضله التسعة والتسعين للمؤمنين في الآخرة، فمن جملة الرحمات بالمؤمنين في تلك الدار النجاة من النار ودخول الجنة والتنعم بها وبما فيها، فإنه من عُوفِيَ من النار أدخل

الجنة لا محالة، لقوله عليه الصلاة والسلام: (ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار)[1] ومن جملة ما منّ الله عليهم في هذه الدار أن عوفوا من الشيطان، لأنهم إذا عوفوا من الشيطان فقد دخلوا في ضمن قوله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[2] فجعلهم من أهل الخصوص، وهم أرفع الناس.

وقد أخبر الصادق ﷺ أن الحسنة بعشر أمثالها، فإذا قالها مائة مرة كانت له بألف، فبكل مائة التي هي مبلغ عدد أجزاء الرحمة المتقدم ذكرها وجب له بالفضل ما تضمنته تلك الأجزاء على ما تقدم من البحث، وهو النجاة من النار. والنجاة من النار من لازمها دخول الجنة كما قدمنا، وذلك ما انتهت بالمؤمنين جميع تلك الأجزاء التي قسمت عليها الرحمة ـ أعني في الدنيا والآخرة ـ منتهاه دخول الجنة. وعبّر، عليه الصلاة والسلام، عن ذلك بعتق الرقبة، لأنه ﷺ قد أخبر أنه (من أعتق رقبة أعتقه الله بها من النار بكل عضو منها عضواً عن معتقها، وزاده من فضله محو المائة سيئة، وزيادة مائة حسنة، وعصمه يومه ذلك من الشيطان)[3]، لأنه، عزّ وجلّ، يقول وهو أصدق القائلين ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾[4] بعدما أخبر بالتضعيف في الأجور أخبر أنه يزيدهم من فضله، والكل من فضله. منّ الله علينا به بفضله.

وأما حدّ (المساء) هنا فهو محتمل أن يريد به آخر وقت المساء، وهو مغيب الشمس. واحتمل أن يريد به أول وقت المساء، وهو زوال الشمس، لأن العرب تسمي من زوال الشمس إلى غروبها مساء. وقد تسمي الكلّ بالبعض، والبعض بالكل. لكن قد جاء في حديث آخر ما يدل أنه إلى آخر المساء، وهو غروب الشمس، لأنه، عليه الصلاة والسلام قال: (وإن قالها في ليلة لم يضره الشيطان حتى يصبح)[5]، ولا يقال (أصبح) إلا بعد أن يطلع الفجر. فكما يكون في الليل إلى آخره، فكذلك يكون في اليوم إلى آخره، وهو غروب الشمس.

ويعطي ذلك أيضاً قُوة الكلام، لأنه جاء عن طريق المنّ والإفضال، وما هو على هذا الوجه لا

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم / ١٠٥٨١/ ٧/ ٣٦٠ في ضمن حديث طويل.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ٦٥.

(٣) رواه البخاري في كفارات الأيمان ومسلم في كتاب العتق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وليس فيما رواه (وزاده من فضله محو المائة سيئة) إلى آخره.

(٤) وردت هذه الآية في عدة مواطن من القرآن الكريم وهي: سورة النساء، ١٧٣، وسورة النور، ٣٨، وسورة فاطر، ٣٠ وسورة الشورى ٢٦.

(٥) جاء في البخاري في كتاب الوكالة عن أبي هريرة رضي الله عنه: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك الشيطان حتى تصبح.

يكون إلا على أكمل ما ينطلق عليه اللفظ. ولوجه آخر وهو إذا كان الحدّ من جنس المحدود دخل فيما حدّ، كما تقول بعتك هذا الثوب من الطرف إلى الطرف فالطرفان داخلان في البيع.

وأما قولنا: لم فضل هذا العمل على ما عداه من أعمال البر من صوم وصلاة وحج وغير ذلك من أفعال البر، لأنه ﷺ قد نفى بقوله (لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك) يعني أكثر من المائة مرة عدداً. فنفيه الفضيلة عما سواه أثبت الفضيلة له؟ فالجواب أن اللفظ عام ومعناه الخصوص، فتكون في النوافل لا غير، لقوله ﷺ إخباراً عن ربه عزّ وجلّ (لن يتقرب إليَّ المتقربون بأحب من أداء ما افترضت عليهم، ثم لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه)[١]، وقوله ﷺ في الصلاة (فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة)[٢]، وجعلِها فرقاً بين الكفر والإيمان، والآي والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد على ألا شيء من أفعال البر أفضل من الفرائض.

فيخصص عموم اللفظ بما ذكرناه، وبقي هذا خاصاً بأنه أفضل المندوبات، وإذا كان ذلك كذلك فيحتاج إلى البحث في علة تفضيل هذا الذكر الخاص على جميع المندوبات من أنواع أفعال البر، فنقول، والله الموفق:

لما كان أعلى الواجبات وآكدها قول (لا إلّه إلا الله) والإقرار له سبحانه وتعالى بالوحدانية، ونفي الضد والند والشريك والصاحبة وجميع النقائص، ووصفه بجميع أوصاف الكمال والجلال على ما يليق بجلاله، تبارك وتعالى علوّاً كبيراً، وجاءت جميع المفروضات كلها تابعة لها بعد، ولذلك قال ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله)[٣]، معناه على الحد الذي طلب منهم فيها، كما تقدم وصفه، فلما كانت في الفرائض لم يأت أحد بأفضل منها فكذلك هي في المندوبات لا يأتي أحد بأفضل منها، لأن هذه الصيغة المذكورة في الحديث تضمنت ما أشرنا إليه من أوصاف الكمال لجلاله سبحانه، ونفي ضدّها، وتكرارها مائة مرة تأكيد على تأكيد، وتأكيد وصف الجلال زيادة جلال، وإن كان جلاله سبحانه لا نهاية له، لكن هذا بحسب ما نعرفه من جهة التخاطب بيننا، وبذلك تعبدنا، فبان ما قاله الصادق ﷺ (إنه لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا من

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث قدسي أوله: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. . .

(٢) رواه الإمامان مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبادة رضي الله عنه وأوله: خمس صلوات كتبهن الله في اليوم والليلة.

(٣) حديث متواتر رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه وكثيرين من الصحابة رضي الله عنهم.

جاء بزيادة على العدد المذكور) فإنه زيادة في التأكيد، وما هو زيادة في التأكيد فهو زيادة في الترفيع.

وأما قولنا: من قال بعض العدد هل يكون له بنسبة ذلك من الأجر المذكور؟ فاعلم أن الأجور في الأعمال، والعقاب على الذنوب، لا تؤخذ بالعقل ولا بالتقدير. لأنها ليست لعلة عقلية ولا عِلّيّة، كما قدمنا أول الكتاب، فكل ما ليس فعله لعلة فلا يدخله تقدير، ولا يحكم عليه بالقياس، وإنما هو متوقف على الشارع ﷺ. فعند تحديده، عليه الصلاة والسلام، ينظر: هل تفهم الحكمة فيه أم لا؟ فإن فهمناها بدليل شرعي شكرنا الله على ذلك، وإلا قلنا تعبداً لا يعقل له معنى.

وهنا وقفت العقول، وحارت الأذهان، وذلت الرقاب، وإن كان قد جاء في الأحاديث من قالها أقل من هذا العدد فله أجر أقل من هذا، فمنها قوله، عليه الصلاة والسلام، فيمن قالها مرة واحدة كان له أجر عتق رقبة وكتبت له عشر حسنات، ومحيت عنه عشر سيئات، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فصحّ باختلاف الأحاديث أن ذلك لا يؤخذ بالتقدير ولا بالعقل، لأنه قد جعل في الواحدة عتق رقبة واحدة، وفي المائة عتق عشر رقاب، فلا نسبة لها من جهة العقل ولا من جهة القياس، بل هو فضله، عزّ وجلّ، يؤتيه من يشاء كيف يشاء جلّ جلاله.

وفيه دليل: على تفضيل أهل الصوفة. يؤخذ ذلك من جعل هذا الأجر العظيم لمن قال هذا القول مائة مرة، فكيف بمن قالها يومه كله هكذا لا يفتر إلا عند أداء فرضه أو ضرورة البشرية؟ فإن طريقهم مبني على دوام الذكر والحضور ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[١] وهم في ذلك متبعون لسنّة سيّدنا ﷺ، لأنه جاء في وصف حاله، عليه الصلاة والسلام، أنه كان طويل الصمت، كثير الذكر، وعلى هذا بنوا طريقهم، وقد قال ﷺ (ما عمل آدمي من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله).

وهذا الذكر الذي يبلغ به العبد هذا الحال إنما هو بعد أداء الفرض، لأن ما نحن بسبيله هو من باب المندوب، وجميع المندوب لا يقوم بفريضة واحدة، فكيف بالمتعددة؟ ولذلك لم يأخذ القوم في مثل هذه المندوبات حتى أكملوا فروضهم التي هي الأصل في الدين، وحينئذ أخذوا فيما ذكرنا.

وقد وقع بعض الناس في العكس بالسوء، فسمعوا مثل هذا الحديث وشبهه فأكثروا من المندوبات، وضيعوا كثيراً من الواجبات، فصاروا كما قال صاحب الأنوار[٢]: (ردّوا الأصول

---

(١) سورة السجدة، من الآية ١٧.

(٢) هو أمّا محيي الدين بن عربي رحمه الله، أو أبو عبد الرحمن الصقلي ـ معاصر ابن أبي جمرة ـ أو رزين العبدري.

فروعاً والفروع أصولاً) ومعناه أنهم حافظوا على المندوبات كما حافظ أهل التوفيق على الواجبات، وزهدوا في الواجبات وتعلقوا في ذلك برجاء فضل الله تعالى وقد قال جلّ جلاله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾[1] وقال عزّ وجلّ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[2] فنسأله جلّ جلاله التوفيق إلى أداء فرضه، والاجتهاد في أعمال ما ندبنا إليه، وقبول ذلك، والسعادة به بمنّه، لا ربّ سواه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢١٨.

(٢) سورة الحجر، من الآيتان ٤٩ و٥٠.

ــ ١٨٤ ــ

حديث كراهية صيام الدهر

عَن عبدِ الله بن عَمرو[١]، رضي الله عَنهُما، قال: أُخبِرَ رَسولُ الله ﷺ أنّي أقول: وَالله لأَصومَنَّ النَّهارَ وَلأقومَنَّ اللَّيلَ ما عِشتُ. فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: أنتَ الَّذي تَقولُ: والله لأَصومَنَّ النَّهارَ وَلأَقُومَنَّ اللَّيلَ ما عِشتُ؟ قُلتُ: قَد قُلتُهُ. قالَ: إنَّكَ لا تَستَطيعُ ذلكَ، فَصُمْ وأفطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وصُمْ مِنَ الشهرِ ثلاثةَ أيامٍ. فإنَّ الحَسنَةَ بِعَشرِ أمثالِها، وذلكَ مِثلُ صِيام الدَّهر. فقُلتُ: إنّي أُطِيقُ أفضَلَ مِن ذلكَ. قالَ: فَصُم يوماً وأفطِرْ يومَينِ. فقُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ مِن ذلكَ. قالَ: فَصُمْ يوماً وأفطِرْ يوماً، وَذلِكَ صِيامُ داودَ، وهُوَ أعدَلُ الصِّيامِ. قُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ مِن ذلِكَ يا رَسولَ الله. قالَ لا أفضَلَ من ذلِكَ[٢].

* * *

ظاهر الحديث إخباره ﷺ بأن أفضل صوم التطوع أن يصام يوم ويُفطَر يوم، وإخباره بأنه كان صومَ داود، عليه الصلاة والسلام. والكلام عليه من وجوه:

منها: أنه لا يجوز الحكم إلا على الأمر الذي لا يحتمل التأويل. يؤخذ ذلك من أنه لما أخبر ﷺ بما قاله عبدالله، أنه يصوم النهار ويقوم الليل ما عاش، لم يخبره، عليه الصلاة والسلام، بعدم طاقته على ذلك، ولا بما هو الأفضل في الصوم إلا حتى[٣] استفسره بأن قال له (أنت الذي تقول والله لأصومن النّهار ولأقومنّ الليلَ ما عشتُ)؟ فلما اعترف له عبد الله بذلك حينئذ أخبره بما هو الأفضل.

وفيه دليل على أن من السنّة إيصال أخبار الرعية إلى راعيها. يؤخذ ذلك من كون سيّدنا ﷺ

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٦١.

(٢) راجع الحديث ٦١.

(٣) كذا بإقحام «إلا» قبل «حتى».

أُخبِر بمقالة عبد الله، فلولا ما أصبح ذلك عنده معلوماً ما قال له رسول الله ﷺ ذلك. ويترتب عليه من الفقه أن يستعمل ذلك في كل من له رعاية على أحد، صغيراً كان أو كبيراً.

وفيه دليل على جواز اليمين على ما يريد المرء أن يفعله من المندوبات. يؤخذ ذلك من قول عبدالله: والله لأصومن النهار. فلما بلغ ذلك سيّدَنا ﷺ لم يعنِّفه على ذلك، وسكت عن كونه حلف. وسكوته، عليه الصلاة والسلام، دال على جوازه.

وفيه دليل على جواز الذكر بين الإخوان بأنواع العبادات، وأن يبدي الشخص لهم ما وقع عزمه على فعله من أي أنواع العبادات شاء. يؤخذ ذلك من ذكر عبدالله ذلك حتى بلغ النبيَّ ﷺ خبرُهُ، ولم يقل له في ذلك شيئاً، فدل على جوازه.

وفيه من الفائدة: أن ذكر ما عزم المرء عليه من أفعال البر بين إخوانه هو من باب التذكير بالخير والتعاون عليه، لأنه عند ذكره العزم على ذلك قد تنبعث نفوس الغير إلى مثل ذلك أو إلى ما يقرب منه، فيدخل في قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[(١)] إلا أنه بشرط أن يكون الإخوان يُعلم منهم ذلك، لأن الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، كان ذلك شأنهم أجمعين.

وفيه دليل على فضل الصحابة، رضوان الله عليهم، أجمعين، وعدم تملقهم في الكلام، وقصدهم الفائدة لا غير. يؤخذ ذلك من أنه لما سأل سيّدنا ﷺ عبدالله بأن قال له (أنت الذي تقول)؟ لم يزده في الجواب على أن قال له (قد قلته) بلا زيادة من اعتذار ولا تملق، وقَوْلِهِ[(٢)] ﷺ (إنك لا تستطيع ذلك).

وهنا بحث: هل هذا خاص بعبدالله لما يعلم ﷺ من حاله، أو هذا لجنس البشر؟ احتمل الوجهين معاً. والأظهر ـ والله أعلم ـ أنه لجنس البشر، لقوله، عليه الصلاة والسلام، في حديث غيره (إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَعَ ولا ظهراً أبقَى)[(٣)]، ولقوله، عليه الصلاة والسلام، عن معاذ بن جبل لصاحبه (هو أفقه منك). وقد تقدم ذكره في غير ما موضع من الكتاب.

وفيه دليل على أن الأمر بما فيه راحة النفوس، إذا كان عوناً على الطاعة. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (أفطرْ ونمْ) فإنهما عون على القيام والصيام.

---

(١) سورة المائدة، من الآية ٢.

(٢) العطف على المصدر المؤول من «أنه».

(٣) أول الحديث: إن هذا الدين متين فأوغِل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبَتَّ إلخ.. رواه البيهقي في شعب الإيمان وفيه اضطراب، روي مَوْصولاً ومرسَلاً ومرفوعاً وموقوفاً، ورجح البخاري إرساله.

وفيه دليل على أن صوم يوم تطوعاً بعشرة أيام. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: (صم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر).

وفيه دليل على ضرب المثال بممكن لا يقع، ليعلم بذلك المثل وندبه. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (وذلك مثل صيام الدهر). ومن المعلوم قطعاً أن من الدهر ما لا يجوز صومه مثل أيام الأعياد، وأيام التشريق، ومنه ما لا يصام تطوعاً أصلاً وهو رمضان، وما يترتب من طريق النذر والكفارات الواجبات شرعاً هي مثل الفرض لا يمكن صومها تطوعاً، وقد أطلق، عليه الصلاة والسلام، على الجميع (الدهر) في المثال. فيكون التقدير فيه أن يتأتى صومه، أو ما عدا ما فرض من صومه فلا بدّ فيه من ضمير يخصّص عمومه.

وفيه دليل على أن السنّة في الراعي أن يحمل رعيته على الأرفق في الأمور. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا ﷺ لم يأمره أولاً بالأقل من الصوم، لأنه أرفق ويقدر عليه القويّ والضعيف.

وفيه دليل على جواز مراجعة المسترعي راعيه بطلب الزيادة في المجاهدة. إذا علم من نفسه أهلية لذلك. يؤخذ ذلك من قول عبدالله: إني أطيق أفضل من ذلك. إلا أنه يكون بأدب كما فعل هذا السيّد، لأنه لم يزد أن أخبر عن نفسه أنه يطيق أفضل من ذلك، ولم يقل إني أفعل أكثر مما قلت، وإنما أخبر بما يطيقه، وبقي ينظر بماذا يؤمر. ويترتب عليه من الفقه أن يكون في سائر الأمور يخبر راعيه بما هو الأصلح له بحسب حاله، حتى يرى بماذا يأمره راعيه.

وفيه دليل على أن الدين مطلوب بفرضه وندبه. يؤخذ ذلك من أن النبيّ ﷺ قد أمر عبدالله بالصوم من كل شهر ثلاثة أيام، ثم درّجه إلى الشطر، فكفى بذلك دليلاً على طلبه.

وفيه دليل على المنع من التغالي في الدين. يؤخذ ذلك من منعه ﷺ ما زاد على الأفضل ـ وهو صوم شطر الدهر ـ بقوله عليه الصلاة والسلام: (لا أفضل من ذلك). فأجاز له ما كان أقل من الشطر لكونه ادّعى الأهلية في ذلك، ولما بلغ الأفضل وادّعى أن فيه الأهلية للزيادة على ذلك منعه، عليه الصلاة والسلام، بقوله (لا أفضل من ذلك). فإن الصحابة، رضوان الله عليهم، لم يكونوا إذا سمعوا منه ﷺ (لا أفضل) لا يزيدون على ذلك شيئاً، وإنما كان قصدهم الأفضل في الأعمال، فقام قوله عليه الصلاة والسلام: (لا أفضل) مقام المنع من ذلك.

وفيه دليل على أنه إذا تقعدت القاعدة الشرعية وعُلِمت فلا يحتاج إلى تكرارها. يؤخذ ذلك من أنه لما أُخبِر النبيّ ﷺ بحلف عبدالله، أنه يقوم الليل ويصوم النهار، أخبره ﷺ بفعل الأفضل، وهو ضد ما حلف عليه، ولم يقل له: كَفِّرْ عن يمينك، لأن هذه القاعدة عندهم قد ثبتت، فلم يحتج إلى أن يذكر له ذلك.

وفيه دليل على أن الفضيلة في الأعمال بحسب ما جعلها الشارع ﷺ، لا بحسب العقل. يؤخذ ذلك من قول عبدالله لما قال له النبيّ ﷺ (صم يوماً وأفطر يوماً) قال له: إني أطيق أفضل من ذلك، لما تقدم له أن الزيادة على الثلاثة أفضل، فرأى أن الزيادة على الشطر أفضل. فأخبر الشارع ﷺ بأن تلك الزيادة نقص لا فضلة فيها، بقوله عليه الصلاة والسلام: (لا أفضل من ذلك). فذهب هنا ما قاسه عبد الله.

وفيه دليل على أن عِظم الأجر في العبادات ليس بكثرة التعب. يؤخذ ذلك من كون عبدالله ظن زيادة المجاهدة ـ وهي زيادة الصوم على شطر الزمان ـ أفضل، فمنع ﷺ ذلك بقوله (لا أفضل من ذلك).

وفيه دليل على أن الحكم لاستصحاب الحال، حتى يَرِدَ ناسخ من الشارع ﷺ. يؤخذ ذلك من أن عبدالله لما رأى الزيادة على الثلاثة أفضل استصحب ذلك الحكم حتى جاوز شطر الزمان، فمنع الشارع عليه الصلاة والسلام ذلك، ونسخه بقوله: (لا أفضل من ذلك).

وفيه دليل لمن يقول: إنّ شرعَ مَنْ قَبْلَنا شرعٌ لنا، ما لم يَرِدْ عليه ناسخ. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (وذلك صيام داود) عليه الصلاة والسلام.

وفيه دليل على فضل السنّة واتساعها، حتى يدخل فيها القوي والضعيف. يؤخذ ذلك من تدريج سيّدنا ﷺ صوم التطوع من العُشر في الزمان ـ الذي هو ثلاثة أيام في الشهر ـ إلى النصف منه، وهو صوم يوم وإفطار يوم، وما بين هذين الحدين توسعة كبرى يتّسع فيها جميع الناس على اختلاف أحوالهم.

وفيه دليل على التسوية بين أيام الشهر بلا فضيلة بينها. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (ثلاثة أيام من كل شهر) بغير تعيين وجعل الأجر فيها سواء.

وفيه دليل على أن تفريقها ـ أعني أيام الصوم في الشهر ـ أو تتابعها في الأجر سواء. يؤخذ ذلك من قوله (ثلاثة أيام من كل شهر)، ولم يذكر فيها تتابعاً ولا تفريقاً. فدل على أن الأمر في ذلك سيّان.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



— ١٨٥ —

حديث أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود عليه السلام

عَن عَبدِ الله بنِ عَمرٍو، رضيَ الله عَنهُما، قالَ: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: أَحبُّ الصِّيامِ إلى الله، عزَّ وجَلَّ، صِيامُ داودَ، عليهِ السَّلام، كانَ يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً. وأحبُّ الصَّلاةِ إلى الله صَلاةُ داوُدَ، كان ينامُ نِصفَ اللَّيلِ، ويقومُ ثُلثَه، ويَنامُ سُدُسَهُ.

❀ ❀ ❀

ظاهر الحديث يدل على حكمتين: (أحدهما) الإخبار بأن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود عليه الصلاة والسلام. (والآخر) الإخبار بأن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، عليه الصلاة والسلام، أيضاً، وتبيين صفتها. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: ما معنى قوله (أحب)؟ وما معنى الحكمة في ذلك حتى كانت هذه الصفة أحب؟

ومنها: تعارض صومه ﷺ لهذه الصفة، لأنه صح عنه ﷺ أنه كان يصوم حتى يقال: إنه لا يفطر، ويفطر حتى يقال: إنه لا يصوم، وما استكمل شهراً بالصوم قطّ إلا رمضان[١]. وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أن (من أدام الصومَ ضُيّقت عليه النارُ)[٢]. وكيف الجمع بين هذه الأحاديث؟ وهل يكون ذلك تعارضاً أم لا؟

أما قوله ﷺ (أحب الصيام إلى الله) فقد تقدم الكلام على هذه اللفظة في غير ما حديث، وهي كناية عن فضيلة العمل وكثرة الثواب عليه، فإن الحب الذي هو الولوع في الشيء في حق الله سبحانه مستحيل، فإن هذا من صفات المحدثات والحق سبحانه وتعالى منزّه عنها، وإنما يعني بالحب ما يصدر عن الكرام إذا أحبوا الشيء وأعجبهم عن كثرة إحسانهم وإفضالهم على فاعله. من هنا يكون

---

(١) عزاه ابن الرّبيع في تيسير الوصول ٢/٣٢٨ إلى الستة عن السيدة عائشة رضي الله عنها وتتمة الحديث: وما رأيته في شهر أكثر صياماً منه في شعبان.

(٢) لم نقف على مصدره بهذا اللفظ.

الشبه لا غير. وفيه تحقيق لما قدمناه في الحديث قبل، من أن الأجور على الأعمال ليست موقوفة على كثرة التعب والمشاق، وإنما هي بحسب ما تفضل به المولى سبحانه.

وأما قولنا: هل تفهم الحكمة في تفضيل هذه على غيرها وإن كثر التعب فيها؟ فقد نص الكتاب العزيز على معنى العلة في ذلك وهو قوله عز وجلّ ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[1] وقال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2] فبفهم هاتين الآيتين علمنا ما الحكمة في ذلك؟ وهي أن الحكمة الربانية قد أحكمت أنه لا بدّ لكل دعوى من حقيقة تبينها. فلو كان الدين والقرب من الله سبحانه وتعالى بمجرد الدعوى ادعاه الناس كلهم. فلما جعلت المجاهدات في العبادات جاءت مبينة لحقيقة تلك الدعاوى، فمن جاهد وصبر كان ذلك تحقيقاً لما ادعاه، وحصل له الفوز العظيم والأجر الكبير. يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[3] فاقتضت صفة الرحمة الرفق بفضله، عزّ وجلّ، بعبيده بقوله عزّ وجلّ ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾[4].

فما كان من المجاهدات فوق ما يطيقه وضع خلق البشرية منعه، عزّ وجلّ، بعدم الثواب الجزيل عليه، وجعل المجاهدةَ التي تتحملها البشرية بوضع خَلْقِها ولا كبيرَ مشقة عليها أفضلَها، لأنه، عزّ وجلّ، غنيّ عنهم فيما تعبدهم به، فما كلفهم منها إلا بقدر ما تصح لهم الدعوى بالانقياد لما أمروا به، ولذلك قال تعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[5] وقد قال جلّ جلاله ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[6] رحمة منه عزّ وجلّ بعباده ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[7]؟

وأما كيف الجمع بين تلك الأحاديث؟ وهل هو تعارض أم لا؟ أما الذي جاء عنه ﷺ من أنه كان يصوم حتى يقال: إنه لا يفطر، ويفطر حتى يقال: إنه لا يصوم، فظاهره التعارض. وإذا حققت النظر فيه فليس بتعارض، بل فعله ﷺ إشارة إلى التوسعة وأبقى الفضيلة على الحد الذي أخبر عن

---

(١) سورة النساء، من الآية ١٤٧.
(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.
(٣) سورة العنكبوت، الآيتان ١ و٢.
(٤) سورة النساء، من الآية ١٤٧.
(٥) سورة البقرة، من الآية ٤٥.
(٦) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.
(٧) سورة الملك، الآية ١٤.

صوم داود، عليه الصلاة والسلام، ويكون معنى صومه، عليه الصلاة والسلام، أنه كان يصوم حتى يقال: إنه لا يفطر، ويفطر حتى يقال: إنه لا يصوم، فوصل الصوم بعضه ببعض، ووصل الأكل بعضه ببعض، ويكون يحفظ عدد الأيام في الصوم والأكل أن تكون سواء بسواء، ولذلك نعتت عائشة، رضي الله عنها، الأكل والصوم بنعت واحد، وهو قولها (حتى نقول: إنه لا يصوم، وحتى نقول: إنه لا يفطر) فيكون صومه، عليه الصلاة والسلام، شطر الدهر، وفطره شطر الدهر، فكان، عليه الصلاة والسلام، يراعي في ذلك فقه الحال أيهما رآه رجح فعله، فجاء فعله، عليه الصلاة والسلام، مع فعل داود، عليه الصلاة والسلام، سواء في مشاطرة الدهر في الصوم، وزاد ﷺ في ذلك فوائد:

منها: التوسعة على أمته، لأنه كثيراً من الناس لا يمكنهم صوم يوم وفطر آخر، فمنهم مَنْ عَدِم القدرة، ومنهم من به ضرورة لا يتأتى معها ذلك. فإن الضرورات كثيرة، وأحوال الناس مختلفة، فكان يفوت لبعض الناس الذين لهم همة في الدين تلك الفضيلة.

ومنها: اغتنام نشاط النفس في العمل، وهو فقه الحال، لأنه إذا رأى الشخص من نفسه نشاطاً في العبادة يحتاج أن يغتنمه، أو خلواً من شغل فيغتنمه أيضاً، أو عوناً ما على تلك العبادة من وجه ما فيغتنمه أيضاً، أو صحة في البدن، ولذلك قال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس: فراغك قبل شغلك، وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك)[1].

ومنها: أن يلحق في ذلك أصحاب الأعذار بغيرهم حتى لا تفوتهم تلك الفضيلة. مثال ذلك الحائض لو كان ﷺ يصوم مثل داود، عليه الصلاة والسلام، ما قدرت حائض ممن لها همة في الدين تبلغ ذلك أبداً، وعلى ما أشرنا من فعله، عليه الصلاة والسلام، تقدر على ذلك. فإن أيام حيضها، وهو شطر الدهر، وهو خمسة عشر يوماً في الشهر، فتكون تصوم أيام طهرها، وهو نصف الدهر، وتفطر أيام حيضها، وهو شطر الدهر أيضاً.

وفيه فوائد أكثر من هذا لمن تأمله، لأنه، عليه الصلاة والسلام، جاء بالتيسير في الأمور كلها. فالحديثان مفترقان في الظاهر، مجتمعان في المعنى، فلا تعارض بينهما.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام (من أدام الصوم ضيّقت عليه النار) احتمل أن يكون معناه: من أدامه على الوجه الأفضل حتى تُوفيَ على ذلك. فيكون معناه المحافظة على دوام تلك العبادة حتى يموت وهو على ذلك الحال، فذلك الشخص الذي تضيق عليه النار، أي أنه لا يدخلها.

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الإمام أحمد في الزهد عن عمرو بن ميمون مرسلاً.

واحتمل أن يكون: من أدام الصوم على ظاهره، ويكون ثوابه أن تضيق عليه النار، ولا يلزم من كونه تضيق النار عليه أن يكون أفضل من الذي يصوم يوماً ويفطر يوماً، بل يكون الذي يصوم يوماً ويفطر يوماً أرفع منه وأعظم أجراً، إلا أنه، عليه الصلاة والسلام، قد وصفه بصفة لم يصف بها هذا، وهو قوله (أحب). ويكون مثل هذا كما قال عليه الصلاة والسلام (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يَسْتَرْقون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون)[1]. هذا هو ثوابهم.

وقد يكون من يسترقي أعلى منهم مثل الشهداء، قد جاء أنهم يشفعون، وكذلك جاء في العلماء العاملين أنهم يشفعون[2]، ومَنْ منزلته أن يشفع في غيره أعلى ممن يدخل الجنة بغير حساب، فإن خيره مقصور على نفسه، والآخر خيره متعدّ، فدل على علو منزلته أن يشفع. وقد جاء أن من هذه الأمة من يشفع في مثل ربيعة ومضر[3]، وهذا من أعلى الناس درجة بعد الأنبياء عليهم السلام، فلا تعارض أيضاً. وإنما ذكرنا هذين الحديثين لأنه وقع لجملةٍ ممن ينتسب إلى أهل العلم إشكال، فأردنا إزالة ذلك، وفيما بيناه كفاية في إزالته بفضل الله تعالى.

وفيه دليل على حسن الدعاء إلى الخير. يؤخذ ذلك من إخباره ﷺ بخير الوجوه في الصوم وفي الصلاة بالليل، ولم يقل لهم بعزيمة: افعلوا كذا. وساقه في طريق الإخبار عَمَّنْ تقدم من الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين، فجاء إرشاده، عليه السلام، في هذا الحديث بذكر أحوال من تقدم من الأنبياء، عليهم السلام، مثل القصص في القرآن. وقد قال علماؤنا: إن كانت القصة تدل على عمل خير فقد طلب منك بالضمن، وإن كانت تدل على ترك شر فقد طلب منك تركه بالضمن أيضاً، ولذلك قالت عائشة، رضي الله عنها، في صفته عليه السلام (كان خلقه القرآن)[4]، أي أنه كان يمشي في جميع شأنه كله على ما دل عليه القرآن وعلى أسلوبه.

وفيه دليل على أن كل ما تقدم من الشرائع؛ الصوم والصلاة مشروعان فيه.

وفيه دليل على التأسي بمن تقدم من الأنبياء عليهم السلام. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس ومسلم عن أبي هريرة وعمران بن الحصين رضي الله عنهم. ويَسْتَرْقون: يطلبون من غيرهم أن يَـرْقِـيَـهم. ويتطيّرون: يتفاءلون أو يتشاءمون بالطير وبغيره من الأشياء والأيام والأصوات وسواها.

(٢) أخرج ابن ماجه عن عثمان رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء.

(٣) رواه عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد مسند أبيه والحاكم في المستدرك وصححه، وفي الباب عن أبي أمامة أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبيّ مثل الحيَّين ربيعة ومضر، فقال: يا رسول الله: وما ربيعة ومضر؟ قال: إنما أقول ما أقول.

(٤) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(وأحب الصلاة إلى الله)، بيّن أنها الصفة التي كان يفعلها داود، عليه السلام، وكذلك الصوم، ويقويه قوله تعالى حين ذكر الأنبياء ثم قال ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1] أي طريقهم اتبع.

وهنا بحث: لِمَ كانت هذه الصلاة التي صفتها أن ينام نصف الليل، ثم يقوم ثلثه، ثم ينام سدسه، هي أفضل من غيرها؟ فنقول، والله الموفق: لما كان المطلوب من العبادة الحضور فيها، ومن المستحب فيها الاشتغال بها عند غفلة الناس، وفي الأزمنة التي اتخذها الناس للراحة غالباً، فكان قيامه بعد نصف الليل الأول، فذلك الوقت أشد ما يكون الناس فيه من الغفلة والنوم غالباً، فكان التلبس بالعبادة في ذلك الوقت مما يستحب، ولأنه أيضاً، الوقت الذي يتجلى الحق سبحانه فيه بفضله ويقول (هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه)[2]؟ لأن العلماء قد اختلفوا متى يكون ذلك هل في الثلث الوسط من الليل، أو الثلث الأخير منه؟ فإذا كان القيام بعد نصف الليل الأول فقد أخذ من ثلث الليل المتوسط نصفه، وأخذ من الثلث الآخر نصفه، فحصل له الفضل في الزمان، فكانت صلاته أحب.

ويترتب على هذا من الفقه أنه إذا كان عمل الشخص بوفاق بين العلماء فهو أفضل من الذي فيه الخلاف.

ونومه السدس الآخر لأن يزول عنه تعب العبادة، وتجم النفس، وينشط لصلاة الصبح. فإن الحضور في الصلاة لا يكون غالباً إلا مع نشاط النفس وعدم تعبها، ولذلك كان سيّدنا ﷺ يقول في أذان بلال، وكان أذانه قبل الفجر: (إن أذان بلال يوقظ النائم وينوّم القائم)[3]، لأن من كان في تعبده مثل داود، عليه السلام، فذلك وقت نومه، ومن غلبه النوم أو كان له عذر، فلم يبقَ له لتأخير التهجد وقت، فذلك وقت قيامه لورده، وإلا فاته فضل قيام الليل.

وردك حافظ عليه ولا تكسل	وفضل قيام الليل فلا تجهل
وبماء استغفار أسحاره ذا غسل	وسخ ذنوب قد أثقلت محمل
وناد بالهادي من يثرب وقل	فليس على المضطر سؤال من مفضل

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ٩٠.

(٢) حديث قدسي رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه ومطلعه: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول: من يدعوني فأستجيب له إلخ..

(٣) رواه النسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: إن بلالاً يؤذن بليل ليوقظ نائمكم، وليَرجع قائمكم.
ومعنى (ليَرجع قائمكم): القائم هو الذي يصلي صلاة الليل، ورجوعه عن صلاته إذا سمع الأذان.

ـ ١٨٦ ـ

حديث أول مسجد وضع للصلاة

عَن أبي ذَرٍّ[١]، رَضي الله عَنهُ، قالَ: قلتُ يا رسولَ الله: أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أوّلاً؟ قال: المسجدُ الحرامُ. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: المَسجدُ الأقصى. قُلتُ: كَم كان بَينهُما؟ قالَ: أربَعونَ. ثُمَّ قالَ: حَيثُما أدرَكَتكَ الصَّلاةُ فَصلِّ، والأرضُ لكَ مَسجِد.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بثلاثة أحكام: **(الواحد)** منها أن المسجد الحرام أول مسجد وضع للصلاة. **(والثاني)** أن المسجد الأقصى وضع بعده، وبينهما أربعون. **(والثالث)** جعلت الأرض لنا مسجداً وطهوراً، وحيثما أدركتنا الصلاة نصلي. والكلام عليه من وجوه:

منها: الدليل على فضل سيّدنا ﷺ وأمته على من تقدم. يؤخذ ذلك من تيسير العبادة عليهم بأن جعلت لهم الأرض مسجداً وطهوراً، ولم يكن ذلك لمن تقدم.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله مسجد؟ وما معنى (طهوراً)؟ فأما معنى (طهوراً) فقد جاء في حديث آخر منصوصاً عليه، وهو قوله ﷺ: (.. وترابها طهوراً)، وهو الذي منَّ الله به علينا من إبدال الوضوء بالتيمم بجميع أنواع الأرض عند عدم الماء، أو العجز عن استعماله. وأما معنى (مسجداً) أي موضع إيقاع الصلاة لأن كل موضع يُصَلَّى فيه فهو مسجد، أي موضع للسجود. وكانت الأمم قبل لا يفعلون الصلاة إلافي المواضع التي بنيت لها.

وفيه دليل على أن تخصيص الأشياء ليست بالاستحقاق، وإنما هي بحسب ما جرت حكمة الحكيم. يؤخذ ذلك من أن الصلاة قبل هذه الأمة لم يكونوا يُوقِعونها إلا في مواضع مخصوصة، وجعلت جميع الأرض لهذه الأمة محلاً لفعلها فيه.

وفيه دليل على أن حسن النية في السؤال تعقب زيادة خير على ما قصده. يؤخذ ذلك من كون

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ١٠٠.

هذا الصحابي، رضي الله عنه، لما سأل سيّدنا ﷺ، أن يخبره عن أول مسجد وضع أولاً. فلما يعلم من حسن مقاصد الصحابة، رضوان الله عليهم، وتعظيمهم لشعائر الله، فإنه لم يكن سؤاله عن ذلك إلا ليحترمه أكثر من غيره، فجاوبه ﷺ عن أول مسجد، وزاده بأن أخبره بهذا الخبر العظيم، وهو جَعل الأرض لنا مسجداً وطهوراً.

وفيه دليل على أن للعالم أن يجاوب بأكثر مما سئل عنه. يؤخذ ذلك من كون السائل سأل عن أي المساجد وضع أولاً، فجاوبه ﷺ على ذلك، وزاده الإخبار بجعل الأرض مسجداً وطهوراً.

وفيه دليل على أن من فصيح الكلام الاختصار في الألفاظ بشرط ألا يخلّ بالمعنى. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (ثم حيثما أدركتك الصلاة فصَلِّ). والمقصود حيثما أدركك وقت الصلاة، فإن الصلاة فعل للمصلي، فكيف يدركه فعله؟ هذا مستحيل، فلمّا لم يكن أن يكون في هذا الأمر التباس اختصره، ولِعِلْمِهِ أيضاً بأن المخاطب فهم عنه، وإلا كان يزيده فيه بياناً.

وفيه دليل على المحافظة على أوقات الصلوات. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (حيثما أدركتك الصلاة فصلّ) أي لا تؤخرها. فدل هذا بضمنه على المحافظة على الصلاة، ودلّ أيضاً على التحضيض على المعرفة بأوقات الصلوات، لأنه من اللازم أنه لا يعلم وقتها حتى يكون له بذلك علم.

وفيه دليل على ما خص الله، عزّ وجلّ، به سيّدنا ﷺ من الفصاحة. يؤخذ ذلك من كونه لفظة منه، عليه السلام، تحتوي على أحكام عديدة مثل ما نحن بسبيله من هذا الحديث.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ــ ١٨٧ ــ

حديث الثلاثة الذين تكلموا في المهد

عَن أبي هُرَيرةَ، رضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: لَم يَتكلَّم في المهدِ إلاَّ ثلاثَة: عِيسى، وَكانَ في بني إسرائيل رَجُل يُقال لَـهُ: جُرَيْج، كانَ يُصلِّي، فَجاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فقالَ: أُجِيبُها أو أُصلِّي؟ فَقالَت: اللَّهُمَّ لا تُمِتْـهُ حتَّى تُرِيَـهُ وُجُوهَ الموِمساتِ. وَكانَ جُريجٌ في صَومعتِهِ فَتعرَّضت لَـهُ امرأَة، فَكلمَتهُ فأبى، فأتَت راعِياً فأمكَنَـتْـهُ مِن نَفسِها، فَولَدت غُلاماً. فَقالَت: مِنْ جُريج. فأتَوهُ فَكَسروا صَومَعتهُ وأنزَلوه وَسبُّوه، فَتوضأ وَصلَّى، ثُمَّ أتى الغُلامَ فقالَ: مَن أبوكَ يا غُلامُ؟ فَقالَ: الرَّاعي. فَقالوا: أَنَبني لك صومعتَك من ذهبٍ؟ قال: لا، إلاَّ مِن طينٍ.

وكانتِ امرأة تُرضِعُ ابناً لَها من بَني إسرائيل، فمرَّ بِها رجل راكِب ذو شارَةٍ، فقالت: اللَّهُمَّ اجعل ابني مِثلَه. فتركَ ثديها وأقبلَ على الراكب، فقالَ: اللَّهُمَّ لا تجعلني مِثلَهُ. ثُمَّ أقبلَ على ثديها يَمَصُّهُ. قالَ أبو هُريرَةَ: كأنّي أنظُرُ إلى النَّبيِّ ﷺ يَمَصُّ أُصبعه. ثُمَّ مرَّ بأَمَةٍ فقالَت: اللَّهُمَّ لا تجعل ابني مِثل هذه. فترك ثديها فقالَ: اللَّهُمَّ اجعلني مِثلها. فقالَت لَه: وَلِمَ ذلِكَ؟ قالَ: الرَّاكِبُ جبَّار من الجبابرَة، وهذهِ الأمةُ يقولون: سَرقتِ، زنيتِ، وَلَم تَفعل.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بكلام أولئك الثلاثة في المهد فيمن تقدم من الأمم. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن فيه دليلاً على أن أفضل العبادات برّ الوالدين. يؤخذ ذلك من كون جريج ما شغله عن إجابة أمه إلا شغله بالعبادة، ومع ذلك عوقب بذلك الهوان.

وفيه دليل على إجابة دعاء الوالدين . يؤخذ ذلك من ابتلائه بما دعت عليه أمه لما لم يجبها .

وفيه دليل على أن صاحب الخدمة إن جرى منه أمر يرفق به ، ولا يكون عقابه مثل غيره . يؤخذ ذلك من كون أم جريج لم ينطلق على لسانها الدعاء بالعقاب إلا برؤية وجوه المومسات . ولولا اللطف به لنطقت في الدعاء بوقوع الفاحشة ، أو سلب الإيمان ، أو الضرب أو القتل إلى غير ذلك .

وفيه دليل على أن صاحب الصدق في معاملته مع الله تعالى إن ابْتلي يُلطف به ، ويُجعل عاقبته خيراً . يؤخذ ذلك من كون المولود نطق ببراءته .

وفيه دليل على إجابة مولانا سبحانه وتعالى المضطر إذا دعاه . يؤخذ ذلك من أنه لمّا اضطر جريج إليه ، عزّ وجلّ ، في تبرئته مما رُمي به أنطق ، عزّ وجلّ ، له المولود بما يدل على ذلك .

وفيه دليل على أن صاحب الصدق مع الله لا تضره الفتن ، وإن جرت عليه لا تزيده إلا ترفيعاً وخيراً . يؤخذ ذلك من أنه لما تعرضت تلك المرأة إلى جريج ، والنساء أكبر الفتن على الرجال ، وقد قال ﷺ (ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء)[1] عصم منها ، ثم ادّعت عليه حتى هدّت صومعته ، لم يضره ذلك ، وجعل الله ، عزّ وجلّ ، له خير مخرج ، حتى رغبوا أن يبنوا له صومعته من ذهب ، وما ذاك إلا لما كبر قدره عندهم .

وفيه دليل على أن النساء في بني إسرائيل كنّ يُصَدَّقن فيما يدّعِين على الرجال من الوطء ، ويلحق به الولد بغير بينة ، ولولا ذلك ما كان يحتاج إلى تبرئته لكلام الطفل . فإنه لو كان في شريعتنا حُدَّت له ثمانين حَدَّ الفِرْية ، ولم تُصَدَّق عليه . وقد جاء عن بني إسرائيل أن ذلك كان من شأنهم ، حتى إن الباغية منهم إذا حملت ادّعت به على من شاءت ممن تعرف ، وتُلحِق به الولد ، وتقول له : يا فلان كان بيني وبينك كذا وكذا في اليوم الفلاني ، ومنك هذا المولود . فيَقبَل قولَها ويُـلحِقُـه بنَسَبه .

وفيه دليل على أن صاحب الصدق مع مولاه عند الضرورة يطلب النصر من مولاه بخرق العادة ، بصدق وإدلال على فضله تعالى ، وأن الله ، عزّ وجلّ ، يفعل معه ذلك . يؤخذ ذلك من إتيان جريج بعد الركعتين الصبيَّ يسأله مَنْ أبوه؟ فأنطق الله ، عزّ وجلّ ، له المولود ، لكونه قصَدَه موقِناً بقوة الرجاء في فضله تعالى ، وقد أوحى الله ، عزّ وجلّ ، في الزبور لداود عليه السلام (قل لبني إسرائيل من ذا الذي سألني فلم أعطه)؟

وفيه دليل على أن صاحب الصدق مع الله تعالى عند النوازل لا يجزع ولا يفزع ، بل يَـقوى

---

(١) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه ـ والرواية بدون كلمة (هي) .

يقينهُ لثقته بمولاه عزّ وجلّ. يؤخذ ذلك من كون جريج لمّا فُعِل به ما فُعِل لم يَهُلْه[1] قولهم ولا فعلهم، وقرع باب مولاه وهو يجرّ ذيول فخر قوة رجائه في كشف ما به ابتلاه، فأسرع، عزّ وجلّ، له بلطفه الجميل بنطق الطفل بكشف غمته (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)[2]، ولذلك قال موسى، عليه السلام، حين قال له قومه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[3] لقوة رجائه في مولاه، ففلَقَ له، عزّ وجلّ، من حينه البحرَ تصديقاً لدعواه، لأنه جلّ ثناؤه يقول ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[4] أي كافيه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[5]؟

وفيه دليل على أن حقيقة النصر في جميع الأمور إنما هي بفضل الله، عزّ وجلّ، لا تتوقف على سببِ حكمةٍ ولا غيرِها فتارة تكون مغطاة بأثر الحكمة، وتارة تكون بيد القدرة بارزة لا مغطاة بحكمة، كمثل ما نحن بسبيله في قصة عيسى، عليه السلام، ومن ذكر معه في الحديث، فجاء النصر لأم عيسى، عليه السلام، ولجريج بإبراز قدرة القادر لا غير.

وفيه دليل على أن خرق العادة تكون للأنبياء، عليهم السلام، في ذلك ولغيرهم، وقد تقدم الكلام على الفرق بينهما في ذلك. يؤخذ ذلك مما جرى لعيسى، عليه السلام، من خرق العادة، وهو من الأنبياء، والرسل، وخرق العادة التي جرت لجريج وجرت للمرأة التي ليست من الأنبياء ولا من العبّاد. أعني أن خرق العادة كانت على صفة واحدة، لكنها في حق الأنبياء تسمى معجزة، وفي حق الأولياء كرامة.

وفيه دليل على أن من أدب السنّة الكناية عن الأمور الفاحشة. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (أتته امرأة فكلّمته فأبى) والمعنى: طلبت منه إيقاع الفاحشة، فكنى ﷺ عن ذلك بقوله (فكلّمته).

وفيه دليل على أن من أدب السنّة إظهار أهل الخير وإن كانوا قد ماتوا، والستر على أهل المخالفات. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ سمّى العابد باسمه لتشتهر فضيلته، ولم يذكر اسم المرأة سَتراً عليها، فحاله ﷺ يصدّق مقاله، لأن من مقاله، عليه الصلاة والسلام (المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه)[6]. كل منا يريد أن تُستر عليه زَلّاته، ويحب أن يكون قدوة لأهل الخير. وقد نص

---

(١) لم يَهُله: لم يفزعه. من هاله يَهُوله.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وعبارة (فليظن بي ما شاء) جاءت في متن حديث رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان ٦١ و٦٢.

(٤) سورة الطلاق، من الآية ٣.

(٥) سورة النساء، من الآية ٨٧.

(٦) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

الكتاب العزيز على ذلك بقوله عزّ وجلّ ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1] ولا يكون إماماً يُؤتَمّ به في الخير حتى يكون مشهوراً به. فكذلك فعله ﷺ هنا أشهر صاحبَ الخير، وستر على صاحب الشر. وكذلك في قوله (فأتت راعياً) ولم يسمّه باسمه من أجل الستر عليه.

ويترتب على ذلك من الفقه أنه إذا علمتَ من أحد فَعَلَ شراً أن تخبر عن ذلك الفعل ولا تسمّي صاحبه، وأن ذلك ليس بغيبة. وقد ذكر ذلك بعض العلماء، إلا أن يكون صاحب بدعة، فيتعين عليك شهرته، لأن ذلك من باب النصح للمسلمين.

وفيه دليل على أن صاحب المعاصي لا حرمة له. يؤخذ ذلك من أنه لما نسبت المرأة الفاحشة إلى جريج لم يبقَ له عندهم حرمة، وهدموا صومعته وسبّوه.

وفيه دليل على أن المؤمن عند المحن: الصلاةُ جُنَّته[2]. يؤخذ ذلك من أنه لما فعلوا به ما فعلوا لم يجاوبهم وتوضأ وأقبل يصلي، فألهم لِطريقِ الخلاص. وقد قيل: إن الصلاة كهف المؤمن.

وفيه دليل على أن أبناء الدنيا وقوفهم مع الخيال الظاهر، وأن أصحاب الاطلاع وقوفهم مع حقيقة الباطن. يؤخذ ذلك من أن أم الصبي التي كانت ترضعه لما رأت صاحب الشارة تمنت أن يكون ابنها مثله، ولما مُنَّ على الطفل بمعرفة الباطن استعاذ منه، كما أخبر سبحانه عن قارون بقوله ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[3].

وفيه دليل على أن نفوس أهل الدنيا تعاف سوء الحال فيها، وأن أهل الاطلاع والتحقيق لا يبالون بذلك إذا كانت السريرةُ حسنة. يؤخذ ذلك من كون أم الولد لمّا رأت سوءَ حال الأمةِ استعاذت بالله من أن يكون لولدها مثل حالها، ولما أعطي الصبي الاطلاع على حسن حال باطنها تمنى أن يكون مثلَها. وكذلك قصة يوسف، عليه السلام، مع أخيه لما اجتمع معه فقال له: نجلس معك، ولا نقدر أن نفارقك. فقال له: لا يمكن ذلك حتى تصبر بأن تقر على نفسك في الظاهر باسم السرقة. فهان عليه قبح ما نسب إليه في الظاهر، لحسن ما أمّله في الباطن. فجُعِل الصُّواعُ[4] في

---

(١) سورة الفرقان، من الآية ٧٤.

(٢) جُنَّتُه: سترته. يقال: الصوم جُنَّة أي وقاية من الشهوات.

(٣) سورة القصص، الآيتان ٧٩، ٨٠.

(٤) الصُّواع: المكيال أو الإناء يشرب به. ويجمع على صيعان.

حِمْله. وكان من شأنهم ما قَصَّهُ الله، عزّ وجلّ، في التنزيل. وقد قيل: في حبك خلعت عذاري، فلا أبالي ما أرتكب فيه من الأخطار.

وفيه دليل على أن البشرية طبعت على إيثار الأولاد بالخير على نفوسها. يؤخذ ذلك من أن المرأة ما طلبت الخير إلا لابنها، ولا طلبت دفع الشر إلا عنه، ولم تبال بنفسها.

وفيه دليل على أن من السنة التشبه بأهل الخير. يؤخذ ذلك من كون سيدنا ﷺ لما أخبر عن رجوع المولود يَمَصّ ثدي أمه أخذ ﷺ يمص أصبعه تشبهاً به، لأنه من أهل الخير، بدليل أن الله تعالى قد أطلعه مع صغره على حقيقة غيب ذينك الشخصين، وأنطقه به، واختار لنفسه ما هو الأقرب إلى الله تعالى. وتشبه ﷺ بذلك، الطفل لكون حاله يدل على أنه من أهل الخير إرشاداً لنا إلى ذلك، وقد قيل: إن التشبه بالكرام فلاح[1].

وفيه دليل: على فضل أهل الصوفة. يؤخذ ذلك من أنهم آثروا جانب الحق ولم يبالوا بظواهر الأمور، وما لاقوا في ذات الله تعالى، كمثل صهيب[2] وبلال[3]، مع كونهم مسرورين بذلك، وكما أخبر مولانا سبحانه عن امرأة فرعون[4]. وقد قيل: طريق الخير فارتكب، وتشبه بأهلها، ولا تعدل عن ذلك فتهلك، فطريق القوم خير كله، والتشبه بالكرام فلاح كله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) هذا عجز من بيت:

فَتَشَبَّهوا إن لم تكونوا مِثْلَهم ... إنّ التشَبُّه بالكرام فَلاحُ

(٢) صهيب: الرومي، ابن سنان بن مالك من بني النمر بن قاسط، صحابي. أبوه من أشراف الجاهلية، ولاه كسرى على الأبلة (البصرة) وكانت منازل قومه في أرض الموصل على شط الفرات مما يلي الجزيرة والموصل، وبها ولد صهيب فأغارت الروم على ناحيتهم فسبوا صهيباً وهو صغير، فنشأ بينهم، واشتراه منهم أحد بني كلب وقدم به مكة، فابتاعه عبدالله بن جدعان ثم أعتقه، فأقام بمكة يحترف التجارة إلى أن ظهر الإسلام فأسلم، فلما أزمع المسلمون الهجرة إلى المدينة، وأراد أن يهاجر معهم منعه مشركو قريش وقالوا: جئتنا صعلوكاً حقيراً فلما كثر مالك هممت بالرحيل؟ فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. فجعل لهم ماله أجمع. فبلغ النبي ﷺ ذلك فقال: ربح صهيب ربح صهيب. وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها، وروى ٣٠٧ أحاديث وتوفي بالمدينة سنة ٣٨هـ. وفي الحديث: أنا سابق العرب؛ وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة.

(٣) تقدمت ترجمة بلال في الحديث ٣٧.

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سورة التحريم الآية ١١.

ــ ١٨٨ ــ

حديث من أمر عند موته بحرق جسده خشية من الله تعالى

عَن حُذَيفة[١]، رضي الله عَنهُ، قالَ: سَمعتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ: إنَّ رَجُلاً حضَرَهُ الموتُ، فلمَّا يئِسَ مِن الحياةِ أوصى أهلَهُ: إذا أنا مِتُّ فاجمَعُوا لي حَطباً كَثيراً وَأوقِدُوا فيهِ ناراً، حَتَّى إذا أكَلَت لَحمي، وخَلَصَتْ إلى عَظمي، فامتحَشتُ[٢] فَخُذوها فاطحنوها، ثُمَّ انظُروا يَوماً راحاً فاذْرُوهُ في اليَمّ. فَفَعَلوا. فَجمَعهُ الله تعالى فَقالَ لَـهُ: لِمَ فَعلتَ ذلك؟ قالَ مِن خَشيتِكَ. فَغَفَر الله لَـهُ.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على أن الخشية لله من موجبات المغفرة. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: كيف فعل هذا بنفسه ما فعل، وظن أن ذلك منجٍ له من الله عزّ وجلّ؟ فإن كان هذا الشخص غير مؤمن فليس تناله الرحمة، وقد نالها، وإن كان مؤمناً فكيف يجتمع هذا الفعل مع الإيمان. وقد جاء في رواية أخرى: لئن قَدَر الله عليَّ لَيعذِّبَنّي عذاباً شديداً؟

فالجواب عن ذلك: أما أن يكون غير مؤمن فلا، لأن الحديث يدل على إيمانه، لأنه أيقن بالحساب، وأن السيئات يعاقَب عليها، وهذه علامة المؤمن. وأما كونه فعل ذلك بنفسه فلعله كان

---

(١) حذيفة بن اليمان: صحابي من الولاة الشجعان، كان صاحب سرّ النبيّ ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره. وكان عمر رضي الله عنه إذا مات ميت يسأل عن حذيفة فإن حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر، وإلا لم يصلّ عليه. وولاه عمر على المدائن بفارس، فأقام فيها وأصلح بلادها، وهاجم نهاوند سنة ٢٢ فصالحه أهلها على جزية، وغزا الدينَوَر وماه سندان فافتتحهما عنوة، كما غزا همذان والري وافتتحهما، واستقدمه عمر إلى المدينة فراه على الحال التي خرج بها، فعانقه وسُرّ بعفته، ثم أعاده إلى المدائن. له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً. قتل أبوه في أُحد خطأ على يد المسلمين فوهب لهم دمه. وكان حذيفة يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يقع فيه، وكان أعلم الناس بالفتن حتى قيام الساعة. توفي بالمدائن سنة ٣٦هـ بعد قتل عثمان رضي الله عنه بأربعين ليلة.

(٢) امتحشت: احترقت احتراقاً تاماً.

في شريعتهم جائزاً، ومثله لمن أراد التوبة مثل ما فعل بنو إسرائيل الذين لم تُقبَل توبتهم حتى قَتَلوا أنفسَهم.

واحتمل أن يكون ذلك جهلاً منه ببعض الصفات. وقد قال العلماء: إن الجهل ببعض الصفات لا يُخرِج صاحبَه عن الإيمان. وقد يكون ذلك عن حال خوفٍ غَلَب عليه حتى أخرجه عن حال التمييز ـ وهو أظهرها، والله أعلم ـ لأن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي سماه سيّدنا ﷺ الفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل، من أجل أن يوم إسلامه أظهر الله تعالى الإسلام، وعُبِد الله جهراً، كان إذا ورد عليه الخوف يأتي بابَ حُذَيْفَةَ في جوف الليل ويقول: ناشدتُكَ الله، أنا ممّن عَدَّني النبيُّ ﷺ من المنافقين؟ فيقول حذيفة: والله ما أنتَ منهم. فيقول له: إنك عندي لصادق، ولكن عملي يشبه عملهم.

فيرجع إلى بيته فيبكي على نفسه حتى يصبح، وربما التزم من ذلك الفراش حتى يعوده أصحابه، وهو ممن شهد له سيّدنا ﷺ بالجنة، لكن عند الخوف وقوّته كان لا يلهم لشيء من ذلك، ويخاف على نفسه أشد الأشياء وهو النفاق. وآخر الحديث يصدّق ذلك، لكونه حين سأله جلّ جلاله (لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب) فصدق الله تعالى مقالته، وغفر له.

وفيه دليل لأهل الأحوال الذين يقولون: **الحال حامل لا محمول، لأن صاحبه لا يبقى له معه اختيار**، ولذلك قال ﷺ (لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاستويا)[1]. فمن أحد وجوهه أنه بأيهما اتّصف المؤمن بلغ به مثل ما بلغ به صاحب القسم الآخر، وقد قيل لبعض الفقراء في بعض أحواله: إن جئتنا بالخوف أمّناك، وإن جئتنا بالرجاء بلّغناك. ويحتمل أن يكون المراد بقوله (لئن قدر الله عليّ)، بمعنى لئن ضيّق الله عليّ بإقامة عدله سبحانه وتعالى، فيكون مثل قوله تعالى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2] معناه أن لن نضيق عليه، وكذلك قوله تعالى ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾[3] أي ضيق عليه، وهذا هو الظاهر، والله عزّ وجلّ أعلم.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من جمع ذلك الشخص بعدما فعل بنفسه مثل ذلك الأمر. وأظن أنه قد جاء من طريق آخر أن جمعه كان في مثل لمحة الطرف. فسبحان من لا تعجز قدرته عن شيء أراده.

---

(١) ليس بحديث وإنما رواه أبو نعيم في الحلية ٢/٢٠٨ من كلام مطرف بلفظ: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لوجدا سواء، لا يزيد أحدهما على صاحبه، ورواه عنه البيهقي في شعب الإيمان ٢/١٢ رقم (١٠٢٤ و١٠٢٥).

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ٨٧.

(٣) سورة الفجر، من الآية ١٦.

وفيه دليل على جواز تسمية الشيء بما قرب منه. يؤخذ ذلك من قوله (حضره الموت) ولم يعن بذلك إلا قرب ذلك بالعلامات الدالة عليه، لأنّ عند حضوره الذي هو وقوعه لا يمكن ذلك الوقت وصية ولا غير ذلك.

وقوله (يوماً راحاً) أي كثير الريح. وقوله (في اليمّ) أي في البحر. وقد جاء من طريق آخر (فنصفه في اليمّ ونصفه في البرّ).

وفيه دليل على فضل هذه الأمة. يؤخذ ذلك من كونها اطلعت على أخبار من قبلها مثل هذا وأمثاله، ولم يطلع أحد على أخبارها، لأنها آخر الأمم.

ومن فوائد ما يترتب على الإخبار بهذا الحديث أن تعلم قدر ما منّ الله تعالى علينا به، من قبول التوبة في مثل هذا الوقت الذي فعل هذا الشخص هذا الأمر العظيم فيه بنفسه، من تلك الوصية لقوله ﷺ (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[1] أي تبلغ الروح إلى الحلقوم، وهو عند معاينة ملك الموت.

مَنّ الله علينا بشكرها من نعمة، ومَنّ علينا بقبول التوبة قبل الغرغرة بفضله. وقد قيل: داوِ بِمَراهِمِ التوبةِ جُرحَ ذنبك، فبُرؤُها أسرعُ من طرفة العين، واحتَلْ في جميع أسبابها، فلعل ميسِّرَ الأمور بفضله يُيَسِّرُها.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم وابن حبان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

— ١٨٩ —
حديث الوفاء ببيعة الأمراء

عَن أبي هُرَيرةَ، رضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: كانَت بنو إسرائيل تَسوسُهُم[١] الأنبياء، كُلَّما هَلَك نَبيّ خَلَفَهُ نَبيّ، وإنَّهُ لا نَبيَّ بعدي. وَسيكونُ خُلَفاءُ فَيكثُرونَ. قالوا: فَما تأمُرُنا؟ قالَ: فُوا بيعَةَ الأوَّلِ فالأوَّلِ، أعطوهُم حَقَّهُم، فإنَّ الله سائِلُهُم عَمَّا استرعاهُم.

* * *

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام: (**الأول**) الإخبار بكثرة أنبياء بني إسرائيل، وأنهم كانوا يسوسون بني إسرائيل كلما هلك نبي خَلَفه نبي. (**والثاني**) الإخبار بأنه ﷺ آخر الأنبياء ولا نبي بعده. (**والثالث**) الإخبار بكثرة الخلفاء والأمر بحفظ بيعة الأول، والوفاء لهم بحقوقهم، وترك الحقوق التي عليهم لله حتى يسألهم عنها. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى (تسوسهم)؟ وأي شيء هو المقصود من الإخبار بأن بني إسرائيل كانت الأنبياء، عليهم السلام، تسوسهم.

فأما معنى (تسوسهم) أي تهديهم إلى طريق النجاة وتلطف بهم في الحمل عليها، كما يسوس الرائض الدابة ويحملها على الطريق الحسنة، ويعلمها الخُلُق الجميل.

وأما الحكمة في الإخبار بهذا فهي إشارة إلى أنكم بعدي ليس لكم من يسوسكم، فلا تغفُلوا عن سياسة أنفسكم، وحافظوا على ما هُدِيتم إليه. وقد جاء هذا المعنى مبيَّناً في أحاديث كثيرة، فمنها قوله عليه الصلاة والسلام: (تركت فيكم الثَّقَلين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما، كتابَ الله وعِترتي أهلَ بيتي)[٢]. معناه أن هذين يقومان لكم مقام الأنبياء لبني إسرائيل، وقوله، عليه السلام، في

---

(١) ساس الحاكم الناس: تولى قيادتهم ورئاستهم وتدبير أمورهم العامة. ومنه اشتقت كلمة السياسة. أما (سياسة الأنبياء) فهي بمعنى الحكمة في الإدارة ضمن شرع الله. ويختلف مضمون لفظ (السياسة) اليوم عن مضمون (الحكمة) المراد منه أصلاً.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والطبراني في الصغير ولفظه في الترمذي: قال رسول الله ﷺ إني تارك فيكم ما إن=

حديث آخر: (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)[1] معناه أن علماء هذه الأمة تسوسهم وترشدهم إلى طريق الحق، كما كانت أنبياء بني إسرائيل. من هذا الوجه يكون الشبه بينهم، لا أن أحداً من بني آدم تكون درجته مثل درجة نبيّ من الأنبياء، عليهم السلام، فإن الأنبياء، عليهم السلام، أرفع الناس درجة وأعلاهم منزلة.

وفيه دليل على حسن طريقة الأنبياء عليهم السلام، إذ جبل الكل على حسن اللطف بقومهم. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، عن بني إسرائيل: إن جميع أنبيائهم كانوا يسوسونهم. والسياسة لا يمكن توفيتها إلا ممن قد طبع على أحسن الخلق.

وفيه دليل على قطع الوحي من الأرض، وتكذيب من ادعى من ذلك شيئاً بعد وفاته ﷺ. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: (لا نبيّ بعدي)[2].

وفيه دليل على فضل علماء أمة محمّد ﷺ. يؤخذ ذلك من الحديث الذي استدللنا به وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل). فالدليل منه على فضل علماء أمته، عليه السلام، أن جعلهم في الهدى والسياسة لأمته كأنبياء بني إسرائيل لبني إسرائيل.

وفيه دليل على تقديم آكد الحقَّين إذا تعارضا. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (أعطوهم حقوقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم). معناه: لا تمنعوهم أنتم حقوقهم لكونهم يمنعونكم حقوقكم، فأعطوهم ما لهم من الحقوق، واتركوا أنتم حقوقكم، فإن الله ينصفكم منهم. لما تعارض حق المَلِك وحق المسترعي كان حق المَلِك آكد، لأنه يترتب عليه حق متعد، قدم على حق المسترعي لأن الخير فيه مقصور عليه، وهو لا يفوته، إما أن يأخذه في هذه الدار، وإما أن يأخذه في الدار الأخرى، فقدم الأهم. وهذه قاعدة مطردة إذا تعارض أمران قدم أيهما أنفع.

وفيه دليل على أن الله سبحانه وتعالى لا يغادر من حقوق عباده صغيراً ولا كبيراً. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (فإن الله سائلهم عما استرعاهم) يدخل تحت ذلك الدِّقّ والجِلّ.

= تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يَرِدا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما. ولفظ (الثقلين) عند الإمام أحمد ومسلم.

(١) ليس بحديث، نصّ على ذلك السخاوي وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة، والفتني في تذكرة الموضوعات، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة، والعجلوني في كشف الخفا والشوكاني في الفوائد المجموعة، والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة.

(٢) رواه الطبراني والبغوي عن أبي قيلة بلفظ: لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، فاعبدوا ربكم، وأقيموا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ولاة أمركم، ثم ادخلوا جنة ربكم.

ومما يقوي ذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1] أي لا يغادر ذرّة ولا أقل ولا أكثرَ منها.

وفيه دليل على أن كلَّ من له حق يوفى له يوم القيامة، وإن لم يكن هو يعلمه، لأن كثيراً من الناس لا يعلم قدر الحق الذي له على الخليقة. فإذا كان الله سبحانه وتعالى يحاسبه عما استرعاه فلا شك أنه يوفي لصاحب الحق حقه، وإن لم يكن يعلم صاحب الحق به.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله، وأنه سبحانه ليس كمثله شيء. يؤخذ ذلك من إخباره، عليه السلام، بأنه، عزّ وجلّ، يسأل جميع الخلفاء عن كل ما استرعاهم عليه واحداً واحداً. وكم على كل خليفة من العالمين تَداخَلُ الحقوق بعضها على بعض فيما أخذوا فيه! هذا في الخلفاء ليس إلا، وفيما بين الناس أيضاً، ويكون الفراغ من الحساب العظيم وهذه المناقشة العظيمة في قدر ما يفعل صلاة واحدة من المفروضات. وقد جاء قدر ركعتي الفجر، ولذلك كان سيّدنا ﷺ يخففهما رجاء في تخفيف الحساب على أمته[2] هذا لا تقدره العقول ولا تحيط به الأفهام، ولا يمكن أن يكون هذا من صفة من يُحَدّ أو يُكَيّف[3]. فإن هذا لا يدخل تحت هذه الحدود، ولا تحت حدّ محدود. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يرون تبرئة ذممهم ولا يعبأون بما لهم، لعلمهم، بأنه عزّ وجلّ لا يغادر من حقهم شيئاً، فأراحوا أنفسهم من أجل التصديق بهذا الخبر ومثله، فاستراحوا وأفلحوا.

وفيه دليل على تقديم أمر الدّين على غيره. يؤخذ ذلك من تقديم حق الراعي على حق رعيته، لأن حق الراعي به صلاح الدين، لأنه قال ﷺ (إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[4].

وفيه دليل على أن تأخير الحق لا ينقصه. يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: (فإن الله سائلهم عما استرعاهم). فالتأخير لم يبطله إذا كان الله سائلاً عنه.

---

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٤٧.

(٢) ورد في هذا المعنى أحاديث عدة منها أن النبيّ ﷺ كان يصلي ركعتين خفيفتين بين النداء والإقامة من صلاة الصبح؛ وفي رواية كان يصلي ركعتي الفجر فيخففهما حتى أقول: هل قرأ فيهما بأم القرآن؟ أخرجه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) من أسس العقيدة الصحيحة أن الله تعالى ليس بعرَض، ولا جسم، ولا جوهر، ولا مصوَّر، ولا محدود، ولا معدود، ولا متبعض، ولا متجزىء، ولا متركب، ولا متناه، ولا يوصف بالماهية، ولا بالكيفية، ولا يتمكن في مكان، ولا يجري عليه زمان، ولا يشبهه شيء... إلخ.

(٤) هذا القول مشهور من قول عثمان رضي الله عنه.

وفيه إشارة من طريق القوم الذين يقولون بتحمل الأذى وإدخال السرور. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (أعطوهم حقوقهم). ولا سرور أعظم من إعطاء الحقوق لأهلها، وحمل الأذى، ولأن حمل الأذى أشد على النفس من أن يكون لك حق وعليك حق، فتعطي ما عليك، وتترك ما لك، لا تطلبه، فهذا عدم النصرة لها، وهو غاية التسليم والمجاهدة، وهو أعلى أحوال القوم. وأما ذكر حق الراعي وحق المسترعي ما هو، فقد ذكرناه أولاً في حديث البيعة.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ١٩٠ ـ

حديث عيوب أهل الكتاب واتباع هذه الأمة لها

عَن أبي سَعيدٍ[١]، رَضي الله عَنهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ[٢] الَّذينَ من قَبلِكُم شبراً بِشبرٍ وَذراعاً بِذراعٍ، حَتَّى لَو سَلكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكتمُوه. قُلنا: يا رَسولَ الله، اليَهُودُ والنَّصارى؟ قالَ: فمن؟

* * *

ظاهر الحديث يدل على اتباع هذه الأمة سَنَنَ اليهود والنصارى. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: ما معنى اتباعهم؟ وفيم يكون الشبه من سنَنَهم؟ هل على العموم أو في بعضها؟ وإن كان في بعضها فما هو؟ وما معنى شبراً بشبر وذراعاً بذراع؟

فأما الجواب عن الأول فقد يكون (سنَنَهم) بمعنى طريقهم، لأن السنة بمعنى الطريقة كقوله تعالى ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾[٣] أي الطريقة التي عادته، عزّ وجلّ، لا يخلفها لهم ولا فيهم.

وأما الجواب عن (سنن من قبلكم) هل على العموم في جميع طرقهم أو على الخصوص؟ احتمل. لكن الظاهر العموم، بدليل الحديث نفسه بقوله عليه السلام (حتى لو سلكوا جُحْرَ ضبٍّ لسلكتموه). وأما من خارج فقد جاءت أحاديث كثيرة تبين ذلك، فإن من طريق من تقدم اختلافهم كما أخبر بذلك ﷺ في أمته، وهو قوله ﷺ (افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين)[٤].

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديثين ٤٨ و٨٥.

(٢) السَّنَن: الطريقة والمثال.

(٣) سورة غافر، من الآية ٨٥.

(٤) حديث متواتر رواه أصحاب السنن عن عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم. وتتمة الحديث قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي.

ومنها أنهم بدّلوا الأحكام، وقد أخبر ﷺ بذلك في أمته، حيث قال ﷺ (ويعود الحكم مَغرَماً)، وقال عليه السلام (تُحَل عُرى الإسلام عُروة عُروة، كلّما حلّوا عروة تشبثوا بالتي تليها، فأول عروة يحلّونها الأحكام، وآخر عروة يحلونها الصلاة)[1]، وقال: ومنها التحاسد بينهم.

وقد أخبر ﷺ بذلك عن أمته بقوله عليه السلام (يأتي في آخر الزمان أقوام أصدقاء العلانية أعداء السريرة)[2]، وما كان فيهم من نقص الكيل، والربا، وعمل قوم لوط، والكذب، والمناكر - فقد ظهرت في هذه الأمة - وما كان من التكالب على الدنيا والفساد في الأرض - فقد ظهرت أيضاً - وما كان فيهم من الارتداد بعد الهدى قد أخبر ﷺ أنه سيكون في هذه الأمة، وهو قوله عليه السلام عند ذكر الفتن (يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرض من الدنيا)[3]. ولو لم يكن فيهم إلا ردة الدجال لكانت كافية، وهي واقعة حقاً.

وكل ما كان فيهم مما يشبه هذا إذا تَتَبَّعْتَها تراها قد ظهرت. وقد أخبر عنها الصادق ﷺ فهي ستظهر لا محالة، أعاذنا الله من الجميع بجاهه عند الله ﷺ. وما كان من المسخ فيهم فقد أخبر الصادق ﷺ أنه في هذه الأمة، إلا أنه في القلوب، فببركته ﷺ أنه ستر على أمته تشوّه الصورة الظاهرة، وبقي في القلوب، كما أخبر به عليه السلام. فترى الشخص صورته باقية وهو قد مسخ قلبه صورة كلب، وهم الشُّرط والجنادرة[4] وشبههم. تراهم طول يومهم يروّعون الناس ويعيّطون في وجوههم. ومنهم من يمسخ قلبه صورة خنزير، وهم أهل القذارة والبلادة.

فهكذا تتبع بنظرك صفة كل شخص في خلقه تستدل بذلك على مسخ قلبه ما هو، وقد يبقى متحيراً لا مسخ في قلبه إلا أن قلبه قد مات. وقد أخبر بذلك الصادق ﷺ بأنه (يأتي زمان يموت فيه قلب المرء كما يموت بدنه)[5] أو كما قال عليه السلام، لأن القلب إذا لم تبق فيه تلك الحرارة الغريزية حتى يفقه مصالحه فهو ميت. وقد يكون موته حقيقياً والله أعلم، والقدرة صالحة أن يكون

---

(١) رواه الإمام أحمد وصححه ابن حبان والحاكم ولفظه: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لَتُنْقَضَنَّ عرى الإسلام عروة عروة، فكلّما انتقضت عروة تشبَّث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة.

(٢) رواه الإمام أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ولفظه في المسند عن معاذ رضي الله عنه: يكون في آخر الزمان أقوام، إخوان العلانية أعداء السريرة، فقيل: يا رسول الله، فكيف يكون ذلك؟ قال: ذلك برغبة بعضهم إلى بعض ورهبة بعضهم من بعض.

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ومطلعه: بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل، يصبح الرجل مؤمناً إلخ.

(٤) الجنادرة: عسكر الأرياف.

(٥) رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف.

حسياً أو يكون معنوياً. فإنه إذا لم ينتفع بقلبه في النوع الذي أريد منه، وتوالت عليه الشهوات حتى لا يرى إلا هي، فذلك موت، لأن الفائدة التي في حياة القلب معدومة عنده، ولذلك شبّه ﷺ الذاكر لربه بالحيّ، والغافل بالميت.

واحتمل أن يكون موته حسياً كيف شاء القادر سبحانه وتعالى، كما يَيْبَسُ عضو من أعضاء الشخص مثل يده أو رجله أو غيرهما من الجوارح، وباقي بدنه صحيح. والقدرة صالحة.

ومن سَنَن مَنْ قبلَنا أنهم بدّلوا بعض كتبهم كما أخبر الله، عزّ وجلّ، عنهم بقوله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1] وقد أخبر، عزّ وجلّ، عن هذه الأمة بمثل هذا في قوله تعالى ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[2] والآي والأحاديث في هذا كثيرة. فتكون فائدة الإخبار بهذا الحديث التحرّز عن مثل هذا نصحاً منه ﷺ، واختصاراً في اللفظ وإبلاغاً في الإنذار، لأن الآي والأحاديث في هذا كثيرة ـ كما قدمنا ـ وكثير من الناس لا يعرفها، وإن عرفها فلا يقدر أن يُحصِيَها، فجاء هذا الحديث من أبدع البلاغة في الإنذار والتحذير عن كل ما تضمنته الآي والأحاديث. فجزاه الله عنا أفضل ما جازى نبياً عن أمته، وجعلنا من صالحي أمته بمنّه.

وأما قوله عليه السلام (شبراً بشبر وذراعاً بذراع) فمعناه أنكم لا تتركون منها شيئاً إلا فعلتموه، زيادة بيان كما ذكرناه آنفاً، وكذلك قوله عليه السلام (حتى لو سَلَكوا جُحْرَ ضَبٍّ) مبالغة في الاتباع.

وفيه دليل على الإخبار بالعام والمراد به الخاص. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم) وهو عام، ولم يرد ممن قبلنا إلا قوماً مخصوصين، وهم اليهود والنصارى.

وفيه دليل على مراجعة العالِم إذا بقي في كلامه على السامع احتمال. يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم له ﷺ (اليهود والنصارى)؟ سؤال استرشاد وتثبت، فإن حسن السؤال نصف العلم، فاستفهموا لزوال الاحتمال.

وفيه دليل على جواز مخاطبة البعض بلفظ الكل. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لتتبعن سَنَن الذين من قبلكم)، وهو، عليه السلام، يخاطب الحاضرين ـ وهم البعض من أمته ـ وخطابه، عليه السلام، لجميع الأمة.

وفيه دليل على جواز أن يضاف للشخص ما يفعله من هو مشترك معه في وصف ما من

---

(١) سورة النساء، من الآية ٤٦.
(٢) سورة آل عمران، من الآية ٧.

الأوصاف، وإن كان المخاطب ليس فيه من ذلك الفعل شيء. يؤخذ ذلك من حفظه ﷺ لهؤلاء السادة، وهم بالقطع ليس فيهم من هذه الأوصاف التي ظهرت بعدهم. ولا من التي لم تظهر لنا بعدهم. فلما كان اسم (الأمة) يقع عليهم خاطبهم بذلك من أجل متضمن الاسم.

وفيه دليل على أن حسن الكلام والاختصار في اللفظ، إذا فهم المعنى. يؤخذ ذلك من جوابه ﷺ لهم حين قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ ولم يزد على ذلك شيئاً. لأنهم فهموا بهذه الإشارة أنه، عليه الصلاة والسلام، لم يرد غيرهم، واختصر بهما طوال الكلام والتطويل. وفي ذلك من الحسن كل بديع.

وفيه دليل على التحذير عن حال المجاهرين بالمناكر، وليس ذكرهم بذلك على هذا الوجه بعينه. يؤخذ ذلك من تحذيره، عليه السلام، عن عيوب أهل الكتاب، وفيهم من المسلمين المتّبعين بمقتضى شرعهم كثير، فلما أظهروا المناكر لم يكن ذكرهم بها والتحذير عنها غيبة. ومما يؤيد ذلك ويقويه قوله عليه السلام (لا غيبة في فاسق)[1].

وفيه دليل على كثرة شَيْن المعاصي. يؤخذ ذلك من سوء الثناء عليهم، وتحذيره ﷺ عنهم وعن طريقتهم بعد موتهم. فشؤم المعصية أورثت سوء الثناء، كما أن بركة الطاعة أورثت حسن الثناء في الحياة وبعد الموت، ولذلك قيل: إن أهل الخير وإن ماتوا أحياءٌ بين الأنام، فإن ذِكرَهم بحسن الثناء إحياءٌ لتلك الرِّمَم. يحبهم قلبي. والدعاء لهم في كل حين حسن.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) الأحاديث الواردة في هذا الموضوع عدة منها: (من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له). أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس رضي الله عنه بسند ضعيف، ومنها (أترعوون عن ذكر الفاجر، اهتكوه حتى يعرفه الناس، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس). أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء، وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله «حتى يعرفه الناس» ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت. وقال عمر رضي الله عنه: ليس لفاجر حرمة. وقال الحسن: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر. يبدو أن ما أورده المؤلف ابن أبي جمرة رضي الله عنه لا أصل له، ذكر ذلك صاحب المقاصد عن العقيلي.

ـ ١٩١ ـ

حديث النهي عن دخول بلد بها طاعون وعن الفرار منه

عَن أُسامَةَ رضي الله عَنهُ قالَ: قالَ ﷺ: الطَّاعونُ رِجس أُرسِلَ على طائِفَة من بنِي إسرائيلَ ـ أو على مَن كان قَبلكُم ـ فإذا سمِعتُم بِهِ بأرضٍ فَلا تَقدَموا عَليهِ، وإذا وَقَعَ بأرضٍ وأنتُم بها فلا تَخرجوا فِراراً منهُ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار أن الطاعون رِجْسٌ أُرسِل على طائفةٍ من بني إسرائيل. ثم بعد ذلك يدل على حكمين: (أحدهما): مَن سمع أن الطاعون بأرضٍ فلا يدخُلْها. و(الآخر): النَّهي لمن كان بأرضٍ ووقع الطاعون بها فلا يخرج فراراً منه. والكلام عليه من وجوه:

ومنها قوله (على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم) الشك هنا من الراوي في أيهما قال سيّدنا ﷺ، وهذا دال على تحريهم في النقل وصدقهم.

قوله (رجس) أي عذاب. وهنا بحث في قوله عليه السلام (فلا تَقْدَموا عليه، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه) هل هو تعبد لا يعقل له معنى، أو له وجه من الحكمة يعقل؟

أما قوله (فلا تقدموا عليه) فوجه الحكمة فيه قد نبّه الكتاب العزيز عليه بقوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1] فإن الدخول إلى موضع النقم يعرض للهلكة، فليجزع من ذلك، وليتأدب بأدب الحكمة. وهذا تنبيه منه ﷺ من أجل أن يأتي أحد ويستعمل هنا متضمن قوله تعالى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[2] فمنع عليه السلام أن يعارض هنا متضمن الحكمة ـ وهو الفرار من المهالك ـ بالقدَرِ فإنه من باب التجربة. والعبودية لا تجرِّب المَواليَّة. ومثل ذلك قال عيسى، عليه السلام، حين لقيه اللعين، وهو في سياحته على قُنَّة جبل فقال له اللعين: تَـرَدَّ من

---

(١) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.

(٢) سورة التوبة، من الآية ٥١.

قُنَّة هذا الجبل وما عليك، لأنك تقول: لن يصيبك إلا ما كتب الله لك. وقد قال عيسى، عليه السلام: إن المولى يجرب عبده، وليس العبد يجرب مولاه.

ويترتب على هذا من الفقه التزام الأدب مع الربوبية، واستعمال الحكمة حيث أمر بها، واستعمال القَدَر حيث أمر به. وفي هذا دليل لأهل السنة، فإن هذه طريقتهم خلافاً للقدرية والجبرية. ولا يعارضنا أحوال القوم الذي عملوا على ألا يلتفتوا في مواضع المهالك إلى شيء من الأشياء ونجوا منها، ولم تضرهم. فإن الانفصال عنه أنهم لم يفعلوا ذلك إلا بغلبة الحال الذي ورد عليهم، حتى لم يروا في الوجود إلا صاحب الوجود، والحال حامل لا محمول. ولهم في ذلك الاقتداء بسيّدنا ﷺ حيث قال عليه السلام (فِرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد)[1]، ثم أكل ﷺ مع المجزوم في صحفة واحدة وقال (بسم الله قل: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)[2].

فالأمر الأول سنته ﷺ، والفعل بعده طريقته ﷺ، فمن كان له حال صادق فهو متبع له عليه السلام في طريقته، ومن لم يكن له حال صادق فليتبع سنته عليه السلام، ولا يدخل في اتباعه في حاله لأنه عري عن الوصف الذي هو شرط فيها، فيكون ممّن ألقى بيده إلى التهلكة، لأنه أتى الشيء من غير وجهه. ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ ثم قال ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[3] فإذا كان معك خير الزاد فسِر حيث شئت، وإن لم يكن معك منه شيء يكفيك فلا تتحرك إلا بالزاد المحسوس المبلغ على العادة في ذلك، وإلا كنت عاصياً.

وفيه دليل على الأخذ بسد الذريعة التي تدل عليه قواعد الشريعة في غير ما موضع.

ويترتب عليه من الفقه أنك إذا أردت أن تقدم على موضع أن تسأل أولاً عن أخباره، حتى تعلم على ماذا تقدم؟ هل يجوز لك الإقدام عليه أم لا؟ لأنه قد يكون بالقرب منه من حيث أن يكون بينك وبينه الميل أو الميلان فتسمع بمثل الطاعون، فلا يجوز لك دخوله، وقد يكون لك في الرجوع مفسدة في حالك أو دينك، فتقع بين محذورَين، ويكون سبب ذلك تفريطك في السؤال عن ذلك الموضع، والمفرط نادم.

وهنا بحث وهو أن يقال: هل هذا النهي يقصر على الطاعون ليس إلا، أو يتعدى ذلك بالعلة ـ وهي حيث يعلم موضع ضرر لا يقدم عليه لا سيما إذا كان متحققاً، أو يكون غالباً في الدين؟ فالنظر

---

(١) رواه البخاري في الطب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: لا عدوى ولا طيرة..

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه ابن حبان. ولفظ الحديث عن جابر رضي الله عنه: أخذ النبي ﷺ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة فقال: كل بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه.

(٣) سورة البقرة، من الآية ١٩٧.

يعطي تعديه من أجل وجود العلة كما عدوا بذلك أحكاماً كثيرة، ويقويه قوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1] وهو لفظ عام.

وأما الحكمة في قوله عليه السلام (وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه) فهو إعلام بأن القدر إذا نفذ لا ينفع أثر الحكمة فيه ولا يرده. فإن الله عزّ وجلّ يقول ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾[2] أي أنه لا يُـرَدُّ وهو نافذ لا محالة. فكما أمرنا قبلاً ألا تعارض الحكمة بالقدر ـ كما تقدم الكلام عليه ـ أرشدنا هنا إلى ألا نعارض القدر بأثر الحكمة، وأن نلتزم الأدب في الطريقين، والتسليم لما اختاره من له الخلق والأمر سبحانه وتعالى، ولذلك قال ﷺ: (لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[3] معناه: التزموا في كل وقت الأدب فيما أقمتم فيه، بحسب ما شرع لكم.

وفي هذا دليل لطريق القوم الذين يقولون: اشغل وقتك بما وجب عليك فيه أو ندبت إليه، ولا تلتفت إلى ما قبل، ولا إلى ما بعد، تفز بربح الدارين، أي بخيرهما.

وفيه وجه آخر من طريق النظر والتحقيق، وهو أنه إذا أرسل ذلك العذاب، على تلك البقعة التي كان الناس بها، فالمقصود بالعذاب أولئك الناس لا البقعة نفسها. فمن كان قد نفذ حكم الله تعالى فيه بإصابة ذلك البلاء فأينما فَرَّ فأمر الله لا يفارقه حيث كان، فهروبه زيادة في التعب. وإن كان ممن لم يقدر عليه بشيء من ذلك فيحصل في قعوده إذا كان صابراً محتسباً أجر شهيد ـ كما ذكر في الحديث بعد هذا ـ وراحة بدنه، وهو ﷺ بالمؤمنين رحيم. فلما علم ما أشرنا إليه أرشدهم إلى ما فيه نفعهم وهو قعودهم حيث كانوا.

وفيه دليل على تحقيق نصحه، عليه الصلاة والسلام، ورفقه بأمته. يؤخذ ذلك من قوله (فراراً منه) حتى يبقى الناس على تصرفهم الذي كانوا عليه قبل هذه النازلة، بحسب ما يقتضيه ما عهدوا من عادتهم في مصالحهم وتصرفاتهم في ذلك، بقدر ما يظهر لهم فيه. فإنه لو لم يرد النهي بهذه الصفة لكان الناس إذا وقع لهم ذلك الأمر زادتهم الشدة، لمنعهم من تصرفهم في منافعهم على عادتهم قبل.

وفيه دليل لمذهب مالك في الذي يكون له مال تجب فيه الزكاة، فيتصرف فيه قبل الحول

---

(١) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.

(٢) سورة الأحزاب، من الآية ٣٨.

(٣) رواه البخاري ومسلم في الجهاد من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

تصرفاً ينقله به عن الحالة التي تجب فيه الزكاة. إن كان ذلك التصرف خوفاً من الزكاة لا ينفعه، وتؤخذ منه الزكاة، وإن كان لمصلحة في ماله سقطت عنه الزكاة. مثاله أن يكون له نصاب من المال، فإذا قرب الحَول اشترى به عَـرَضاً أو حيواناً مما تسقط الزكاة به عنه، فإن كان فعل ذلك هروباً من الزكاة أخذت منه الزكاة ما يقتضيه حال وقته من تأخير الزكاة أو غير ذلك، على حسب ما هو مذكور في كتب الفروع.

وفيه دليل على أن الأصل في الأعمال بحسب النية فيها. يؤخذ ذلك من كون الخروج الذي ليس بنية الهروب مما نزل لم يُـنْـهَ عنه، والذي هو بنية الهروب نهى عنه. ويؤيد ذلك قوله عليه السلام (إنما الأعمال بالنيات)(١).

وبقي هنا، بحث. وهو أنه، عليه السلام، قد نهانا أن نتسبب في دفع ما قدر بالخروج، وأمرنا بالتسبب في دفع البلاء بأسباب الطاعات، وهو قوله (ادفعوا البلاء بالصدقة)(٢)، وقوله جلّ جلاله ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾(٣)، فدل أنهم لو تسبّبوا بالدعاء والضراعة عند نزول البلاء لرفع عنهم، والجمع بينهما قوله عليه السلام (لا يُنال ما عند الله إلا بطاعة الله)(٤)، وما عند الله للعبيد إما خير يطلبونه منه أو شر يدفعه عنهم، فلا ينال واحد منهما إلا بطاعته عزّ وجلّ. فإن التسبب في ذلك بغيرهما لا ينفع، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(٥) أي: إن أردتم الخير والسلامة من الشر ففروا إليّ. والفرار إلى الله سبحانه وتعالى إنما هو بامتثال أمره واجتناب نهيه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني وأبو نعيم والبغدادي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، وأعدوا للبلاء الدعاء.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ٤٣.

(٤) رواه الشافعي في كتاب الرسالة فقرة ٢٠٦ وقد حقق الشيخ أحمد شاكر ما يتعلق بالحديث سنداً ومتناً وانتهى إلى صحته على شرط الشيخين.

(٥) سورة الذاريات، الآية ٥٠.

ـ ١٩٢ ـ

حديث من مكث ببلده ولم يفر من الطاعون فله أجر شهيد

عَن عائِشَةَ، رضي الله عنها، قالَت: سَألتُ رَسولَ الله ﷺ عَنِ الطَّاعونِ، فأخبرَني أنَّـهُ عذاب يَبعَثُـهُ الله على مَن يَشاءُ، وأنَّ الله، عزَّ وجَلَّ، جَعَلَهُ رَحمةً للمؤمنين. لَيسَ مِن أحَدٍ يَـقعُ الطَّاعونُ فَيَمكُثُ في بَلَدِهِ صابراً مُحتسِباً يَعلمُ أنَّـهُ لا يُصيبُـهُ إلاَّ ما كَتَبَ الله لَـهُ إلاَّ كانَ لَـهُ مِثلُ أجر شَهيدٍ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام: (الأول) أن الطاعون عذاب يصيب الله به من يشاء. (الثاني) أنه رحمة للمؤمنين، وإن كان في نفسه بلاء، لكن بما يترتب عليه للمؤمن من الرحمة إذا أرسل عليه عاد الأمر رحمة، لأن الحكم للعاقبة، ولذلك قيل: (إذا كان يوم القيامة يؤتى بأكثر الناس بلاء في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة، فيقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لم أرَ بؤساً قط)[1]. ولذلك لما نظر أهل العقول والسلوك إلى عواقب الأمور هانت عليهم أنفسهم، وحلا لَهُم ما حملوه من التعب والمجاهدات. عرفوا فصبروا فربحوا، هَنَّاهُم من أعطاهم، وألحق في الخير العاجل مُناهم، وحباهم وأدناهم، لا رب سواه. (والوجه الثالث) الإخبار بأنه ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى قوله (صابراً محتسباً)؟ فمعناه أن يوطّن نفسه على ذلك البلاء إن لحقه منه شيء. ومعنى (محتسباً) يحتسب نفسه على الله تعالى، ومع ذلك يكون موقناً بأنه لا يصيبه من ذلك إلا ما كتب عليه، وإن كان لم يكتب عليه منه شيء فلا يصيبه منه شيء.

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: ... ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيُقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط، هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله، ما مرّ بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط.

ويترتب على ذلك من الفقه وجوه:

منها: أن الأسباب وإن ظهر لها تأثير فإنها لا تضر ولا تنفع إلا بحسب ما سبق، في علم الله تعالى من نفي أو إثبات.

ومنها: العلم بأن كل كائنة تقع في الوجود من خير أو شر، دقت أو جلت، عمت أو خصت، أنها في كتاب مسطور. ومما يقويه قوله عزّ وجلّ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1] فتكون فائدة ذلك قوة الإيمان وهو أعلى المراتب، وعدم الفزع من الحوادث، فإنه لا يندفع به ما يلحقه منه.

ومنها: الصبر على ذلك، وهو مأجور عليه لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

ومنها: ما يحصل من الثناء الجميل عليه، وربما يهون عليه الأمر أكثر ما يكون على غيره.

وفيه بحث، وهو أن يُقال: لم قال في هذا الحديث (أنه بلاء يرسله[3] الله على من يشاء) وقال في الذي قبله (إنه أرسل على من كان قبلكم)؟

فالجواب: أن فائدة الحديث الذي قبل في المعنى التسلي والتأنيس، لأنه بإخباره، عليه السلام، أنه أرسل على من كان قبل ذهب من القلوب خوف عظيم، وهو أن يكونوا هم قد خصوا بهذا البلاء العظيم، فيكونون يخافون أنهم ممن غضب عليهم، ولعله يؤول إلى الخسارة الدائمة. فلما علموا أنهم لم يكونوا مخصوصين به، وقد تقدم لغيرهم، ذهب ذلك الخوف العظيم، وبقي من جملة بلايا الدنيا، يصيب به من يشاء. وهذا الحديث الذي نحن بسبيله فيه وجوه من البشارة:

(الأول) أنه من أصابه منه شيء من هذه الأمة فهو رحمة، فيهون عليه ما يحمله منه لما يرجو فيه من رحمة الله تعالى، ولذلك ذكر عن سعد[4]، رضي الله عنه، أنه مات بالطاعون، فكان إذا اشتد عليه يُغمى عليه، فإذا أفاق يقول: اللهم اشدد عليَّ خنقك، فإنك تعلم أن قلبي يحبك، وهكذا حتى قضى، رحمه الله. **(والوجه الثاني)** الإعلام بتفضيل هذه الأمة على من تقدمها. يؤخذ ذلك من أن الطاعون كان لمن قبلهم بلاء، وهو لهم رحمة. **(والوجه الثالث)** وهو أن الذي يصيبه الله به من هذه

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٢.

(٢) سورة الزمر، من الآية ١٠.

(٣) لفظ الحديث: أنه عذاب يبعثه الله.

(٤) المشهور أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه هو الذي مات في طاعون عمواس في بلاد الشام سنة ١٨هـ.

الأمة ليس من أجل ذنب وقع منه. يؤخذ ذلك من قوله ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[1] لا عن شيء يوجب إرساله عليه، بل بتخصيص المخصص له بذلك، فيدخل به في قوله ﷺ (إن من أمتي من يساق إلى الجنة بسلاسل)[2] وهم أهل المصائب في الدنيا. منَّ الله علينا بدار كرامته بلا محنة بفضله.

وفيه إرشاد إلى التأدب مع القدرة، وهو ألا يحكم عليها بتفضيل العباد عندها من أجل ما يرى عليهم من النعمة، ولا لتحقير العباد عندها بما يرى عليهم من النقمة. يؤخذ ذلك من جعل هذا البلاء العظيم رحمة، فمن باب أولى ما هو أقل منه. وقد أثنى الله، عزّ وجلّ، على أهل البلاء وعلى أهل النعماء إذا أوفى كل واحد منهما بما أمر به، فقال في أهل البلاء ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[3] وقال عزّ وجلّ في أهل النعماء ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[4] وقال ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[5] وذم، عزّ وجلّ، من رجّح الحالة الحسنة عنده من أجل إظهار نعمائه، وذم ضدها بقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ . وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴾[6].

وفيه دليل على أن كثرة الأجور في الأعمال إنما هي بقدرة قوة اليقين والإيمان. يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام أول الحديث جعله رحمة، ثم قال في آخره (صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد). فالزيادة التي بين الدرجتين إنما هي من أجل قوة الإيمان الذي وصل به إلى أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له. يشهد لذلك قوله عليه السلام (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره)[7].

وهنا بحث وهو أن يُـقال: لم قال (مثل أجر شهيد)؟ ولم يقل: له شهادة. فإن الشهادة ما

---

(١) سورة يونس، من الآية ١٠٧.
(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل.
(٣) سورة البقرة، الآيات ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٤) سورة إبراهيم، من الآية ٧.
(٥) سورة سبأ، من الآية ١٣.
(٦) سورة الفجر، الآيتان ١٥ و١٦.
(٧) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر عبد الله المزني، ولم أجده مرفوعاً، أي ليس بحديث، وإنما هو للمزني.

أعظم قدرها إلا من أجل ما نال صاحبها من الأجر، أو الشهادة أمر آخر زوائد على الأجر؟ فظاهر الأمر أن الشهادة شيئان: كثرة الأجر وأمور أخر زوائد على ذلك. منها أنهم لا يحاسبون، وإنما يقومون من قبورهم إلى قصورهم، ومنها أنهم يشفعون في غيرهم، وأشياء من أنواع الإكرام عديدة. وقد جاء أن الطاعون شهادة[1]، إلا أنه إذا وقع بشخص، وهو على الحالة المتقدم ذكرها من الصبر والاحتساب، فيكون الجمع بينهما بأنه من صَبَر واحتسب ولم يصبه منه شيء كان له مثل أجر شهيد، فإن أصابه منه شيء وهو صابر محتسب كان شهيداً ـ والله أعلم ـ كما جاء أنه من طلب الشهادة من الله تعالى صادقاً ولم يُـقضَ له بها أنه يكون له أجر شهيد، فليس وقوع الحال كتمنيه، بينهما درجة.

وهنا بحث وهو أن يقال في قوله (له مثل أجر شهيد) هل ذلك تفضل من المولى، سبحانه وتعالى، على العبيد لا يعقل له معنى من الحكمة، أو بينهما مناسبة من جهة الحكمة؟ أما بالنسبة التي بينهما من أجل الحكمة فظاهرة، وهي أن الذي يخرج للجهاد إنما فعل فعلاً شأنه إذهاب النفوس، والسلامة فيه إنما هي بالقدرة لا يغلبها غالب، وهو يخرج لذلك الأمر صابراً محتسباً موقناً أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله عليه، فأشبه الذي يجلس في بلده بعد وقوع الطاعون محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له. فإن الطاعون أمر معه الموت لمن أصابه لا محالة، ولا ينجو منه إلا بالقدرة التي ليس لها مثال. فالشبه واقع، والأجر في الوجهين جميعاً بمجرد الفضل، لكن لا تنظر حكمة الحكيم الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[2] إلا بعد وقوع الفعل وإثبات الحكم فيه منه، وإلا فالقياس هناك ممنوع.

وهنا دليل على أن الحق في الأمور الطريق الوسط حال بين حالين، وأصله التأدب وعدم الاعتراض. يؤخذ ذلك مما تقدم في هذا الحديث وغيره، فتارة يؤمر بالنظر والتدبّر وحمل الأمور على ما جرت به العادة غالباً، وتارة يؤمر بالتسليم وعدم الالتفات إلى شيء من الأشياء إلا لمجرد التسليم والعبودية المحضة. فالذين أرادوا أن يحملوا الأمر على طريق واحد ويتسلطوا بعقولهم عليها في غاية الحمق والجهل، لأنه من ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ كذلك حكمته ليس مثلها حكمة حكيم، ولا نسبة بينهما. لكن لشأنٍ ما أخذ به أهل السنة، وهو الوقوف مع الأمر والنهي على ما هو بلا اعتراض ولا زيادة ولا نقص، وهو الذي يعطيه طريق العقل لمن حققه. جعلنا الله منهم بلا محنة بمنّه وكرمه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: الطاعون شهادة لكل مسلم.

(٢) سورة الشورى، من الآية ١١.

ـ ١٩٣ ـ

حديث تحريم الشفاعة في حد من حدود الله تعالى

عَن عائِشَةَ، رضيَ الله عَنها: أَنَّ قُرَيشاً أَهَمَّهُم شَأنُ المرأةِ المخزومِيَّـةِ الَّتي سَرَقَت، فقالوا: مَن يُكلِّمُ فيها رَسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: وَمَن يَجتَرِىءُ عَلَيه إلاَّ أُسامَةُ بنُ زَيدٍ[١] حِبُّ[٢] رَسولِ الله ﷺ؟ فَكلَّمَه أُسامَةُ، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: أتَشفَعُ في حدٍّ من حُدودِ الله عزَّ وجَلَّ؟ ثُمَّ قامَ فاختطَب[٣]، ثُمَّ قالَ: إنَّما أهلَكَ الَّذينَ مِن قَبْلِكُم أنَّهُم كانوا إذا سَرَقَ فيهِم الشَّريفُ تَـرَكوهُ، وإذا سَرَقَ فيهِم الضعيفُ أقامُوا عليهِ الحَدَّ. وايمُ الله[٤] لَو أنَّ فاطِمَةَ بِنتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَت لَقطعتُ يَدَها.

* * *

ظاهر الحديث يدل على منع الشفاعة في حد من حدود الله تعالى. والكلام عليه من وجوه:

منها: أنه ينبغي أن يختار في الشفاعة من له إدلال على الذي يشفع عنده وحرمة. يؤخذ ذلك من قولهم: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فلم يرجحوا إلا مَنْ كان أكثرهم إدلالاً عليه ﷺ وله عنده حرمة، وهو أسامة بن زيد، لأنه كان ابن مولاه عليه السلام. وبالقطع أن أبا بكر وعمر وجميع الخلفاء وأعمامه، عليه السلام، أرفع عنده من أسامة بن زيد وأكثر حرمة، لكن الإدلال له خصوصية أخرى.

وفيه دليل على أن الخديم أكثر إدلالاً على مخدومه من غيره، وله حرمة الخدمة أيضاً.

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٦٨.

(٢) حِبّ رسول الله: المحب، والمحبوب.

(٣) اختطب: خطب خُطبة.

(٤) أيم الله أي: يمين الله.

ولذلك كان أهل الصوفة أكثر إدلالاً لدوام خدمتهم وكثرة وقوفهم بالباب، ومن هناك الربح الحقيقي.

وقد روي عن بعضهم أنه كل ليلة كان يأتي باب الملك الذي كان في بلده مقيماً، وكان من عادة ذلك الملك أن كل من يخدم له في وجه من وجوه مصالحه وضرورياته يأتي بابه ويدفع له خازنه أجرته يوماً بيوم كل على قدر عمله. فكان ذلك السيد يأتي خازن الملك كل ليلة مع أولئك الخدم فيقول له: أعطني أجرتي. فيقول له الخازن: لو خدمت كنت تأخذ كما يأخذ من خدم. فيقول له: فما يأخذ الأجرة إلا من يخدم؟ فيقول: بذلك أُمِرتُ. فيقول لنفسه: اسمعي، مَن يخدمْ يأخذْ، ومن لا يخدمْ لا يأخذ. فإن خدمتِ أخذتِ، وإلا يأخذْ غيرُكِ ولا تأخذي أنت شيئاً. فكان يؤدب نفسه كل ليلة بهذا ويحملها على دوام الخدمة. وفُهِّموا فَفَهِموا وعُرِّفوا فعَرَفوا.

وفيه دليل على أن ترك الحدود سبب للهلاك. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه).

وفيه دليل على أنه لا يكون المأمور مطيعاً لأمره حتى يوفي جميع ما به أمر، وإن ترك البعض وفعل البعض سمّي عاصياً واستحق العقاب. يؤخذ ذلك من إخباره، عليه السلام، أن من كان قبلنا كانوا يقيمون بعض الحدود. فإنهم إذا سرق عندهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، فتراهم فعلوا بعضَ ما به أُمِروا. فلما لم يقيموه على الغنيّ أسقطوا بعضه فوقع العقاب عليهم، فأهلكوا.

وفيه دليل على أن الحدود على جميع الناس كلهم على حد سواء. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (وايم الله لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها).

وفيه دليل على فضل فاطمة على غيرها من أهل البيت. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، لم يذكر اسمها في التمثيل إلا على وجه الترفيع، ولو كان فيهم، رضي الله عنهم، أرفع لَذكَرهُ، يشهد لذلك قوله عليه السلام في حقها (فاطمةُ بَضعَةٌ منّي)[1]. وهذا لم يخص به غيرها.

وفيه دليل على أن القدر جاء على الرفيع والوضيع. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، أخبر عمن كان قبلنا أن ذلك كان فيهم الشريف والضعيف. وهذا أيضاً متعارف إلى هَلُمّ جرّاً، أن المعاصي يجري القدر بها على من شاء من رفيع ووضيع.

وفيه دليل على أن وجوب الحكم في الشيء يسقطه عن ضده. يؤخذ ذلك من أن الهلاك فيمن تقدم كان بتركهم الحدود، فبتوفيتها تكون النجاة، وقد جاء ذلك صريحاً في الكتاب والسنّة. أما

---

(١) رواه البخاري وغيره عن المسوَّر بن مخرمة رضي الله عنه وتمام الحديث: فمن أغضبها أغضبني.

الكتاب فقوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[١] والآي في هذا كثيرة. وأما السنّة فقوله ﷺ (لأن يقام حد من حدود الله تعالى في بقعة خير لهم من أن تمطر عليهم السماء ثلاثين يوماً)[٢] ومن طريق آخر أربعين يوماً، والآثار فيه كثيرة أيضاً.

وفيه دليل على هيبة النبيّ ﷺ عند الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، وكثرة حيائهم منه. يؤخذ ذلك من قولهم (ومن يجترىء عليه)؟ وقد روي عنهم، رضوان الله عليهم، أنهم كانوا يتمنّون أن يسألوا النبيّ ﷺ، فلا يقدرون على ذلك، مع كثرة تواضعه ﷺ لهم ورحمته بهم، حتى كانوا يتمنون أن يجيء من البادية من يسأله، فيسمعون جوابه، عليه السلام، للسائل[٣].

وفي هذا دليل على قوة إيمانهم وكثرة تقواهم، رضي الله عنهم، لأن الله، عزّ وجلّ، يقول: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[٤] وأي شعائر أعظم من إكرامه ﷺ وترفيعه؟

وفيه دليل على جواز القسم من السيد لمن هو دونه تأكيداً في التصديق، وإن كان صادقاً في نفسه، فإنه لا يقطع بالصدق في قَسَمه إلا من هو صادق في قوله. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (وايم الله لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها).

وفيه دليل على أن حكاية حال المعصية، إن كانت تقع ممن ليس لها أهلاً ويسمى باسمه، أن ذلك ليس بنقص فيه، ولا يلحقه منه شؤم ولا معرة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها). فلو كان في ذلك شيء مما ذكرنا أو مما يشبهه لم يقله ﷺ في أحد من الخلق، فكيف في هذه السيدة التي قال عليه السلام في فضلها (يَريبُني ما رَابَها)[٥]؟

وفيه دليل على أن تعليقك فعلاً يؤلم شخصاً، بشرط أن يقع منه موجِب له، ليس بقبيح ولا فيه

---

(١) سورة المائدة، من الآية ٦٦.

(٢) رواه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: لَحَدّ يقام في الأرض إلخ وفي رواية له أخرى: إقامة حد يُعمل به في الأرض خير لأهل الأرض إلخ...

(٣) رواه مسلم في الإيمان رقم ١٢ عن أنس رضي الله عنه وأوله: نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من البادية إلخ.

(٤) سورة الحج، من الآية ٣٢.

(٥) رواه البخاري ومسلم في فضائل الصحابة عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه بلفظ: فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما اذاها.

تغيير للنفوس. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها) لأن قطع اليد مما يؤلم. لكن لمّا جعل الشرط فيه وقوع شيء من الشخص يوجبه له ـ وهي السرقة ـ لم يضره ذلك، ولا يشوش عليه، وإنما التشويش بالحقيقة هي المخالفة إذا وقعت. ولذلك قال: لا تبكينّ لوقوع ذنبك وإنما يبكيك موجِبه، وعليه فاندم.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

- ١٩٤ -

حديث عاقبة مَنْ يجر ثوبه خيلاء

عَن ابنِ عُمَرَ، رَضيَ الله عَنهُما، أنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: بينَما رَجُل يَجُرُّ إزارَهُ مِنَ الخُيلاءِ خُسِفَ بهِ، فَهُوَ يَتَجلجَلُ في الأرضِ إلى يَومِ القِيامةِ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بخسف الذي جر إزاره خيلاء، وأنه في جوف الأرض لا يستقر له قرار إلى يوم القيامة. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما الفائدة لنا بالإخبار بحاله؟ الجواب عليه فيه وجوه:

ومنها: التحذير عن ارتكاب هذا الأمر الخطر.

ومنها: بيان فضل هذه الأمة على من تقدم. يؤخذ ذلك من أن من تقدم كانوا إذا وقعوا في الذنوب لم يؤخر لهم عقاب مثلما فعل بهذا، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وكانوا إذا أذنب أحد منهم ذنباً أصبح على باب داره تسمية الذنب الذي فعله، وما هو المخرج منه، وهذا خزي عظيم. وقد مَنَّ الله بفضله على هذه الأمة ببركة نبيها ﷺ أن عافاهم من هاتين الخصلتين. أما الكتاب فما وقع منه في هذه الأمة شيء، وأما الخسف فعوفوا منه إلا القليل من بعض المتمردين في بعض الأزمان وذلك نصرة للدين، وقد قال ﷺ في شأن جرّ الإزار خيلاء (من جرَّ إزاره خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة)[١].

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى، وأنها لا تجري على قياس. يؤخذ ذلك من كون الذي خسف به لا يستقر له قرار إلى يوم القيامة، وهذا الزمان وطوله في مقدار الأرض، وهو خمسمائة عام.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيه دليل على حسن طريق القوم[١]. يؤخذ ذلك من أن كبر نفس هذا الشقي هو الذي رمى به إلى هذا الأمر العظيم. وأهل الطريق قد عملوا على ذلها وهوانها، لأن ضد المذموم هو المشكور. فلما ذم الله تعالى كبر النفس، وجعل من أجل ذلك لصاحب الخيلاء هذا العقاب الأليم، فضد ذلك محمود عنده. وقد نص الشارع ﷺ على ذلك بقوله (أوحي إليّ أن تواضعوا ولا يفخر بعضكم على بعض)[٢]، وقال عليه السلام (المؤمن هيّن ليّن)[٣] وقال عليه السلام (ألا أخبركم بمن تحرم النار عليه؟ تحرم النار على كل قريب هيّن سهل)[٤]. والأخبار في هذا كثيرة.

وفي هذا دليل على أن هذا الذنب من أكبر الذنوب. يؤخذ ذلك من أنه إذا كان يُفعل به هذا الأمر العظيم حتى إلى[٥] يوم القيامة كيف يكون حاله يوم القيامة؟ ذلك ما لا تقدره العقول من شدته، ولا تتوهمه الأذهان، وقد قيل:

استغـن بـالفقـر تكـن لبيبـا ... وبـالتـواضـع ارتفـع تكـن حسيبـا

وبـالتقـوى تـزود تكـن حبيبـا ... وبـالله استعـن تكـن نجيبـا

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) يريد: المتصوفة.

(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه عن عياض بن حمار بلفظ: إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد.

(٣) رواه البيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله عنه وتمامه: حتى تخاله من اللين أحمق.

(٤) رواه أصحاب السنن الأربع عن جابر رضي الله عنه.

(٥) كذا.

— ١٩٥ —

حديث اختياره ﷺ أيسر الأمور

عَن عائِشة، رَضيَ الله عَنها، قالَت: ما خُيِّرَ رَسولُ الله ﷺ بَينَ أمرَين إلاّ اختارَ أيسَرَهُما، مَا لَم يكُن إثماً. فإن كانَ إثماً كانَ أبعَدَ النّاسِ مِنهُ.

❊ ❊ ❊

ظاهر الحديث أخذه، عليه السلام، بأيسر الأمرين إذا خيّر بينهما، وبعده، عليه السلام، من الإثم. وهل هذا التخيير على عمومه، أعني تفضيله، عليه السلام، الأيسر من الأمرين أم لا؟

والجواب: أن أخذه، عليه السلام، الأيسر من الأمرين إذا خُيِّرَ على العموم موجود بما استقرىء من سنته عليه السلام. ويحتاج إلى تقسيم، لأنه لا يخلو أن يكون ما يخير فيه من أمور الدنيا أو أمور الآخرة. فإن كان من أمور الدنيا فاللفظ على عمومه، فما خير ﷺ بين شيئين من أمور الدنيا إلا أخذ أيسرهما، وكفى في ذلك أن خُيِّرَ ﷺ أن يكون مَلِكاً نبياً، ويكون له مثل جبال تهامة فضة وذهباً تسير معه حيث سار، أو يكون نبياً عبداً، فاختار، عليه السلام، أن يكون نبياً عبداً، فقال (أجوع يوماً فأضرع، وأشبع يوماً فأشكر)[1].

---

(١) مركب من حديثين: الأول رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل، والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفّة من دقيق ولا كف من سويق؛ فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدّة من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: كلا ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إن الله سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك أن أسيّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت. فإن شئت نبياً مَلِكاً وإن شئت نبياً عبداً؛ فأشار إليه جبريل أن تواضع، فقال: بل نبياً عبداً (ثلاثاً).

وفي الباب ما رواه البزار وأبو يعلى وصححه ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبيّ ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، أملِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد؛ فقال رسول الله ﷺ بل عبداً رسولاً.

والثاني عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً قلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً أو قال ثلاثاً أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك. رواه الترمذي وحسّنه.

وقد جاء عنه ﷺ أنه أُتي يوماً بثوب يلبسه، فطالت كماه على يديه الكريمتين، فأخذ يقطعهما فلم يجد في الوقت إلا سكيناً، فجمعهما وقطعهما بالسكين، ولم يكلف أحداً أن يأتيه بمقص، وبقي دور الأكمام داخلات وخارجاتٍ، وربما تساقطت الخيوط من بعضهما ولم يعدلها بعد، ولا عمل لها عطفاً حتى تقطع الثوب، وهو على ذلك الحال[١].

وأما أمر الآخرة فما كان يختار فيه فيما يخصه، عليه السلام، إلا الأرفع والأقرب إلى الله تعالى، كما فعل، عليه السلام، في تعبده الذي قام فيه حتى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله تفعل ذلك والله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ (أفلا أكون عبداً شكوراً)[٢]؟

وإذا كان الأمر في حق أمته أخذ، عليه السلام، لهم ما هو الأيسر والأقرب رحمة بهم، كما فعل ﷺ في قيام رمضان حين كثر الناس فقاموا معه، فجعل يتخلف، ثم قال لهم (إنما تخلفت لئلا يكتب عليكم فلا تطيقون)[٣] أو كما قال عليه السلام. وكما فعل، عليه السلام، معهم في شأن الوصال الذي كان ينهاهم عنه ويواصل، عليه السلام، حتى كان يربط على بطنه ثلاثة أحجار من شدة الجوع والمجاهدة، فقيل له: تنهانا عن الوصال وأنت تفعله؟ فقال: (إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)[٤]. وكان عليه السلام يقول لهم (اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا)[٥]، والأحاديث في هذا الشأن كثيرة. فعلى هذا فيكون عاماً فيما كان من أمور الدنيا، ويكون خاصاً فيما كان من أمور الآخرة.

وقد يحتمل أن يكون عاماً في أمور الآخرة بوجه ما، وهو مثل أن يخيّر بين عملين: أحدهما يكون في الوقت الوصول إليه قريب، والذي الوصول إليه أبعد يكون أرفع، فيختار الأيسر اغتناماً منه، عليه السلام، للطاعة والمبادرة للخدمة، وخوف الفوت أنه لا يدرك الذي هو أرفع، فإن أدركه لم يتركه، كما كان أبو بكر، رضي الله عنه، يفعل في وتره، يقدمه أول الليل. وقد صح من السنّة أن الأفضل في الوتر آخر الليل[٦]. فكان أبو بكر، رضي الله عنه، فهم عن النبيّ ﷺ هذا الذي أشرنا إليه فعمل عليه، فأقره النبيّ ﷺ على ذلك، وقال له: أخذت بالحزم[٧]. وهي المبادرة.

---

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه البخاري في الصوم ومسلم في الصيام عن عبدالله بن عمر وعند البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنهم أجمعين.

(٥) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن السيدة عائشة رضي الله عنها وفيه: يا أيها الناس خذوا ـ وفي رواية اكلفوا ـ من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلّ.

(٦) رواه البخاري في الوتر ومسلم في صلاة المسافرين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) رواه الإمام مالك في صلاة الليل وأبو داود عن أبي قتادة رضي الله عنه بلفظ مختلف.

وفي هذا إشارة إلى طريق القوم الذين يقولون (الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك)، معناه عندهم: إذا لم تقطعه بالعمل قطعك بالتسويف. والاشتغال بتعمير الوقت، وترك الالتفات إلى الماضي والمستقبل، فائدته ربح الدنيا والآخرة. منَّ الله علينا بفضله.

وأما قولنا: كيف يُخَيَّر النبيّ ﷺ بين الإثم وغيره[1]؟ فقد تقدم أن ذلك جهل من المخيِّر له: أن ذلك إثم، كما فعل صاحب الخمر الذي أهداه للنبيّ ﷺ بعدما حرّمت الخمر، فلطف ﷺ به في المراجعة، ثم أمر بها فأهرقت، وأشياء من هذا النوع عديدة[2]. وفي هذا النوع منه ﷺ ما يدل على حسن خلقه وتواضعه، ولأجل هذا النوع وما كان فيه ﷺ أثنى الحق سبحانه على حسن خلقه، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]. وقد قيل فيه ﷺ (من عظَّم الله خُلُقَه كيف يحصي مُدَاحُه ثناءَه)؟

وفيه دليل على حسن فهم هذه السيدة، لأنها فهمت مع صغر سنها من حقيقة طريقته، عليه السلام، ما فهم أبوها على كِبَر سنِّه ورفعته في قوة إيمانه وصدقه حتى قال عنه ﷺ (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره)[4]. فبحسن أصلها نجح فرع فهمها.

وفيه من الفقه أن كلام المرء عنوان على عقله، وأفعاله دالة على تحقيق حاله، ولذلك قال علي رضي الله عنه حين قيل له: في كم تعلم حال الشخص؟ فقال (إن تكلم فمن حينه، وإن صَمَتَ فمن يومه). فمن اشتغل بتخليص صحة حسن حاله حسن فعله ومقاله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) كذا. ولم يرد قبلُ شيء من هذا.
(٢) رواه مسلم والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) سورة القلم، من الآية ٤.
(٤) ليس بحديث.

ــ١٩٦ــ

حديث معجزة النبيّ ﷺ بشاة جابر وصاع شعيره

عَن جابرِ[١] بنِ عَبدِ الله، رضي الله عَنهُما، قالَ: لَمَّا حُفِرَ الخندقُ رأيتُ رسولَ الله ﷺ خَمْصاً[٢]. فانكَفَيْتُ إلى امرأتي فَقُلتُ: هَل عِندَكِ شَيءٌ؟ فإنِّي رأيتُ رَسولَ الله ﷺ خَمْصاً شَديداً. فأخرجَتْ إليَّ جِراباً[٣] فيهِ صَاع[٤] مِن شَعيرٍ، ولَنا بُهَيْمَة داجِنٌ فَذَبحتُها. وطَحَنتُ الشَّعير. ففَرَغتُ إلى عَناقي وَقَطَّعتُها في بُرْمَتِها[٥]، ثُمَّ وَلَّيْتُ إلى رَسُولِ الله ﷺ. فَقالَت: لا تَفضحني بِرسُولِ الله ﷺ وبِمَن معَهُ. فَجئتُهُ فَسارَرْتُه، فَقُلتُ: يا رَسُولَ الله، ذَبحنا بُهَيْمَةً لنا، وطحنّا صاعاً من شعيرٍ كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك.

فصاح النبي ﷺ فقال: يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سُوراً[٦]، فحيَّ هلاً بكم[٧]. فقال رسول الله ﷺ: لا تُنزِلُن بُرْمَتكم، ولا تَخبِزُنَّ عَجينَتَكم حتى أجيء. فجئتُ وجاء رسولُ الله ﷺ يَقدُمُ الناسَ، حتى جئت امرأتي فقالت: بِكَ وبِكَ. فقلت: قد فعلتُ الذي قلتِ. فأخرجتُ له عجيناً فبصق فيه وبارك، ثُمَّ عمد إلى بُرمَتنا فبصق فيها وبارَكَ. ثم قالَ: ادعي خابزة فلتخبزْ معكِ، واقدحي[٨] مِن بُرمَتكم ولا تُنزِلوها. وهم ألف. فأقسِمُ بالله لأكلوا حتّى تركوهُ وانحرفوا، وإنَّ برمتنا لَـتَغِطُّ[٩] كما هي، وإنَّ عجيننا ليخبزُ كما هو.

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديثين ٥٣ و١١٣.

(٢) الخمص (للبطن) خلوه من الطعام وضموره من الجوع.

(٣) الجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد.

(٤) الصاع: مكيال يختلف بحسب البلدان والمذاهب.

(٥) البرمة: القدر من الحجارة، أو القدر مطلقاً.

(٦) السور: طعام الضيافة.

(٧) أي: أقبلوا أهلاً بكم.

(٨) اقدحي: اغرفي.

(٩) تغِطُّ: تغلي فيسمع غطيطها وغليانها.

ظاهر الحديث يدل على تحقيق بركة النبيّ ﷺ، وعظم معجزته الذي أطعم، عليه السلام، من صاع شعير وداجن ألفاً حتى شبعوا وانصرفوا، وبقي اللحم كما كان لم ينقص منه شيء، والعجين كذلك. والكلام عليه من وجوه:

منها: كثرة تواضعه عليه السلام. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، كان يعمل في الخندق معهم بيده الكريمة، كأنه واحد منهم.

ومنها: أن من السنَّة التحصن من العدو بكل ممكن. يؤخذ ذلك من حفرهم الخندق احتياطاً ليحصنوا به المدينة من أن يغلب العدو عليهم، فيكون معهم بما يتحصنون منه.

ويؤخذ منه جبر الخاصة على ما فيه منفعة العامة، كما أجبر النبيّ ﷺ الصحابة على حفر الخندق، وبقي أهل المدينة لم يخدموا فيه معهم، والمنفعة فيه لجميع من في المدينة من الصحابة وغيرهم.

وفيه دليل على أن من السنة التشمير للثياب لمن يخدم. يؤخذ ذلك من أن جابراً رآه، عليه السلام، خمص البطن، ولولا التشمير ما رأى منه ذلك.

وفيه دليل على أن كشف البطن من ذوي الهيئات ليس بمكروه. يؤخذ ذلك من رؤية جابر بطنه ﷺ.

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يرون بالمجاهدة، لأن البطن لا يكون خمصاً إلاّ بها.

وفيه دليل على ما طبعه الله عليه ﷺ من كمال الخلقة والقوة. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، كان خمصاً شديداً، وهو مع ذلك يخدم في أشق الأشياء وهو حفر الخندق.

وفيه دليل على أن عمل الأسباب لا يخل بمنصب أهل الفضل. يؤخذ ذلك من خدمته ﷺ في الخندق.

وفيه دليل على عظيم صبره ﷺ وسعة صدره المبارك. يؤخذ ذلك من جمعه، عليه السلام، المجاهدة مع الخدمة مع تبليغ ما أمر به، ومع دوام العبادة. فبالليل قائم يصلي حتى تورمت قدماه، وبالنهار في الخدمة مع شدة المجاهدة، ومع توفية التبليغ وحسن المسايسة لهم، ولا يكون ذلك إلا مع الصبر العظيم والحمل الرباني.

وفيه دليل على ما كان الصحابة عليه، رضوان الله عليهم، من تقليل حطام الدنيا. يؤخذ ذلك من كون جابر لم يعرف لنفسه شيئاً حتى سأل عياله: هل عندها شيء أم لا؟ فلم يجد إلاصاعاً من شعير.

وفيه دليل على عظيم فضلهم، رضوان الله عليهم، وكثرة إيثارهم. يؤخذ ذلك من كونهم لم يكن لهم غير ذلك الصاع من الشعير والداجن، فخرجوا عنه ولم يبق لهم شيء غيره، فهم كما قال عزّ وجلّ ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1]

وفيه دليل على كثرة حبهم لرسول الله ﷺ. يؤخذ ذلك من كونهم آثروه بكل ما ملكوا من الطعام الذي به يقوم حالهم، ورضاهم بحمل المجاهدة بدلاً منه.

وفيه دليل على أن حبهم له عليه السلام تساوى فيه الرجال والنساء. يؤخذ ذلك من إخبار جابر امرأته حين سألها: هل عندك شيء؟ وأخبرها بحال رسول الله ﷺ وكونه خمصاً شديداً. فلولا ما علم أنها مؤثرة لجنابه، عليه السلام، كما هو ما أخبرها بذلك. فلو كان غير ذلك لكانت تخفي عنه ما عندها أو بعضه لكي تؤثر به أولادها، لأن ذلك لسان العلم لقوله ﷺ (ابدأ بمن تعُول)[2]. فأعلمها بالحال من أجل ألا تخفي عنه شيئاً. فهم، رضي الله عنهم، فهموا قول مولانا جلّ جلاله ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[3] اتخذوها حالاً. فبذلك حصل لهم السبق.

وقوله (بهيمة داجن) الداجن هي التي تربى في البيت.

وفيه دليل على تنافسهم في الخدمة. يؤخذ ذلك من قوله (ففزعت إلى عَناقي)، فدل ذلك على بذل كل واحد منهما جهده في الشغل الذي أخذ فيه.

وفيه دليل على أن متاع البيت يضاف إلى المرأة، لأنها هي المتصرفة فيه، وإن كان ملكاً لصاحبه، كما تقول: سرج الدابة، وليس لها فيه مِلك. فلما كان لا يستعمل إلا لها أضيف مِلكه إليها. يؤخذ ذلك من قوله (فقطعتها في برمتها).

وقوله (ثم وليت إلى رسول الله ﷺ) ليس (ثم) هنا دالة على التمهل وطول الزمان، وإنما هي من القسم الذي يدل على الانتقال من حالة إلى حالة أخرى ليس بينهما شيء آخر. وقد تقدم الكلام على تقسيمها قبل في الأحاديث.

وفيه دليل على أن السنة أن يعمل في الأمور على جري العادة، وإن كان الذي تعامله ممن له خرق العادات. يؤخذ ذلك من قولها (لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه) لأن الجمع الذي كان

---

(١) سورة الحشر، من الآية ٩.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما وأوله: المسألة كدوح في وجه صاحبها يوم القيامة فمن شاء فليستبق على وجهه، وأهون المسألة مسألة ذي الرحم تسأله في حاجة وخير المسألة المسألة عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول.

(٣) سورة الأحزاب، من الآية ٦.

معه كثير، وطعامهم يسير. والعادة الجارية أن الطعام اليسير ليس فيه كفاية للجمع الكثير. وبالقطع أن سيدنا ﷺ هو صاحب المعجزات وخرق العادات.

وفيه دليل على أن من السنة أن تخبر من تضيفه بمقدار ما أعددتَ له. يؤخذ ذلك من إخبار جابر لرسول الله ﷺ بمقدار طعامه الذي أعدّ له، وهو قوله (ذبحنا بهيمة لنا وطحنت[1] صاعاً من شعير كان عندنا).

وفيه دليل على جواز مناجاة الواحد دون الجماعة. يؤخذ ذلك من قوله (فَسارَرْتُه) أي تكلمت معه سراً.

وفيه دليل على أن من الأدب عدم الحصر عند إعلام ذوي الفضل بمقدار الشيء الذي أباح لهم التصرف فيه، هل يكون تصرفهم فيه على جري العادة أو على خرقها؟ يؤخذ ذلك من قوله لما أعلمه ﷺ بقدر الطعام فقال له (فتعال أنت ونفر معك)، والنفر يكون قليلاً ويكون كثيراً، فتأدَّب معه بعدم حصر عدد الذين يمشون معه.

وفيه دليل على أدب الصحابة، رضي الله عنهم، وعلو قدمهم في التوحيد. يؤخذ ذلك من قولة جابر رضي الله عنه: (وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا)، ولم يدع فيه الملكية كأنه يقول بلسان الحال: إن القدرة أمسكت عندنا صاعاً من شعير وقد طحناه، فامشِ أنت ومن شئتَ معك، ومثل ذلك في البهيمة. قال رضي الله عنه (بهيمة لنا) أي مضافة في عرف التخاطب لنا، وهي في الحقيقة لك فتصرف كيف شئت.

وهنا بحث، وهو الذي كان ذبح البهيمة فقال: (ذبحنا)، والمرأة هي التي طحنت، فلما كان له الملك عليها ولا تفعل شيئاً إلا بإذنه جاز أن يقول (طحنت)[2]، كما يُقال (ضرب السلطان فلاناً) وهو لم يتول الفعل بيده، بل كان ذلك بأمره، والعرب تضيف الشيء بعضه إلى بعض بأدنى نسبة ما، لكن هذا هو حالهم ليس الذي يعامله يقول: ما عاملتك إلا رجاء فيما أجرى الله لك من المعجزات وخرق العادات[3]. ليس هذا من الأدب، بل هو من جملة التحكم على القدرة ولا يقع في ذلك إلا كل جاهل.

وفيه دليل على جواز إضافة الصانع إلى صنعته. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (يا أهل الخندق)، فأضافهم إلى الخندق لكونهم هم الذين صنعوه.

---

(١) لفظ الحديث: وطحنّا.

(٢) كذا. ولفظ الحديث: وطحنّا.

(٣) كذا. وفي الكلام اضطراب.

وفيه دليل على جواز رفع صوت ذوي الفضل بين إخوانهم وأصحابهم ليخبر جميعهم بالذي يريد. يؤخذ ذلك من قوله (فصاح النبيّ ﷺ يا أهل الخندق)، وهم كما أخبر آخر الحديث ألف.

وفيه دليل على أن صاحب المنزلة الرفيعة تحمله الثقة بمولاه، عند الضرورة، على أن يعمل على ما عوّده سيده من خرق العادة له، ينجده حيث أمل آملاً. يؤخذ ذلك من أنه لما رأى النبيّ ﷺ قلة طعام جابر وانكسار خاطره، في كونه أخبره سراً من أجل أن الطعام لا يكفي من كان هناك من كثرة الجمع، عمل ﷺ على جبر خاطره ثقة من مولاه أن يخرق له العادة في تكثير الطعام حتى يجبر قلب جابر، ويدخل السرور على جميع أهل الخندق بأكلهم معه ﷺ، فصاح بالجميع. وأخبرهم بتقليل الطعام بصيغة لفظه، وإدلالُ حاله يخبر بتكثيره. فصدقه ﷺ بالمقال والحال، لأنه كنى عن الطعام بالسؤر. والسّؤر من الطعام والشراب هو ما بقي منه في الإناء. وصدقه في الحال لأنهم شبعوا وبقي الطعام على حاله. وتلك حقيقة الكثرة في الطعام.

ومن هنا أخذ أهل المعاملات مع الله على طريق السنّة، إذا كانوا عند الضرورة تخرق لهم العادات ببركة نبيهم ﷺ، لأنهم يقولون: كل كرامة للولي فإنها معجزة من معجزات نبيه، لأن بحسن اتباعه له عادت عليه تلك البركة. وذكروا، رضي الله عنهم، أنه من أجرى الله تعالى له خرق عادة في شيء من الأشياء أن تلك لسان العلم في حقه، ولا ينبغي له أن يعدل عن ذلك، وقد قال ﷺ (من رزق من باب فليلتزمه)[1] فالتزامه ذلك الحال من أدب العبودية.

وفيه دليل على الإجابة للدعوة للطعام إذا كان ابتغاء وجه الله تعالى. يؤخذ ذلك من إجابة سيّدنا ﷺ جابراً، لأنه ما يكون للنبيّ ﷺ إلا ما يراد به وجه الله.

وفيه دليل على فصاحته ﷺ وعذوبة لفظه. يؤخذ من قوله ﷺ (فحيَّ هلاً بكم) لما فيها من البلاغة والاختصار.

وقوله عليه السلام (لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء). هنا إشارة بأن أوائل الأمور هي أنجح في إظهار البركة، مثلما فعل، عليه السلام، في عين تبوك الذي أوصى ألا يتناول أحد منها شيئاً حتى يأتي، فلما سبق ذلك الشخصان ولم يعلما بمقالته انتهرهما وسبّهما، لأنهما عدلا عن مقتضى الحكمة. ثم إن بركته عليه السلام عادت عليه.

وفيه دليل على أن من السنة أن السيد يقدمُ قومه. يؤخذ ذلك من قوله (يَقْدُم الناس) فيا له من

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: من رزق من باب فليلزمه. وفي الباب عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: إذا فتح لأحدكم رزق من باب فليلزمه.

سيّد ويا لهم من ناس! (فيا ليت وجنتي تراب لأقدامه وأقدامهم، لعل ذا سقمي يشفى بحسيس آثارهم).

وفيه دليل على أن من حسن الصحبة إخبار العيال بما جرى، وجواز عتب العيال بعلها، لكن ذلك يكون بأدب دون سب، لأنه يفضي إلى التوادّ وحسن الصحبة، وذلك من الإيمان. يؤخذ ذلك من قوله (فجئت امرأتي فقالت: بِكَ وبِكَ) معناه: فأخبرتها بمجيء النبيّ ﷺ وأهل الخندق معه، فعاتبته على ذلك بقولها (بِكَ وبِكَ)، لأن هذا كناية عن العتب، ولم يقل صيغة اللفظ الذي به عاتبته، وهذا من حسن سجاياهم.

وفيه دليل على جواز استعطاف الرجل عياله. يؤخذ ذلك من قوله (قد فعلتُ الذي قلتِ) يعني لم أخالفك فيما به أشرتِ، وإنما هذا أمر آخر من النبيّ ﷺ، فرضيت هي آخراً كما رضي هو أولاً، وعلما أن الخبر حق كما ظهر آخراً، وهو شبعهم جميعاً وبقي الفضل بعد ذلك.

وفيه دليل على طهارة البصاق. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ بصق في الطعام، ولولا طهارته ما فعل هو ﷺ ذلك.

وفيه دليل على بركة كل ما كان منه، عليه السلام، من خارجه وفضله، لأنه لولا علمه، عليه السلام، ببركة ذلك البصاق ما فعل.

وقوله (وبارك) أي دعا بالبركة، فجاءت البركة في ذلك الطعام من وجهين: من بصاقه، عليه السلام، ودعائه. وقد كانت واحدة منهما تكفي، لكن جمع الخير وتعداده أرفع.

وفيه من الفقه أنه مهما أمكن الأخذ بالزيادة في الخير لا يقتصر على البعض. وفعل، عليه السلام، في العجين مثلما فعل في البرمة.

وفيه دليل على جواز المشاركة في أفعال البر. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (ادعي خابزة فلتخبز معك)، لأن تصرفها في هذا العجين وخبزها له من أكبر أفعال البر.

وفيه دليل على جواز التعاون في إطعام الجمع الكثير، لأنه مما يتيسر له به المعروف. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (ادعي خابزة).

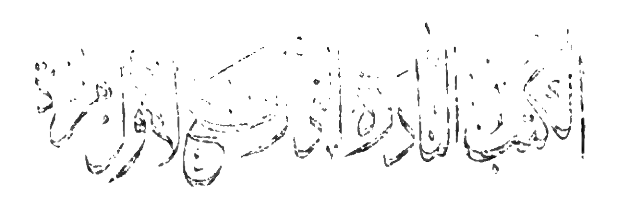
وفيه دليل على جواز القسم عند الإخبار فإنه تأكيد للصدق. يؤخذ ذلك من قوله (أقسم بالله).

وفيه دليل على أن مَنْ صدق الله تعالى في المعاملة ربح في الحال والمآل. يؤخذ ذلك من قوله (لأكلوا حتى تركوه). يعني فضل لهم الطعام ولم يقدروا على أكله، وزيادة على ذلك بقوله (وإن برمتنا لتغط) أي تغلي كما كانت مملوءة لحماً.

وقوله (وإن عجيننا ليخبز كما هو) أي لم ينقص من العجين شيء. لما خرج أولاً عن كل ما ملكه من الطعام لله تعالى ربح الآخرة إذ أكل طعامه سيّد الأولين والآخرين وجميع أهل الخندق، ولم يكن ذلك في قدرته، وربح الدنيا أي بقي له طعامه كما كان، وزيادة ما فضل لهم، وما حوى ذلك الطعام من زيادة البركة في نفسه لما خالطه من بصاق النبيّ ﷺ ودعائه. فتلك تجارة رابحة.

وفيه دليل لأهل الصوفة لأنهم يقولون بإيثار جميع ما يملكون، وهذا يقويه قوله عزّ وجلّ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] فلما آثروا أوثروا. من جاد فعلى نفسه بالخير جاد. من بخل فعلى نفسه بالخير بخل. فبأي الوصفين عاملت فعليك منه عائد وأنت له حامل.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) سورة آل عمران، من الآية ٩٢.

- ١٩٧ -

حديث تحريم التفاضل في البيع والشراء

عَن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ وأبي هُريرَةَ، رضيَ الله عَنهُما، أنَّ رَسولَ الله ﷺ استَعمل رَجُلاً على خَيبرَ، فَجاءَهُ بتَمرٍ جَنِيبٍ[1]. فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: أكُلُّ تَمرِ خَيبرَ هَكذا؟ قالَ: لاَ، والله يا رَسُولَ الله، إنَّا لنأخُذُ الصَّاعَ مِن هَذا بالصَّاعَينِ وَبالثَّلاثةِ. فَقالَ: لا تَفعَل، بعِ الجمعَ بالدَّراهِمِ، ثُمَّ ابتَع بالدَّراهِمِ جنيباً.

* * *

ظاهر الحديث يدل على منع التفاضل بين النوعين من التمر. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: هل هذا خاص بالتمر أو هو في كل مطعوم إذا كان من جنس واحد؟ والجواب أنه في كل مطعوم إذا كان من جنس واحد، لأن العلة التي في التمر إذا اختلفت أجناسه موجودة في غيره من المطعوم إذا كان من جنس واحد، لأن الاسم يجمعه. فالتفاضل فيها ممنوع مثل الزبيب أحمره وأسوده، وجيده ورديئه، الاسم يجمعهما، فلا يمكن التفاضل بين أجناسه، وكذلك غيره من المطعومات إذا كان من جنس واحد، لوجود العلة فيه.

وفيه دليل على أن الشيء الفاسد إذا وقع ولم يعرف صاحبه لا يفسخ. يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام فيما يستقبل، أن قال له (لا تفعل) ولم يأمره برده، لأنه قد جمعه من مواضع مختلفة، واختلف الجميع، وبقي الاحتمال في أنه لا يعرف ما صنع به، فما فيه الفساد لا يتناول عليه السلام منه شيئاً، والظاهر تفريقه على المساكين. وقد قال عليه السلام للسعدين[2]، حين باعا آنية من فضة من المغنمِ مِثلاً بمثلين: (رُدّا فقد أربيتما)[3]، لأن صاحبهما كان معروفاً، فالفسخُ ممكن، فأمرهما به.

---

(١) تَمر جَنِيب: نوع جيد من التمر.

(٢) السعدان: إذا أطلق هذا اللفظ في الحديث فالمراد بهما: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ. وحيث أن سعد بن معاذ مات قبل فتح خيبر فلعلِ المراد سعد بن أبي وقاص والله أعلم.

(٣) رواه الإمام مالك مرسلاً في البيوع عن يحيى بن سعيد، وأوله: أمر رسول الله ﷺ السعدين يوم خيبر أن يبيعا آنية من المغنم إلخ..

وفيه دليل على أن من وظيفة الآمر أن يسأل عماله عن تصرفهم حتى يعلم كيف هو؟ وكذلك يلزم كل من استناب أحداً يتصرف له في شيء حتى يعلم ببراءة ذمته. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، حين أتوه بالتمر (أكل تمر خيبر هكذا)؟ فلولا ما سأل عليه السلام، حين أتوه بالتمر ما كان يعلم بهذا الفساد الذي وقع.

وفيه دليل على أن أكل الطيب لا يقدح في الزهد. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا ﷺ أزهد البرية، وهذا عاملُه قد ساق له الطيب من التمر ولم ينهه عن ذلك، وإنما نهاه عن الربا، وزاد ذلك تأكيداً ـ أعني في جواز أكله ـ أن قال له، عليه السلام، (بع الجمع بالدراهم، ثم ابتغ بالدراهم جنيباً). فأمره بشراء الطيب.

وفيه دليل على أن من السنة حسن التعليم. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، لعامله: لا تفعل، ولم ينتهره.

وفيه دليل على أن تنفيذ الحكم لا يكون إلا بعد تحقيق موجبه. يؤخذ ذلك من سؤاله، عليه السلام، لعامله قبل نهيه بقوله: (أكُلّ تمر خيبر هكذا)؟ وهو ﷺ يعلم أن تمر خيبر ليس على صفة واحدة، فلم يقتنع بعلمه في تمر خيبر حتى سأل من أجل الاحتمال، لعل العامل باع ذلك على وجه يجوز، واشترى هذا أو غير ذلك من الاحتمالات.

وفيه دليل على أن رؤية ما يعرف على صفة لا تعرفها توجب السؤال عن موجب التغيير. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا ﷺ لما رأى التمر على خلاف ما يعرف سأل.

وفيه دليل على أن حسن السؤال من السنة. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، أكُلّ تمر خيبر هكذا؟ فهذا اختصار في اللفظ وغاية في حقيقة كشف الأمر.

وفيه دليل على جواز القَسَم في دَرْج الكلام، وهو الذي يسميه بعض العلماء: لغو اليمين. يؤخذ ذلك من قوله (لا، والله يا رسول الله)، ولم ينكر عليه ﷺ ذلك.

وفبه دليل على أن ذكر اسم العالم عند رد الجواب عمّا سأل من الإكرام له. يؤخذ ذلك من قوله (لا، والله يا رسول الله)، فقد حصل بقوله (لا، والله) رد الجواب، وما بقي ذكر اسمه، عليه السلام، إلا إعظاماً له وتبركاً به.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ١٩٨ ـ

حديث زواجه ﷺ بميمونة رضي الله عنها

عَن ابنِ عبَّاسٍ، رضي الله عَنهُما، قالَ: تَزَوجَ النَّبيُّ ﷺ مَيمونَةَ[١] وَهُو مُحرِم، وَبَنى بِها وَهُوَ حَلال. ومَاتَت بِسَرِفَ[٢].

* * *

ظاهر الحديث يدل على جواز نكاح المُحرِم، وليس الأمر على ظاهره، لأنه ﷺ نهى عن نكاح المُحرِم. وإنما ذكر أهل العلم في هذا الحديث أن النبيّ ﷺ وكَّل ـ وهو حلال ـ مَن يعقِد نكاحه معها، رضي الله عنها. فإنها كانت خرجت برسم الحج قبل خروج النبيّ ﷺ، وكان توكيل النبيّ ﷺ لمن يعقد نكاحه معها وهو بالمدينة قبل خروجه للحج أيضاً. فخرج مَن وكّله على ذلك، وعقد النكاح بعد إحرام النبيّ ﷺ، فالذي رأى ذلك روى ما رأى ولم يكن عنده علم بالتوكيل في ذلك.

وهذا ليس يَقدح في الرواية، لأنه روى ما رأى كما فعل في إحرامه ﷺ، فبعض الناس روى أنه، عليه السلام، أحرم من المسجد، وبعضهم روى أنه أحرم حين استوت به راحلته، وبعضهم روى أنه أحرم حين توسط البيداء، فشق ذلك على بعض السادة وقال: حَجة واحدة. واختلف الناس في ذلك. فقال ابن عباس، وهو راوي هذا الحديث: أنا أزيل لكم هذا الإشكال. كنت معه، عليه السلام، فأحرم من المسجد، فمن كان هناك روى ما سمع، ثم خرج وخرجت معه، فلما استوى على راحلته لَـبَّى فمن كان هناك روى ما سمع، ثم مشى ومشيت معه، فلما توسط البيداء والناس أمامه وخلفه ويمينه ويساره مدَّ البصر، لبَّى. فمن كان هناك روى ما سمع. فالكل قالوا حقاً.

---

(١) ميمونة بنت الحارث الهلالية: آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وآخر من مات من زوجاته، كان اسمها (بَرّة) فسماها (ميمونة). بايعت بمكة قبل الهجرة، وكانت زوجة أبي رهم بن عبد العزى العامري، ومات عنها، فتزوجها النبيّ ﷺ سنة ٧ للهجرة وروت عنه ٧٦ حديثاً، وعاشت ثمانين سنة، وتوفيت بسَرِف، وهو الموضع الذي كان فيه زواجها بالنبي ﷺ قرب مكة، ودفنت به سنة ٥١هـ (الأعلام ٨/ ٣٠٢).

(٢) سَرِف: مكان يبعد عن مكة المكرمة حوالي خمسة عشر كيلومتراً في الطريق الذاهب إلى المدينة المنورة.

وفيه دليل على أن الشاهد إنما يشهد بما رأى أو علم، ولا يلزمه علم ما خفي من الأمر. يؤخذ ذلك من كون الصحابي روى ما رأى، ولم يكن له علم بما بطن من الأمر كما ذكرنا. يؤيد هذا قوله تعالى ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾[1].

وهنا بحث وهو أن يقال: ما الفائدة من إخباره بأنها ماتت بسرف، وهو موضع بين مكة والمدينة؟ فهو إيضاح حال ليكون تصديقاً لما به أخبر، فإنه أخبر بزواجها ودخول الرسول، عليه السلام بها، وهو حلال، وموتها بعد ذلك بسَرِف. فمن يعرف هذه الجزئيات فهو صادق فيما أخبر به.

ويترتب عليه من الفقه أنه ينبغي للمخبر بالأشياء أن يأتي من الدلائل على تصديقه بما أمكنه، فإن ذلك دال على تحرزه في النقل والإخبار، وأدفع لتهمة المعترض السيّىء الظن.

وفيه دليل على جواز الزواج في السفر والدخول بالأهل فيه. يؤخذ ذلك من إخباره، أنه عليه السلام، دخل بها وهو حلال، وذلك كله في سفره عليه السلام بالحج، ورجوعه منه قبل دخول المدينة.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) سورة يوسف، من الآية ٨١.

ـ ١٩٩ ـ

حديث طاعة الأمير لا تكون إلاَّ في معروف شرعاً

عَن عَليٍّ بنِ أبي طالبٍ[١]، كَرَّمَ الله وَجهَهُ، قالَ: بَعثَ النَّبيُّ ﷺ سَرِيةً، واستعمَلَ رَجُلاً مِنَ الأنصار، وأمرَهُم أن يُطيعوهُ، فَغَضب فقالَ: ألَيسَ أمرَكُمُ النَّبيُّ ﷺ أن تُطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمَعوا حَطباً. فجَمَعوا. فقالَ: أوقدوا ناراً. فأَوقَدوها. فقالَ: ادخلوها. فَهَمُّوا، وجَعلَ بَعضُهم يُمسِكُ بَعضاً، ويَقولونَ: فَررنا إلى النَّبيِّ ﷺ مِنَ النارِ. فما زالوا حَتى خمدت النَّارُ فَسكنَ غَضبهُ. فَبَلغَ النَّبيَّ ﷺ فقالَ: لَو دخَلوها ما خَرجوا مِنها إلى يَومِ القِيامَة. الطَّاعةُ في المَعروفِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن لا طاعة للأمير على من أُمِّرَ عليه إلا فيما فيه طاعة. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن من السنة ألا تخرج سرية حتى يكون عليها أمير. يؤخذ ذلك من قوله (واستعمل رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه).

وفيه دليل على أنه لا تتم الإِمْرَةُ لمن أَمَّره الإمام حتى يفصح لمن أمره عليهم بالطاعة له. يؤخذ ذلك من قوله: وأمرهم أن يطيعوه.

وفيه دليل على جواز الكلام للأمير والأمير في حال الغضب، لكن لا ينفذ المأمور به إلا ما وافق لسان العلم، ويدع ما عدا ذلك. يؤخذ ذلك من أن أمير هذه السرية تكلم في حين غضبه بأشياء، فبلغ جميع ذلك للنبيّ ﷺ، فمنع منها ما خالف لسان العلم، وسكت عن الباقي. وسكوته، عليه السلام، دال على جوازه، فإن كلام الأمير ذكر فيه ما هو حق وهو قوله (أليس أمركم النبيّ ﷺ أن تطيعوني)؟ وهذا قول حقّ، فما ضره الغضب. ثم أمر بشيء من قبيل الجائز وهو جمع الحطب ووقد النار، والجائز لا يؤثر فيه الغضب، لأنه باق على حاله من الجواز. ثم أمرهم بدخول النار، وهو ممنوع شرعاً، فهذا هو الذي منع النبيّ ﷺ من جميع قوله، وهو ممنوع في كل حال.

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٨٢.

وفيه دليل على أن الغضب يغطي على ذوي الأحلام بعض الحق في بعض الأمور، لأن هذا الأمير الذي أمّره النبيّ ﷺ على السرية لم يؤمّره حتى كان فيه دين وعقل وفضل، ولولا ما لحقه، من الغضب ما لحقه ما أمر جمعاً من المسلمين أن يحرقوا أنفسهم. ولذلك قال ﷺ: (إذا غضبتَ فاسكت)[1]، لأن كل متكلم في حال الغضب ـ وإن قال حقاً ـ فلا بد له من شيء ما يقع فيه. وقد جاء من طريق آخر أن الغضب من الشيطان[2]، فمن أصابه فيتوضأ، فإنه يذهب عنه.

وقد روي مثل هذا عن معاوية، رضي الله عنه، حين قال له بعض الناس، وهو على المنبر: أعطِ الناس عطاياهم، فإن المال ليس من كسبك ولا من كسب أبيك ولا من غزل أمك. فقال: على رِسْلِكم. فنزل ودخل منزله فخرج وعليه أثر الماء. فقال: أما بعد، فإنه لما قال الرجل مقالته أغضبني، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول، وذكر الحديث الذي ذكرناه آنفاً، وقد زال عني الغضب، وصدق الرجل، ليس المال من كسبي، ولا من كسب أبي، ولا من غزل أمي، وإذا كان الغد فائتوني لأخذ عطاياكم[3].

ولأهل الطريق في مثل هذا السبْق العظيم. فمما ذكر عن بعضهم أنه كان له غلام وعمل الغلام على أن يُغضِبه، فبقي يروم ذلك زماناً مهما عمل شيئاً يوجب الغضب عليه حلم عنه وعفا. فلما كان يوماً قال له: ائتني بالدابة مسرعاً لضرورة لي. فأبطأ عليه، فمشى بنفسه إلى حيث كانت الدابة، فإذا بالغلام قد عرقبها[4] وهي ملقاة بالأرض والغلام قاعد ينظر إليها. فسأله: من فعل هذا؟ قال له: أنا. قال له: وما حملك على هذا؟ قال: أردت أن أغضبك، فإنك منذ اشتريتني أروم ذلك منك وما قدرت عليه. فقال له: إني، إن شاء الله، أُغضِب من أغواك، اذهب فأنت حرّ لوجه الله.

وفيه دليل على أن المنجّي من النار هو الإيمان. يؤخذ ذلك من قولهم (فررنا إلى النبيّ ﷺ من

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: إذا غضب أحدكم فليسكت.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عطية العوفي بلفظ: إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية ٤/ ١٣٠ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٥ و٥١ كما في مختصره لابن منظور من طريق أبي مسلم الخولاني عن معاوية أنه خطب الناس وقد حبس العطاء شهرين أو ثلاثة فقال له أبو مسلم: يا معاوية، إن هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك. فأشار معاوية إلى الناس أن امكثوا ونزل فاغتسل ثم رجع فقال: أيها الناس، إن أبا مسلم ذكر أن هذا المال ليس بمالي ولا مال أبي ولا مال أمي، وصدق أبو مسلم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الغضب من الشيطان، والشيطان من النار، والماء يطفىء النار، فإذا غضب فليغتسل، اغدوا على عطائكم على بركة الله عزّ وجلّ.

(٤) عَرقَبها: قطع عرقوبها، والمراد رجلها.

النار). فإن الفرار إلى النبيّ ﷺ فرارٌ إلى الله تعالى، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] والفرار إليه سبحانه هو اتّباع أمره واجتناب نهيه.

وفيه دليل على أن الطاعة للأمير لا تنفع صاحبها إلا إذا كانت موافقة للسان العلم، وإلا فهي معصية. يؤخذ ذلك من أن بعض أهل تلك السرية أرادوا أن يدخلوا النار اتّباعاً لأمر أميرهم، يقصدون بذلك القربة إلى الله سبحانه. ثم أخبر رسول الله ﷺ لما بلغه الأمر أنهم لو دخلوها ما خرجوا منها، فدل ذلك أنها أنْ لو كانت لكانت من الكبائر.

وفيه دليل على أن من السنة رد أخيك المسلم عما يضره بالقوة، إذا لم يقبل منك بالقول. يؤخذ ذلك من كون الذين أرادوا أن يدخلوا النار، ولم يسمعوا من قول إخوانهم (فررنا إلى النبيّ ﷺ من النار)، حبسوهم بالقهر حتى خمدت النار. يقوي ذلك قوله ﷺ (أُنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)[2]. فنصر الظالم أن ترده عن الظلم بأي وجه قدرت.

وفيه دليل على أن أهل الفضل ليس المعصوم منهم إلا من شاء الله تعالى. يؤخذ ذلك من أن فضل أولئك الناس كلهم لا شك فيه، وقد غلط بعضهم بأن ظن أن دخول تلك النار اتّباعاً لأمر أميرهم طاعة، ولم يكن كذلك.

وفيه دليل على أن الجمع من هذه الأمة لا يجتمعون على غلط. يؤخذ ذلك من كون تلك السرية انقسموا قسمين: منهم من هان عليه دخول النار فظنه طاعة، ومنهم من لم يظهر له ذلك فكان خلافهم سبباً لرحمة الجميع.

وفيه دليل لمن يقول: **اختلاف العلماء رحمة**، وقد قال ﷺ (لن تجتمع أمتي على ضلالة)[3].

وفيه دليل على أن من كان صادقاً مع الله تعالى لا يقع إلا في خير، وإن قصد شراً أو أراده فإن الله يصرفه عنه. يؤخذ ذلك من أنه لما كان الذين أرادوا أن يدخلوا النار، وظنوا أنه طاعة لله تعالى، فبصدقهم مع الله جعل الله إخوانهم حبسوهم عن ذلك حتى نجوا من هذا الأمر العظيم. ومن كلام أهل التحقيق: **من صدق الله وَقَاهُ الله. ومن توكّل على الله كفاه الله وهداه**. جعلنا الله منهم بمنّه لا ربّ سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الذاريات، من الآية ٥٠.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن أنس رضي الله عنه. وتمامه: قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره.

(٣) روي من عدة طرق، منها عن ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي في الفتن، بلفظ: لا يجمع الله أمتي أو قال: هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله على الجماعة. وللحديث طرق أخرى في كتب الحديث.

ـ ٢٠٠ ـ

حديث ثواب قارىء القرآن الحافظ له والمتدبر لمعانيه

عَن عائِشَةَ، رضيَ الله عَنها، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: مَثَلُ الَّذي يَقرأُ القُرآنَ وَهُوَ حافظ له معَ السَّفَرَة[١] الكرامِ، ومَثَلُ الَّذي يَقرأُ القُرآنَ وَهُوَ يَتعاهَدُهُ[٢] وهُوَ عَليهِ شَديد فَلَهُ أجرانِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) أن الذي يقرأ القرآن ويعمل به هو مع الملائكة. و(الثاني) أن الذي يتعاهده بالتلاوة وهو عليه شديد له أجران. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى قوله مع الملائكة ـ وهم السَّفَرة، كما أخبر عزّ وجلّ عنهم بقوله تعالى: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[٣]؟ ـ وتبيين الأجر الذي لقارىء القرآن، ومنه تبيين تضعيفه، لأنه لا يتبين التضعيف إلا بعد معرفة الأصل؟

فمعنى قوله عليه السلام (مع السفرة الكرام) الذين أشرنا إليهم ـ وهم الملائكة ـ لأنه يحصل له الأمن في الدنيا والآخرة. أما في الآخرة فيدل على ذلك قوله تعالى ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[٤] وأما في الدنيا فيدل على ذلك قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[٥]، ومن الحديث قوله

---

(١) السَّفَرة: ج سافر: الملائكة الذين يحصون الأعمال.

(٢) يتعاهده: يردده محافظة عليه.

(٣) سورة عبس، الآيتان ١٥ ـ ١٦.

(٤) سورة فُصّلت، من الآية ٣٠ والآية ٣١.

(٥) سورة الصف، الآيات ١٠ ـ ١٣.

وتمام الآيات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ

عليه السلام في الذي حفظ القرآن (كأنما أُدرجِت النبوةُ بين كتفيه)[١]، والأنبياء، عليهم السلام، لهم خير الدنيا والآخرة.

والفرق بين حفظه والمحافظة عليه، لأن حفظه يحصل بالدرس، وقد يحفظه البرّ والفاجر، وقد قال ﷺ (من علامة الساعة أن يُفتح للناس في حفظ القرآن، يحفظه البَرّ والفاجر، يجادلون به المؤمنينَ ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله)[٢]، أو كما قال عليه السلام. والمحافظة عليه التي هي العمل به لا تكون إلا للخصوص من المؤمنين، أولئك حزب الله وهم المفلحون الذين هم مع الملائكة السفرة الكرام، لأن المحافظة على الشيء الاعتناء به وعمله على ما يجب، لقوله تعالى ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[٣].

وفيه دليل لمن يقول: إن الملائكة أرفع من بني آدم الصالحين. يؤخذ ذلك من كون أعلى ما رفعت درجة هذا أن جُعِل مع الملائكة.

وأما الكلام على أجر من قرأ القرآن، بلا شدة عليه، فقد جاء (أن له بكل حرف عشر حسنات، لا أقول: ألف لام ميم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف)[٤]، وقد جاء (أن من قرأ القرآن قائماً في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، وإن كان قاعداً خمسون، وإن كان في غير صلاة على طهارة خمس وعشرون، وإن كان على غير طهارة عشر حسنات)[٥]، وقد جاء (أنّ من قَرَأ القرآن، وهو يعلم لِمَ رُفِعَ ولِم نُصِبَ، كان له بكل حرف سبعمائة حسنة)[٦]. فعلى مقتضى هذه الآثار إذا تعاهده على وجه من هذه الوجوه، وهو عليه شديد، كان له ضعفان من ذلك الأجر المسمَّى.

وفي مقتضى هذه الأخبار دليل على أنه ليس في جميع النوافل أرفع من قراءة القرآن، إلا أنه يجب أن تكون القراءة كما ذكر بعد في الكتاب، وهو قوله عليه السلام (اقْرَؤوا القرآن ما ائتلفت عليه

= عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ. وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد. ذكره المنذري في الترغيب والترهيب من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه. ولا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد، ولا يجهل مع من جهل، وفي جوفه كلام الله.

(٢) رواه الطبراني عن أبي مالك الأشعري وأوله: لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خصال إلخ.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٣٨.

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) لم نقف على مصدره.

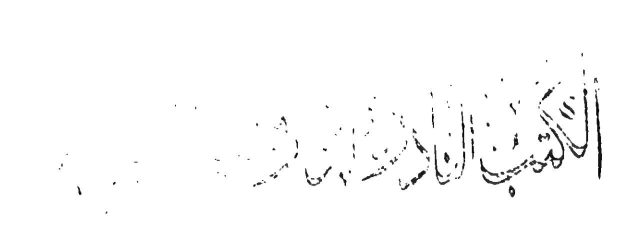
(٦) لم نقف على مصدره.

قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه)[1]، ويكون خالصاً لله عزّ وجلّ، لا من أجل أجرة تؤخذ عليه، ولا أن يجعل صنعة يتوصل به إلى شيء من حطام الدنيا.

وإن كان بعض الوجوه في أخذ الأجرة عليه خلاف. فجواز أخذ الأجر ليس هو من هذا الباب، لأن هذا باب تعبد، وذلك باب ما يجوز من أنواع التكسبات وما لا يجوز، فلا يجتمعان لأن الله عزّ وجلّ يقول في أنواع التعبّد ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[2] والإخلاص أن يكون، لله عزّ وجلّ، لا يخالطه غيره. وقد جاء أن يوم القيامة يقول الله سبحانه وتعالى للذي خلط في عمله مع الله غيره (أنا أغنى الشركاء، اذهب فخذ الأجر من غيري)[3]. وقد قال بعض أهل المعاملات مع الله تعالى بالصدق والإخلاص: إن قراءة القرآن بالتدبر والحضور حياة النفوس، وإنه عِزّ الأرواح. فمن فهم هام، ومن حرم تاه، وظن أنه يحسن صنعاً.

أحيا الله أرواحنا به، وجعلنا من حزبه بمنّه وكرمه. آمين. والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن جندب رضي الله عنه.

(٢) سورة البيّنة، من الآية ٥.

(٣) رواه مسلم في كتاب الزهد.

- ٢٠١ -

حديث فضل آخر سورة البقرة في التهجد

عَنِ ابنِ مَسعودٍ، رَضي الله عَنه، قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: مَن قرأَ بالآيتَينِ مِن آخرِ سُورَةِ البقَرةِ في لَيلَةٍ كَفَتاهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن من قام في ليلة بالآيتين من آخر سورة البقرة أجزأتاه عن قيام الليل، وصح له اسم التهجد. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هي بنفسها تجزىء لمعنى فيها خاص؟ أو هل هي على طريق التمثيل أنه من قام بآيتين يكون طولهما كهاتين كفَتاه، وإن كانتا أقل لم تكفياه؟ أو هل معنى الكلام أن من قام بهما أو بآيات تحوي من المعاني مثل ما حوَتا كان في ذلك كفاية وإن كان أقل من ذلك لم يُجْزِهِ؟

فالجواب: اللفظ نفسه محتمِل، لكن من خارج يقع التخصيص.

منها: أنه قد جاء عنه ﷺ أنه قال (من قام بالآيتين من آخر آل عمران كفتاه)[١]، أو كما قال عليه السلام. وقد قال عزّ وجلّ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ ﴾[٢] ولم يخص آية دون آية، وقد كان قيامه ﷺ لم يخص أيضاً آيات دون آيات، بل ما من شيء من الكتاب العزيز إلا قد قام، عليه السلام، به. وقد كان يتنفل بعض مرار في قيامه بقراءة هاتين الآيتين، ثم يتنفل بعدهما بما شاء، ثم مراراً يقوم ويقرأ غيرهما ولا يقرؤهما.

فلما كان قيام الليل من المستحسن والمستحب فيه طول القيام، وكذلك كان الغالب من فعله ﷺ، كما جاء من رواية عائشة رضي الله عنها قالت (كان يقوم بأربع لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم بأربع فلا تسأل عن حسنهن وطولهن)[٣]، فجاء هذا الحديث تبييناً بمقدار الطول المجزىء في

---

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ٧٩.

(٣) رواه البخاري في التهجد، ومسلم في صلاة المسافرين عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: ما كان يزيد في رمضان=

القيام، وما زاد على ذلك يكون زيادة في الخير واتباعاً لفعله ﷺ. وجه التمثيل بهاتين الآيتين والتي[1] في آخر آل عمران على طريق التمثيل، لكنّ هذتن الآيتان أقصر من الآيتين اللتين في آخر آل عمران.

فإن كان هذا الحديث هو المتقدم فيكون ذكر التي في سورة البقرة تحقيقاً. ونحن لا نعلم المتقدم منهما، فإن أخذنا بالأحوط فنعمل على الحديث الذي في آخر سورة آل عمران، وتكون التي في آخر سورة البقرة على الرجاء[2]. وإن أخذنا بأحد الوجوه التي ذكرها الفقهاء عند تعارض الأدلة وعملنا على التي في آخر آل عمران قلنا: وجه من الفقه، والوجوه التي ذكرها الفقهاء عند تعارض الأدلة هي أربعة[3]، وقد ذكرناها فيما تقدم من الكتاب.

وفيه دليل على أن قيام الليل مطلوب شرعاً. وبقي البحث على أي وجهٍ هو؟ هل على الوجوب أو على الندب؟ قد اختلف العلماء في ذلك. فالجمهور أنه على الندب، ونص الكتاب ينبىء بهذا، وهو قوله تعالى ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾[4] ومنهم من قال: هو على الوجوب، وأقل ما يجزىء

= ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: يا عائشة، إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي.

(١) كذا. والصواب: واللتين.

(٢) ظاهر الأحاديث هنا متعارض بين القيام بآيتين من آخر البقرة أو من آخر آل عمران، فأيهما نرجح؟ وقد أخذ المؤلف بالأحوط، وجمع بين الدّليلين، لم يهمل أيّاً منهما وهو غير الطريقة المشار إليها لدى علماء الأصول، فيقرأ بكلٍ منهما في ليلة. ومن الناس الضعفاء من أخذ بالقصيرتين، ومنهم الأقوياء من يأخذ بالطويلتين (من البقرة وآل عمران) ويكون ذلك حسب الأحوال.

(٣) قال الأصوليون: المرجّحات في الأدلة عند تعارضها أربعة:

١ ـ الاستحسان في معارضة القياس، كالاستجار على الطاعات... في مقابل الآثار والنصوص المانعة من ذلك كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ وذلك خشية اندثار الشعائر، وكبيع السَّلَم، وهو بيع المعدوم، وأصل المعدوم منهيّ عن بيعه (وهذا قوة الأثر).

٢ ـ قوة الإثبات لأحد القياسين على آخر، كصوم رمضان، فهو متعيّن شرعاً، فلا حاجة للنية وهو أقوى من أن صومه فرض فيحتاج إلى النية.

٣ ـ كثرة الأصول، كعدم تكرار مسح الرأس في الوضوء، وهذا يشهد له أصول كثيرة مثل مسح الوجه واليدين في التيمّم، ومسح الجبيرة، ومسح الخفّ.. إذ كلها لا تكرار فيها.

٤ ـ العدم، حجة للعدم في العلة على قاعدة أن العلة طرداً وعكساً أرجح من طردٍ دون عكس، كقولنا: إنه مسح، فلا يسنّ تكراره، فهو أرجح من قولهم: إنه ركن فيسنّ تثليثه، لأن ما قلنا ينعكس بما ليس يمسح كغسل الوجه (يثلث لأنه ليس مسحاً) بخلاف قولهم: إنه ركن فيسنّ تثليثه لأنه لا ينعكس، فإن المضمضة تتكرر، وليست بركن.

(٤) سورة الإسراء، من الآية ٧٩. وتمام الآية ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾.

فيه قدر فَواق ناقة[١]، وهو - والله أعلم - يدل عليه هذا الحديث بطريق ما، لأن مالكاً، رضي الله، عنه يقول: كل ما يكون فرضاً فلا بد أن يكون محدوداً بالكتاب أو بالسنة، وما ليس بمحدود بكتاب ولا بسنة فليس بفرض. وهذه السنة في هذين الحديثين قد جاءت في قيام الليل، وإذا تأملت هذا الحديث تجده قدر فَواق الناقة التي قد حدها الذي جعلها فرضاً، وهو قدر ما يقام بهاتين الآيتين.

وفيه دليل على حسن تعليمه ﷺ. يؤخذ ذلك من تحديده، عليه السلام، بهاتين الآيتين، وكثير من الآي في الطول مثلهما، فخصصهما بالتحديد لما فيهما من معنى الدعاء، وفي ذكره إياهما إرشاد منه ﷺ إلى سنته. ومن سنته، عليه السلام، في تهجده إذا مرَّ بآية رحمةٍ بكى، وإذا مرّ بآية عذاب استعاذ، وإذا مرّ بآية تنزيه لله سبحانه سبّح[٢]. وقد جاء عنه ﷺ أنه قال (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فإذا ختم السورة فليقل آمين)[٣]، فيحصل له بركة الدعاء قطعاً، لأن كل مؤمن داع.

وفيه دليل على أن أجلّ الأحوال في الصلاة قوة الإيمان. يؤخذ ذلك من تحديده، عليه السلام، بهاتين الآيتين وبالتي[٤] في آخر آل عمران، لأن قراءة إحداهما فيها لمن تدبّرهما قوة في الإيمان. وقد قدمنا كيف كان حاله عليه السلام في قيامه، أنه كان يكسوه من كل آي يقرأها حال يناسب معنى تلك الآي. وكذلك ينبغي أن تكون تلاوة القرآن، وألا يكون تاليه (كالحمار يحمل أسفاراً).

وفيه دليل على الإرشاد في القيام إلى الاستكانة والخضوع والافتقار. يؤخذ ذلك من تحديده، عليه السلام، بهذه الآية، لأن تدبرها يوجب الخضوع لله تعالى والافتقار إليه، لأنه إذا تذكر القارىء ذنوبه أوجبت له الذلّة والمسكنة، وإذا طلب المغفرة منها أوجب له ذلك صدق اللّجأ إلى مولاه الكريم والافتقار إليه.

وفيه دليل على أن من أجلّ صفات المصلّي حسن ظنه بمولاه. يؤخذ ذلك من أن من طلب النصر على عدوه إنما يكون بصدقه مع الله وحسن ظنه به، والله، عزّ وجلّ، يقول على لسان نبيه عليه السلام (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء) رواه الشيخان.

---

(١) فَواق الناقة: الوقت بين الحَلبتين، أو ما يعود فيجتمع من اللبن بعد ذهابه برضاع أو حِلاب.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ورواه النسائي وأبو داود. ولفظه في النسائي: عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوّذ.

(٣) رواه أبو عبيد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ قال: آمين.

(٤) يريد: وباللّتين.

وفيه دليل: على أن المرغَّب فيه في القراءة عند الفهم التدبر، وإن قلّت، وهو خير من كثرة القراءة بلا تدبر. يؤخذ ذلك من تحديده، عليه السلام، بهذه الآية، لأنه بنفس تلاوتها يفهم معناها، فيحصل للقارىء بها تلاوة وتدبر ومعرفة بمعنى الآية، لأن فائدة التدبر هو أن يعرف معنى ما يتلوه من الآي. وهاتان بنفس التلاوة يحصل الفهم بمعناهما، فيكون النبي نهجه في تهجده على أكمل الأحوال، وهو التلاوة مع الفهم.

وفيه دليل على ما أعطى الله سبحانه له، عليه السلام، من البلاغة وحسن الإدراك. يؤخذ ذلك من تمثيله، عليه السلام، بهاتين الآيتين اللتين جمعتا جملاً من المعاني الحسان، كما أبديناه بتوفيق الله تعالى. وإذا تأملت وجدت أكثر وأبدع، فإن عجائبه لا تنقضي. وفيما أبديناه دليل على أن الفهم في كتابه، عزّ وجلّ، وسنة نبيه، عليه السلام، لا ينال إلا بالفضل، وأن مطالب ذلك من غير هذا الوجه متعنٌّ، كما أشار بقوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾(1) فأرشدنا، عزّ وجلّ، إلى عمل البساط لذلك والتهيؤ له باستعمال التقوى، وأن التعليم إنما هو منه، عزّ وجلّ، وما هو منه فطريقه الفضل، لأنه سبحانه لا حق عليه واجب.

وفيه دليل لأهل المعاملات مع الله تعالى، لأنهم ما جعلوا طريقهم في كل الأشياء إلا بتقواه عزّ وجلّ، والوقوف ببابه. مَنَّ الله علينا بما به منّ عليهم في الدارين بفضله وكرمه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(1) سورة البقرة، من الآية ٢٨٢.

ـ ٢٠٢ ـ

حديث جواز التَّحَصُّن بالقرآن عند النوم

عَن عائِشَةَ رضيَ الله عَنها، أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا أوى إلى فِراشهِ كُلَّ لَيلَةٍ جَمعَ كفَّيه، ثمَّ نَفَث[١] فيهما فَقرأ فيهِما قُل هُو الله أَحَد[٢]، وقُل أعُوذُ بِربِّ الفَلَقِ[٣]، وقُل أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ[٤]، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما استطاع من جَسده، يبتدىء بِهِما على رَأسِهِ ووَجهِهِ ومَا أقبَلَ مِن جَسَدهِ، يَفعَلُ ذلكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

* * *

ظاهر الحديث أن من سنته ﷺ التحصّن من الآفات عند النوم بقراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمُعَوِّذَتَـيْنِ[٥]، مع مسّه بريقه المبارك، يفعل ذلك ثلاث مرات. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال ما الحكمة في فعله عليه السلام هذا؟ هل هو تعبّد لا يعقل له معنى، أو هو معقول المعنى؟ فإن قلنا: غير معقول المعنى، فنقول: هذه سنته، عليه السلام، ولا يعقل لها معنى. وإن قلنا إنه معقول المعنى ـ وهو الأظهر ـ فما الحكمة؟ فنقول: احتملت ـ والله أعلم ـ وجوهاً:

منها: أن يكون، عليه السلام، تعوّذ من الشيطان، وإن كانت ذاته المباركة محروسة من الشيطان، فيكون ذلك على طريق التعليم لنا والإرشاد، إذ ذاته المباركة محروسة من الشيطان، وهو يفعل هذا فكيف بالغير؟ فيكون من قبيل التأكيد، كما فعل، عليه السلام، في تأكيده على التوبة والاستغفار بقوله عليه السلام «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة، وأتوب إليه في اليوم مائة

---

(١) نفث: نفخ مع قليل من الريق.
(٢) قل هو الله أحد أي: سورة الإخلاص كاملة.
(٣) قل أعوذ برب الفلق أي: سورة الفلق كاملة.
(٤) قل أعوذ برب الناس أي: سورة الناس كاملة.
(٥) المعوذتان: سورتا الفلق والناس.

مرة)[1]، ويحتمل أن يكون على وجه التبرك بكتاب الله عزّ وجلّ، لأنه قد صح (أنه من قرأ سورة من كتاب الله عند نومه باتت تحرسه).

ويترتب عليه من الفقه في حقنا: التحصن بآيات الله تعالى وكتابه من كل سوء يتوقع. ومما يقوي هذا ما روي عنه ﷺ في يوم الأحزاب، أنه كان تحصنه بقوله تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2] والدعاء المذكور بعدها وهو ما روي عن الشافعي[3] عن مالك[4] عن نافع[5] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ يوم الأحزاب ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وقال: (وأنا أشهد بما شهد الله به، وشهدت به ملائكته، وأستودع الله هذه الشهادة لتكون وديعةً لي عند الله يؤديها إليّ يوم القيامة).

(اللّهم إني أعوذ بنور قدسك، وعظيم ركنك، وعظمة طهاراتك، من كل آفةٍ وعاهةٍ، ومن طوارق اللّيلِ والنهارِ إلاّ طارقاً يطرقُ بخيرٍ. اللّهم أنت غياثي بك أستغيث، وأنت ملاذي بك ألوذ، وأنت عياذي بكَ أعوذُ، يا من ذلّت له رقابُ الجبابرة، وخضعت له أعناق الفراعنة، أعوذُ بك من خزيك، ومن كَشفِ سِترك، ونسيانِ ذكرك، وانصرافي عن شكرِك. أنا في حرزك ليلي ونهاري، ونَوْمي وقَراري، وظَعْني وأسْفاري، وحياتي ومماتي. ذكرُك شعاري، وثناؤك دثاري. لا إلَه إلاّ أنتَ. سبحانك اللّهم وبِحَمدِكَ تشريفاً لعظمتك، وتكريماً لسُبُحات وجهك. أجزني من خِزيِكَ ومن

---

(١) رواه البخاري في الدعوات والترمذي في تفسير القرآن عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٣) الشافعي: محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المطلبي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد بغزة سنة ١٥٠هـ وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩ وتوفي بها سنة ٢٠٤. كان أعلم الناس بالشعر والأدب والفقه والقراءات. له تصانيف كثيرة منها: الأم، والمسند، وأحكام القرآن، والسنن، والرسالة، واختلاف الحديث، والسبق والرمي، وفضائل قريش، وأدب القاضي، والمواريث (الأعلام ٦/ ٢٥٠).

(٤) مالك: ابن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبدالله، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. مولده ووفاته في المدينة، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، وشي به إلى جعفر عم المنصور فضربه سياطاً انخلعت لها كتفه. وجه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يؤتى؛ قصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، من إجلال رسول الله إجلال العلم، فجلس بين يديه فحدثه. ومن تصانيفه: الموطأ ورسالة في الوعظ، والرد على القدرية، وكتاب في النجوم، وتفسير غريب القرآن وسواها توفي في المدينة المنورة سنة ١٧٩هـ (الأعلام ٦/ ١٢٨).

(٥) نافع: ابن جبير من قريش. من كبار رواة الحديث، تابعي، ثقة، من أهل المدينة، كان فصيحاً، عظيم النخوة، جهير المنطق، يفخم كلامه، وفيه تيه. وكان ممن يؤخذ عنه ويفتى بفتواه. توفي سنة ٩٩هـ (الأعلام ٨/ ٣١٦).

شَرِّ عبادِك، واضرِبْ عَليَّ سُرادِقاتِ حفظِكَ، وأدخِلْني في حفظِ عِنايتِكَ، وجُدْ علَيَّ بخيرٍ منكَ يا أرحَمَ الراحمين).

وأما حكاية الشافعي في تحصنه بهذه الآية المذكورة، مع الدعاء بعدها مما خافه، فإن الخليفة وجَّه إليه مغَضباً عليه، ليوقع به نَكالاً. فلما جاءه الرسولُ توضَّأ وخرج وهو يحرّك شفتيه، فلما دخل على الخليفة أجلَسَه إلى جنبه، وأحسن له في القول، ودفع له جملة مال، فخرج من عنده بخيرِ خروجٍ. فأتبعه الرسول الذي وجه إليه فقال له: ناشدتك الله، ما كنت تقول حين كنتَ تحرك شفتيك، فأزال الله به غيظَ الخليفة، وأبدَلَه رضئً وإحساناً؟ فذكر له هذا الدعاء الذي رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ يوم الأحزاب ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى تمامه.

واحتمل أنه لما كان سبب نزولها شفاء له، عليه السلام، من السحر الذي سحره اليهود، وشفي بها، استصحب، عليه السلام، الحكم تأدباً مع أثر حكمة الله تعالى، وقد قال ﷺ (من رزق من باب فليلزمه). وهو عليه السلام ما يرشد لشيءٍ إلاّ وهو أشد الناس حرصاً على عمله.

ويترتب على ذلك من الفقه لنا أن يلتزم الشخص الأشياء المنجية من الأسواء التي هي على مقتضى الكتاب والحكمة، وإن كان في الوقت مُعافئً في نفسه، فإنه لا يأمن ما في الغيب ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1].

وفيه دليل على أن اتخاذ الفراش لا ينفي الزهد، وهو من السنّة، لأنه، عليه السلام، أزهد الناس، وقد اتخذ الفراش، ولأنه مما إليه حاجة البشر.

وفيه دليل على أن النوم وما تدعو إليه الضرورة ذلك كله للآخرة، لأنـه عون عليها. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، كل ليلة لا بدّ له من النوم في فراشه، وإنما الشأن في كيفية الفراش كيف يكون؟

وفيه دليل على أن بقدر رفع المنزلة يكون الخوف. يؤخذ ذلك من دوامه ﷺ على ذلك كلّ ليلة مع كونه، عليه السلام، معافئً محفوظاً مبشَّراً بخير الدنيا والآخرة، لكن مع علوّ منزلته، عليه السلام، كانت شدة خوفه، وقد صرح، عليه السلام، بهذا حيث قال: (إني لأخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي)[2]، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[3]، وهو عليه السلام أعظم العلماء بالله.

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٩٩.

(٢) لفظه: والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي. رواه مسلم وأبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) سورة فاطر، من الآية ٢٨.

وكذلك كان عليّ، رضي الله عنه، الذي قال عليه السلام في حقه (أن مدينة العلم وعليّ بابها)[1]، إذا كان وقت الأمن والعافية رئي عليه أثر الحزن والخوف، وإذا كان وقت الشدائد والمخاوف رئي عليه أثر السرور والاستبشار. فقالوا له في ذلك، فقال (الدنيا لا تبقى على حال. ما من شدة إلا وبعدها فَرَج، وما من فَرْحة إلا أتبعتْها تـرْحة). فهذا مقام العلماء حقاً، أن يكون حالهم على مقتضى ما دلت عليه الآي والآثار.

وفيه دليل على أن طمأنينته، عليه السلام، إنما كانت بالله. يؤخذ ذلك من فعله، عليه السلام، ذلك عند دخول الفراش، وحينئذ يأتيه النوم، لأن النوم لا يجتمع مع الخوف، لأن الخوف مذهِبٌ له. فإذا تلا كتاب الله تعالى ومَسَح بأثره ذلك الجسد المبارك، ذهب عنه ذلك الخوف الشديد، واطمأنت تلك النفس المباركة فأتاه النوم، وقد قال عزّ وجلّ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2] ولا تطمئن بذكر الله إلا القلوب الخائفة منه عزّ وجلّ. وأما غير هؤلاء فإنما تكون طمأنينة قلوبهم بحسب عاداتهم، مثل الملوك ما تطمئن قلوبهم إلا بحسن جيوشهم وكثرتها، والتجار بكثرة مالهم وتدبيرهم، وأهل كل نوع بما جرت به عادتهم في ذلك، وأهل التقوى إنما يكون اطمئنان قلوبهم بذكر مولاهم، وسيّدنا ﷺ رأسهم وأصلهم.

وفيه دليل على دوام حالته، عليه السلام، متردداً بين الخوف والرجاء. يؤخذ ذلك من دوامه، عليه السلام على ذلك كل ليلة، وهي حالة أولها يدل على الخوف، وآخرها يدل على الرجاء. وأما كونه، عليه السلام، يفعل ذلك ثلاثاً فذلك دالّ على أنه ليس على طريق الرّقي ولا التداوي، بدليل ما جاء عنه، عليه السلام، في الآثار، أن الأشياء التي كان، عليه السلام، يفعلها على طريق التداوي والرقي يعيدها سبعاً، والتي يفعلها لغير هذين الوجهين يكون له بها اعتناء، أو تكون في ذاتها لها بال، يعيدها ثلاثاً.

واحتمل أن يكون فعله، عليه السلام، ذلك عند النوم لما أن كان النوم الموتة الصغرى، فجاء هذا النوع من الإبلاغ في التعبدات، والاستكثار من أثر بركة الله تعالى، حتى إنه بعد ما يتعبد يأوي إلى الفراش حيث تكون الراحة بجري العادة غالباً يجعل فيه تعبداً ما. ولذلك التعبد أثر يُبقِي على بشرية بدنه المبارك بعد النوم، وهو أثر ذلك التمسح بذكر الله تعالى والريق المبارك. وفيه وجه من التشبّه بالموت الحقيقي، كما أن الميت يُطَهَّر حتى يكون قدومه على مولاه بأثر عبادة على بدنه،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك والطبراني في الكبير وأبو الشيخ في السنة عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: أنا دار الحكمة وعلي بابها. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه العلائي وابن حجر.

(٢) سورة الرعد، من الآية ٢٨.

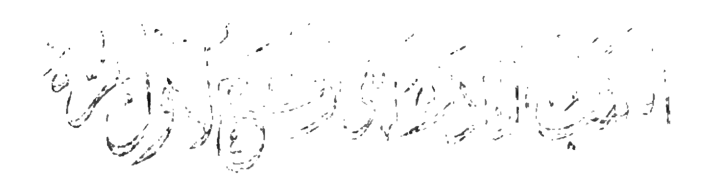
كذلك في هذا، وجعلها وتراً كما هو غسل الميت وتراً، وقد جاء (أن الذي ينام على طهارة أن روحه تسجد بين يدي مولاه)[١]، فكيف إذا كان مع الطهارة هذه الزيادة؟

وفيه دليل على حب سيّدنا ﷺ في التعبدات. يؤخذ ذلك من كثرة اشتغاله، عليه السلام، بها على أنواع مختلفة، وهي لم تفرض عليه مثل هذا وما أشبهه. وإذا تأملت وتتبعت أثره ﷺ تجده كذلك، لأن من أحب شيئاً أكثر منه.

وفيه دليل على فضل ما جاء به، عليه السلام. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ ما من شيء من أوصاف البشرية إلا ظهرت عليه حتى تَحقّق عليه ذلك ومع ذلك الصفاتُ المَلَكِية قد تحلّى بها أتمّ تحلٍّ.

منها: دوام العبادات وتنوعها مثل ما نحن بسبيله من هذا الحديث، ومع ذلك لم يكن عليه السلام يتحرك حركةً إلا بذكر الله عزّ وجلّ، ولا أكل ولا شرب ولا جامع ولا لَبِس ثوباً إلا بذكر الله تعالى عند ذلك كله، ويجد للطاعة حلاوة ويتنعم بها. وقد صرح، عليه السلام، بهذا المعنى بقوله عليه السلام (وجُعِلت قرّة عيني في الصلاة)[٢]، وبقوله عليه السلام (أرِحْنا بها يا بلال)[٣]. وقد وصفه واصفه حيث قال: كان كثير الذِّكْرِ، طويل الفكرة، لا يضحك إلا تبسّماً. فهذه أوصاف ملكية اجتمعت فيه، وله الكمال في أوصاف البشرية، ما من خصلة محمودة من أوصاف البشرية إلا وله، عليه السلام، فيها التقدم، وكذلك التحلّي بالأوصاف الملكية، ﷺ وجعلنا بحرمته من صالحي أمته بمنّه وكرمه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) في هذا المعنى روى ابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: من بات طاهراً بات في شعاره ملك فلا يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهرا.

(٢) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد والنسائي وأوله: حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث..

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن رجل من الصحابة قال: ليتني صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا عليه ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها.

ـ ٢٠٣ ـ

حديث جواز قراءة القرآن للراكب على الدّابة

عَن عَبدِ الله[١] بنِ مُغَفَّلٍ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ وَهُوَ على ناقتِهِ ـ أو جمَلهِ ـ وَهيَ تَسيرُ بهِ وَهُوَ يَقرأ سُورَةَ الفَتحِ، أو مِن سُورَةِ الفَتحِ، قراءَةً لَيِّنَةً، وَهُوَ يُرَجِّعُ[٢].

۞ ۞ ۞

ظاهر الحديث يدل على جواز قراءة القرآن للراكب وهو يسير. والكلام عليه من وجوه:

منها قوله (على ناقته أو جمله) شك من الراوي. وفيه دليل على صدقهم وتحريهم في النقل، وكذلك قوله (سورة الفتح أو من سورة الفتح).

وقوله (قراءة لينة) أي فيها ترسّل وتطويل، وهي أحسن أنواع التلاوة، وهي النوع الذي يمكن معه التدبّر. وقد جاء في صفة قراءته ﷺ: لو شئت أن تعد حروفها لعددتها. وهي حالة تدل على الوقار والهيبة لما هو يتلو.

وأما قوله (يرجّع) فقيل: الترجيع: ترديد القراءة. وقيل: هو تقارب ضروب الحركات في الصوت. وفي صحيح البخاري (كيف كان ترجيعه؟ فقال: آآآ، ثلاث مرات)، وهذا إنما حصل منه ﷺ، لأنه كان راكباً، فجعلت الناقة تحركه، فيحصل هذا من صوته. وقد جاء في حديث آخر أنه كان لا يرجّع. قيل: لعله لم يكن راكباً، فلم يلجأ إلى الترجيع، وليس ذلك كترجيع الغناء. وقد قال

---

(١) عبدالله بن مغفّل: من أهل بيعة الرضوان، وقال: إني لممن رفع أغصان الشجرة عن رسول الله ﷺ. سكن المدينة ثم تحول إلى البصرة، وبنى بها داراً قرب المسجد؛ وكان أحد البكائين الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾. وهو أحد العشرة الذين بعثهم عمر رضي الله عنه إلى البصرة يفقهون الناس. روي له عن رسول الله ﷺ ٤٣ حديثاً، منها في البخاري ومسلم. روى عنه الحسن البصري وغيره. توفي بالبصرة سنة ٦٠هـ.

(٢) يُـرَجِّع: يعيد القراءة.

عليه السلام (زيّنوا القرآن بأصواتكم)[1]. ذكر فيه غير واحد من العلماء أن معناه: زيّنوا أصواتكم بالقرآن. والمعنى اشغَلوا أصواتكم بالقرآن، واجهروا بقراءته، واتخذوه شعاراً وزينة. وليس ذلك على تطريب الصوت.

وقال آخرون: لا حاجة إلى القلب، وإنما معنى الحديث: الحث على الترتيل الذي أمر به في قوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[2] فكأن الزينة للمرتل لا للقرآن، كما يقال: ويل للشّعر من رواة السّوء. فهو راجع إلى الراوي لا إلى الشّعر، فهو حث على ما يزين من الترتيل والتدبر ومراعاة الإعراب.

وقيل: أراد بالقرآن: القراءة. أي زينوا قراءتكم بأصواتكم. وقوله عليه السلام (ليس منا من لم يتغَنَّ بالقرآن)[3] قيل في ذلك معان. فمن جملة معانيه أنه يجعله هُجيراه وتسلية نفسه وذكر لسانه على كل حالاته، كما كانت العرب تفعل ذلك في الشعر والحُداء في قطع مسافاتها وحروبها، فيجد القارىء من الأنس وانشراح النفس بتلاوة القرآن كما يجده أهل الغناء بغنائهم.

ولا يفهم من ترجيعه، عليه السلام، أن يكون كترجيع الغناء، لأنه ﷺ قد نهى عن ذلك بقوله (اقرأوا القرآن بلُحون العرب وأصواتِها، وإياكم ولُحونَ أهلِ العِشقِ، ولحونَ أهل الكِتَاب. وسيأتي بعدي أقوامٌ يرجّعون بالقرآن ترجيعَ الغناء والنَّوح، لا يجاوز حناجرَهم. مفتونةٌ قلُوبُهم وقلوبُ الذين يعجبهم شأنهم)[4]. واللحون: جمع لحن، وهو التطريب وترجيع الصوت وهذه القراءة المنهي عنها لا يمكن معها فهم ولا تدبر، وهي منافية للخشوع، وهذه الصفة ليست المقصودة من التلاوة.

وفيه دليل على إظهار التعبد وهي السنة. يؤخذ ذلك من قراءته، عليه السلام، وهو يسير على ناقته، لأنه ﷺ لما كان شأنه دوامَ التعبد، وجاءته ضرورة السير لم يترك القراءة التي كان، عليه السلام، يفعلها سرّاً لأنه في النوافل أفضل، فِفعلُه الآن جهراً أفضلُ من أجل تقعيد هذه القاعدة الشرعية.

ويترتب عليه من الفقه لأهل الأعمال أن المندوب كله الأفضل فيه الإخفاء، ما لم يكن

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده والإمام أحمد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والدارمي وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن البراء رضي الله عنه.

(٢) سورة المزمل، من الآية ٤.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ورواه الإمام أحمد وأبو داود وصححه ابن حبان والحاكم عن سعد رضي الله عنه وأبو داود عن أبي لبابة بن عبد المنذر وصححه الحاكم عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن حذيفة رضي الله عنه.

بموضع لا يمكن فيه الإخفاء، كالجهاد وتدريس العلم وما أشبه ذلك. فإذا لم يقدر على الإخفاء فيه فإظهاره هو الأولى، لأنه إن لم يمكن إظهاره آل الأمر إلى الترك.

وفيه دليل على أن الجهر في التلاوة أولى من طريق الأفضلية. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ جهر بها في هذا الموضع.

وفيه دليل على أنه إذا تعارض في العبادة أمران أخذ بالأعلى. يؤخذ ذلك من أنه لما تعارض هنا لسيّدنا ﷺ فضلُ الجهر بالقراءة وفضلُ إخفاء العبادة آثر الجهر في التلاوة على إخفاء العبادة.

وينبغي عند الإظهار أن يزيل عن قلبه حبّ الميل إلى المدح، لأن ذلك هو الداء العضال، وقد نص أهل التوفيق على أن طلب المدح مفتاح فقر الأبد. أعاذنا الله من ذلك بمنّه وكرمه آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

— ٢٠٤ —

حديث الأمر بحضور القلب عند قراءة القرآن

عَن جُندبِ بنِ عَبدِ الله[١]، رضي الله عَنهُما، قالَ: قالَ النبيّ ﷺ: اقرؤوا القُرآنَ ما ائتلفت عَليهِ قُلوبُكُم، فإذا اختلَفتُم فَقومُوا عَنهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على ألا يقرأ القرآن إلا بجمع القلب على قراءته، وإذا كان القلب مخالفاً لما أنت تتلوه فلا تَـتْـلُه. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا الأمر هنا على الوجوب، أو على الندب؟ وما حد ائتلاف القلب المجزىء في ذلك؟ وهل هذا أيضاً عام فيما هو قراءة القرآن فيه واجب أو مندوب، أوْ لا؟

فأما قولنا: هل الأمر على الوجوب أو الندب؟ فاللفظ محتمل، لكن أقل ما يكون ندباً.

وفيه دليل على أن الإعظام لجناب الربوبية هو أرفع العبادات. يؤخذ ذلك من طلبه، عليه السلام، حضور القلب عند التلاوة، واجتماعه على ذلك، وهذه حالة الإعظام والإجلال، وقد نص عليه السلام على ذلك بقوله (إن الله لا يقبل عمل امرىء حتى يكون قلبه مع جوارحه)[٢]، فعلى هذا الحديث فيكون الأمر هنا على الوجوب.

فيترتب عليه من الفقه أن الأجور التي جاءت لمن يتلو الكتاب العزيز أنها لا تصح إلا لمن يتلوه على هذه الصفة.

ويبقى البحث: هل من يتلوه على غير هذه الصفة يكون مأثوماً أو لا، لقوله عليه السلام (فإذا

---

(١) جُندب بن عبد الله البَجَلي، من بَجِيلة، له صحبة، ومات بعد الستين. روى عنه الحسن البصري، وله ٤٣ حديثاً اتفق الشيخان على سبعة، وانفرد مسلم بخمسة. سكن الكوفة ثم تحول إلى البصرة، قدمها مع عبدالله بن الزبير، وخرّج عنه الأربعة أصحاب السنن.

(٢) عزاه العراقي في تخريج الإحياء إلى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً بلفظ «لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه».

اختلفتم فقوموا عنه)؟ فإن حمل هذا الأمر الثاني على الوجوب فيكون مأثوماً. وإن حملناه على الندب فيكون مكروهاً وهو أضعف الوجوه. والظاهر في الموضع عدم الإثم، وذلك راجع إلى ما نفصله بعد إن شاء الله تعالى. فنقول: هل ذلك النهي يتناول من قصد ذلك ومن لم يقصده. أعني أنه يقرأ وهو يقصد التفكر في شيء آخر، والذي لم يقصده هو الذي يدخل بنية القراءة ثم يطرأ على قلبه الغفلة والخروج إلى الفكرة في شيء آخر يستدرجه العدو في ذلك أو النفس؟

أما الذي يدخل بنية أنه يقرأ ويتفكر في شيء آخر فلا شك أن ذلك مكروه من الفعل. مثاله إذا كان إنسان يكلمك فتدير ظهرك إليه وهو يخاطبك فهذه هي تلك الحالة. وليس هذا من الأدب ويخاف عليه من العقاب. وأما الذي يدخل بنيّـة الأدب في التلاوة، وتعرض له الغفلة أو الفكرة، فلا يخلو إمّا أن يدفع ذلك، أو يتمادى معه. فإن دفعه فيرجى أنه لا يضره لقول الله سبحانه وتعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1] وقد قال أهل التوفيق: إنما نحن مكلفون بدفع الخواطر السيئة بألا تقع.

ويؤيد ما قالوه قول سيّدنا ﷺ حين قال له الصحابة رضي الله عنهم: (إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: أوجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان)[2]. وكأنه يقصد في دفع ذلك الشيء وتعاظم أن يتكلم به، فإن تمادى مع تلك الخواطر فلا يخلو أن يكون تماديه بغفلة ونسيان أو تعمد. فإن كان بغفلة ونسيان فيرجع عند استفاقته لذلك، ويرجى أن لا شيء عليه، لقوله ﷺ (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)[3]. وإن كان تماديه بالقصد والذكر فهو الذي دخل بالنية المتقدمة سواء.

ومما يشبه ذلك الذي يكون يعمل شغلاً وهو يقرأ، فإن كان قلبه مجتمعاً على القراءة فلا يضره عمل ذلك الشغل، لأن يده فيه عارية وقلبه مشغول بعبادته، وذلك بشرط أن يكون الشغل مما ليس فيه قذارة ولا نجاسة، ويكون المحل طاهراً، ولا يكون فيه لغط ولا شيء مكروه. وإن كان قلبه متعلّقاً بالشغل فممنوع له القراءة، والمنع على أحد الوجوه المتقدم ذكرها.

وأما حدّ تألف القلب المجزىء في ذلك فأقله أن تسمع بقلبك ما تتلوه بلسانك، كأنك تسمع لغيرك يقرأ عليك، وأعلاه أن تتفكر في معناه حتى تفهم ما أنت تتلوه، ويكسوك من كل معنى يرد

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٢٠١.

(٢) رواه مسلم في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرج ابن ماجه عن ابن عباس يرفعه: إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. وصححه ابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين. أما ما شهر على الألسنة كما أورده المؤلف رحمه الله فلم تورده كتب الحديث بهذا اللفظ.

عليك حال يناسبه تأسّياً بالنبيّ ﷺ في تهجده. كان إذا مرّت به آية رحمة سأل، وإذا مرت به آية عذاب استعاذ، وإذا مرت به آية تنزيه سبَّح، وإذا مرّ به مَثَلٌ تدَبَّرَ واعتَبَرَ. فمن كل آية يتلوها تصدر عنه، عليه السلام، حال يناسبها.

وأما قولنا: هل هذا على عمومه فيما هو قراءة القرآن فيه واجب أو مندوب، كالصلاة الواجبة مثلاً وصلاة النافلة أو التلاوة في غير صلاة؟ فالاحتمال واقع، لكن الأظهر أنه في صلاة الفرض أشدّ، لا سيما مع الحديث الذي أخرجه أبو داود، وهو أنه ﷺ صلى صلاة وأسقط من قراءة السورة التي قرأ فيها بعض آيات، فلما سلّم سأله بعض الصحابة: هل أسقطتَ من هذه السورة شيئاً؟ قال: لا أعلم. ثم آخر كذلك. فأما في الثاني أو الثالث قال: هنا أُبيٌّ؟ قال: نعم. قال: هُوَ لَها. فجثا بين يديه، فسأله: هل أسقطتُ من هذه السورة شيئاً؟ فقال: نعم، آية كذا وكذا. فقال له: لم لا فتحتَ عليّ؟ قال: ظننت أنها نُسخت، فقال ﷺ: (أيُقرأ كتاب الله بين أظهركم ولا تعلمون ما قرىء وما لم يقرأ؟ هكذا كان بنو إسرائيل حتى أزال الله الخشية من قلوبهم، إن الله لا يقبل عمل امرىء حتى يكون قلبه مع جوارحه)[١]، أو كما قال ﷺ.

وقد قال ﷺ (ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها)[٢]، أو كما قال عليه السلام؛ فيكون المعنى هنا ـ والله أعلم ـ كما قال مالك، رضي الله عنه، حين سئل عن الركعتين بعد الطواف، أفرض هي أم لا؟ فقال: (هي من جنس الطواف، فإن كان فرضاً فهي فرض، وإن كان ندباً فهي ندب).

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يجعلون الحرمة آكد أحوالهم، حتى إنه ذكر عن بعضهم أنه دخل المسجد وقعد، فَوَجِعَتْه رِجلُه، فجاء أن يمدها ثم قبضها واستغفر الله تعالى، فقال له بعض أصحابه: يا سيّدنا ليس في هذا شيء. فقال: لك ليس فيه شيء، وأما أنا فلا يمكنني ذلك، أخاف على نفسي من العقاب. وكان بعضهم بإحدى رجليه أثر فإذا نظر إليه يبكي ويستغفر. فسئل عن ذلك فقال: كان خُرّاج له بها فغلبني شدة الوجع حتى رَقَيْتها فشُفيت من حيني. فجعلها من جملة الذنوب كونه لم يصبر ويرض بجري القضاء. فتلك الحرمة والاحترام أوجبت لهم الحرمة والإكرام، فَهنَّاهُم مَنْ أعطاهم، ولحقنا بفضله بأعلاهم، لا رب سواه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه أبو داود رقم ٩٠٧ وصححه ابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه الهيثمي في موارد الظمآن رقم ٣٨٠.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء: لم أجده مرفوعاً.

ـ ٢٠٥ ـ

حديث الخوف من الوقوع في الزنى

عَن أبي هُريرَةَ، رضي الله عَنهُ، قالَ: قلتُ: يا رَسولَ الله، إنّي رَجُلٌ شابٌّ، وإنّي أخافُ على نَفسي العَنَت[1]، ولاَ أجِدُ ما أتزَوَّجُ بِهِ النِّساءَ. فَسكَتَ عَنّي. ثُمَّ قُلتُ مِثلَ ذلك، فَسكَتَ عَنّي. ثُمَّ قُلتُ مِثلَ ذلِكَ، فَقالِ النّبيُّ ﷺ: يا أبا هُرَيرَةَ، جَفَّ القَلَمُ بِما أنتَ لاقٍ، فاختَصِ على ذلكَ، أو ذَرْ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على نفوذ الذي جف به القلم، ولا تنفع معه حيلة من الحيل. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن من السنة شكوى الشخص ما به وما يتوقعه من الأذى لمن يرجو بركته. يؤخذ ذلك من شكوى أبي هريرة ما يخافه على نفسه من العنت إلى النبيّ ﷺ.

ومنها: أن للمسترعَى عليه[2] أن يشكو ما به إلى راعيه.

وفيه دليل على أن النكاح لا يتعين إلا عند القدرة على الصَّداق. يؤخذ ذلك من قوله (ولا أجد ما أتزوج به).

وفيه دليل على أن سكوت ذوي الفضل عن الجواب دليل على عدم نجح ما قصده فيما شكاه لهم، فإن اجتزأ السائل بذلك السكوت في أول مرة أو في الثانية، وإلاّ جاوبه المسؤول في الثالثة. ولا يترك جوابه في الثالثة فإنه من قبيل الازدراء بالسائل، وهذا ممنوع أن يزدري أحد بأخيه المسلم. يؤخذ ذلك من شكوى أبي هريرة إلى النبي ﷺ ثلاثاً، فسكت عنه، عليه السلام، في الأولى

(١) العَنَت: الخطأ والزنى، ومنه قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.
(٢) المسترعى عليه أي: من كان من الرعية.

والثانية، وجاوبه في الثالثة، لأن من خلقه، عليه السلام، الحياء، وهو من شعب الإيمان. فلما لم يكن له عنده مما سأل مخرج أعرض عنه في الأولى، لعله يقنعه ذلك، وكذلك في الثانية، فلما بلغ الثالثة جاوبه من أجل تقرير الحكم وجاء الأَحياءَ في الدين عند الضرورة.

وفيه دليل على أن من الأدب أن يقدم طالب الحاجة عذره قبل طلب الحاجة. يؤخذ ذلك من ذكر أبي هريرة عذره أولاً، وهو قوله (إني رجل شاب) والشاب هو أشد في شهوة النكاح من غيره. ولذلك جاء تعجب ربك من الشاب ليست له صبوة، لقوة الدواعي عليه في ذلك.

وهنا بحث وهو أن يُقال: لم أمر، عليه السلام، أبا هريرة بالتوكل والاستسلام للقدر، وأمر غيره بعمل السبب في هذا الشأن نفسه، حين أمر، عليه السلام، بالصوم لمن لم يطق النكاح وقال (هو له وِجاء)؟ والجمع بينهما هو أنه ﷺ طبيب الدين، يعطي لكل إنسان ما يصلح له كما يفعل طبيب الأبدان. فهو، عليه السلام، يأمر بالصوم للذين شهوتهم مردية فيفيدهم الصوم. ولما كان الغالب على أبي هريرة الصوم لأنه كان من أهل الصُّفَّة، وقد كان كما أخبر عن نفسه أنه يُغشى عليه من الجوع ولا يعرف أحد ما به، وهذه الحال أشد ما تكون من المجاهدة في الصوم، ولم تزل عنه تلك الشهوة الباعثة، أمرَه بالتوكل خالصاً.

ويترتب على هذا من الفقه أنه مهما أمكن المكلَّفَ عملَ شيءٍ من الأسباب الذي هو أثر الحكمة، بشرط أن يكون على لسان العلم، فلا يتوكل إلا بعد عملها، ولا يتوكل ويترك أثر الحكمة، فإنه مخالف للحكمة الشرعية. وإذا لم يقدر على شيء من أثر الحكمة فليتوكل على مولاه، وليوطن نفسه على الرضى بما جرت به الأقلام، ولا يتعب نفسه في أن يعمل شيئاً من الأسباب ولا بدّ، ويرى أن ذلك منج له مما يخافه أو مبلغ له لما يرجوه، فإن ذلك مخالف للسنة. نعوذ بالله من ذلك. وهذا القسم هو الذي أهلك كثيراً من الناس.

وفيه دليل على أن أقوى الأسباب أو أكثرها، إذا لم يكن بموافقة القدر، لا ينفع. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (فاختص على ذلك أو ذر)، لأن أقوى الأسباب في منع النفس من أن يقع الشخص في العنت ـ الذي هو الزنى ـ أن يقطع الجارحة التي بها تقع الفاحشة، لأن الفحل من البهائم إذا خصي لا يمكن له نكاح، ثم مع ذلك لا يمنعه من وقوع ما قدر عليه من ذلك.

وفي هذا تسلية عظيمة للعاجزين عن الأسباب فيما يرجون نيله أو يخافون وقوعه، وقوة في الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأن الأمور تجري بمقتضى إرادته بأسباب وبغير أسباب كيف شاء، لا تتوقف إرادته على شيء بلزوم يلزمه فعله أو تركه، بل إرادته تنفذ كيف شاء.

وفيه دليل على أن ما جبل عليه طبع المكلف ليس بعذر له في ترك ما أمر بتركه، أو فعل ما أمر

بفعله[1]. يؤخذ ذلك من أن أبا هريرة شكا ما طبعت عليه البشرية في حين شبيبتها، عسى يكون له في ذلك عذر، فلم يعذر فيه، لأنه أخبر أن ما قدر عليه يلحقه. فإن قدر عليه الوقوع فيما نهي عنه وجب عليه الحد الذي حد له. نعوذ بالله من شر ما جبلنا عليه بمنّه وكرمه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) كذا. والصواب: في ترك ما أمر بفعله، أو فعل ما أُمر بتركه.

ـ ٢٠٦ ـ

حديث جواز التحلل من الحج لعذر

عَن عائِشَةَ، رضي الله عَنها، قالَت: دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ على ضُباعةَ بِنتِ الزُّبيْرِ[١] فَقالَ لَها: لَعلَّكِ أرَدتِ الحجَّ؟ قالَت: وَالله لا أجدُني إلاّ وَجِعَةً. فقالَ لَها: حُجِّي واشترِطي، وقُولي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيثُ حَبستَني. وَكانَت تَحتَ المقدادِ بن الأَسوَدِ.

❊ ❊ ❊

ظاهر الحديث أن المرض عذر، يجوز للحاج أن يتحلل من إحرامه حيث أصابه، ولا شيء عليه، وفيه حجة لمن يقول بذلك من العلماء، فإن العلماء اختلفوا في معنى قوله عزّ وجلّ ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾[٢] فقال بعضهم: لا يكون الحصر الذي يكون عذراً إلا أن يكون بعدوٍّ، كما فعل سيّدنا ﷺ حين منعه أهل مكة الدخول وصالحوه على أن يدخلها العام القابل. ومنهم من قال: إن الحصر يكون بالعدوّ والمرض لا غير، وله في هذا الحديث الذي نحن بسبيله حجة. ومنهم من قال: العذر أيَّ عذر كان، عدواً أو مرضاً أو غير ذلك من جميع الأعذار، فهو حصر، لكن حصل الاتفاق على أن العدوّ حَصْر. وبقي الخلاف بينهم فيما عدا ذلك، وكذلك اتفقوا أيضاً أنه إن كان صَرورة لم يحجَّ فعليه حجة الإسلام.

وهنا بحث، وهو أنه لا يخلو هذا الحديث أن يكون بعد هذه الآية أو قبلها. فإن كان الحديث

---

(١) ضُباعة بنت الزُّبير. والزُّبير هو أحد أبناء عبد المطلب، وهو أحد أعمام رسول الله ﷺ. وبنته ضباعة هي بنت عم النبيّ عليه السلام. روى عن ضباعة ابن عباس وجابر وأنس وعائشة وروت حديث أن النبي ﷺ رأته أكل كتفاً ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ.
أما الزَّبير بفتح الزاي المشددة فيهودي قتله الزبير بن العوام في قريظة. وابنه عبد الرحمن أسلم، وله حديث العسيلة، ومرت ترجمته في الحديث (١١٥) من هذا الكتاب.
وأما الزُّبير بن العوام فأحد المبشّرين بالجنة وأمه صفية بنت عبد المطلب، وهو أحد الستة الذي سماهم عمر رضي الله عنه للشورى، وهو ابن عمته ﷺ.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٩٦.

قبل الآية فتكون الآية ناسخة للحديث، على مذهب الجمهور، لأن الناس قد اختلفوا في هذه الآية: هل نزلت بعد أمر النبيّ ﷺ أصحابه أن يفسخوا الحج في العمرة، كما أمر الله سبحانه وتعالى في وادي العقيق حين قال عليه السلام (أتاني الليلة آتٍ من ربي، وقال لي: صلِّ في هذا الوادي المبارك)[1] على قولين. وقد قال ابن عباس، رضي الله عنهما: إن إتمام الحج هو أن يُفسخ في عُمرة، ونهى عنه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وإن كان الحديث جاء من طريق أنه ﷺ دخل عليها وهي تبكي، فمن أجل ذلك سألها.

وفيه دليل على جواز الحكم على الشخص بقرينة الحال. يؤخذ ذلك من سؤاله ﷺ لها لِمَا ظهر له من حالها: لِمَ كان بكاؤها، لفواتها الحج من أجل ما لحقها من كونها وجعة أو غير ذلك؟ ليتحقق ما ظهر له من حالها.

وفيه دليل على فضل الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين. يؤخذ ذلك من أنهم ما كانت همتهم إلا الدين. عليه كان بكاؤهم، وبه كان فرحهم. ويقوّي ذلك قوله ﷺ (إن المؤمن تسرّه حسناته وتسوءه سيئاته)[2] أو كما قال عليه السلام. فهم كانوا أكثر الناس بعد نبيهم، عليه السلام، إيماناً، وكذلك كان فرحهم بالإيمان، وحزنهم على ما فاتهم منه مع العذر، فما بالك بغير العذر؟ والأمر اليوم على الضد سواء. ما نجد الفرح إلا بزيادة الدنيا، ولا الهم إلا على نقصها في الغالب، إلا أهل التوفيق، وقليل ما هم. فإنا لله، وإنا إليه راجعون على ضعف الدين.

وفيه دليل على أن مساق اليمين في دَرْج الكلام لا شيء فيه، إذا كان باراً في يمينه. يؤخذ ذلك من قولها (والله لا أجدني إلا وجِعة)، وأقرّها النبيّ ﷺ على ذلك، ولم يقل لها في ذلك شيئاً.

وفيه دليل على أن ما يكون من الأشياء بغير واسطة أثر الحكمة ينسب إلى الله سبحانه وتعالى. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (قولي: اللّهم مَحِلّي حيث حبستَني). فلما كان حبسها بالمرض وليس لأحد فيه من أثر الحكمة شيء ـ وهو التسبب ـ نسب الحبس به إلى الله تبارك وتعالى.

وفيه دليل على أن من فصيح كلام العرب تسمية بعض الشيء بالكل. يؤخذ ذلك من قول سيدنا ﷺ (حُجّي واشترطي) ولم يعين عليه السلام بـ(حجي) إلا (أحرمي) بالحج. فسمَّى الإحرام ـ وهو ركن من أركان الحج وجزء منه ـ حَجّاً.

وهنا بحث وهو أن يُقال: ما فائدة إخبار الراوي عنها أنها كانت تحت المقداد؟

---

(١) رواه الإمام البخاري وهو موضوع الحديث ٧٧ في هذا الكتاب.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي والضياء عن أبي أمامة مرفوعاً بلفظ: إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن.

والجواب أن فيه من الفقه أن المرأة لا تشاور زوجها في الحج، لأن النبيّ ﷺ قال (حجي واشترطي)، ولم يأمرها بأن تشاور زوجها، فدل ذلك على أنه ليس له أن يمنعها من الحج. ولذلك نص العلماء على أنه ليس للزوج أن يمنع زوجته من الحج إذا كانت صرورة، وفي منعها من التطوع خلاف.

ولأهل الصوفة أسوة في الصحابة، رضي الله عنهم، لأن ما فرحهم إلا بالدين، ولا همهم إلا على ما فاتهم منه. وقيل: من كان فرحه لحسن دينه ففرحه في الدارين لا ينقضي، ومن كان فرحه للدنيا فعن قريب يعود الفرح همّاً.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

— ٢٠٧ —

حديث كراهيته ﷺ أن يأتي الرجل أهله طُروقاً

عَن جابرِ بنِ عَبدِ الله، رضي الله عَنهُما، قالَ: كانَ النبيّ ﷺ يكرهُ أن يأتيَ الرَّجُلُ أهلَهُ طُروقاً[١].

٭ ٭ ٭

ظاهر الحديث يدل على كراهية النبيّ ﷺ أن يأتي الرجل أهله على غفلة، وهم لا يعلمون بمجيئه، وذلك إذا كان في سفر. والكلام عليه من وجوه:

ومنها: أن يُقال: هل هذه الكراهية لحكمة تُعلم أو لا؟ ومن فعل ما كرهه النبيّ ﷺ هل يكون على بابه من أن فاعل المكروه لا شيء عليه، والتارك له مأجور، أم لا؟ وهل يتعدى ذلك إذا فهمنا العلّة أم لا؟

فأما الجواب على قولنا: ما الحكمة فيه؟ فقد بيّنها ﷺ في غير هذا الحديث فقال (حتى تمتشط الشَّعثَةُ وتَستَحِدَّ المُغْيِبَة)[٢]، لأنه ﷺ ينظر لكل ما يكون فيه صلاح وتوادد[٣] بين أمته فيرشدهم إليه، فلما كانت غيبة الرجل عن أهله توجب لهن ترك التزيّن في الغالب من عاداتهن، والطيب لبعض النسوة إذا لم يفعلن منه شيئاً يبدو منهن ما لا يعجب الزوج، وربما يكون من أجلها الفراق بينهما، أو تقع في النفوس كراهية، وربما تسوء العشرة بينهما من أجل ذلك، فأرشد ﷺ إلى ما فيه ستر العيوب وسبب إلى التوادد وحسن العِشرة التي هي من الإيمان.

وهنا بحث وهو: أن زينة المرأة لزوجها لا تكون إلا بما هو على لسان العلم من التطيّب بالطِّيب المشروع لهن، وبحسن الثياب على قدْر حالهن من جِدَة أو غيرها. ولا يكون بتغيير خلق الله

---

(١) الطُّروق: الإتيان ليلاً.

(٢) الشَّعِثة: المتلبّدة الشعر من عدم التسريح والتمشيط. وتستحدُّ: تحلق الشعر الزائد في جسمها. والمغيبَة: من أغيبَت المرأة إذا غاب عنها زوجها، فهي مُغيب ومُغيبَة.

(٣) كذا. بإظهار ما حقه الإدغام.

تعالى، ولا بمكروه، ولا بتدليس، فإن ذلك كله ممنوع شرعاً. ومن حاول أمراً بمعصية فهو أبعد له مما يرجوه، وأقرب إليه مما يكرهه.

وأما قولنا: هل على من فعل ذلك المكروه شيء؟ فقد روي أن بعض من كان في زمانه ﷺ وسمع تلك الكراهية أنه لما قفل من بعض أسفاره حمله الشوق إلى أهله أن أتاهم طُروقاً، فوجد مع عياله غيرَه قد خلفه فيهم، واشتهرت قصتهم، وافتضحوا في المدينة. قال العلماء: هذا عِقاب له لمخالفته السنّة ـ أعاذنا الله من مخالفتها بمَنّه ـ ولا عقاب أشدّ مما جرى على هذا المذكور مع العذر، فكيف حال من يفعله دون عذر؟

وأما قولنا: هل يتعدى الحكم؟ فهذه العلة التي ذكرناها، حيث وجدنا وجهاً من الوجوه، يكون فيه سبب إلى التوادد وحسن العشرة أو ستر العيوب، ولا يكون فيه مخالفاً العلم، ندبنا إلى فعله. ومن هذا الباب نص الفقهاء على ألا يدخل الرجل بيته حتى يتنحنح، أو يتكلم أو يعمل حركة ما ينبىء بها أهله أنه داخل عليهم، من أجل أن تكون على حال لا تريد أن يراها زوجها عليها. ومما يقوي ذلك أنه جاء بعض الصحابة فقال للنبي ﷺ: (أَسْتَأْذِنُ على أمي؟ قال: (نعم). فقال: يا رسول الله ﷺ، وأنا أخدمها. فقال له ﷺ: أتحب أن تراها عُريانة؟ قال: لا. قال: فاستأذِنْ عليها إذاً)[(١)]. ومن طريق النظر أن البشرية لها ضرورات، وبعضها لا يحب أحد أن يطلع عليه وهو فيها.

وفيه دليل على ستر العيوب كيفما كانت. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، كره دخول الرجل على أهله طروقاً، وقد جعل بين الزوجين من المكاشفة ما بينهما، واطلاع بعضهم على جميع جزئيات صاحبه باطنة وظاهرة، ما لا خفاء فيه على أحد، حتى إنه لا يمكن أن يخفى عليه من عيوب صاحبه في الغالب شيء، فكيف به في الغير؟ فذلك من باب أحرى. فالشأن أن يكون المرء: شأنه سترُ عيوبه في الدنيا والآخرة، ومن الحمق أن يسترها في الدنيا ويفضح نفسه في الآخرة، وقد قال ﷺ: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس)[(٢)]. فإن شُغلَه بعيبه هو اهتمامه بزواله، وتغطيته في الدنيا والآخرة. وطوبى: شجرة في الجنة من أحسن شجرها.

وفيه دليل: لأهل السلوك الذين يقولون (إنما الصديق الذي يهدي إليك عيوبك) أي: ينبّهك عليها، فتصلحها. ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه كان يكتب لعماله: رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا. فكتب إليه بعض عماله أنه بلغني أنك لبست ثوبين، وأكلت

---

(١) رواه الإمام مالك في الاستئذان وإسناده منقطع.

(٢) رواه الديلمي عن أنس رضي الله عنه وتمامه: وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة فلم يعدل عنها إلى البدعة.

بإدامين. فقال له: أما ما كان من الثوبين فلبَردِ أصابني. وأما الإدامان فكانا خلاً وزيتاً، ولا أعود، وجزاك الله خيراً.

فذوو الهمم السنيّة والفحولية العَلِية نسجوا على منوالهم، واستنوا بسنتهم. وأخو التحْثيث[1] ما عنده من حال القوم وازع، ولا بِرَبْعِه من حسيس. ومن قائلٍ: كن معنا بتهذيب نفسك، ورُضها على طريق القوم، وعليه فحاسبها.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) التحثيث: الإسراع إلى النوم والاستغراق فيه.

— ٢٠٨ —

حديث جواز الشفاعة

عَن ابنِ عَبّاسٍ، رَضي الله عَنهُما، أن زَوجَ بَريرَةَ كانَ عَبداً يُقال لَهُ: مُغيث. كأني أَنظُرُ إلَيهِ يَطُوفُ خَلفها يَبكي، وَدُموعُه تَسيلُ على لِحيتِهِ. فَقالَ النبيّ ﷺ للعبّاس: يا عَباسُ، ألا تَعجَبُ مِن حُبِّ مُغيثٍ بَريرةَ، وَمَن بُغضِ بَريرةَ مُغيثاً؟ فَقالَ النبيّ ﷺ: لَو راجعتِيهِ[١]. قَالَت: يا رَسُولَ الله أتأمُرُني؟ قالَ: إنما أَشفَعُ. قالَت: فَلا حاجَةَ لي فيهِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على إعذاره ﷺ لذوي الابتلاء، وشفاعته لهم. والكلام عليه من وجوه:

منها: جواز شفاعة الحاكم لمن تحت إيالته[٢]، والمشفوع عنده بالخيار في قبول الشفاعة وردها لعذر يكون به، بخلاف الحكم، فإنه ليس له فيه اختيار على أي حال كان. يؤخذ ذلك من قولها (أتأمرني) فقال لها ﷺ (إنما أشفع) فلم تقبل الشفاعة لما كان بها من عذر شدة بغضها له، ولعلمها بشفقة النبيّ ﷺ على الجميع على حدٍّ سواء.

وفيه إشارة إلى أن الشافع بنفس الشفاعة يحصل له الأجر، وليس من شرط ذلك قضاء الحاجة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (إنما أشفع). فقوة الكلام تعطي أنه ما كان قصده، عليه السلام، إلا نفس الشفاعة لا غير، وقد بيّن ذلك الكتاب العزيز والسنة الواضحة بالتصريح. أما الكتاب فقوله تعالى ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾[٣] ولم يشترط فيها قبول الشفاعة. وأما السنة فقوله ﷺ (اشفعوا تُؤجَروا ويخلق الله على لسان نبيه ما شاء)[٤].

---

(١) كذا بزيادة ياء بعد تاء الخطاب، كما في ابن ماجه، خلافاً لما في البخاري. وهي لغة لبعض العرب.

(٢) آلَ المَلِكُ رعيّتَه إيالاً وإيالة: ساسهم. وآل على القوم: وَلِيَهُم.

(٣) سورة النساء، من الآية ٨٥.

(٤) متفق عليه من حديث أبي موسى رضي الله عنه وفيه بدل (ويخلق): ويقضي.

وفيه أيضاً دليل على أن يشفع الفاضل عند المفضول. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا ﷺ هو الفاضل، وقد شفع، عليه السلام، عند أمَةٍ مُعتَقَة.

وفيه دليل على أن من حُسن الصحبة تنبيهَ صاحبك على أن يعتبر في آيات الله تعالى وأحكامه، ليحصل له من قوة الإيمان ما حصل لك. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (يا عباس ألا تعجب من حبّ مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً)؟

وفيه دليل على أن نظره ﷺ كله كان بحضور وفكرة. يؤخذ ذلك من تنبيهه، عليه السلام، للعباس على ما كان من بريرة ومغيث.

وفيه دليل على أن ما خالف العادة، من أي الوجوه كان، فإنها آية ينبغي التعجب منها والاعتبار فيها. يؤخذ ذلك من أنه لما كان العرف بين الناس أن من أحب شخصاً وأكثر من خدمته فإن نفسه تميل إليه، وقد يكون من أجل ذلك الحب له، وقد قال ﷺ (جُبلت القلوب على حب من أحسَنَ إليها)[1]، والإحسان عام من وجوه، فقد يكون بالمحسوس من حطام الدنيا، وقد يكون بالتخدم أو حسن الكلام، أو ما يكون به إدخال سرورٍ ما على النفس، فإنها بذلك تميل إلى فاعله، وقد تميل بمجرد المدح لها. فلما كان حب مغيث بريرة وتخدُّمه لها، وبكاؤه عليها، ومشيه خلفها، وذلك كله مما تستمال به النفوس، لا تزيد فيه بذلك إلا بغضاً، كان موضعاً للتعجب والاعتبار في قدرة الله تعالى.

ولذلك قال بعض أهل التوفيق: (إذا كانت حسناتي سيئاتي فبماذا أتقرب)؟ ومن هنا اعتبر أهل التوفيق وخافوا مع ما هم عليه من حسن الحال أن يقال لهم: (لا أقبل منكم شيئاً). أعاذنا الله من ذلك بمنّه وكرمه.

وفيه دليل على حسن أدب جميعهم أحراراً وعبيداً. يؤخذ ذلك من حسن جوابها في مراجعته، عليه السلام، بأن أبدت عذرها بقولها (فلا حاجة لي فيه)، ولم تفصح برد الشفاعة بعد أن سألت: هل ذلك أمر أم لا؟

ويترتب عليه أن من حسن الأدب التماس العذر إلى أهل الفضل، ولا ترد لهم شفاعة مواجهةً، بل يكون بدل ذلك تبيين العذر المانع لقبول شفاعتهم.

وفيه دليل على أن كثرة الحب تذهب الحياء من الغير، ولا يرى إلا ما هو فيه. يؤخذ ذلك من حال مغيث كونه يمشي خلف بريرة ودموعه تسيل، ولا يخفى ذلك على من هناك ولا ممن ينظر إليه

---

(١) رواه ابن عديّ وأبو نعيم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً، وصحح البيهقي وقفه.

لما غلب على قلبه من كثرة حبها. وبهذه الطريقة - أعني كثرة الحب للشيء - تميز أهل الدنيا والآخرة. فلما أن كان أهل الدنيا قد غلب على قلوبهم حبها - لم ينفعهم ما تلي عليهم من الآيات والمواعظ، ولا ما جاءهم من البلايا فيها، كل ذلك قد تَعامَوْا عنه ولم يروا سوء ما هم بسبيله. أعاذنا الله من ذلك بمنّه. ولما أن كان أهل الآخرة قد حصل لهم من المعرفة بها، وحبهم لمولاهم ما حصل لهم؛ لم يروا من الدنيا شيئاً، وإن كانوا فيها ومع أهلها.

ومما يذكر عن بعض سادات أهل السلوك أنه كان ماراً مع أصحابه على بعض الجبانات، ونسوة ينحن على ميتهن، فترك أصحابه ودخل معهن. فتعجب أصحابه وتركوه وانحرفوا عنه، حتى راحت النسوة وبقي هو في حاله في ذلك الموضع، فأتاه أصحابه وجعلوا يعتبونه على ما وقع منه، فقال لهم: ما رأيت مما تقولون شيئاً، وإنما رأيت قوماً يبكون على ذنوبهم، فدخلت أبكي معهم على ذنوبي، وخلفوني وراحوا. فتعجب القوم من غلبة حال الخوف عليه، حتى لم يبقَ له ميز إلا ما كان فيه.

ولذلك يروي عن رابعة العدوية في قولها فيما غلب عليها من حب مولاها:

أُحِبُّـك حبَّيْـنِ: حـبَّ الهـوى	وحبّـاً لأنـك أهـلٌ لـذاكـا
فـأمـا الـذي هـوحـبُّ الهـوى	فشُغْلـي بِـذِكْـرِكَ عمَّـن سـواكـا
وأمـا الـذي أنـتَ أهـلٌ لـه	فكَشْفُـكَ لـي الحُجْبَ حتى أراكـا

وقد قال ﷺ (حبك الشيء يعمي ويصم)[1] لكن شتّان ما بين الحبَّين. وقد قال بعض أهل التوفيق في الترجيح بين الأشياء المحبوبات: مَن سره ألاّ يرى ما يسوءه فلا يتخِذْ شيئاً يخاف له فقداً. فكل ما سوى مولاه مفقود، وهو سبحانه الواحد الموجود في كل حال. جعلنا الله من أهل محبته في الدارين بفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري في التاريخ وأبو داود عن أبي الدرداء، ورواه الخرائطي في اعتلال القلوب عن أبي برزة وابن عساكر عن عبد الله بن أنيس.

- ٢٠٩ -

حديث جواز ادخار قوت السنة

عَن عُمَر بنِ الخطابِ، رَضي الله عَنهُ، أن النبيّ ﷺ كان يبيعُ نخل بني النضيرِ[١]، ويَحبِسُ لأهلِهِ قُوتَ سَنَتِهِم.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على جواز ادخار قوت العيال سنة. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن ادخار قوت العيال سنة لا يخرج فاعله عن طريق الزهد، لأن سيّدنا ﷺ رأس الزاهدين وسيّدهم، وكان، عليه السلام، يعطي لعياله قوت سنة بسنة، ولأن إعطاء قوت العيال هو من باب إعطاء الحقوق التي عليه.

وفيه دليل على أن معاملة الغير ـ وإن كانوا أقرب الأقرباء ـ إنما تكون بمقتضى الحكمة إذا قدر عليها. يؤخذ ذلك من فعله ﷺ، لأنه لما أن فتح الله عليه بنخل بني النضير، وأجرى الله حكمته أن النخل لا يستغل إلا مرة في السنة، كان إذا جاء وقت غلتها يعمل ﷺ في حق الغير، وإن كانوا أقرب الناس إليه، وهم عياله ﷺ، على مقتضى الحكمة، فكان، عليه السلام، يعطيهن نفقتهن إلى مثلها من قابل، فذلك سنة. وكان، عليه السلام، يعطي لكل واحدة منهن ثمانين وَسْقاً[٢] من تمر، وعشرين وَسْقاً من شعير. وكان، عليه السلام، في خاصة نفسه المكرمة لا يدخر شيئاً، وكنّ، رضي الله عنهن، يقدمن منها لآخرتهن الأكثر. وقبل نخل بني النضير كان هو وهنّ جميعاً، صلوات الله عليهم أجمعين، على حسب ما يفتح الله تعالى لهن، فكن يؤثرن بما يفتح الله عليهن، حتى إنه قد

---

(١) بنو النضير: قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة، وكانوا هم وقريظة نزولاً بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم، وكانت غزاة النبيّ ﷺ لبني النضير في سنة أربع للهجرة، ففتح حصونهم، وأخذ أموالهم، وجعلها خالصة له، لأنه لم يوجِف عليها بخيل ولا ركاب، فكان يزرع في أرضهم تحت النخيل، فيجعل من ذلك قوت أهله وأزواجه لسنة، وما فضل جعله في الكراع والسلاح. وكان رسول الله ﷺ أخرج بني النضير على أن لهم ما حملت إبلهم إلا الحلقة والآلة. والحلقة هي الدروع.

(٢) الوَسق: مكيلة بقدر ستين صاعاً.

ذكر عنه ﷺ أنه أُتِيَ له بكبش، ففرقه وما حبس لعياله إلا رأسه. فقالت له إحداهن: ذهب الكبش كله إلا الرأس. فقال عليه السلام مجاوباً لها (بل بقي كله إلا الرأس هو الذي ذهب) أو كما ورد.

ويترتب على هذا من الفقه أنه لا يحمل الراعي من له عليه رعاية على الزهد بالجبر، ولا بأن يحبس له من حقه شيئاً لعله يزهد، بل يوفي له حقوقه، ويندبه بعد إلى الزهد ويرغبه فيه، في خاصة نفسه يحملها في ذلك على ما يختاره.

وفيه دليل على أن الزهد ليس من شرطه خروج المال عن اليد، وإنما الزهد خروج المال عن القلب وألا يتعلق به، وأن يصرفه فيما يرضي به ربه. يؤخذ ذلك من مسك سيدنا ﷺ نخل بني النضير ولم يخرج عنها حتى مات، وبقيت بعده. وكان تصرفه فيها كلها على ما يرضي ربه ويقربه إليه. وقد زاد ذلك بياناً لقوله، عليه السلام، في حديث غير هذا (ليس الزهد بتحريم الحلال، وإنما الزهد بأن تقطع الإياس مما في أيدي الناس)[1] أو كما قال عليه السلام فتكون بما في يد الله أوثق مما في يدك. وقد قالت السادة: رب تارك وهو آخذ، ورب آخذ وهو تارك. لأن مدار الأمر على ما تحويه القلوب، ولذلك قال ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[2].

وفيه دليل على أن التصرف أيضاً في مصالح المال لا ينافي الزهد. يؤخذ ذلك من بيعه ﷺ نخل بني النضير، لأن البيع من جملة التصرف في المال. وقد كان، عليه السلام، يبعث من يَخرص[3] عليهم وينظر فيما يصلحه. وقد قال بعض أهل المعاملات المحققون: إن أعلى المراتب: الذي يشارك الناسَ في الظاهر على لسان العلم، ويكون فيما بينه وبين مولاه على حالة الكمال من حسن الزهد والخدمة المَرْضِية. فإن الخروج عن العادة الجارية بين الناس هو من الضعف في الحال، لأن المخالطة خيرُها متعَدّ، وهو في ذلك متّبع للسنة، وهي أعلى الطرق، ولكن بشرط أن يقدر على ذلك. فإن وجد ضعفاً فالهرب بالكلية، أو يكون لا يجد كيف يمشي في ذلك على لسان العلم، فالهرَبَ الهربَ. ويبقى كما أخبر سيّدنا ﷺ حين أخبر عن الفتن فقال له بعض الحاضرين: ما تأمرني به إن أدركني ذلك الزمان؟ قال: تلزم إمام المسلمين وجماعتهم. قال: فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة؟ قال: تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت[4] على ذلك. أو كما قال عليه السلام.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد، وابن ماجه في الزهد في الدنيا عن أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك.

(٢) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يَخْرُص: يقدّر ما عليه من الثمر.

(٤) رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه ومطلعه: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن=

وفيه دليل على أن ما زاد على الادخار قوت السنة للعيال فليس من [illegible] شيء، ويكون ذلك من باب الادخار. يؤخذ ذلك من كونه لم يحفظ عنه، عليه السلام، في هذا الحديث، ولا في غيره، أنه زاد عياله على قوت السنة شيئاً.

وفيه دليل على أن اتخاذ العيال لا يخرج عن [illegible]، بل هو من [illegible] منفعة، إذا كان من أهل التوفيق. يؤخذ ذلك من اتخاذه عليه السلام العيال، وقد [illegible] ذلك بنص قوله، عليه السلام، «النكاح من سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(1)، وقد كان عمر، رضي الله عنه، يقول: «إني لأتزوج النساء وما لي إليهن حاجة، رجاء أن يخرج الله من صلبي من يكثر به محمد ﷺ الأمم يوم القيامة». لكن بشرط أن يقدر على القيام بحقهن، وإلا فلا يجوز له ذلك، وعليه بالتعفف والصبر والصوم والصون حتى يلطف الله تعالى به، وتكون نيته أنه إن قدر على الزواج أنه يتزوج اتباعاً لسنة نبيه ﷺ، فيكون مأجوراً على نيته.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً

= الشر مخافة أن يدركني إلخ...

(1) رواه أبو يعلى في مسنده والبيهقي في السنن الكبرى ولفظه عند أبي يعلى: من أحب فطرتي فليَستنّ بسنتي، ومن سنتي النكاح. وفي رواية الشيخين: من رغب عن سنتي فليس مني.

— ٢١٠ —

حديث جواز عمل الرجل في البيت مع أهله ومحافظته على الصلوات

عَنِ الأسودِ بن يَزِيدَ(١)، رضي الله عَنهُ، قالَ: سَألتُ عائِشَةَ: ما كانَ النبيّ ﷺ يَعمَلُ في البيتِ؟ فَقالَت: كانَ في مِهنَةِ أهلِه. فإذا سَمِعَ الأذانَ خَرجَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على دوام محافظة النبيّ ﷺ على أوقات الصلوات. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن في هذا دليلاً على أن خلقه، عليه السلام، وسيرته على مقتضى القرآن، لأن الله عزّ وجلّ يقول ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾(٢) أي ملزومة بذلك الوقت، فلا يؤخرها عنه، فكان حاله، عليه السلام، بمقتضى هذا الحديث كذلك.

وفيه دليل على أن الضرورات مع أوقات الصلوات لا يلتفت إليها، وإنما يشتغل بالصلاة. يؤخذ ذلك من قولها: كان في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج. أي اشتغل إذ ذاك بالخروج، فلم يلتفت، عليه السلام، إلى شغل ولا غيره.

وفيه دليل على حسن خلقه، عليه السلام، وتواضعه. يؤخذ ذلك من أشغاله، عليه السلام، بنفسه الكريمة في بيته بمهنة أهله.

---

(١) الأسود بن يَزيدَ النخعي: تابعيّ كوفي فقيه، من الحفاظ، كان عالم أهل الكوفة في عصره. رأى أبا بكر وعمر، وروى عن علي وعائشة وابن مسعود ومعاذ. قال أحمد بن حنبل: هو ثقة. سافر ثمانين حجة وعمرة لم يجمع بينهما. وكان له ولد اسمه عبدالرحمن فعل في حجه وعمرته مثلما فعل أبوه ولمدة ثمانين سنة أيضاً، وكان كل من الأب والولد يصلي في اليوم الواحد سبعمائة ركعة. واستسقى معاوية بيزيد أبي الأسود فسقوا. توفي سنة ٧٥هـ (الأعلام، شذرات الذهب، تهذيب النووي).

(٢) سورة النساء، من الآية ١٠٣.

وفيه دليل على أن من السنة التواضع مع الأهل، والتصرف لهن ومعهن في الأشياء الممتهنة، وإن حقر قدرها، فإن في ذلك تطييباً لنفوسهن.

وفيه دليل على جواز السؤال عن بواطن أحوال أهل الفضل لمن يعلمها، لأن يقتدى في ذلك بهم. يؤخذ ذلك من سؤال الأسود بن يزيد عائشة، رضي الله عنها، عما كان يصنع رسول الله ﷺ في بيته، فجاوبته ولم تنكر عليه.

وفيه دليل على فقه عائشة رضي الله عنها ونبلها. يؤخذ ذلك من حسن جوابها بأن قالت: كان في مهنة أهله، لأن هذا اللفظ يعم جميع أنواع ما تحتاج البشرية إليه مما يحسن قوله، ومما يستباح ذكره، فأبدعت في حسن الجواب.

وفيه دليل على أن من عَرَف من أحوال بواطن أهل الفضل شيئاً ويسأل عن ذلك يخبر به، لأنه من الدين، إلا أنه يحتاج إلى أدب ومعرفة في الجواب، كمثل هذه السيدة حتى تحصل الفائدة للسائل، ولا يكون فيما يذكره إلا ما إنْ لو كان الشخص حاضراً لم يكره ذلك.

وفيه دليل على ما فضل الله تعالى به سيدنا ﷺ من القوة في الدين وسعة الصدر لذلك. وجملة ذلك اشتغاله ﷺ بمهمات أهله، ولأن ذلك حق لازم. وأداء الحقوق مما يقرب إلى الله تعالى.

وفيه دليل على أن ما زاد على المهم الضروري هو دنيا. يؤخذ ذلك من عدم اشتغاله ﷺ بذلك، لأن الاشتغال بالشيء ترك لضده. وفي رواية (مهنته) فإن قلنا: معناهما واحد، فالزيادة على ما قررناه من الأحكام. وإن قلنا: معنى (مهنة) الأشياء المتحقر قدرها عادة، فيكون فيه زيادة على كثرة تواضعه ﷺ على الدوام. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، إذا خرج إما لصلاة، كما أخبرت هنا، أو لما يصلح لأصحابه ولأمته على ما تقرر من نقل أحواله، عليه السلام، فإنه لم يجىء عنه عليه السلام أنه خرج سدى ولا فعل شيئاً عبثاً. فكان، عليه السلام، في بيته حيث يستريح الناس مشغولاً بمهنة أهل بيته، كما أخبرت هنا، وبالليل في التهجد. فهذه مجاهدة دائمة لا يحملها وضع البشرية إلا بمادة ربانية.

وفي هذا دليل لأهل الطريق الذين جعلوا طريقهم دوام المجاهدة، وأن لا فتره، لا باطنة ولا ظاهرة. فنِعْمَ ما به اقتدوا، فسمعوا وسمعنا، ففهموا ما عنه عجزنا، فأحسنوا فيما قالوا وفعلوا. فمن أجل هذا فضلوا علينا.

مَنَّ الله علينا بما مَنَّ عليهم. آمين. والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

— ٢١١ —

حديث الأمر بذكر اسم الله تعالى على الطعام والأكل مما يلي الآكل

عَن أَنَسٍ، رَضي الله عَنهُ، قالَ النبيّ ﷺ: اذكروا اسمَ الله، وَلْيأكُلْ كُلّ رَجُلٍ مِمّا يَليهِ.

* * *

ظاهر الحديث الأمر بذكر الله تعالى عند الأكل، والأمر أيضاً بأن يأكل كل رجل مما يليه. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذان الأمران على حدٍّ سواء في الوجوب أو الندب أم لا؟ **ومنها قوله**: (اسم الله) هل هو اسم مخصوص، أو أي اسم ذكر من أسماء الله عزّ وجلّ أجزأه؟ وهل من شرط الاسم أن يكون متصلاً بالأكل أم لا؟ وقوله: ﷺ (مما يليه) هل في كل الأطعمة، فيكون الأمر عاماً في جميع أنواع الأطعمة أم لا؟ وإذا كانت أطعمة مختلفة هل يجزىء فيها تسمية واحدة، أو لكل طعام تسمية؟ وهل هذا الأمر يتناول الرجال دون غيرهم، أو هو للرجال وغيرهم على حدٍّ سواء؟

فأما قولنا: هل الأمران على حدٍّ سواء في الوجوب أو الندب؟ فليسا على حدٍّ سواء في الطلب، **لأن التسمية على الطعام عند الأكل سُنّة، والأمر بأن يأكل مما يليه** مندوب إليه، والتسمية على الطعام مما شرع في هذه الأمة المحمدية بمقتضى هذا الحديث وأحاديث كثيرة، وهو من السُنَّة الإبراهيمية، وقد قال عزّ وجلّ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] وذكر عن الخليل ﷺ: أنه جاءه مَلَكان على صورة ضيوف يختبرانه بِمَ اتّخذه الله خليلاً؟ فقدّم إليهما الطعام فتوقّفا عن أكله. فقال لهما: كُلا. فقالا: لا نأكل إلا بالثمن. فقال: ثمنه أن تسمّيا الله تعالى عند ابتدائه وتحمداه عند فراغه. فنظر أحدهما إلى الآخر وقال: يحق أن يتخذ خليلاً. وقد قال سيدنا ﷺ، بعدما أمر بالتسمية عند

---

(١) سورة الحج، من الآية ٧٨.

الأكل والشرب فيمن لم يسمّ (أكل الشيطان معه وشرب)[1] قال تعالى ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[2].

وأما قولنا: هل هذا الاسم الذي يذكر على الطعام أو الشراب هو اسم مخصوص، أو أي اسم ذكر من أسمائه سبحانه أجزأ؟ فظاهر اللفظ لا يعطي تخصيصاً، فأي اسم ذكر من أسمائه سبحانه أجزأ. وأما الذي جرى الاستعمال به فذلك (بسم الله الرحمن الرحيم) فهذه جملة أسماء، فقد أتى بما أمر به وزيادة، والزيادة من الرحمن الرحيم ولم أر أحداً يذكر ذلك إلا عند الذبح؛ لأنك تذكر الرحمة وتذيق البهيمة العذاب، وليس ذلك من خلق الإيمان؛ لأن الله عز وجل يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

ولا تعتقد أيضاً أن ذكر (الرحمن الرحيم) في التسمية على الطعام مما أمرت به، فتزيد في الدين ما ليس فيه، وهو لا يجوز، فإن زدتها تبركاً فلا بأس؛ لأنه لولا رحمته عزّ وجلّ ما أطعمك وسقاك، ولاسيما مع المخالفة لأمره وارتكاب نهيه فما بقي ما به منّ عليك من ذلك إلا من طريق الرحمة والفضل. والتزامها أيضاً بدعة. وإنما الشأن إن أردت التبرك بالسنة أن تقول كما جاء عنه ﷺ أنه كان عند الأكل يقول (بسم الله، اللّهم بارك لنا فيما رزقتنا)[4]، وحينئذ تأكل فتحصل لك بركة الاسم الأعظم وبركة السنة المحمدية.

وأما هل من شرط التسمية أن تكون متصلة بالأكل أم لا؟ فظاهر الحديث يعطي ذلك، لأنه أتى بالواو التي لا تعطي رتبة، والنقل من سلف إلى خلف على أن العمل على اتصالها، إلا إن كان نسياناً فلا يؤاخذ به، لقوله عليه السلام (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان). إلا أنه قد أحكمت السنة في الذي ينسى التسمية عند أول أكله وشربه إذا ذكر أن يقول عند ذلك (بسم الله أوله وآخره) فإنه قد روي أن

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي في الشمائل ولفظه: عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: كنا عند النبيّ ﷺ يوماً، فقرب طعاماً، فلم أرَ طعاماً كان أعظم بركة منه أول ما أكلنا، ولا أقل بركة في آخره، فقلنا: يا رسول الله كيف هذا؟ قال: إنا ذكرنا اسم الله حين أكلنا، ثم قعد من أكل ولم يسمّ الله تعالى، فأكل الشيطان معه. وروى أبو داود أن رجلاً كان يأكل فلم يسمّ حتى لم يبق من طعامه إلا لقمة فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله أوله وآخره. فضحك النبيّ ﷺ ثم قال: فما زال الشيطان يأكل معه، فلما ذكر اسم الله استقاء ما في بطنه. صححه الحاكم وحسّنه المنذري في الترغيب.

(٢) سورة النساء، من الآية ٣٨.

(٣) سورة الصف، الآيتان ٢ و٣.

(٤) أخرج أبو داود والترمذي وحسّنه وابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه؛ ومن سقاه الله لبناً فليقل: اللهم بارك فيه وزدنا منه.

شخصاً أكل بحضرة النبيّ ﷺ ونسي التسمية، فلما ذُكِّر قال ـ كما قدمنا ـ فتبسم النبيّ ﷺ وقال: (رأيت الشيطان أكل معه أولاً، فلما قال بسم الله أوله وآخره قاء الشيطان كل ما أكل).

وأما عليه السلام وأما قوله عليه السلام (وليأكل كل رجل مما يليه) هل هو في كل طعام أي نوع كان؟ فظاهر اللفظ يقتضي العموم. لكن قد قال العلماء: إن ذلك في الثريد وما أشبهه، لأنه كله سواء، وأما إذا كان الطعام على غير ذلك، وفيه أنواع مختلفة فلك أن تجيل يدك حيث تريد، لكن بأدب مع الإخوان، لأن الأدب من السنّة. وأما إن كان الطعام يابساً مثل التمر والفواكه، فَلَكَ الخيار أن تأخذه من حيث شئت. وإن كان مائعاً فلا يخلو أن يكون على صفة واحدة أم لا، فإن كان على صفة واحدة فحكمه حكم الثريد، تأكل مما يليك لا غير، وإن كان فيه اختلاف فلك أن تجيل يدك فيه إلا أنه بأدب. وقد جاء أنه قدم له ﷺ لحم فيه دُبّاء[1] فجعل عليه السلام يَتَتَبع الدّبّاء في القصعة[2].

وأما قولنا: إن كان الطعام يختلف به، أي يؤتى بطعام بعد طعام، هل يجزىء فيه تسمية واحدة أم لا ؟ فلا يخلو أن تكون تعاينه وتعلمه ويكون الأكل متصلاً بعضه ببعض أو لا. فإن كنت تعاينه وتعلمه، والأكل متصل، فتسمية واحدة تجزىء، ما لم تعيّن نوعاً واحداً من ذلك تفرده من غيره، كما تفعل عند رميك على الطير إذا كانوا[3] جماعة أو الظباء. وإن عينت الجميع فأي شيء أخذت منها تتناوله تسميتك، وإن قصدت واحداً بعينه وأخذت غيره لم تتناوله التسمية.

وقد نص الفقهاء أنك إذا دخلت حديقة وفيها أنواع من الثمار، ونويت عند دخولك أن تأكل من كل ثمرة لقيت، وسميت بهذه النية، أجزأتك التسمية عن كل ما تأكل في تلك الحديقة في وقتك ذلك، وإن كانت أشجارها متباعدة بعضاً عن بعض، وذلك يقتضي تعيين الأكل أيضاً. وإن أنت لم تسم عند دخولك إلا على الثمرة التي لقيت، ولم تعين غيرها، فتؤمر إذا انتقلت إلى غيرها أن تسمي عليها.

وأما قولنا: هل هذا الأمر خاص بالرجال لا غير، أو الرجال مواجهون بالخطاب وهو متناول الكل؟ فالجواب أن تقول: ليس في الدين تخصيص لبعض دون بعض، بل اشتراك الكل في جميع

---

(١) الدباء: اليقطين، ويسمى في بلاد الشام: القرع.

(٢) رواه البخاري في البيوع، باب ذكر الخياط، وفي الأطعمة، باب من تتبّع حوالي القصعة مع صاحبه وباب القديد، ورواه مسلم في الأشربة من حديث أنس رضي الله عنه أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، فذهبت معه إلى ذلك الطعام، فقرب إلى رسول الله ﷺ خبزاً من شعير ومرقاً فيه دبّاء وقديد. قال أنس: فرأيت النبيّ ﷺ يتتبّع الدباء حوالي القصعة فلم أزل أحب الدباء من يومئذ.

(٣) كذا بضمير العقلاء.

الأوامر إلا ما دل دليل على تخصيصه، ولا دليل هنا على تخصيص، فهو عام في الكل. وفي هذا الحديث وأشباهه دليل على بذل جهده ﷺ في النصح والتعليم.

ويترتب على ذلك من الفقه، فيما يخصنا، أن من علامة السعادة للشخص أن يكون معتنياً بمعرفة السنة في جميع تصرفه، والذي يكون كذلك هو دائماً في عبادة في كل حركاته وسكناته.

وهذا هو طريق أهل الفضل، حتى إنه ذكر عن بعضهم أنه بقي مدة لم يأكل البطيخ فقيل له في ذلك فقال: لم يبلغني كيف السنّة في أكله؟ ولا آكله، حتى أعلم كيف ذلك؟ فكيف لا والله سبحانه يقول في حقه ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(1). والتبعية المحمودة إنما تصح بأن تكون عامة في كل الأشياء. جعلنا الله من أهلها في الدارين بمنّه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(1) سورة آل عمران، من الآية ٣١.

ــ ٢١٢ ــ

حديث ما خصت به العجوة من المنفعة

عَن عامِرِ بن سَعْدٍ[١] عَن أبيهِ، رضي الله عَنهُم، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَن تَصبَّحَ كُلَّ يَوم بِسَبع تَمراتٍ عَجوَةٍ لَم يَضُرَّهُ في ذلكَ اليَومِ سُمٌّ ولا سِحر.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن من أكل كل يوم سبع تمرات عجوة لا يضره في ذلك اليوم سمّ ولا سحر. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذه العجوة من أي بقعة كانت سواء، أو هي من بقعة معيّنة؟ وهل تكون في حين طراوتها، أو أي وقت أكلت كانت طريّة أو مدّخرة؟ وهل يحتاج في أكلها إلى نيّة أم لا؟ وهل تعرف الحكمة في كونها خصت بالنفع في هذين الشيئين أم لا؟ وهل هذا عام في المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، أو ذلك خاص بالمؤمنين لا غير؟

فأما قولنا: هل تلك العجوة تكون من بقعة مخصوصة أم لا؟ فالجواب أنه قد جاء حديثان أحدهما: أنها من المدينة، والآخر: أنها من العوالي[٢]. فإن حملنا هذا الحديث المطلَق الذي نحن بسبيله على هذين الحديثين فتكون من عجوة العوالي أو المدينة. وإن قلنا: إن لكل حديث حكماً فتكون مطلقة، من حيث كانت نفعت، فيجيء النفع إذا كانت من العوالي أو المدينة بلا شك، ويبقى النظر إذا كانت من غيرها.

---

(١) عامر بن سعد بن أبي وقاص:
مدني تابعي، سمع أباه وعثمان وابن عمر وأسامة وأبا هريرة وعائشة وكان ثقة بالاتفاق. توفي بالمدينة سنة ١٠٣هـ. والده كان أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة في الشورى لخلافة عمر رضي الله عنه.

(٢) العوالي: هي اليوم حي من أحياء المدينة المنورة.

وأما قولنا: هل يكون أكلها عند جناها أو أي وقت أكلت؟ احتمل. والظاهر أي وقت كانت لأن الاسم يتناولها.

وأما قولنا: هل يحتاج في ذلك إلى نية أو لا؟ فكل ما كان متلقّى من الرسول ﷺ فالأصل فيه النية. ومما يدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾(1) لأن المؤمن إذا أخذ ما أمر به موقناً بذلك وجد الفائدة كما وعد وزيادة، وإذا أخذه بغير نية فقد يبطىء الأمر عليه قليلاً، فيقع له تردد، فيحصل في بحر التلف.

ومما روي مثل هذا أن النبيّ ﷺ خرج مرة إلى غزوة من غزواته، فأمر الصحابة، رضي الله عنهم، بالتزود، فتزود بعضهم وعجز البعض، ولم يجدوا ما يشترون؛ فأمر ﷺ أن يأخذوا رواحلهم ويخرجوا معه، فخرجوا. فلما بلغوا إلى أحد الأودية - وهو كثير الحنظل - أمرهم أن يمتاروا منه، فكلهم فعلوا ما أمرهم به إلا شخصاً واحداً، فقال في نفسه: وما جاء بنا إلا إلى الحنظل، وما عسى أن أفعل به؟ فلم يأخذ منه إلا خمس حبّات، ورجعوا إلى المدينة.

وكان للشخص الذي لم يأخذ غير خمس حبات غلام تركه بالمدينة في ضروراته، فلما سمع برجوعهم إلى المدينة خرج لأن يُعين سيده، فوجد الناس محمّلة رواحلهم، وليس لسيده حمل. فسأله عن ذلك؟ فقال له ما جرى. فقال له الغلام: أمرَكَ وبقي عندك شك؟ وكيف وقع ذلك، وما أخذت منه شيئاً؟ قال: ما أخذت إلا خمس حبّات، وقد ذهب عني بعضها في الطريق. فقال: هاتِها. فأعطاه إياها. فأكل الغلام منها، فإذا هي مثل الشهد سواء. فقال: كُلْ تَرَ ما حُرِمت، فأكل، فوجد مثل ما وجد الغلام. فندم نَدامة الكُسَعِيّ(2).

والحديث الثالث حين جاء بعض الصحابة، فشكا للنبيّ ﷺ أن أخاه به بطن(3)، فأمره أن يسقيه عسلاً، فسقاه ثم رجع إلى النبيّ ﷺ يشكو إليه ثانية، فأمره أن يسقيه عسلاً، كذلك في الثالثة

---

(1) سورة الإسراء، من الآية ٨٢.

(2) الكُسَعِيّ: هو غامد بن الحارث الكسعي، اتخذ قوساً وخمسة أسهم، وكمن في مكان مظلم للحُمُر الوحشية، فمرّ منها قطيع، فرمى السهم الأول، فنفذ في العير حتى صدم الجبل فأورى ناراً، فظن أن سهمه أخطأ الوحش، فرمَى ثانية وثالثة حتى نفدت سهامه الخمسة وهو يظن في كل رمية أنه أخطأ صيده، فعمد إلى قوسه فكسرها، ثم بات. فلما أصبح نظر فإذا الحُمُر مطَّرحة مُصَرّعة، وأسهمه بالدم مضرّجة لم تخطىء هدفها وصيدها، فندم وقطع إبهامه وأنشد:

نـدمـت نـدامـةً لـو أن نفسـي	تطـاوعنـي إذاً لقطعـت خَمسـي
تَبَيَّـنَ لـي سفـاه الـرأي منـي	لعمـر أبيـك حيـن كسـرت قـوسـي

(3) أي: إسهال.

أو الرابعة. فقال له عليه السلام: صدقَ الله وكذبَ بطن أخيك، اسقِه عسلاً. فسقاه فشفي أخوه[1].

وأما قولنا: هل تعرف الحكمة في كونها تنفع لهذين الشيئين[2]؟ فالجواب: أنه لا طريق لنا إلى ذلك، بل الله يختص من يشاء بما يشاء، من جماد ونبات وحيوان إلى غير ذلك من جميع خلقه. فمنها ما يعلم من طريق التجربة مثل صنعة الطب، وقد تخيب وتصيب. ومنها ما هو من طريق إخبار الرسل صلوات الله عليهم، وهذا لا يخيب أصلاً. لكن الغالب على الناس أنهم قد ركنت أنفسهم إلى قول الأطباء بلا تأويل، وقد عاينوا منهم في الغالب عدم النجح.

وهذا الذي لا شك فيه، لأنه من طريق الرحمة للعباد لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[3] فقليل منهم من يقبله، وذلك علامة الحرمان فنسأل الله العافية. وبعضهم يتأول ويقول: هو حق، لكن لا نعرف التأويل في كيفية العمل، وهذا حَيْد عن الصواب، لأنه لو كان في أحد الأشياء التي أخبر بها ﷺ وجه من وجوه الكيفية في عمله ما ترك، عليه السلام، بيانه إلا أخبر به ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[4]؟

وأما قولنا: هل ذلك خاص بالمؤمنين أو عام في المؤمن والكافر؟ صيغة اللفظ تعطي العموم، وأما ما قدمناه من قوله عزّ وجلّ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] فيعطي الخصوص.

وفيه دليل على أن السحر حق. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر).

وفيه دليل على عظم قدرة الله تعالى، وأنها لا تدركها العقول. يؤخذ ذلك من كون السحر منفصلاً عن الشخص لا يراه، ثم يصل إليه منه ضرر، حتى يجد ذلك الضرر في بدنه محسوساً. ومما يزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[6].

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلاً، فسقاه ثم جاءه فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقاً ثلاث مرات، فقال رسول الله ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك. فسقاه فبرأ.

(٢) أي: السم والسحر.

(٣) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٧.

(٤) سورة التوبة، من الآية ٦٥.

(٥) سورة الإسراء، من الآية ٨٢.

(٦) سورة البقرة، من الآية ١٠٢.

وبقي بحث في قوله عليه السلام: (لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر) هل يكون معناه العموم أو الخصوص؟ فمعنى العموم أن الذي استصبح بالعجوة لا يضره سم إن شربه في ذلك اليوم، ولا سحر إن سحر فيه، ولا سم تقدم شربه على ذلك اليوم، ولا سحر تقدم على ذلك اليوم عمله. فتكون تلك العجوة توقف عنه ضرر ذلك السم الذي تقدم شربه في ذلك اليوم، وكذلك السحر أيضاً، وتحميه عن ضرر ما يفعل فيهما في هذا اليوم. ومعنى الخصوص: أن كل سم أو سحر يكون في ذلك اليوم بعد أكله تلك العجوة لا يضره. احتمل الوجهين معاً. لكن الأظهر الخصوص من طريق أنه أقل المحتملات، فهذا مقطوع به.

ومن طريق النظر إلى أن هذا ورد من طريق الرحمة من الله تعالى ببركة هذا النبيّ العظيم ﷺ، فيكون الأظهر العموم، لأنا نرى الترياق الكبير الذي هو من تأليف الأطباء الذي طريقه التجربة يدفع من السموم ما قد حصل منها في البدن، وما يأتي بعده، فكيف بما هو طريقه طريق الرحمة والتفضل؟

إلا أنه لا بد في ذلك من قوة يقين ونية حسنة، كما ذكر عن عمرو بن العاص[1] أنه جاءه رسول من العدو، وبيده قارورة. فلما دخل عليه سأله عن تلك القارورة التي هي بيده فقال له: سم ساعة. فقال: وما عسى أن تفعل به؟ فقال له: إني رسول لقومي لم يوجهوني قط في أمر إلا جئتهم بما يحبون، وهم قد وجهوني إليك فخفت منك ألا تُسْعِفْني فيما طلبوا، فجئت بهذا السم. فإن لم تستعفني بما طلبوا أشربه فأموت، ولا أرجع إليهم بما يكرهون. فقال له: ناولني إياه. فأعطاه القارورة. وقال رحمه الله: بسمِ الله قل لن يُصيبَنا إلاّ ما كَتَبَ الله لنا. وشرب ذلك السم، فعرق من حينه ساعة، ثم أفاق وما به بأس. فرجع الرسول من حينه إلى قومه وقال لهم: أسلموا عن آخركم، فإن هذا رجل لا طاقة لكم به، شرب سم ساعة فلم يضره.

فلتسميته بتحقيق النية ظهر ذلك الخير عليه. وكذلك كل من قصد الله تعالى صادقاً وجده حيث أمله وزيادة، لأنه يقول جلّ جلاله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[4] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[5]

---

(١) وتنسب هذه الحادثة إلى خالد بن الوليد في كتب أخرى. والله أعلم.
(٢) سورة آل عمران، من الآية ١٦٠.
(٣) سورة المائدة، من الآية ٢٣.
(٤) سورة الطلاق، من الآية ٣.
(٥) سورة النساء، من الآية ١٢٢.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[1] لكنْ من عينُ يقينه خُفَاشِيّ لا يستطيع أن يبصر شمس الهدى. ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2] من غذّى قلبه بالحرام لا يبصر إلا ظلاماً في ظلام ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[3]. أعاذنا الله من الحرمان ومن كسب الآثام بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النساء، من الآية ٨٧.
(٢) سورة المطففين، من الآية ١٤.
(٣) سورة النور، من الآية ٤٠.

— ٢١٣ —
حديث الأمر بلعق اليد من أثر الطعام قبل غسلها

عَنِ ابن عَبَّاسٍ، رَضيَ الله عَنهُما، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: إذا أَكَلَ أحَدُكُم طَعاماً فَلا يمسَحْ يَدَهُ حتّى يلعَقَها أو يُلعِقَها.

❊ ❊ ❊

ظاهر الحديث النهي عن أن يمسح أحد يده إذا أكل طعاماً، حتى يلعقها أو يعطي غيره يلعقها. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: هل هذا من كل الطعام، وهل هذا لعلة مفهومة أو تعبد لا غير؟ وهل ذلك خاص بالمسح، أو عام في المسح والغسل؟ وقوله (يُلعِقَها) هل يكون ذلك من جنسه لا غير، أو من جنسه وخلاف جنسه إن أمكنه ذلك؟ وفي المسح كيف يكون، وفيم يكون؟

فأما قولنا: هل من كل طعام؟ فليس على عمومه، لأن من الأطعمة ما لا يتعلق بيد الآكل منه شيء، وما لا يتعلق منه شيء، ولا يحتاج إلى مسح، فلا يحتاج إلى أن يُلعق.

وأما قولنا: هل هو تعبد، أو لعلة معقولة؟ اللفظ لا يفهم منه ذلك، لكن قوة الكلام تعطي أنه لعلة مفهومة، وهي حرمة الطعام، والتعظيم لنعم الله تعالى، لأنه ﷺ قد شدّد في هذا الباب ـ أعني تعظيم نعم الله تعالى واحترامها ـ كثيراً. وقد ورد أن ترك ذلك سبب إلى زوالها، وقلّما أزال الله تعالى نعمته من قوم فردّها إليهم. وقد كان ﷺ إذا أكل في أهله وشبعوا تركوا القصعة حتى يأتي من يَـلعَقُها.

وقد حكى أبو هريرة أنه كان يوماً به جوع شديد، فلقيه النبيّ، ﷺ فقال له: (أراك شديد خُلوف الفم؟) فقال: نعم. فأمره، عليه السلام، أن يأتي معه إلى منزله، فلما دخل أخرج له قصعة ليس فيها إلا لَعْقُها. قال: فقلت في نفسي: وماذا تعني هذه؟ فلَعِقتُها وشبعت. أو كما قال. ولقي ﷺ وهو صائم لبابة خبز في قذر فغسلها، وأمر بلالاً أن يرفعها له حتى يفطر، وقال عليه السلام (إن القصعة تستغفر للاعقها)[1] أو كما قال. والأحاديث في هذا النوع كثيرة.

---

(١) رواه الترمذي في الأطعمة من حديث نبيشة أن رسول الله ﷺ قال: من أكل في قصعة ثم لحسها استغفرت له =

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يفرغون من الأكل ويغسلون أيديهم ثم يشربونه، تعظيماً لنعم الله وتبركاً بآثار شيءٍ أكل؛ عوناً على طاعة الله تعالى.

وأما قولنا: هل ذلك خاص بالمسح، أو عام فيه وفي الغسل؟ الجواب: أنه إذا كان في المسح الذي ينتقل الطعام الذي تعلّق باليد إلى الشيء الممسوح فيه، فكيف بالماء الذي يُذهِب عين الطعام؟ فهو من باب أولى.

وفيه دليل على أن السنّة المسح من الطعام، وإنما الغَسل من فعل الأعاجم. أعني إذا كانت اليد نظيفة، فالغَسل إذ ذاك من فعلهم، وإن كان قد جاء أن الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر، وبعده ينفي اللَّمَمَ، ويُصِح البصر[1]، فيكون الجمع بين هذين الحديثين بأحد وجهين: (أحدهما) أن يكون الغَسل لموجب له، فقبل الطعام تكون اليد غير نظيفة، والذي بعده يكون الطعام مما فيه دسم كثير، لا يزيله المسح، أو رائحة يكون فيها تأذٍّ، وذلك مكروه أن يصلّى به، أو يكون فعله ذلك غِبّاً لا يتخذه دائماً؛ فإنه مخالف للسنة، أو يكون الغسل لِعَدم الشيء الذي يمسح فيه. والشأن أن يخرج من التشبه بأهل الكتاب الذي قد نهينا عن التشبه بهم.

وأما قولنا: هل يلعِقها من جنسه أو من خلاف جنسه إذا أمكن ذلك؟ فإذا فهمنا العلة، كما قدمنا ـ وهي من أجل حرمة الطعام ـ فكل من يجوز لنا أن نعطيه طعاماً يأكله ويأتي منه اللعق على وجه جاز لنا ذلك، ما عدا أهل الملل.

وأما قولنا: فيم يكون المسح، وكيف يكون؟ أما فيم: ففي كل شيء طاهر لا حرمة له. وأعني بقولي: لا حرمة له: تحرزاً من الخبز والكتاب وما أشبه ذلك، أو مال الغير فإن مَسحك فيه ممنوع، إلا بإذن مالكه. وقد جاء أنهم كانوا يمسحون تحت أقدامهم. وأما الكيفية فأن يكون الفعل برفق بحسب حالة الشيء الممسوح فيه. وإنما ذكر الرفق فيه لقوله ﷺ (ما كان الرفق في شيء إلا زانه)[2] حتى يكون في فعلك أثر من السنة، لأن الشأن في هذا.

جعلنا الله من أهلها بفضله لا رب سواه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

= القصعة. ورواية المؤلف «إن القصعة لتستغفر للاعقها» رواها رزين في جامعه بلفظ؛ إن آنية الطعام لتستغفر للذي يلعقها ويغسلها.

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه. وذكره العراقي مع جملة أحاديث فقال: إنها ضعيفة.

(٢) عزاه في الفتح الكبير إلى عبد بن حميد والضياء عن أنس رضي الله عنه.

— ٢١٤ —

حديث كراهية الأكل في أواني الكفار وجواز أكل ما صيد بالكلب المُعْلَّم وغيره

عَن أبي ثَعلَبَةَ الخُشَنِيِّ[١]، رَضيَ الله عَنهُ، قالَ: قُلتُ يا نَبيَّ الله، إنَّا بِأرضِ قَومٍ أهلِ كتابٍ، أفنأكُلُ في آنيتِهم؟ وَبأرضِ صَيدٍ، أصيدُ بِقَوسي وَبكَلبي المُعلَّم، فما يَصلُحُ لي؟ قالَ: أمَّا مَا ذَكرتَ مِن آنيَةِ أهلِ الكتابِ فإن وَجدتُم غَيرَها فَلا تأكُلوا فيهَا، وإن لم تجدُوا فاغسِلوها وَكُلوا فيها، ومَا صِدتَ بِقوسِكَ فَذَكرتَ اسمَ الله عَليهِ فَكُلْ، وَما صِدْتَ بِكَلبِكَ غَيرِ المُعلَّمِ فأدرَكتَ ذَكاتَهُ[٢] فَكُلْ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام: (الأول) جواز الأكل في آنية أهل الكتاب بعد الغَسل إذا لم يوجد غيرها. (والثاني) جواز أكل ما صدته بقوسك أو بكلبك المعلم إذا ذكرت اسم الله تعالى، أدركت ذكاته أو لم تدركها. (والثالث) ما صدته بكلبك غير المعلم فلا تأكل منه إلا ما أدركت ذكاته. والكلام عليه من وجوه:

منها: التنزه عن استعمال أواني أهل الكتاب مع وجود غيرها.

ومنها: أنه إذا لم تجد غيرها جاز استعمالها بعد غسلها بالماء. يؤخذ ذلك من أنه ﷺ لم يبح له الأكل في آنية أهل الكتاب بعد الغسل إلا عند الضرورة، وهو عَدم غيرها. وأهل الضرورات لهم حكم خاص بهم. وقد اختلف العلماء في الآنية المتنجسة، ما عدا الزجاج. فإنه لا يداخله مما جعل فيه شيء، فالغَسل يطهره، وما عداه من الأواني التي قد يختلط ما جعل فيها ببعض أجزائها، مثل

---

(١) أبو ثعلبة الخُشَني: صحابي، أحد الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة، وأحد الذين شهدوا فتح خيبر. روى عن النبيّ ﷺ عدة أحاديث وتوفي سنة ٧٥هـ.

(٢) ذكاته: ذبحه الشّرعي.

آنية الخشب والحنتم[1] وما أشبههما، على ثلاثة أقوال: قول بأنها لا تطهر، وبأنها تطهر، وبالتفرقة بأن يطول مكث الإناء في الماء الزمان الطويل فتطهر، وإن كان قليلاً فلا تطهر.

وفيه دليل على أن الحكم في الأمور للغالب عليها. يؤخذ ذلك من أنه لما كان الغالب من أحوال أهل الكتاب أن النجاسة تحل في أوانيهم أعطوا حكم النجاسة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها).

ويلحق بهذا في الحكم أهل البَطالَة، وتحمل ثيابهم على النجاسة، لأنها الغالبة عليهم في كثرة أحوالهم. وقد عد الفقهاء هذه العلة في ثياب شارب الخمر أنه لا يصلي بها حتى تُغسَل.

ومنها: وجوب التسمية على الصيد. يؤخذ ذلك من تكرارها في كل من أنواع الاصطياد، وإفصاحه، عليه السلام، في جميع الأنواع بقوله (وذكرت اسم الله).

ومنها: قوله (بقوسي). وأباح له، عليه السلام، أكل ما صاد به إذا ذكر اسم الله عليه، أدرك ذَكاتَه أو لم يدرك. وهل هذا خاص بالقوس دون غيره من السلاح، أو يُحمَل جميعُ السلاح عليه؟ فإن قلنا: يتعدى الحكم بوجود العلة، فجميع السلاح المُحَدَّة التي تفري وتَنهَر الدم يجوز ذلك بها، مثل الرمح والسيف والسكين وما أشبه ذلك. وقد نص على جواز ذلك أهل الفقه في كتبهم على ما هو هناك مذكور.

كذلك نقول في قوله عليه السلام: (وما صِدتَ بكلبك غيرِ المعلَّم فأدركتَ ذَكاتَه فَكُلْ) يتعدى الحكم إلى غير الكلب المعلَّم من جميع الحيوانات التي تفترس، أنه إذا كانت غيرَ معلَّمة وصِيد بها فالحكم فيها كالحكم في الذي صيد بالكلب غير المعلم. كذلك ما صيد بالآلة التي ليست بمُحَدَّة مثل الحجر والعصا وما أشبه ذلك إذا صيد بها، ما يُدرَك ذكاتُه من ذلك أُكِل، وإلا لم يُؤكَل منه شيء.

وفيه دليل على أن الحكم إذا نِيط بعلة فعُدِمت ارتفع الحكم. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، في الكلب غيرِ المعلَّم أنه لا يُؤكل ما صِيد به إلا إن أُدرك ذكاتُه، فدل على أن التعليم في الجارح يُبيح ما صيد به، وإن لم تُدرَك ذكاته.

وفيه دليل على أن من أحسن جوابك للسائل أن تعيد صيغة لفظه فيما سألك عنه، وتجاوبه على كل نوع على حِدة. يؤخذ ذلك من تكرار سيّدنا ﷺ بلفظ ما سأله السائل عنه، وجاوبه على كل نوع منها على حِدَته بقوله عليه السلام (أمّا ما ذكرتَ من آنية أهل الكتاب) إلى آخر الحديث.

---

(١) الحَنتَم: الخزف الأسود والجرة الخضراء.

وفيه دليل على أن ما لم يتحقق نجاسته يكره استعماله من غير ضرورة، ويجوز عند استعماله الضرورة بلا كراهية. يؤخذ ذلك من كون سيّدنا ﷺ منع الأكل في آنية أهل الكتاب مع وجود غيرها، لأن تلك الآنية التي أُكِل فيها ليست النجاسة متحققة فيها، بل هي مظنونة، فمنع، عليه السلام، استعمالها مع وجود غيرها، وأباحه عند الضرورة، وهو عدم غيرها.

وفي هذا الوجه دليل لأهل الصوفة، لأنهم يظنون في أنفسهم كل مكر وخديعة، فلا يستعملون ما تشير به عليهم شيئاً إلا إن كان موافقاً للكتاب والسنة، بعد ما يلجؤون في ذلك إلى مولاهم، خوفاً أن يكون تحت ذلك مكرٌ من وجهٍ ما؛ كما ذكر عن بعضهم أن نفسه رغَّبته في الجهاد، ووكّدت ذلك عليه، فقال لها: هذا عندي محال أن يكون هذا منك على وجهه لأن الجهاد من أقرَب القُرَب، ما أفعل ذلك حتى أسأل الله تعالى في أمرك. فسأل مولاه سبحانه أن يُطلِعَه على ما أبطنته. فقيل له في النوم: إنها قد سَئِمت من القيام والصيام، فأرادت أن تموت في الجهاد لكي تستريح من التعب، ويبقى لها حسن الثناء بعد الموت. فقال لها: ما لي جهاد إلا فيك، ولا أزال أقتلك بالقيام والصيام حتى تموتي. لأنهم سمعوا فيها قول مولاهم حيث قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾[1].

فمن رحمته، عزّ وجلّ، بهم أن ألهمهم مخالفتها وتهمتهم لها إلا حيث جاء الأمر بالنظر إليها في وجه ما، فنظرهم لها في ذلك الوجه ليس لها، وإنما هو من أجل الأمر بذلك. فَمِنْ أَتَمِّ الشجاعة والرجولة مقاتلة العدو، ومن أدب الجهاد قتال من يليك من الأعداء، وأقربهم إليك نفسك وهواك، ففيهما فجاهد، إن كنت ذا بأس وشطارة، وإلا فوصف الخنوثة بك أولى.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة يوسف، من الآية ٥٣.

ـ ٢١٥ ـ

حديث جواز أكل لحم الخيل

عَن أسماء[١]، رَضيَ الله عَنها، قالَت: ذَبحنا عَلى عَهدِ رَسولِ الله ﷺ فَرساً ونَحنُ بالمدينَةِ، فأكَلناهُ.

❊ ❊ ❊

ظاهر الحديث يدل على جواز أكل لحم الخيل بغير كراهية. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن السنة في ذكاة الخيل هو الذبح لا النحر. يؤخذ ذلك من قولها: (ذبحنا). وقد جاءت رواية (نحرنا). فعلى هذا يجوز أكله بالذبح، ويجوز بالنحر[٢].

وقولها: (ونحن بالمدينة) فيه دليل على أن ذلك كان لغير ضرورة. يؤخذ ذلك من قولها: (فأكلناه) أن ذكاته ما كانت لعلة بالفرس، إنما كانت لمجرد الأكل لا غير. وفي هذا دليل للشافعي، رحمه الله، في إجازته أكل لحوم الخيل مطلقاً، والدليل معه في ذلك. وأن الإمام مالك، رحمه الله، فلم يقع منه مخالفة للحديث، فإنه لم يحرمه، وإنما كرهه، وذكر سبب ذلك وبيان كراهيته إلى أنها ما تستعمل ولا فائدتها غالباً إلا للجهاد. فإذا كثر استعمال أكلها كان سبباً إلى قتلها، وقتلها يؤول إلى نقص من الإرهاب للعدو.

وفيه وجه آخر: لأن أكل لحمه ـ على ما قيل ـ يقسّي القلب، وما يقسّي القلب ينافي أوصاف أهل الإيمان، فجاءت كراهيته من باب سد الذريعة التي هي أصل مذهبه.

ووجه آخر أن أكله في زمان النبيّ ﷺ كان قليلاً، وإن كان جائزاً، فإنه لم يأت فيه إلا هذا الحديث وحديث خيبر لا غير، فيما أعلم، فدل على قلة استعماله، فعمل هو في ذلك على العمل

---

(١) تقدمت ترجمتها في الحديث ١٠٥.

(٢) النحر: نحر الصدر: أعلاه ونحر البعير: طعنه في منحره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر. الذبح: قطع الحلقوم من باطن عند النَّصِيل، وهو موضع الذبح من الحلق. فالنحر يكون أقرب إلى الصدر، والذبح أقرب إلى الحلق.

بأن كرهه حتى يكون استعماله قليلاً، كما كان في زمن النبيّ ﷺ، فجاء فيه متبعاً للسنة بطريقة حسنة.

وفي قولها (نحن بالمدينة) فائدة أخرى، وهي: أن ذلك كان بعد تمكن الإسلام وظهوره، وفرض الفرائض، وتحديد حدود الشريعة، لأنه ما فرض من الفرائض بمكة إلا الصلاة لا غير، وجميع الفروض إنما كانت بالمدينة فيما أعلم.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



ـ ٢١٦ ـ

حديث النهي عن قتل الحيوان صَبْراً

عَنِ ابنِ عُمَر، رَضي الله عَنهُما، أنَّهُ سَمِعَ النبيّ ﷺ يَنهى أن تُصَبَّرَ[١] بهِيمَة أو غَيرُها لِلقتلِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على منع الحيوان كله، عاقلاً كان أو غير عاقل، من أن يُصبَّر للقتل. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن من السنة الرفق بجميع الحيوان عاقلاً أو غير عاقل.

وفيه دليل على رحمة الله تعالى بعبيده، على اختلاف أجناسهم وأنواعهم. يؤخذ ذلك من نهيه ﷺ عن أن تصبّر بهيمة للقتل أو غيرُها. ومما يقوي ذلك أنه جاء (من قتل عصفوراً عبثاً جاء العصفور يوم القيامة مستجيراً يقول: يا رب، سل هذا لِمَ قَتَلني عَبَثاً)[٢]. وفي هذين الحديثين دليل على قهر الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه. يؤخذ ذلك من كونه، عزّ وجلّ، لم يترك لأحد التصرف في شيء من الأشياء دقت أوجلت إلا وقد حد له كيفية التصرف فيه، وأنه يحاسبه عليه دق أوجل، جماداً كان أو غير جماد، عاقلاً أو غير عاقل.

وفيه دليل على عظيم عدل المولى سبحانه. يؤخذ ذلك من اقتصاصه، عزّ وجلّ، للعصفور، على دقته، من العاقل الكبير إن قتله لغير منفعة، أو صبَّره للقتل.

وفيه دليل على عظيم إحاطته، عزّ وجلّ، بجميع مخلوقاته. يؤخذ ذلك من كونه عزّ وجلّ لا

---

(١) القتل صَبراً، أو التَّصبير: حبس الإنسان أو الحيوان حتى يموت، أو تثبيته وضربه حتى يموت أو تعذيبه حتى يموت. ومن القتل صبراً ألوان العذاب الوحشي في السجون حيث ينتهي المعذبون بالموت.

(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي والبغوي في معجمه وابن قانع وابن حبان، والطبري والضياء في المختارة عن الشريد بن سويد بألفاظ مختلفة.

تخفى عنه مثل هذه على دقتها، ويحصيها ويعاقب عليها، مصداقاً لقوله عزّ وجلّ ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1].

وفيه دليل على أن صفاته، عزّ وجلّ، ليس كمثلها شيء. يؤخذ ذلك من كون صفة الانتقام مع صفة الرحمة معاً وفي فعل واحد، لأن القتل دال على صفة الانتقام، ثم في نفس فعل القتل الرحمة. وهو منعه أن يصبّر حيوان، عاقلاً كان أو غير عاقل، للقتل، فرفق به في نفس العذاب والانتقام، وقد قال ﷺ: (إذا قَتَلتم فأحسِنوا القِتْلة)[2]. وصفة المحدَث إذا وقع منه انتقام لا يرحم، ولو قدر على أكثر لفعل، فبان[3] بمقتضى أحكامه سبحانه وتعالى بوحيه أو على لسان رسوله ﷺ، لأنه ما يحكم إلا عن الله، كان بواسطة الملك بالوحي أو من تلقاء نفسه بما يلهمه الله، عزّ وجلّ، إليه، فالكل من الله.

وفي هذا دليل على أن صفاته، جلّ جلاله، ليس كمثلها شيء، فإنه ليس كمثله شيء ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[4] فسبحان من تبدّى بالدليل لذوي البصائر، واحتجب بعظيم قدرته مع إيضاح دلائله عن أهل الجهالة والشقاوة. جعلنا الله ممن عرّفه به، ودلّه به عليه، وتغمّده في الدارَين برحمته بمنّه وكرمه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٤٧.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه وأوله: إن الله كتب الإحسان على كل شيء... وتتمة الحديث: وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وَلْيُحِدَّ أحدُكم شَفرتَه، ولْيُرِح ذبيحتَه.

(٣) أي ظهر الدليل على رحمة الله وعدله وإحاطته.

(٤) سورة فُصّلت، من الآية ٥٣.

— ٢١٧ —

حديث تحريم أكل لحم الحُمُرِ الأهلية وجواز أكل لحم الخيل

عَن جابرِ بنِ عبد الله، رضي الله عَنهُما، قالَ: نهى النَّبيُّ ﷺ يوم خيبر عن لحومِ الحمر، ورخَّص في لحوم الخيل.

* * *

ظاهر الحديث يدل على تحريم لحوم الحمر الأهلية، والرخصة في لحوم الخيل. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن ترخيصه، عليه السلام، في لحوم الخيل يوم خيبر إنما كان من أجل الضرورة، لأنه جاء من طريق آخر في هذا الحديث أنهم، رضي الله عنهم، لم ينحروا الخيل يوم خيبر إلاَّ من أجل المجاعة التي لحقتهم.

وفيه دليل لمالك كما قدمناه في الحديث قبل، أنه وافق السنة في كراهية أكل لحوم الخيل، لأن لفظة (رخَّص) عند العذر تقتضي المنع أو الكراهية عند عدم العذر.

وهنا بحث، وهو أن يقال: هل تحريمه ﷺ لحوم الحمر وترخيصه في لحوم الخيل تَعَبُّدٌ لا يُعقَل له من جهة الحكمة معنى، أو تعقل الحكمة في ذلك؟

فأما قولنا: هل تعقل الحكمة في ذلك؟ فقال بعض العلماء: إن الحكمة في تحريم الحمر الأهلية هو أن الحمر ليس في الحيوانات أبلد منها، فآكل لحمها يكتسب من ذلك. فلإشفاقه عليه السلام، على أمته مَنَعهم من كل ما عليهم فيه ضرر في الدنيا والآخرة، كما حرم مولانا سبحانه الميتة، وأحلّها بعد ثلاث[1]. فذكر بعض العلماء من الحكمة في ذلك أن الميتة فيها سُمِّيَّة كثيرة، فمنَعَنا من أكلها لأجل الضرر الذي يعود علينا من سُمّها. فإذا بقي المرء ثلاثاً اشتدت سُمّيته في بدنه حتى عادت أشدّ من سُمّ الميتة، فأبيح له إذا ذاك أكلها لعدم الضرر لأكلها، بل يحصل له بها قوى ومنافع في إبقاء رمقه رحمةً من الله تعالى بعبيده.

---

(١) أي بعد ثلاثة أيام بلياليها مع الجوع الشديد وعدم وجود ما يؤكل سواها.

وفيه دليل على أنه إذا اجتمع ضرران أُخِذ أخفّهما. يؤخذ ذلك من أنه لما كانت لحوم الحمر تُكسِب البلادة، ولحوم الخيل تُكسِب القساوة، كما ذكرنا في الحديث قبل، رخص في لحم الخيل التي هي أقل ضرراً.

وفي قوله (يوم خيبر) وجهان: (الواحد) أنه دال على تثبّته في النقل، لأن ذكر الموطنين[1] اللذين جرت بهما النازلة دال على حقيقة العلم بما أخبر به. (والوجه الآخر) وهو كون القضية في موطن مشهور بجمع كبير قد يرويه غيره، فيحصل فيه تصديق له. والتواتر في الحديث يزيده قوة، لأنه ينقله من كونه خبر آحاد إلى التواتر[2]، وهو أعلى درجة.

وينبغي من جهة الفقه أن يُعَدّى الحكم، فحيثما قدر المرء أن يزيد إخباره على ما أخبر به قرينةَ حالٍ تصدق مقالته في ذلك فعل. وفيما ذكرناه دليل على لطف الله تعالى بعبيده فيما أحل لهم وفيما حرم عليهم.

وفيه دليل على أنه، عزّ وجلّ، لا يحل ولا يحرم إلا عن حكمة وفائدة لنا، عَقَلها مَن عَقَلها، وجَهِلها مَن جَهِلها.

وفيه دليل على استغنائه، عزّ وجلّ، عن جميع خلقه وعن تعبداتهم، إذ كل ذلك عائد بالنفع عليهم، وهو الغني المستغني. ولذلك تنعم أهل العقول والمعاملات بكل حكم يصدر عن الله تعالى، لعلمهم بأن ذلك رحمة منه، عزّ وجلّ، إليهم، لم يشكوا في ذلك، فرجع لهم بقوة يقينهم التنعم بالنعماء والبلاء على حدّ سواء.

وكذلك روي عن بعضهم أنه قال: لا أبالي على أي حالة أصبحت وأمسيت، إنما هي حالة شكر أو صبر، وكلاهما رحمة من الله تعالى. هؤلاء فهموا قوله عزّ وجلّ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3] وقول رسول الله ﷺ (والله ما يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له)[4]. فمن عرف عفّ واستراح، ومن جهل تكالب وما نجح، ومن طلب العز بالجهل وقع الهوان به وما عزّ.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) يقصد بالموطنين: المدينة وخيبر كما ذكر ذلك في الحديث ٢١٥ وفي هذا الحديث..

(٢) المتواتر: هو ما نقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة عن مثلهم من أول الإسناد إلى آخره. والآحاد: عكس المتواتر، نقله واحد عن واحد. والعلماء يفرقون في وجوب العمل أو عدم وجوبه بين المتواتر وخبر الآحاد..

(٣) سورة المائدة، من الآية ٥٠.

(٤) رواه الإمام أحمد ومسلم والدارمي وابن حبان عن صهيب رضي الله عنه بلفظ: عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له.

ـ ٢١٨ ـ
حديث النهي عن أكل لحوم كل ذي ناب من السباع

عَن أبي ثَعلبَةَ الخُشَنِيِّ[١]، رَضيَ الله عَنهُ، قالَ: نَهى النَّبيُّ ﷺ عَن أَكلِ كُلِّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ.

* * *

ظاهر الحديث النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا النهي تحريم، أو نهي كراهية؟

اختلف العلماء في ذلك. فمذهب الشافعي، رضي الله عنه، ومن تبعه أنه نهي تحريم، ومذهب مالك، رحمه الله، ومن تبعه أنه نهي كراهية.

وهل نهيه لعلة أو تعبد؟ الظاهر أنه لعلة، لأنه لو كان تعبداً لم يكن العلماء ليختلفوا فيه.

وبقي البحث في العلة فنقول، والله أعلم: لكونها تأكل الجيف. فإنها إذا افترست فالذي تفترسه جيفة، لأنه غير مذكًّى، فيكون شأنها مثل البقر والإبل الجلّالة التي تأكل العَذِرَةَ. وقد اختلف العلماء أيضاً في أكل لحمها والحالة هذه، فكرهه مالك ومن تبعه، وأما رجيعها[٢] فهو نجس على المعروف، وكذلك رجيع الطير المفترس نجس بلا خلاف ذكر فيه.

وهنا عِلة صوفية وهي: لعزة نفسه وضرره ذلّ، حتى لم يصلح أن يكون قوتاً للمؤمنين.

ويترتب عليه من طريق النظر: من أعزَّ نفسه فذلك ذلّ لها، ومن ذلها[٣] فقد أعزها. ومما يقوي هذا البحث ما جاء عنه ﷺ (ما من أحد من بني آدم إلا برأسه حَكَمة بيد مَلَك، فإن تواضع رفع

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٢١٤.

(٢) الرَّجيع: هو الجِرّة التي تجترها الإبل والغنم والبقر ـ وهي حيوانات مجترة ـ أي تخرجها من معدتها إلى فمها، وهذا هو الاجترار. كما أن للرجيع معنى آخر وهو (الروث) وليس مراداً هنا.

(٣) كذا. يريد: أذلها.

الملك رأسه بتلك الحَكَمة وقال له: ارتفع، رَفَعك الله، وإن ارتفع ضرَب المَلَك رأسه بتلك الحَكَمة وقال له: اتَّضِع، وضَعَك الله)[1] أو كما قال عليه السلام. فعلى هذا الوجه ظاهر الحكمة في جميع الحيوانات طلب التواضع بينهم، وعدم ضرر بعضهم لبعض، وهم داخلون تحت عموم قوله تعالى ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[2].

وفيه إشارة لمن فهم، لعلّه يتصف بصفة من صفات أهل الخير لأن يدخل في طريقهم، ويُكتب معهم. يؤخذ ذلك من عموم قوله عليه السلام: (كل ذي ناب من السباع)، فيدخل تحت ذلك: الأسد والهرة والفأرة وما بينهما، ومنهم[3] القوي والضعيف.

فكذلك أنت. اجعل في نفسك شبَهاً ما بالمُوَفَّقين، لعل تلك البركة تشملك معهم، مثل ما إذا نودي بإحضار التجار جيء بأصحاب الآلاف وجيء بصاحب الدينار الواحد. فإن لم تكن من أصحاب الآلاف فكن صاحب الدينار الواحد، لعل الواحد بفضله إذا خلع عليهم خِلَع القرب والرضا يخلع عليك معهم. واحذر أن تتشبه بصفة من صفات أهل الشر فتكتب معهم، فيلحقك وبالهم، وقد جاء (من تشبّه بقوم فهو منهم)[4]، فكيف من عمل ببعض أعمالهم؟ وقد قال: تشبه بالقوم فإن التشبه بالكرام فلاح.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) الحَكَمَة: الأداة أو السلسلة التي ترتبط بالرأس لِيُشَدّ بها بإحكام. والحديث رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمة بيد مَلَك، فإن تواضع قيل للمَلَك: ارفع حَكَمَته، وإذا تكبر قيل للمَلَك: ضع حَكَمَته.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ٣٨.

(٣) كذا بضمير جماعة العقلاء.

(٤) رواه أبو داود عن ابن عمر، والطبراني في الأوسط عن حذيفة رضي الله عنهم.

ـ ٢١٩ ـ

حديث جواز الانتفاع بجلود الميتة

عَن عبدِ الله بنِ عَبَّاسٍ، رَضي الله عَنهُما، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّ بِشاةٍ مَيْتَةٍ فَقالَ: اسْتَمَعْتُم بإهابها؟ قالُوا: إنَّها مَيْتَة. فَقالَ: إنَّما حَرُمَ أَكلُها.

* * *

ظاهر الحديث يدل على جواز الانتفاع بجلود الميتة. والكلام عليه من وجوه:

منها: في كيفية الانتفاع به: هل ذلك عام في جميع وجوه الانتفاع أو انتفاع خاص؟ فالعموم في الانتفاع من كل الوجوه ممنوع، لأن من جملة الانتفاع بيعه وأكل ثمنه، ولم يجيزوه. ومنها الصلاة عليه وفيه، ولم يجيزوه. ومنها جعل الطعام فيه ولم يجيزوه، لأنه يعود فعله لأكل الميتة، فإن الطعام إذا جعل فيه تنجس به، وإنما يكون انتفاعاً خاصاً من حيث لا تلحق منه نجاسة في شيء من الأشياء ولا مخالطة في طعام بوجه من الوجوه.

وفيه دليل على تحريم أكل الميتة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (إنما حرم أكلها).

وفيه دليل على أن ألفاظ العموم إذا ورد الأمر بها تحمل على عمومها، ولا تخصص إلا بمخصص من الشارع، عليه السلام، يؤخذ ذلك من أنه لما أن حرمت علينا الميتة فماتت تلك الشاة التي رآها سيّدنا ﷺ استعمل أصحابها عموم الأمر بالعموم، فرموها بإهابها وصوفها وكل أجزائها، فخصص ﷺ عموم الأمر بقوله عليه السلام: (إنما حرم أكلها).

وفيه دليل على أن عموم القرآن يخصص بالسنة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (إنما حرم أكلها).

وفيه دليل على جواز مراجعة الآمر إذا أمر، ولم يفهم السامع ما قصد بالأمر، وبقي عليه في بعضه التباس. يؤخذ ذلك من قولهم بعدما قال لهم ﷺ: (هلا انتفعتم[1] بإهابها)؟ إنها ميتة. كأنهم

---

(١) كذا. ورواية الحديث: «اسْتَمْتَعْتُم» بدون «هلاّ».

يقولون: يا رسول الله تأمرنا بالانتفاع بإهابها، وقد حرمتها علينا بأمر الله لك، وهذه الشاة ميتة، فكيف يكون ذلك؟

وفيما ذكرنا من معنى مراجعتهم دليل على حسن اختصارهم في الخطاب وبلاغتهم في المعنى. يؤخذ ذلك من كونهم جمعوا تلك الألفاظ فكلها في متضمن قولهم (إنها ميتة).

وفيه دليل على أن الصفقة إذا خالطها حلال وحرام فإن كل واحد منهما يعطى حكمه، لأن العلماء اختلفوا في صفقة إذا اختلط فيها حلال وحرام. فمنهم من قال: إنها كلها حرام. ومنهم من قال: إنها كلها حلال. ومنهم من قال: إنّ قَدْر ما فيها من الحرام حرامٌ، وقَدْر ما فيها من حلال حلالٌ، لأن الخلطة لا تنقل حكماً من الأحكام إلا في الخليطين في الماشية على خلاف أيضاً. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (هلا انتفعتم[1] بإهابها)؟ وقوله عليه السلام: (إنما حرم أكلها) فجعل للّحم حكماً وهو التحريم، وللجلد حكماً وهو التحليل، والشاة واحدة.

وفيه دليل على أن الأحكام الشرعية لا يكون تقريرها إلا بعد نفي كل المحتملات. يؤخذ ذلك من جوابهم لرسول الله ﷺ بعد رؤيته الشاة الميتة، ولا يخفى حالها على أحد أنها ميتة، فكيف على من كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، صلوات الله عليه وسلامه؟ لكن من أجل استقرار الحكم بطريق الاحتمال أن يكون قوله، عليه السلام، (هلا انتفعتم بإهابها)؟ من طريق الاستفهام لهم كيف معرفتهم بحكم الله تعالى في الميتة، جاوبوه بقولهم (إنها ميتة) لينظروا ما قصده ﷺ بتلك المخاطبة.

وفيه دليل على أن من النبل أن يكون جواب المرء عما سئل عنه على قدر ما يعلم فيه، لا يتعانى خلاف ذلك بزيادة أو نقص. يؤخذ ذلك من جوابهم لسيّدنا ﷺ بما سبق لهم من العلم في أمر الميتة لا غير.

وهنا بحث وهو أن يقال: هل أمره ﷺ بالانتفاع بإهابها يطهره، أو هو باق على نجاسته؟ لفظ الحديث لا يفهم منه شيء من هذا، لكن من حديث غيره يفهم أنه باق على نجاسته، وهو قوله عليه السلام: (أيما إهاب دبغ فقد طهر)[2]، فإذا لم يدبغ فهو باق على نجاسته.

وبحث ثان وهو أن يقال: هل لنا أن نعدي الحكم بالانتفاع بغير ذلك من أجزائها؟ لقوله عليه السلام: (إنما حرم أكلها) فيما عدا الأكل أم لا؟

---

(١) كذا.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فالجواب على البحث: هل يجوز لنا الانتفاع بباقي أجزائها مثل الإهاب أم لا؟ فأمره ﷺ بالانتفاع بإهابها لا يتعدى الانتفاع من أجل ذلك إلى غيره من أجزائها لأحد وجهين:

(الأول) منهما: لأن الحظر والإباحة والتحريم والتحليل لا يكون إلا على نحو ما نص عليه ﷺ، لا يتعدى ذلك بالقياس إلا في المواضع التي علق ﷺ الحكم بعلّة نصّاً منه عليه السلام، أو مشاراً إليها على نحو ما تكلم الفقهاء في أنواع العلة الشرعية، وتعداد أنواعها، على ما هو مذكور في كتبهم. وما لا يفهم له علة فيقتصر الحكم فيه على ما نطق ﷺ به في مثل هذا الموضع وما أشبهه.

(والوجه الآخر) لأن هذا منه ﷺ رخصة لأمته، والرخص لا يقاس عليها، ولا يتعدى محلها. ونص بعض الفقهاء أنه إذا كان للمرء ميتة، وله علج أو كلب لصيد، أو ما يجوز اقتناؤه، أنه لا يعطيه الميتة، ولا يأمر العلج بأكلها، فإن ذلك من جملة أنواع الانتفاع بها. وإنما يمرر العلج أو الكلب على موضع الجيفة، فإن هما تصرَّفا فيها من تلقاء أنفسهما فلا بأس، وإلا فلا يرشدهما إلى ذلك، ولا يأمرهما به.

وأما الجواب على البحث الذي معنا: هل نقيس على الإهاب غيره من أنواع النجاسات أم لا؟ فالجواب عليه كالجواب على البحث قبل، وأيضاً فلا قائل بذلك من الفقهاء.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



ـ ٢٢٠ ـ

حديث الأمر بطرح الطعام المتنجس

عَن مَيمونَةَ[١]، رَضي الله عَنها، أنَّ فأرَةً وَقَعت في سَمْنٍ فَماتَت، فَسُئِل النَّبيُّ ﷺ عَنها فَقـالَ: أَلقُوها وَما حَولَهـا وَكُلُوهُ.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على تنجيس الموضع الذي ماتت فيه الفأرة من السمن، وطرحه معها. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل يتعدى الحكم في كل الأطعمة؟ وفي كل الميتات من جميع الحيوان؟ وكذلك ما عداهم[٢] من جميع النجاسات؟ وهل يكون حكم الجامد من الطعام كحكم المائع؟ وهل يكون طول مقام الشيء النجس من جيفة أو غيرها في الطعام الذي وقعت فيه بالسواء من قرب الزمان في ذلك أو بعده؟ وهل يجوز الانتفاع به فيما دون الأكل؟ وهل يمكن تطهير ما وقعت فيه من طعام أم لا؟

أما قولنا: هل يتعدى الحكم إلى جميع الطعام ما عدا السمن أم لا؟ فقد عَدَّى ذلك الفقهاء لوجود العلة، وهي تنجيس موضع حلول الميتة، ولا فرق أن يكون سمناً أو غيره إذا كان طعاماً جامداً، فإن كان مائعاً فلا يخلو أن يكون ماء أو غيره، فإن كان ماءً فلا يخلو أن يكون جارياً أو راكداً، وتفصيل هذا في كتب الفروع، وأما إن كان طعاماً مائعاً فهو نجس.

وأما قولنا: هل ذلك في كل الميتات في أيِّ نوع كانت من الحيوانات؟ فالجواب: أنه لا فرق بين موت الفأرة في ذلك أو غيرها من جميع الحيوان الذي له نفس سائلة، ولا يؤكل إلا بذكاة، لوجود العلة فيه، وهي كونه جيفة. وأما ما عدا الميتة من أي نوع كانت ـ كما ذكرنا قبل من أنواع

---

(١) تقدمت ترجمتها في الحديث ١٩٨.

(٢) كذا بضمير جماعة العقلاء.

النجاسات ـ فلا فرق بينها وبين الميتة إذا كانت جامدة باردة في جميع أحكامها، فإن كانت سائلة باردة أو حارة فتنريع الحكم فيها في كتب الفروع أيضاً.

وأما قولنا: هل حكم الجامد من الطعام الذي وقعت فيه الميتة كحكم المائع؟ فالجواب: أنه ليس حكم الجامد كالمائع، فإن المائع من حين وقوع الميتة فيه أو الشيء النجس يتنجس جميعه، فيطرح جميعه ما عدا الماء فيه تقسيم، كما هو في كتب الفروع أيضاً.

وأما قولنا: هل طول مكث الميتة سواء مع قربه أو بعده؟ فقد اختلف العلماء في ذلك، وليس في الحديث من أين يستدل عليه؟ بل هي نظرية. فمن العلماء من جعل الحكم واحداً، ومنهم من قال: إذا طال مكثها في الطعام طرح جميعه، ومنهم من فرق في ذلك بحسب الأزمنة. فإن كان زمان الحر طرحت وجميع الطعام، وإن كان زمان البرد طرحت وما حولها. ومنهم من فرّق بين كبر الإناء الذي وقعت فيه من صغره، وفي طول الزمان الذي يطلق عليه هذا الحكم مع صغر الدابة وكبرها، وذلك كله مستوعب في كتب الفقه. وهذا البحث في الطعام الجامد. وأما المائع فكما تقدم الكلام فيه. وحكم النجاسة كما ذكرنا في الميتة سواء.

وأما قولنا: هل يجوز الانتفاع بالشيء الذي وقعت فيه الميتة أو الشيء النجس من الطعام؟ فظاهر الحديث محتمل، لكن الأظهر عدم الانتفاع ـ والله أعلم ـ وفي ذلك بين العلماء خلاف وهذه أيضاً نظارية.

وأما قولنا: هل يصح تطهير ما وقعت فيه الميتة من الطعام؟ فالجواب: أنه لا يخلو أن يكون دهناً أو غيره، فإن كان دهناً ففي تطهيره بين العلماء خلاف، وهي مسألة نظرية أيضاً. وما عدا الدهن من الطعام الجامد فلا يخلو أن يكون مطبوخاً، أو مملحاً، أو على غير هذين النوعين. فللعلماء فيه ثلاثة أقوال بتطهيره وعدمه.

والثالث هو أن يكون قد استوى في توفية طبخه ونضجه في الملح ولم يقبل زيادة في ذلك. فإن كان استوى فإنه يغسل ويؤكل، فإنما تنجس ظاهره، ولم تدخل النجاسة باطنه. وإن كان لم يستوِ نضجه فلا يتطهر ويطرح، فإن النجاسة دخلت باطنه لأنه يجذب من الخارج إلى الباطن. والذين قالوا بغسله وتطهيره يقولون: إنه يغسل أولاً بماء حار، ثم ثانية ببارد، ثم ثالثة بحار، ثم ببارد. فإن كان على غير هذه الصفة فلا يطهر. وأما ما عدا هذين النوعين فكما هو مذكور في كتب الفقه.

وفيه دليل على ألا يتصرف إلا بعلم. يؤخذ ذلك من كونهم لم يتصرفوا في السمن ولا في نزع الفأرة منه إلا بعدما سألوا رسول الله ﷺ وهو، عليه السلام، الأصل. وقد اختلف العلماء فيمن عمل عملاً بغير علم، ووافق عمله لسان العلم، هل يكون مأجوراً أو مأثوماً؟ على ثلاثة أقوال، وقد ذكرناها في أول الكتاب.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٢١ ـ
حديث بيان وقت ذبح الأضحية

عَنِ البراءِ[1]، بنِ عازِبٍ رَضي الله، عَنهُ قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: إنَّ أَوَّلَ ما نَبدَأُ بِهِ في يَومِنا هَذا أن نُصلّيَ ثُمَّ نَرجِعَ فَننحرَ. مَن فَعلَهُ فَقَد أصابَ سُنَّتَنا. وَمَن ذَبَحَ قَبلُ فإنَّما هُوَ لَحم قَدَّمَهُ لأهلِه، لَيسَ مِنَ النُّسُكِ في شيءٍ.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على أن السنة في يوم الأضحى تقديم الصلاة قبل الذبح، ومن ذبح قبل الصلاة فإنه لحم ليس بنسك. والكلام عليه من وجوه:

منها: التأكيد في صلاة العيد. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي)، فجعلها، عليه السلام، مفتاح الأعمال في ذلك اليوم. وهل هي فرض أو سنة؟ قولان للعلماء في ذلك.

ومنها: التأكيد في شأن الأضحية. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، بعد ما قال: (نصلي ثم نرجع فننحر)، ثم زادها، عليه السلام، تأكيداً بقوله (من فعله فقد أصاب سنتنا)، وقد اختلف العلماء هل هي فرض أو سنة؟ على قولين. والذي قال منهم بأنها سنة هي عنده من آكد السنن، ويزيد ذلك تأكيداً قوله، عليه السلام، في حديث غيره (ما عمل آدمي عملاً يوم النحر أعظم من إراقة دم)[2].

وفيه دليل على أن النية، وإن كانت حسنة، والعمل الذي يعمل بها لا يصحان إلا إذا كانا

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٦٦ و٩٢.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق دم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً.

موافقين للسان العلم. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله). ويزيد ذلك بياناً قوله عليه السلام: (من أحدث في أمرنا ما ليس فيه فهو رد)[١]، وقوله عليه السلام: (إن الله لا يقبل عمل امرىء حتى يتقنه. قيل يا رسول الله، وما إتقانه؟ قال: يخلصه من الرياء والبدعة)[٢]. فتخليصه من الرياء أن يكون لله خالصاً لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[٣] وتخليصه من البدعة أن يكون على نحو ما أمر ﷺ به لقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٤].

وفيه دليل على أن اتباع الصحابة، رضي الله عنهم، هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، لم يترك لهم شيئاً من الأعمال إلا بيَّنَهُ لهم، وحملهم فيه على سنته الواضحة مثل هذا الحديث وما يشبهه.

ومما يؤيد هذا قوله ﷺ: (أصحابي مثل النجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)[٥]. وقد قال العلماء، رضي الله عنهم، مثل يمن بن رزق وغيره: وأنا أوصيك باتباع السنة في عملك، وآكد من ذلك اتباع السلف، فإنهم أعرف بالسنة منا. وقد قال مالك رضي الله عنه: إذا كان حديثان ووجدنا الخلفاء أو الصحابة عملوا بأحدهما دل على أن الآخر منسوخ، وإن لم يعرف النسخ. وإذا كان للحديث معنيان وعملوا بأحدهما دل على أن ذلك هو الحكم في ذلك الحديث، وأنه الظاهر من ذينك الوجهين.

وفيه دليل على جواز أكل اللحم في يوم العيد، ما عدا لحم الأضحية. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (فإنما هو لحم قدّمه لأهله)، فأجازه، عليه السلام، ولم يمنعه.

وفيه دليل على أن نفس الأضحية عبادة. يؤخذ ذلك من تسميتها نسكاً بقوله عليه السلام: (ليس من النسك في شيء) في الذي ذبح قبل الصلاة. فدل على أن الذي ذبح بعد الصلاة هو نسك، والنسك هو ما يتعبد به.

وفيه دليل على أن مخالف السنة في تعبده لا يكون له فيه من الأجر شيء. وقد جاء أن النفقة

---

(١) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) في هذا المعنى روى البيهقي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه. وفي رواية لابن النجار عن عائشة: أن يحكمه.

(٣) سورة البيّنة، الآية ٥.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ٣١.

(٥) رواه البزار وابن عدي وابن عبد البر في كتاب بيان العلم والدارقطني في غرائب مالك. وقال اللكنوي في تحفة الأخبار: طرق روايته ضعيفة ولا يلزم وصفها بكونه موضوعاً مما لا دليل عليه، نعم يرتقي إلى درجة الحسن بأسانيده المتنوعة.

على العيال مما يؤجَر عليها، وهي من جميع ما يُتنسَّك به أي: يتعبد به. وقد قال ﷺ: (إذا أنفق الرجل على عياله يحتسبها فإنها صدقة)[1]. وفي هذا الموطن منع ﷺ أن يكون في هذه الشاة التي ذبحت قبل الصلاة نسبة من التعبد بالكلية.

فإن اعترض معترض وقال: إنما عنى ﷺ هنا بقوله: (ليس من النسك في شيء) فإنما عنى بذلك الأضحية، وبقي الأجر في النفقة على ما هو عليه. فالجواب عن ذلك من وجهين:

(أحدهما) أنه لو أراد ﷺ ذلك لكان يقول: (ليس من الأضحية في شيء) لأنه أخص الأسماء بها، فإن هذا الاسم لا يشرك به مع غيرها. ولفظه (النسك) يدخل في متضمن الأضحية وغيرها من وجوه القرب المتعبد بها، فرضاً كانت أو ندباً. وهو ﷺ الذي أُعطِيَ الحِكَمَ وجَمْعَ الكلام، فكيف يترك ما هو نصّ ويأخذ ما هو محتمل إلا بحكمة أخرى، وهي ما أشرنا إليه؟

(والوجه الآخر) أن إطعامه اليوم عياله هذا اللحم على مخالفه السنة. وقد تقدم قولنا: إن العمل إذا خالف السنة لا يقبل.

(ولوجهٍ ثالثٍ) فإن معنى الحديث جاء على معنى التأكيد على اتباع السنة في هذا اليوم، وبيان الكيفية في ذلك، فمخالفه لا يكون له من الأجر شيء.

وفيه دليل على جواز تأخير الذبح في يوم النحر عن وقت الصلاة. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (ثم نرجع)، لأنه عليه السلام أتى بـ(ثم) التي تقتضي المهلة.

وفيه دليل على استغناء المولى سبحانه عن عبادة العابدين. ويؤخذ ذلك من كونه، عزّ وجلّ، شرع بمقتضى هذا الحديث ذبح الأضحية، وهي مما للنفس فيها شهوة وراحة، لأنك تأكل وتدخر وأنت في الصدقة منها بالخيار، إن تصدقت أجرت أجراً آخر، وإن لم تتصدق لم تأثم، وثبت لك أجر الأضحية بنفس الذبح، والأكل زيادة راحة لك.

وفيه دليل على عظيم لطفه، عزّ وجلّ، بعبيده ورحمته لهم. يؤخذ ذلك من كونه، عزّ وجلّ، أمرهم بذبح الأضحية، كما تقدم الكلام فيه، وجعلها في هذا اليوم من أعظم القرب إليه. ويزيد ذلك بياناً قوله عليه السلام: (فإن دماءها وشعرها وقرونها وأظلافها وبولها ورجيعها في ميزان حسناتكم يوم القيامة)، وقوله عليه السلام: (تنافسوا في أثمانها فإنها مطاياكم إلى الجنة).

وفيه دليل عظيم على ما أُعطي ﷺ من حسن البلاغة. يؤخذ ذلك من جمعه، عليه السلام، في

---

(١) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه.

الحديث الواحد والحكم الواحد بين النحر والذبح، لأنه لو ذكر ﷺ أحد الوجهين: إما النحر وإما الذبح، لكان دليلاً على ترجيحه على الآخر. فلما ذكرهما معاً على جوازهما بحسن عبارة واختصار. صلى الله عليه وسلم، وحشرنا في زمرته غير خزايا ولا ندامى بفضله ومنّه وكرمه. آمين.

والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٢٢ ـ

حديث جواز تأخير الطواف في الحج لعذر

عَن عائشةَ، رَضيَ الله عَنها، أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخلَ عَليها وَحاضَت بِسَرِفَ[1] قبلَ أن تَدخُلَ مَكَّةَ، وَهيَ تَبكي. فَقال: ما لكِ؟ أنَفِستِ[2]؟ قالَت: نَعَم. قالَ: إنَّ هذا أمر كَتَبَهُ الله على بَناتِ آدمَ، فاقضي ما يَقضي الحاجُّ، غَيرَ أن لا تَطوفي بالبَيتِ. فَلمَّا كُنَّا بِمنى أُتيتُ بِلَحمِ بقرٍ. فَقُلتُ: ما هذا؟ قالوا: ضَحَّى رَسُولُ الله ﷺ عَن أزواجِه بالبقَرِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن الحائض تفعل جميع أفعال الحج كلها إلا الطواف بالبيت، فإنها لا تفعله إلا بعد أن تطهر. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن فيه دليلاً على أن الطهارة في أركان الحج كلها كبرى كانت أو صغرى ليست بفرض، إلا الطواف بالبيت فلا يجوز إلا بطهارة وهي واجبة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (فاقضي ما يقضي الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت)، فإذا كانت بالحَدَث الأكبر تفعله فمن باب أحرى بغيره.

وفيه دليل على فضل هذه السيدة. يؤخذ ذلك من بكائها خيفة أن يفوتها الحج، وذلك بعذر رباني لا كسب لها فيه. فلولا ما كان همها كله في الدين ما كانت تبكي على هذا، وهي فيه عند الله معذورة. وكذلك كان شأن الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، ما كانت همتهم إلا في حسن دينهم، وكذلك شأن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ولذلك قال ﷺ (طوبى لمن جعل همَّه همّاً واحداً)[3]، أو كما قال عليه السلام وهو: هَمّ الدِّين.

---

(١) سَرِف: مكان قريب من مكة المكرمة على بعد عدة كيلومترات، ويقع في طريق الذاهب إلى المدينة المنورة.

(٢) نَفِسَت المرأة: ولدت، أو حاضَت.

(٣) رواه الحاكم والبيهقي وصححه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: من جعل الهم همّاً واحداً كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعّبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك.

وفيه دليل على أن يحكم على الشخص بما يعلم من حاله. يؤخذ ذلك من كون سيّدنا ﷺ، لما يعلم من دين هذه السيدة، لمّا رآها تبكي علم أنه من أجل الدين، ولا شيء في الوقت يمكن أن يُبكيها إلا النفاس، فاستفسرها على ما ظنه منها بقوله عليه السلام: (لعلك نَفِسْتِ)[1]؟

وفيه دليل على أن حال الشخص، وإن علم ما هو، فلا يحكم عليه بالقطع، وفيما يظن به حتى يستفسر عن ذلك. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (لعلك نَفِسْتِ)؟ بعدما ظن ذلك لِما يعلم منها.

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين يقولون: إن المنتهي في السلوك يكون حاله مع مولاه مثل الصبي مع أمه. كل شيء رابه بكى عليها لا يعرف غيرها، وذلك دأبه معها. يؤخذ ذلك من أنها لما جاءها ما أهمها من أمرها بكت على مولاها، ولم تذكر من ذلك للنبيّ ﷺ شيئاً حتى سألها.

وفيه دليل على بركتها وبركة بيتها، كما قال أسيد بن الحضير[2] عند نزول آية التيمم: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، ما نزل بكم شيء إلا جعل الله فيه للمسلمين فَرَجاً ومخرجاً. أو كما قال فلما أهمها ما جاءها جعل الله فيه للمسلمين فَرَجاً بأن سنّ ﷺ للمسلمين أن المرأة إذا حاضت لا يتعذر عليها من أفعال حجها شيء إلا الطواف بالبيت، ثم لا يفوتها، لأنها إذا طهرت فعلته بعد.

وفيه دليل لأهل الصوفة لأنهم يقولون: من بكى صادقاً شفعت فيه دموعه. يؤخذ ذلك مما جاءها إثر بكائها من الفَرَج لها وللمؤمنين، مما تقرر في حكم الحائض في هذا الحديث. وقد قال بعض أهل الطريق في هذا المعنى:

بالباب يبكون، والبكاء إذا	كان خَلِيّاً من النفاق نَفَع
تَشفَع فيهم دموعُهم وإذا	شُفِّع دمعُ المتيّمين شَفَع

فبينما هم حيارى من اليأس والطمع، سكارى من شراب الخوف والجزع، إذْ بزغ لهم قمر السعادة من فلك الإرادة في جوانب قلوبهم ولمع، وألبسوا من ملابس الأنس والبسط خلع، رَقْمُ العَلَمِ الأيمنِ: ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[3] ورَقْمِ العلَمِ الأيسرِ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ﴾[4].

وفيه دليل على تصبّر المصاب بحرمان القدَر. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ لها (هذا أمر كتبه الله على بنات آدم)، تعزية لها لما أصابها من الحزن على ما توقعت فواته من أمر حجها.

---

(١) كذا. والرواية: أَنَفِسْتِ.

(٢) تقدمت ترجمته في الحديث ١١٩.

(٣) سورة الأنبياء، من الآية ١٠١.

(٤) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٣.

وفيه دليل على جواز الأضحية عن أهل الرجل. يؤخذ ذلك من قولهم (ضحى رسول الله ﷺ عن أزواجه بالبقر).

وفيه دليل على جواز الأضحية بالبقر، وإن كان غيرها أفضل منها في الأضحية. يؤخذ ذلك من كون النبيّ ﷺ ضحّى بها عن أزواجه، صلوات الله عليه ورضي عنهن.

وفي قولها حين أُتِيَ لها باللحلم: (ما هذا)؟ أن السنة ألا يأخذ أحد شيئاً ولا يأكله حتى يسأل عنه. فظاهر هذا الحديث يدل على جواز الأضحية بمنى، وليس الأمر على ظاهره، بل هو محمول عند العلماء على الهدي، وإنما ذكر الراوي الأضحية لكونها نسكاً، لأنه ليس بمنى أضحية، وإنما سنتهم الهدي، وسنة غيرهم الأضحية. يؤخذ ذلك من كون النبيّ ﷺ ضحّى هناك عن أزواجه بالبقر.

وهنا بحث: كيف ضحى رسول الله ﷺ بالبقر وهناك أفضل؟ فعلى مذهب مالك، رحمه الله، ومن تبعه: الضأن أفضل. وعلى مذهب الشافعي رحمه الله، ومن تبعه: الإبل أفضل. فترك الأفضل من الوجهين معاً؟ والجواب ـ والله أعلم ـ أنه ضحّى بالبقر عنهنّ، صلوات الله عليهم أجمعين لوجوه، منها:

أن يكنَّ هنَّ أنفسهن قد أهدين عن أنفسهن، فيكون ذلك خيراً لهنَّ، لكونه، ﷺ، قد أهدى عن نفسه المكرَّمة في تلك الحجة بمائة من الإبل، فكثَّر لهن خير الآخرة كما كثَّر لنفسه المكرمة.

واحتمل أن يكون ﷺ فعل ذلك عمّن مات منهنّ قبل الحج.

واحتمل أن يكون ﷺ أراد تقرير الحكم، بأن الأضحية بالبقر جائزة، وأن غيرها في الأضحية أفضل، وبيَّن ذلك بفعله، لأنه أثبت في الحكم. ولذلك لم يفعله عن نفسه المكرمة من أجل أن يكون دليلاً على الأفضلية، لأنه كان ﷺ في خاصة نفسه المكرمة لا يفعل إلا الأفضل.

واحتمل أن يكون ﷺ قصد بذلك التوسعة على أمته من أجل أن يكون من ليس له إلا البقر، فإذا ضحّى بها فقد وافق السنة. وقد يكون جاهلاً فيضحّي بمنى لا يعلم أن سنتهم الهَدْي، وهو الغالب اليوم على الناس فيكون قد وافق السنة. واحتمل مجموع ما تأولناه. والله أعلم.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٢٣ ـ

حديث وصيته ﷺ لأمته

عَن أبي بكرَةَ[١]، رَضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: إن الزَّمانَ قَدِ استدارَ كَهيئَتِهِ يَومَ خَلقَ الله السَّماواتِ وَالأرضَ. السَّنَةُ اثنا عَشَرَ شَهراً، مِنها أربعَةٌ حُرُم، ثَلاثٌ مُتواليات: ذو القِعدةِ، وَذو الحِجَّة، وَالمحَرَّم، وَرجبُ مُضَرَ الَّذي بينَ جُمادى وَشَعبان. أيُّ شَهر هَذا؟ قُلنا: الله وَرَسولُـهُ أعلَمُ. فَسكتَ حَتَّى ظَننا أنَّـهُ سَيُسمِّيهِ بِغيرِ اسمِهِ. قالَ: أليسَ ذا الحِجَّة؟ قُلنا: بلَى. قالَ: أيُّ بلدٍ هذا؟ قُلنا: الله وَرَسُولُهُ أعلَمُ. فَسَكَت حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيرِ اسمِهِ. قالَ: أليسَ البَلْدَةَ؟ قُلنا: بَلى. قالَ: فأيُّ يوم هَذا؟ قُلنا: الله وَرَسُولُهُ أعلَمُ. فَسَكَتَ حَتّى ظَنَنّا أنَّهُ سَيُسمِّيهِ بِغير اسمِهِ. قالَ: أليسَ يَومَ النَّحرِ؟ قلنا: بلى.

قال: فإنَّ دماءَكُم وأموالَكم ـ قالَ محمَّد[٢] وأحسبه قال: وأعراضَكم ـ عليكم حرام، كحُرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. وستلقَون ربَّكم فيسألُكم عن أعمالكم. ألا فلا تَرجِعوا بعدي ضُلاّلاً يَضرِب بعضُكم رقابَ بعضٍ. ألا لِيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، فلعل بعضَ من يَبلُغُهُ أن يكون أَوعى له من بعض مَن سَمِعه. ثم قال: ألا هل بلّغتُ؟ مرتين.

* * *

ظاهر الحديث يدل على تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بعضهم على بعض. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا على عمومه؟ ـ أعني التحريم ـ أم لا؟ فأما أن يكون على العموم من كل الجهات فلا، بدليل الكتاب والسنة.

---

(١) أبو بكرة: اسمه نفيع بن الحارث. تقدمت ترجمته في الحديث ٤٥.

(٢) هو محمد بن سيرين، أحد رجال سند هذا الحديث كما ذكر ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٧١١.

أما الكتاب فقوله تعالى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[1] فلا يذكر أحد من المسلمين أخاه المسلم بسوء إلا من ظلم ظُلامة، فله أن يذكر السوء الذي فُعِل معه، لكن بقدر ما عدا عليه، فإنه إن زاد على ذلك عاد ظالماً ثانياً، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2].

وأما السنة فقد قال ﷺ: (لا غيبة في فاسق)[3] ولها شروط: (منها) أن يكون متظاهراً بفسقه يحب أن يشهر عنه، فلا غيبة فيه إذ ذاك. ومن العلماء من قال: إنما يكون ذلك أن تذكر حال فسقه عند من يقدر أن يغيّره عليه، أو تستعين عليه في ذلك، أو تحذره منه. فأما إن كان لغير هذه الوجوه فممنوع. وتأولوا الحديث بأن قالوا معناه: ولا تغتب فاسقاً.

وقد قال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلّه إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)[4]. فإذا أخذ واحد منها بحقه فلا يتناوله التحريم، وقد قال ﷺ: (لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه)[5]. فإن كان عن طيب نفس منه فلا يتناوله التحريم. والآي والأحاديث في هذا كثيرة. فما بقي أن يكون التحريم إلا خاصاً، فهو: إذا لم يكن عليه حق من وجه من الوجوه

يا هذا: قد ثَبَتَتْ لك حُرمَة، فإن أفقتَ زادت لك الحرمة حرمةً أخرى، وهي قوله عزّ وجلّ (من أهان لي ولياً فقد آذنني بالمحاربة، وأنا أسرع إلى نصر عبدي المؤمن)[6]، وزادها تأكيداً بقوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7] فإن أتْبعتَ النفسَ هواها أذهبتَ ما لَكَ من الحرمة، وعاد مكانها محنة. أعاذنا الله من ذلك بمنّه. وقد ورد: رُبَّ مُكرِمٍ لنفسه وهو لها مُهين، ومُهينٍ لنفسه وهو لها مكرم، وقد جاء عن النبيّ ﷺ أنه كان يربط على بطنه ثلاثة أحجار من شدة الجوع والمجاهدة ثم يقول: (ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين)[8].

---

(١) سورة النساء، من الآية ١٤٨.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٩٤.

(٣) لا أصل له بهذا اللفظ، قاله في المقاصد عن العقيلي.

(٤) متواتر عن أنس وأبي هريرة وغيرهما.

(٥) رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن يثربي بلفظ: لا يحل لامرىء من مال أخيه شيء إلا بطيب نفس منه.

(٦) رواه الزبيدي في اتحاف السادة المتقين ١٠٢/٨ و ٤٧٧ و ٤٤٠/٩ وابن الجوزي في العلل المتناهية وابن عدي في الكامل في الضعفاء ١٩٣٩/٥ والألباني في السلسلة الصحيحة ١٦٤٠ بلفظ (بارزني) بدلاً من (آذنني).

(٧) سورة الروم، من الآية ٤٧.

(٨) قطعة من حديث رواه ابن سعد في الطبقات والبيهقي في الشعب عن أبي البجير ومطلعه: أصاب يوماً النبي ﷺ=

وفيه دليل على أن تسمية الشهور وعددها هو بمقتضى الحكم الرباني، لا عرفي، ولا لغوي. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض إلى قوله: وشعبان).

ومعنى قوله ﷺ: قد استدار، أي: استقر الأمر فيه ورجع مثل ما كان يوم خلق السموات والأرض، لأن العرب كانوا يحجون في كل عام شهراً، ثم ينقلونه إلى شهر ثان، ففرض الحج، وكان الحج في تلك السنة على ما ذكرنا من عادتهم في ذي القعدة. فأقام الحج بالناس في تلك السنة أبو بكر، رضي الله عنه، بأمر النبيّ ﷺ، فلما كان في سنة عشرة من الهجرة - وهي التي حج فيها رسول الله ﷺ - دار الحج على عادتهم إلى ذي الحجة، وهو الشهر الذي جعل الله فيه الحج يوم خلق السماوات والأرض، وفيه حَجَّ إبراهيم وجميع الأنبياء، عليهم السلام، فلذلك قال عليه السلام: (قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض) أي على وضعه الذي اقتضته الحكمة الربانية عند خلق السماوات والأرض.

وفيه دليل على أن دوران الأشهر يسمى: زماناً. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (الزمان قد استدار) وهي الأشهر كما ذكرنا.

وقوله عليه السلام (حُرُم) أي جعل لها حرمة ليست لغيرها. وفائدة الإخبار لنا بتلك الحرمة أن نحترمها بتعميرها بالطاعات، وترك المخالفات، يشهد لذلك قوله، عزّ وجلّ، في كتابه ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

وهنا بحث وهو أن يقال: ما الحكمة في أن جعلت على هذا الوضع مفرقة تفريقاً مختلفاً في الموضع، وجعلت في آخر السنة أكثر من أول السنة؟ هل هذان البحثان تعبّد لا يعقل لهما معنى، أولهما معنى معقول من جهة الحكمة؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث، وما ندبنا إلا للبحث والاعتبار. وإن قلنا: لحكمة فما هي؟ فنقول، والله أعلم: في البحث الأول وهو: كون رمضان لم يسمَّ بهذه التسمية[2] وفيه من الخير العظيم ما هو فيه، بحيث لا يخفى، وما جاء فيه من الأجر قد عرف، ولو لم يكن فيه إلا قوله ﷺ (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما بينه وما بين رمضان)[3] وكونُ أول ليلة منه تفتح أبواب الجنان وتغلق أبواب النيران وتصفد الشياطين[4].

= جوع فوضع على بطنه حجراً ثم قال: ألا يا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة إلخ.

(١) سورة التوبة، من الآية ٣٦.

(٢) أي تسمية الأشهر الحرم.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وليس في الحديث (غفر له ما بينه وبين رمضان).

(٤) رواه الشيخان بلفظ: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار إلخ... وفيه: وصفدت الشياطين.

وذلك أن الفرق بينهم[١] حرمة رمضان من أجل العمل الخاص به وهو الصوم، وحرمة هؤلاء منّة من الله تعالى وتفضل بغير شيء يوجب ذلك. والله، عزّ وجلّ، يتفضل على من يشاء من عباده، حيواناً كان أو جماداً بسبب أو بغير سبب، لحكمة أو غيرها، لا يعلمها إلا هو عزّ وجلّ، لكن إن اتبعتها بمقتضى أدلة الشرع تجدها رحمة لنا وتفضلاً علينا، لأنك تجد كل شيء فضّله المولى سبحانه من الزمان والمكان والقول والجماد أو أي شيء كان من جميع المخلوقات تجد الفائدة في ذلك تعود علينا، وهو الغني المستغني. ومما يؤكد هذا قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

ومنها ما جاء بتضعيف الأجر بنص الشارع، عليه السلام، في الأعمال التي في الأزمنة المعظمة، والأمكنة المحترمة، والجمادات المباركة. فالنص في كل واحد منها مثل قوله ﷺ في الحجر الأسود (إنه يمين الله في الأرض، يشهد يوم القيامة لمن يستلمه)[٣]، ومثل صوم يوم عاشوراء يكفّر السنة[٤]، إلى غير ذلك، إذا تتبّعته تجد الخير كله في ذلك بفضل الله علينا. جعلنا الله ممن سعد بذلك في الدارين عنه.

وأما الجواب عن البحث الثاني فهو: كونه، عزّ وجلّ، وضعها على هذا الوضع. فأما من طريق حكمة النظام، فإن الأفخر من الأشياء يُزَيَّن به أولُ النظام ووسَطُه وآخرُه. فلما نظمت القدرة دُرَرَ الأشهر في سلك الاجتماع جعلت استفتاح النظام بشهر حرام، ووسطه بشهر حرام ـ وهو رجب ـ ثم ثالثهما في مناظرة الحسن: شهر رمضان. وفصل بينهما بدرَّة شهر شعبان الذي فيه فهم سيدّنا ﷺ نَظْم القدرة في الأشهر، فزاد وسَطها حسناً بترفيع شعبان بكثرة الصوم فيه لقول عائشة رضي الله عنها (ما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قَطّ إلا رمضان، ولا رأيت أكثر صوماً منه في شعبان)[٥] حتى أضيف الشهر إليه، عليه السلام، فقيل: (شهر نبيكم شعبان)، فجاءت حرمته محمدية وسط حرمتين ربانيتين: شعبان شهر محمّد عليه السلام، ورجب ورمضان شهران ربانيان، فحَسُن النظام واستنار. وكذلك كانت سابقة الإرادة فيه، ولم يظهر لنا إلا عند بروزها في الوجود. وفي ذلك دلالة على علو قدره ﷺ، لأنه ما نجد شيئاً رفعته القدرة إلا ومن جنسه ما رفعته السنة المحمدية، حتى يكون له، عليه السلام، خصوص في أبرع حال من جميع الترفيعات. وختم آخر نظام السنة بشهرين حرامين.

---

(١) أي: بين رمضان والأشهر الحرم... والصواب: بينها.
(٢) سورة الجاثية، الآية ١٣.
(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه الحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
(٤) رواه مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: يكفر السنة الماضية.
(٥) رواه الشيخان، وللحديث ألفاظ وروايات كثيرة.

وفي تفضيل آخر السنة بأن كان فيه شهران حرامان وجوه من الحكمة، (منها) أن الختام له أبداً علم زائد بمقتضى الحكمة الربانية قال تعالى ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾[1] وقال عليه السلام (الأعمال بخواتمها)[2]. فإذا حسنت الخاتمة حسن الكل وزاد حسناً على حسن، وإن كان الكل حسناً فزيادة حسن الآخر إبلاغ في الحسن وإشارة لترفيعه ﷺ. لما أن كان عليه، السلام، خاتم الأنبياء ـ وهو سيّدهم ـ جعل نظام الأشياء على شبه نظام أشخاص الأنبياء، عليهم السلام، ترتيباً متناسباً. حكمة عظيمة أبدع فيما أحكم، وأحكم فيما أبدع.

وفيه إشارة إلى اللطف منه، جلّ جلاله، بعباده، لأنه من غفل أو كان له عذر في السنة كلها جعل له في آخرها تكثير في عدد ذوي الحرمة، لعله يحصل له حرمة. فيا لله ما أحسن نظمه، سبحانه، وأكثر فضله وأتم على من غَفَل عن نعمته!

وفي قوله ﷺ: (أي شهر، وأي بلد، وأي يوم) وجوه من الفقه والأدب والحكمة. فمنها أن اجتماع من له حرمة تأكيد في الحرمة، وأنه لا تسقط حرمة أحد حرمة غيره. يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام بعدُ ما[3] بين تأكيد حرمة الدماء وما ذكر معها، فدل على تأكيد حرمة اجتماع حرمة الشهر والبلد واليوم، فأبقى لكل ذي حرمة حرمته في الزمن الفرد.

وفيه من الأدب أن السيد إذا سأل، أو العالم إذا سأل عما قد علم، يُرَدّ الأمر في ذلك إليه، لأنه لا يَسأل عن ذلك عبثاً، وإنما يسأل لحكمة لا يعلمها المسؤول. يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم (الله ورسوله أعلم)، وهم عالمون بما سألهم عنه، فظهرت بعدُ الحكمةُ التي من أجلها سألهم عن ذلك ـ وهي: تأكيد الحرمة ـ بخلاف ما إذا سأل عن شيء يجهله كثير من الناس، فمن النبل إصابة المقصود والإفصاح به. مثل قوله ﷺ (أي شيء من الشجر يشبه المؤمن)؟ فوقع الناس في شجر البادية، قال عبدالله بن عمر: فوقع في قلبي أنها النخلة. فاستحييت أن أتكلم. فقال رسول الله ﷺ: هي النخلة. فقلت بعد ذلك لأبي: وقع في نفسي أنها النخلة. فقال عمر: وَدِدتُ لو قلتها[4]، لأن المقصود من هذا الاختبار جودة الخواطر، وحدة القرائح. فإذا جاوب بما يصلح في ذلك سرّ به السائل. ومن أجل ذلك قال عمر لابنه تلك المقالة، لأنه إذا قال ما يعجب رسول الله ﷺ فهي النعمة الكبرى، وقد يحصل له منه دعوة حسنة، فيزداد الخير خيراً.

---

(١) سورة المطففين، من الآية ٢٦.

(٢) رواه البخاري عن سهل بن سعد ضمن حديث فيه قصة، ورواه الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه وابن حبان عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: إنما الأعمال بالخواتيم.

(٣) ما: زائدة.

(٤) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيه من الحكمة أن يمثل ما لا يعرف قدره بما يعرف قدره، حتى يحصل للسامع معرفة الفائدة التي قصد أن يفهمها. يؤخذ ذلك من أنه لما أراد سيّدنا ﷺ أن يخبرهم عن عظيم حرمة الدماء والأموال والأعراض مثّل ذلك لهم بجمع حرمة هذه الثلاثة أشياء التي كانوا يعرفون حرمتها.

وفيه من الفقه: أن الأشياء إذا كان الحكم واحداً ـ وإن كثرت ـ أن من الفصاحة جمعها بتعدادها وأسمائها، ويذكر الحكم مفرداً، لأنها ـ وإن كثرت ـ كالشيء الواحد. يؤخذ ذلك من جمعه، عليه السلام، تلك المحرمات الثلاث، وفي سكوته، عليه السلام، بعد قولهم: الله ورسوله أعلم، استدعاء لجلب القلوب لما يلقى إليها بعد، ودلالة على الوقار، وهو من الشيم المحمودة. وفي ذكره، عليه السلام، هذه المواطن ـ وهو، عليه السلام، قد بينها في غير ما حديث ـ دلالة على عظيم الأجر فيها لمن احترمها، وعظم الوزر على فاعل شيء من المحظور فيها.

وفيه دليل على وجوب تبليغ العلم ونشره. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (ألا ليبلغ الشاهد الغائب). ومما يقوي ذلك قوله عليه السلام (طلب العلم فرض على كل مسلم)(١)، وقوله عليه السلام: (إن الله لما أخذ العهد على الجهال أن يتعلموا أخذ العهد على العلماء أن يعلّموا) أو كما قال عليه السلام. وقد قال ﷺ (إذا ظهرت الفتن وشتم أصحابي فمن كان عنده علم فكتمه فهو كجاحد ما أنزل الله على محمّد)(٢) وقال الله تعالى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾(٣) وهذا العلم الذي هو واجب نقله وتعليمه هو علم الكتاب والسنة اللذين هما الثقلان الذي أخبر الصادق ﷺ بقوله (لن تضِلوا ما تمسكتم بهما)(٤)، والآي والأحاديث في هذا كثيرة لمن تتبعها وفهمها.

وفيه دليل على أن الخير في السلف الأول كثير، وأنه في الآخر قليل، وقد عاد أقل من القليل. فإنّا لله وإنا إليه راجعون. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (لعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه) فجعل الرجاء في البعض مِمّن يبلغه في الواعي له، وذلك هو الخير،

---

(١) رواه ابن عدي والبيهقي وابن عبد البر وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه والطبراني في الأوسط والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الديلمي عن معاذ رضي الله عنه بلفظ: إذا ظهرت البدع في أمتي، وشتم أصحابي، فليظهر العالم علمه، إن لم يفعلِ فعليه لعنة الله.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ١٨٧.

(٤) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد والترمذي والطبراني في الصغير ولفظه في المسند: إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليّ الحوض. وفي رواية زيد بن أرقم زيادة وهي: (فانظروا كيف تخلفوني فيهما). وفسّر ابن الأثير في النهاية كلمة (الثَّقَلَيْن) فقال: سمّاها (ثَقَلَيْن) لأن الأخذ منهما والعمل بهما ثقيل، وسمّاهما بذلك إعظاماً لشأنهما. ولهذه اللفظة معنى آخر وهو: الإنس والجنّ.

كما جعل عدم الخير الذي هو ترك الوعي في الأقل ممّن سمعه، وجعل، عليه السلام، تفضيل من يوعاه[١] في الأجر، ـ وإن بَعُدَ ـ على بعض من سمعه ولم يَوْعَه[٢] ـ هم الأقل.

وفيه دليل على أنه ليس الفائدة في العلم نفسه، وإنما الفائدة في العمل به الذي كَنَى عنه بالوعي، لأن العلماء قالوا معنى (أوعى له) أي: أعمل به. ومما يقوي ذلك قوله عليه السلام: (اتقوا العالم الفاسق، والعابد الجاهل، فإنهما مضلة للمضلين) أو كما قال عليه السلام.

وفي قوله ﷺ (اللهم اشْهَدْ: مرتين) هنا بحث: لم جعلها مرتين، ولم يجعلها ثلاثاً على عادته ﷺ في الأمور التي لها بال؟ وما الحكمة في قوله (اشهَدْ) فإنما جعلها اثنتين ولم يجعلها أكثر؟ فإنه ﷺ نَحَا بها منحى الشهادة، بأن قطع بحقوق قد تكون بشاهدَين، فهذه شهادتان.

وأما الحكمة في قوله ذلك، وهو يعلم أنه شاهد ويعلم بذلك، لوجوه «منها»: الفائدة في الإعذار والإنذار «ومنها»: مواقفه حكمة الكتاب العزيز، فإن الله عزّ وجلّ يقول فيه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[٣] لأن إعلامه، عزّ وجلّ، بأنه يعلم إنه لرسوله شهادة له برسالته، أو تحقيق لها؛ فأراد رسول الله ﷺ أن يَشْهَد له بالتبليغ كما يَشْهَد له بالرسالة.

وفيه دليل على أن من رفع له قدر فهو في امتثال الأوامر أشد من غيره، رداً على بعض الذين يدّعون الأحوال، ويقولون: قد سقطت عنهم الأعمال، لأنهم في الحضرة، وهذا هذيان وخبال عارض في الدماغ. يؤخذ ذلك من توفيته، عليه السلام، في الإبلاغ والإنذار.

وهنا إشارة وهي: إذا كان هذا السيّد ﷺ قد غُفِر له ما تَقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وطُبع على الرحمة والشفقة، حتى، إنه عليه السلام، في المواضع المهولة يُقدِّم حقَّ أمته على نفسه المكرَّمة، لِعِظَم ما طُبع ﷺ عليه من الرحمة، وجاء، عليه السلام، في هذا الموطن الذي هو موطن الوداع، أجمَلَ[٤] لهم في الإنذار والتبيين ما قد صرح لهم في جميع مدة صحبته لهم، ثم بعد ذلك رجع إلى النظر فيما به يخلّص نفسه المكرّمة مما كلفه الله تعالى به بقوله عليه السلام: (ألا هل بلغت)؟ لأن معناه: أني لم أترك شيئاً مما أمرتَني به إلا بلغتُه مفسَّراً ومجمَلاً. فما[٥] بالك بالكثير الأثقال منا، كيف يشتغل بغيره عن خلاص نفسه، لا سيما مع كِبَر السن، وقُربِ الحِمام؟

---

(١) كذا. وفي العبارة اضطراب. وكلمة «يوعاه» يريد: يعيه.

(٢) كذا. يريد: ولم يَعِهِ.

(٣) سورة المنافقون، من الآية ١.

(٤) هنا خبر «كان».

(٥) هنا جواب «إذا».

وفي هذا دليل على فضل أهل الطريق الذين عملوا في أمر الدنيا على الإغضاء والتجاوز عن الإخوان، وفي الدين على الشح عليه والاهتمام، حتى إنه ذكر عن بعضهم أنه شكا له أهله الجوع، فقال لهم: لأن أموت وأدخل الجنة وأنتم جياع خير عندي من أن أترككم شِباعاً وأدخل النار. وقال بعضهم: على دِينِك فَشُحَّ كما يشح صاحب الدرهم على درهمه.

وفي قوله ﷺ (وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم) إرشاد إلى تحقيق الإيمان والتحضيض على توفية جميع الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك، فجمع عليه السلام في إجماله في هذا اللفظ اليسير كل ما جاء به وشرحه في الزمان الطويل. فسبحان من أيّده بالفصاحة وحسن اختصار الكلام، والإبلاغ في توفية بديع المعاني مع بديع الاختصار. وقد قال أهل البلاغة في الكلام: إن البليغ يطوّل لِيُبيِّن، ويختَصِرُ ليُحفَظ. وقد أتى ﷺ في هذين الوجهين بأتم مراد وأحسن مَساق، ولا يعرف ذلك إلا من عرف سُنَّته وتَتَبَّعَها.

وفيه إشارة إلى التخويف والترهيب. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (فيسألكم عن أعمالكم). فإذا كان الحاكم العدل يسأل المقصِّرَ المسكين فأي تهديد أكبر منه لمن عقل؟ وهو، عزّ وجلّ، يقول في محكم التنزيل ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1] وقال تعالى ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ . وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[2].

ومن أكبر[3] الدلالة على أن كلامه، عليه السلام، بتأييد من الله تعالى وإلهام منه، وقد قال ذلك جماعة من العلماء في معنى قوله تعالى ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[4] فقالوا معنى (أراه) أي (ألهمه) فهو وحي إلهام. فالجميع من عند الله تعالى إما وحي بواسطة الملك، وإما وحي إلهام.

يشهد لذلك أنك إذا تأملت كلامه ﷺ تجده حذو الكتاب العزيز ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[5] مثل كلامه عليه السلام الذي نبهنا عليه آنفاً كيف هو صيغته صيغة الإخبار، وضمنه أكبر التهديد، كقول الله جلّ جلاله ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾[6] ظاهره الإباحة وفي ضمنه عظيم التخويف والتهديد.

---

(١) سورة الأنبياء، من الآية ٤٧ .
(٢) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.
(٣) المبتدأ الذي يتعلق به الجار والمجرور مفقود.
(٤) سورة النساء، من الآية ١٠٥ .
(٥) سورة النساء، من الآية ٨٢.
(٦) سورة الملك، من الآية ١٥ .

يؤخذ ذلك من أنه، عزّ وجلّ، قال في كتابه العزيز ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[1] وقال عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2] إلى غير ذلك من الأحكام الذي بينها، عزّ وجلّ، لنا كيف نتصرف بها في المشي وغيره بمتضمن قوله تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[3] ثم أباح، عزّ وجلّ، لنا المشي في مناكبها بعد التبيين والتعليم حتى لا يبقى لأحد حجة، ثم ختم الآية بقوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[4] فيعرفكم كيف كان مشيكم من حسن أو قبيح. فإنه أخبرك بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[5] وبقوله تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[6] وبقوله عزّ وجلّ ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾[7] أي كل ما كتبته عليك حاضر. فانظر لم نغادر منه شيئاً. فحسبك حالك إن عنيت به، فالأمر والله عظيم.

وقوله عليه السلام: (لا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض). (هنا بحث) هل يكون على ظاهره، فيكون حسيّاً، أو يكون معنوياً، أو المجموع؟ احتمل. والأظهر ـ والله أعلم ـ أنه المجموع، فإنه مناسب لوضع الحديث، لأنه أجمل ما قد فسّره وبيّنه فهماً بيّناً. فالمحسوس منه على ظاهره، مثل قوله عليه السلام: (حتى يكون بعضكم يسبي بعضاً وبعضكم يقتل بعضاً)[8]. وقد قال ﷺ (لا تقوم الساعة حتى لا يعرف المقتول قُتِلَ ولا القاتل قَتَلَ)[9] أو كما قال. والأحاديث فيه كثيرة متنوعة.

وأما في المعنى فمثل قوله عليه السلام: ((قطعتم ظهر الرجل)[10] حين مدحوه في وجهه.

---

(١) سورة الإسراء، من الآية ٣٧.
(٢) سورة لقمان، من الآية ١٨.
(٣) سورة الأنعام، من الآية ٣٨.
(٤) سورة الملك، من الآية ١٥.
(٥) سورة يونس، من الآية ٦١.
(٦) سورة ق، الآية ١٨.
(٧) سورة ق، الآية ٢٣.
(٨) قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد ومسلم في الفتن وأشراط الساعة والترمذي عن ثوبان رضي الله عنه وأوله: إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها... وفي آخر الحديث وإن ربّي قال لي: يا محمد، إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يُردّ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً سوى من أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً.
(٩) رواه مسلم في الفتن عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: ليأتيَن على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل، ولا يدري المقتول في أي شيء قُتل. قيل: وكيف ذلك؟ قال: الهرج، القاتل والمقتول في النار.
(١٠) رواه الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة فقال: أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل.

ومثل قوله عليه السلام: (لا يسب الرجل أباه. قالوا: وكيف يسب الرجل أباه؟ فقال ﷺ: يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه)[1]. وأي قطع عنق أكبر من العقوق؟ وهذا النوع أيضاً في الآثار كثيرة وأنواعه متعددة.

ومعنى قوله عليه السلام: (ضلاّلاً) خارجين عن الطريقة المحمّدية. جعلنا الله من خير أهلها بمنّه.

وفيه دليل على أن الرجوع إلى الضلالة في حياته، عليه السلام، مستحيل. يؤخذ ذلك من قوله (بعدي). ومما يقوي ذلك قوله، عليه السلام، في حديث الشفاعة حين يقال له: إنهم قد بدلوا بعدك. فيقول (فَسُحْقاً فَسُحْقاً فَسُحْقاً)[2]. عافانا الله من ذلك بمنّه وكرمه.

نفسك بالعلم فزينها إن كنت عاملا وإن خالفته قد شنتها به عاجلاً وآجلا

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه؟ قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه.

(٢) رواه البخاري في الرقاق ومسلم في الفضائل عن سهل بن سعد رضي الله عنه ولفظه: أنا فَرَطُكم على الحوض، من وَرَد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، وليَرِدَنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم فيقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً لمن بدّل بعدي. وفي الباب عدة روايات عن عدد من الصحابة.

ـ ٢٢٤ ـ

حديث جواز الشرب قائماً

عَن عَلي، رَضي الله، عَنهُ أَنَّهُ أُتي عَلى باب الرَّحَبةِ[١] بماءٍ، فَشَربَ قائِماً، فَقالَ: إنَّ ناساً يَـكرهُ أحَدُهُم أن يَشربَ وَهُوَ قائِم، وإنّي رَأيتُ النَّبيَّ ﷺ فَعَلَ كَما رَأيتُموني فَعلتُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على جواز الشرب قائماً. والكلام عليه من وجوه:

منها: أنه ينبغي للعالم إذا رأى شيئاً ينكره الناس ـ وهو جائز في السنة ـ أن يبين ذلك ويوضحه بالفعل والقول. يؤخذ ذلك من فعل علي، رضي الله عنه، ما هو نص الحديث.

وفيه دليل على أن عليه أن يبالغ في التعليم ما أمكنه. يؤخذ ذلك من فعل علي، رضي الله عنه، وقوله، لأنه لم يكتف إلا بمجموعهما، وذلك هو الغاية في التعليم. ويؤخذ منه أنه ينبغي للعالم عند ظهور البدع أن يعلّم قبل أن يُسأل، لأن علياً، رضي الله عنه، فعل ذلك قبل أن يسأل، وهو أحد الخلفاء الذين قال ﷺ في حقهم (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ)[٢] أو كما قال عليه السلام.

وفيه دليل على اتباعه رضي الله عنه، في التعليم سنة رسول الله ﷺ. يؤخذ ذلك من قوله: (إن ناساً يكره أحدهم أن يشرب وهو قائم) ولم يسمّ أحداً، وكذلك كانت عادة رسول الله ﷺ إذا قيل له

---

(١) الرَّحَبَة: المكان المتَّسع. والرحبة المقصودة: رَحَبَة الكوفة بدليل الحديث الذي رواه البخاري عن النَّزّال بن سَبْرة أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أُتِي بماء فشرب وغسل وجهه ويديه ـ وذكر رأسه ورجليه ـ ثم قام فشرب فضلَه وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن النبيّ ﷺ صنع مثلما صنعتُ. ويسمي ياقوت في معجم البلدان هذه الرحبة باسم (رحبة خُنَيْس).

(٢) قطعة من حديث رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن أبي نُجَيْح العِرباض بن سارية، رضي الله عنه، ومطلعه: وَعَظَنا رسول الله ﷺ موعظة وَجِلَت منها القلوب وذرفت منها العيون... إلخ.

عن أحد شيئاً لا يعجبه يقول (ما بال أقوام يقولون كذا، أو يفعلون كذا)[١] ولا يسمّي أحداً. وهذه العادة اليوم قد كثرت في الناس ـ أعني من أنهم يكرهون الشرب قائماً ـ حتى إن بعضهم يتغالى في ذلك، ويجعله من قبيل المحرم، وهذا مخالف لسنة النبيّ ﷺ.

وفيه دليل على أن الصحابة، رضي الله عنهم، كان شأنهم اتباع رسول الله ﷺ في أفعاله وأقواله. يؤخذ ذلك من قول علي، رضي الله عنه: وإني رأيت النبيّ ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت، ولم يذكر عنه، عليه السلام، في ذلك قولاً.

وفيه دليل على أنه مهما كان من الشارع ﷺ في شيء فعلاً أو قولاً فلا مجال للعقل والرأي أن ينظر أو يجتهد، وليس له وظيفة إلا أن يتَّبع فقط، لأنه لو كان الشأن عندهم غير ذلك ما فعل عليّ، رضي الله عنه، ما نص في الحديث عندما بلغه قول من ظهر له كراهية الشرب قائماً.

ومما يؤيد هذا ما فعله معاذ بن جبل[٢] مع معاوية[٣] بالشام حين قال معاذ: قال رسول الله ﷺ. قال معاوية: الرأي عندي كيت وكيت. فقال معاذ: من يجيرني من معاوية؟ أقول: قال رسول الله ﷺ، وهو يقول: رأيي. والله لا أقيم معك في بلد. فخرج وأتى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فكتب عمر إلى معاوية أن يقف عندما قال له معاذ. وكيف لا يكون كذلك والله سبحانه، عزّ وجلّ، يقول ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٤]؟

والاتباعية ينبغي أن تكون عامة في الأقوال والأفعال. وقد مضى على ذلك أئمة الدين ومصابيح الهدى، غير أنهم اختلفوا: هل هذا واجب، أو مندوب، أو ما دل الدليل عليه على كل قضيةٍ قضية بقرينة. فمنها واجب، ومنها مندوب، ولم يقل أحد منهم بالمخالفة أصلاً، لا في فعل ولا في قول.

---

(١) رواه أبو داود عن عائشة، رضي الله عنها، ومطلعه: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول... إلخ.

(٢) تقدمت ترجمته في الحديثين ٤٣ و١٣٧.

(٣) معاوية بن أبي سفيان: مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب، كان فصيحاً حليماً وقوراً. ولد بمكة وأسلم يوم فتحها، وتعلم الكتابة والحساب، فجعله الرسول ﷺ في كتّابه للوحي، فتح أيام الصديق مدينة صيداء وعرقة وبيروت، وولاه عمر على الأردن ثم على دمشق، وفي أيام عثمان جمع له إمرة الشام كلها، وعزله علي فور توليه الخلافة، وحدثت بينهما حروب. له في كتب الحديث ١٣٠ حديثاً. وهو أحد عظماء الإسلام، بلغت فتوحاته المحيط الأطلسي، وفتحت مصر في أيامه، وكثير من جزائر يونان والدردنيل وحاصر القسطنطينية براً وبحراً. وهو أول من جعل دمشق مقر الخلافة. وقد دعا له رسول الله ﷺ فقال: اللهم مكّن به ومكّن له في الأرض.. أو ما في معناه.. ومما يشرفه أنه أحد كتبة الوحي، وهو الميزان في حب الصحابة ومفتاح الصحابة. سئل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أيما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لَغُبارٌ لحق بأنفِ جواد معاوية بين يدي رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأماتنا على محبته.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ٣١.

ولكثرة ملاحظة أهل السلوك هذا الشأن سادوا على غيرهم، وبلغوا المنازل المنيفة. وقد ذكر عن بعضهم أنه طرقه خوف من واقعةٍ وقعت في الوجود بعدما امتثل فيها السنة، فقيل له في إحدى مخاطباته على عاداتهم التي عوّدهم مولاهم: أتفزع ونحن قد أعطيناك علم الأمان؟ قال: وما علم الأمان؟ قيل له: قد هديناك إلى اتباع السنة. فهناك سَكَنَ ما كان وجده من الخوف، ولم يلق في تلك النازلة إلا كل خير ونعمة. فالشأن لمن أريد به الخير الصدق مع الله تعالى، واتباع السنة المحمّدية. جعلنا الله من أهل هذا الشأن في الدارين بمنّه وفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٢٥ ـ

حديث النهي عن الشرب من فم السقاء

عَن أبي هُريرَةَ، رَضيَ اللهُ عَنهُ، قالَ: نَهى النَّبيُّ ﷺ عَنِ الشُّربِ مِن فَمِ السِّقاءِ وَالقِربةِ، وَأن يَمنعَ الرَّجُلُ جارَهُ أن يَغرِزَ خَشبَةً في جِدارِهِ.

✽ ✽ ✽

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) المنع من أن يشرب أحد من فم السقاء والقِربة، (والثاني) أن يمنع[1] أحد جاره أن يغرز خشبة في جداره. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال هل منعه، عليه السلام، عن الشرب من فم السقاء والقربة، هل هو عام على أي وجه كان، أو لا؟ وهل النهي نهي كراهية أو تحريم؟ وهل ذلك معقول المعنى أو لا؟ وهل يتعدى منعه إلى غير السقاء والقربة أو لا؟ وهل إباحة الجدار للجار لغرز الخشبة هو على الوجوب أو الندب؟ وهل ذلك على كل حال أو في بعض الأحوال دون بعض؟

أما قولنا: عن الشرب من فم السقاء والقربة هل هو عام أو لا؟ ظاهر اللفظ محتمل، لكن الناس اختلفوا في تأويله، فمنهم من جعله عاماً على أي وجه كان، ومنهم من قال: إنه إذا جعل فم السقاء والقربة موضوعاً في الأرض كأنه القصعة، وتناول منه الشرب فليست تلك الصفة بمنهي عنها، وإنما النهي أن يصب الماء في حلقه ولا ينظر ما فيه، ولا يقدر أن يقطع الشرب.

وأما قولنا: هل النهي على الكراهية أو التحريم؟ احتمل. لكن إذا كانت العلة معقولة المعنى فيكون بحسب مقتضى العلة، فإن لم تعرف العلة فحينئذ يبقى الأمر فيه محتملاً الوجهين.

ويبقى فيه بحث آخر: هل النهي يدل على فساد المنهي عنه، فالذي يشرب يشرب حراماً؟ وإن قلنا: إن النهي لا يدل على فساد المنهي عنه يكون متشابهاً، هل هو حرام أو مكروه؟ موضع خلاف. ويبقى فعله ذلك على أحد الاحتمالين: إما أن يكون حراماً فيكون آثماً، وإما أن يكون مكروهاً فيكون غير آثم.

---

(١) أي: المنع من أن يمنع.

وأما قولنا: هل ذلك معقول المعنى أو لا؟ ظاهر اللفظ لا يتحقق منه شيء من ذلك. لكن قد قال بعض الناس: إن ذلك معقول، وهو خيفة أن يكون في الوعاء حيوان، فينزل مع الماء في جوفه، وقد وقع للناس من ذلك وقائع فتعبوا بها كثيراً. منها أنه قد ذكر أن رجلاً شرب الماء كذلك، وكان في الماء ثعبان صغير، فابتلعه مع الماء، فحصل له منه ضرر كثير. وقد يكون أيضاً في الماء علق فيبلعه، فيتأذى. وقد يكون الماء ينصب بمرة، فيكون سبباً لقطع العروق الضعاف التي بإزاء القلب فيكون منها موته، ومن أجل ذلك أحكمت السنة أن يكون شرب الماء مصّاً، ولا يكون عبّاً من أجل الخوف على العروق بإزاء القلب. فهنا من باب أحرى.

وقال آخرون: من أجل ما يتعلق بالسِّقاء والقِربة من رائحة الفم، وقد يكون في بعض أفواه الناس بَخَر فيعلق بالقِربة والسِّقاء منه شيء فيعافه الغير. وقيل: من أجل أن بعض الناس لا تتحمّل نفسه الشرب من فضل غيره، ويتشوش لذلك عند الشرب. وقد قيل: إن ذلك قد يعود بالفساد على الوعاء، فيكسر، فيكون من باب إضاعة المال، وهو منهيّ عنه نهي تحريم.

وبحسب هذه التعليلات تعرف النهي على أي وجه هو؟ لكن الذي يعطيه الفقه أن أمراً يكون فيه التعليل على مثل هذا الخلاف تركه أولى، لأنه لا يبعد أن يكون لمجموع ما ذكر، فيكون يجتمع فيه التحريم على وجه، والكراهية على وجه، والشأن: الأخذ بسد الذريعة التي تدل عليها قواعد الشريعة. وقد روي عن الإمام مالك، رحمه الله «ومن تبعه أن مذهبه في الأمور المحتملة الأخذ بالأشد، إبراء للذمة.

وأما السّقاء فهو: الوعاء الصغير من الجلد. والقربة: الوعاء الكبير منه.

وأما قولنا: هل يتعدى الحكم إلى غيرهما؟ فإن قلنا بعدم التعليل فلا يتعدى ويكون مقصوراً على السقاء والقربة لا غير. وإن قلنا بالتعليل ـ وهو الأظهر، والله أعلم ـ فحيث وجدت العلة طردنا الحكم على أحد محتملاته.

وأما قولنا: هل إباحة الجدار للجار أن يغرز الخشبة فيه على الوجوب أو الندب؟ فجمهور العلماء أنه على الندب، لأنه قد روي عن راوي الحديث ـ وهو أبو هريرة رضي الله عنه ـ أنه كان يقول: ما لي أراكم عنها معرضين؟ والله لأرمين بها بين أكتافكم. فدل بقوله هذا أنه فهم من النبيّ ﷺ إما الوجوب أو التأكيد في الندب، لعظم حق الجار على جاره، لأنه قال ﷺ (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه)[1]، والآثار في الجار كثيرة في تأكيد حقه، والإحسان إليه، وكف الأذى عنه، وإدخال السرور عليه.

وأما قولنا: هل ذلك على كل حال أو لا؟ فلا يمكن أن يكون على كل حال، لأن الشارع ﷺ

---

(١) رواه أصحاب الصحاح وغيرهم عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

قد قال (لا ضرَرَ ولا ضِرار)[1]. فإن كان في غرز الخشبة ضرر على صاحب الحائط فلا يجب عليه ذلك، ولا يندب. فالشارع، صلوات الله عليه وسلامه، قد منع أن يفعل الشخص بملكه شيئاً يضره بجاره، فكيف يفعل في مال جاره ما فيه ضرر به؟ هذا لا يعقل، وإنما يكون ذلك على أحد محتملاته، إذا لم يكن على صاحب الجدار في ذلك كبير ضرر، لأنه من جملة الرفق له، وقد ورد ما معناه (لا يمنع أحدكم جاره رفده).

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) رواه الإمام مالك والشافعي عنه عن يحيى المازني مرسلاً، وعبد الرزاق والإمام أحمد وابن ماجه والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ـ ٢٢٦ ـ

حديث عدم الاتكال على الأعمال والاجتهاد فيها

عَن أبي هُريرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، قال: سَمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقولُ: لَن يُدخِلَ أحَداً عَملُهُ الجَنَّةَ. قالوا: وَلاَ أنتَ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: وَلاَ أنا، إلاّ أن يَتَغمَّدني الله بفضله ورحمته، فَسَدِّدوا وَقارِبوا. ولاَ يَتمنَّيَنَّ أحَدُكُمُ المَوتَ، إمّا مُحسِناً فَلَعَلَّهُ أن يَزدادَ خَيراً، وإمّا مُسيئاً فَلعلَّهُ أن يَستَعتِبَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أنه لا يدخل أحد الجنة بعمله. والكلام عليه من وجوه:

اعلم ـ وفّقنا الله وإياك ـ أن الناس اختلفوا في معنى تأويل هذا الحديث على وجوه عديدة.

فمنها قول بعضهم: إن الإيمان عَرَض، والعَرَض من شأنه أنه لا يبقى زمانين، فإبقاؤه عليك حتى يتوفاك الله عليه من فضله، عزّ وجلّ.

ومنها قول آخرين وهو أنه، عزّ وجلّ، الذي وفقك إلى الأعمال، وتفضل عليك بقبولها، لقوله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾(١) وقيل: لولا تجاوزه، عزّ وجلّ، عنا ما قدر أحد على الخلاص، لقوله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾(٢).

وتأويلات كثيرة. لكن الذي يعطيه تقسيم البحث أن نقول: قوله ﷺ (عمله) هل هو على العموم في جميع الأعمال القلبية والبدنية، أو هو خاص بالبدنية؟

فإن كان خاصاً بالبدنية فكيف الجمع بينه وبين الأحاديث التي وردت في الأعمال؟ وكيف

---

(١) سورة النور، من الآية ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية ٣١.

دخول أصحابها الجنة، مثل قوله عليه السلام في الصيام (إن في الجنة باباً يسمّى الريّان، لا يدخل منه إلا الصائمون)[1] إلى غير ذلك من الأحاديث التي وردت في الأعمال، وكيف دخول أصحابها الجنة، مثل قوله، عليه السلام، عن العافين عن الناس ينصب لهم لواء أخضر يوم القيامة فيتبعونه، حتى يدخلوا الجنة[2]، أو كما قال عليه السلام. وقوله، عليه السلام، في الذين لا يسترقون ولا يتطيّرون (أنهم يدخلون الجنة بغير حساب)[3] إلى غير ذلك، وقول الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾[4]، ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾[5] إلى غير ذلك من الآي، وهي كثيرة؟

وإن كان المعنيّ به العموم في الأعمال القلبية والبدنية فكيف الجمع بينه وبين قوله، عليه السلام، لمعاذ بن جبل (ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله)[6]؟ ثم أخبره ﷺ (أن حقَّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ألا يعذبهم)، وقول جبريل، عليه السلام، للنبيّ ﷺ (من مات من أُمتك لا يُشرِك بالله شيئاً دخل الجنة)[7]، وقول الله عزّ وجلّ للمؤمنين ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[8] والآي والأحاديث في هذا كثيرة، والإيمان عمل من أعمال القلوب، وهو أجلّها؟

فالجواب عنه: أنه إن كان على الخصوص ـ وهو أن يعني به أعمال الأبدان ـ فلا تعارض بين هذا الحديث ولا ما ذكر من الأحاديث والآي ولا غيرها مما يشبهها، لأن الأعمال لا تُقبَل ولا تَنفَع

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الأحاديث الواردة في العافين عن الناس كثيرة منها ما رواه الطبراني عن أنس رضي الله عنه بلفظ: إذا وقف العباد للحساب جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم تقطر دماً، فازدحموا على باب الجنة، فقيل: من هؤلاء؟ قيل: الشهداء كانوا أحياء مرزوقين: ثم نادى منادٍ: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة، ثم نادى الثانية: ليقم مَنْ أجره على الله فليدخل الجنة قال: ومن أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس. ثم نادى الثالثة: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة. فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوها بغير حساب. وفي رواية للحاكم والبيهقي عن أنس رضي الله عنه من حديث طويل مطلعه: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟ بأبي أنت وأمي... إلخ.

(٣) متفق عليه.

(٤) سورة الحاقة، من الآية ٢٤.

(٥) سورة البقرة، من الآية ١٣٤ و١٤١ و٢٦٧.

(٦) رواه الشيخان عن معاذ رضي الله عنه.

(٧) رواه مسلم في كتاب الزكاة رقم ٩٤ باب الترغيب في الصدقة وفي الإيمان رقم ١٥٤ وهو حديث طويل منه: أتاني جبريل فأخبرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق قال: وإن زنى وإن سرق ثلاث مرات ثم قال: رغم أنف أبي ذر.

(٨) سورة البقرة، من الآية ٦٢.

إلا بشرط الإيمان واتباع السنّة المحمّدية، ولأن الكفار مكلّفون بفروع الشريعة، على أحد القولين، ولو فعلوها لم تنفعهم ولا يَرون الجنة، ولا يشمّون عَرْفَها، وقد قال الله عزّ وجلّ في حقهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[1] فعلى هذا التأويل يكون للحديث فوائد من الفقه:

منها: أنه حجة لأهل السنّة على المعتزلة الذين يقولون: إنهم بأعمالهم يدخلون الجنة، ويكفّرون من وقع في معصية، ويوجبون له الخلود في النار.

ومنها: زوال رعونة نفوس العابدين الذين تشمخ نفوسهم وتغتر بما وفقوا إليه من الطاعة والخدمة.

ومنها: الحض على تحقيق الإيمان. ويزيد ذلك بياناً أن الحق سبحانه حض على الإيمان أكثر من غيره من الأعمال بقوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2] ولا يلزم من هذا الزهدُ في الأعمال، لأن تركها بريد الكفر، وقد قال: (جُعِلت الصلاة فرقاً بين الإيمان والكفر)[3] ولأن ترك الأعمال أيضاً نقص في الإيمان، يشهد لذلك قوله ﷺ (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يختلس الخُلسَة حين يختلسها وهو مؤمن)[4]، لأن حقيقة التصديق توجب اتباع الأمر، واجتناب النهي، وبذل الجهد في ذلك مع اتقاء خوف لقاء المولى سبحانه وتعالى، وهل يحصل له قبول أم لا؟ يشهد لذلك قوله تعالى في صفتهم المباركة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[5].

وهنا بحث في الفرق بين خوف عوام المؤمنين وخوف الخواص: اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن خوف عوام المؤمنين ورجاءَهم وعبادتهم كل ذلك له حدّ ونهاية، وأما خوف الخواص ورجاؤهم وعبادتهم فليس له حدّ ولا نهاية. بيان ذلك:

أما خوف العوام فإنهم يخافون العقاب على المخالفة، ونهاية خوفهم من دخول النار، وخوف ما فيها من الآلام والأمور العظام. أعاذنا الله منها بنور وجهه الكريم. وأما رجاؤهم ففيما وُعِدوا من حسن الثواب وجزيل العطاء، بحسب الوعد الجميل، ونهايته دخول دار كرامته، عزّ

---

(١) سورة الغاشية، الآيات ٢ ـ ٤.
(٢) سورة البقرة، من الآية ١٣٢.
(٣) أصل الحديث: بين الرجل والكفر ترك الصلاة. رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري في باب المظالم ومسلم في الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) سورة المؤمنون، من الآية ٦٠ و ٦١.

وجلّ، والتنعم بما أُعِدّ لهم فيها. وعبادتهم: حَدُّها التزام توفية ما جعل لهم في ذلك، ونهايتها ارتقابهم القدرة على ذلك، والاستراحة إلى قوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1].

وأما خوف الخواص فإنه لا حَدَّ له، لأنهم يخافون عدلَه، عزّ وجلّ، وعظمته، جلّ جلاله، ولا حدَّ لما يخافون. ولذلك إذا طرق لأحدهم طارقُ الخوف إن لم يتداركه بتنسّم الفضل والرحمة وإلا[2] تفطّرت كَبِدُه ومات.

وقد روي أن جملة منهم ماتوا كذلك. ومما يذكر عن بعضهم أنه كان فتح قبرَه في بيته، وكان تعبده على شفيرِ قبره، فدخل عليه يوماً بعض الوعاظ يزورُه، فلما دخل عليه ناداه الأولاد والعيال من وراء الستر: ناشدناك الله لا تقتلْه. فلما دخل عنده قال له: عِظني. قال له: إن الأولاد قد ناشدُوني الله ألاّ أفعل. فقال: لا بدّ من ذلك. فتلا عليه آية من كتاب الله تعالى فيها شيء من التخويف، فوقع مغشِياً عليه. فأعاد الأولادُ الرغبةَ على الواعظ مثل الأول، فلما أفاق قال له: زِدني. قال له: إن الأولاد قد ناشدوني الله. فقال له: لا بدّ من ذلك. فتلا عليه آية من كتاب الله تعالى: فاضطرب مثلَ الحية، ووقعَ في قبره ميتاً. فقال الأولاد: قَتَلْتَهْ، قتلَك الله. وعنهم مثل هذا كثير.

وأما رجاؤهم فهم يرجون محض فضله، عزّ وجلّ، بفضله، فما يرجون لا حدّ له ويحصل لهم بذلك من شدة البسط وقوة الرجاء واليقين ما يُفتتّون به الجبال. ومن الإدلال على فضل مولاهم يتصرفون به في الوجود كيف يختارون، ومع ذلك محافظتهم على الأمر والنهي ما لا يقدر غيرهم عليه.

ومما يُروى عن بعضهم أنه أتى بئراً بالدّلو والحبل، فأدلى الدلو فلم تبلغ إلى الماء. فرفع طرْفَه إلى السماء وقال: وَعِزَّتِكَ، لئن لم تسقني لأَغضَبَنَّ. فإذا به قد أدلى دَلْوه ثانية، فبلغ الماءَ، فاستقى وشرب. قال راويه: فلما رأيت ذلك منه ناشدته الله أن يسقيَني فَضْلَه، فناولنيه فإذا هو سَويقٌ بسكّر، فاتبعته وقلت له: يا سيّدي قد مَنَّ الله عليك بمثل هذا الحال، وأنت تسيء الأدب في مخاطبة الربوبية، وتقول: إن لم تسقني غضبتُ. فتبسَّم، وقال: يا بطال، على مَن أغضَبُ؟ كنتُ أغضَبُ على نفسي، فلا أشرب ماءً حتى ألقاه، وطلبتُه مستعيناً به على ذلك. فلا حدَّ لعبادتهم ولا لهم فترة غير أنهم يُفرّقون بين الأوقات من أجل الأوامر لا غير، فعبادتهم دائمة لا فترة فيها ولا التفات.

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.

(٢) كذا بإقحام «وإلا».

ومما روي عن بعضهم أنه أتاه بعض الإخوان يزوره، فوجده يصلي، فقال في نفسه: لا أقطع عليه، أتركه حتى يفرغ من صلاته. فبقي ينتظره لأن يفرغ حتى أذّن الظهر فصلى الظهر، وبقي يتنفّل حتى أذّن العصر فصلى العصر، ثم قعد يذكر حتى أذّن المغرب فصلى المغرب، ثم بقي يتنفّل حتى أذن للعشاء فصلى العشاء، وبقي يتنفّل حتى طلع الفجر فصلى الصبحَ، ثم قعد يذكر حتى كان وقت الضحى الأولى فقام فصلّى، ثم قعد يذكر، والزائر في ذلك كله يقول في نفسه: لا أقطع عليه حتى يفرغ هو من تلقاء نفسه. فلما قعد يذكر وهو ينتظر الضحى الأعلى جرت سِنَةٌ على عينه وهو قاعد لم يتحرك لها، فمسح النوم من عينه وقال: أعوذ بالله من عين لا تشبع من النوم. فقال الزائر في نفسه: لا يَحل لي الكلام مع مثل هذا. وتركه وانصرف. ومثل هذا عنهم كثير.

والفائدة أن تنظر من أي الأصناف أنت؟ وما حالك؟ أمِنَ العوام أو الخواص؟ وهل بينك وبين أحدهم نِسبة أم لا؟ وإلا فتدارَكْ نفسَك قبل ذهابها، وأغلق الباب، فالأمر والله قريب.

وقد يكون للحديث بحث ثان وهو: أن الأحاديث التي أتت بمقتضى الأعمال وما لفاعلها وما على تاركها فذلك مقتضى الحكمة والتكليف، ويكون هذا يدل على مقتضى التوحيد والتخصيص، يشهد لذلك ما روي عنه ﷺ أنه خرج يوماً ويداه الكريمتان مقبوضتان، فقال للصحابة، رضي الله عنهم، (أتدرون ما في هذه؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: في هذه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وأجدادهم وقبائلهم إلى يوم القيامة. ثم قال: أتدرون ما في هذه؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: في هذه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وأجدادهم وقبائلهم إلى يوم القيامة. قالوا: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال: اعملوا فكل ميسّر لما خُلق له)[1] أو كما قال عليه السلام. فحصل التخصيص لأهل الدارين بمقتضى الإرادة الربانية لا بموجب الأعمال البدنية.

لكن بقي للحكمة معنى لطيف، وهو أن الأعمال دالّة على المآل، كما هو العنوان دالّ على

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي في القدر عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ولفظه: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يديه كتابان فقال أتدرون ما هذان الكتابان قلنا: لا، يا رسول الله إلا أن تخبرنا. فقال: للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً؛ ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على اخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. قال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل. ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ثم قال: فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير. وليس في الحديث: اعملوا فكل ميسر لما خلق له وهذه العبارة جزء من حديث آخر رواه البخاري في القدر عن عمران بن حصين، وفيه: قال رجل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسّر لما خلق له.

صاحب الكتاب. يشهد لذلك قوله عزّ وجلّ في كتابه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1] وقول زيد الخير لرسول الله ﷺ: لتخبرنّي يا رسول الله ما علامة الله فيمن يريده وما علامته فيمن لا يريده؟ فقال: (كيف أصبحت يا زيد؟ قال: أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهلَه، وإن قدرتُ عليه بادرتُ إليه، وإن فاتني حزنتُ عليه، وحننتُ إليه. قال رسول الله ﷺ: تلك علامةُ الله فيمن يريده، ولو أرادك لغيرها لهيأك لها)، أو كما قال عليه السلام.

فلذلك جاء شبه الأعمال البدنية مع سابقة الإرادة الربانية لمن تفطّن واعتبر، كما أخبر سبحانه عن يوم بدر بقوله تعالى ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[2] فجعل نزول الملائكة اطمئناناً لقلوبنا، لما يعلم من ضعفنا. فأخبر أن حقيقة النصر من عنده سبحانه. فكذلك الأعمال الصالحة فيها للنفوس الضعاف طمأنينة. وحقيقة دخول الجنة بفضل الله تعالى.

والركون أيضاً إلى الأعمال كيوم حُنين، وقد قال عزّ وجلّ فيه ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[3] فكذلك إذا عولت على أعمالك الصالحة لم تقدر بها على شيء من الخلاص، وإن كثرت، إلا أن تغمدك الله، عزّ وجلّ، بالفضل والرحمة. يشهد لذلك قوله ﷺ في العابد من بني إسرائيل صاحب الرمانة ـ وقد تقدمت حكايته قبل في غير هذا الحديث ـ.

يا هذا: اعمل، فأصحاب التوفيق إذا رأوا أنفسهم قد وفقوا إلى شيء من أفعال الخير يستبشرون ويشكرون الله على ذلك، ولا يغترون، ويرغبون لله في أسباب السعادة الدالة عليها من فضله، لقوله تعالى ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[4] فهو أهل الفضل والإنعام.

ويكون من فوائد هذا الحديث على هذا الوجه: أنه حجة على أهل الغفلة والجهل ممن انتسب إلى العلم، وممن انتسب أيضاً إلى طريق الصوفية، لأنهم يفرقون بين الشريعة وطريقتهم وبين الحقيقة وطريقتهم، وكل طائفة منهما تدّعي تفصيل طريقتها، وليس الأمر كذلك، لأن الذي أخبر بالشريعة وبيّنها لنا أخبر بالحقيقة وبيّنها لنا أيضاً.

---

(١) سورة الليل، ٧ و ١٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٢٥ ومن الآية ١٢٦.
(٣) سورة التوبة، من الآية ٢٥.
(٤) النساء، من الآية ٣٢.

وكفى في ذلك ما كان ﷺ يفعل في نفسه المكرمة، لأنه كان إذا خرج إلى جهاد أو حجّ أخذ الأهبة لذلك على مقتضى الشريعة، وإذا رجع قال: (آيِبون، تائِبون، عابِدون، لربِّنا حامِدون، صدَقَ الله وعدَه، ونصَرَ عبدَه، وهَزَم الأحزابَ وحدَه)[1]. وهذا هو الحق والحقيقة، فتراه عليه السلام جمع في العمل الواحد الشريعة والحقيقة، لأن المطلوب الجمع بينهما. ومن هنا زَلّ مَن زَلّ.

وقد قال بعض السادة في الجمع بين ذلك: أن تعمل عمل من لا يرى خلاصاً إلا بالعمل، وتفوِّضَ الأمرَ وتتوكّل تَوَكُّلَ من لا يرى خلاصاً إلا بمجردِ الفضل لا غير، أو كما قال: ولقد أحسن فيما به جَمَع.

وفيه دليل على أنه ليس أحد من العباد يقدر على توفية حق الربوبية على ما يجب لها. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته). فإذا كان، عليه السلام، الذي هو خير البشر وصاحب الشفاعة والمقام المحمود، لا يقدر على ذلك فالغير من باب أحرى وأَولى، لأن صاحب كل مقام يطلب بتوفيته بحسب ما رفع له في مقامه.

يشهد لذلك قوله ﷺ (أعوذ برِضاكَ من سَخَطِك، وبمعافاتِك من عقوبتك، وبِك منكَ، لا أُحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك)[2]، وإخباره، عليه السلام، عن قول الملائكة يوم القيامة وهي في العبادة لا تفتر: سَبّوحٌ قُدّوسٌ، ما عَبَدْناكَ حقَّ عبادتك. وإذا تأملت ذلك من طريق النظر تجده مدرَكاً حقيقة، لأنه إذا طالَبَنا، عزّ وجلّ، بشكر النعم التي أنعَمَ عَجزْنا عنه بالقطع، ومنها ما لا نعرفها، كما أخبر جلّ جلاله ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[3] فكيف غير ذلك من أنواع التكليفات، وهي من جملة النعم، الواحدة منها نعجز عن شكرها أن لو اشتغلنا بها؟

وذلك أن الأنفاس اثنا عشر ألف نَفَس داخل، ومثله خارج في اليوم الواحد. فأنعم علينا بأن تدخل بغير كلفة، وتخرج بغير مشقة مع اليقظة والنوم. فهذه واحدة من جملة نعم عديدة في البدن عجزنا عن شكرها، وكثير من الناس ما يعرفونها فوقع العجز حقيقة.

ومن وجه آخر وهو أن العالم كله محدَث، فكيف يقدر محدَث على توفية حق القديم الأزلي؟ هذا عن طريق العقل مستحيل. فما بقي إلا ما أخبر به الصادق ﷺ. وهو التغمد بالفضل والرحمة. فبقي البحث على الفرق بين الروايتين.

---

(١) رواه البخاري في الدعوات وفي الحج والجهاد والمغازي ورواه مسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وأوله: أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبّر الله على كل شَرَف من الأرض إلخ..

(٢) رواه مسلم في الصلاة عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) سورة إبراهيم، من الآية ٣٤.

فأما معنى قوله (بفضله ورحمته) فهو بيّن لا خفاء فيه، وهما صفتان، بأيهما عامل، عزّ وجلّ، عبده فقد سعد سعادة أبدية. وأما قوله (بفضل رحمته) احتمل وجوهاً:

منها: أن تكون إشارته، عليه السلام، لما أخبر عن مولانا سبحانه أنه قَسَم الرحمة على مائة جزء، أخرج منها في الدنيا جزءاً واحداً، منها يتراحم الخلق كلهم، حتى الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن يصيبه، وادخر تسعة وتسعين جزءاً إلى يوم القيامة. فجعل، عليه السلام، نفسه المكرمة من جملة المؤمنين تواضعاً لله تعالى.

واحتمل أن يشير، عليه السلام، إلى عجزه عن توفية حقوق الرحمة التي رحمه الحق بها حتى يكملها له سبحانه بفضله، فيكون له سبباً إلى دخول الجنة مثل ما ذكره سبحانه وتعالى في كتابه من نعمه سبحانه عليه بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ؟ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ؟ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ؟ ﴾[1] إلى آخر السورة، ومثل قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[2] فكأنه عليه السلام يقول: وأنا عاجز عن التوفية بالحقوق التي تجب لله تعالى عليّ بمقتضى الشكر والتعظيم. فلم يبق بما أرجو دخول الجنة إلا برحمة أخرى فاضلة على هذه ـ أي زائدة على هذا ـ يكفّر بها عن التقصير، ويدخلني بها الجنة.

واحتمل أن تكون إشارته، عليه السلام، إلى الزيادة التي زاده الله تعالى، بعدما أكرمه بما ذكره، وهوقوله جلّ جلاله ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[3] لأن من غُفِر له قد أُدخِل الجنة لا محالة. ولا يخطر بخاطر أحد أن الذنوب التي أخبر مولانا سبحانه أنه بفضله غفرها للنبي ﷺ أنها من قبيل ما نقع نحن فيها ـ معاذ الله ـ لأن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، معصومون من الكبائر بالإجماع، ومن الصغائر التي فيها رذائل. وأما الصغائر التي ليس فيها رذائل ففيها خلاف بين العلماء، والأكثر منهم على أنهم معصومون من الصغائر، كما عصموا من الكبائر ـ وهو الحق ـ لأن رتبتهم جليلة.

وإنما ذلك من قبيل توفية ما يجب للربوبية من الإعظام والإكبار والشكر، ووضع البشرية وإن رفع قدرها ـ حيث رفع ـ فإنها تعجز عن ذلك بوضعها، لأنها من جملة المحدَثات، وكثرة النعم على الذي رفع قدره أكثر من غيره، فتضاعفت الحقوق عليه، فحصل العجز للكل، كل على قدر حاله، وبقيت المنة لله تعالى على الكل، والتجاوز بمجرد الفضل والرحمة، لا حقَّ لأحد عليه،

---

(١) سورة الضحى، الآيات ٦ و ٨.
(٢) سورة النساء، من الآية ١١٣.
(٣) سورة الفتح، من الآية ٢.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

وفيما ذكرنا حجة لأهل الطريق الذين قد أجهدوا أنفسهم في الخدمة، ومع ذلك يعترفون بعظم التقصير، ويخافون أكثر مما يخاف أصحاب الكبائر. وقد ذكر عن بعضهم أنه اشتهت نفسه تمراً، فبقي يدافعها أياماً عديدة إلى أن ظهر له يوماً شراؤه فلما أخذ من البائع وولى وإذا[2] بريح شديدة وبرق ورعد، فرمى التمر من حجره، ووبخ نفسه وقال لها: أهلكت الناس بخطيئتك. وخرج هارباً إلى الله تعالى.

ومما يزيد ذلك بياناً قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[3] فإنه بقَدْر العلم به، عزّ وجلّ، يكون الخوف منه، ولا أحد أعلم بالله من رسله وسيِّدُنا صلوات الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، القدوة فيهم، فيخاف مثل هذا الخوف له، عليه السلام، لما به مَنَّ عليه من المزية. وقد قال ﷺ (أنا أخشاكم لله وأعلم بما أتقي)[4] أو كما قال عليه السلام.

واحتمل أن يكون، عليه السلام، أراد مجموع الوجوه كلها وزيادة، لأنه ﷺ مَعدِن الفصاحة والبلاغة.

وفيه دليل على أن ألفاظ العموم يدخلها التخصيص بمقتضى اللسان العربي. يؤخذ ذلك من قولهم (ولا أنت)، لأن قوله ﷺ: (لن يدخل أحداً عمله الجنة) فقوله (أحداً) لفظ عام، فلو لم يكن ذلك معروفاً من لسانهم ما استفسروه حتّى يزيل لهم ذلك المحتمل المتوقع.

ومن أحكام الحديث النهي عن أن يتمنى أحد الموت على أي حالة كان من خير أو شر. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكُم الموتَ إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يَسْتَعْتِب)، وقد كان من دعائه عليه السلام (اللهم أَحْيِني ما كانت الحياة زيادة لي من كل خير، وأَمِتْني ما كان المماتُ راحةً لي من كل شر)[5] أو كما قال عليه السلام.

---

(١) سورة الحجرات، من الآية ١٧.

(٢) الصواب: فإذا.

(٣) سورة فاطر، من الآية ٢٨.

(٤) قطعة من حديث رواه مسلم في الصيام رقم ١١٠٩ باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، بلفظ: والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي.

(٥) رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن الأربع عن أنس رضي الله عنه بلفظ: لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت لضرّ نزل به، فإن كان لا بدّ متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وفي الباب ذاته ما رواه مسلم رقم ٢٧٢٠ في الذكر والدعاء باب التعوذ من شر العمل، ضمن حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه وفي آخره عبارة (واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شرّ).

وهنا بحث وهو أن يقال: هل هذا النهي على عمومه أو لا؟ احتمل. لكن قد جاء (إن وقعت الفتن فبطن الأرض خير للمؤمن من ظهرها)[١]، وقد جاء عن علي، رضي الله عنه، أن الفتنة لما طالت قال: اللهم إن قومي قد ملّوني ومَلِلْتهم، فاقبِضني إليك غيرَ مقصِّر. ومثل ذلك عن عمر، رضي الله عنه أنه قال: اللهم إنّ رعيتي قد انتشرت وكَبِر سِنّي، فاقبضني إليك غيرَ مفرِّط.

والجمع بين ذلك أنه مهما كان الرجاء في شيء من الخير، أو الخوف من شيء من الشر، رغب في الأسباب التي يتوصل بها إلى الخير أو دفع الشر، وإبقاء حياة المؤمن من أكبر الأسباب التي يرجى بها ذلك، وقد قال ﷺ (بقية عمر المؤمن لا ثَمَنَ لها يصلح فيه ما فَسَد) أو كما قال عليه السلام. فإذا كان وقت الفتن خيف على الإيمان في الغالب، فبطن الأرض إذ ذاك خير للمؤمن، فإنه يقبض على الإيمان وهي النعمة العظمى ـ منّ الله بها علينا بفضله ـ وقد قال ﷺ في الفتن (يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا)[٢] أو كما قال عليه السلام. فإذا جاءه شيء يخاف به زوال الإيمان فالموت إذ ذاك مع الإيمان خير من الحياة التي يخاف معها زوال الإيمان.

وأما قول الخليفتين، رضي الله عنهما، فإنما طلبا الموت خيفة النقص، وأن يكون رجوعهما إلى مولاهما على أكمل الحالات، سلكا به ما قدمناه من قوله عليه السلام: (وأَمِتْني ما كان الممات خيراً لي)، غير أن العبارة اختلفت، والمعنى واحد، فلا تعارض بينهما.

وأما قوله عليه السلام: (فسددوا وقاربوا) فقد تقدم الكلام على ذلك في حديث: إن الدين يسر[٣].

وفيه دليل على قوة رجاء المؤمنين في الله تعالى على أي حالة كانوا. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (إما محسِناً، فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يَسْتَعْتِب) أي يعتب نفسه على ما وقع منه ويندم ويتوب، لأن الاستغفار لا يكون إلا بعد الندم، والندم كما قال ﷺ توبة[٤].

---

(١) رواه الترمذي في الفتن، وفي سنده ضعف ولفظه: إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أحدهم دينه بعَرَض من الدنيا قليل.

(٣) رقم الحديث ٦.

(٤) رواه البخاري في التاريخ وابن ماجه وصححه الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وفيه دليل لطريق القوم، لأنهم يقولون: ارجع إلى مولاك، على أي حال كنت، تجده بك رحيماً. وقد قال بعضهم: اجعل قلبك خزانة سرك، ومولاك موضع شكواك. ومما جاء في مثل هذا ما روي في قصة يونس، عليه السلام، حين كان في بطن الحوت، أن الله، عزّ وجلّ، أسمَعَه صوت قارون، وهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة لا قرار له فيها، وأسمع، عزّ وجلّ، لقارون صوت ذي النون عليه السلام.

فسأل[1] الملائكة الموكلين بعذابه أن يمهلوه حتى يخاطبه، فأذنوا له في ذلك، فناداه، فاستجاب له، فسأله عن قصته، فأخبره بها، فقال له: ارجع إلى مولاك، ففي أول قَدَم ترجع إليه تجده. فقال له ذو النون عليه السلام: وَلِمَ لَمْ ترجع أنت إليه؟ فقال له: إن توبتي وكلت إلى ابن خالتي موسى يقبلها. فهناك قال ذو النون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] فأخرجه الله عزّ وجلّ إلى البر بفضله ورحمته ولذلك قال بعضهم:

تقــواك تقــواك عمــدة فــي رجــاك ورجــاك رجــاك عمــدة فــي تقــواك

فإن خليت منها فمـــولاك مولاك ثم مولاك

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) الضمير يعود على (ذي النون).

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ٨٧.

ـ ٢٢٧ ـ
حديث الشفاء في ثلاث

عَنِ ابنِ عبَّاسٍ، رَضي الله عَنهُما، قالَ: قالَ رَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ: الشِّفاءُ في ثَلاثةٍ: شَربةِ عَسَلٍ، وَشَرطةِ مِحجَمٍ، وَكيَّةِ نارٍ. وأنهى أُمَّتي عَن الكَيِّ. رَفَعَ الحديثَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: أحدهما إخباره ﷺ بأن الله سبحانه جعل الشفاء في ثلاث: شَربة عسل وشَرطة محجم وكَيّة نار. والحكم الثاني: نهيه ﷺ عن الكيّ بالنار. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل الشفاء في هذه الثلاثة المذكورة هو على العموم للمؤمن وغيره، أو لا؟ وهل الشفاء أيضاً يكون هنا عاماً من كل الأمراض، أو في مرض خاص؟ وهل يحتاج في ذلك إلى نية عند استعماله أم لا يحتاج؟ وهل نهيه ﷺ عن الكيّ نهيَ كراهية أو تحريم؟ وهل يعرف أيضاً لذلك حكمة أم لا؟

فالجواب عن قولنا: هل هو على العموم في المؤمن والكافر أو لا؟ ظاهره محتمل. لكن قد جاء من طريق (شفاء أمتي في ثلاث). فإن حملنا عموم لفظ هذا على التخصيص بهذه الطريقة التي أوردناها فيكون خاصاً بأمته ﷺ، وإن تركناها كلٌّ على مقتضاه فيكون العموم في هذا أظهر، وتكون الطريقة الأخرى تدل على أن هذا الخير باق لأمته ﷺ.

وأما قولنا: هل يكون ذلك شفاءً من كل داء، أو هو من أدواء مخصوصة؟ فاللفظ محتمل، لكن الأظهر العموم، لأنه من طريق الرحمة والمنّ، وما هو من هذا الباب فالعموم أظهر فيه. وقد تكلم ناس في هذه الأحاديث، وعللوا الفائدة فيها بأن جعلوها بنظرهم راجعة إلى التجربة؛ وما يقول فيها أهل الطب. فإذا رجعنا إلى بحثهم إلى التجربة وقول الأطباء فلم يبق لقول الصادق ﷺ

فائـدة أصـلاً، وهذا لا خفاء في غلط قائله، والله عزّ وجلّ يقول ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وقال تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[2].

فإذا صدقنا قول أهل التجربة وأهل الطب ـ وكلاهما تقدير وظن غالب ـ فيجب من باب أولى تصديق الصادق ﷺ الذي يخبر عن جاعل الأشياء كيف شاء، واخترعها بقدرته وحكمته، فالتوفيق لا ينال إلا من طريق النعم علينا.

ومما يبين أنه على العموم ما اتفق لبعض العلماء بغرب الأندلس كان من رواة الحديث عاملاً به متبعاً للسنة والسنن، وكان الناس يجدون برأيه في كل ما يشير به عليهم بركة حتى شهر بذلك، فكان الناس يقصدونه من الأماكن البعيدة في أخذ رأيه في المعضلات التي تصيبهم، وكان في بعض الحصن بعض الفلاحين، وكان له رأس بقر وكان يعيش به، فسُرِقَ فلحقه منه كرب عظيم، فقيل له: ما لك إلا الفقيه الذي في رأيه البركة، هو يجبره عليك. فأتاه فأخبره بحاله، وهو يبكي ويضرع إليه، ويتوسل إليه بكل ما يمكنه، عساه يجبر عليه رأس بقره. فقال له: اذهب فاحتجم.

فخرج ليحتجم. وعادتهم في البلاد أن المزيِّنين يسترون حوانيتهم بمناديل من صوف أو كتان، فرفع ذلك المنديل لأن يدخل، فإذا برأس بقره في داخل الحانوت، والحانوت خالية. فأخذه ثم رجع إلى الفقيه يخبره بحاله. فلما أخبره قال له الحاضرون: أي نسبة في قولك: احتجم، حتى يكون سبباً في جبر رأس البقر؟ فإنك لما أمرته بذلك تعجبنا من بعد النسبة التي بين حاله وما أمرته به، ولم نقدر أن نكلمك، ثم نجح فيما أمرته به. أفدنا بذلك.

فقال لهم: لما رأيته قد أصيب، وحاله يقتضي الخوف عليه من شدة كربه، ورأيته لا يقبل عذراً إن قيل له، فتداركت قوله ﷺ (شفاء أمتي في ثلاثة: شرطة محجم)، فأخذت الحديث على عمومه، فأمرته بما أخبر به الصادق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فبركة السنة هي التي شفته، أو كما جرى.

وحدثني بهذا بعض مشايخي من رواة الحديث، وكان له العلم والدين المتين، وكان من البلد الذي كان فيه ذلك الفقيه وجرت هذه فيه.

وأما قولنا: هل يحتاج إلى نية عند استعماله؟ فكل ما هو من طريق النبوة فالنية أصل فيه. وقد

---

(١) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٧.
(٢) سورة النجم، الآية ٣.

يؤثر لمن لم تكن له نية إذا أخذه على وجه التداوي مثلما يأخذ الدواء الذي يعطيه الطبيب، فإن ذلك المقدار من النية فيه مجزىء.

وأما الذي يأخذه على طريق التجربة أو الشك فلا يزيد بذلك إلا شدة، بدليل قول الله سبحانه ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[1] وكل من لم يصدق ما قاله الصادق ﷺ أو شك فيه فقد ظلم نفسه، فلا يزيد ما يستعمل من الكتاب والسنة إلا خساراً. ورضي الله عن ابن عباس كان إذا رمدت عينه يتلو قول الله، عزّ وجلّ، في العسل ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[2] ويكتحل به فيبرأ من حينه. وكان ابن عمر، رضي الله عنه، إذا طلع له نبت تلا الآية، وطلاه بالعسل فيبرأ أيضاً. فمثل هؤلاء السادة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين عرفوا الكتاب أيضاً والسنة، وما به. منّ علينا من ذلك.

وأما قولنا: هل نهيه ﷺ عن الكي نهي تحريم أو كراهية؟ احتمل. والأظهر أنه على الكراهة. ومما يدل على ذلك أن بعض الصحابة كانت الملائكة تسلم عليه، فأخذه مرض، فقيل له: ليس يبريك منه إلا الكيّ. فاكتوى فلم تسلم عليه الملائكة حتى تاب وأقلع عن الكي، فرجعت الملائكة تسلم عليه كما كانت قبل. وقد جاء أن النبيّ ﷺ كوى بعض الصحابة في أكحله[3] لكنه لا نعلم هل كان كيه لذلك الصحابي بعد هذا الحديث؟ فيكون فعله، عليه السلام، ناسخاً لقوله، أو يكون قبل الحديث فيكون فعله منسوخاً بقوله. فإذا احتمل الأمرين بقي موضع خلاف.

وفعل هذا الصحابي الذي كانت الملائكة تسلم عليه كان كيه بعد وفاة النبيّ ﷺ. فبان أن النهي عندهم كان هو المشهور فيه الكراهية، لأنه روي عنه رضي الله عنه أنه قال: اكتوينا فما أفلحنا. فلولا أن النهي كان معلوماً عندهم بعد موته ﷺ، وتأوله هو أنه على طريق الكراهية، واكتوى فظهر له شؤم ما أراد، ولمّا تاب من الكي وأقلع عنه، حينئذ رجعت الملائكة تسلم عليه كما كانت. وفيما جرى لهذا الصحابي دليل على أنه لا تعجل العقوبة إلا للمحبوب، لكي يرجع. وأما غيره فقد يؤخّر إملاء لقول مولانا سبحانه ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾[4].

وأما قولنا: هل نعرف لنهيه ﷺ علة أم لا؟ أما أن يفعل ﷺ شيئاً لغير حكمة فمستحيل، وأما ما هي فتحتمل ـ والله أعلم ـ وجوهاً:

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

(٢) سورة النحل، من الآية ٦٩.

(٣) رواه مسلم في السلام، باب لكل داء دواء وأبو داود في الطب عن جابر رضي الله عنه أن أبي بن كعب رمي يوم الأحزاب على أكحله فكواه رسول الله ﷺ.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ١٧٨.

منها: أن الجاهلية وأهل الكتاب يفعلون ذلك، وهو عليه السلام قد نهى عن التشبه بهم، فيكون لأجل ذلك. واحتمل أن يكون لما جعلها الله تعالى للعذاب والنقم اتبع، عليه السلام، فيها حكمة الحكيم، وأعطاها ما هو الغالب من شأنها. واحتمل أن يكون، عليه السلام، كره ذلك من طريق الفأل. فهذه سنته، عليه السلام، يعجبه الفأل الحسن، كما فعل، عليه السلام، حين قال: (من يحلب هذه الشاة؟ فقام رجل ليحلبها، فسأله عن اسمه، فلما أخبره لم يعجبه ذلك الاسم. فقال له: اجلس. ثم لثان ثم لثالث. فلما أعجبه اسمه قال له: احلب)[1]. فكره هنا أن يكون شفاء أحد أمته بالنار من أجل الفأل، ولا يكون لها في لحم مؤمن نصيب، لا في الدنيا ولا في الآخرة. واحتمل مجموع ما ذكرناه وزيادة، لأنه، عليه السلام، معدن الحكم والخير.

وبقي سؤال وهو أن يقال: كيف يخبر عن شيء أن فيه شفاء ثم ينهى عنه.

فالجواب: اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أنه كان، عليه السلام، الصادق المشفق على أمته، الرحيم بهم، كما جاء في التنزيل، فأعلمنا بما جعل الله تعالى فيها من الشفاء، ونهانا عن استعمالها لما في ذلك من المضار علينا، لأنا بنفس نهيه، عليه السلام، عن ذلك علمنا أنه قد اجتمع فيها الأمران: الشفاء والمضار. فغلّب ﷺ الذي هو الأصلح في حقنا ـ وهو النهي. كما أخبر الحق سبحانه في شأن الخمر أن فيها منافع للناس، ثم حرمها لما فيها من المضار في العقول والأديان.

وفيه من الفقه أن دفع المضار آكد من تحصيل النفع. يؤخذ ذلك من أنه لما كان في الكي النفع والضرّ غلّب، عليه السلام، دفع الضر، فنهى عنه. وهذا المعنى هو الذي فهمه حذيفة، رضي الله عنه، حيث قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[2].

وفيه دليل لأهل الزهد وهو أنه لما كان في الدنيا الوجهان، غلبوا الضر فيها فدفعوه بالزهد فيها، فنجوا وربحوا الدارين، وعاد الضرر على أهلها، فتعبوا في الدارين معاً.

وفيه من الفقه أنه إذا كان شيء يكون فيه خير وشر، ولا يقدر على دفع ذلك الشر الذي فيه، يترك خيره من أجل شره. ومن أجل هذا الباب كان أطباء الأبدان لما أن كانت عندهم المحمودة فيها السم القاتل، وفيها النفع لإذهاب الأخلاط، وقدروا على أن يحجبوا ضررها عن الأبدان بالحجب المعلومة في مقتضى صنعتهم استعملوها بتلك الحجب، ولا يستعملها أحد وحدها إلا قتلته.

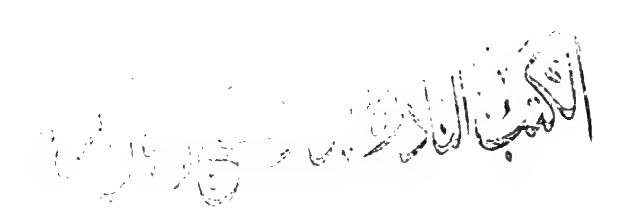
وكذلك أيضاً أطباء الأديان لما كانت النفس وما تشير إليه غالباً سمّاً قاتلاً في الدين لم

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ في الاستئذان، باب ما يكره من الأسماء.
(٢) رواه البخاري في الفتن ومسلم في الإمارة.

يستعملوها إلا بحجاب الشريعة، فإنهم لا انفكاك لهم عنها، فلم تضرهم مع ذلك، وانتفعوا بها، وربحوا عليها الدارين جميعاً، والذين استعملوها بغير حجب الشريعة قتلتهم، وخسروا بها الدارين معاً. أعاذنا الله من ذلك. ولذلك قيل: إذا كنت متّقياً فشرَّ نفسك أولاً فاتقه، فإن عوفيت منها فلا شرّ بعدها تتقيه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



ـ ٢٢٨ ـ

حديث نفع الحبة السوداء

عَن أبي هُريرَةَ، رَضي الله عَنهُ، أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقولُ: في الحبَّةِ السَّوداءِ شِفاء مِن كُلِّ داءٍ إلاَّ السَّامَ. قالَ ابنُ شِهابٍ[١]: وَالسَّامُ: المَوتُ. وَالحبَّةُ السَّوداءُ: الشُّونِيزُ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بأن الله، عزّ وجلّ جعل في الحبة السوداء ـ التي هي الشونيز ـ شفاء من كل داء إلا الموت. والكلام عليه من وجوه:

وهي كما تقدم في الحديث قبله من التوجيهات في الشفاء، والانفصال عنها كالانفصال عن تلك. غير أن هنا زيادة في التوجيه، وهي: **أن عادة العرب إذا أكدت الشيء بالمصدر، أو استثنت[٢] من العام بعضه، دل على أن ما بقي حقيقة في العموم لا يحتمل التخصيص**. وقد قال ﷺ هنا (إنها[٣] شفاء من كل داء). فهذا لفظ عام، وقد يحتمل التخصيص. فلما استثنى منه البعض قوله عليه السلام: (إلا السام) دل على أنه شفاء عام لا يحتمل التخصيص.

وقد قال بعض العلماء في هذا الحديث ما قدمنا ذكره في الحديث قبل، أنه يرجع في ذلك لما يقوله الأطباء، وهذا غلط محض. والجواب عنه مثل الجواب في الحديث قبل. وقد قال أهل صنعة الطب: إن الحبة السوداء تنفع عندهم لسبعة عشر داء بالتجربة.

وقد ذكر لي بعض مشايخي في الحديث والفقه ـ وكان قد جمع الله له الحديث والفقه والعمل بهما والتقوى ـ أن شيخه ـ رحم الله جميعهم وإيانا بفضله ـ كان له صاحب، وكان من الزاهدين

---

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهري. أول من دوّن الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. تابعي من أهل المدينة. توفي سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م.

(٢) كذا والصواب «واستثنت» كما هو نص الحديث. وتأكيد الشيء بالمصدر: جعل الخبر عنه أو صفته أو حاله أو ما يسند إليه مصدراً. والشفاء هنا مصدر، وهو مبتدأ جعل كائناً في الحبة السوداء..

(٣) كذا أيضاً خلافاً لنص الحديث.

المباركين، وكان يحضر مجلسه كل يوم. فلما قرأ هذا الحديث، وتكلم الشيخ عليه بنحو ما أشرنا إليه في الحديث قبله، جاء يوم ولم يأت ذلك الزاهد مجلس الشيخ. فلما أتاه بعد سأله: ما حبسك عنا؟ فقال له: إن عيني رمدت فأوجعَتني. فأخذت الشونيز فمضغته وألقيته داخلها، فزادت وجَعاً. فقلت مخاطباً لها: أوجِعي، أو طيري. فما أخبر الشيخ إلا عن النبيّ ﷺ، ولا يقول ﷺ إلا حقاً. فبرئتُ من ليلتي، وما بقي لي فيها شيء من الأشياء المؤلمة، ولا أثر منها. فقال الشيخ للفقهاء: مثل نية هذا هي النية المباركة التي تظهر فيها فائدة الحديث. ولو استعمله أحد منكم مع الشك الذي في نياتكم لطارت عينه.

وفي هذه الحكاية دليل على ما قلناه في الحديث قبله، أن الأمور التي تتلقى من الشارع ﷺ الفائدة في استعمالها إنما تكون بحسن النية، وإن لم يكن هناك حسن نية خيف على الشخص من زيادة الضرر. وقد بينا الدليل على ذلك من كتاب الله تعالى. والله الموفق للخير بفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٢٩ ـ
حديث لا عدوى ولا طِيَرَةَ ولا هامَةَ ولا صَفر

عَن أبي هُريرَةَ، رَضي الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ لا عَدوَى، وَلاَ طِيرَةَ، وَلاَ هامَةَ، وَلاَ صَفَرَ. وَفِرَّ مِنَ المجذوم كَما تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) نفي هذه الأربعة، وهي: العدوى والطِّيَرة، والهامَة، والصَفَر. (والثاني) الأمر بالفرار من المجذوم كما يُفَر من الأسد. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال ما معناها؟ وما الحكمة في نفيه عليه السلام ذلك؟ وهل أمره عليه السلام بالفرار من المجذوم وجوب أو ندب؟

أما قولنا: ما معناها؟ فإن تلك الأربعة أشياء كانت من عمل الجاهلية. فمعنى العدوى وعندهم إذا كان عندهم الجمل به داء يُخرِجونه من بين الجِمال، ويزعمون أن ذلك الداء هو الذي يعدوه إلى غيره، أي ينتقل منه إلى غيره. وقد سئل عن ذلك سيّدنا ﷺ فقالوا: يا رسول الله، الإبل تكون مثل الظباء حتى يدخل بينهما الأجرب فيعدوها[1]. فقال رسول الله ﷺ (فمن أعدى الأول)؟ فنفى بقوله ﷺ (فمن أعدى الأول) ما كانوا يعتقدون من ذلك، وبيّن أن حقيقة إصابة الخير والضر على اختلاف أنواعهما في جميع الحيوان، عاقلة وغير عاقلة، إنما هو بقدرة الله تعالى ومشيئته، لا تأثير لشيء من الأشياء في ذلك.

وأما الطِّيَـرَة فإنه كان من عادتهم: من أصابه منهم ضرّ من شيء من الأشياء، أو بسببه، كان يتطير به أو يكرهه، وينسب ما جاءه مما لم يعجبه أنه من ذلك، وقد يكرهه. وقد أخبر الله، عزّ وجلّ، بذلك في كتابه حيث قال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ

---

(١) أي: يبلغها الجرب ويصل إليها. ورواية البخاري: فتجرب.

﴿أَلِيمٌ﴾[1] فجاءهم الجواب: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾[2] فنفى ﷺ أن يصيب أحداً من أحد وبال، وإنما وبال الشخص من سوء حاله كما قال سبحانه ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾.

وأما قوله (ولا هامة) فإن العرب كانوا يقولون: إن المقتول إذا قُتِل، ولم يؤخذ بثأره، يخرج من رأسه طائر يصيح حتى يؤخذ بثأره. وقيل: يخرج من عظامه إذا بليت. فكذَّب ﷺ ما ادعوه من ذلك بقوله (ولا هامة)، أي ليس ما يقولون من ذلك حقاً. وفي هذا دليل على تكذيب كلّ من يدّعي في خلقٍ من خلق الله تعالى أنه متولّد عن شيء برأيه أو بكلام غيره مِمَّنْ تقدمه، ويحكم على القدرة برأيه أو باستنباط حكمة يدعيها. إن ذلك كله كذب، وليس لعلم ذلك طريق من طريق الحكمة بالجملة الكافية إلا من طريق إخبار رسول الله ﷺ. ويبطل بهذا علم الفلاسفة والطبائعيين وأهل صنعة الفلك، لأن ذلك كله برأيهم، ليس فيه من الشرع مستند، ولا يحل تصديقهم فيما يزعمونه.

وأما قوله (ولا صفر) فإن العرب ينقلون صَفَر لرأس كل سنتين من شهر إلى شهر، وكذلك المحرَّم، وكذلك الحج. فنهى بقوله: (ولا صفر) حكم الجاهلية في ذلك، وأقرَّ الأمر على ما جعله الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض، كما ذكر عزّ وجلّ في كتابه ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾[3].

ويترتب على ذلك من الفقه أن لا حكم في الأشياء وأسمائها ووضعها إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾[4].

وقيل: إنه دود في البطن يقتل من أصابه. فأزال بقوله هذا ما كانوا يتوهمونه من ذلك، حتى يعلموا أن الميت إنما يموت بأجَلِه، ولا يلتفت لعادة الجاهلية في ذلك.

ويترتب على هذا من الفقه أنه لا يعمل من الأسباب إلا الذي جاءت به السنة لاتباع الأمر، أو ما كانت جارية وأبقتها السنة مثلما كان يعجبه ﷺ الفأل الحسن، وقد كان ذلك من فعلهم في الجاهلية فأقرته السنة، ومثل القسامة[5] وعقل العاقلة[6] وما أشبه ذلك.

---

(١) سورة يس، الآية ١٨.

(٢) سورة يس، ، من الآية ١٩.

(٣) سورة التوبة، من الآية ٣٦.

(٤) سورة النجم، من الآية ٢٣.

(٥) القسامة: قسم أو يمين يحلفها خمسون من أهل الحيّ يختارهم أهل القتيل المجهول قاتله في هذا الحي: أنهم ما قتلوه ولا عرفوا له قاتلاً؛ فتبرأ ذمتهم.

(٦) العاقلة: العشيرة، تتحمل عن القاتل خطأً؛ لا عمداً ولا صلحاً ـ دِيَتَه، يفترض فيهم الإهمال لشأنه حتى ارتكب جريمته، فهي مسؤولية جماعية مادية، وتدل على الروح التضامنية للجماعة. والدية مائة ناقة أو عشرة آلاف=

وفيه دليل على أن الأصل في الدين أن لا تأثير في الوجود لشيء بذاته، وإنما التأثير للقدرة نفسها، أو ما جعلته القدرة بمقتضى الحكمة، وغير ذلك محال. ولذلك قال أهل العلم: إن بروز القدرة إلينا في الأشياء على ضربين: منها ما هي مغطاة بيد الحكمة، ومنها ما هي بارزة بذاتها لا تغطية عليها.

وأما قولنا: ما الحكمة في نفيه، عليه السلام، تلك الأربعة أشياء؟ فلوجوه، منها: أن التأثير في الأشياء كلها للقدرة كما تقدم. وغير ذلك محال، لأن هذا من حقيقة الإيمان. ومنها نفي التغيير الذي قد يعلق في النفوس من تلك العوائد لمن فعلها، ولذلك قال ﷺ (إذا تطيَّرتَ فامْضِ) أي لا ترجع عما كانت عليه نيتك قبل، فإن ذلك التطير لا يمنع شيئاً ولا يجلبه. ومنها شفقته، عليه السلام، على أمته ليريحهم من التعب الذي يلحقهم بالتقيد بتلك العوائد المذمومة، ولا فائدة لهم فيها. ومنها إبقاء التوادد[1] بين المؤمنين.

يؤيد هذا المعنى الذي أشرنا إليه قوله عليه السلام في الشؤم (إن كان: ففي الدار والمرأة والفرس)[2]. فإن هذه الثلاث مما يمكن الانفصال عنها، وليس على أحد في ذلك كبير مشقة، ولم يحقق عليه السلام الشؤم فيها، وإنما قال عليه السلام: إن كان ـ على زعمكم ـ ففي هذه الثلاث. ونفاه أن يكون في ابن أو أخ أو صاحب أو قريب من الأقرباء أو في شيء من الأطعمة أو فيما يتمول من الأشياء سوى ما ذكر، حتى تبقى نفوس القرابة والأصحاب مجتمعة، لا يجد أحد بأحد تغيّراً. وكذلك فيما فتح الله تعالى عليه من جميع المتمولات.

وترى اليوم يتطيَّر بعض الناس ببعض آخر، أو ببعض أبنائهم، أو أصحابهم، ويقولون: ما حدث لفلان إلا حين ولد له فلان. ويكره ذلك الابن من بين بنيه، ويوافقهم على ما زعموا. وكذلك في الأصحاب ومن يلقونه يقولون: ما حرمت اليوم إلا من كوني لقيت فلاناً. وقد شاع هذا في

= درهم أو ألف دينار؛ وكانت هذه الأنواع الثلاثة متعادلة القيمة. والعقل: تحمل الدية بهذا الشكل المشترك.

(١) كذا بإظهار ما حقه الإدغام.

(٢) قال بعض العلماء: إن السيدة عائشة رضي الله عنها استدركت على الصحابة بعض أحاديث، ومنها هذا الحديث وقالت: قال رسول الله ﷺ قالت اليهود إن يكون الشؤم ففي ثلاث إلى آخر الحديث. وفريق آخر وهو جماعة المحدثين قالوا: حديث إن كان الشؤم ففي الدار والمرأة والفرس. رواه البخاري في الطب باب الطيرة، وباب لا عدوى وفي البيوع باب شراء الإبل، وفي الجهاد باب ما يذكر من شؤم الفرس، وفي النكاح باب ما ينفى من شؤم المرأة؛ ورواه مسلم في السلام باب الطيرة والفأل.

والجمع بين رأي بعض العلماء والمحدثين يكون بحمل إنكار السيدة عائشة على ابن عمر وأبي هريرة على قضايا ووقائع خاصة لا على العموم. والاختلاف هنا ليس من باب تعارض الأخبار، بل من باب الزيادة المفيدة في الحكم فتقبل باتفاق، ولاسيما أن الترمذي نقل عن السيدة عائشة رواية فيها موافقة الجماعة، فعلى هذا فروايتها مع الجماعة أولى من روايتها على الانفراد كما رجحوا ذلك في مواضع.

الناس كثيراً، وهذا مخالف لسنة الرسول ﷺ، ولما نص عليه في هذا الحديث، وهو جاهلية محضة. وكفى بهذا شؤماً، لأن الشؤم كله والشر كله مخالفة سنة الرسول ﷺ. وقد بين العلماء الشؤم الذي في تلك الثلاث، فقالوا: شؤم المرأة سوءُ خلقها، وشؤم الدار سوءُ جارها، وشؤم الفرس ألا يجاهَد عليه في سبيل الله.

وأما جوابه ﷺ للمرأة التي أتت تشكو له حالها بدارها حيث قالت: أتيتها والعدد كثير والمال وافر، فقلّ العدد وذهب المال، فقال رسول الله ﷺ: دعوها ذميمة[1] فليس فيه تحقيق لشؤمها. وإنما قال ﷺ ذلك ترويحاً لخاطرها، كأنه، عليه السلام، يقول: ليس يلحقك منها شيء إذا رحلت عنها وتبقى هي مما نسبت أنتِ إليها ذميمة عندك، لا تلتفتي إليها.

وهنا تنبيه على الشؤم الذي قد تحقق بالكتاب والسنة لكل من لا يرجع عنه وهو الذنوب والمعاصي، فإن شؤمهما لا يفقد في الدارين حساً ومعنى. وهذا الشؤم الذي قد نفته الشريعة تعلقت به النفوس إلا القلائل، وهم أقل التوفيق. قاتل الله أخا الجهالة، على نفسه ما أعداه! وعن الحق ما أعماه!

وما أمره، عليه السلام، بالفرار من المجذوم، هل هو على الندب، أو الوجوب أو من طريق الشفقة؟ احتمل. والأظهر أنه من طريق الشفقة بدليلين: (أحدهما) من فعله، عليه السلام، وهو أنه روي عنه ﷺ أنه أكل مع المجذوم في صحفة واحدة، وقال (بسم الله لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)[2]. فلو كان الفرار منه واجباً أو مندوباً كان، عليه السلام، أول من يفعله. (والدليل الآخر) أنه قد ذكر من طريق الطب أن تلك الروائح التي لهم تحدث في الأبدان خللاً، وتتألم النفوس أيضاً منها. ومن شفقته، عليه السلام، على أمته كل ما فيه لهم ضرر في أي وجه كان ينهاهم عنه، وكل خير في أي نوع كان يدلهم عليه. فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته.

وأما قوله عليه السلام: (كما تفر من الأسد) فهو مبالغة في الهرب منه، لأن العادة في فرار الناس من الأسد أنهم يكونون منه في البعد بحيث لا يشمون له رائحة، ولا يلحقهم منه نفس، وهم يشتدون في الهرب فهو غاية في الهرب. ويمكن الجمع، بينه وبين فعله عليه السلام وقوله، أن قوله

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ في الاستئذان باب ما يتقى من الشؤم، وإسناده منقطع. قال الزرقاني في شرح الموطأ قال ابن عبد البر: إنه محفوظ عن أنس وغيره، ولكن الذي رواه أبو داود وصححه الحاكم عن أنس أن السائل رجل وعند مالك امرأة، فيجمع بينهما بأن كلاً من الرجل والمرأة سأل عن ذلك.

(٢) ليس في نص الحديث أن رسول الله ﷺ قال «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، وما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه ابن حبان عن جابر بلفظ: أخذ النبيّ ﷺ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة فقال: كل باسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه.

هو المشروع لنا من أجل ضعفنا، فمن فعله فقد أصاب السنّة وهي أثر الحكمة الربانية. وفعله، عليه السلام، هو حقيقة الإيمان والتوحيد، لأن الأشياء كلها ما جعل الله تعالى لها تأثيراً إلا بمقتضى جريان حكمته سبحانه وسنته في خلقه، وما لم يجعل له ذلك فلا تأثير له. وما الكل إلا بقدرته، عزّ وجلّ، وإرادته.

يشهد لذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١) فمن كانت له قوة يقين وصدق إيمان فله أن يتبعه عليه السلام في فعله ولا يضره شيء، وهو في فعله متبع للسنة. ومن كان يقينه ضعيفاً فله أن يتبع أمره عليه السلام في الفرار، ولا يجوز له مع الضعف أن يتبع في الفعل لأنه عري عن شروطه، وقد يدخل بفعله ذلك تحت قوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(٢).

ويترتب على هذا من الفقه أن الأمور التي يكون فيها توقع ضرر، وقد أباحت الحكمة الربانية الحذر منها، أن الضعفاء لا ينبغي لهم أن يقربوها، وأن أصحاب اليقين والصدق مع الله تعالى في ذلك بالخيار، إن شاؤوا أخذوا بأحد الوجهين: الفعل أو الترك، لأنهم لهم أسباب ذلك متمكنة.

وقد ذكر عن بعض السياحين أنه كان له رفيق في طريقه، فمرا على مغارة وهي ضيقة العبور، وإذا بها أسد، فقال لصديقه: مُرّ ولا تبال. فقال له صديقه: السنَّة واسعة، إني لا أمر عليه. ومرّ عليه أنت. ففعل، فتقدم ومرّ عليه، فلم يضره. ورجع صديقه عن ذلك الموضع إلى موضع ثانٍ لكونه لم يجد في الوقت من اليقين ما وجد صاحبه، فعمل كل منهما على ما اقتضاه حاله.

وهذا هو الشأن. وفي قوله ﷺ عند الأكل مع المجذوم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾(٣) دليل على أن مقتضى الحكمة الربانية أن يصيبه من المجذوم أذى لمن يدنو منه، وفي أمره، عليه السلام، بالفرار دليل على أن الحكم يعطى للغالب. يؤخذ ذلك من أمره، عليه السلام، بالفرار على العموم، لأن الغالب من الناس هو الضعيف، فجاء الأمر بحسب ذلك.

تنبيه: وإذا أُمِرنا بالهرب من جذام الأبدان فمن باب أولى الهرب من جذام الأديان، وهم أصحاب البدع والشِّيَع، لأن المرض في قلوبهم، والسم الباطن أشد سرياناً من الظاهر. ومن أجل هذا روي عن بعض علماء السنة أنه كان في زمانه بدعيّ، فجاءه يوماً يرغب منه أن يقرأ عليه آية من كتاب الله تعالى، فحلف ألا يفعل، وأخرجه من عنده. فقيل له في ذلك فقال: لم يأت بتلك الآية إلا

---

(١) سورة البقرة، من الآية ١٠٢.
(٢) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.
(٣) سورة التوبة، من الآية ٥١.

وقد دبّر معها مكيدة في الدين. فالهرب من أهل الزيغ والزلل سبيل النجاة. وقد نبه ﷺ على ذلك بقوله (الجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجليس السوء)[1] أو كما قال عليه السلام. وقال بعضهم في هذا المعنى:

يقاس المرء بالمرء إذا هو ماشاه   وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) رواه الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة، وإملاء الخير خير من السكوت، والسكوت خير من إملاء الشرّ.

ـ ٢٣٠ ـ
حديث الأمر باتخاذ السترة للمصلي

عَن أبي جُحَيفَةَ[١]، رَضي الله عنهُ، قالَ: رَأيتُ بلالاً جاءَ بعَنَزَة[٢] فَركَزَها، ثُمَّ أَقامَ الصَّلاةَ. فَرَأيتُ رَسُولَ الله ﷺ في حُلَّةٍ مشمِّراً، فَصَلَّى رَكعَتينِ إلى العَنَزَةِ، وَرَأيتُ النَّاسَ والدَّوابَّ يَمُرّونَ بَينَ يَديهِ مِن وَراء العَنَزَةِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن العنَزة سِترة للمصلّي، وأن المارَّ خلفها لا شيء عليه، ولا على المصلي. والكلام عليه من وجوه.

منها: في صفة العنزة، وهل يجزيء في سترة المصلي غير تلك الصفة؟

فأما صفتها فقد ذكر العلماء أنها مثل مؤخَّرة الرَّحل طولاً وغلظاً. وقد جاء عنه ﷺ حين سُئِل عن سِترة المصلي فقال: قدر مؤخرة الرحل. ومنهم من حَدَّها بما يقرب من ذلك، وهو أن يكون طولُها ذراعاً، وغلظها غلظ الرمح. وبقي الخلاف بينهم فيما لم يكن على تلك الصفة مثل ستر العورة بالثوب وما أشبهه، فمن لحظ تلك الصفة التي كان ﷺ فعل قال: لا يجزيء غيرها؛ ومن عَلَّلَ وقال: ما جعلت السترة إلا من أجل عدم التشويش، أجاز ذلك. ولذلك اختلفوا في الخط في الأرض، هل يجزيء عن السترة أم لا؟ على قولين.

وفيه دليل على جواز الصلاة بالتشمير. يؤخذ ذلك من قوله (مشمراً). إلا أنه نص الفقهاء ألا يكون ذلك التشمير من أجل الصلاة، فإذاكان لضرورةٍ ما فله أن يصلي به على حالته.

---

(١) أبو جحيفة: وهب بن عبد الله بن مسلم بن جنادة السوائي، ويقال له: وهب الخير. صحابي توفي النبي ﷺ وهو مراهق، وسكن الكوفة، وولي بيت المال والشرطة لعلي رضي الله عنه، وكان يقوم تحت منبره يوم الجمعة، وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة سنة ٦٤ هـ.

(٢) العَنَـزَة: أطول من العصا وأقصر من الرمح، في أسفلها زُجّ كزُج الرمح، يتوكأ عليها الشيخ الكبير.

وفيه دليل على أن السنَّة في السفر التشمير. يؤخذ ذلك من أن هذه الصفة لم تُروَ عنه ﷺ إلا في السفر.

وفيه دليل على أن إقامة الصلاة لا تكون إلا بعد ما يُفرغ من كل ما تحتاج الصلاة إليه والتهيئة لذلك. يؤخذ ذلك من أن بلالاً لم يُقِم الصلاةَ إلا بعد ما فَرغ من ركز العنزة.

وفيه دليل على أن وقت الشروع في أمور الصلاة من الإقامة وما يقرب منها لا يُشتغل بشيء، وإن قلّ. يؤخذ ذلك من كون بلال فرغ من ركز العنزة، وهو شيء يسير جداً، وحينئذ أخذ في الإقامة. وبلال لا يفعل ذلك إلا بأمر النبيّ ﷺ.

ويترتب عليه من الفقه خلو القلب عند التلبس بالعبادة من كل شيء، وإن قلَّ. يؤيد هذا قوله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[1].

وفيه إشارة إلى أن المسافر يُقدّم في سفره ما يحتاج إليه من ضروراته لِدِينه بحسب ما يعرف من طريقه، ويدفع ذلك في رَحله. يؤخذ ذلك من حمله ﷺ العَنَزة في رحله. ولأجل هذا قال العلماء: ينبغي للمرء أن يكون له في بيته تراب طاهر أو حجر معدّ للتيمم، من أجل أن يطرقه بالليل مرض لا يمكنه معه الطهارة بالماء. فإذا كان عنده أحد الأشياء التي يجوز التيمم بها يتيمم لئلا تتعطل عليه فريضة، وإلا كان مفرّطاً في دينه.

وفيه دليل على أن القَصْر في السفر أفضل. يؤخذ ذلك من قوله (صلَّى ركعتين)، لأن العلماء اختلفوا في القَصْر في السفر، فمن قائل بالوجوب، ومن قائل بضده إلا لعذر، ومن قائل بجوازه. والذين قالوا بجوازه اختلفوا أيضاً: أيهما أفضل: هل القصر أو ضده؟ بحسب ما ذكر في كتب الفروع.

وفيه دليل على أن من السنّة حُسْنَ الزِّيّ في الصلاة. يؤخذ ذلك من قوله (في حُلَّة)، والحُلّة عندهم هي أحسن الزي، لأنها ثوبان، تستر الجسد كله.

وفيه دليل لمن تأول السترة وعللها بأنها لزوال التشويش. يؤخذ ذلك من قوله: (ورأيت الناس والدواب يمرون بين يديه من وراء العنزة). فإنه لا شيء للخاطر أشد تشويشاً من مرور الناس والدواب بين يديه.

وبقي بحث وهو أن يقال: هل جَعلُ العنزة على ذلك القدر الذي تقدم ذكره تعبّد لا يعقل له

---

(١) سورة الشرح، الآيتان ٧ و ٨.

معنى، أو هو مما يعقل له معنى؟ فإن قلنا: لا يعقل معناه، فلا بحث ووجب الاتِّباع لا غير. وإن قلنا: له معنى ـ وهو الأظهر ـ فما هو؟ فنقول، والله أعلمُ:

لما كانت الصلاة لها تلك الحرمة العظيمة ـ كما تقدم ذكره في حديث الإسراء ـ وكانت قبلُ في الأمم الخالية لا يُوقِعونها إلا في المواضع التي نُصِبت لها، وقد أمر الله، عزّ وجلّ، برفع تلك المواضع إكراماً للصلاة التي تُوقَع فيها بقوله عزّ وجلّ ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾[1] ثم إن الله، عزّ وجلّ، مما خص به سيّدنا ﷺ أن جُعِلت له الأرض مسجداً وطهوراً، أي في كل موضع منها يجوز إيقاع الصلاة فيه ـ كما تقدم في الحديث قبل، بقوله عليه السلام (حيثما أدركتْكَ الصلاةُ فصَلِّ)[2] ـ وقال، عليه السلام، في شأن المارّ بين يدي المصلي (لأن يقفَ أربعينَ خريفاً خيرٌ من أن يَمُرَّ بين يَدَيْهِ)[3]، فبحلول وقت أداء الصلاة صارت جميع الأرض مستحقة للمصلي يوقع صلاته حيث شاء منها، وبقيت حقوق الناس منها في المرور وغيره متعذرة ممنوعة حتى يفرغ هذا من صلاته، فأحكمت السنة بجعل العنزة تحديداً للبقعة التي اختارها المصلي لوقوع صلاته، وبقي ما عداها من الأرض لجميع الناس، لا حَجْرَ عليهم في تصرفهم فيها من مرور وغيره، فجاء قوله ﷺ (لا ضرر ولا ضِرارَ)[4] فبقيت حرمة الصلاة على ما هي عليه، وبقي الناس على ما لهم في الأرض من المنافع لم يضيّق عليهم، لأن الدينَ ـ كما تقدّم ـ يُسر.

ولذلك قال ﷺ في الذي يمر بين السترة والمصلي (إنه شيطان)[5]، لكونه خالف حدود الشريعة. وبهذا التعليل يصح ما جاء من جواز أن يكون الخط في الأرض سترة، فإن البقعة تتحدد به وتنحاز من غيرها، وتكون العنزة أفضلَ من الخط لأنها أكثر فائدة في حق المارّ، فإن المارّ قد لا يرى الخط، ويمر بين السترة وبين المصلي، فيقع في الإثم، والعنزة بذلك القدر لا تَخفَى على أحد. ولهذه الفائدة ـ والله أعلم ـ جُعِلت في الارتفاع قدر مؤخَّرة الرحل، لأن ذلك القدر من الارتفاع لا يخفى على أحد.

وفيه دليل على أن سيّدنا ﷺ لا يفعل من الأمور كلها إلا الأرفع والأفضل. يؤخذ ذلك من أنه

---

(١) سورة النور، من الآية ٣٦.
(٢) رواه ابن أبي شيبة عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) رواه الإمام مالك والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي جهم رضي الله عنه بلفظ: لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خريفاً خيراً من أن يمرّ بين يديه.
(٤) رواه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس والبيهقي عن عبادة بن الصامت وأبو نعيم والطبراني عن ثعلبة ابن مالك القرظي رضي الله عنهم.
(٥) رواه ابن خزيمة والطحاوي وأبو عوانة والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ: إذا مرّ بين يدي أحدكم شيء وهو يصلي فليمنعه مرتين، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان.

لما كانت العنزة فيها زيادة الفائدة التي ذكرنا كان يحملها في رحله. وعلى هذا التوجيه الذي ذكرناه تتبين فائدة قوله عليه السلام (سِترة الإمام سترةُ مَنْ خَلْفَه)[1]، لأنْ بها تحيزت البقعة التي للصلاة أولاً، ويكون آخرها بقدر ما تبلغ إليه صفوفهم. فتنبَّهْ إلى هذا النوع من أنواع الصلاة، ولا يكون بينها تعارض، إن شاء الله تعالى، وغيره من التعليل قد ينكسر في بعضها. وقد قيل: (الفقه بالفهم، فانتبه، لا برواية وإن عَلَت).

اللَّهم، واجعل ما أنعمتَ به علينا في هذا الحديث الجليل مما أظهرته على يد محمّد نبينا الكريم من باهر قدرتك، وما أبديته لنا من أنوار حكمتك فيما تعبدت به عبادك المؤمنين، نوراً في قلوبنا، وتقوية في إيماننا، وثلجاً في يقيننا، وتزكية في أعمالنا، وبلغنا بها الزلفى وحسن المآب، إنك أنت الكريم الوهاب.

وصلَّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس وعبد الرزاق عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً.

ـ ٢٣١ ـ

حديث تحريم لبس الحرير

عَن عُقبَةَ بنِ عامِرٍ[1]، رَضي الله عَنهُ، قالَ: أُهدي لِرسُولِ الله ﷺ فَرّوجُ[2] حَريرٍ، فَلَبِسَهُ ثُمَّ صَلَّى فيهِ ثُمَّ انصَرَفَ، فَنَزَعَهُ نَزعاً شَديداً كالكَارِهِ لَهُ، ثُمَّ قالَ: لاَ يَنبَغي هَذا للمُتَّقينَ.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على كراهية لباس الحرير للمتقين. والكلام عليه من وجوه، منها: هل يجوز لغير المتقين وهل تلك الكراهة كراهة تنزيه أو تحريم؟

أما قولنا: هل يجوز لغير المتقين؟ إذا عرفنا حقيقة هذا الاسم حينئذ نتكلم في غيره، وما يلزمه من هذا الحديث. أما التقي فهو اسم يعم جميع المسلمين، لكن الناس فيه على درجات، ودليل ذلك قول الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾[3] فكل من دخل في الإسلام فقد اتقى، أي وقى نفسه من الخلود في النار. فإن اتقى ثانية ومنع نفسه من المعاصي فقداتقى حَدّ التُّقى. أي: وقى نفسَه من دخول النار. فإن رسول الله ﷺ يقول (الإيمان إيمانان: إيمان لا يُدخل صاحبَه النارَ، وإيمان لا يخلّد صاحبه في النار). فالإيمان الذي لا يخلّد صاحبه في النار هو الإيمان مع المعاصي. والذي اتقى التقى الثالث هو في درجة الإحسان، لأنه اتقى بالله ما سواه، فلم ير في الوجود سوى الواحد الأحد، كما قال ﷺ (أنْ تعبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[4]،

---

(١) عقبة بن عامر: الجهني، أمير معاوية على مصر، صحابي، فقيه، فصيح، شاعر، قارىء، كان رديف النبي ﷺ وشهد صفين مع معاوية رضي الله عنه وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص رضي الله عنه. وهو أحد من جمع القرآن. له ٥٥ حديثاً. توفي بمصر سنة ٥٨ هـ.

(٢) الفَرّوج: قباء شقّ من خلفه.

(٣) سورة المائدة، من الآية ٩٣.

(٤) قطعة من حديث رواه الشيخان والترمذي وأبو داود والنسائي عن عمر رضي الله عنه وأوله: بينما نحن جلوس=

وهذا مقام الخصوص، وبقي عدا المؤمنين ـ وهم الكفار ـ فمن قال: إنهم مخاطَبون بفروع الشريعة فلا يبيحه لهم. ومن قال: إنهم ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة أجاز لهم لبسه.

وأما قولنا: هل الكراهية على التحريم أو التنزيه؟ لفظ الحديث محتمِل. لكن قد جاءت القرائن من خارج تدل على التحريم، لأنه قد جاء عنه ﷺ أنه قال في الحرير (إنه حرامٌ على ذكور أمتي)[1]، والآثار في هذا النوع كثيرة. فقد ثبت تحريمه بالسنة على ذكور هذه الأمة، لا خلاف في ذلك بين العلماء، وإنما الخلاف بينهم هل يستعمل عند الضرورة ويقدّم على غيره، أو لا؟ مثل ما إذا لم يكن لشخص إلا ثوبان، أحدهما نجس والآخر حرير. فمنهم من قال يصلي في الحرير، ومنهم من قال يصلي في النجس. وكذلك لباسه في الحرب. فمنهم من منعه ـ وهو مالك والجمهور ـ ومنهم من أجاز ذلك بشروط، وهو الشافعي ومن تبعه.

والشروط التي ذكرت عنه أن يكون لابسه عادماً لما يتقي به عن نفسه من آلات الحرب مثل الدرع وما يشبهه من عدة الحرب، ويكون ثوب الحرير خشناً لأنه يرد عنه الأذى. وأما أن يكون لبسه للزينة في حرب أو غيره فهذا لا يجوز. وما اتخذه بعض الناس اليوم من لبسه في الحَضَر والسفَر على وجه الزينة فحرام بالإجماع، لا يجوز، ولابسه عاصٍ، وصلاته مختَلَف فيها: هل تصح أو لا تصح؟ والغالب عدم صحتها، وسواء كان اللباس منه كبيراً مثل القباء وما يشبهه، أو يسيراً مثل الكوفية وما يشبهها، فالباب واحد.

وفيه دليل على جواز الهدية وقبولها. يؤخذ ذلك من قوله: أُهدي لرسول الله ﷺ. لكن الهدية على ثلاثة أوجه، كما قال عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: هدية لوجه صاحبك فلك وجه صاحبك، وهدية للثواب فلك ما أردت، وهدية لوجه الله تعالى فتلك التي ثوابها على الله، أو كما قال.

وبقي في الهدية تقسيم آخر قسمه العلماء: لا يخلو صاحب الهدية أن يكون كسبه حراماً، أو حلالاً، أو مختلِطاً. فإن كان حراماً فلا تحلّ، وإن كان حلالاً فجائزة بلا خلاف، وإن كانت ممّن كَسْبُه مختلط فأربعة أقوال: بالجواز، وبعدمه، وبالكراهة، وبالتفرقة إن كان الحلال الغالبَ على كسبه فجائزة، وإن كان الحرام الغالبَ فممنوعة. هذا إذا خَلَت الهدية أن تكون رِشْوة، فإنها إذا كانت على هذا الوجه فحرام، وذلك هو السُّحْت بعينه.

= عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر الخ...

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إن هذين حرام على ذكور أمتي حلال لإناثهم. يعني الذهب والحرير.

وبقيت علة التحريم: هل هي معقولة المعنى، أو هي تعبد؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: معقولة المعنى. فما هي؟ فنقول، والله أعلم: إن العلة فيه كالعلة في التختم بالذهب، واستعمالِ أواني الفضة والذهب، وهي أنه لما كان الحرير لباسَ المؤمنين في الجنة منعه كما قال ﷺ في أواني الذهب والفضة (إنها أواني أهل الجنة)؛ وقال فيها في حديث آخر عن الكفار (هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)(1).

كذلك يخرّج الجواب على الحرير مثل الأواني سواء بسواء، في كون مولانا سبحانه أنعم على المؤمنين بدار كرامته، وجعل لباسهم فيها الحرير، وآنيتهم فيها الفضة والذهب، ثم أنعم على الكفار أنه أعطاهم نصيباً من ذلك في هذه الدار، وشاركهم في ذلك طائفة من المؤمنين، وهم النسوة وما يلحق لأزواجهن من التمتع بتلك الزينة منهن، تحقيقاً لصفة الرحمة حتى تعم جميع عباده سبحانه. يشهد لذلك قوله عزّ وجلّ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ ﴾(2).

وفيه دليل على استغنائه، عزّ وجلّ، عن عبادة عباده، وأنه لا تضره معصية العاصين، لأنه سبحانه قد أنعم على الكفار، وهم على ما هم عليه من كفرهم، وهو أعظم المعاصي. فقد أنالَهُم، عَزَّ وجلّ، طَرَفاً من الرحمة في هذه الدار. فلو كان يناله تعالى منها ضرر لم يكن يرحمهم في هذه الدار ولا في تلك الدار، ولم يكن أيضاً يلحق المؤمنين عذابٌ ولا آلامٌ في هذه الدار ولا في تلك الدار. فسبحان من تنزه وتعالى وتقدَّس واستغنى عن عبادة العابدين.

وبقي بحث وهو: ما الحكمة في أن أبيح لبس الحرير للنِّسْوة، وهنَّ في جميع أمور الدين شقائق الرجال؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: لحكمة، فما هي؟ فنقول، والله أعلم: لها وجوه: (منها) أنه لما علِم الله من ضعفهن وقلة صبرهن عنه، لأن النفوس كثيراً ما تتعلق به، فلطف، عزّ وجلّ، بهن في إباحة لبسه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(3). (ووجه آخر) وهو أن زينتهن به ليس في الغالب لهن بل هي لأزواجهن، وتزيّن الزوجة لزوجها من جملة حُسْنِ التَّبعل، وحسنُ التبعلِ من الإيمان. فلما عَرِي لبسهن له عن حظوظ النفوس، وكان لبسه لهن مما يُعين على أوصاف الإيمان ـ وهو حُسْن التبعل ـ أبيح لهن ذلك.

واحتمل أن تكون إباحته لهن من طريق اللّطف بالرجال، لأنه لو حُرِموه جميعاً لكان مسبّباً

---

(1) أخرجه الشيخان والبيهقي في الشعب عن حذيفة رضي الله عنها وأوله: لا تشربوا في آنية الذهب والفضة.

(2) سورة الأعراف، من الآية ٣٢.

(3) سورة الملك، من الآية ١٤.

للجميع للوقوع في الحرام، لأنهم يرون الكفار يتنعّمون بلباسه، وهم قد مُنِعوا منه بأجمعهم، فما كان يثبت هنا إلا القليل منهم. ومما يؤيد هذا التفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ . وَزُخْرُفًا﴾[1]. فلكرامة الإيمان وأهله منع الله، عزّ وجلّ، الكفارَ مما ذكر في كتابه، ولكرامة الإيمان وأهله أباح للمؤمنات ما أباح لهن من لبس الحرير.

إشارة صوفية: هي أنه لما كان لبس الحرير من أعلى الملابس، وبلبسه تبلغ النفوس أعلى حظها في جنس اللباس، حُرِّم على الذكور الذين فيهم الفحولية، وأبيح للأنوثية، دل بهذا على أن من فيه فحولية في الهمة يبتعد عن جميع ملذوذات الدنيا على اختلاف أنواعها، ولا يعرّج عليها، وإن كان بعضها مباحاً أيضاً على لسان العلم، ويزهد في جميعها إلا بقدر ما فيها عَوْن على الدِّين. وكذلك كل ما كان للنفس فيه حظ لا يعرج عليه، وإن كان بعضه مباحاً أيضاً على لسان العلم، إلا بقدر ما فيه عون على الدين.

في مثل هذا كان تنافسهم، حتى إنه ذكر عن بعضهم أنه كان مجاوراً بمكة، وكانت بيده صنعة يرد فيها في اليوم جملة دراهم، فلا يعمل من تلك الصنعة التي يعرفها، ولا يشتري لنفسه شيئاً يقتات به إلا حتى[2] يرى محتاجاً، فيرهن شَملَة كانت له فيما يحتاج في تلك الصنعة فيعمل يومه ذلك، ثم يفدي شملته آخر النهار، ويكون أكله تابعاً لذلك المحتاج الذي رآه.

ومما يقوي حسن فهمهم قول عمر، رضي الله عنه، حين تكلم معه بعض الصحابة، رضي الله عن جميعهم، بأن يحسّن لنفسه في أكله ويطيّبه، فإن في عافيته وصحته منفعة للمسلمين. فجاوبهم بأن قال لهم: كان لي صاحبان[3]، وقد ماتا، فأنا أشاركهما فيما كانا عليه من العيش الغليظ، لعلي أشاركهما في عيشهما الرغيد، أتريدون أن أكون ممن قال عزّ وجلّ في حقهم ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[4]؟ فتعس من ادعى الفحولية وهمته أدنى حالة من الأنوثية، ويهرج بلسان العلم وهو لا يعلمه. منّ علينا بعلو الهمة والمساعدة على ذلك بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الزخرف، ٣٣ ـ ٣٥.

(٢) كذا بزيادة «إلا» قبل «حتى».

(٣) يريد محمداً ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه.

(٤) سورة الأحقاف، من الآية ٢٠.

ــ ٢٣٢ ــ
حديث النهي عن تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال

عَنِ ابنِ عبَّاسٍ، رَضي الله عَنهُما، قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: لَعَنَ الله المُتَشبِّهين مِنَ الرِّجالِ بالنِّساءِ، والمتَشبِّهاتِ مِنَ النِّساءِ بالرِّجال.

* * *

ظاهر الحديث الدعاء منه ﷺ باللعنة على من تشبه من الرجال بالنساء، وعلى من تشبه من النساء بالرجال. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: ما معنى اللعنة؟ وهل هذا التشبه مطلقاً في كل الوجوه، أو على شيء مخصوص؟ وهل هذا الدعاء من النوع الذي هو مخوف أو ضده؟ وهل هذه اللعنة لحكمة نعلمها، أو تعبد ليس إلاّ؟ وهل الواقع في هذا تكون التوبة ترفع عنه ما لحقه من ذلك، أو لا؟

أما قولنا: ما معناها؟ فإن اللعنة في اللغة هي البعد. قال الله، عزّ وجلّ، في كتابه ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] أي أن الله أبعدهم، فمن أبعده الله تعالى فهو أخسر الناس، فإن لعنة الله لا غاية لها. أعاذنا الله من ذلك بحرمة نبيه ﷺ. فهذا في الزجر والنهي أكبر من الحدود التي جعلت في المعاصي، لأن تلك الحدود كفارة لهم لما وقعوا فيه، وهذا البعد لم يجعل لصاحبه مخرج على لسان الشارع، عليه السلام. وقد وقع من كثير من الناس التهاون بذلك، وقعوا فيه ولا يحسبونه شيئاً. نعوذ بالله من الحرمان.

وأما قولنا: هل هو مطلق من كل الوجوه، أو هو من وجه ما؟ أما ظاهر اللفظ فمحتمل. وأما الذي قد تقرر مما فهم من قواعد الشريعة خلَفاً عن سلَف فهو في زِيّ اللباس، وبعض الصفات والحركات، وما أشبه ذلك. وأما التشبّه بهم في أمور الخير وطلب العلوم والسلوك في درجات التوفيق فمرغّب فيه، وقد عاد اليوم عند بعض الناس ـ وإن كانوا من الذين يشار إليهم ـ الأمر

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٤٤.

بالعكس، فإنهم يمنعون النسوة من تَـعَـلُّمِ العلم، ويرونه من باب المذموم لهم، ويتشبه النساء بالرجال في زيهم، ويرونه من قبيل النبل والكَيْس. فإنا لله وإنا إليه راجعون على الخلل الذي وقع في الدين بوضع الأمور على ضد ما وضعها الشارع، عليه السلام، وكثرة التهاون في ذلك.

وأما قولنا: هل هذا الدعاء مما هو مخوف، أو ضده، وهو المرجو خيره لقوله ﷺ (إني عهدتُ عند ربي عهداً أيّما بَشَرٍ لعنته من أمتي أو سببتُه أن يجعلها عليه رحمة)[١] أو كما قال عليه السلام؟ اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن دعاءه ﷺ على أحدٍ من أمته، أو سبَّه إياه، أو لعنتَه له، على ضربين: (منها) ما هو على طريق الزجر والنهي عن شيء في الدين، وما هو في معناهما، فإن ذلك من النوع المَخُوف من لحوق الوبال من أجله، فإن المنع بذلك أشدّ من الحدود كما بيّنا أول الكلام، وما كان من ذلك على وجه الغيظ والحرج فذلك الذي ظاهره مخوف، وهو رحمة في الحقيقة، وقد نصَّ ﷺ على ذلك، لأنه قال (يا ربِّ، إني بَشَر، يَلحَقني ما يَلحَق البشر من الغيظ، فأيّما أحدٍ من أمتي سَبَبْتُه أو لعنته فاجعله له رحمة)[٢]. وهذا الدعاء هنا من قبيل الزجر والردع، فهو مخوف وأي مخوف.

وأما قولنا: هل هذا الزجر لحكمة نعلمها، أو تعبد؟ فالحكمة في ذلك ظاهرة لا خفاء بها، وهي إخراج الشيء عن الصفة التي وضعتها عليه حكمة الحكيم، كما قال عليه السلام (لعن الله الواشِمَةَ والمستوشِمَة والواصِلَة والمستوصِلة)[٣]، وعُلِّل هذا بتغيير خَلْق الله تعالى. فهناك تغيير خِلقةٍ وهنا تغيير صفةٍ. فالعلة واحدة، لأن تينك الطريقتين المذمومتين تضمنتا وجوهاً من وجوه الضلالات، فمنها: إخراج صفته بجهله عما رتبه مَن له الأمر سبحانه. ومنها: التشبه بصفة الخلق والاختراع، لأن الله، عزّ وجلّ، قد خلق أشياء، وجعل لها صوراً وصفات، فمن غيّر منهما صورة أو صِفَةً، على خلاف ما وضعت عليه، فقد نازع الجليلَ القادر في قدرته واختراعه. وفيه أيضاً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: اللهم إني أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه فإنما أنا بشر، فأيما مؤمن أنا آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة. وسيَرِدُ لهذا الحديث رواية أخرى بعد سطور معدودات.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: اللهم إنما محمد يغضب كما يغضب البشر، وإني اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيته أو شتمته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة. وفي رواية للشيخين عن أبي هريرة: اللهم إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل من المسلمين سبيته أو لعنته أو جلدته إلى آخر الحديث.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة.

إظهارُ سوء الأدب حقيقة، لأن أدب العبودية موافقة الموالية في كل الأشياء التي شاءتها، على أي نوع شاءتها، وأشياءُ من هذا النوع عديدة إذا تأملتها. وفيما ذكرنا منها كفاية.

وأما قولنا: هل توبة الواقع في شيء من ذلك رافعة لما قد لحقه من الوعيد أو لا؟ فإن جعلناه من جملة المعاصي ليس إلاّ فيدخل تحت قوله ﷺ (التوبةُ تَجُبّ ما قبلها)[1]. وإن قلنا: إن دعاءه، عليه السلام، يُلحق الواقع في ذلك الذنب أمراً زايداً من الخسارة والحرمان، لأن دعاءه، عليه السلام، مستجاب، فبقي الأمر محتملاً أن يذهب ذلك بالتوبة، كما يذهب الذنب، أو ذلك أمر قد وقع بالشخص لا يرتفع عنه ذلك الحرمان، وإن تاب. الأمر محتمل، وليس لنا دليل قطعيّ على أحد الوجهين.

ويترتب على هذا من الفقه أن الوقوع في الكبائر التي لها حدود وعقاب معلوم خير من الوقوع في هذه وأمثالها. أعاذنا الله من الجميع بفضله، لأن التوبة والحدود في تلك أيهما جاء بعدها كان كفارة لها، وهذه محتملة أن يكون لها مخرج، أو لا مخرج لفاعلها. فالهربَ إن كنت حازماً، والعفافَ العفافَ تكن ناجياً.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) الحديث بلفظ: الإسلام يَجُبّ ما كان قبله. أخرجه ابن عساكر عن خالد بن الوليد وابن سعد عن الزبير بن العوام رضي الله عنهما.

ــ ٢٣٣ ــ

حديث النّهي عن الوصل والوشم

عَن أبي هُريرَةَ، رَضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: لَعَنَ الله الواصِلَةَ وَالمُسْتَوصِلةَ، والواشِمَةَ والمُستَوشِمَةَ..

* * *

ظاهر الحديث لعنته، ﷺ، لهذه الأربعة المذكورة في الحديث. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى تلك الأفعال التي لعن النبيّ ﷺ مَن فَعَل منها واحدة؟ وما معنى اللعنة؟ فقد تقدم في الحديث قبلُ معناها. وهل هذا النوع من الدعاء المَخُوف، أوْ لا؟ فقد تقدم الكلام عليه أيضاً في الحديث قبل، وكذلك في التوبة منها قد تقدم الكلام عليه في الحديث قبل. وما معنى العلة في لعنته ﷺ لمن فعل واحدة من هذه الأربعة؟

فأما قولنا: ما معناها؟ فإن الواصِلة التي تَصِل شعرَها بشَعْرٍ آخَرَ ليس من شَعرها. وألحق العلماءُ بها مَن وصَلَت شعرَها بأي شيءٍ وصَلَته من صوف أو حرير أو غير ذلك. والمستوصِلة هي التي تفعل ذلك بغيرها. والواشمة هي التي تَشِم شيئاً من جسدها. وكانت عادتهن يغرِزن الموضع الذي يُرِدن أن يعَملْنَه شامة بالحديد حتى يَدْمَى الموضعُ، ثم يُحشَى بالكحل الأسود، فيبقى ذلك الأثر يشبه الشامة التي هي مخلوقة. والمستوشمة هي التي تفعل ذلك بغيرها.

ويترتب عليه من الفقه أن مرتكب المحرّم والذي يعينه على ذلك في الإثم سواء. يشهد لذلك قوله ﷺ في شارب الخمر (لعن الله شاربها وحاملها وبائعها وشاهدها وعاصرها)[1].

وأما قولنا: ما معنى العلة في ذلك؟ فقد اختلف العلماء فيها. فمنهم من قال: إن ذلك لما فيه من التدليس. وهذا ضعيف، لأنه يخصص عموم اللفظ بغير دليل. ومنهم من قال: لتغيير خلقة الله تعالى. وهو الظاهر. فإنه قد جاء في حديث غير هذا حين ذكر عليه السلام الفالجة والمتفلّجة قال

---

(١) أخرجه أبو داود والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها.

فيه: (المغيِّرات لخَلق الله تعالى)[١]. ويحمل على هذا النهي كل ما أشبه ذلك مما يفعله النسوة من تغيير ديباجتهن بالحُمرة وما معناها.

وقد جاء عن عمر، رضي الله عنه، أنه أنكر ما هو أقل من هذا، وهو أنه خطب وأمر النسوة ألا يخضبن أطراف أصابعهن بالحناء دون باقي أيديهن، وقال: من كانت خاضبةً فلْتَخْضِب إلى هنا، وأشار إلى تحت الكوعين. فإذا كان نَهيُ عمر، رضي الله عنه، عن مثل هذا فما بالك بالغير من أفعالهن التي هي أشد من ذلك؟ وقد تعددت حتى لا تكاد تحصى عِدَّةً. وبعض من ينسب إلى العلم في الوقت يجعل ذلك من قبيل الزينة الجائزة شرعاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ذهاب العلم وأهله. ويحتج بما ذكر عن الإمام مالك، رحمه الله، أنه أنكر أن يصح عن عمر أن يجعل ما ذكرنا عنه من الوشم.

وهذا لا حجة فيه، لأن مالكاً ما أنكر على عمر مقالته، ولو أنكرها ما صح أن يكون إماماً، وإنما أنكر أن يعتقد معتقد أن[٢] ما نهى عنه عمر إلا أنه من الوشم الذي لعن رسول الله ﷺ فاعله، ونهيُ عمر رضي الله عنه، عن ذلك إنما هو لمعانٍ. منها: أنه أشبه الوشم، ولَمّا أشبهه أعطاه حكمه. وما قاله عمر وجب علينا اتباعه، لقوله ﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المَهْدِيِّينَ من بعدي)[٣]، وهو رضي الله عنه وعنهم أجمعين منهم.

وطريق آخر وهو أن ذلك لم يكن في زمان رسول الله ﷺ، وإنما كان شأنهن أن يخضبن إلى حيث أشار رضي الله عنه، فنهاهن من أجل مخالفة السنة. وقد يكون نهيه من أجلهما معاً: شبهه بالوشم واقتصاره على أطراف الأصابع. وفي كلٍّ مخالفة لسنته عليه السلام

وقد قيل: إنما أنكر مالك الرواية أن تصح لا الحكم، لأن الإمام مالك كان أكثر الناس احتراماً لمن تقدمه من السلف، فكيف بالخلفاء؟ ولو لم يكن لمالك شاهد على ذلك إلا مسألة البناء في الرعاف أنه قال: القياس[٤] والفقه يقتضي قطع الصلاة، ولكن اتباع السلف أولى[٥]. وبذلك ساد على غيره. وكذلك سنة الله تعالى بعده في خلقه: ما وقع من أحد احترام السلف والاقتداء بهم إلا رفع الله تعالى قدره على أبناء وقته وجنسه. جعلنا الله منهم بمنّه وفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) كأنه يريد الحديث: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. رواه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يريد: أنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن العرباض رضي الله عنه ومطلعه: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون الخ.

(٤) يعني القياس في الحكم الشرعي.

(٥) حذف جواب «لو» والتقدير: لما كان له سيادة.

ــ ٢٣٤ ــ

حديث حق الله على عباده

عَن معاذِ بنِ جَبلٍ، رَضي الله عنهُ قالَ: بَينما أنا رَديفُ النَّبيِّ ﷺ لَيس بَيني وبَينَهُ إلاَّ آخِرَةُ الرَّحلِ، فَقالَ: يا مُعاذُ. قُلتُ: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعةً ثُمَّ قالَ: يا معاذُ. قُلتُ: لَبَّيْـكَ يا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْـك. ثم سارَ ساعةً ثمَّ قال: يا مُعاذُ. قلتُ: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ قالَ: هل تَدري ما حَقُّ الله على عِبادِهِ؟ قُلتُ: الله وَرَسُولُهُ أعلَم. قالَ: حَقُّ الله على عبادِهِ أن يَعْبُدوهُ ولاَ يُشركوا بِهِ شَيئاً. ثُمَّ سَارَ سَاعةً ثُمَّ قالَ: يا مَعاذُ بنَ جَبلٍ. قُلتُ: لَبَّيْـكَ يا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْـكَ. قال هَل تَدري ما حَقُّ العبادِ على الله إذا فَعَلوهُ؟ قُلتُ: الله وَرَسُولُهُ أعلَم. قالَ: حَقُّ العبادِ على الله ألاَّ يُعذِّبَهُم.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) الإعلام بحق الله تعالى على عباده، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. (والآخر) الإخبار أيضاً أن حق عباده سبحانه إذا فعلوا ذلك ألا يعذبهم. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما الفرق بين حقه، جلّ جلاله، وحق العباد؟ فالجواب: أما حقه سبحانه فهو واجب بوجوه. منها: لذاته الجليلة، ومنها: لأمره، عزّ وجلّ، بذلك، ومنها لِما لَهُ عزّ وجلّ، علينا من النعم والإحسان التي لا يحصى عددُها.

وأما حق العباد عليه، عزّ وجلّ، إذا فعلوا ذلك فحق تفضل منه عليهم، لا وجوب عليه لازم، فإنه جلّ جلاله لا حق لأحدٍ عليه لازم. هذا مذهب أهل السنة، والذي تعطيه الأدلة الشرعية والعقلية خلافاً للقدَرية، التي هي مجوس هذه الأمة، لأنهم يقولون بزعمهم: إنّ على الله حقاً واجباً أنّ من عبده ألاّ يعذبه. وكيف يكون لعبد على مولاه حق لازم، وهو كله له؟ هذا ينفيه العقل.

وقد أوحى الله، عزّ وجلّ، إلى موسى، عليه السلام، أن (بشر العاصين وحذّر الطائعين.

قال: إلَهي، وكيف أفعل ذلك؟ قال: بشّرِ العاصين أن رحمتي وَسِعَت كلّ شيء، وحذِّر الطائعين إن أقمت عليهم عدلي هَلَكوا). من ذا الذي يطيق عدلَه؟ وكيف يكون لأحد خلاص إذا أقيم عليه عدلُه؟ ثم كيف يكون للطائع حق وجوب عليه سبحانه، وتوفيقه، سبحانه عزّ وجلّ، إياه للطاعة نعمة عليه تستوجب الشكرَ عليها؟ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1] والمحروم أعمى البصيرة، لا يرى إلا من حيث حرمانه.

وفيه دليل على تواضعه، عليه السلام، وحسن سيرته مع أصحابه. يؤخذ ذلك من إرداف معاذ خلفه.

وفيه دليل على جواز ركوب اثنين وأكثر على الدابة، إذا طاقت ذلك. يؤخذ ذلك من ركوب معاذ خلفه عليه السلام. وقد جاء أنه ﷺ ركب وجعل الحسن والحسين معه، أحدهما أمامه والآخر خلفه.

وفيه ردّ على من يكره ذلك ويعيبه على أهل المناصب، والحجة عليه فِعل خير البرية صلى الله عليه وسلم.

وفيه دليل على أن نداء الشخص باسمه أرفع ما نودي به. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (يا معاذ) ولو كان النداء بغير الاسم أرفع لكان ﷺ يفعله. نعم إن الكنى، إذا كانت على الوجه المشروع، جائزة. وبين الجائز والأرفع فرق بيِّن.

وفيه دليل على أن نداء الشخص باسمه قبل إلقائك العلم إليه: من أدب العلم، وإن لم يكن معكما ثالث. وفي ندائك إياه قبلُ من الفائدة إحضارُ ذهنه إليك ليعي ما تلقيه إليه، لأن الأذهان قد تطرقها فكرة، فتكون بها مشغولة فلا تعي كل ما يلقى إليها. وفي تكراره، عليه السلام، نداءه ثلاثاً تأكيد في حضور ذهنه، وإشعار بأن الذي يلقى إليه له بال، لأنه، عليه السلام، كانت سنته أن كل شيء له بال أعاده ثلاثاً. ويؤخذ من إبطائه عليه السلام بين النداءَيْنِ أنَّ من السنة إلقاءَ العلوم بالوقار والتؤدة.

وهنا بحث وهو: لم زاد في الثالثة (ابن جَبَل)؟.

فالجواب: إنما هي إشارة إلى أن هذه الثالثة آخر النداء. فاسمع ما يُلقى إليك، لأن زيادة (ابن جبل) هو الكمال في التعريف، وإذا كمل الشيء فقد تمّ. ويزيد ذلك المعنى بياناً قوله، عليه السلام، آخر الحديث (يا معاذ بن جبل، وهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه)؟ فإن نداءه

(١) سورة الحجرات، من الآية ١٧.

عليه السلام له آخرُ واحدة، فناداه بأكمل المعرفة. وفيما أبديناه دليل على ما أعطاه عزّ وجلّ، من الفصاحة والإعجاز في كلامه، عليه السلام، الذي لا تقدر أن ترى فيه زيادة إلا ولها فوائد جمّة.

وجواب معاذ له ﷺ بقوله (لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيكَ) من الجواب الخاص به ﷺ، بدليل أنه لم يكن الصحابة يفعلون ذلك بينهم، ولا هو ﷺ فعل ذلك معهم. فدل على أن ذلك من الخاص به عليه السلام. وقد نص العلماء على جواب الرجل لمن ناداه بقوله: (لبيك) أنه من السَّفه، لأن هذه لفظة جعلت من جملة شعائر الحج، وكل ما جعل من شعائر الدين فينبغي توقيره وتعظيمه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[1] وقد صار بعض الناس اليوم يجاوبون بها بعضهم بعضاً، ويجعلون ذلك من الأدب والنبل، وما ذاك إلا لقلة التقوى وعدم معرفة السنة. هيهات كيف يتأدب من لا يعرف الأدب؟

وفي قول معاذ (الله ورسوله أعلم) دليل على أن من أدب العلم أن يُرَدّ العلم إلى أهله.

وفي قول سيّدنا ﷺ (هل تدري ما حق الله على عباده)؟ دليل على أن إلقاء العالم المسائلَ على تلامذته، وحينئذ يبيّن لهم ذلك، لأن في ذلك من الفائدة إحضار الذهن لقبول العلم. وفي تعليمه ﷺ معاذاً من غير سؤال منه له ﷺ دليل لمن يقول: إن للعالم أن يعلّم دون أن يُسأل، لأن هذه مسألة اختلاف بين العلماء. وفي فصله، عليه السلام، بالمشي ساعة بين المسائل دليل على أن النجح في تحصيل العلوم: التفرقةُ بين المسائل. وفي ذلك دليل من الحكمة أن المسألة إذا تباعدت عن الأخرى يبقى الخاطر معمراً بالأولى حتى ترسخ فيه، ثم تأتي الثانية كذلك، والتي بعدها كذلك، إلى غاية ما تنتهي الأحكام.

وقد أخبرني بعض مشايخي ـ وكان ممن أُجمِع على فضله ـ أنه حين اشتغاله على شيخه كان بعض الطلبة الذين كانوا يشتغلون معه على الشيخ، وكان فيه خير، وكان يشتغل بالسبب، أنه إذا حضر المجلس، ووعى مسألة واحدة، قام وخرج إلى دكانه. فأقلق ذلك بعضَ الطلبة، فسألوه عن ذلك، فقال: إذا وعيت مسألة واحدة بقيت يومي في الدكان أرددها على خاطري فتثبت لي، وإذا سمعت منه عدةً، كل واحدة تنسيني صاحبتها. فبلغوا خبره إلى الشيخ فأعجبه ذلك. وقال للغير ممن تكلموا: حاسبوا أنفسكم على كثرة سماعكم للمسائل على مسألة واحدة في اليوم. فلم يقدروا على ذلك.

فسبحان من وفق أهل السعادة إلى اتباع السنة في الفعل، وإن جهلوها بالعلم، لأن توفيق هذا

---

(١) سورة الحج، من الآية ٣٢.

المبارك الذي ذكرنا هداية من الحق ليس إلا. وقد نص أهل التوفيق على أن قلة العمل مع الدوام خير من كثرته مع الانقطاع. وقد قال ﷺ (أحبّ العمل إلى الله أَدْوَمُه، وإنْ قَلّ)[1].

والكلام على قوله ﷺ: (أن يعبدوهُ ولا يشركوا به شيئاً) قد تقدم الكلام عليه في حديث البيعة أول الكتاب، بما فيه شفاء.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) رواه الإمام أحمد عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: أحب العمل الخ... ورواه الشيخان عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: أحب الأعمال الخ...

ـ ٢٣٥ ـ

حديث النهي عن سب الأبوين وما يؤول إلى سبهما

عَن عَبدِ الله بنِ عُمرَ، رَضي الله عَنهُما، قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: إنَّ مِن أكبرِ الكبائِرِ أن يَلعَنَ الرَّجُلُ والِدَيهِ. قيلَ: يا رَسُولَ الله، وكيف يَلعَنُ الرَّجُلُ والديه؟ قالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أبا الرَّجُلِ، فَيَسب أباهُ وأمَّهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن لعن الوالدين من أكبر الكبائر، والعمل بِسَدّ الذريعة، وفي ذلك دليل لمذهب مالك، رحمه الله، في قوله بسَدّ الذرائع. يؤخذ ذلك من أنه ﷺ جعل ما هو ذريعة لِسَبّ الأبوين سَبّاً لهما. والكلام عليه من وجوه:

منهما: أن في هذا دليلاً على عِظم حق الأبوين، إذ القول الذي هو ممكن أن يترتب عليه سبّهما جعله الشارع ﷺ من أكبر الكبائر، فكيف بغير ذلك؟ لأنه إذا سب الرجل أبا الرجل من الجائز أن يسبّ هو أباه، ويقول له خلاف ذلك، أو يفعل به بدل القول فعلاً مؤلماً. لكن لما جرت العادة في الغالب أنه لا يَرُدّ إلا بالمثل حَكَمَ الشارع ﷺ بالغالب. وفي ذلك دليل على أن تقعيد الأحكام إنما هو على الغالب من جري العادة، والمحتمل النادر لا ينظر إليه.

وفيه دليل على أن كل ما يكون محتملاً أن ينتج منه شرّ لا يفعل، خيفة من وقوع الشر، وهو أيضاً من باب الحزم في الأمور.

وفيه دليل على أن الأحكام والمخاطبات إنما تكون على العادة الجارية بين الناس.

وفيه دليل على جواز مراجعة المفضول للفاضل فيما يقوله الفاضل، ويشترط في ذلك الأدبُ. يؤخذ ذلك من قول الصحابة: وكيف يلعن الرجل أباه[1]؟ وأما الدليل على حسن الأدب في السؤال فيؤخذ من صفة لفظهم، لأنهم، رضي الله عنهم، لم يقولوا: لا يكون، وإنما سألوا عن الكيفية كيف تكون؟ على طريق الاستفهام، فهذا هو عين الأدب في المراجعة.

(١) كذا. ونصّ الحديث: وكيف يلعن الرجل والدَيْه.

وفيه دليل على أن من راجع فيما لا يعرف لا عتب عليه، إذا كان على سبيل الاستفادة. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ لم يعتبهم على ذلك، وبيّن لهم الكيفية بحسن عبارة.

وقوله ﷺ (أكبر الكبائر) فيه دليل على تفاوت الكبائر بعضها على بعض.

وفيه دليل على أن من أكبر أفعال الخير معرفة السنة. يؤخذ ذلك من أن من لم يعرفها يجهل مثل هذا، فيقع في أكبر الكبائر وهو لا يعلم، وقد اعتاد بعض الجهال اليوم بِمُمَازَحتهم فيما بينهم أن يلعن بعضهم أبا بعض، ويعدونه مباسطة. فنعوذ بالله من الجهل والضلال. ولذلك قيل (ما عُصِيَ الله بأشدَّ من الجهل) وهو الحق. فإن الجاهل لا يزال يقع في المهلكات، وهو لا يعلم.

وهنا تنبيه على أن الأصل يفضُل الفرع بالوضع، وإن فضله الفرعُ بحسن الصفات قيل له: لا تنس فضيلة سَبقِه عليك، لأنه لما كان الأب أصلاً للابن جعل له عليه هذا الحق العظيم فإن فَضَله الابن بصفة الإيمان ـ وهي أفضل الصفات ـ قيل له: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾(١) للفضيلة التي سبقاك بها.

وكذلك يتعدى الحكم لمن كان السبب في هدايتك إلى مولاك. وقد جاء: (مولاك، ثم مولاك، من علمك آية من كتاب الله). يا هذا، قد ملكك بعظم إحسانه إليك، وإن كان في الطبع عروبية أشد مما ملك السيد رقبة عبده بالمال، فإن الأحرار يملكون بالإحسان أكثر وأشد من تملّك العبيد بالدرهم والدينار. وكما ذكروا: (ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا). فإذا كانت الطبائع رذيلة أَبَقَ من قيد الإحسانُ أشدَّ من إباق العبد القِنّ. لحا الله الهجينَ، لا مروءة ولا دين.

ومن هذا الباب يترتب عظم حق سيّدنا ﷺ، لأنه السبب الموصل لكل خير. مَنَّ الله به علينا في الدنيا والآخرة. وهنا زيادة: لأن هذا الأصل لا يفضله فرع أبداً، لا بوصف صفة، ولا بمعنى. فهو الأصل في جميع الخير، وله فيه السبق حِسًّا ومعنى. ولذلك ذكر الله، عزّ وجلّ، في محكم التنزيل ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾(٢) فإنه ليس فضيلة من كان أصلاً لخروجك إلى الوجود كمن جعل أصلاً إلى إنقاذك من الجحيم، وأثمر ثمر اتباعك له خلودك في النعيم.

فانظر بفطن العقول كيف تتسلسل فضيلة الأصول في إنعام موجد الوجود؟ واذكر آلاء الله، وأيقظ سِنَةَ فهمك، لعلّها توافق عروبية في طبعك، فتبادر إلى مراجعة خدمة مولاك، لعل شَيْنَ إباقك عنه يزيله بيد عفوه عنك. فالمؤمن توّاب. جعلنا الله ممن سبقت له بالخير سابقة. فراجع مولاك قبل الأخذ على غرّة، والجأ إليه فإنه لا ربّ سواه.

وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة لقمان، من الآية ١٥.

(٢) سورة الأحزاب، من الآية ٦.

- ٢٣٦ -

حديث ثواب صلة الأرحام

عَن أبي هُريرَةَ، رضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: إنَّ الله خَلقَ الخَلْقَ، حتّى إذا فرغَ مِن خلقِه، قالتِ الرَّحِمُ: هذا مقام العائذ بكَ مِن القطيعَة. قالَ: نَعَمْ. أمَا تَرضَيْنَ أن أصِلَ مَن وَصَلَكِ، وأقطَعَ مَن قَطعَكِ؟ قالَت: بَلَى يا ربِّ. قالَ: فَهُوَ لَكِ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بعِظم ما جعل الله تعالى للرَّحِم من الحق، وأن وَصْلَها من أكبر أفعال البِر، وأن قطعها من أكبر المعاصي. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى قوله (أصِلُ مَن وَصَلكِ وأقطَعُ مَن قَطَعَكِ)؟ ومنها الكلام على كيفية وصلها وما هو قطعها؟

فأما قولنا: ما معنى قوله (أَصِل مَن وصَلَك)؟ فهو كناية عن عِظم الإحسان، فإن أعظم ما يعطي المحبوب لحبيبه الوصال، وهو القرب منه، ومساعدته في مرضاته. وهذه الأمور في حق مولانا سبحانه مستحيلة أن تكون على ما نعرف من صفات المحدَث الفاني، بل هي كناية عن قَدْر الإحسان منه لعبده وعِظَمِه.

يؤيد ذلك قوله عليه السلام (صِلة الرحم تَزيد في العمر)[١]. فهذا الوصال في هذه الدار زائد على ما أُعِدّ له في الآخرة من الخير والإحسان. وكقوله تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٢] فمعنى قوله (يحبهم) كناية عن عظم إحسانه، عزّ وجلّ، لمن أحبه من عباده، لأن ملِكاً من ملوك الدنيا إذا أحب أحداً أغناه ورفعه على جميع أهل وقته. فكذلك فِعْل مولانا سبحانه بمن يحبّه، يحسن إليه غايةَ الإحسان، ويرفعه في الدنيا والآخرة المنزلة العليا.

---

(١) رواه القضاعي عن ابن مسعود رضي الله عنه وتتمة الحديث: وصدقة السر تطفىء غضب الرب.

(٢) سورة المائدة، من الآية ٥٤.

وأما قولنا: ما معنى (وأقطَع مَن قطَعَك)؟ فهو كناية عن شدة الحرمان والعذاب، لأن القطع ضد الوصل. فكما عبّر عن عِظم الأجر بالوصل عبّر عن عِظَم البلاء بالقطع. أعاذنا الله من البلاء بمنّه.

وأما كيفية الوصل للرحم فهو على ضروب مختلفة: منه ما يكون ببذل المال، ومنه ما يكون ببذل العَون على ما يحتاجون إليه، أعني: أهل رَحِمه. ومنه ما يكون بالزيارة لهم. ومنه ما يكون بالدعاء لهم. ومنه ما يكون بإكرامهم والبشاشة لهم. ومنه ما يكون بدفع المضار عنهم. والمعنى الجامع له إيصال ما أمكنك من الخير إليهم على قدر طاقتك، بنية القربة إلى الله تعالى.

إلا أن ذلك بشروط ذكرها العلماء، وهي: أن يكونوا على الاستقامة. وإلا فمقاطعتهم من أجل الله هو إيصالهم، بشرط أن تبذل جهدك في وعظهم وزجرهم والإنكار عليهم، لأنه إذا قيل لك في الأجنبي الذي هو أخوك في الإسلام (أنصره ظالماً أو مظلوماً) كما تقدم ذكره، وهو ردّه عن الظلم، فالأقرب من باب أولى. فبعد ذلك يكون الهجران لهم، وتُعْلِمُهُمْ أن هجرانك لهم إنما هو من أجل تخلّفهم عن الحق، فإذا استقاموا وصلتهم قدر طاقتك في ذلك. لكن يبقى عليك من صلتهم عند المقاطعة الدعاءُ لهم بظهر الغيب أن يصلح الله حالَهم، ويُجِيرَهم بفضلِه.

وأما مقاطعتهم[1] فهي على ضربين: إما كلية أو بعضية. فالكلية هي أن تمنعهم جميع ما في وُسْعِك من الإحسان إليهم على نحو ما أشرنا إليه قبل، قاصداً لذلك. أو تكون معاداتهم لِحَظ نفس، أو إبعادُهم عنك لمثل ذلك. وأما البعض فهو مثل أن تفعل معهم بعض الأشياء، وتحرمهم بعضاً مع قدرتك عليها، وقصدك ذلك، فكلاهما محذور، ويُخاف من وبالها. لكن الواحد الذي هو الكلّيّ أشدّ، أعاذنا الله منهما.

وفيه بحوث منها: هل الألف واللام في (الخلق) للجنس أو للعهد؟ فإن كانت للجنس فمتى كانت؟ وإن كانت للعهد فمتى كان؟ احتمل أن تكون للجنس، وهو عند فراغه ـ جلّ جلاله ـ من جميع المخلوقات على اختلافها. وبقي الاحتمال في أي وقت كان ذلك؟ هل عند الفراغ من ظهورها في اللوح المحفوظ بالكَتْب، وهي بَعْدُ لم يظهر منها في عالم الوجود إلا اللوح والقلم لا غير؟ واحتمل أن يكون ذلك عند الفراغ من خلق السموات والأرض، وإيحائه، عزّ وجلّ، في كل سماءٍ أمْرَها. القدرة صالحة لهما معاً. والعرب تسمي البعض باسم الكل، والكل باسم البعض.

وأما أن يكون على حقيقة ظاهرة ـ وهو أن تبرز جميع المخلوقات في عالم الحس والمشاهدة

---

(١) يعني: إذا كانوا على الاستقامة.

ـ فلا يمكن، لأن من المخلوقات ما لم يبرز بعد في عالم الوجود والحس، ونحن نعلم أنه لا بدّ أن يظهر، ويكون قطعاً لازماً، مثل الدابة التي تخرج عند قرب الساعة، وهي في عِلْم الله، لم تبرز ولا ظهرت، ومثل من بقي من تناسل جميع الحيوان، ومثل الأمور التي هي عند قرب الساعة، وقد أخبر بها الصادق ﷺ وهي لم تظهر بعد، وأشياء عديدة إذا تتبّعتَها وجدتَها.

وإن كانت للعهد، وهي عند فراغه سبحانه من خلق بني آدم، فمتى كان؟ احتمل أن يكون عند فراغه، جلّ جلاله، من خلق أرواحهم، لأنه قد جاء أن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأشباح بألفي عام. واحتمل أن يكون عند فراغه من خلق الأشباح والأرواح، وهو يوم سأل سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[1] وهو يوم إخراجهم من صلب آدم عليه السلام مثل الذر، وأخذ عليهم العهد، لأنها إحدى الحياتين، في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[2] على أحد الأقاويل.

ويترتب عليه من الفقه أن نعرف أن الألف واللام في (الرحم) هل هي للعموم أو للخصوص؟ فإن كانت للخصوص فهل هي للثّقلين من الجن والإنس ليس إلا؟ احتمل الوجوه كلها. لكن إن كانت الألف واللام للعهد فتكون صلةُ الرَّحم تحتمل وجهين: (أحدهما) أن تكون للجنّ والإنس، لأنهما المكلَّفان، أو أن تكون خاصة ببني آدم، ويكون الفقه أن صلة الرحم خاصة ببني آدم، وأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، لأن الأمر عام في بني آدم، وهم منهم.

ويترتب عليه من الفقه، إن كانت للجنس: أن صلة الرحم عامة في كل الحيوان من جنٍّ وإنسٍ وطير، ويقويه عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾[3] وقد كانت العرب تلحظ ذلك في الخيل، وينسبون الحسن والأصالة من الطريقين، كما يفعل بنو آدم، ويذكرون ذلك عند الشدائد لتثبت على حرية نسلها، ويتنافسون في أثمانها من أجل ذلك.

وهنا بحث ثانٍ، وهو: هل كلام الرحم للحق، جلّ جلاله، بلسان المقال أو بلسان الحال؟ إن كان بلسان المقال هل كان ذلك بعدما بثّها في جوهرٍ، ووضع فيها الحياة والعقل، أو هي على حالها؟ الكلام على هذا مثل كلام العلماء على كلام الجمادات. وهي على ثلاثة وجوه: لأن منهم من قال: إن كلام الجماد بلسان حاله بما أظهر الله فيه من أثر قدرته. ومنهم من قال: إنه خلق لهم حياة وعقلاً وحينئذ تكلموا. ومنهم من قال: إنهم تكلموا وهم على حالهم ـ وهو الأظهر ـ وإن كانت القدرة صالحة للوجوه الثلاثة.

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٧٢.
(٢) سورة غافر، من الآية ١١.
(٣) سورة الأنعام، من الآية ٣٨.

لكن الوجهين[1] فيهما تخصيص لعموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل شرعي، وحصرٌ لقدرة القادر التي لا يحصرها شيء، لأن قدرته، عزّ وجلّ، صفة من صفاته. فكما ذاته الجليلة لا تنحصر بوجه من الوجوه، فكذاك كل صفاته لا تنحصر منها صفة من الصفات بوجه من الوجوه، لأن الصفة لا تفارق الموصوف. وقد تقدم الكلام على ذلك أول الكتاب بما فيه شفاء بفضل الله تعالى.

ومنها أن فيه دليلاً على أن الاستعاذة بالله من أجلّ الوسائل إلى الله وأنجحها. يؤخذ ذلك من قول الرَّحِم: هذا مقام العائذ بك. فأُسعِفت في الحال بما رَضِيَت به. ومما يقوي هذا الوجه ما جاء في شأن العدو الذي قيل له ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[2] وجعل له أنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، وجعل لنا النصرة والغلبة عليه بالاستعاذة بالله عزّ وجلّ، ولم يجعل بغير ذلك لقوله، عزّ وجلّ، في كتابه العزيز: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] وقول مريم عليها السلام حين أتاها روح الله الأمين ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[4] وقول سيدّنا ﷺ (أعوذ برضاك من سخَطِك، وبمعافاتِك من عقوبتك، وبِكَ منك، لا أُحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك)[5].

وفيه إشارة عجيبة من طريق حسن المجانسة في الكلام، وهي: أنه لما كانت صلة الرحم حقيقتها التوادّ بين الأقارب والتعاطف، جُعِلت الصيغة التي تدل على الجزاء عليها من جنس ما هو المعروف في التخاطب بين المحبين والمحبوبين، وهي: الوصل والمقاطعة.

وفي قوله ﷺ (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه) دليل على صفتين عظيمتين من صفات الحق سبحانه، وهما: القدرة والحكمة. فأما الدال منهما على القدرة فبالإخبار بأنه عزّ وجلّ، خالق جميع الخلق، وأي دليل على القدرة أعظم من اختراع الخلق على غير مثال تقدَّم ولا مُعِينٍ ولا وَزِير؟

وأما الدال على الحكمة منه فقوله عليه السلام (حتى إذا فرغ من خلقه) لأن (حتى) لانتهاء الغاية، فتعطي قوة الكلام أن من له غاية فله بداية، وما بين الغاية والبداية اقتضته الحكمة الربانية لا لعجز من القدرة، فإن مِن قدرته، جلّ جلاله، خَلْقَ جميع الخلق، وهو كما أخبر، عزّ وجلّ بقوله

---

(١) يعني الأول والثاني.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ٦٤.

(٣) سورة الأعراف، من الآية ٢٠٠.

(٤) سورة مريم، من الآية ١٨.

(٥) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[1] لا يمكن أن يكون في قدرته عجز عن شيء من الأشياء، بل ما كان في بعض المخلوقات من تأخر أو غير ذلك فلحكمة اقتضتها حكمة مَن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[2]. وقد تقدم في أول الكتاب من هذا بيانٌ شاف بفضل الله ورحمته.

وفيه دليل لقول من قال: إن رأيك بحسب ما قدر لك، يؤخذ ذلك من أنه لما قامت الرحم مقام العائذ بالله تعالى من القطيعة، وسبق في علم الله سبحانه أن يكون من عباده واصل لها وقاطع لها أيضاً، أرضاها بأن جعل عندها رِضَىً بأن يصل الله من يصلها، ويقطع من يقطعها، فقبلت ذلك ورضيت به بدلاً من الذي طلبته، لأنها طلبت أن لا قطيعة لها. فلو قال لها الحق جلّ جلاله: لك ذلك. أي لا تقطعي، لم يكن أحد يقطعها.

وفيه دليل لتحقيق قوله ﷺ (ما من داعٍ يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يُستجاب له، وإما أن يُدَّخَر له، وإما أن يُكفَّر عنه)[3] لأنه، عزّ وجلّ، عوّض الرحم عما طلبته ما هو خير لها منه، ورضيت به.

وفيه دليل على أن جميع المخلوقات بيد الله سبحانه يصرّفها كيف يشاء، كما قال ﷺ (ما من قلبٍ إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن)[4] أي بين أمرين من أمر الرحمن مثل الرضى وضده، والعزم على الشيء وتركه، والرغبة والزهد وما يضادهما من الأشياء، يقلّب القلب من طرف إلى ضده في لمحة البصر، ولذلك كان من دعائه ﷺ (يا مقلّبَ القلوب ثبّتْ قلبي على دينِك)[5].

ولهذا المعنى كان أهل التوفيق والمعرفة بالله تعالى أشدَّ الناس خوفاً على أنفسهم، مع ما كانوا عليه من الخير التام، حتى إنه يروى عن بعضهم أنه كان كلما استيقظ من نومه يجر يده على وجهه ثم ينظر إلى حواسه، ثم يحمد الله تعالى ويشكره، ويتشهد ويعلن بها. فقيل له في ذلك. فقال:

---

(١) سورة ق، من الآية ٣٨.

(٢) سورة الشورى، من الآية ١١.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال حديث غريب. ولفظه: ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب له، فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يؤخّر له في الآخرة، وإما أن يكفّر عن ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل. قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعجل؟ قال: يقول دعوت ربي فما استجاب لي.

(٤) أخرجه ابن عساكر وابن النّجار عن عائشة رضي الله عنها وتتمته: إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه.

(٥) رواه الإمام أحمد والترمذي والطبراني وكثيرون بألفاظ مختلفة: منها: قلبي، ومنها قلوبنا. ومنها ثبتنا، ومنها ثبت قلوبنا الخ...

أما جَرُّ يدي على وجهي فمخافة أن يُطمس عليه، كما أخبر عزّ وجلّ، وخبره الحق ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1] وأما نظري إلى حواسي فخيفة العاهة التي هي متوقَّعة على الإنسان، وأما إعلاني بالشهادة فاختبار لنعمة الإيمان، لقوله ﷺ (ينام الرجل النومة، فيُسْلَب عنه الإيمان، ويبقى أثرُه، ثم ينام النومة فيُقبَضُ أثرُها)[2] أو كما قال عليه السلام، فإذا رأيتُ نعمة الإيمان ونعمةَ الحواس باقيةً سالمة، حمدتُ الله وشكرتُه على إبقائه تلك النعمة بفضله.

جعلنا الله ممَّن أتمها علينا، وجميع نعمه في الدارين بفضله ورحمته، آمينْ آمينْ يا ربَّ العالَمِين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النساء، من الآية ٤٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن عن حذيفة رضي الله عنه ومطلعه: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظلِ أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى فيها أثرها مثل أثر المَجل، كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنتَبِراً وليس فيه شيء. . إلى آخر الحديث.

ــ ٢٣٧ ــ

حديث ثواب عائل البنـات

عَن عائِشةَ، رَضي الله عَنها، قالَت: جاءَتني امرأة وَمَعها ابنَتانِ تَسألُني، فَلَم تَجِد عِندي غَيرَ تَمرةٍ واحِدَةٍ. فأعطَيتُها. فَقَسَمَتْها بينَ ابنَتَيها. ثُمَّ قامَت فَخَرجَتْ. فَدخَلَ النَّبيُّ ﷺ فَحَدَّثتُهُ فَقالَ: مَن بُليَ مِن هذِهِ البَناتِ بِشَيء، فَأَحسَنَ إِلَيهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتراً مِنَ النَّارِ.

* * *

ظاهر الحديث إخبار الصادق ﷺ أنه من آتاه الله شيئاً من البنات، فأحسن إليهنّ، كنّ له سِتراً من النار، أي: وقاية تقيه من النار. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: مامعنى الإحسان؟ وهل ذلك على عمومه بلا شروط، أو له شروط؟ وهل يحتاج في ذلك إلى نية أم لا؟ وهل ذلك على طول عمرهن وإن كبِرْن، أو ذلك عند صغر سنهن؟ وإن كان فما حَدّه؟

فأما قولنا: ما معنى الإحسان إليهن؟ فهو ما زاد على القدر الواجب الذي لهن، وهو بيّن من لفظ الحديث. فإنه لما كانت المرأة معها ابنتان يسألن السيدة عائشة، رضي الله عنها، فلم يجدن عندها إلا تلك التمرة الواحدة التي أعطتهن إياها، وكان من الواجب أن يقسِمْنَها أثلاثاً، فلما جادت الأم بثلثها عليهما فقد زادتهما على حقهما. وتلك الزيادة هي الإحسان الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، بأن مَن فعله معهنّ كان له سِتراً من النار، وهو يتعدى في كل الوجوه التي فيها معاملتهن. فمن زادهنَّ في كل وجهٍ منها شيئاً على حقهن كان محسناً لهن، ومن فعل معهن معروفاً في نوع ليس لهن فيه حق فالباب واحد.

وأما قولنا: هل ذلك على عمومه بلا شروط، أوْ له شروط؟ فما من وجه من وجوه البِرّ إلا وله شروط. فمنها ما هي ظاهرة يستوي في معرفتها الناس كافة، ومنها ما لا يعلمها إلا الخواص من أرباب العلم.

فأما معنى قولنا: هل ذلك على عمومه، أي إذا وقع منه إحسان إليهن، على أي وجه كان،

على لسان العلم أو غير ذلك، أو يكون قد أساء إليهن، أو يكون قد ترتب لهن حق عنده؟ فأما ما خالف لسان العلم فلا ينطلق عليه اسم (إحسان) شرعاً، وكذلك إذا ترتب لهن قِبَلَه حق فلا يقال له: محسن، بل ذلك من الحق الذي قد ترتب لهن قِبَلَه، وتقع بينه وبينهن المحاسبة والمحاكمة في الدار الآخرة. وكذلك إن كان قد أساء إليهن من وجه آخر فليس على عمومه، ولا يسمّى: محسناً، إلا بعد توفية الحقوق من كل الجهات وعدم الإساءة، ويكون فعله ذلك على لسان العلم، وحينئذ يكون محسناً.

وأما شروطه فهو: أن يكون إحسانه إليهن ليس فيه ضرر للغير، بعد القيد المتقدم ذكره من لسان العلم وما ذكر معه.

وأما هل تحتاج ذلك إلى نية أم لا؟ فالنية شرط في جميع الأعمال، لقوله ﷺ (إنّما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرىء ما نوى)[1] إلا مواضع قد تقرر الحكم فيها أنها لا تحتاج إلى نية. أعني: أن الفعل يجزىء بغير نية ويؤجر عليه، وهو مثل ما يفعله المرء بغيره من الطهارة وشبهها، ومثل زوال النجاسة من الثوب والبدن وما أشبه ذلك.

وأما قولنا: هل ذلك مع طول عمرهن، أو ذلك في زمان صغر سنهن؟ أما الإحسان إليهن فليس يتقيَّد بصِغر سنهن ولا كِبَرِهن، بل حقوقهن مع صغر السن على سبيل الوجوب، فمنها لزوم النفقة والكسوة والكفالة، فهذا وما هو من نوعه يُسقِطه كبرهن إذا تزوجن، على ما هو المعلوم من عرف الشرع في ذلك، وإن كبِرن فلا يخرجن عن البُنُوَّة أبداً، فهن في كل وقت محل للإحسان، وهن أيضاً محتاجات إلى ذلك، وإن كن على أي وجه كنَّ من اليسار وضده. ولكثرة شروط هذا الإحسان كان بعض من ينسب إلى الخير - وله البنات والعيلة - بعد إحسانه إليهن يقول: والله ما أدري هل أتخلص منكن في الآخرة أم لا؟ ثم يدعو الله سبحانه أن يجعلهن له رحمة بفضله.

وفيه دليل على جواز السؤال. يؤخذ ذلك من قولها (جاءتني امرأة ومعها ابنتان تسألني) فلو لم يكن جائزاً شرعاً لأنكرت ذلك عليها.

وفيه دليل على فضل بيت النبوة وكثرة سخائهم. يؤخذ ذلك من كونها لم يكن عندها إلا تلك التمرة الواحدة وجادت بها.

وفيه دليل على جواز ذكر المعروف الذي نفعله، إذا لم يكن على وجه المَنّ والافتخار، فإن ذلك مفسِدٌ له. يؤخذ ذلك من ذكر عائشة، رضي الله عنها، المعروف الذي فعلته مع المرأة للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيه دليل على استحسان فعل المعروف، وإن قَلَّ. يؤخذ ذلك من بذلها تلك التمرة الواحدة ولم تَسْتَقِلَّها. وقد ذكر عنها أنه جاء سائل إلى الباب، وكان عندها عنب، فأعطت منه حبة واحدة لشخص يخرجها له، فرأت منه أنه استقلها. فقالت: كم في تلك الحبَّة من ذرات؟ تريد بذلك قوله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾[1] وقد نبّه بعض العلماء على أنْ من مكايد الشيطان إذا رآك تعطي الكثير يَعِدُكَ بالفقر حتى يكسلك عن البذل، وإن رآك تعطي اليسير يزهدك فيه ويحقره في عينك، حتى يحرمك البذل في اليسير والكثير.

وفيه دليل على أن أعلى المعروف جهد المقل، ولا يلزمه غير ذلك من طريق الندب. يؤخذ ذلك من تلك السيدة لم تزد على بذل ما كان عندها مع قلته شيئاً، وأقرّها رسول الله ﷺ على ذلك حين أخبرته. ولو كان بقي عليها من طريق الإحسان شيء لنبهها عليه ﷺ، عند إخبارها له بذلك.

وفيه دليل لأهل الصوفة الذين أصل طريقهم الإيثار وحمل الضيم فيما يخصهم، لأن هذه الصفة هي التي أعجبت السيدة عائشة، رضي الله عنها، من تلك المرأة، حتى أخبرت بذلك رسول الله ﷺ، وقرر عليه هذا الأصل العظيم. ولذلك قيل فيهم: ما أحسنهم في جودهم! حتى بنفوسهم جادوا، ثم جادوا، وجدّوا حتى وصلوا وسادوا.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الزلزلة، الآية ٧.

ـ ٢٣٨ ـ

حديث أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها

عَن عُمرَ بنِ الخَطَّابِ، رضي الله عَنهُ، قالَ: قدِمَ عَلى النَّبيِّ ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأة مِنَ السَّبْي تَحلُبُ ثَدْيَها تَسْقي، إذ وَجَدت صَبيًّا في السَّبْي، فأَخذَتهُ فألصقَتهُ بِبَطنِها وَأرْضَعَتْهُ. فَقالَ لَنا النَّبيُّ ﷺ: أَتروْنَ هَذِهِ طارِحَةً وَلدَها في النَّارِ؟ قُلنا: لاَ، وَهيَ تَقدِرُ ألاّ تَطْرَحَهُ. فَقالَ: الله أرحَمُ بِعِبادِهِ مِن هَذِهِ بِوَلَدِهَا.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بقدر عظيم رحمة الله تعالى بعباده، بمشاهدة ذلك المثال. والكلام عليه من وجوه:

منها: قوله (بعباده) هل هو عموم للمؤمن والكافر والحيوانات على اختلافها وغيرها من جميع المخلوقات، أو ذلك خاص بالمؤمنين، فيكون اللفظ عامًّا ومعناه الخصوص؟ لفظ (العباد) يقتضي العموم، وقرينه الحال ـ وهو ذكره طرحها لولدها في النار ـ إشارة إلى تخصيص المؤمنين، وتطييب قلوب السامعين منهم أن مولاهم الذي مَنّ عليهم بالإيمان به لا يعذبهم بناره. وقد جاء هذا المعنى صريحاً في الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله جلّ جلاله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ. ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فثبت للمؤمنين الذين هم بتلك الأوصاف المذكورة. وأما السنة فبالحديث المتقدم، وهوقوله ﷺ (ما حق

---

(١) سورة الأعراف، ١٥٦ و ١٥٧.

الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟) ثم ذكر (أن حق العباد على الله إذا عبدوه لا يشركون به شيئاً ألا يعذبهم)[١].

واحتمل وجهاً آخر، وهو: أن يكون معنى المثال: الإخبارَ بأن رحمة الله تعالى لا يشبهها شيءٌ لمن سبقت له فيها نسبة، من أي العباد كان حيواناً أو غير حيوان، وأنها لا يضر معها شيء. وبقي العلم بتحقيق مَن سَبعق له فيها نصيب. ولذلك قال الفضلاء: رِضَىٰ اللهِ عنهم لا سَخَطَ بعدَه أبداً. يَعنُون مَن سبق له في الأزل رضاءٌ فلا يضرّه مع السابقة شيء، ولذلك قالوا: (كم من صديق في القَبَا، وكم من عدوِ في العبا) نظراً إلى السابقة بماذا سبقت؟

وقد سأل بعض أهل الشيع بعض أهل السنة فقال: إن الرحيم من حقيقته ألا يعذب أحداً من عباده، فكيف يعذب عباده بالنار، وهو الرحمن الرحيم؟ فجاوبه السنّي بأن قال: إن لله سبحانه أسماء عديدة منها (المنتقم)، وكل أسمائه، عزّ وجلّ، حقيقة لا مجاز فيها، ولا بد لكل اسم أن يظهر ما يدل عليه في عالم الوجود والخلق. فمَن خَصّه بالرحمة فلا يعذبه، ومن خصّه بالانتقام فلا يرحمه. ومِن حكمته، عزّ وجلّ، أن يخصص من عباده مَن شاء بما شاء، على مقتضى كل اسم وصفة، وقد قال: جلّ جلاله ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[٢] فبهت الشيعي وكأنه ألقم حجراً.

واحتمل وجهاً ثالثاً، وهو لأهل القلوب، وهو: أن يكون معنى الحديث: الحثّ على التعلق بالله تعالى والزهد في غيره، لأن العباد من شأنهم طلب الحوائج وطلب الخيرات، والاستعاذة من المكروهات والتسبب في ذلك، وطلب بعضهم من بعض المساعدة على ذلك. والعادة بينهم أنهم لا يقصدون في الحوائج ولا تتعلق آمالهم إلا بمن فيه رحمة وإحسان، فأخبرهم الصادق ﷺ أن رحمة المولى سبحانه بعباده على العموم أكثرُ من رحمة هذه المرأة بولدها ـ التي قد جرت العادة المألوفة من النساء على أولادهن ـ ببونٍ عظيم.

فمن يرد طلبَ خيرٍ أو دفع ضرٍ أو أي حاجة أرادها فليقصد من رحمته أعظم من رحمة هذه بولدها، فهو أنجح له في حاجته، وأيسر له فيما يؤمله. ولذلك قيل: من كان قاصداً فَلْيقصد مولاه، فهو سبب إلى رحماه. وقال بعضهم:

هَبْني أتيتُ بلا معنى ولا سبب ... أليس أنتَ إلى معروفك السَّببُ؟

---

(١) جزء من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنهما أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه.

(٢) سورة الحجر، ٤٩ و ٥٠.

وفيه دليل على جواز النظر إلى النساء اللاتي يُسبَيْن قبل القَسْم. يؤخذ من نظره ﷺ إلى هذه المرأة، وإرشادهُ للصحابة، رضي الله عنهم، إلى نظرها.

وفيه دليل على جواز ضرب المثال بما يعقل ويدرك بالحواس، تشبيهاً بما لا يعقل ولا يدرك بالحواس، لتحصل فائدة المعرفة بالشيء من وجه ما، وإن كان لا يحيط المثال به من كل الجهات. يؤخذ ذلك من ضربه ﷺ المثال، على عِظم رحمة الله تعالى التي لا تصل إليها الأفكار ولا العقول، برحمة هذه المرأة على ولدها. ومنه بعينه يستدل على أن صفاته سبحانه لا تشبه صفات المحدثات، وإن شاركتها في التسمية. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (الله أرحم بعباده من هذه بولدها) والزيادة غير محدودة، فلا شَبَه بينهما ولا اشتراكَ إلا في التسمية ليس إلاّ.

وفيه دليل على ترجيح أخف الضررين. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ ترك هذه المرأة تُشرِكُ أطفالَ السبي في الرضاعة، وربما إذا كبروا يتناكحون وهم إخوة من الرضاعة، وهذا لا يجوز. فلما كان هذا الوجه محتمِلاً أن يكون وألا يكون، وسَدُّ رَمَقهم في الوقت مما الحاجة إليه أكيدة، تركها تفعل ما هو الأرجح. وبهذا يستدل أيضاً على أن الضرورة لها حكم على حِدَة، لأنه لولا ضرورة الأطفال في الوقت إلى الرضاع ما تركها ﷺ تفعل ذلك، من أجل العلة المتقدم ذكرها. وهذا البحث هو: على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

وفيه دليل وهو أقوى في البحث، وهو: أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة، لأن أطفال الكفار في الدين مثل آبائهم، وإن مَلَكَهم المسلمون، فلو كانوا مخاطبين بفروع الشريعة لكان سيّدنا ﷺ يقول للصحابة في ذلك شيئاً، لأنه، عليه السلام، المشرّع، وسكوته عند الحاجة إلى البيان لا يجوز. ويترتب عليه من الفقه أن أولاد الكفار إذا مُلِكوا وهم دون البلوغ أن يُحكَم لهم بالكفر، وإن أسلموا، إلا أن يكون إسلامهم بعد بلوغهم. وقد نص الفقهاء على أن من سُبِي منهم دون البلوغ، وأُجبِر على الإسلام أو أَسلَم من تلقاء نفسه ثم مات قبل البلوغ، أنه لا يدفن مع المسلمين ولا يصلى عليه، فإن حكمه حكم الكفار، إلا خلافاً شاذاً لا يعوّل عليه. هذا هو الغالب على الظن.

وفيه إشارة لطريق المحبين. يؤخذ ذلك من حال المرأة المذكورة في الحديث: لما كان حب ابنها قد شغَفَ فؤادَها بذَلَت نفسَها في أشق الأشياء عليها فيما يشبهه في السنّ، فكيف حالها لو أنها وجدت ابنَها؟ لأن كثرة الرضاع والحَلْب تُضعِف النِسَاء، وكثير منهن إذا كان ابنها قويَّ الرضاع يُهلِكها، ولا تقدر على إرضاعه. وهذه بكثرة وَجْدِها على ابنها قد عَمّت بالرضاع كل مولود لَقِيَتْ لشَبَهِه بابنها، كما أخبر عن قيس ليلى حيث قال[1]:

---

(١) البيت ليس في ديوان قيس هذا، وهو مجهول القائل. انظر الجمل للزجاجي ص ١٨٢ وعيون الأخبار ٤: ٣٤=

أحـبَّ لحبهـا السُّـودَان، حتَّـى   أحـبُّ لحُبِّهـا سـودَ الكـلابِ

كذلك المحب لا يبالي ما لقي في حبّ محبوبه.

ومثل ذلك ما أخبر مولانا، جلّ جلاله، في كتابه العزيز في قصة يوسف، عليه السلام، مع أخيه بنيامين حين اجتمعا. فقال بنيامين ليوسف، عليهما السلام، لا أفارقك أصلاً. فقال له يوسف، عليه السلام: لا يمكن ذلك إلا بعد أن تقرَّ على نفسك بالسّرقة. فرضي بإلقاء الوصف الذميم على اليد السالمة من العار والخيانة بغية الإقامة مع الحبيب. فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ. قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ. قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ. قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ. قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ. فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾(1). هان عليه وصف الخيانة، لتوفية رفع الملامة، وخلوه بالحبيب، دون مشوش ولا رقيب. هذا في حق مخلوق فانٍ، فكيف في حب خالق باقٍ.

هانت والله عليهم النفوس، فبذلوها في حب مولاها، فوصل، عزّ وجلّ، حبلهم بحبله، وأدناهم وسقاهم، فأحياهم. أهانوها فرفعوها، وأذلوها فأعزوها، وأفردوها فجمعوها، وحرموها فأسعدوها، وقطعوا العلائق فأمنوا البوائق، وحادوا عما سواه فلم يجدوا إلا إياه. ومن قول بعضهم. تفردت عن الأكوان بحبه، وكذلك عبد الفرد لايزال فرداً. فَمُناهم هَنَاهُمْ برضى مولاهم. يا طوباهم حين لقاهم مولاهم. فيا من أسعد مُحيّاهم: بحرمتهم إلاّ ما أوردتنا مَواردهم. يا كريم يا وهاب.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

= وشرح المفصل ٩: ٤٧ وتهذيب الألفاظ ص ٤٦٥ وتهذيب إصلاح المنطق ص ٢٢٦.

(١) سورة يوسف، ٧٠ ـ ٧٦.

ــ ٢٣٩ ــ

حديث رحمة اللّه تعالى لجميع المخلوقات

عَن أبي هُريرَةَ، رَضي الله عَنهُ، قالَ: سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقولُ: جَعلَ الله الرَّحمةَ مائَةَ جُزءٍ، فأمسَكَ عِندَهُ تِسعَةً وَتَسعينَ جُزءاً، وأنزَل في الأرضِ جُزءاً واحِداً، فَمِن ذٰلِكَ الجُزءِ يَتَراحَمُ الخَلقُ، حَتَّى تَرفعَ الفَرسُ حافِرَها عَن وَلَدِها خَشيَةَ أن تُصيبَهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن كل ما في الأرض، من رحمة في قلوب جميع الخلق، جزء من مائة جزء مِمّا أَعَدَّ الله لعباده من الرحمة، وأن باقي المائة ـ وذلك تسعةٌ وتسعون جزءاً ـ مؤخرة عنده عزّ وجلّ لهم. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى جعل الرحمة في مائة جزءٍ؟ وما معنى (أمسك عنده)؟ ولِمَن ذلك الإمساك؟ هل لجميع الخلق أو لعبيد مخصوصين؟ ولم خصَّ ذكر الفرس من بين سائر الحيوانات؟ وما الفائدة لنا في الإخبار بذلك؟ وهل لنا طريق إلى معرفة كيفية إنزال ذلك الجزء أم لا؟ وهل لفظ (الخلق) يكون عموماً في الحيوان وغير الحيوان، أو يكون خاصاً بالحيوان لا غير؟ وقوله (وأنزل في الأرض جزءاً) هل يعني بـ (الأرض) الجنس أو النوع، وهذه هي الأرض التي نحن عليها؟

فأما قولنا: ما معنى جعل الرحمة في مائة جزء؟ احتمل وجهين: (أحدهما) أنه سبحانه لما منّ على خلقه برحمة معينة، جعلها لهم في مائة وعاء، فأهبط منها وعاءً واحداً إلى الأرض، كما أخبر، عليه السلام، في الحديث، وبقي الباقي عنده، عزّ وجلّ. (واحتمل) أن تكون الفاء[1] زائدة. ويكون معنى الإخبار أن الرحمة التي منّ بها على خلقه سبحانه قسمها مائة جزء، فأنزل إلى الأرض جزءاً واحداً، لأن العرب كثيراً ما تزيد الحروف في أول الكلام ـ وهو من فصيحه ـ وأبقى التسعة والتسعين جزءاً عنده.

---

(١) يعني في قوله «فأمسك».

وأما قولنا: ما معنى (أمسكها عنده)؟ أي: أنه لم يشأ سبحانه نزولها إلى هذه الدار، وأمسكها للدّار الأُخرى، وهناك يكون الإنعام بإيصالها لمن كتبها له.

وأما قولنا: لمن ذلك الإمساك؟ هل لجميع الخلق أو لعبيد معيّنين منهم؟ أما من الحديث فليس فيه مايدل على ذلك، لكن قد أفصح الكتاب والسنّة بذلك. فأما الكتاب فآيات عديدة، منها قوله عزّ وجلّ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[1] ومنها قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وأما السنة فالأخبار فيها كثيرة. منها: الإخبار بأمر الساعة، كيف يُحشَر جميع الخلق، فيقال بعد الحساب للكل، ما عدا الثقلين الجن والإنس: (كونوا تراباً) فيعودون تراباً. والثقلان قسمان: إمّا شقي، ففي النار، وإما سعيد، ففي الجنة. فمن كان في النار أو صار تراباً لم يبق له في تلك الرحمة نصيب، وبقيت موفورة لأهل دار الكرامة، وهم المؤمنون من الثقلين: الجن والإنس، جعلنا الله من أهل دار السعادة بمنّه.

وأما قولنا: ما الحكمة في كونه خص الفرس بالمثال دون غيره من الحيوان؟ فنقول، والله أعلم: لوجوهٍ منها: أنه أشد الحيوان الذي نعاين من حركته وحركة أولاده وأكبره، لأن غيره الذي هو أكبر منه مثل الأسد والفيل لا نعاين ذلك منهم لقلة مخالطتنا لهم[3]، كما ضرب عزّ وجلّ، المثل بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ . وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[4] ولم يقل: إلى الكرسي، أو إلى

---

(١) سورة المؤمنون، ١ ـ ١٠.

(٢) سورة الأعراف، ١٥٦ و ١٥٧.

(٣) كذا بضمير العاقلين.

(٤) سورة ق، ٦ و ٧.

العرش اللّذين هما أعظم المخلوقات، وإنما أحالنا، عزّ وجلّ، على الذي نلحق إليه بحواس أبصارنا.

ومنها: لما جعل في الفرس من الخفة والسرعة في تنقلها، فكونها مع ذلك الذي طبعت عليه من سرعة الحركة من أجل الرحمة التي قسم لها منها ذلك الجزء اللطيف ترفع حافرها عن ابنها.

ومنها: أن الخيل تحمل من التعب بالكَرّ والفرّ وكثرة الجري والجهد في ذلك حتى يلحقها من التعب ما لا يلحق غيرها من الحيوان، ثم مع ذلك يشتد احتياج ابنها إليها، فلِمّا قسم لها من تلك الرحمة تؤثر الشفقة على ابنها على راحة نفسِها، حتى ترفع حافرها عنه خيفة أن تصيبه، وتعاين ذلك كله منها ما لا تعاينه من غيرها، ولا سيما العرب، وهم في هذا أكثرُ الناس مباشرة، ويخبرون عن الخيل بأشياء عجيبة. منها ما ذكر عن ذي القرنين حين أراد أن يدخل الظلمة التي عارضته حين خرج يطلب عين الحياة، وكيف يتأتّى له دخول تلك الظلمة، وكيف الخروج منها؟ فأشار عليه الذين يعرفون فوائد الخيل بأن قالوا: خذ الإناث من الخيل التي لها بطن واحد، فإنها أقوى أبصاراً وأشدّ، واحبِس أولادها في أول الظلمة حيث النور، ثم خض بها في تلك الظلمة حيث شئتَ، فإذا أردتَ الرجوع فاقلِب رؤوسها فإنها ترجع إلى أولادها في أسرع وقت. ففعل ذلك، فجاء الأمر كما أخبروه.

وأما قولنا: ما الفائدة في الإخبار لنا بذلك؟ فلفوائد، منها: الإخبار بأن الرحمة في تلك الدار أكثر وأعظم من البلاء، لأنه عليه السلام قد أخبر عن النار في الأحاديث قبل، أنها فضلت على نارنا هذه، وهي جميع نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءاً. والرحمة المذكورة في تلك الدار بتسعة وتسعين جزءاً من مثل جميع كل رحمة في هذه الدار إذا جمعت، ثم مع ذلك هي خاصة كلها للمؤمنين.

ويقوي هذا التأويل قوله، جلّ جلاله، على لسان نبيه، عليه السلام: (إن رحمتي غلبت غضبي)[1] لأن أثر الخير الذي هو دال على الرحمة أكثر من المحن الدالة على الغضب. فلو لم يكن إلا هذه لكانت فائدة عظمى. ويستدل منها أن رحمته، جلّ جلاله، التي هي صفة ذاته الجليلة ليست تُحَدُّ ولا تكيَّف، لأن تحديد هذه الموهبة ـ وهي أصل الخير والإحسان ـ لا تقدر العقول على حصرها، فكيف بالتي هي الدالة عليها؟ وبهذا علمنا أن الذات الجليلة ليست بمحدودة. ومنها إدخال السرور على نفوس المؤمنين، لأن النفس من عادتها أنه لا يكمل فرحها بالخير إلا إذا كان

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي.

محدوداً، فأخبرهم، عليه السلام، بذلك الحَدّ العظيم، ليكمل فرحها بما وهب لها، لعلّها تجده عند احتياجها إليه.

وفيه تحضيض على الإيمان والقوة فيه، لأن المؤمن إذا علم قدر داره التي قراره فيها، وكيفية الخير الذي له فيها، قوي إيمانه، فكان ذلك عوناً له على الزهد في هذه الدار، والرغبة في تلك الدار. ومما يقوي هذا قوله ﷺ (لَمَوْضِعُ سَوْط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها)[1]. وهذا منه، عليه السلام، إخبار بتفاوت النسبة بين الدارين، وترغيب في تلك، وتزهيد في هذه: الفانيةِ.

وفيه دليل لأهل السنة الذين يقولون: إن نعيم تلك الدار وضده محسوسان مدركان، وهو الحق الذي لا خفاء فيه، وتقتضيه أدلة الكتاب والسنة. يؤخذ ذلك من هذا الحديث من قوله عليه السلام (حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها) فإن رفع الحافر شيء محسوس لا شك في ذلك، ومن أجل ذلك وقع التمثيل به.

وأما قولنا: هل لنا طريق إلى معرفة كيفية إنزال ذلك الجزء إلى الأرض؟ فاعلم أن اتصال تصرف قدرة القادر، جلّ جلاله، في المقدورات، وكيفية التصرف، ليس للعقول فيه مجال إلا بالتصديق والتسليم. وقد تقدم أول الكتاب في هذا النوع ما فيه كفاية بفضل الله تعالى.

وأما قولنا: لفظ (الخلق) هل يكون عاماً في جميع الخلق حيواناً أو غير حيوان؟ اللفظ محتمِل للوجهين معاً، والذي يعطيه الدليل من خارج أنه عموم في الحيوان وغيره، لأن قد جاء أن يوم القيامة (تُسْأل الشاةُ القرناء لِمَ نطحت الجمَّاء، والعودُ لِمَ خَدَش العود، والحجر لِمَ لامس الحجر)[2]؟ فلو لم يجعل بينهم[3] رحمة لَما حوسب على تركها. وقد جاء أن الأرض تضم المؤمن إذا جعل في قبره ضمة رحمة، وتقول له: (ما أَحَبَّ منك حين كنتَ تَمشي على ظهري! فكيف اليوم وأنت في بطني)؟ والكافر بضد ذلك. ومن جهة عظم القدرة: العموم أولى، ليظهر بذلك تفاوت النسبة بين حالة هذه الدار والدار الآخرة، وهو أولى وأظهر.

ومما يقوي أنها عموم في جميع الخلق قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾[4] ولا تكون الخشية إلا

---

(١) رواه الإمام أحمد والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والبخاري في الأدب المفرد والترمذي والطبراني في الكبير عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء نطحتها.

(٣) كذا بضمير العاقلين.

(٤) سورة البقرة، من الآية ٧٤.

حيث جعلت الرحمة. وقد قال، عزّ وجلّ، في الحيوان العاقل ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1] والعلماء بالله هم أكثر الناس رحمة وأكثرهم حناناً وشفقة، ولا تكون الخشية إلا حيث تكون الرحمة. وقد قال العلماء: كـلُّ ما رأيتَ من جبل انهد، أو حجر انشق، فإنما هو من خشية الله تعالى.

وبقى هنا للحكمة الربانية أثر عجيب في قسمة تلك الرحمة، فقد تكون قسمة بعض الجماد منها أبرك وأكثر مما قسم للحيوان العاقل المخاطب، فيكون الحجر على صلابته، والجبل على قوته، يتفتتان وينهدّان ويسيلان من الخشية، وتكون هذه الجارحة الصنوبرية ـ على صغرها ولينها ـ لا تتأثر لشيء من أثر قدرة القادر الجليل. وهذا من أعظم العجائب لمن فهم. ولذلك جاء التوبيخ بها في الكتاب العزيز، ولكن المحروم أطرش. كم ذا يضرب في حديد بارد! تعب بلافائدة.

وقوله ﷺ (أنزل في الأرض) هل المراد هذه الأرض الواحدة التي نحن عليها؟ أو جنس الأرض، فيكون نزوله في الأرضين السبع؟ اللفظ محتمل. لكن يقوّي أنه للكل من خارجٍ ما قاله بعض العلماء: إن الأرض الرابعة عُمّارها الجِن، وهم أحد الثقلين المكلّفَيْنِ وبينهم تراحم وتواد، صالحهم وضده. وقد قيل عرش إبليس في الرابعة. وذكر أنه في السابعة هو وجنوده، وإن كانوا على ما هم عليه من الضلال، فبينهم تراحم وتواد، وهو أيضاً من جهة عِظم القدرة وتفاوت النسبة بين الدارين كما تقدم أولى وأظهر.

وبقي في الحديث بحث لطيف وهو: ما يعني بهذه الرحمة؟ هل كل رحمة وجدناها بين العالم كانت من أجل الله؟ أو من أجل حب وولوع، أو جوار، أو دوام مصاحبة أو للإحسان والألفة، أو أي نوع كانت هي من تلك الرحمة؟ أو ما هي منها إلا ما كان لله ليس إلا؟ احتمل الوجهين معاً. والأظهر أنها عامة بأي نوع وجدت، فهي من تلك الرحمة الواحدة المنزلة. ويقوّي هذا الوجه قوله ﷺ (حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) وإنما ترفع الفرس حافرها عن ولدها لما جعل لها من حب ولدها. هذا نجده في الحيوان غير العاقل من باب، وفي العاقل أحرى.

ويترتب على هذا الوجه من الفقه وجوه: منها اتساع الرجاء في عظم الرحمات المدّخرة وعظم التباين في النسبة بين الدارين، وأن الرحمة التي في تلك الدار خير كلها، وما يصدر عنها كذلك، وأن الرحمة التي في هذه الداربنسبة الدار مختلطة بحسب ما تصدر عنه وإليه، فما كان منها لله وعن الله فهي خير كلها، وما كان في الضد منها فهي في الضد في الأحكام كلها، وما كان منها في المباح فهي من نوعه.

---

(١) سورة فاطر، من الآية ٢٨.

ويقوّي هذا التوجيه قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ ﴾[1] فمنع، عزّ وجلّ، من الرحمة[2] أن تكون في غير ما يرضي الله، فإن وقعت فليست برحمة مرحوم فاعلها، بل هي رحمة معاقب صاحبها. وعلى هذا فَتَبَصَّرْ تجد الأمر كما وجهناه.

وفي الحديث الذي بعده ما يقوي هذا المعنى، بحسب ما يفتح الله تعالى في تبيين ذلك. ولهذه الإشارة جعل أهل التوفيق كل حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم مع القريب والبعيد لله وبالله. ومما علمه بعض من نسب إليهم من الدعاء في بعض مرائيه أن قيل له: يكون من دعائك (اللهم اجعل جميع تَصَرّفي فيما يرضيك ابتغاء مرضاتك) جعلنا الله ممن مَنّ عليه بذلك حتى يتوفانا عليه بفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النور، من الآية ٢.

(٢) أي: بعض الرحمة.

ـ ٢٤٠ ـ

حديث: مَثَل توادّ المؤمنين وتراحمهم مثلُ الجَسَد

عَنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ[١]، رَضي الله عَنهُما، يَقولُ: قال رَسُولُ الله ﷺ: تَرى المؤمنينَ في تَراحُمِهم وتَوادِّهم وتُعاطفهم كَمَثَلِ الجَسدِ، إذا اشتكى عضو منه تداعى لَهُ سائِرُ الجسَد بالسَّهَرِ وَالحُمَّى.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن المؤمنين كلهم، وإن تباينوا أو تباعدوا، كالجَسَد الواحد، كلما أصيب أحدهم بشيء أصاب الجميع منه نِسْبة. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن فيه تقويةً للتوجيهِ الذي وجهناه آخر الكلام على الحديث قبله، لأنه، عليه السلام، جعل تواد المؤمنين وتراحمهم مخالفاً لتوادّ غيرهم وتراحمهم. ومنها: هل التراحم والتواد والتعاطف ألفاظ مترادفة والمعنى واحد، أو لكل لفظ معنى خاص؟ وهل هذا للمؤمن الكامل الإيمان، أو لكل من دخل تحت هذا الاسم؟ وما الحكمة بأن مَثَّل الإيمان بالجسد والمؤمنين بالأعضاء منه؟

فأما قولنا: هل الثلاثة الألفاظ بمعنى واحد، أو لمعانٍ؟ فنقول، والله أعلم: بل هي لمعانٍ مختلفة.

فقوله ﷺ (في تراحمهم) معناه: أن الرحمة التي جُعِلت في قلوب المؤمنين، بعضهم لبعض، من أجل أخوة الإيمان هذا، لا لِوُلوعٍ ولا لإحسان ولا لشيء خلاف الإيمان. هذا هو أصلها. وقد تتزايد للوجوه الموجبة لرحمته، عزّ وجلّ، كما جاء في حق الجار: أن له بنفس الجوار حقاً، فإن كان مؤمناً كان له حقان، فإن كان قريباً كان له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق الإيمان، وحق القرابة. وكذلك إن كان صهراً من الأصهار زاده حقاً رابعاً. فكذلك الرحمة التي بين المؤمنين

---

(١) مرت ترجمته في الحديث ١٠٣.

تتضاعف بحسب الموجبات للرحمة، مثلما فعل سيدنا ﷺ حين رُفِع له ابنُ ابنته، ونَفْس الصبي تتقعقع كأنها شَنّ[1]، ففاضت عيناه عليه السلام، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، إنما يرحم الله من عباده الرحماء)[2] لما اجتمع له ﷺ رحمة الإيمان، وما رأى من صغر الصبي، ومن شدة معالجة الموت، وما بينهما من النسب حتى سالت تلك الدمعة المباركة لتضاعف الرحمة عنده.

و (توادّهم) كناية عن التواصل بينهم واستعمالهم أسبابه، وأصله أيضاً الإيمان، وقد يتضاعف لموجباته مثل التهادي لقوله عليه السلام (تهادوا تحابّوا)[3] والتزاور والجوار والمشاركة عند الضرورة، وكل ما يتولد عنه ودّ ما فالأصل فيه توادّ الإيمان، ويتضاعف بحَسَب موجباته بين الناس.

وأما التعاطف فهو تقوية بعضهم لبعض، كما يعطف طرف الثوب عليه ليقويه، وهو من باب قوله عزّ وجلّ ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[4] فإن أصل الإيمان هو الذي عطف قلوب بعضهم على بعض، كما قال، جلّ جلاله، في كتابه ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[5] وكقصة موسى، عليه السلام، حين وجد الإسرائيلي مع القبطي، فاستنصر الإسرائيلي بموسى، عليه السلام، من أجل حَمِيّة الإيمان بينهما، فوكز موسى، عليه السلام، القبطيَّ من أجل تواد الإسرائيلي، فكان من قصتهما ما أخبر، عزّ وجلّ، في كتابه. وقد يتزايد التعاطف بينهم أيضاً لموجباته، وأصله الإيمان كقصة موسى، عليه السلام، لما رأى ضعف الإسرائيلي وتعدي القبطي عليه، وظلمه، وقلة أنصار الإسرائيلي، تأكد التعاطف عند موسى عليه السلام، حتى أخذ بالضربة الواحدة روحَ القبطي[6].

وأما قولنا: هل هذه الأوصاف للمؤمن الكامل الإيمان، أو لكل من دخل تحت هذا الاسم؟ فقد بان لك بضرب المثل بسيّدنا ﷺ وبموسى، عليه السلام، أن ذلك من أوصاف الإيمان الكامل،

---

(١) تتقعقع: تحدث صوتاً عند التحريك أو التحرك. الشَنُّ: القِربة الخَلَق الصغيرة.
(٢) أخرجه الإمامان مالك وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو عوانة وابن حبان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) سورة المائدة، من الآية ٢.
(٥) سورة الأنفال، من الآية ٦٣.
(٦) التفصيل في سورة القصص.

ولا يطلق الشارع ﷺ لفظ الإيمان إلا على كماله. ولذلك بيّن، عليه السلام، أوصاف المؤمنين ليعرف كل أحد قسمته أين هي؟ وكفى به على نفسه حسيباً. ولا يغترّ بإطراء بعض الناس له، فإن المخبِر صادق، والناقد بصير، وإليه المرجع والمصير.

وأما قولنا: ما الحكمة بأن شبّه، عليه السلام، الإيمان بالجسد وأهله بالأعضاء؟ فذلك من أبدع ما يكون في التشبيه، لأنه لما كان الإيمان أصلاً وله فروع ـ وهي جميع التكليفات على نحو ما جاءت به الشريعة المحمّدية ـ فإذا نقص من التكليفات شيء أو دخل في بعضها شين شان ذلك الشينُ الأصلَ الذي هو الإيمان، لأنه يقتضي بوضعه الانقيادَ والامتثال. فكذلك الجسد، وهو واحد مثل أصل الشجرة، وأعضاؤه هم المؤمنون، لأنهم قد تفرقوا مثل فروع الشجرة. فإذا كان شين ما في أحد الفروع شان ذلك الأصل، وإذا ضرب أحد في غصن من أغصانها اهتزت الأغصان كلها وتداعت لتلك الضربة كلها بالتحرك والاضطراب، وكذلك الجسد إذا ضربت يد القَدَر عضواً منه مما يؤلمه تداعت له سائر الأعضاء، كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم.

وفيه دليل على ما أعطى الله، عزّ وجلّ، لسيدنا ﷺ من الفصاحة والبلاغة.

وفيه دليل لمذهب مالك، رحمه الله، الذي يقول: إن الإيمان يزيد وينقص. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، حين بيّن صفات الإيمان الكامل، والكمال ضده النقص، والنقص ليس على حد واحد، فبانت الزيادة والنقص. وفي هذه الأوصاف دليل لطريق أهل السلوك لأنهم يطالبون أنفسهم بتوفية أوصاف الإيمان في أنفسهم ومع غيرهم. وقد ذكر عن بعضهم أنه جاءه بعض إخوانه يطلب منه سلفاً، فلما أخرج له ذلك السلف خرج وهو باكٍ فقال أخوه: ما أبكاك؟ قال له: تفريطي في حقك، حيث جئت تطلب مني السلف. واستغفرَ الله مما جرى منه. هكذا فَكُنْ، وإلا فالأصل معلول.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٤١ ـ

حديث ثواب من زرع زرعاً

عَن أَنَسٍ، رَضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: ما مِن مُسلمٍ غَرسَ غَرساً فَأكلَ مِنهُ إنسان أو دابَّة إلاَّ كانَ لَهُ بِهِ صَدَقَة.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن كل من غرس من المسلمين غرساً فكل من أكل منه شيئاً من جميع بني آدم أو من جميع الدواب له في ذلك الشيء الذي أكل، أجر صدقة. والكلام عليه من وجوه.

منها: أن يقال: هل المراد بالغرس كل ما ينبت ويؤكل منه، أكان له أصل ثابت مثل التمر والرمان وما أشبههما، أو ما ليس له أصل ثابت، مثل القمح والشعير والبطيخ والقثاء وما أشبهها، أو المراد الذي ليس له أصل ثابت لا غير؟ وهل يعني بـ(المسلم) الجنس، أو المسلم الكامل الإيمان؟ وهل يكون الغرس على أي وجه كان، أو يكون على وجه مخصوص؟ وهل يحتاج إلى نية في غرسه أم لا؟ وهل يكون الأكل على أي وجه كان بحقه مثل الشراء منه وغير ذلك، أو بوجه مخصوص؟ وكذلك الدواب بأي وجه أكلته، وهل جميع الدواب في ذلك سواء، ما يتملك منها، وما لم يتملك؟ وهل يلحق الطير بالدواب أم لا؟ وهل يشترط في الغرس دوام ملك الغارس عليه حين الأكل منه أم لا؟ وهل يُعلم قدر تلك الصدقة، أو ليس لنا طريق يعرف به؟ وما الحكمة في الإخبار بذلك؟ وما يترتب عليه من الفقه؟.

أما قولنا هل المراد بالغرس ما له أصل ثابت وما ليس له أصل، أو ما له أصل ثابت ليس إلا؟ إن نظرنا بحسب اصطلاح الناس في الغراسة فلا يطلقونها إلا على كل ما له أصل ثابت، وأما ما ليس له أصل ثابت فإنهم يطلقون عليه زراعة. وإن نظرنا إلى اللغة فكل ما يبذر في الأرض وينبت ينطلق عليه اسم (غراسة)، مثل ما جاء في وصف الجنة (غرسها الرحمن بيده)[1] أي بيد قدرته،

---

(١) أخرجه الحاكم عن أنس رضي الله عنه بلفظ: خلق الله جنة عدن، وغرس أشجارها بيده فقال لها: تكلمي. قالت: قد أفلح المؤمنون.

وهو أن قال لها: كوني. فكانت، بغير واسطة بيد مخلوقٍ مِن خَلقِه، وقد جاء أن فيها من الفواكه والنعم ما له أصل ثابت، وما ليس له أصل ثابت، مثل الزعفران الذي هو حشيشها وليس له أصل ثابت، وأطلق على الكل غراسة.

وهذا إذا نظرت من جهة الخير المتعدي النفع، فالحبوب التي يكنون عنها بالزراعة أعم، فإنها غالب الأقوات. وقد كان سهل من فقهاء غرناطة بالأندلس، وكان من خير علماء وقته يقول لأصحابه: إن الأعمال قد قلّت، والكَسَل توالى، فأكثِروا الزرع لأن تكثر حسناتكم. وكانت غرناطة: الغالب عليها كثرة زرع الحبوب، ويرد عليهم الحديث الذي نحن بسبيله. وهذا هو غالب ما تصل إليه جميع الدواب ـ أعنى الحبوب المزروعة ـ وهذا أيضاً من طريق كرم المولى سبحانه أولى، لأن الكريم إذا تكرم لا يحصر بل يوسّع ويفسح.

وأما قولنا: هل نعني بـ(المسلم) جنس المسلمين، صالحهم وغيره، أو المسلم الكامل الإيمان؟ أما الحقيقي فلا خلاف فيه، وأما غيره المتخبط في أعماله فمن طريق العدل وميزان العلم إذا نظرنا نجدهم على أنواع مختلفة، لأنا لا نقدر أن نقول في تارك الصلاة: إن زرعه يكون فيه مأجوراً، ونحن نحكم عليه بغير الإسلام، وأن حياته مستعارة، وأن جزاءه القتل على خلاف: هل كفراً أو حدّاً.

وفي غير تارك الصلاة من أهل المعاصي يبقى الخلاف في زرعه وغرسه، إذا كان الغرس والزرع على لسان العلم على الخلاف الذي بين العلماء: هل تقبل حسناته أو لا تقبل حتى يقلع عن معاصيه. والجمهور من أهل السنة على قبول حسناته إذا كانت على ما أمر بها، وأنه مؤاخذ بسيئاته إلا أن يتوب، أو يتفضل المولى سبحانه عليه بما شاء من أنواع أفضاله. ذلك في حكم المشيئة. ومن العلماء من يقول: إنه لا تقبل حسناته حتى يقلع عن سيئاته. وقد تقدم الكلام أول الكتاب على هذا النوع وتوجيه الأقاويل وتعليلها، بما فيه الكفاية، بفضل الله تعالى.

وأما قولنا: هل يكون الغرس على أي وجه كان، أو على وجه مخصوص؟ فالجواب: أن العمل إذا كان مخالفاً للشرع فهو غير مجزي[1]. فهذه قاعدة متفق عليها بالكتاب والسنة والإجماع، أن الأعمال إذا خالفت الشرع لا تقبل. والله أعلم. وقد تقدم الكلام على هذا النوع في غير ما موضع من الكتاب. وقد قال ﷺ (ليس لعِرق ظالم حق)[2]. فمن ليس له حق كيف يكون فيه مأجوراً؟

---

(١) كذا، ولعله يريد «مجزىء».

(٢) رواه البخاري في كتاب الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً عن جابر رضي الله ومعنى الحديث: ليس لِذِي عرقٍ ظالم حق. أي الظالم مَن غرس أوزرع أو بنى أو حفر في أرض غيره بغير حق.

وقال: ﷺ (إن الله لا يقبل عمل امرىء حتى يتقنه، قيل: وما إتقانه؟ قال: يخلصه من الرياء والبدعة)[1]. فكل شيء خالف لسان العلم فلا يكون عامله فيه مأجوراً، فإذا خالف هذا الغارس في غرسه لسان العلم أليس[2] يكون فعله آثماً؟.

وأما قولنا: هل يحتاج في غرسه ذلك إلى نية أم لا؟ ظاهر الحديث لا يعطي ذلك، بل هو من طريق الإفضال. لكن من وُفِّقَ في ذلك إلى حسن النية كانت له زيادة في أجره، لقوله ﷺ (خير الأعمال ما تقدمته النية) كما أن النية السوء إذا تقدمته أفسَدَتْه، مثل أن ينوي بذلك الغرس ضرراً للغير، أو فَخْراً أو مباهاة أو ما يشبه هذه النيات المبطلة للأعمال، على حسب ما تقرر ذلك بلسان العلم.

وأما قولنا: هل يكون ذلك الأكل منه على أي وجه كان، بحق أو بغير حق؟ فقد تقرر من الشرع أن كل ما أُخِذ من مال أحد بأي وجه أُخِذ بأكلٍ أو غيره بغير حق فإن المأخوذ منه مأجور، فيكون الإخبار هنا ـ لو كان على هذا المعنى ـ تأكيداً لا غير، والمعروف من طريق الأحاديث أنه لا يأتي منها حديث إلا لزيادة فائدة، بل لفوائد جمة، مثلما قال عليه السلام (إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهي له صدقة)[3].

وقد تقرر بالشرع أن كل ما فعله الآدمي مما هو عليه واجب أنه فيه مأجور. فلما كانت النية بالاحتساب في ذلك الواجب تزيده بذلك خيراً أخبر به عليه السلام، ولما كان الزرع والغرس مما هو مباح لنا على لسان العلم، وكان فيه خيرٌ متعدٍّ للحيوان العاقل وغيره، تفضل المولى، جلّ جلاله، علينا بأن جعل لنا بذلك الخير المتعدي، وإن كنا لم نَقصِدهُ أن يُجعَل فيه أجر، كان ذلك الأكل بحق أو بغير حق. ولتلك الفائدة أخبر الصادق ﷺ بذلك في هذا الحديث، وجعله خاصاً بالمؤمنين.

وأما قولنا: هل الدواب في ذلك الأكل سواء، كانت مما يتملك أو لا يتملك؟ لفظ الحديث يعطي العموم، والعلة المتقدم ذكرها ـ وهي الخير المتعدي ـ تقوّيه.

وأما قولنا: هل الطير تلحق بالدواب أو لا؟ فإن نظرنا إلى العلة المذكورة فلا فرق بين الطير وغيره، بل الطير يكون في ذلك آكد، لأن منه جُلّ معاشه. وإن نظرنا إلى لفظ الحديث فليس ينطلق على الطير إلا إن جعلنا من باب التنبيه بالأكثر على الأقل، لأن الدواب أكثر من الطير. وإن قلنا: إن

---

(١) رواه البيهقي عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه.

(٢) يريد: أفليس. حذف الفاء.

(٣) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه.

الطير وإن كان يطير فهو أيضاً مما يدِب على الأرض، فلا يخرج من عموم الحديث، لأن كل ما يطير يَدِبّ ولا ينعكس، وهو الأظهر - والله أعلم - أن يكون عاماً في الطير وغيره للوجوه المذكورة.

وهل يشترط دوام الملك على ذلك الغرس عند الأكل أم لا؟ احتمل. والأظهر أن دوام الملك وعدم دوامه في ذلك سواء، وله نظائر في الشرع عديدة، منها قوله عليه السلام (إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك)[١] لأنهما يعطيان ما لا يملكان، ويكون لهما الأجر مثل صاحب الأصل، لأنهما كانا سبباً في الخير الذي هو الإنفاق. فكيف من هو سبب في أصل الخير وظهوره، وهي الغراسة؟ من باب أولى.

ومنهاقوله ﷺ (الدالّ على الخير كفاعله)[٢]. فإذا كان الذي يدل على الخير مثل فاعله، وهو لم يفعل شيئاً، فكيف بمن كان فيه أصلاً؟ ولهذه الفائدة وما تقدم ذكره وما بعد أخبر بذلك الصادق الأمين ﷺ، ويدور فيه البحث الأول، وعموم لفظ الحديث يعطي ذلك، ولا يخصص لفظه، عليه السلام، بغير معارض لأن هذا ممنوع. وقد جاءت رواية (إلى يوم القيامة).

وأما قولنا: هل لنا طريق إلى معرفة مقدار الأجر؟ فلفظ (الصدقة) يكفي في ذلك، لأن الصدقة يكون الأجر فيها بقدر كبرها وصغرها، وهذا مثلها، فقد يكون الأكل منه كثيراً أو قليلاً، بل بقي هنا من جهة قوة الطمع في فضل الله تعالى.

وفي عموم الحديث بحث وهو: هل يكون ما يأكل هو وأهله داخلاً في عموم لفظ (إنسان) أَوْ لا، لأنه وإياهم ناس؟ فيرجى ذلك من فضل الله تعالى لعموم اللفظ. ومما يؤيد ما تقدم من البحث ما خرّجه مسلم (لا يغرس رجل مسلم غرساً ولا زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو شيء إلا كان له فيه أجر)[٣] وفي حديث ثانٍ (إلى يوم القيامة) أو كما قال عليه السلام.

وأما قولنا: ما الحكمة في أنه أخبرنا بهذا؟ وما يترتب عليه من الفقه؟ ففيه وجوه، منها: المعرفة بعظم مزية قدر المؤمن على غيره، لكونه يؤجر على أشياء لا يؤجر عليها غيره، وهو لم يقصد بذلك قُربة. ومنها الترغيب في المشي في التصرف على لسان العلم، لأنه لا يكون هذا الخير وما أشبهه إلا لمن كان تصرفه على لسان العلم، كما تقدم البحث فيه. ومنها: الحض على التزام طريق المفلحين، ليكون له الخير في هذا وأمثاله. ومنها: الإرشاد إلى ترك النيات المفسدة لهذا

---

(١) قطعة من حديث رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البزار عن ابن مسعود والطبراني عن سهل بن سعد وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٣) رواه الإمام مالك والإمام أحمد والشيخان والترمذي عن أنس رضي الله عنه بلفظ: ما من مسلم يزرع زرعاً، أو يغرس غرساً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة أو سبع أو دابة إلا كان له به صدقة.

الخير، والترغيب في النيات المنمية له، لأنه إذا علم أنه يثاب عليه ينميه بحسن النية فيه كما هي عادة أهل التوفيق والاتباع لسلف الخير.

ويترتب عليه من الفقه: أن عمل الأسباب التي اقتضتها الحكمة الربانية في عمارة هذه الدار إذا كانت على وجهها لا تنافي العبادة، وفيها أجر وقربة إلى الله تعالى، ومنها أنها لا تنافي طريق الزهد. ويتلخص من هذا أن الزهد والرغبة أمر قلبي وقد جاء ما بيّن هذا أيضاً عنه ﷺ حين قال: (ليس الزهد بتحريم الحلال، وإنما الزهد بأن تقطع الإياس مما في أيدي الناس، وأن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك)[1] أو كما قال عليه السلام.

وفيه من الفقه: الحضّ على العلم بالسنة، ليعلم المرء ما له من الخير، فيرغب فيه، فإن مثل هذا وما أشبهه لا يعرف إلا من السنّة، ليس له طريق غير ذلك، لا عقل ولا قياس، وليعلم المرء أيضاً أن ما له من الخير يصل إليه ولو لم يعلم به، وكذلك ضدّه، فيحفظ نفسه من الشر. وقد جاء هذا نصاً منه ﷺ حيث قال: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها أهله لا يبالي بها يهوي بها في النار سبعين خريفاً، وإنه ليتكلم بالكلمة من الخير لا يبالي بها يرفع بها سبعون درجة في الجنة)[2] أو كما قال عليه السلام.

وفي الحديث وأمثاله ما يقوي أهل السلوك والخدمة، لأنهم يقولون: لم يبقَ لأهل الفلاح في تَصَرُّفِهِمْ مباح، إنما هو واجب أو مندوب، لأنه قد جاء هذا الأجر في الزراعة، وهي من المباحات عند أهل العلم. وقد جاء (أن المؤمن يؤجر حتى في بضعه لامرأته. قيل: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شهوته ويكون فيها مأجوراً؟ فقال عليه السلام: أرأيت لو وضعها في الحرام أليس يكون مأثوماً؟ قالوا: بلى. قال: كذلك إذا وضعها في الحلال يكون مأجوراً)[3] أو كما قال عليه السلام. وجاء: أن نومه إذا قصد به العون على الطاعة كان فيه مأجوراً، وهو ما جاء عن معاذ حين سأل النبي ﷺ في قصته المشهورة فقال صاحبه: أقرأ القرآن قائماً وقاعداً، وأفوقه تفويقاً، ولا أنام. وقال معاذ: أقوم وأنام وأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، فشهد النبيّ ﷺ لمعاذ بالفقه. وجاء في شربة الماء إذا قصد به العون على الطاعة، وسمّى أولاً ثم قطع وحمد، يفعل ذلك ثلاثاً، أن الماء يسبّح في جوفه. فهذه مع ما تقدم ذكره في الحديث من الاستشهادات في أن جميع تصرفات المؤمن وشهواته تراه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بَأساً ليضحك بها القوم فإنه ليقع بها أبعد من السماء.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والبيهقي في الشعب عن أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه. ومطلعه: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال الخ...

(٣) أخرجه أبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه. ومطلعه: يصبح على كل سلامى من ابن آدم صدقة.

فيها مأجوراً، فكيف ما هي قربة بوضعها إما واجبات وإما مندوبات؟ فظهرت الأدلة الشرعية بتقوية مقالهم وطريقتهم المباركة.

جعلنا الله ممن ألحق بهم بمنّه وفضله، آمين..

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٤٢ ـ

حديث رحمة الله لمن يرحم عباده

عَن جَرِيرِ بنِ عَبدِ الله[١]، رضيَ الله عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: مَن لاَ يَرحَمُ لاَ يُرحَمُ.

٭ ٭ ٭

ظاهر الحديث يدل أن رحمة الله لا ينالها إلا من تكون فيه رحمة. والكلام عليه من وجوه:

منها: قوله (لا يرحم) ما معناه؟ هل المراد لا يرحم أبداً، أو أنه ليس من طريق الحكم بالعدل سببٌ يوجب له بالوعدِ الحقِ رحمةً؟ احتمل الوجهين معاً بحسب التأويل في قوله عليه السلام (من لا يرحم) على ما يذكر بعد. وهل المراد بقوله (من لا يرحم) لا يرحم غيره، إما بإحسان أو بما يكون في مثله من تَسلٍ أو تَـعَزٍّ أو إرشاد إلى غير ذلك من وجوه المَسرّات؟

أو يريد بقوله (من لا يَرحم لا يُرحم) أي لا تكون فيه رحمة الإيمان التي هي دالة عليه، فلا يُرحم لخلوه من الإيمان؟

أو يكون المراد من لا يرحم نفسه بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه لا يرحم، لأنه ليس له عهد عند الله تعالى يوجب ذلك؟

أو يكون المراد: لا يرحم الرحمة التي ليس فيها ضيم ولا شيء من شوائب التشويشات إلا من كان راحماً على الإطلاق لنفسه ولغيره وفي إيمانه، كما قال عزَّ وجلَّ في كتابه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾[٢] أي يحق لهم الرجاء لما أتوا

---

(١) هو جرير بن عبدالله البَجَلي، نسبة إلى قبيلة: بَجِيلة، وهو اسم لأم القبيلة، وبها سميت. كان جرير صحابياً، وهو القائل: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسّم في وجهي. أسلم سنة عشر، وسكن الكوفة. وفي الخبر: أن عمر رضي الله عنه وجد مرّة من بعض جلسائه رائحة فقال: عزمت على صاحب هذه الريح إلا قام فتوضأ. فقال جرير: اعزم علينا كلنا. فعزم عليهم، ثم قال: يا جرير، ما زلت شريفاً في الجاهلية والإسلام. وسأله عمر رضي الله عنه عن الناس فقال: هم كسهام الجعبة، منها القائم الرائش والنصل الطائش. توفي سنة ٥١ هـ. (شذرات الذهب ١/ ٥٨).

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢١٨.

بموجباته ـ فإن رجوا بغير عمل فليس ذلك رجاء، وإنما تسميه العلماء تمن[1]. والتمني عندهم مطية الهلاك ـ وكقوله عزَّ وجلَّ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

أو يكون المراد: أن أهل المبالغة في الرحمة يتجاوز الله تعالى بفضله عنهم ويرحمهم كما جاء: تجاوزوا عن الكريم؛ فإن الله آخذ بيده كلما عثر. وقد جاء (أن يوم القيامة ينادي مناد: مَنْ له على الله حقّ فلْيقم. فيقوم العافون عن الناس، فيؤمر بهم إلى الجنة من غير حساب)[3].

واحتمل أن تكون الرحمة هنا بمعنى الحسنات والأجور، فإنه لا يؤجر ويحسن إليه إلا من فعل رحمة، أي عملاً يوجب له ثواباً، كقوله عليه السلام (إن الله لا يمل حتى تملوا)[4] أي إن الله لا يمل بالإحسان وحسن الجزاء حتى تملوا من العمل.

واحتمل أن يكون المراد: لا ينظر إليه بعين الرحمة إلا من وفق إلى الرحمة وجعلت في قلبه، فتكون دالة على الرحمة له، ومن لم يجعل في قلبه رحمة كان ذلك دليلاً على عدم الرحمة له في الآخرة، وإن كان هذا على عمل خير في الظاهر، لأن تلك العلامة لم يجدها. وقد جاء عنه ﷺ ما يبين هذا المعنى وهو قوله عليه السلام (اطلبوا الرقة في ثلاث: في الذكر، والتلاوة، والصلاة. فإن وجدتموها وإلا فاعلموا أن الباب مغلق)[5] أو كما قال عليه السلام. والرقة لا تكون إلا مع الرحمة، وقد قال ﷺ لأعرابي: (ما بالك؟ أنزع الله الرحمة من قلبك؟ إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء)[6] أو كما قال عليه السلام. وقد قال ﷺ في القاسي القلب (بعيد من الله) وقد قال ﷺ (ألا

---

(١) كذا. والصواب: تمنياً.

(٢) سورة الأعراف، من ١٥٦ و١٥٧.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا عن أنس رضي الله عنه بلفظ: إذا وقف العباد نادى مناد: ليقم من أجره على الله وليدخل الجنة. قيل: من الذي أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس.

(٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا، وإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلّ.

(٥) لم نقف على مصدره.

(٦) لعله يعني به حديث الأقرع بن حابس حين رأى النبي ﷺ وهو يقبّل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحداً منهم فقال ﷺ: من لا يرحم لا يرحم. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث الباب.

أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه النار؟ على كل قريب هيّن سهل)[١] أو كما قال عليه السلام. وهذه الأدلة كلها إنما هي لمن جعلت الرحمة في قلبه.

واحتمل أن يكون المراد بالرحمة هنا الصدقة. فيكون المراد بقوله (لا يُرحم) أي لا يُدفع عنه البلاء، مثل ما حكي في قصة القصار من بني إسرائيل الذي كان يؤذي الناس، فشكوه لنبي ذلك الزمان، فأخبرهم أن الله، عزَّ وجلَّ، يرسل عليه بلاء في اليوم الفلاني. فلما كان في ذلك اليوم خرج الرجل على عادته للقصارة وأخرج معه رغيفين لغذائه، فلقيه مسكين فسأله فأعطاه الرغيفين. فلما كان عشية النهار وإذا[٢] به راجع ما به شيء. فقالوا لذلك النبيّ ﷺ وعلى سيّدنا وعلى جميعهم: أين الذي وعدتنا؟ فسأله: ما فعلت اليوم؟ فأخبره بإعطائه الرغيفين، فأمر بحَلِّ رزمة ثيابه، فوجد فيها حية عظيمة ملجمةً بلجام من نار، فقال لهم: هذا البلاء الذي كان أُرسِل عليه، وهذا اللجام هي الصدقة التي تصدق بها حبسَتْها عنه. أو كما جرى. وقد قال ﷺ: (ادفعوا البلاءَ بالصدقة)[٣].

واحتمل أن يكون المراد الإرشاد لجميع مصانع المعروف، لقوله ﷺ (مَصانعُ المعروف تَقي مصارعَ السّوءِ)[٤].

واحتمل أن يكون المراد جميعَ الوجوه كلها، لأن على كل واحد منها أدلة من السنّة عديدة.

ويترتب على ذلك من الفقه أن يتفقد المرء نفسه في هذه الوجوه كلها، لعلّه أن يكون ممن يرحم، وإن عسر عليه شيء منها فيلجأ إلى المولى الكريم لعلّه يمنّ عليه بالرحمة وأسبابها، فهو منان كريم.

جعلنا الله من أهلها بفضله في الدنيا والآخرة، آمين، آمين، آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الترمذي والطبراني وابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار، كل قريب هين ليّن سهل.

(٢) كذا بزيادة الواو.

(٣) روى الطبراني في الكبير عن رافع بن خديج رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: الصدقة تسدّ سبعين باباً من السوء. وروى البيهقي مرفوعاً وموقوفاً عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة.

(٤) أخرجه الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه بلفظ: صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر.

— ٢٤٣ —

حديث الحث على إكرام الجار

عَن عائِشَةَ، رضي الله عنها، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: ما زالَ جِبريلُ يُوصيني بالجَارِ حَتَّى ظَنَنتُ أنَّـهُ سَيُـوَرِّثُـهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على الحض على حفظ الجار، والإخبارِ بكثرة وصية جبريل عليه السلام، للنبيّ، عليه السلام، به، والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: هل هذه الوصية من قَبيل الواجب أو المندوب؟ وهل الوصية به من قبيل الإحسان إليه؟ وإن كان من أجل ذلك فما حدّه؟ أو المراد غير ذلك من ترك الضرر إليه، أو الجميع؟ وهل ذلك على الإطلاق على أي حال كان الجار؟ أو لها شروط؟ وأي حد هو حدّ الجار من القرب والبعد؟ ومن أي الجهات يكون؟ وهل القريب منهم والبعيد في الحرمة سواء؟ وهل هي من الأمور التي يحتاج فيها إلى نية أم لا؟.

أما قولنا: هل هذه الوصية من قبيل الواجب أو المندوب؟ فهذه الصيغة لا تستعمل إلا في المندوبات والمرغبات، مثل قول أبي هريرة، رضي الله عنه (أوصاني خليلي بثلاث: ركعتَيِ الضحى، وصيامِ ثلاثة أيام من كل شهر، وأن أوتر قبل أن أنام)[١] وحفظ الجار من كمال الإيمان. وهو أيضاً مما كانت الجاهلية ترعاه وتحافظ عليه، وتفتخر بحفظه، وتعيب تارك ذلك وتذمّه.

وأما قولنا: ما حَدّ الإحسان إليه؟ فهو على ضربين: إما الإحسان إليه بأنواع ضروب الإحسان، وإما كفّ الأذى عنه على اختلاف أنواعه. وكف الأذى عنه أشد وأبلغ في حقيقة

---

(١) رواه الشيخان عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الإيمان، لقوله ﷺ: (لا يبلغ أحد حقيقةَ الإيمان حتى يأمن جاره بوائقه)[1] أو كما قال عليه السلام. فنفى ﷺ أن تجتمع حقيقة الإيمان مع إيذاء الجار، والإحسانُ إليه من كماله.

والإحسان إليه يكون بالوجوه المحسوسة مثل الهدية، وألا يمنعه غرز خشبة في جداره[2] إن احتاج إليها، وما هو في معنى ذلك. ويكون بالمعنويات مثل إرادة الخير له، والدعاء له بذلك بظهر الغيب، وما في معناه، ومعاونته على شيء إن احتاج إليه بقدر الجهد بأي نوع كان ذلك من المحسوسات أو المعنويات. كل ذلك على قدر طاقتك بغير ضرر يلحق فيه للغير ديناً ودنيا.

وأما قولنا: هل ذلك على الإطلاق أوْ له شروط؟ فالجواب: أنه من وجه على الإطلاق، ومن وجه له شروط. فالذي هو على الإطلاق إرادتك الخير له إن لم يكن من أهله، ودعاؤك له في ذلك بظهر الغيب وما في معناه. وأما الذي له شروط فإنه إذا كان على الاستقامة فالمندوب قد أصاب محله، فأحسِنْ إليه بما أمكنك من وجوه الإحسان حِسّاً ومعنى، وإن كان على غير استقامةٍ فواجب عليك كفّه عن ذلك، إن كان ذلك في قدرتك، أو موعظته إن قَبِل ذلك، وإلاّ فهجرانه على قدر جرمه. ويكون يعلم أن هجرانك له من أجل ذلك، لعله يرتجع من أجل هذا وما أشبهه، وقد قيل: (الجار قبل الدار) وقال العلماء: شؤم الدار سوء جارها[3].

وأما قولنا: أي حدّ هو حدّها؟ فقد تكلم الناس في ذلك، فيما قيل فيه: إن من بينك وبينه أربعون داراً فما دون ذلك فهو من جيرانك[4]. وأما ما يدل عليه الحديث الذي بعد هذا فهو من اثنين فما دون، على ما يقع الكلام عليه في موضعه من الحديث، إن شاء الله تعالى.

وأما قولنا: من أي الجهات يكون؟ فقد قال العلماء: من الأربع جهات، إن كانت الجهات عامرةً كلّها.

وأما قولنا: هل القريب والبعيد في الحرمة سواء؟ فهذا يحتاج إلى تفسير. أما في منع الضرر لهم فذلك سواء، وأما في إرسال الخير إليهم فإن كان مثل المعنويات فهم في ذلك سواء، وإن كان

---

(١) رواه البخاري عن أبي شُرَيح الكعبي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: لقد خاب وخسر، من هذا؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه. قالوا: وما بوائقه؟ قال: شره. وفي رواية لأبي يعلى عن أنس رضي الله عنه: ما هو بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه.

(٢) روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبة في حائطه.

(٣) أخرج ابن ماجه والطبراني من حديث أسماء بنت عميس: قالت: يا رسول الله، ما سوء الدار؟ قال: ضيق ساحتها وخبث جيرانها، إلى اخر الحديث (انظر العراقي على الإحياء ٢/ ٢٣٢)..

(٤) أخرج أبو داود في المراسيل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه، وأبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فجعل يشكو جاره فأمره النبي ﷺ أن ينادي على باب المسجد: «ألا إن أربعين داراً جار». قال الزهري: أربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا. وأومأ إلى أربع جهات.

من جهة المحسوسات فتعمل في ذلك بحسب نص الحديث الذي يأتي بعد هذا الحديث، وهو تقديم أقربهم منك باباً، فتلك السنة، هذا إذا تساوَوا في حق الجوار بلا زيادةِ حقٍ على ذلك، فإن من الجيران من له حقّ واحد، ومن له حقان، وهو الذي يكون جاراً مسلماً، ومن له ثلاثة حقوق وهو أن يكون جاراً مسلماً قريباً من القرابة أو من الرحم، ومنهم من يكون له أربعة حقوق (القرابة والجوار والإسلام والصهر)[1] فيكون إذ ذاك المقدَّم منهم الذي يكون أكثرهم حقاً، كفعل المواريث، أقواهم سبباً يكون أولى من غيره.

وأما قولنا: هل يحتاج في ذلك إلى نية أم لا؟ فاعلم أن كل فعل يمكن عمله لله، ويمكن عمله لغير الله ـ والوجهان فيه سائغان على لسان العلم ـ فلا بدّ من النية فيه إذا فُعِل لله، ليمتاز عن غيره. والإحسان للجار هو مما يمكن أن يكون لله وأن يكون لغير الله، مثل أن تفعل الخير معه مكافأة على إحسان تقدم له عليك، أو لمن يلزمك منه ملزم، أو الحب فيه، أو لحياءٍ منه، أو لرغبة في مكافأته، أو لإحسان، أو لخوف منه، وأشياء عديدة إذا نظرتها تجدها. فإذا كان لمجرد الجوار فالنية فيه مطلوبة ليتميز من هذه الوجوه كلها. وما أقل اليوم فاعل ذلك!.

وقد ذكر عن بعض أهل الدين والفضل أنه كان له أحد جيرانه وكان مسرِفاً على نفسه، والسيد لا يعلم ذلك منه، وكانت لذلك المسرف عادة إذا كان يفيق من نشوته قريب السحر يرفع صوته ويقول:

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا؟ ومثلي في الحقيقة لا يُضاعُ

فكان ذلك السيد يتأنس بذلك القول منه كل ليلة، إلى أن وقع الحاكم عليه، فأمر بسجنه.

فلما كان في السَّحَر لم يسمع ذلك القول المعتاد من جاره. فلما أصبح قال للخديم الذي له: اذهب إلى جارنا فاسأل عن حاله، وما كان سبب قطعه العادة البارحة؟ فرجع الخديم إليه وأخبره بشأنه وما هو عليه. فقال السيد: لا يمكنني إضاعته. فتوجّه للحاكم في قضيته، فقضى الحاكم حاجته، وأطلقه، ووجّهه إلى ذلك السيد، فلما رآه قال له: هل ضيَّعْناك، أو فرّطنا في حقك؟ فاستحيا من ذلك السيد، وتاب وحسن حاله[2].

---

(١) أخرج الحسن بن سفيان والبزار في مسنديهما وأبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر رضي الله عنه وابن عدي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم؛ وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك.

(٢) تروى هذه الحكاية عن أبي حنيفة رضي الله عنه تقول: كان له جار مسرف على نفسه، يشرب الخمرة طوال =

تنبيه: إذا كان يؤكد عليك في حق جار بينك وبينه جدار، وتمنع أن يصل إليه منك أذى، وتؤمر بحفظه، إيصال الخير إليه، فكيف بجوار الملَكَينِ الحافظين اللذين ليس بينك وبينهما جدار ولا حائل، وأنت تؤذيهما مع مرور الساعات بدوام التفريط، وإيقاع المخالفات؟ انظرْ بعقلك، هل يصح لك مع ذلك حقيقة الإيمان؟ أم كيف حالك يا مسكين، لأنه قد جاء (أن الحفظة الكرام يسرون بحسنات العبد أكثر ممّا يسر العبد بها عند رؤية ثوابها، وأنهما يحزنان ويهتمان من سيئات العبد ومعصيته أكثر مما يحزن العبد إذا رأى جزاءه عليها)؟ فإساءتك لهما بخطيئتك وأنت لا تستحي ولا تنزجر. فانتبه يا بَطّال قبل رفع الحجاب وغلق الباب، إذا كنت نفسك لا تحفظها، وجيرانك منك لا يسلمون، فالهرب منك ثم الهرب الهرب.

وقوله ﷺ: (حتى ظننت أنه سيورثه) فيه دليلان: أحدهما أن من أكثر له من شيء يرجى له الانتقال إلى ما هو أعلى منه، لأنه لما كثرت من جبريل، عليه السلام، الوصية في حق الجار ظن سيّدنا ﷺ أنه سيبلغ الاعتناء به إلى ما هو أعلى، وهو الميراث. وفي هذا دليل لأهل المقامات والأحوال لأنهم يقولون: إذا فتح على أحد في مقام، ودام عليه بأدبه، رجي له الانتقال إلى ما هو أعلى منه.

والدليل الثاني أن أعلى الحرمة هو الميراث. والميراث على ضربين: ميراث العوام وهو في حطام الدنيا، وميراث الخواص وهو العلم إذا كان لله. وهو على ضربين: منقول وموهوب. وهو الميراث الذي ورثه أهل الخصوص من الأنبياء، عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن العلماء، رضي الله عنهم، ورثة الأنبياء، عليهم السلام، كالذي روي عن بعض الصحابة ـ وأظنه أبا هريرة، رضي الله عنه ـ أنه مرَّ على بعض أصحابه في السوق فقال لهم: أتجلسون هنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد؟ وذلك بعد وفاته ﷺ، فتسارعوا إلى المسجد، فإذا ناس من الصحابة، رضي الله عنهم، يتذاكرون في العلم. فقالوا له: وأين ما قلت؟ قال: ذلك ميراث رسول الله ﷺ[1]، لأن

= الليل، ويغني ويرفع صوته، ويؤذي أبا حنيفة إذ يشوش عليه دراسته وقراءته. وكان الجار يردد دائماً بصوت عال بيت أبي فراس الحمداني:

أضاعوني، وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسَدادِ ثغر

وحدث أن مرت ليلة ولم يسمع أبو حنيفة ضجة جاره ولا تغنيه ببيت أبي فراس، وكذلك في الليلة التالية والثالثة، فافتقده، وسأل عنه فقيل له: لقد قبض عليه العَسَسُ مخموراً وأودع السجن.. فذهب أبو حنيفة إلى الوالي وشفع له رعياً على حقوق جواره.. ولما أطلق سراحه سأله أبو حنيفة: هل أضعناك كما كنت تقول؟ فخجل الرجل، وتاب وأقلع..

(١) أخرج الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال: ذالك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ها هنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين يا أبا هريرة؟=

الأنبياء عليهم السلام لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ حظه من الميراث.

غير أن بين الميراثين فرقاً عظيماً. وهو أن الميراث الذي هو في حطام الدنيا تدخله نسبة الدار، وهو الضيق والنقص بالحجب إما كلياً وإما بعضياً، وبالعول[1] أيضاً نقص ثان. وأما ما هو ميراث الخواص بينهم كما تقدم، وبضاعة ميراثهم متسعة أيضاً لا يلحقها ضيق ولا حصر، فليس فيه شيء من ذلك، بل التواد واسع، ولهم الخير التام نسبة الدار التي هو لها. حكمة حكيم.

وأما اللَّدُنِّي[2] فكذلك أيضاً. وهو حق، بدليل الكتاب والسنّة.

فأما الكتاب فقصة الخضر، عليه السلام، مع موسى، عليه السلام، حين قال الخَضِر (أنا على علم من علم الله تعالى عَلَّمَنِيه، لاتعلمه أنت ـ وهو اللَّدُنِّيّ على ما ذكره أهل العلم ـ وأنت على علم علَّمَكَه الله لا أعلمه أنا، وهو المشروع. وكان في قصتهما ما قص الله سبحانه في كتابه إلى قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾[3] وقصة آدم عليه السلام حين علّمه الله أسماءَ كل شيءٍ، بعد ما سأل جلّ جلاله الملائكة عن ذلك فقالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا﴾ فقال تعالى ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[4] وتعليمه، جلّ جلاله، أسماء الأشياء كلها حتى اسم القصعة والقصيعة إنما كان بالعلم اللّدنّي، بلا واسطة بين آدم ومولاه. ولهذا ظهر عجز الملائكة وأقرّوا به.

وأما السنة فقوله ﷺ (إن من أمتي لَـمُحدَّثِينَ، وإنّ عمرَ لَمِنْهُمْ)[5]، وقصته ﷺ مع أبي هريرة حين شكا له أنه يسمع الحديث وينساه، فقال له عليه السلام: (اَبْسُطْ رداءَكَ. فبَسَطته. قال: فغرف بيده ثم قال: ضُمَّه. فضَمَمْتُه، فما نسيت شيئاً بعدَه)[6] فكان أبو هريرة، رضي الله عنه، بعد ذلك

= قال في المسجد. فخرجوا سراعاً ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئاً يقسم. فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا بلى، رأينا قوماً يصلون وقوماً يقرأون القرآن وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام. فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمّد ﷺ.

(١) العَوْل (في علم الفرائض): زيادة الأنْصِباء على الفريضة، فتنقص قيمتها بقَدْرِ الحصص.

(٢) اللَّدُنّي: نسبة إلى الكلمة الواردة في قوله تعالى: وعلمناه من لدُنَّا علماً.

(٣) سورة الكهف، من الآية ٨٢.

(٤) سورة البقرة، الآية ٣٣.

(٥) أخرجه الزبيدي في اتحاف السادة المُتَّقِين ٧/ ٢٥٩ بلفظ: إن من أمتي لمحدَّثين ومكلَّمين وإن عمر منهم.

(٦) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أكثر الصحابة حديثاً، وقال رضي الله عنه: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فَبَثَثْتُه، وأما الآخر فلو بَثَثْتُه قُطِع هذا البلعوم[1].

يعني أن جميع تلك الأحاديث التي رواها إنما هي من بركة بسطة الرداء. والصحابة، رضوان الله عليهم، قد قالوا: أكثرت يا أبا هريرة من الحديث. فكأنه يقول: إذا الشيء الواحد منهما قد أقلقكم وقلتم: إني أكثرتُ من الحديث، فلو سمعتم الآخر لقتلتموني، لأنكم كنتم تنسبونني إلى أن ذلك كذب مني على النبيّ ﷺ. ولم يقل هذا أبو هريرة، وهو يقصد به الصحابة، لأنهم، رضي الله عنهم، يعرف كل واحد منهم فضلَ صاحبه ودينَه، وإنما قال ذلك من أجل الجهال الداخلين في الدين، إذ كانوا يسمعون من الخلفاء وأكابر الصحابة رضوان الله عليهم: أكثر أبو هريرة من الحديث. وينكرون عليه ذلك.

وما أنكر من الصحابة من أنكر ذلك على أبي هريرة أنه اتهمه وإنما رأوا أن شغله بالتعبد أَوْلَى من استغراقه الزمان كله في رواية الحديث؛ فإن كتاب الله قد كُتب، وأُثبِت بالإجماع، وفيه جميع الأحكام، وإن الصحابة، رضي الله عنهم، قد نقل عنهم من الأحاديث ما فيه كفاية وزيادة، فقد حصل من مجموع الثقلين، وهما: الكتاب والسنة ـ ما فيه كفاية لمن اشتغل بالدين، وتوفية ما به أمر، لأن الصحابة والصدر الأُول، رضوان الله عليهم، إنما كانت هممهم في الأعمال، لأنها ثمرة العلم.

وكان مذهب أبي هريرة أنّ بثَّ ما سمعه من رسول الله ﷺ بعد أداء الفرائض أفضل القُرَب. كما روي عن أبي ذرّ، رضي الله عنه، أنه قال: (لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ ثم ظننت أني أُنْفِذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تجهزوا عليَّ لأنفذتها)، فلم يرجع واحد منهم عما ظهر له، والكل على الحقّ، رضي الله عنهم جميعهم، كما فعل بعض أصحاب مالك، رحمه الله، وكان ذلك الصاحب ممن قد انقطع إلى العبادة، فكتب إلى مالك يحضه على ترك العلم والانقطاع إلى العبادة، فأرسل مالك إليه وهو يقول له: (يا أخي، ما أنت عليه بأفضل مما أنا عليه، والكل على خير إن صلحت النية) فلم يرجع إليه.

فإذا رأى الجاهل أبا هريرة بعد ما سمع من أكابر الصحابة، رضي الله عنهم، أنه أكثر من الحديث قد زاد في الحديث أضعافاً مضاعفة ينسبه إلى ما لا يليق به، وقد يفضي الأمر إلى القتل، فيكون قولهم ذلك مع الزيادة في الحديث قاطعاً للبلعوم كما ذكر رضي الله عنه، لأنه من شارك في قتل نفس بأي وجه شارك ـ وإن قلّ ـ من قول أو فعل سمّي قاتلاً لغةً وشرعاً، فلذلك كفّ رضي الله عنه عن الزيادة[2].

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري وبقية شراح الجامع: إن المراد بالذي كتمه أبو هريرة إنما هو تولية بعض أمراء بني أمية.

وفي ذلك دليل للأخذ بسد الذريعة، وفي فعل سيّدنا ﷺ ذلك مع أبي هريرة دليل لأهل الأحوال الصادقة المستقيمة على طريق الكتاب والسنة مع أولادهم في السلوك، ينظرون إلى الذين فيهم الأهلية، فيورثونهم من أحوالهم المباركة التي فتح عليهم فيها، لأنه ﷺ الأصلُ في كل خير: من علمٍ أو حالٍ أو عملٍ، فإنه بحر الأنوار والحِكم والحُلى النفيسة، وجامع للأعلى من العلوم والأحوال والشيم الرفيعة بَدْءاً وعَوْداً. فكل من كان من أهل السعادة قد أخذ منه مشرباً.

وفي قوله عليه السلام: (ظننت) وجه ثالث، وهو: أن الظن إذا كان في طريق الخير جائز شرعاً، ما صَحَّ منه وما لم يصحّ - فإنه ﷺ قد ظن أنه سيورّثه، ولم يقطع ذلك. ففائدة إخباره عليه السلام، لنا بذلك لنأخذ منه الدليل على جواز ذلك. والفرق بينه وبين الظن السوء بأنه ممنوع شرعاً، كما قال عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾[1].

وفي ذلك دليل على الطمع في زيادة خير المولى سبحانه، عند توالي نِعَمِهِ على عبده، بلغ ذلك حده أو لم يبلغه لأنه، أي توالي نعمه، أكبر من كثرة ترداد جبريل عليه بالوصية في حق الجار إلى خير البشر صلى الله عليه وسلم.

وفيه دليل على الندب إلى التحدث بما يقع في النفس من الخير، قضي بذلك أم لا. وقد قيل: في فضل مولاك فاطمع إن كنت طامعاً، فليس عارعلى عبد في فضلِ مولاه طَمع.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الحجرات، من الآية ١٢.

ـ ٢٤٤ ـ

حديث الترتيب بين الجيران بالمودة

عَن عائِشةَ، رضي الله عنها، قالَت: قُلتُ: يا رَسُولَ الله، إنَّ لي جارَينِ، فإلَى أيِّهما أُهدي؟ قالَ: إلى أقرَبِهما مِنكِ باباً.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن أقرب الجيران منك باباً أولى بالهدية من غيره، والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا على طريق الاستحباب أو الوجوب؟ فالجواب: أما أن يكون ذلك على الوجوب فليس بظاهر، لأن الهدية لم يقل أحد: إنها واجبة. فإذا كان الفعل في نفسه مندوباً فتقديم الناس فيه بعضهم على بعض من باب المندوب أيضاً، فإنه لا يكون الفرع أقوى من الأصل.

وفيه دليل على أن المستحب في الأعمال: الأخذُ بما هو أعلى، يؤخذ ذلك من إرشاده ﷺ لما هو الأفضل في الترتيب بين الجيران، والأعظمُ حرمةً. أليس أنها لو أهدت لغير الأقرب باباً لكانت مأجورةً في هديتها؟ فلما كان الأقرب باباً أعظم حرمةً كان بالمعروف أَولى، وكان صاحبه أكثر أجراً، وكذلك الشأن في غير ذلك من أفعال البرّ. يؤيد ذلك ويقويه قوله، عزَّ وجلَّ، في كتابه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾[1].

وفيه دليل على تقديم العلم قبل العمل. يؤخذ ذلك من سؤالها، رضي الله عنها، قبل عملها.

وفيه دليل لأهل الطريق، لأنهم يؤخّرون العملَ لاشتغالهم بتصحيح النية. يؤيد هذا قوله ﷺ (خيرُ العملِ ما تقدَّمته النيةُ) أو كما قال عليه السلام.

وفيه دليل على أن الجوار الذي وكد في حقه على نحو الحديث قب ل: إنه ما يتعدَّى إلى أكثرَ

---

(١) سورة الإسراء، من الآية ٥٧.

من اثنين من الجهة الواحدة. يُعلَم ذلك من موقع بيتها، رضي الله عنها، فهو محاطٌ بالمسجد النّبويّ من جهاته الثلاث، وبيوتِ أزواجه ﷺ، فلم يبقَ إلا جهةٌ واحدة. يؤخذ ذلك من قولها (إن لي جارَينِ).

فلو كان العدد فيهم أكثرَ لَذَكَرَت أكثرَ من الاثنين، بالعلم الضروري الذي لا شك فيه، أن بيوت رسول الله ﷺ كانت وسط المدينة، وأن الدور في المدينة متصلٌ بعضُها ببعض، ولو كان وجهُ الجيرة ـ كما ذكر عن العلماء ـ أربعين داراً لكان أكثرُ أهل المدينة جيرانَهم، وفي الغالب، أنه لا يعلم أحد حفظهم على حد سواء، ولكان مندوباً يفضي بصاحبه إلى الضرر والمشاق، وهذا ـ في الدين والحمد لله ـ قد عوفينا منه. وبتعليله، ﷺ، بأقربهم باباً، يظهر أن حَدَّه هنا ما تضمنه قولها (جارين) لأنه هو الذي أقرب منها باباً، وما عداه أخفض رتبة في الطلب، فأوجب ذلك تأكيداً ما على غيره.

وفيه دليل على أن آكد الجهات في الجوار جهة الأبواب، لأن الذي هو أقرب منك باباً هو الذي تكثر مشاهدته لك، ولكل ما يَرِد عليك. وقد يعلم من حالك لكثرة الملازمة ما لا يعلمه غيره، وأنت أيضاً تعلم من حاله كذلك. وهذا كله إذا كان الجوار على الشروط المتقدم ذكرها في الحديث قبل، وعريت عن الحقوق الزائدة عليها كما تقدم أيضاً.

وفيه دليل على أن المندوب إلى حفظ الجار: الرجال والنساء فيه سواء. يؤخذ ذلك من قولها (إلى أيهما أهدي) فإنها سألت عما يخصها في ذلك. ولو كانت نائبة عنه ﷺ لقالت: إلى أيهما نهدي.

تنبيه: القرب بأي وجهٍ كان له حرمة ما، أما ترى الجار قد جعلت له حرمة من أجل الجوار بالجدار، وإن كان كافراً؟ ففيه إرشاد إلى أن تكون لك همة فيها فحولية، لعل قربَك يكون من النوع الذي لا قَطْعَ له. فإن قرب الكافر بجوار الجدار ينقطع بانقطاع هذه الدار، والقرب بمناسبة الطريقة والحال يتأكد حقه في تلك الدار كما جاء في الأثر (أنّ عمّار المساجد جيرانُ الله)[1]. فإذا كانوا جيرانه في هذه الدار فكيف يكون حال حرمتهم في تلك الدار؟.

هذه حباً فيهم، وشوقاً إليهم، يا حُسنَ ما أثنى عليهم مولاهم حيث قال ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه بلفظ: إن عمار بيوت الله هم أهل الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[1] وماذا أعد لهم بمتضمن قوله ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[2] فثواب أعمالهم محدود معلوم، وما كان من فضله، عزَّ وجلَّ، فلا تصل إليه العقول، ولا تحيط به الأوهام.

جعلنا الله من أهل القرب المقربين بفضله، كما يليق بفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النور، الآية ٣٦ و ٣٨.

(٢) سورة النور، من الآية ٣٨.

ـ ٢٤٥ ـ
حديث كل معروف صدقة

عَن جابرِ بنِ عَبدِ الله[1]، رضيَ الله عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: كُلُّ مَعروفٍ صَدَقَة.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن كل من عمل عملاً من أعمال المعروف أن له فيه أجراً وحسنة، مثل ما له في الصدقة إذا تصدق بها. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل المراد بالمعروف الشرعيُّ أو العاديُّ؟ وهل فاعلُه يحتاج إلى نية حتى يكون مأجوراً، أو بنفس فعله يكون مأجوراً، وإن عَرِيَ عن النية؟ وهل هو محدود معلوم لا يزيد ولا ينقص، أو هو معلوم غير محدود يزيد وينقص بحسب الأزمنة؟

أما قولنا: ما المراد بالمعروف؟ فالمراد أنه قد عرف وتحقق أنه من أفعال البر، فصار هذا الاسم عليه عَلَماً.

وأما قولنا: هل المراد الشرعي أو العادي؟

فالجواب: أنه لا ينطلق اسم (معروف) إلا على ما قد عرف بالأدلة الشرعية أنه من أفعال البرّ، كان أصله مخترعاً بالشرع، أو كان عادةً فأقرتها الشريعة بأن جعلته معروفاً.

فمثال ما اخترعته الشريعة بأن جعلته معروفاً ولم يعلم قبل أنه من وجوهه مثل (الحب في الله تعالى، والبغض في الله) إذا كانا بشروطهما، وما يشبههما، وهو كثير. ومثل إماطة الأذى عن الطريق، وما أشبهه، وهو أيضاً كثير. ومثل أنواع الأذكار، وما في معناها، وهو أيضاً كثير. ومثل أنواع المندوبات.

وأما ما كان عادة بين الناس وأثبتت الشريعة أنه معروف فهو مثل السَّلَف، فإنه كان عادة بين

---

(١) سبقت ترجمته في الحديثين: ٥٣ و ١١٢.

الناس، أثبتت الشريعة فيه من الأجر كثيراً، حتى ارتفع الحق الواجب الذي فيه من الزكاة طول بقائه عند الذي استسلفه، فإذا بقي مالُ المقرض الذي فيه نصاب عند الذي استسلفه سنين عديدة، ثم قبضه صاحبه، لا يجب عليه فيه إلا زكاة سنة واحدة لا غير. ومثل استعارة متاع البيت، وكان الناس يفعلونه عادةً، فجاء فيه من الأجر ما جاء، وجاءت الأدلة الشرعية تحضّ عليه، حتى قال بعض العلماء: إنه واجب. ومن هذا النوع كثير. وقد جاء في مبلغ أجورهم أنه من أعار قِدْراً كان له من الأجر بقَدْر ما طبخ فيها من الطعام أن لو تصدق به. ومن أوقد شعلة نارٍ كان له من الأجر بقدر ما طبخ على تلك النار أن لو تصدق به. وكذلك في سلف الخميرة، أوْ هِبَتِها، وكذلك الملح.

وأما قولنا: هل يحتاج إلى نية عند فعله، أو بنفس الفعل يكون مأجوراً، وإن لم تحضره نية؟ فهذا يحتاج إلى تقسيم. وذلك أن العلماء قد أجمعوا على أن أفعال البر كلها إذا وجدت فيها النية مقدّمة فلا خلاف في كمالها، ورجاء قبولها. وبقي الخلاف فيما عدا ذلك: هل يجزىء مطلقاً أو لا يجزىء مطلقاً؟ أو بالتفرقة، البعض يجزىء والبعض لا يجزىء؟ خلاف متسع، وترك الخلاف أَوْلى.

وأما قولنا: هل هو محمود معلوم لا يزيد ولا ينقص، أو هو معلوم غير محدود يزيد وينقص حسب الأحوال والأزمنة؟ فإن نظرنا بحسب الوقائع وطرقها فتزيد في زمان وتنقص في زمان آخر، لكن الشأن هل تعلم جميع أنواعها مفصلاً؟ هذا ما قدر أحد من العلماء أن يحصره، لأنه قد جاء عن سيّدنا ﷺ أنه بلغ عدد المستحقَرات من أفعال البر التي أعلاها منحة العنز[1] ـ ومنحة العنز عند العرب من الأشياء التي لا يبالَى بها ـ سبعين، أو كما قيل.

وقد روي عن الصحابة، رضي الله عنهم، أنهم قالوا: عددناها بعدُ فما قدرنا على أن نبلغ فيها أكثر من خمسة عشر، وهي مثل إماطة الأذى عن الطريق، ومثل أن تَلقَى أخاك بوجه طَلْق، ومثل الكلمة الطيبة، ومثل الإرشاد إلى الطريق، وما في معناها. فإذا كان أولئك السادة لم يقدروا أن يحصروا من السبعين إلا خمسة عشر مع اهتمامهم بالدين، وجمعهم على ذلك، فكيف بمن بعدهم ولاسيما في زماننا هذا؟

وهنا إشارة لطيفة وهي أنه لما أن خفيت أفعال المعروف لدقة أكثرها أشبهت إخفاء ليلة القدر، وإخفاء الساعة في يوم الجمعة. وليلة القدر تُرقَب في لياليها المعلومة لها، والساعة التي في يوم الجمعة تُرقَب في جميع يومها. فينبغي أن ترقب أفعال المعروف مثلها. وكيفية ذلك أن يحضر النية في أول يومه بأنه لا يفعل فعلاً من الأفعال أو يتكلم بكلمة إلا ناوياً بها القرب إلى الله تعالى.

---

(١) من معاني العَنْز: الصخرة في الماء.

فما وقع له من ذلك فإن جدّد له نية فهو الكمال، وإن حصلت له غفلة حين وقوع ذلك منه فيرجى أن ما تقدم ذلك من النية يجزىء عنه، ما لم يكن لتلك النية مناقض.

وقد تقدم أن الأفعال قسمان: واجب ومندوب بالنسبة إلى النيات. وأما المباح فلا سبيل إليه عند أهل الطريق. فإذا فعل ذلك يرجى أن يصادف كل معروف كما يصادِفُ ليلةَ القدر، والساعةَ التي في الجمعة من ارتَقَبَهما. والله الموفق. ويكون في ذلك كله مستعيناً بالله تعالى، مستعيذاً به، ومستغيثاً خوفاً أن يُوكَل إلى نفسه، فيقطع به فيما نواه، فيحصل والعياذ بالله في المقت لقوله تعالى ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

وهنا إشارة حسنة وهي: أنه لما خفيت علينا هذه الفوائد كما خفيت علينا ليلة القدر، وجعلوا قيام السنة كلها بنية ليلة القدر ـ كما تقدم الكلام عليه حين تكلمنا على ليلة القدر ـ قالوا: هنا نحن نجعل حركاتِنا كلَّها، مباحَها وغيرَ ذلك، كلها بنية القربة لله تعالى. فما أصبنا من أفعال البِرّ التي قد نبّه عليها ﷺ، ولم نصل إلى معرفتها، فقد يحصل لنا المقصود إن وقع منا فعل ونية حسنة متقدمة. وما كان من المباح وفعلناه بنية القربة، ولم نصادف تلك الأشياء، فلا يضرنا ذلك. وهو وجه حسن لأننا نرجو ما قالوا في الأجر وإصابته بفضل الله تعالى.

وما قالوا فإنه إذا لم يصب من ذلك شيئاً لا يضرّه ذلك، وأنه لا يخلو في ذلك الوجه من الأجر أيضاً لحرصه على إصابة الخير، واتباع السنة، وقهر نفسه حتى نفى عنها المباح الذي لها سعة فيه، وملازمته ذلك ابتغاء مرضاة مولاه العليم الكريم. وكيف يضيع ذلك ومولاه جلّ جلاله يقول في كتابه ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢]؟ بل يرجى أن يزيد مع الأجر في ذلك النور والهدى إلى سبيل الخير بالوعد الجميل ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[٣]؟ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[٤]؟.

لكن بقي علينا كيف توجيه حسن النية في جميع الحركات على نحو ما أشاروا إليه؟ كيف يكون حتى نسلم من البدع، ونكون في ذلك على لسان العلم؟ فنقول، والله المستعان:

لا يخلو ما يتصرف فيه العبد أن يكون فيما يخص نفسه، أو ما يخص غيره. فإن كان فيما يخص نفسه فلا يخلو أن يكون من النوع الذي فيه قربة لله تعالى ـ فهذا قد تميز بنفسه ـ أو يكون مما أبيح له فعله على لسان العلم، فيجعله بنيّة العون على طاعة الله، دَقَّ في ذلك أو جَلَّ. ودليله في ذلك قول

---

(١) سورة الصف، من الآية ٢ـ٣.
(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٦٩.
(٣) سورة النساء، من الآية ١٢٢.
(٤) سورة النساء، من الآية ٨٧.

معاذ، رضي الله عنه، في نومه: (وأحتسِب نَوْمتي كما أحتَسِب قَوْمتي)، وقد تقدم الكلام عليه في غير ما موضع. وإن كان فيما يخص غيره فلا يخلو أن يكون مع حيوان عاقل مثله أو غير عاقل.

فإن كان عاقلاً فلا يخلو أيضاً ما يتصرف فيه أن يكون مما تبيّن أن فيه قربة إلى الله تعالى، فقد بان الوجه فيه، وإن كان لم يتبيّن فيه ذلك فتكون نيته في ذلك إحدى النيات المستحسنة شرعاً. وهي إمّا من باب إدخال السرور أو من باب شفقة الإسلام، أو من باب العون على ما فيه رفق له في شأنه، أو من باب الرفق لقوله عليه السلام: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه)[١]، أو من باب اتباع حكمة الله تعالى الجارية في ذلك الوجه، أو من باب اتخاذ الخير عادة مطلقاً، أو ما في معنى هذه النيات أيها أمكن في ذلك الأمر فعله. وَلْيتحرَّز في ذلك من الرياء وطلب المدح على ذلك، أو العوض، أو ما يقرب من ذلك وإن خفي، سواء كان فعلاً أو قولاً أو نية.

ومما روي فيما يشبه هذا النوع من حسن النية للغير في أمر خاص أن بعض المسرفين على نفسه مات، ولم تُعلَم له حسنة قط، فرآه بعض المباركين في نومه في حالة حسنة، فقال له: بِمَ نلتَ هذه المنزلة؟ فقال له: لم توجد لي حسنة واحدة إلاّ أنه خرجَتْ يوماً سرية من سرايا المسلمين فغَنِمَت، فبلغني ذلك، ففرحتُ لكوْن المسلمين غنموا، فغفر الله لي بذلك. فانظر إلى هذا الخير ما أدقه وأخفاه! وإلى هذا الفضل ما أعظمه وأعلاه. ومن هنا فتنبّه.

وإن كان الحيوان غير عاقل فقد بان المعروف فيه لقوله ﷺ (في كل كبد حرّى أجرٌ)[٢]. إلا أنه يتحرز أن يكون لولوع به، أو لمنفعة يرجوها منه أو عليه، أو لحظ ما من الحظوظ النفسانية. فتلك أبواب قد عرف ما فيها، وما على الداخل فيها، وما له على حسب ما قد بيناه في غير ما موضع من الكتاب، وليست هي من هذا الباب الذي نحن بسبيله في شيء.

وفي هذا الحديث فائدة لطيفة، وهي الحض لك أن ترد بالك إلى باب المعروف، فتعلمه وتعمل به، لأنه باب واسع، كاد ألا يخلو من وفّق إلى علمه والعمل به من دوام الخير ليلاً ونهاراً، لئلا تجهل فتقول: لا تكون الحسنة إلا في الصدقة بالمحسوس. ويفوتك خير كثير، وأنت قادر عليه، وليس عليك في أكثره شيء من المشقة، والصدقة بالمحسوس قد لا يقدر عليها بعض الناس. وهذا منه ﷺ من أحسن الإرشاد. جزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته، بفضله.

وجعلنا من مباركيها في الدارين بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها وتمامه: يا عائشة عليك بتقوى الله والرفق، فإن الرفق لم يكن في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه الإمامان أحمد ومالك والشيخان وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش...

— ٢٤٦ —

حديث كراهية الشِّعر وحرمته

عَنِ ابنِ عُمر، رَضيَ الله عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: لأَنْ يَمتلىء جَوفُ أَحَدِكُم قَيحاً خَيرٌ لَه مِن أَنْ يَمتلىء شِعراً.

* * *

ظاهر الحديث يدل على ترجيح أن يمتلىء الجوف قيحاً الذي هو عين الهلاك على أن يمتلىء شعراً. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: ما يعني (بجوفه)؟ ومنها: هل قوله: (شعراً) على عمومه أو ليس؟ وما المراد بقوله (أن يمتلىء شعراً) هل لكثرة حفظه الشعر، أو هل لتعلق الخاطر به؟ ومنها: ما الحكمة في أن مثّل بالقيح دون غيره؟

أما قولنا: ما معنى (جوفه)؟ احتمل وجهين: (أحدهما) أن يعني به الذي في جوفه وهو (القلب)، واحتمل أن يكون على ظاهره فيعني به (الجوف كله) وما فيه من القلب وغيره. والأول أظهر، والله أعلم.

وأما قولنا: ما معنى قوله ﷺ (شعراً)؟ هل ذلك على العموم من أي نوع كان الشعر، أو على الخصوص؟ احتمل اللفظ. لكن قواعد الشريعة تخصصه، لأن ما كان من الشعر في مدحه ﷺ فهو قربة إلى الله تعالى، وقد كان هو ﷺ يحضّ عليه مثل قوله ﷺ (أجبهم عني. فقال له حسان: والله لأسلَّنَّكَ منهم كما تسلّ الشعرة من العجين)[1] أو كما قال. وما كان منه في تنزيه الحق سبحانه فذلك قربة أيضاً، وما كان منه يحض على الآخرة ويزهد في الدنيا فذلك من باب الوعظ والتذكار بالخير، وقد قال ﷺ: (إن من الشعر لحكمة)[2] فما كان منه حكمة فكيف يكون ملء الجوف بالقيح خيراً منه؟ هذا لا يمكن، فيكون اللفظ عاماً ومعناه الخصوص. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن حسان بن ثابت استأذن رسول الله ﷺ في هجاء المشركين، فقال رسول الله ﷺ فكيف بنسبي؟ فقال حسان والله . . إلى آخر الحديث.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود وابن ماجه عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه بلفظ (حكمة) دون لام.

وعلى هذا التوجيه المتقدم فيكون المحذور منه مثل النوع، الذي ذمّه مولانا، جلّ جلاله، في كتابه حيث قال ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[1] ؟ وذلك مثل شعراء الجاهلية وتغزلهم. فإنهم كانوا يتغزلون في مدح النساء وذكرهن وغير ذلك من الوجوه المحركة للشهوات وحبها، وحب الدنيا وفخرهم بما لا يجوز شرعاً، وما في معناه.

ولذلك ذكر عن بعض أهل الطريق ـ وكان من أكابر وقته ـ أنه جاءه بعض الناس بابنه بعدما علّمه العربية والأدب، ورغب منه أن يقرأ عليه شيئاً من طريق القوم لعلّه تنبعث له همة. فقال له: لا أفعل، لأنك أتيت به إليّ بعدما ملأت قلبه بالشّعر، وخالط بشاشة الشهوات وحبَّ الدنيا فما عسى أن أفعل فيه؟ فامتنع منه، ولم يقبله.

وهنا إشارة لطيفة كما قال صاحب (الرسالة): أَوْلى القلوب بالخير ما لم يسبق الشرّ إليه.

وأما قولنا: ما معنى (يمتلىء شِعراً)؟ هل المراد منه الذي يُكثِر من حفظ هذا النوع من الشعر، أو المراد به: مَنْ تَعَلَّقَ به خاطِرُه حتى يكونَ به مشغوفاً؟

فالجواب: أن هذا على وجهين: إما مشغوفاً بترداده وذِكره، والنظر فيه، أو مشغوفاً به وبنظمه وإنشائه واختراعه ومعارضة من تقدم من أهل ذلك الشأن. احتمل الوجوه كلها، لكن الأظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد هو الذي تعلق خاطره به التعلق الكلي الذي يلهيه عن غيره، سواء كان ممن يخترعه وينشئه أو ممن ينقله ويحفظه. فالوجهان سِيّان، كالذي ابتلي بحب الدنيا، كان بيده منها شيء أو لم يكن، فالكل غلب عليهم حب الدنيا، ومن أهلها يحسبون.

وأما قولنا: ما الحكمة في أن مثّل بذكر القيح؟ فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن تمثيله عليه السلام بالقيح من أعظم الحذر عما مثّل به. وذلك أن أهل صنعة الطب يزعمون أنه إذا وصل إلى القلب من الداء شيء، ولو كان يسيراً، فإن صاحبه يموت لا محالة، لأنه عضو رئيس، لا يحمل من الآلام شيئاً، وأن غيره مما في الجوف مثل الكبد والرئة إلى غير ذلك أن الآلام إذا كانت في بعضها أن ذلك من الأمور المخوفة، والغالب على صاحبها الهلاك. فكيف إذا امتلأ الجميع بالقيح؟ لا شك في هلاك صاحب ذلك. ألا ترى أنه إذا كان بعض الأنامل فيه نبت عند أخذه في جمع القيح لا يهنأ لصاحبه عيش ولا حال؟ وأيضاً أن صاحبَ ورم الأكباد يموت مخبولَ الدماغ من هول ما يقاسي؟ فترجيحه ﷺ هذه الحالة التي ذكرناها على الشعر الذي فيه راحة النفس إنما ذلك لجمعه علتين،

---

(١) سورة الشعراء، ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

وهما: شغله عن الله تعالى بما لا يجوز من ذكر تلك الأمور التي يتضمنها تغزل الشعر، لأنه قد قال ﷺ (مَثَل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحيّ والميت)[١]. ولما كان الشغل هنا بمكروه أو حرام كانت الموتة على الحالة المذكورة خيراً له.

وهنا بحث وهو أن يقال: هل يتعدى الحكم بوجود العلة أم لا؟ الظاهر تعديه، لأن كل ما يشغل عن الله تعالى فصاحبه محروم، فإن كان بمحرّم من أي المحرمات كان الموت على هذه الحالة خيراً له مما هو فيه.

تنبيه: إذا كان مَلْؤه بالقيح خيراً له من الشعر، وما فيه إلا العلتان اللتان ذكرناهما، فكيف إذا امتلأ بعلم الجدل وما يشبهه، لأن تلك العلوم تقسّي القلوب وتشغلها عن الله تعالى، وتحدث الشكوك في الاعتقادات، وتطيل اللسان، وتزرع الحسد في القلوب والتنافس، وتفضي إلى التباغض والتحكم على القدرة بأشياء لا توافقها الأدلة الشرعية؟ فكيف يكون حال صاحبه؟

وفيه تنبيه على ترك حظوظ النفس والعوائد السوء. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا ﷺ بُعِث، والعرب في معظم فصاحتها واشتغالها بالشعر وتنافسها فيه، فزجرهم النبيّ ﷺ عن ذلك بهذا الزجر العظيم الذي تضمنه الحديث.

ويترتب على ذلك من الفقه أن شَغل الباطن بغير ما يرضي الله من أعظم الأمور المهلكة، ولم يُجعل له مخرج. والأمور الواقعة في الخارج من الكبائر والصغائر وما بينهما فقد جعلت فيها الحدود والكفارات، إلى غير ذلك مما هو معروف من قواعد الشرع.

ويترتب عليه أيضاً أن الزجر إذا كان لنفسك أو لغيرك فيكون بحسب الشيء المنهي عنه، من قوة أو لين، حتى يكون عاصماً لتلك المادة الرديئة.

وفيه دليل لأهل المجاهدات، وهو أنه لما عسرت عليهم نفوسهم في الانقياد إلى ما أريد منها أخذوها بالمجاهدات، على قدر رعونتها، حتى انقادت. وقد ذكر عن بعضهم أن نفسه كان فيها رعونة، فجاهدها عشرين سنة بأكل نشارة الخشب، ولم يطعمها خبزاً أصلاً، حتى انقادت واستقامت لما أريد منها. ومثل ذلك الشأن قطع العوائد السوء، ولا ينظر في ذلك لكثرة انتشارها في الناس، وإنما ينظر فيها بلسان العلم هل تجوز أم لا؟ وعلى ذلك يكون العمل فهي طريق النجاة.

جعلنا الله من أهلها في الدارين بمنّه وفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه.

ـ ٢٤٧ ـ

حديث فضيحة الغادر يوم القيامة

عَنِ ابنِ عُمَر، رَضي الله عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: إنَّ الغادِرَ يُرفَعُ لَهُ لِواء يَومَ القيامَةِ فَيُقالُ: هذهِ غَدرَةُ فُلان بنِ فلانٍ.

٭ ٭ ٭

ظاهر الحديث يدل على فضيحة الغادر يوم القيامة، يُنصَب له لواء غدرته، وشهرته بها على جميع العالم هناك. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يُقال: هل الغدر على عمومه في الدِّق والجِلّ، أو في أشياءَ مخصوصة؟ وهل له عذاب غير ذلك، أم ليس؟ وهل لكل غدرة تكون منه ينصب له بها لواء، أو لواء واحد يكفي عن جميع غدراته؟ وهل تعرف الحكمة في ذلك أم لا؟

وأما قولنا: هل الغدر على عمومه، أو هو في بعض الأشياء دون بعض؟ أما ما عدا الأشياء المحرمات والمكروهات التي قد خرجت ببابها فهو عام في الدِّق من الأمور والجِلّ. وهذا باب ضيّق لم يسامح فيه أحد من العلماء في ذرة، حتى إنهم قالوا في الأسير إذا كان في دار الحرب، وقال له العلج الذي هو في يده: عاهدني على ألاّ تهربَ، وأنا أسرحك من الحديد. فإن عاهده وسرّحه من الحديد من أجل عهده، فلا يحلّ له الهروب، بخلاف ما لو حلَّفه، فله إذا حلَّفه أن يهرب ويكفر عن يمينه.

أما ترى إلى حال الغادر في كتاب الله، عزّ وجلّ، حيث قال ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[1] فأورثهم غدرُهم لمولاهم أنحسَ الأحوال، وهو النفاق.

---

(١) سورة التوبة، ٧٥ ـ ٧٧.

وأما قولنا: هل له عذاب على ذلك؟ فالعذاب له بحسب ما غدر به، وإنما تكون له هذه العلامة التي يعرف بها يوم القيامة. لأنه قد شاءت الحكمة الربانية أن جعلت لكل صاحب ذنب علامة يعرف بها ذنبه، مثل شاهد الزور يبعث مولغاً لسانه بالنار، وآكل الربا يتخبط مثل صاحب الجنون في الدنيا، والذي يطلب وليس بذي حاجة ليس في وجهه مزعة لحم، والنائحة لها سِرْبَالانِ: أحدهما من جَرَب، والثاني من قَطِران، ومانع الزكاة إن كانت إبلاً يبطح لها بقاع قرقر[١]، فجاءت أوفر ما كانت تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مرّ آخرها ردت أولاها، حتى يقضي الله تعالى بين عباده ثم يرى سبيله. وإن كانت غنماً فمثل ذلك. إلا أنه قال: تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها. وإن كان ماله ذهباً أوفضة مُثِّل له بشجاع أقرع[٢]، يعضه في شدقيه يقول: أنا مالك أنا كنزك، والمتكبرون يبعثون مثل الذر، وآكل أموال اليتامى ألسنة النار تخرج من منافس جسده، وشارب الخمر الكوز معلق في عنقه، والكذاب يشق شدقيه، كما تقدم في الحديث، والمغتابون للناس تقرض شفاههم بالمقاريض، أو كما ورد في ذلك.

فهذه كلها علامات على كل ذنب حتى يعرف به صاحبه، وهي أشياء عديدة بحسب الجرائم، وكفى في ذلك قوله تعالى ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[٣] أعاذنا الله من الذنوب والفضيحة بها ولو لم يكن فيها إلا هذا المقدار لكان كافياً في الردع والازدجار، فكيف بالأمور الزائدة على ذلك الذي لا تحمله الجبال؟

وأما قولنا فيمن له غدرات: هل تنصب له ألوية بعددها، أو لواء واحد يكفي؟ ظاهر الحديث يعطي أن لكل غدرة لواء. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام يقال (هذه غدرة فلان بن فلان)[٤] وجاء في حديث غيره: بقدر غدرته.

وأما قولنا: هل تعرف الحكمة في كونه جعلت شهرته بنصب اللواء أم لا؟ فنقول، والله أعلم: قد عرفنا من حكمة الشريعة أن العذاب على الشيء يكون بما يضاده، وأن الشهرة هناك من جملة العقاب أيضاً. فلما كان الغدر هنا أمراً باطنياً خفياً جعلت علامته هنا أشهر الأشياء، لأن عادة العرب أن أشهر الأشياء عندهم إنما يكون برفع الألوية. وقد جاء في حديث آخر (أنه ينصب عند أسته) أو كما ورد. وهذه مبالغة في التوبيخ والخزي. جزاءً وفاقاً.

---

(١) القَرقَر من الأراضي: المنخفضة اللينة.

(٢) شجاع أقرع: حية شديدة.

(٣) سورة الرحمن، من الآية ٤١.

(٤) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيه دليل على أن المعرفة في الآخرة مثل المعرفة هنا. يؤخذ ذلك من قوله (فلان بن فلان) وكما أن المعرفة بالآباء هنا فكذلك هناك.

تنبيه: اعرض يا فلان بن فلان على نفسك حين وَصَف ﷺ أبواب الجنة، وذكر أن لكل باب منها من أعمال الخير نوعاً يدخل أهله من ذلك الباب، وأن أهل الصوم يدخلون من باب الريَّان، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: يا رسول الله ما على من يُدعَى من تلك الأبواب كلها؟ فقال ﷺ: (أرجو أن تكون منهم)[1] أو كما ورد.

وكيف حال من اجتمعت عليه، وفيه تلك العلامات القبيحة على ما فرط من الزكاة وغيرها من المتقدم ذكرها، ورايات غدره تخفق عند أسته؟ فاجعل نفسك بين هاتين الحالتين، واختر إلى أيهما تفزع بالأعمال لا بالطمع والآمال (والكَيِّس مَن دانَ نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أَتْبَع نفسَه هواها، وتمنّى على الله الأماني)[2].

جعلنا الله من أهل الكيس وأعاننا عليه وأسعدنا به بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب ـ يعني الجنة ـ: يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان. فقال أبو بكر ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة أو قال: هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر.

(٢) رواه الإمام أحمد والبيهقي والطبراني والحاكم عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه.

— ٢٤٨ —

حديث كراهة الألفاظ الخبيثة من المؤمنين

عَن عائِشَةَ رَضي، الله عَنها، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: لا يَقولَنَّ أَحَدُكُم: خَبُثَت نَفسي. وَلَكِن لِيَقُل: لَقِسَت نفسي[1].

* * *

ظاهر الحديث النهي عن أن يصف أحد نفسه بالخبث، ولكن إن ظهر له منها ما لا يعجبه يعبر عن ذلك بقوله (لَقِسَت نفسي). والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يُقال: هل النهي عنها على طريق الكراهة، أو الحظر؟ وهل الأمر بقوله (لقست نفسي) على طريق الندب، أو على طريق الوجوب؟ وإن كان على طريق الندب هل يُعبَّر بغير هذه الصيغة أم لا؟ وما الحكمة في منعه من قول (الخبث)؟ وهل يكون المنع من هذه اللفظة لا غير، أو ما هو في معناها؟

أما قولنا: هل النهي على طريق الحظر أو الكراهة؟ احتمل. والظاهر أنه على طريق الكراهة بحسب ما أعلّله بعدُ.

وأما قولنا: هل الأمر بقوله (لقست نفسي) على طريق الندب أو الوجوب؟ اللفظ محتمل، والظاهر هنا الندب على ما يعلّل بعد.

وأما قولنا: إن كان على الندب هل يعبَّر بغير (لقست).

فالجواب: إن الأَولى في المندوب صيغة لفظه ﷺ، لما في ذلك من الخير، وإن عبر بما في معناها فقد خرج عن المنهيّ عنه، ودخل في باب المندوب، إلا أنه ترك الأَولى من المندوب لترك اللفظ المبارك.

---

(١) لقست نفسه إلى الشيء: نازعته إليه، وحرصت عليه. ولقست نفسه من الشيء: غثت وفترت وكسلت. تلاقس القوم: تسابوا وتشاتموا. (المعجم الوسيط).

وأما قولنا: ما الحكمة في نهيه ﷺ عن ذلك؟ فإن قلنا: تعبّد، فلا بحث، وإن قلنا: لحكمة فما هي؟ فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أنه، عليه السلام، كان يعجبه الفأل الحسن، ويكره السيّيء منه. فكراهيته، عليه السلام، لذلك اللفظ الخبيث لوجهين، والله أعلم: (أحدهما) كراهيته من أن يكون فألاً، فإنها لفظة ثقيلة، كما نهى، عليه السلام، أن يسمِّي أحد ابنه أو عبده (خيراً) خيفة أن يقول طالبه: (هنا خير)؟ ولا يكون حاضراً، فيجيبه: ليس هنا خير.

(والوجه الثاني) كراهية أن يشهد المرء على نفسه بالفسق، لأن الفاسق والكافر والفاجر نفس كل واحد منهم خبيثة. فلما كانت تلك اللفظة تحتمل جملة معان قبيحة منع، عليه السلام، المؤمنين أن يعبروا بها عما يجدون في أنفسهم بما لا يرضونه من عجزها أو ما يشبهه، وأبدل لهم لفظة حسنة وهي قوله (لَقِسَت)، لأن المعدة لا تلقس إلا حين تكون مملوءة طعاماً، وكذلك نفس المؤمن قد امتلأت بالخير حتى أكثر مما تطيقه فظهر منها اللَّقس، لكثرة امتلائها بالخيرات. وهذا من نوع الفأل الحسن.

ويترتب على هذا من الفقه: أن يطلب المرء أنواع الخير، ولو بالفأل الحسن، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما، وإن ضعفت، طمعاً في فضل الكريم الجواد، ويدفع عن نفسه السوء، ويكرهه حتى التفاؤل به، ولا يكون بينه وبين أهله صلة، ويقطعها القطع الكلي حتى في الألفاظ المشتركة التي تقع معبرة عن حاله وحالهم، يعدل عنها خيفة شؤمها. أعاذنا الله من ذلك بمنّه.

ومما يقوي ما أشرنا إليه ما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه أتاه أعرابي فقال: (ما اسمك؟ فقال: جمرة. فقال: ابن مَن؟ فقال: ابن شهاب. قال: ممن؟ قال: من الحُرَّقة. قال: أين مسكنُك؟ قال: بحَرَّة النار. قال: بأيها؟ قال: بذاتِ لَظى. قال عمر: أدرِك أهلك فقد احترقوا)[1] فكان كما قال عمر، رضي الله عنه. رواه مالك في موطئه.

وأما قولنا: هل النهي عن هذه اللفظة لا غير، أو عنها وعمّا في معناها؟ فإذا قلنا بتعليل قوله فينبغي المنع منها وما في معناها للعلة المذكورة لا سيما ما ذكرنا عن عمر، رضي الله عنه، آنفاً. وإن قلنا: تعبد، فلا يتعدى الحكم إلى غيرها، وليس بظاهر. ويجب على القول بالتعليل أن يمنع ما اتخذه اليوم بعض الناس أنه إذا كان به شيء يقول: نفسي ليست بطيبة، وأنا لست بطيب. يُخرِج نفسَه من الطيبين، فإذا أخرجها من الطيبين ألحقها بالخبيثين، وكذلك كل ما كان من هذا النوع: المنع فيه هو الأولى.

---

(١) أخرجه الإمام مالك فيما يكره من الأسماء من الاستئذان في الموطأ ٢/ ٣.

وفيه دليل على كثرة شفقته ﷺ على أمته. يؤخذ ذلك من نهيه، عليه السلام، عن هذا وما أشبهه.

وفيه تنبيه لأهل القلوب، لأن من الألفاظ والحركات ما هي إشارة من الغيب لمن فهم، ولولا ذلك ما كان ينهى هذا السيّد، صلوات الله عليه وسلامه، عن هذا وأشباهه. ومما يروى عن بعض أهل القلوب أنه خرج متوجهاً في حاجة، فقابله دكان صاحب الحاجة وهو قد نزل إلى حاجة له، وجعل على دكانه عودَيْن على شِبه لام ألف، فلما رآها الفقير رجع. فقيل له في ذلك، فقال لهم: أما ترون على دكانه العلامة على أنها ليست عنده؟ فقالوا: وما هي؟ فقال: لام ألف: عبارة عن لا شيء هنا. فلما كان بعد مجيئه سأله بعض أصحاب الفقير عما قال، فقال صاحب الدكان: صدق الفقير، فإن الحاجة لم تكن عندي.

ومن قول بعضهم ما يقوي هذا المعنى: (الاعتراض على الرموز جفا إن فهمت، وإلا فلا تعترض على ما ليس لك به علم). ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ: (المؤمن ينظر بنور الله)[1]. فمن نظر بالنور فهو موضع الإشارة، ومن لم يكن له نور لم يلتفت إلى شيء وبقي مثل البهيمة، فإما أن يجعل الكل رموزاً فيخرج بذلك إلى باب عظيم من الفساد، وإما أن يسد هذا الباب مرة واحدة فتفوته هذه الرموز وتتغطى عنه. فهذا الأمر في حقه أسلم له إذا سلّم الأمر إلى أهله.

وهذا إنما هو لأهل الميراث والنور والتوفيق، كما ذكرنا عن عمر، رضي الله عنه، فيما تقدم من الكتاب، ومن رزقه الله من ذلك الميراث والنور والتوفيق نسبة ما. ولذلك قال ﷺ: (إنما أنا قاسم والله يعطي)[2]. فوجوه الخير على يده، عليه الصلاة والسلام، تتابعت، وقسم لمن قسم ما قدر له.

جعلنا الله ممن أجزل نصيبه من تلك الخيرات. إنه ولي حميد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قطعة من حديث أوله: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي. أخرجه البخاري ومسلم من حديث معاوية رضي الله عنه.

ـ ٢٤٩ ـ

حديث تحريم سبّ الدهر

عَن أبي هُريرَةَ، رَضي الله عَنهُ، قالَ؛ قالَ رَسُولُ الله ﷺ: (قالَ الله تعالى: يَسُبُّ ابنُ آدمَ الدَّهرَ، وَأنا الدَّهرُ بِيَـدِي اللَّيلُ وَالنَّهارُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على المنع من سب الدهر، لأنه يعود إلى سب خالقه ومصوره، وهو الله سبحانه وتعالى. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن هذا صيغته صيغة الخبر، ومعناه الزجر والمنع، لأنه ممنوع أن يسب عبد مولاه، أو مخلوق خالقه، أو عابد معبوده. فلما كان هذا ممنوعاً عقلاً وشرعاً استغنى، عليه السلام، بالإخبار عن النهي والمنع وشبههما.

ومنها: هل سبّ الليل والنهار أعيانهما هو المنهيّ عنه، أو سب ما يجري فيهما من الحوادث والنوازل كانت على أيدي البشر أو بغير وساطة البشر؟ وهل هذا المنع يتعدى إلى غيرهما من المخلوقات، أو لا؟ وهل يمنع ما يشبه أو يقارب السبّ مثل الذم والشؤم وما في معناهما، أو لا يمنع إلا السب لا غير؟ وما الحكم فيمن فعل ذلك؟

وأما قولنا: هل الممنوع سبّ أعيان الليل والنهار أو ما يجري فيهما من الحوادث؟ فهذا لا يخفى أن من سبّ الصنعة فقد سبّ صانعها، ولا يكاد هذا يخفى على أحد حتى يأتي على ذلك هذا العتب. وإنما الظاهر سبّ ما يجري فيهما من الحوادث، وهذا هو الذي يقع فيه كثير من الناس، وهو الذي يعطيه سياق الحديث لقوله (بيدي الليل والنهار) فنفى عنهما أن يكون لهما تأثير فيما يجري فيهما من الأمور والحوادث.

والأمور والحوادث التي تجري فيهما على نوعين: منها ما يجري بواسطة الحيوان العاقل المكلف فهذا يضاف شرعاً ولغة إلى الذي أجري على يديه، وإن كان في التحقيق بقضاء الله تعالى وقدره، لأن أفعال العباد كسب لهم قد ترتبت عليها الأحكام بالثواب والعقاب بمقتضى الحكمة

الإلَهية، وهي في الإنشاء والاختراع خَلقُ الله سبحانه، لا خالق إلا هو سبحانه وتعالى علواً كبيراً. وما جرى فيهما بغير وساطة أحد من خلقه فذلك منسوب إلى قدرة القادر، ليس لليل والنهار في ذلك فعل ولا تأثير، لا عقلاً ولا لغةً ولا شرعاً، وهو المعنيّ في الحديث، والله أعلم.

وكذلك أيضاً كل ما كان صادراً عن الحيوان غير العاقل فهو مضاف إلى القدرة، إذا لم يكن ذلك بِتَسَبُّب العاقل المكلف. ولذلك جعل الشارع، عليه الصلاة والسلام، جرحها جُبَاراً[1]، أي ليس فيه أَرْش[2] ولا قَوَد ولا دِيَة[3]. وكذلك الحكم في الجمادات كل ما يكون منها ينسب إلى القدرة أيضاً، مثل حائط يقع على أحد، أو جبل ينهد عليه، أو ثمرة تضر به أو تسقط عليه، أو ماء يغرق فيه، أو ما يشبه. فهذه كلها منسوبة إلى القدرة، والسبّ لها سبّ لمصوّرها، وظهرت بقدرته.

وفيه دليل على نفي الأفعال عن غير العاقل المكلف من جماد وحيوان غير عاقل. فسبحان من أظهر قدرته أين شاء، بلا حجاب عليها، وحجبها حيث شاء برداء حكمته، فجاءت الحكمة شاهدة للقدرة، والقدرة شاهدة للحكمة ﴿ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾[4].

وأما قولنا: هل يتعدى المنع إلى سبّ غيرهما؟ فاعلم أن كل حكم كان منوطاً بعلة فحيث وجدت العلة فالحكم ثابت لازم. فلما علل سبحانه منع سبّ الدهور بأنه سب له عزّ وجلّ، لكونه بيده ـ تعالى عن الجارحة والتحديد ـ وإنما اليد هنا كناية عن يد القدرة كقوله تعالى ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[5] أي بقدرتي، فحيث وجدنا هذه العلة منعنا. ويكون ذكر الدهر هنا الذي هو الليل والنهار من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأن الليل والنهار من أعظم الآيات والمخلوقات الدالة على تحقيق الربوبية.

ولذلك أشار، عزّ وجلّ، في كتابه العزيز إلى النظر فيهما بقوله ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[6] ويكون النظر في ذلك على التقسيم المتقدم، وهو هل تجري تلك الأمور على يد مكلف، أَوْ لا؟ فإن كانت على يد مكلف فيكون الإنكار أو الزجر أو البعض أو غير ذلك امتثالاً للأمر لا غير، بقدر ما جعل لك في ذلك، دون زيادة فيه فتكون متعدياً، ولا تنقص منه فتكون غير موفٍ لما به أمرت، حكماً عدلاً.

---

(١) الجُبار: الهَدَر، وهو ما لا قصاص فيه ولا غُرم.
(٢) الأرش: دِيَة الجراح.
(٣) القَوَد: القِصاص. الدِّيَـة: المال الذي يعطى لولي المقتول بدل نفسه.
(٤) سورة القمر، ٥.
(٥) سورة ص، من الآية ٧٥.
(٦) سورة آل عمران، الآية ١٩٠.

وما فهم هذا المعنى إلا أهل التوفيق لأنهم يقولون: كل ما في الوجود حسن جميل إلا ما ذمّه الشرع ذممناه حكماً وامتثالاً. وقد ذكر عن بعض الناس أنه رآه بعض إخوانه مكروباً فقال له في ذلك، فقال: إنه دخل عليَّ في معبدي هذا قوم مباركون من الأبدال مراراً، فرغبت منهم في بعضها عساهم يحملونني معهم، وكانوا يأتوني بخَرْق العادة من أرض بعيدة، فحملوني معهم فوصلوني في لحظة قريبة وكانوا في غارٍ في جبل على البحر الكبير.

فلما كان إحدى الليالي جاءت ريح شديدة وظلام شديد وهول في البحر شديد، فخرجوا من الغار وخرجت معهم، وأخذوا في التقديس والتسبيح والتعظيم لله سبحانه. فحملني الجهل بأن قلت: هذا هول عظيم. فالتفتوا إليَّ وقالوا: تعترض على الله؟ لا يصحبنا قليل الأدب. ثم التفت الشيخ منهم وقال لبعضهم: اجعله في مكانه الذي أخذناه منه. فأخذني بيدي شيئاً يسيراً وإذا أنا في موضعي، ولم أرهُ ولا واحداً منهم بعد ذلك. فكيف لا أحزن على طردي، ثم على قلة أدبي؟ واأسفا على جهلي، واأسفا على بُعدي. فلم يزل باكياً أو كما جرى. هكذا تكون الحرمة عند المباركين احتَرَموا فاحتُرِموا، واستحَسنُوا فاستُحسِنوا، آثروه بالبر والإكبار فآثرَهم على غيرهم بالترفيع والإعظام، وعنده بالزلفى والإحسان.

وأما قولنا: هل يمنع ما في معنى السبّ أو ما يقرب منه مثل تعييب الأمور والكراهية أو ما يشبه ذلك؟ فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن ما قرب من الشيء يعطى حكمه، وإن لم يكن في الحقيقة مثله، لأن ما هو في معنى السب إما أن يكون هو مثله فيمنع، وإما أن يكون أقل درجة منه، وأقل ما يكون فيه قلة الأدب، لأنك تذم شيئاً لا تعرف ما فيه من الحكمة والإتقان بغير دليل ولا اعتبار، اللهم إلا إن كان ذلك كما تقدم بدليل شرعي، فهو على ما تقدم الكلام عليه.

ولذلك لم يأت عن سيّدنا ﷺ، ولا عن أحد من الأنبياء عليهم السلام، أن أحداً منهم عاب شيئاً من خلق الله تعالى إلا ما أمر به من طريق الأمر. فمن خالف سنن الرسل عليهم الصلاة والسلام، ووقع في شيء من خلق الله، أقل درجاته أنه وقع فيما فيه قلة الأدب، كيف يستحسن حاله أو يحسن منه حال؟

وفي هذا الحديث دليل لأهل السنّة، رضي الله عنهم، لأنهم يقولون: **إن العقل لا يحسّن ولا يقبّح، وإنما التحسين والتقبيح للشرع لا غير.**

وأما قولنا: ما الحكم على من فعل ذلك؟ فهذه مسألة اجتهادية، لأنه لم يجىء عن الشارع، عليه السلام، في ذلك شيء. فإن قلنا: إن حكمه حكم السبّ الصريح فالخلاف فيه معلوم، وما أظنه يكون مثلَه إلا ممن يعلم ما جاء في ذلك، ثم يقصد الذم بعد العلم، فكأنه ما أراد إلا الصريح

منه، فينبغي أدبه. ولا يؤول الحكم فيه إلى القتل، لأن السبّ الصريح: الأظهر فيه من الخلاف الذي بين العلماء: الأدب، فكيف بهذا الذي هو دونه؟ وإن صدر ذلك من جاهل يعنف بالقول الشديد، ويبين له قدر ما وقع فيه خلاف. ويقال له: إن عدت إلى مثل هذا أُدِّبتَ الأدبَ الوجيع، ويغلظ له في ذلك، ولا يعذر في ثاني مرة إن وقعت منه، ويؤدب. والله الموفق للصواب.

وفيه دليل على أن مجموع الليل والنهار يسمى (دهراً) شرعاً. يؤخذ ذلك من ذكره الدهر، ثم فسره بقوله (بيدي الليل والنهار).

وفيه دليل لمذهب مالك، رحمه الله، في منعه الربا المعنوي. يؤخذ ذلك من أنه لما كان سبّ الدهر يؤول إلى سبّ المولى سبحانه جعله سَبّاً له، فجعل ما يعود بالمآل كالذي هو حاضر في الوقت.

وفيه دليل لأهل السنة الذين يقولون: إن الصفة لا تفارق الموصوف. يؤخذ ذلك من أنه لما كانت الأمور صادرة عن صفة قدرته، عزّ وجلّ، جعل ذلك صادراً عن ذاته الجليلة، بقوله سبحانه: بيدي الليل والنهار.

وفيه تنبيه لمن له همة ألا يتكلم بما لا يعرف ما معناه، وكذلك في الأفعال لا يفعل شيئاً حتى يعلم هل ذلك مما ليس عليه فيه درك أم لا؟ ومما يقوي ذلك وصية الخَضِرِ لموسى، عليهما السلام، حين افترقا، وطلب موسى منه الوصية، فقال له في جملة وصيته: (يا موسى، لا تفتح باباً لا تدري ما غلقه، ولا تغلق باباً لا تدري ما فتحه). فيا هذا إذا تأملت مثل هذه الأمور وأدلة الشرع وجدت الدين من شيئين، ويدور على قاعدتين: الامتثال والأدب. فمن امتثل فقد وفى ما به أمر، ومن تأدب فقد نجا مما عنه نهي، وله كره. وفقنا الله وإياك لذلك الامتثال والأدب بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٥٠ ـ
حديث الكَرْم قلب المؤمن

عَن أبي هُريرَةَ، رَضيَ الله عنه، عَنِ النّبيّ ﷺ قالَ: يَقولونَ: الكَرْمُ. إنّما الكَرمُ قلبُ المؤمنِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن حقيقة تسمية الكرم إنما هي لقلب المؤمن، وأنه في غيره مجاز.

والكلام عليه من وجوه:

منها: أن فيه دليلاً لمن يقول: إن اللغة اصطلاحية. يؤخذ ذلك من أنهم كانوا عرباً، وكانوا يكنون عن ثمرة العنب بالكرمة، فمنع ﷺ من ذلك بقوله (إنما الكَرم قلبُ المؤمن) وقد جاء من طريق آخر ولكن قولوا: حديقة العنب.

وفيه بحث وهو: لم خص قلب المؤمن بهذا الاسم؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: لحكمة، فما هي؟ فنقول، والله أعلم: لما كان اشتقاقه من الكرم، والأرض الكريمة هي أحسن الأرض، وهذه الصفة حيثما وجدت فهي من أحسن الصفات، فلا يليق إلا أن يعبّر بها عن قلب المؤمن الذي هو خير الأشياء، لأن المؤمن هو خير البرية ـ على أحد الوجوه ـ وخير ما في المؤمن قلبه، لأنه قد قال ﷺ (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1].

كيف لا يكون كذلك وهي أرض لنبات ثمرة الإيمان التي قد قال مولانا سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ . تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[2].

---

(١) متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ومطلعه: الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات...

(٢) سورة إبراهيم، من الآية ٢٤ ـ ٢٥.

ويترتب عليه فيها من الفقه أن كل خير، لفظاً أو معنى أو مشتقاً منه أو مسمى به، إنما تكون إضافته الحقيقية إلى الإيمان وأهله، وهو فيما عدا ذلك مجاز. وفي الكرمة أيضاً شبه من المؤمن، لأنها لينة قريبة الجني، حلوة المذاق، وتغني عن الطعام لآكلها، وتغني عن الماء لمن استعملها.

وفيها تنبيه لطيف لأن أوصاف الشيطان تجري معها كما يجري الشيطان في بني آدم مجرى الدم. فكما أن غفلة المؤمن عن شيطانه أوقعته في المخالفة، وألبسته ثوب البعد والحرمان، كذلك إن غفل عن عصير الكرمة ظهرت تلك الأوصاف فيها وألبستها ثوب التخمير والتنجيس، وهو الخمر المتفق عليه من جميع العلماء على تحريمه بلا خلاف.

ويقوى الشبه بينهما من أجل أن الخمر من ساعته يعود خلاً، فكساه ثوبُ التخليل الطهارة. فكذلك المؤمن من ساعته بالتوبة النصوح عادت له طهارته الأصلية ورياسته الجميلة، وجَبَّت توبته ما كان قبلها من البعد والحرمان، وأذهبت الآثام والأثقال. وكما أيضاً تكون توبة المؤمن بمعالجة من وعظ أو تذكار أو تكون بفيض لا يتقدمه علاج، فكذلك العصير إذا تخمر قد يكون تخلله بمعالجةٍ، وقد يكون دفعةً من غير علاج.

فهل نظرت يا مسكين إلى عصير كرم قلبك، فتعالج تخميره، لعلّه يعود خلاً، ولا تغفل عنه، فيذهب بجميع عقلك، فتلحق بالهالكين.

وفيه دليل على كثرة حياء سيّدنا ﷺ. يؤخذ ذلك من قوله (ويقولون)[١] بلفظة الغيبة، ولم يقل لهم (تقولون(فإنه يكون فيه الخجل لهم. وكذلك كانت عادته المباركة إذا قيل له من أحدٍ شيء، فإنه كان لا يسميه باسمه ولا يقول له: يا فلان لم قلت كذا وكذا؟ إلا أنه كان قوله (ما بالُ رجالٍ يقولون كذا أو يفعلون كذا)[٢]؟

ويترتب عليه من الفقه أن أهل الفضل أولى الناس بالأدب ومكارم الأخلاق، وقد نص ﷺ ذلك بقوله (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٣] رواه مالك. قال بعض الناس: فإن كنت ذا همة فتجمّل بمكارم الأخلاق والشيم واملأ عِطفَيْكَ تبختراً بهما، فقد أصبت سنّة خير الأمم.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) كذا بزيادة واو قبل الفعل.

(٢) أخرجه أبو داود والبغوي في شرح السنة عن السيدة عائشة رضي الله عنها. بعبارة: (ما بال أقوام) وليس: (ما بال رجال..).

(٣) أخرجه الإمام مالك في الموطأ بلاغاً والإمام أحمد والخرائطي في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

— ٢٥١ —

حديث إباحة التسمي وتحريم الكذب عليه ﷺ

عَن أبي هُريرَةَ، رَضيَ الله عَنهُ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: تَسَمَّوا باسمي، ولاَ تَكَنَّوا بكُنيَتي. وَمَن رَآني في المنام فَقد رَآني حقًّا، فَإنَّ الشَّيطانَ لاَ يَتَمثَّلُ عَلى صُورَتي. وَمَن كَذَبَ عَليَّ مُتعَمِّداً فَليَتَبوَّأْ مَقعَدهُ مِنَ النَّار.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام: (أحدها) إباحته ﷺ التّسمية باسمه، والمنع من أن يُكنَّى بكنيته. (والثاني) إخباره ﷺ بأنه من رآه في النوم فقد رآه حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل على صورته. (والثالث) مَن كَذَب عليه ﷺ متعمّداً فلْيتبوأْ مَقعدَه من النار. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل قوله ﷺ (تسمّوا باسمي، ولا تكنّوا بكنيتي) هل ذلك تعبد، أو لعلّة؟ اختلف العلماء في ذلك. فمنهم من حمل الحديث على ظاهره مطلقاً، ومنع أن يكنّى بكنيته أصلاً. ومنهم من علّل وقال: إنما أراد ألا يجمع في شخص واحد بين اسمه ﷺ وكنيته، وهذا خروج عن ظاهر الحديث. ومنهم من علّل وقال: إن علة ذلك أنه كان ﷺ ماشياً، وشخص ينادي خلفه: يا أبا القاسم. فالتفت إليه ﷺ، فقال له الشخص: لم أَعْنِكَ، وإنما عَنَيْتُ هذا. وأشار إلى شخص غيره، فقال هو ﷺ إذ ذاك: (تَسمّوا باسمي، ولا تكنّوا بكنيتي) أو كما ورد.

فإذا قلنا: إن هذا كان سبباً لمنعه، عليه السلام، أن يكنّى بكنيته، فهل يُقصَر ذلك النهي على العلّة فيرتفع بارتفاعها - وهي نقلته، عليه السلام، إلى الرفيق الأعلى - أو يبقى النهي على عمومه، وإن ذهبت العلة؟ موضع خلاف. ويحتمل عندي علة أخرى - والله أعلم - وهي أن العرب كانت كناهم بأسماء أبنائهم، وكان من أسماء بَنِيهِ ﷺ (القاسم) فلعله عند ذكر الشخص: أبا القاسم، تحرك عنده من ابنه شيء كان يشغله عما كان بسبيله، فمنع ﷺ من ذلك، كما فعل بعَلَم الثوب في الصلاة حين نظر إليه، فلما فرغ من صلاته قال: (ردوه إلى أبي جهم، فإني نظرت إلى عَلَمه في الصلاة، فكاد يفتنني)[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسند البصريين عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه.

ويترتب على هذا الوجه من الفقه قطع كل ما يتوقع منه شيء من التشويش، والمحافظة على خلو القلب بالاشتغال بما هو إليه مندوب، وما هو عليه واجب.

وإن قلنا: إن علة المنع ما ذكرنا أولاً من كونه ﷺ التفت إلى الذي نادى يا أبا القاسم فقال: لم أعنِك. فيكون نهيه عليه الصلاة والسلام عن ذلك في حق أمته، لأن من أعرض عن رسول الله ﷺ فإن الله يعرض عنه، لأن الله عزّ وجلّ يقول ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[1] وكذلك من أعرض عنه رسول الله ﷺ فقد أعرض الله عنه، فيكون هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام، حين لقيه بعض الصحابة ليلاً، وكان معتكفاً، وجاءت إليه إحدى أزواجه فقال له: إنها فلانة. وعلل ذلك عليه الصلاة والسلام بأن قال (خفت أن ينزغ الشيطان في قلبك شيئاً)[2] أو كما ورد.

فكان ذلك لرفقه ﷺ بأمته. فحيثما يخاف[3] عليهم شيئاً ما يتوقعه، يحذّرهم عنه، وحيثما علم لهم شيئاً من الخير أرشدهم إليه. فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته، وحشرنا في زمرته، غير خزايا ولا ندامى بفضله. فإنه ولي حميد.

وأما إباحته ﷺ لهم التسمية باسمه، عليه الصلاة والسلام، فذلك لما جاء فيه من الخير، لأنه قد جاء أن مَن اسمُه (محمّد) لا يخلو من خير. وقد ذكر أنه إذا نودي يوم القيامة باسمه (يا محمّد) فمن سمعه، ورفع له رأسه، أفلح وسعد. وجاءت فيه مما يشبه هذا آثار كثيرة. وقد رأيت بعض المباركين، وكان عنده شيء من لسان العلم، وكان له جملة أولاد، وكلهم سماهم محمّداً، وما فرق بينهم إلا بالكنى، لما سمع من الخير الذي جاء في هذا الاسم المبارك، ولمن سَمَّى به ابنه. ولذلك ما رأيته وإياهم إلا في خير عظيم ـ وكان فقيراً وكانت له عائلة كثيرة من غير أن يقصد أحداً، أو يخرج عما كان به مشتغلاً عما كان يعنيه من دينه. والأولى في هذه الوجوه حمله على ظاهره، فإنه أبرأ للذمة وأعظم للحرمة، والله المرشد للصواب.

---

(١) سورة النساء، من الآية ٨٠.

(٢) رواه عبد الرزاق والإمام أحمد والشيخان والدارمي وأبو داود وابن ماجه والطبراني وأبو نعيم والبغوي من حديث السيدة صفية رضي الله عنها، كما رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه. ونص الحديث: عن علي بن الحسين، رضي الله عنهما، أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره، وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، ثم قامت تنقلب. فقام معها رسول الله ﷺ، حتى إذا بلغ باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي ﷺ مرَّ بهما رجلان من الأنصار فسلّما على رسول الله ﷺ ثمّ نفذا، فقال لهما رسول الله ﷺ: على رسلكما، إنما هي صفية بنت حُيَيّ. قالا: سبحان الله يا رسول الله. وكبر عليهما ذلك، فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً ـ أو قال شرًّا ـ وفي لفظ: سوءاً.

(٣) كذا دون جزم.

وقوله ﷺ (من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل على صورتي) فقد اختلف العلماء في هذا، فمنهم من قال: إن الصورة التي لا يتمثل الشيطان عليها هي الصفة التي توفي ﷺ عليها، حتى قالوا: وتكون في لحيته عدة تلك الشعرات البيض التي كانت فيها. وقال بعضهم: وحتى تكون رؤياه له في دار الخيزران. وهذا تحكم على عموم الحديث، وتضييق للرحمة الواسعة.

ومنهم من قال: إن الشيطان لا يتصور على صورته، عليه الصلاة والسلام، أصلاً جملة كافية، فمن رآه في صورة حسنة فذلك حسن في دين الرائي، ومن رآه على صورة غير حسنة فرؤياه ﷺ حق، وذلك القبح في دين الرائي. وإن كان في جارحة من جوارحه شَين فتلك الجارحة من الرائي فيها خلل من جهة الدين، وهذا هو الحق.

وقد جرب هذا فوجد على هذا الأسلوب سواء بسواء لم ينكر. وبهذا تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه، عليه الصلاة والسلام، حتى يتبين للرائي هل عنده خلل في دينه أم لا؟ لأنه ﷺ نوري، فهو مثل المرآة الصقيلة ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها، وهي في ذاتها على أحسن حال، لا نقص فيها ولا شَين.

وكذلك ذكروا في كلامه، عليه الصلاة والسلام، في النوم أنه يُعرَض على سنته، عليه الصلاة والسلام، فما وافقها مما سمعه الرائي فهو حق، وما خالفها فالخلل في سمع الرائي، فإنه ﷺ ما ينطق عن الهوى[1] ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2] فتكون رؤيا الذات المباركة حقاً، ويكون الخلل قد وقع في سمع الرائي، وهو الحق الذي لا شك فيه.

وهنا تنبيه: وهو هل تحمل الخواطر التي تخطر لأرباب القلوب، بتمثيله ﷺ في بعض المخاطبات التي يخاطبون على لسانه عليه الصلاة والسلام، وتتشكل صورته المباركة في عالم أسرارهم في بعض المحاضرات والمحادثات التي من عادة طريقهم المباركة، على أنها مثل رؤيا المنام فتكون حقاً أم لا؟

فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن خواطر أرباب القلوب حق بحسب ما دلّت عليه الأدلة الشرعية، وأنها أصدق من مرائي غيرهم لما منَّ عليهم من تنويرها وبركتها دون إشارة من قِبَلِهِ ﷺ رؤياه ﷺ من مبارك وغيره حق، فكيف بهما إذا اجتمعا، فذلك في صدقه. وقد بينا الدليل على تصديق خواطر الرجال من الكتاب والسنة في غير ما موضع من الكتاب، فإذا اجتمع ما ذكرنا من تشكل صورته

---

(١) مقتبس من الآية القرآنية الثالثة في سورة النجم: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ بزيادة الواو في أول الآية الكريمة.
(٢) سورة النساء، من الآية ٨٢.

المباركة أو كلامه المبارك لأولئك المباركين، وقد اجتمع على تصديق ذلك أدلة الكتاب والسنة، وكفى في ذلك قوله، عليه الصلاة والسلام (إن الشيطان لا يتمثل على صورتي) لأنه لفظ عام، ولأجل حمل العام على عمومه. وما نفاه، عليه الصلاة والسلام، من طريق الباطل، الذي هو طريق الشيطان وتخيلاته، لم يبق إلا أن يكون حقاً قطعاً لكن بالشرط المتقدم، وهو أن تعرض على كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فما وافق أُمْضِيَ، وإلا فلا.

وقوله ﷺ (فليتبوأ مقعده من النار) أي فلينزل مقعده من النار، لأن التَّبَوُّءَ هو النزول لقوله عزّ وجلّ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[1] أي جعلناه له منزلاً.

وهنا بحث: وهو أنه قد علم بأدلة الشرع أن الكذب من الكبائر، وقد جاء فيه من الوعيد العظيم ما تقدم ذكره في الأحاديث قبل. فهل لإخباره ﷺ هنا عن الكذب عليه خصوصاً بهذه الصيغة زيادةُ فائدة، أو إنما أخبر أن الكذب عليه ﷺ من جملة الكذب المحرم الذي لا يمكن فيه التأويل، ولا يقبل التعليل ولا التوجيه، لما تقدم الكلام على الكذب في الأحاديث قبل، ووجهنا ما قال فيه العلماء، فإذا هو على خمسة وجوه ـ كما هو مذكور هناك ـ فيكون الكذب عليه ﷺ من أحد الأقسام الخمسة. وهذا القسم الذي هو منها محرم بالنص والإجماع ولا يدخل فيه ذلك التقسيم بالجملة، وأن صاحبه يعذب العذاب الأليم؟ احتمل أن يكون بمنزلة هذا النوع المذكورة وزيادة.

فائدة أخرى وهي أن الذي يكذب عليه ﷺ متعمداً لا بدَّ له من دخول النار، بخلاف غيره من الكذابين، فقد يأتي الله بمن يشفع فيه، وقد يتوب أو قد يتداركه الله تعالى بنوع من أنواع الرحمة. يؤخذ ذلك من قوة قوله عليه الصلاة والسلام (فليتبوأ) فكأنه، عليه الصلاة والسلام يقول: فلْيقعد مَقعدَه من النار، فلا محيصَ له منها. وبهذا تظهر الفائدة في الفرق بين الكذب عليه ﷺ من الكذب على غيره، والله أعلم.

ومن جهة التعليل: يقوى هذا التوجيه لأن الكذب عليه ﷺ يقع به الخلَل في الدين وتغيير الأحكام، وهذا كفر بلا خلاف، وإن لم يستحِلّه، ومن كفَرَ فلا محيصَ له من النار، بخلاف غيره من الكبائر والآثام، فإن صاحبها في المشيئة.

وبقي بحث في توبته: هل تصحّ أم لا؟ فهي ـ والله أعلم ـ على ضربين: لا يخلو ما كَذَب به عليه ﷺ أن يكون قد ترتبت عليه أحكام أوْ لا. فإن كان ترتبت عليه أحكام فهل يمكنه ردّها، وقطع تلك المادة بالجملة الكافية، أو لا يمكنه ذلك؟ فإن لم يترتب عليه أحكام، أو ترتبت عليه، وقَدَر

---

(١) سورة الحج، من الآية ٢٦.

على قطع تلك المادة الفاسدة بالجملة الكافية، فعل ذلك وصدق مع الله تعالى في توبته، رُجِيت له، لعموم قوله ﷺ (التوبة تَجُبّ ما قَبْلها)[1]. وإن كان لا يمكنه تلافي ذلك خيف عليه من عدم القبول، لنقص شروط التوبة، فإن من شروطها ردّ المظالم، لأن أولئك المساكين الذين بلغت لهم تلك الأحكام الفاسدة، وعملوا عليها، فقد ظلمهم ظلماً كثيراً.

وقد جاء أن مولانا سبحانه يقول يوم القيامة لصاحب البدعة (هب أغفر لك فيما بيني وبينك فالذين أضللت كيف أفعل بهم)؟ أو كما ورد. معناه: أي لا أترك لك حقوقهم، وآخذك بها. فإذا كان هذا لصاحب البدعة فكيف بمن كذب عليه ﷺ، وغيّر بذلك أحكام شريعته؟ من باب أحرى وأولى. ومن هذا الباب وصية بعض أهل التحقيق (اتَّضِع لا ترتفع، اتَّبِع لا تبتدع، من تورع لم يتسع). ومما يشبه وصية الآخر بقوله (عليك بالسنة والسنن تفز بالأجر وغنيمة الدارين). مَنَّ الله علينا بذلك بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) الحديث: الإسلام يجب ما قبله. ولم نعثر على ما جاء به المؤلف رحمه الله.

ـ ٢٥٢ ـ

حديث النَّهْي عن التسمّي بملك الملوك

عَن أبي هُريرَةَ، رَضي الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: أخنَعُ الأسماء عِندَ الله يَومَ القيامَةِ رَجُلٌ تَسَمَّى: مَلِكَ الأملاكِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن أخسّ الأسماء وأرذَلها عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل هذا التحقير للاسم منه يلحق للذي[1] تسمَّى به شيء خلاف هذا، أم لا؟ ومنها: هل هذا لعلّة أو لغير علّة؟ فإن كان لعلّة فهل نَطْرُدُ الحكمَ حيث وجدنا العلة، أوْ لا؟ وما الحكمة في قوله (يوم القيامة)؟

فأما قولنا: هل يلحق لِلمسمَّى[1] بهذا الاسم زيادة على تحقير الاسم أوْ لا؟ فنقول إنما جعل ترفيع الأسماء يوم القيامة للدلالة على ترفيع أهلها، وما لهم في ذلك اليوم من الخير والسرور. وكذلك ضده دال على ضده، لأن ذلك يوم حق، ليس فيه مجاز ولا تلبيس.

وأما قولنا: هل ذلك لعلّة أوْ لا؟ فإن قلنا: تعبُّد، فلا بحث. وإن قلنا: لعلة، فما هي؟ فنقول، والله أعلم، لتشبّهه باسم من ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[2] لأن هذا الاسم لا يكون حقيقة إلا لله سبحانه وتعالى. فإن كانت العلة ما ذكرنا فيجوز تعدي الحكم، مثل أن يتسمّى بـ (سلطان السلاطين)، وكذلك (قاضي القضاة)، وإن كانت العلة بهذا الاسم ـ أعني: قاضي القضاة[3] ـ قد تقدمت بسنين لا سيما في جهة المشرق.

---

(١) كذا بزيادة اللام مع المفعول للتقوية.

(٢) سورة الشورى، من الآية ١١.

(٣) قاضي القضاة هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، صاحب أبي حنيفة. وهو أول من دعي: قاضي القضاة. وكان يقال له احترازاً من الإنكار: قاضي قضاة الدنيا. توفي سنة ١٨٢ هـ.

وقد ذكر عن الثَّوريّ[1] من أهل التحقيق أنه جاء يزوره من كان يتسمى بهذا الاسم في زمانه، فلما دخل عليه قال له بعض من جاء معه: هذا قاضي القضاة. وكان معهم قاعداً منبسطاً. فلما سمع كلامه قام دهِشاً مسرعاً وهو يقول: هذا قاضي القضاة! فهذا يوم الفصل والقضاء، فأين الميزان؟ فأين الصراط؟ وجعل يعدد من أحوال يوم القيامة ما شاء الله تعالى، فحصل من كلامه في النفوس حال عجيب.

وقد حدثني بعض من لقيته من السادة أن دولة الموحدين ـ وكانت دار مملكتهم في غرب العَدْوة مراكش ـ أن القاضي الذي كان يتولى بها كان يدعى بقاضي الجماعة، لأن الفقهاء إذ ذاك كانوا هناك متوافرين، وكان الغالب عليهم الدين، فلم يأخذوا من الأسماء وجميع الأشياء إلا الذي ليس فيه شيء من المكروه، ولا يحتاجون فيه إلى شيء من التأويل، وهذه طريقة السلف، رضي الله عنهم، ولم يسمع هذا الاسم في السلف الصالح أيضاً، فنعوذ بالله من قلة الاهتمام بأمور الدين والتهاون به.

وأما قولنا: ما الحكمة في قوله (يوم القيامة)؟ فلأنه يوم تظهر فيه الأمور على ما هي عليه حقيقة ليس فيها زغل ولا عناد ولا تجاوز إلا حقائق ظاهرة، وهذه الدار فيها التلويثات والاختلاطات. وقد يكون ظاهر الأمر يوافق باطنه أو الضد، وفي تلك الأعمال على إبراز الضمائر وتحقيق الحقائق ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾[2].

وفيه تنبيه على أن الأدب في الدين مطلوب جداً. يؤخذ ذلك من كونه لما تسمّى هذا المسكين بهذا الاسم، وهو محتمل إن أراد ملك ملوك الأرض، وكان ذلك ملكاً له. واحتمل أن تسمّى به اختياراً مثلما تسمى بعض نساء العرب وغيرهن في الوقت، وقَبْل هذا الوقت بِسِتّ العرب، والناس أجمعين يعلمون أن ذلك ليس بحقيقة، وكما يسمّى بعض الناس بسيد الناس، وهذا مقطوع أيضاً أنه ليس كذلك. وهذا الاسم أيضاً يدخله المنع بالتعليل المتقدم، وما هو في معناه، لأن العلة فيه موجودة، لكن غفلات توالت وعوائد سوء اتخذت مضى الأمر عليها على من قُدِّر عليه بما قدر، واحتمل أن يكون تسمّى بذلك تمرُّداً وتجبراً.

---

(1) الثوري: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري. من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، أبو عبد الله: أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور على أن يلي الحكم فأبى وخرج من الكوفة، فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة ومات مستخفياً. له من الكتب: الجامع الكبير والجامع الصغير وكلاهما في الحديث وكتاب في الفرائض. توفي سنة ١٦١ هـ. (الأعلام ٣/١٥٨).

(2) سورة يونس، من الآية ٣٠.

لكن ليس في الحديث ما يدل على واحد من هذه خصوصاً، فالكل محتمل. والمحتمل ينبغي أن تبقى كل محتملاته، لا سيما في مواضع الخوف. لكن صيغة اللفظ في الحديث العموم، لأنه قال (تسمّى) فيكون معناه: تسمّى بهذا الاسم على أي وجه وقع هذا الاسم، فصاحبه بتلك الحالة الذميمة والخزي العظيم. فبهذا يزداد الحض على طلب الأدب في الدين.

وفيه إرشاد إلى علم السنة وإيثاره على غيره، لأن هذا وأمثاله وهي مواضع عديدة وقد نبهنا عليها في مواضع من الكتاب، لا تعلم إلا من طريق علم السنة والاهتمام به، وقد غفل عن ذلك كثير من الناس، وأوقعهم ذلك في المهالك وهم لا يعلمون، وتكون حالهم كما أخبر تعالى في كتابه ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] فمنهم من جهله جملة واحدة، ومنهم من اشتغل به وكان علمه كأن لا علم لأَثَرَةٍ غيره عليه، ويجعل ذلك نبلاً وكَيْساً، وهو غَيٌّ وحرمان. أعاذنا الله من ذلك بمنّه.

ولذلك كانت وصية من لقيته من أهل التوفيق بالعلم والسنة أن يقول الرجل: لا يكون الرجل رجلاً حتى يكون محاسباً مراقباً. فكنت أقول له: ما معنى قولكم: محاسباً مراقباً؟ فكان جوابه على ذلك أن يقول: محاسباً: يحاسب نفسه في هذه الدار، لقوله ﷺ (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)[2]. فإن رأى على نفسه دركاً أخذ في خلاصها. ومراقباً: يجعل قلبه أمام رأيه. فإن خطر له قول أو فعل نظره بلسان العلم، فإن كان جائزاً فعل أو قال. وإن كان ممنوعاً أو مكروهاً أمسك، لأن ترك الذنب أولى من طلب المغفرة. وإلا كان كتاجر ينفق ولا يعلم، فيصبح وقد أفلس. وإن لم يعرف ذلك الذي خطر له من أي الوجوه هو توقف حتى يسأل أهل العلم الذين هم على السنة واتباع السنن، فإن المؤمن وقّاف.

جعلنا الله من المؤمنين حقاً، الملطوف بهم بمنّه. لا ربَّ سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الكهف، من الآية ١٠٤.

(٢) (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية) أخرجه ابن المبارك وابن منصور وابن أبي شيبة والإمام أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً.

ـ ٢٥٣ ـ

حديث من السنة تشميت العاطس بعد حمده

عَن أنَسٍ بنِ مالكٍ، رضيَ الله عَنهُ، يَقولُ: عَطَسَ رَجُلانِ عِندَ النَّبيِّ ﷺ فشَمَّتَ أحَدَهُما وَلَم يُشَمِّتِ الآخرَ. فَقالَ الرَّجُلُ: يا رَسُولَ الله شَمَّتَّ هَذا، وَلَم تُشمِّتني. قالَ: إنَّ هَذا حَمِدَ الله، وَأنتَ لَم تَحمَدهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن السنة أنه لا يُشمَّت العاطس حتى يحمد الله تعالى، ومن عطس ولم يحمد الله تعالى فلا يشمت. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل التشميت للعاطس واجب أو مندوب؟ ومنها: كيف صفة التشميت، وما معناه؟ ومنها: هل هذا مطلقاً في كل مرة، وإن تكرر هذا من العاطس مراراً، أو له حدّ محدود؟ ومنها: هل هذا لكل عاطس، كان مؤمناً أو كافراً، أو هذا خاص بالمؤمنين؟

أما قولنا: هل هو على الوجوب أو الندب؟ فقد اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال: فمنهم من يقول: إنه فرض على كل من سمعه، وهم أهل الظاهر، ومن علمائنا من وافقهم على ذلك. ومنهم من قال: هو ندب وإرشاد. ومنهم من قال: هو واجب على الكفاية كرد السلام، وهم جمهور أهل السنة.

وأما قولنا: كيف صفة التشميت؟ فقد جاءت صفته نقلاً عن النبيّ ﷺ، لأنه روي عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه قال (إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله. وإذا قال الحمد لله، فلْيُقَل له: يرحمك الله. ويردّ عليه: يغفِر الله لنا ولكم) أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وفي رواية يردّ عليه بقوله (يهديكم الله ويصلح بالكم)[1]. ومنهم من قال: هو بالخيار، لأن اللفظين قد رُويا عن النبيّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ﷺ، فبأيهما ردّ فقد وافق السنة. ومنهم من استحب أن يجمع بينهما حتى يكون أجمع للخير وخروجاً عن الخلاف، وهو الأحسن. والله أعلم. وقد جاء بدلَ التشميت بالسِّين المهملة[1].

وأما قولنا: ما معنى التشميت؟ فهو بمعنى: أبعد الله عنك الشماتة، وجنّبك ما يشمت به عليك. وأما معنى (التسميت) فهو بمعنى: جعلك الله على سَمتٍ حَسَن. هذا قول أئمتنا.

وأما قولنا: هل هذا مطلقاً في كل مرة، وإن تكرر العطاس من العاطس في الوقت مراراً؟ فالذي عليه الجمهور أن الحدّ فيه إلى الثالثة أو الرابعة، لأنه جاء عنه ﷺ أنه قال (إذا عطس فشمّتوه ثم إذا عطس فشمتوه، ثم إذا عطس فشمتوه، ثم إذا عطس فقولوا له: عافاك الله؛ فإنه مَضنوك)[2] أو كما قال عليه السلام. قال راوي الحديث: لا أدري هل بعد الثالثة أو بعد الرابعة، قال فإنه مضنوك)؟ فمن أجل الشك الذي روي عن راوي الحديث وقع الخلاف.

وأما قولنا: هل هذا أمر عام كان العاطس مؤمناً أو كافراً، أو هو للمؤمن لا غير؟ لا أعرف خلافاً أن التشميت عام للمؤمن والكافر، غير أنْ في الكيفية في ذلك وقعت التفرقة بين المؤمن والكافر، لأن الكيفية في تشميت المؤمن كما تقدم الكلام عليها. وأما الكافر فيقال له (يَهديكم الله ويُصلِحُ بالَكم). وهذه الصفة التي رويت عن النبيّ ﷺ في تشميته أهل الكتاب، لأن اليهود كانوا يستعملون العطاس بين يديه ﷺ رجاء في دعائه وتشميته بـ (يَهديكم الله ويُصلح بالكم).

وبقي الخلاف بين العلماء: إذا عطس العاطس، فحمد الله، فسمعه بعض الحاضرين، ولم يسمعه الغير، هل[3] يجب على من لم يسمعه حين حمد الله، وقد سمع الذي شمَّتَه، هل يشمّته هو تابعاً لذلك، أم لا؟ قولان.

وفيه دليل على جواز طلب المفضول من الفاضل علة الحكم وبيانها. يؤخذ ذلك من قوله (يا رسول، الله شمَّتَّ هذا ولم تشمّتني).

وفيه بحث، وهو: ما الحكمة بأن جعل في العطاس هذه الأحكام المذكورة؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث. وإن قلنا: لحكمة، فما هي؟ فاعلم أنه لم يختلف أحد ممن له معرفة بطب الأبدان وأدوائها أن العطاس فيه منفعة للعاطس، وأنه إذهاب داء قد يكون في رأسه. فعلى هذا فهو من جملة النعم. وقد تقرر في قواعد الشرع أنه مما استُعبِدنا به الشكرُ على النعم، وأعلى الشكر هو

---

(١) يعني ـ التسميت بدل التشميت.

(٢) رواه أبو داود وابن السني في عمل اليوم والليلة وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه وسنده حسن. بلفظ: إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه، فإن زاد على ثلاث فهو مزكوم، ولا يشمت بعد ثلاث.

(٣) كذا بحذف الفاء الرابطة للجواب.

الحمد. فأمرنا بذلك، فأنتجت بالوعد الجميل مزيد النعماء، وهو الدعاء بالخير إثر الحمد، لأن الله، عزَّ وجلَّ، يقول في كتابه ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1]. فتأكدت النعمة بمزيد الدعاء له من السامعين لعطسه، ثم تأكدت الرحمة بالدعاء من العاطس لأخيه الذي شمته، ولنفسه إن شاء الله.

وفيه تنبيه يدل على لطف المولى سبحانه بعبيده، وهو أن جَعَل المزيد هنا بعد الحمد واجباً مشروعاً، ولم يترك ذلك لاختيار أحد من عباده، ولا غائباً عنا، حتى لا نعلم هل قُبِل منا؟ فزيد لنا، ولا ما هي الزيادة أيضاً؟ حتى يحصل العلم بها، ولا ما هو قدر الزيادة؟ ولا ما هو جنسها؟ فشرعت لنا تلك الألفاظ الدالة على الخير العميم لمن فهم معانيها وتدبَّرها، لأنه إذا قلنا: إن التشميت واجب، كما تقدم ـ وهو الذي عليه الجمهور ـ فإذا فعل المكلف الواجب الذي عليه بشروطه رجي له القبول. فهذا قد دعا للعاطس بالخير امتثالاً لما به أمر، فهذا دعاء مرجوّ قبوله.

فلما كان الأمر على هذا الخير العظيم أمر العاطس أن يدعو للذي أُجرِي له على يديه مزيد لدعائه له بالخير، وأن يدعو هو أيضاً له بالخير حتى تكون رحمته، عزَّ وجلَّ، عامة بعباده إذ ذاك، وكان الرجاء في قبول الدعاء الثاني مثل الأول سواء.

ويترتب على هذا من الإرشاد: أنه إذا استشعر أحد من العبيد موطناً يكون فيه خير، أو رجاء من وجه من وجوه الخير، أن يكثر فيه بالدعاء لنفسه ولوالديه وأقاربه وأصحابه وإخوانه المؤمنين. فإن لله نفحات، إذا وجدت سَعِد بها عالم كبير. جعلنا الله ممن تعرض لها وأصابها، وممن أجزل له نصيبه منها بتعرضٍ وبغيره، فإنه وليّ حميد.

وفيه دليل على عظيم النعمة على العاطس. يؤخذ ذلك مما ترتب عليه من هذه الأحكام والخير، فصارت عَلَماً على ذلك.

وفيه إشارة إلى عظيم فضل الله تعالى ورحمته، لأنه عزَّ وجلَّ رحم عبده بأن أذهب عنه ذلك الضرر الذي كان به بنعمة العطاس، ثم ثناها بمشروعية الحمد له، ثم أتبعها بدعاء خيرٍ بعد دعاء خير. وهذا كله في لمحة واحدة، نِعَم متواليات في أيسر زمان بلا موجب عليه إلا بمجرد الفضل، بدءاً منه وبرحمته سبحانه. وكذلك الخير المذكور تمامه منه قبوله.

تنبيه: في أحكام الحديث وفيما أشرنا إليه من التنبيهات وغير ذلك، إذا نظرتها بقلبٍ له بصيرة حصل لك به من قوة الإيمان ما لا يحصل بعبادة أيام عديدة، ودخل داخل قلبك ولحمك ودمك من

---

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٧.

حبّ الله تعالى، الذي قد أعد لك من هذا الخير العظيم ما لم يكن لك في ظن ولا علم، ومن حب رسول الله ﷺ الذي كان معرفة هذا الخير على يديه، ما لا يُقَدَّر قَدْره، وكذلك الحب في علم سنته، عليه الصلاة والسلام، وزيادة ذرة من هذا خير من قناطير مقنطرة من الأعمال المقبولة، بلا خلاف في ذلك بين أحد من علماء أهل التوفيق، والاتباع للسنة والسنن.

أعاد الله علينا من بركاتهم، وجعلنا لأنعمه من الشاكرين بمنّه وكرمه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ــ ٢٥٤ ــ

حديث التشهد المشروع في الصلاة

عَن عَبدِ الله بنِ مَسعودٍ، رضيَ الله عَنهُ، قالَ: كُنَّا إذا صَلَّينا معَ النَّبيِّ ﷺ قُلنا: السَّلاَمُ عَلى الله قَبل عِبادِهِ، السَّلامُ عَلى جِبريلَ، السَّلامُ عَلى ميكائيلَ، السَّلامُ عَلى فُلانٍ. فَلمَّا انصَرَفَ النَّبيُّ ﷺ أَقبلَ عَلَينا بِوَجهِهِ فَقالَ: إنَّ الله هُوَ السَّلامُ، فَإذا جَلَسَ أَحَدُكُم في الصَّلاةِ فَليَقُل: التَّحيَّاتُ لله، وَالصَّلواتُ وَالطَّيِّباتُ، السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها النَّبيُّ وَرَحمةُ الله وَبَركاتُهُ، السَّلامُ عَلينا وَعَلى عِبادِ الله الصَّالحين ـ فَإنَّهُ إذا قالَ ذَلِكَ أصابَ كُلَّ عَبدٍ صالحٍ في السَّماءِ وَالأرضِ ـ أشهَدُ أن لاَ إلَه إلاَّ الله، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدُهُ وَرَسُولُهُ. ثُمَّ يَتَخَيَّرُ بَعدُ مِنَ الكَلامِ ما شَاءَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن هذا التشهد المذكور في الحديث هو المشروع في الصلاة. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل يجزىء خلاف هذه الصيغة أم لا؟ ومنها: هل هو سنة أو فرض؟ ومنها: الكلام على معاني تلك الألفاظ؟.

فأما قولنا: هل يجزىء خلاف هذه الصيغة؟ فاعلم أنه لا يجزىء إلا ما جاء فيها من اختلاف بعض ألفاظها في بعض الروايات. فمنها ما جاء من طريق عائشة، رضي الله عنها، وهو قولها (التحياتُ الطيباتُ الصلَواتُ الزاكياتُ لله، أشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، وأن محمداً عبدُه ورسولُه. السلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه. السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين. شهدتُ أن لا إلَهَ إلا الله. شهدت أن محمداً رسولُ الله).

ومنها ما جاء من تشهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي علّمه الناس على المنبر، والصحابة رضي الله عنهم متوافرون، وهو (التحيات لله، الزاكيات لله، الطيبات لله، الصلوات لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إلّه

إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسوله) ومنها: ما جاء من تشهد ابن عباس وابن مسعود، رضي الله عنهما. والمعنى في الكل واحد، غير أن في بعض الألفاظ اختلافاً، وكلها في الصحيح، وبأيها تشهد أجزأ، بلا خلاف أعرفه بين أحد من العلماء، خلفاً عن سلف.

وأما قولنا: هل هو سنة أو فرض؟ فالجمهور على أنه سنة إلا ما روي عن الشافعي أن الصلاة على النبيّ ﷺ فيه فرض.

وأما الكلام على معاني الألفاظ فقوله (التحيات لله) جمع تحية، والتحية هي السلام، فالسلام كله على اختلاف أنواعه وصيغه هو لله تعالى، أي مضاف إليه، لأن من أسمائه سبحانه: السلام. فكل ما كان مشتقاً من هذا الاسم فهو له، ومضاف إليه.

وقوله (والصلوات) هي جمع صلاة، وفي اللغة معناها: الدعاء. والدعاء منه تتابع الرحمة، والرحمة منه كدعائه ﷺ، لأبي أَوْفى حين أتاه ابنه بصدقته فقال (اللهم صلّ على آل أبِي أَوْفى وارحَمْهم). وعطفها على التحيات؛ فاستغنى بذلك عن إعادة ذكر الله تعالى، والصلاة من الله سبحانه وتعالى رحمة لعباده. ومن أسمائه عزَّ وجلَّ: الرحمن، فكل ما كان مشتقاً من هذا الاسم فهو له، ومضاف إليه.

وقوله (والطيِّبات) جمع طيِّب، والطيب كله على اختلاف صيغه وأنواعه لله، ومضاف إليه سبحانه. وعطفه على التحيات لله، فاستغنى بذلك عن إعادة ذكر الله تعالى. وهو من فصيح الكلام.

وقوله (السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته) السلام معناه: الأمان. وبركاته: خيراته. وأمرُهُ، عليه السلام، لهم بالدعاء له هنا هو في حقهم، لأن من أكبر القُرَب إلى الله سبحانه الصلاة عليه ﷺ، والدعاء له، وإن كان هو، عليه الصلاة والسلام، لِما أعطاه الله وفضّله غيرَ إلى دعائنا، لكن ذلك رحمة في حقنا. ألا ترى إلى ما جاء من الخير لمن قال في دعائه: (آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد)؟[1] وهذا أمر قد منّ الله به عليه حتماً لا تبديل فيه، فالفائدة في ذلك للذي يدعو به حتى تكون بركته ﷺ تعود على أمته في كل الأحوال.

وقوله: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض) السلام معناه: الأمان ـ كما تقدم ـ فكأنه يدعو بالأمان لنفسه ولكل عبد صالح في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن جابر رضي الله عنه وتمامه: من قال إذا سمع النداء: «اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد» حلّت له الشّفاعة يوم القيامة.

السماء والأرض. ومن جعل له الأمان من الله فقد حصل له جميع الخير. منّ الله علينا بذلك بمنّه. وفيه تنبيه منه ﷺ لنا على اتباع طريق الصالحين، لأنه إذا كنت منهم فجميع المصلين في كل صلاة يدعون لك بالأمان والخير. فذلك خير من أضعاف أضعاف عملك بما لا يعلم قدره إلا الذي منّ به عليهم.

وفيه دليل على أن الملائكة والصالحين من المؤمنين لا يفضل أحدهما الآخر، لأن العلماء اختلفوا فيمن أفضل: هل الملائكة أو الصالحون من بني آدم؟ على قولين. والنص منه ﷺ هنا يعطي أن لا تفضيل بينهما، لأن الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا كما ذكر أول الحديث يسلمون على الله قبل عباده ثم على جبريل وميكائيل ثم على فلان، فقال هو ﷺ عند ما علّمهم كيفية التشهد (إذا قال المصلي السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقد أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض) فجمع فيه بين الملائكة لأنهم سكان السماء، وبين بني آدم الصالحين بلا تقديم ولا تفضيل.

وقوله: (أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ختمه بأرفع الكلام وعماد الدين، وهي كلمة الإخلاص، وتصديق رسالته ﷺ. ثم أباح لنا الزيادة على ذلك مما هو يناسبه، لأن ذلك معروف عند العرب. يؤخذ ذلك من قوله (ثم يتخير بعدُ من الكلام ما شاء) على نحو ما أشرنا إليه.

وفيه دليل على أن أول ما فرضت الصلاة لم يكن التشهد من مشروعيتها لا فرضاً ولا سنةً. يؤخذ ذلك من قول عبد الله (كنا إذا صلينا مع النبيّ ﷺ نقول: السلام على الله قبل عباده). فدل على أنهم بَقُوا على ذلك زماناً حتى إلى[1] اليوم الذي سمع النبيّ ﷺ، فنهاهم عن ذلك وأمرهم بما ذكر بعد.

وبقي هنا بحث، وهو أن يقال: لِمَ نهاهم عن أن يقولوا (السلام على الله قبل عباده)، ثم أمرهم أن يقولوا (التحيات) وهي: جمع تحية. والتحية هي: السلام، كما تقدم؟ والانفصال عنه أن السلام هو الأمان، فلما قالوا هم (السلام على الله) فليس على الله خوف من أحد، ولا يقدر أحد على ضره ولا نفعه، كما جاء في حديث مسلم وغيره (إن يريدوا ضري لم يقدروا) وكذلك نَفعُه سبحانه. فنهاهم عن ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى منه يُطلَب الأمان، وهو الذي يؤمِّن، وهو الذي يخوِّف، ومنه الخوف، وفيه الرجاء. فأمرهم، عليه السلام، أن يأتوا الأمر على بابه، ويطلبوا الأمان منه، عزّ وجلّ، ويعترفوا له سبحانه بأنه هو السلام، وهو الذي يعطي السلام، وإليه يضاف حقيقة. وإن كان يضاف إلى غيره في بعض الأماكن فهو مجاز، أو لوجه ما من طريق ما اقتضته الحكمة الربانية. فجزاه الله عنا من معلم خيراً.

---

(١) كذا بزيادة (إلى) بعد (حتى).

وفيه دليل على أن ما كان من زيادة ذكر أو دعاء في الصلاة لا يفسدها. يؤخذ ذلك من أن النبيّ ﷺ لم يأمرهم بإعادة الصلاة التي تقدمت لهم، وهم كانوا يذكرون فيها ما نهاهم عنه، كما هو في نص الحديث.

وفيه دليل على أنه إذا كان القلب متعلقاً بفعل خير، والمرء في الصلاة، أن ذلك لا يفسد صلاته، إذا لم يكن يستولي على القلب حتى يخل ببعض أركانها. يؤخذ ذلك من أنه لما سمع سيّدنا ﷺ مقالتهم، وهو في الصلاة، بقي خاطره المكرم متعلقاً بمقالتهم، لأنه، عليه السلام، عندما سلّم من الصلاة كلّمهم ـ كما هو نص الحديث ـ فدل على أن ذلك بقي مستصحَباً إلى حين فراغه، عليه السلام، من الصلاة، فكلمهم فيه.

فإن استولى على القلب شغل بتلك الطاعة حتى أخلّ بركن من أركان الصلاة أعاد الصلاة، كما فعل عمر، رضي الله عنه، حين صلّى صلاة الصبح بالصحابة، رضوان الله عليهم، فلم يقرأ فيها، فلما فرغ منها قيل له في ذلك فقال: إني جهزت جيشاً إلى الشام وأنا في الصلاة، وأنزلتهم منازلهم ـ ثم أعاد الصلاة.

وفيه دليل على أن أفضل الأعمال تعليم دين الله تعالى. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ لم يفعل إثر الصلاة إلا أن أخذ في تعليمهم، ولم يشتغل بِتَسْبِيحٍ ولا غيره، فدل ذلك على فضيلته. وقد جاء أنه (من صلّى الفريضة وقَعَد يعلّم الخير نودي في ملكوت السموات عظيماً).

وفيه دليل على أن لسيّدنا ﷺ أن يشرّع من الأحكام ما يظهر له دون وحي، ويلزمنا امتثاله. يؤخذ ذلك من أنه، عليه السلام، لما علمهم التشهد لم يذكر أن ذلك كان بوحي، ولو كان بوحي ذكره، كما فعل، عليه السلام، في غير ما موضع، على ما هو منصوص عنه ﷺ.

وفيه دليل على فضيلة الصحابة، رضوان الله عليهم. يؤخذ ذلك من أنهم تلقوا هذه الأحكام عنه ﷺ ونقلوها لنا. فهذه منزلة لا يشاركهم فيها أحد.

وفيه نكتة صوفية، وهي إذا كان جميع الخير والطيب له سبحانه فلم يبق للعبد إلا الفقر دائماً، واللجأ دائماً، والاحتياج إليه سبحانه دائماً. فانظر كيف تقول ذلك في كل صلاتك، ثم تدعو عند فراغك بكثير من الأشياء، حساً ومعنى، وتضيفها إلى نفسك حقيقة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[1] فلو جعلت حالك مثل مقالك لكنت من الأبرار، لكن كثافة الران[2] فسد به الحال.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الصف، ٢ و ٣.

(٢) الران: الصّدأ والحجاب الكثيف وما غطى على القلب ورَكِبَه من القسوة للذنب بعد الذنب. ومثله: الرَّيْن.

ـ ٢٥٥ ـ

حديث أنواع الزنى وما كُتِب على العبد منه لا بدَّ من نفاذه

عَن أبي هُرَيْرَةَ، رضيَ الله عَنهُ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: إنَّ الله عزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلى ابنِ آدمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنى، أدرَكَ ذلِكَ لاَ مَحالَة، فَزِنى العَينِ النَّظَرُ، وَزِنى اللِّسَانِ النُّطقُ. والنَّفسُ تَتمَنَّى ذلِكَ وتَشتهي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلِكَ أو يُكَذِّبُهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على الإخبار بأن من كتب الله عليه من بني آدم شيئاً من الزنى لا بد أن يفعله، ولو تحرز بما عسى أن يتحرز. والكلام عليه من وجوه:

منها: أنه ﷺ قسم الزنى على قسمين: زنى الفرج، وهو الزنى الحقيقي، وهو الذي يوجِب الحدّ، وزِنى العين بالنظر، واللسان بالكلام، وهو الذي يدخل تحت حدّ اللَّمَم ـ على قول بعض العلماء ـ لأنهم قالوا: ما دون الوَطْءِ فهو اللَّمَم، ويستشهدون بقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[1] ومصداق ذلك من الحديث نفسه قوله عليه السلام (والفَرْج يصدّق ذلك أو يكذّبه). فإذا كذبه الفرج فلا زنى.

وبقي فيه سؤال وهو أن يقال: ذكره العين واللسان هل ذلك الزنى مقصور على هاتين الجارحتين، أو ذكر هاتين الجارحتين من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى؟ الظاهر أنه من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأن لكل جارحة زنى، وهو خروجها في تصرفها عما شرع لها؛ فإن اليد لما لمست ما لم يَجُز لها فقد زنت، وكذلك الأذن إذا سمعت ما لا يجوز لها فقد زنت، وكذلك الأنف إذا شمّ ما لا يجوز له فقد زنى، وكذلك الرِّجْل إذا مشت إلى ما لا يجوز لها فقد زنت، وكذلك جميع الحواس، فزنى كل جارحة بحسب خروجها عما شرع لها. لكن لا تخلو كل جارحة من الجوارح أن يكون خروجها عما شُرِع لها مما هو من أسباب النكاح وأدواته، أو من غير ذلك. فإن

---

(١) سورة النجم، من الآية ٣٢.

كان مما هو من أسباب النكاح وأدواته فهو الذي يكون الفرج يصدقه أو يكذبه، وهو الذي أشار إليه سيّدنا ﷺ في الحديث الذي نحن بسبيله. وإن كان خروجها عما شُرع لها لا يمكن أن تكون تلك المخالفة إلا منها، وهي التي تحققها إن كانت لها مشاركة مع غيرها من الجوارح فيها، أو تكذبها، فليس من هذا الحديث الذي نحن بسبيله، ولها حكمها المنصوص عليه في موضعه.

مثال ذلك الغيبة التي هي مختصة باللسان، وهي من الكبائر بلا خلاف، لقوله ﷺ (الربا اثنان وسبعون باباً، أدناه مثل أن يطأ الرجل أمه، وإنَّ أربى الرّبا استطالة لِسان المسلم في عرض أخيه)[1]. فمن وقع في الغِيبة بلسانه فقد تحقق عليه إثم الغيبة، ولا يحتاج في ذلك لجارحة أخرى تصدقه أو تكذبه، وعلى هذا النوع فانظر جارحةً جارحةً تجد القاعدة مطّردة، والحُكمَ فيها واحداً.

وقوله ﷺ (أدرك ذلك لا محالة) لا يختص هذا بالزنى وحده، بل كذلك حكم الله في جميع أنواع الخير والشر، من كَتَب له من أحد الوجهين شيئاً واجباً فلا بدّ له منه، لا يَردّه عنه رادّ، لأنه قد نصّ العلماء على أن ما قُدِّر على العبد على ضربين: قَدَر قُدِّر وقدّر أن يردّه وجه ما من الوجوه، فذلك الذي ينفع أثر الحكمة فيه، وهي التسبب في دفعه. وما قدّر له أو عليه حتماً، فذلك لا يردّه شيء من الأشياء، ومنه خوف الرجال وأهل العقول.

وقوله ﷺ (والنفس تتمنّى ذلك وتشتهي) يعود على جميع ما ذكر في الحديث، لأنها مطبوعة على تمني جميع الشهوات، حلالاً كانت أو حراماً، لكن لا يضرّ ذلك إذا زجرها صاحبها، ولم يوافقها على ذلك، ودخل تحت متضمن قوله تعالى ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

فإن لم ينهها، ولم يقع ما طلبته منه بحكم الوفاق، لم يكن من أحد القسمين، ولم يكن ممن ينطلق عليه اسم (زان) لأنه لم يقع الفعل بالفرج الذي هو يصدقه، ولم يكن أيضاً ممن زجر النفس عن الهوى فتكون الجنة له مأوى. وكذلك كل ما حدثت به النفس من غير ذلك إنما هو من الخاسرين. وإن هو لم ينهها ولم يفعل بحكم الوفاق كان من المذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وكذلك يتعدى الحكم إلى ما هو الشخص فيه مؤاخذ بعقد النية الذي هو من الأمور القلبية، إذا وافقها على ما سولت له عقد نيته على ذلك كان من الخاسرين، وإن نهاها عن ذلك كان من

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط عن البراء رضي الله عنه بلفظ: الربا اثنان وسبعون باباً، أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عِرض أخيه.

(٢) سورة النازعات، ٤٠ ـ ٤١.

المفلحين، التقسيم بعينه. مثال ذلك الحسد المنهي عنه شرعاً، إذا دعته النفس إليه جرى فيه ذلك التقسيم، وكذلك ما أشبهه مما هو مختص بالقلب ليس إلا، فتكون النية وعقدها هي التي تصدق ذلك أو تكذبه.

وفيه دليل لطريق أهل الصوفة الذين يرون مخالفة النفس وحديثها جملة واحدة. يؤخذ ذلك من نصه ﷺ في الحديث أن مِن وضعِها الذي طبعت عليه أنها تتمنى ذلك الحرام وتشتهيه. فمَن هذه صفتها وجبت مخالفتها عقلاً وديناً، فإنها تفضي بصاحبها إلى الهلاك، وقد قيل: نفسك وإن صلَحت لا تأمنها، فإن الشر يلمع في جبهتها.

ويترتب على فهم الحديث بشرحه فائدتان: (إحداهما) أن تجتهد في أفعال الخير، لعلَّه يدفع عنك بها من الشر ما لا تعلمه، وقد كتب عليك، فتكون ممن وقاه معروفه مصارع السوء. (والأخرى) دوام الخوف، وإن كنت على أرفع الأحوال، أو على أي حالة كنت، خوفاً أن يكون قد سبق عليك في الكتاب الختم بما لا تطيقه وأنت لا تعلم. ومن أجل هذه الإشارة قال جلّ جلاله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1].

جعلنا الله ممن يخشاه، وكانت خشيته سبباً إلى سعادته، بمنّه وفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة فاطر، من الآية ٢٨.

ــ ٢٥٦ ــ
حديث النهي عن أن يقام الرجل من مجلسه

عَنِ ابنِ عُمَرَ، رَضي الله عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهى عَن أن يُقامَ الرَّجُلُ مِن مَجلِسِهِ ويَجلِسَ فيهِ آخَرُ، وَلكِن تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) النهي عن أن يقام الرجل من مجلسه الذي جلس فيه، ويجلس فيه غيره. (والثاني) الأمر بالتفسح فيما بين المجالس والتوسع إذا دُخِل عليهم. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا على عمومه في كل مجلس، أو هو على الخصوص في مجالس مخصوصة؟ وهل هذا أيضاً عام في كل الرجال، أو لا؟ ومنها: هل هذا تعبد أو لحكمة؟ فإن كان لحكمة فما هي؟ وهل النهي عن ذلك على الكراهة أو التحريم؟

أما قولنا: هل ذلك عام في كل المجالس، أو هو في مجالس مخصوصة؟ صيغة اللفظ تعطي العموم، وقواعد الشرع تخصصه، لأنه قد تقرر من الشرع أنه من جلس فيما ليس له ملك، ولا له فيه سبب يوجِب ذلك، أنه يُقام ويُخرَج، ولا يُنَزَّل منزلةَ من له ذلك، أو أُذِن فيه مَنْ له الإذن في ذلك. فما بقي أن يكون ذلك إلا خاصاً في المواضع المباح للناس دخولها، أو الجلوس فيها، إما على العموم للناس كلهم مثل المساجد ومجالس الحكام والعلم الذي هو لله أو ما يشبه ذلك، أو على الخصوص مثل من يدعو قوماً مخصوصين إلى منزله في وليمة أو غيرها مما أجازته الشريعة. فهذه المجالس من جلس فيها مجلساً فلا يقام منه ويجلس فيه غيره.

وأما قولنا: هل هذا عام في كل الرجال أوْ لا؟ فظاهر اللفظ العموم، وما تقرر من الشريعة أيضاً يخصصه؟ مثل إزالة المجانين من المساجد، لقوله ﷺ (جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم)[١]، ومثل آكل الثوم النِّيءِ والأجذم، فهؤلاء يُقامون ويُخرَجون من المساجد إذا تأذى بهم الجلاس.

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وكذلك كل من يكون فيه إذاية[1] للجلاس، فإنه يخرج لقوله ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)[2] ويشترط أن يكون ذلك الضرر مما يراه الشارع، صلوات الله عليه، ضرراً لا بحظٍ نفساني ولا بحظٍ دنيوي. وكذلك يقام السفهاء من مجالس الحكام والعلم. وأعني بالسفهاء الذين يسفهون بالألسنة حتى يخرجوا لما ينافي مجلس العلم والحكم وما يشبه هذا.

وأما قولنا: هل هو تعبد أو لحكمة؟ فإن كان تعبداً فلا تعليل ولا توجيه. وإن كان لحكمة ـ وهو الظاهر ـ فما هي؟ فنقول، والله الموفق للصواب: إن الحكمة فيه ظاهرة من وجهين: **(أحدهما)** منع تكبر بعضنا على بعض، لأن إزالة هذا من مجلسه وإجلاس غيره فيه استنقاص بالقائم، واستصغار له، وترفيع للجالس في مجلسه، وتكبر منه، وقد قال ﷺ (إنه أوحِي إليَّ أنْ لا يَفخرْ بعضُكم على بعض، ولا يتكبرْ بعضُكم على بعض) أو كما قال عليه السلام. وهو أيضاً مما يوجب الضغائن في الصدور والأحقاد، وقد نهينا عن ذلك، وما هو السبب إلى شيء فهو مثله. **(والوجه الآخر)** أن المباح كله: الناس كلهم فيه على حدٍّ سواء، الرفيع والوضيع. فمن سَبَق إلى شيء منه فقد استحقه، ومن استحق شيئاً من الأشياء بوجه شرعي فإذا أُخِذ منه بغير وجه شرعي فقد غُصِبه، والغصب حرام بدليل الإجماع. فلما جلس هذا مجلسه من تلك المجالس المتقدم ذكرها فقد استوجبه بوجه شرعي، فلا يُقام منه لأنه هو المستحق له.

وأما قولنا: هل النهي على التحريم أو على الكراهية؟ فعلى التوجيه الأول يكون على الكراهية، وعلى التوجيه الآخر يكون على التحريم ـ وهو الظاهر ـ لأنه يمكن الجمع بين التعليلين، فإذا كان الجمع بين التعليلين ممكناً اندرجت الصغرى التي هي النهي، في الكبرى التي هي التحريم.

وبقي هنا بحث وهو: أنه إن فعل الجالس ذلك من تلقاء نفسه هل يدخله شيء من النهي، أو ليس؟ أما إن كان سالماً من الشوائب فالظاهر أنه ليس فيه كراهية، وإن دخله شيء من الشوائب مثل أن يفعله لخوف، أو بإشارة تهديد، أو ما في معنى ذلك، فيكون مثل أصحاب السبت لَمّا نُهوا عن الصيد فيه، عمِلوا الحيلة للصيد في يوم السَّبت، وصادوا يوم الأحد، فكان من أمرهم ما أخبر الله، عزّ وجلّ، عنهم في كتابه، فكان حقيقة صيدهم يوم السبت، لأنْ بتلك الحيلة أمكنهم أخذ الصيد يوم الأحد، وما لا يوصل إلى شيء إلا به فهو منه، وإن اختلف نوعهما.

وقد ذكر لي عن بعض أهل الفضل بجزيرة الأندلس، وكان ممن فتح عليه في دنياه، أنه دعي

---

(١) يريد: أذيّة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن ماجه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

إلى عقد نكاح، فلما دخل المنزل لم يجد فيه أين يقعد؟ فبقي واقفاً خجلاناً[1]، ولحقه الدَّهَش، لأن المجلس كان حَفِلاً، وكان ممن كان قاعداً في المجلس شخص كان للداخل عليه دَين مائة دينار، فقام الذي كان عليه الدَّيْن من مجلسه وأجلس فيه ذلك السيد، فلما انفض المجلس وجَّه ذلك السيد، الذي كان دخل آخر الناس ولحقه الدَهَش، لذلك الشخص الذي كان قام له من مجلسه وأجلسه فيه، وأحَلَّه الذي كان له عليه من المائة دينار، وأشهد على نفسه بتبرئته منها مكافأة له على زوال خجلته في ذلك المجلس.

تنبيه: في الحكاية إشارة إلى أنّ من تأخر عما دعي إليه يلحقه الخجل. فاحذر مما يخجلك يوم الوفد ولا محيص.

وقوله ﷺ (ولكن تفسحوا وتوسعوا) هل هما لفظان مترادفان لمعنى واحد، أو لكل لفظ معنى؟ احتمل الوجهين معاً، لكن الأولى أن يحمل كل واحد منهما على معنى، فإن ذلك أكبر فائدة، فيكون معنى (تفسحوا) أي يوسعوا فيما بينهم[2] للداخل أن يقعد ويكون معنى (توسعوا) أي توسعوا عنه بأن ينضم بعضكم إلى بعض، حتى يبقى له في المجلس أين يقعد[3]، فإن السنة أن الداخل يجلس حيث انتهى به المجلس. فلما لم يبق لهذا الداخل من المجلس أين يجلس[3] أمرنا بأن ينضم بعضنا إلى بعض فيتوسع بذلك المجلس، فيبقى في آخره لهذا الداخل أين يجلس[3].

فيكون ﷺ قد خيّر أهل المجلس أن يفعلوا مع الداخل أحد هذين الوجهين، أيهما فعلوا فقد أصابوا السنة، لكن بشرط أن يكون المجلس يحمل هذا بلا ضرر على الجلاس، لأنه قد قال ﷺ (لا ضرر ولا ضرار). مثال ذلك أن يدخل شخص والمجلس قد غصّ بأهله، فيفسحوا له ويوسعوا، ثم ثان كذلك ثم ثالث كذلك، ثم رابع. فإذا لم يطيقوا لكثرتهم وضاق المجلس أن يفسحوا أو يوسعوا ويكون عليهم ضرر في ذلك، فلا يلزمهم من ذلك شيء، لكن من حسن المعاملة أن يعتذر له حتى ينصرف، وهو طيب النفس لقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[4].

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) كذا بالتنوين. وهو لغة لبعض العرب.
(٢) كذا بضمير الغائب خلافاً لبعض الحديث ولما يلي.
(٣) أي: مكان يقعد فيه.
(٤) سورة فُصّلَت، من الآية ٣٤.

— ٢٥٧ —

حديث بيان كفارة من حلف بغير الله تعالى وكفارة من طلب المقامرة

عَن أبي هُريرَةَ، رَضيَ الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَن حَلفَ مِنكُم فَقالَ في حَلِفِهِ باللاَّتِ والعُزَّى فَلْيقُل: لاَ إلَه إلاَّ الله. وَمَن قَالَ لِصاحِبِهِ: تَعالَ أُقامِرْكَ فَلْيَتصَّدق.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) أمره ﷺ أن من قال في حلفه باللات والعزى أن تكفير ذلك أن يقول: لا إله إلا الله، (والثاني) أن من قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق، فذلك كفارته. والكلام عليه من وجوه:

منها: هل أمره، عليه السلام، لمن حلف باللاَّت والعزى أن يقول: لا إله إلا الله، هل هذا خاص بهذه اللفظة، أو عام في كل من حَلَف بصنم من الأصنام، أو شيء من الطواغيت، وما في معناها؟ وكذلك لمن قال لصاحبه: تعال أقامرك، هل الأمر بالصدقة لقائل هذا اللفظ ليس إلا، أو هذا هو الحكم في كل ما هو في معنى هذا وطريقه؟ وهل هذا تعبد، أو لحكمة في ذلك معقولة المعنى؟ وهل الأمر بهذين الأمرين عام فيمن قالها معتقداً أو غضباناً[1] أو خطأً على حدٍّ سواء، أو بينهما فرق؟

أما قولنا: هل هذا خاص بمن ذكر في يمينه اللات والعزى، أو هو عام في كل من حلف بشيء من الطواغيت أو ما هو في معناها؟ ظاهر اللفظ يقتضي أنه خاص به، وما يفهم من معناه. وما جاء عنه، عليه السلام، في غير هذا الحديث يقتضي تعدي الحكم إلى أنه من كان حلفه بشيء من الطواغيت أو الأصنام التي تُعبَد من دون الله أو ما في معنى ذلك أن يقول صاحب هذا القول: لا إله

---

(١) كذا بالتنوين. وهي لغة لبعض العرب.

إلا الله، فإن ذلك كفارة لما قال؛ لأنه من جهة المعنى قد تلفّظ بما يشبه الرِّدة، فإن الحالف بشيء هو معظّم له.

فهذا قد عظم شيئاً سوى الله، على نحو ما يفعله الكفار بالله تعالى فينبغي له أن يُظهر إبطالَ ما قاله، ويحتقر ما عظّم، بأن يعلن بقول: لا إلّه إلا الله. فكأن إعلانه بها رجوع إلى الإسلام، وتوبة من ذلك الخلل الذي ظهر منه وما في معناه كذلك ينبغي الحكم فيه، وقد جاء ذلك نصاً عنه ﷺ وهو قوله ﷺ (من قال: هو يهودي أو نصراني، فليقل لا إلّه إلا الله) أو كما قال عليه السلام. وكذلك يلزم في كل من قال عن نفسه إنه على غير دين الإسلام، الحكم كالحكم سواء، مثل أن يقول: هو مجوسي أو غير ذلك مما يشبهه، لأنها ردة في الظاهر، فينبغي الرجوع عنها بإظهار كلمة الإخلاص.

وكذلك البحث على قولنا: هل أمره بالصدقة خاص بمن قال لصاحبه: تعال أقامرك؟ فأما ظاهر اللفظ فيقتضي أن هذا حكم هذا القائل. وإن نظرنا إلى المعنى عدّينا الحكم حيث وجدنا العلة، لأن قول الشخص لصاحبه: تعال أقامرك، أي نأكل أموالنا بيننا بالباطل على وجه حرام. فحيثما وجدنا هذه العلة عدَّينا الحكم على المعروف من عادة الفقهاء في ذلك.

وبقي بحث وهو: هل هذا الأمر بالصدقة هنا على طريق الندب أو على طريق الوجوب؟ أما على مذهب مالك ومن تبعه فإن الصدقة هنا على طريق الندب، لأن قاعدة مذهبه أن كل أمرٍ أُمِر به لم يكن محدوداً بالكتاب والسنة فإنه من باب الندب، مثل الأمر بالمتعة لما أَمَر بها مولانا سبحانه في كتابه ولم يحدَّها، ولا وُجِد في سنة نبيه ﷺ لها حدّ، حملها مالك ومَن تَبِعه على الندب. وكذلك كل ما أُمِر به ولم يُحَدَّ فيه شيء، مثل هذه الصدقة وما في معناها. ومذهب الشافعي ومن تبعه في ذلك حمله على الوجوب على قاعدة مذهبهم، وكذلك قالوا في المتعة إنها على الوجوب، ويجزىء فيها أقل الأشياء، لأن ذلك قاعدة مذهبهم.

وأما قولنا: هل الأمر عام فيمن قالها متعمداً أو حَرِجاً أو غالطاً فاللفظ يقتضي العموم، لكنّ بينهم فرقاً. أما من قالها متعمداً معتقداً لذلك فيجب عليه أن يدخل في الإسلام لخروجه منه بما جرى، ويجدّدَ التوبة من ذلك على ما قد بيّنا من حدود التوبة قبل في غير ما حديث. فإن كان غضباناً أو غالطاً فينبغي له قول ما أُمر به أو فعله. هذا هو الظاهر، ولا ينبغي تخصيص لفظ الحديث بغير مخصص.

وفيه دليل على الأخذ بسد الذريعة في غلق باب الشيء بالجملة الكافية حتى لا يقع من المؤمن شيء ينافي الإيمان والإسلام، لا بقول ولا بفعل، ولا يسامح في ذلك بشيء. ومما يؤيد

هذا قوله ﷺ (لا تتشبهوا بأهل الكتاب)[1] وقوله عليه السلام: (ثلاثة يبغضهم الله، وعدَّ فيهم من استَنّ في الإسلام بسنَّة الجاهلية)[2] أو كما قال عليه السلام: وقوله عليه السلام (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الشرِّ لا يبالي بها، يهوي بها في النار سبعين خريفاً)[3]. والأثر في ذلك كثير ومجموع ذلك يدل على حفظ المؤمن نفسه مما يخالف دينه، وقع ذلك منه جداً أو هزلاً.

وفي هذا دليل لأهل السلوك لأنهم منعوا أنفسهم من الأخذ في المباح، وجعلوا ذلك حماية بينهم وبين المكروه، فَدَتْهُم النفوسُ ما أَعْرَفَهُمْ بها وأَكْثَرَ اهتِمامَهُمْ بالدين وطرق النجاة. وقد قيل: نفسَك فَرُضْها وعلى الخير فاحْمِلْها، ولا تغفل عن سياستها، فالغَدْر من شأنها.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الترمذي وضعفه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبّهوا باليهود ولا بالنصارى، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف.

(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: ثلاث من عمل الجاهلية لا يتركها الناس أبداً، الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستمطار بالنّجوم.

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار.

ـ ٢٥٨ ـ

حديث سيد الاستغفار

عَن شَدَّادِ بنِ أَوسٍ[١]، رَضيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: سَيِّدُ الاستغفارِ أن تَقولَ: اللَّهُمَّ أنتَ رَبِّي، لا إلَه إلاَّ أنت. خَلَقتَني وَأَنا عَبدُكَ، وأَنا عَلى عَهدِكَ وَوَعدِكَ ما استَطعتُ. أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ ما صَنَعتُ. أَبوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ عَليَّ، وَأَبوءُ بِذَنبي، فاغفِر لي، فَإِنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلاَّ أنتَ.

* * *

ظاهر الحديث إخباره ﷺ أن هذه الألفاظ المذكورة في هذا الحديث هي أعلى أنواع طرق الاستغفار وأقربها إلى الله عزّ وجلّ. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يُقال هل جعله ﷺ هذه الألفاظ سيّدة الاستغفار تعبُّدٌ لا يُعقل له معنى، أو هل تفهم الحكمة في ذلك؟ وهل إن[٢] سُبِكَ معناه في ألفاظ أُخَرَ بزيادة أو نقص، والمعنى باق على حاله، هل تبقى له تلك الرفعة والمنزلة أم لا؟ وهل المستغفر بهذه الألفاظ يكون استغفاره أرفع ممن استغفر بألفاظ غير هذه، وكانت نيته أرفع من نية صاحب هذه الألفاظ، أم لا؟ وكذلك في الأوقات أيضاً هل فضيلة الأوقات في الاستغفار تفضل هذه، أو هذه تفضلها؟

أما قولنا: هل هذا تعبّد أو لحكمةٍ تفهم منه؟ فالجواب: أنه لحكمة. ألا ترى حُسْنَ ألفاظه، وما جمعت من بديع معاني الإيمان؟ فإنه جمع فيه بين الإقرار لله بالألوهية وحده، والاعتراف له، عزّ وجلّ، بأنه خالقه، واعترف على نفسه بالعبودية لله عزّ وجلّ، واعترف بالعهد الذي أُخِذ عليه، والرجاء فيما وعده مولاه، والإشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة بقوله (وأنا على عهدك

---

(١) شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري، أبو يعلى: صحابي، من الأمراء. ولاّه عمر إمارة حمص، ولما قتل عثمان اعتزل، وعكف على العبادة. كان فصيحاً حليماً حكيماً. قال أبو الدرداء: لكل أمة فقيه، وفقيه هذه الأمة شداد بن أوس. توفي في القدس سنة ٥٨هـ/ ٦٧٧م. وله في كتب الحديث ٥٠ حديثاً (الأعلام ٣/ ٢٣٢).

(٢) كذا بإدخال (هل) على (إن) والصواب: أو إن.

ووعدك ما استطعت) فإن الحكمة ـ وهي الشريعة، وما كلفتنا من التكاليف ـ إنما تحصل إذا كان في ذلك للعبد العون بقدرة من القادر الذي تعبدنا، وهي التي يكنى عنها بالحقيقة.

فإذا أراد القادر الحكيم ضد ذلك ـ وهي ما قدر على العبد من القدر الحتم ـ لم ينفعه في ذلك أثر الحكمة، وغلبت الحقيقة على العبد في نفسه حتى يجري عليه ما قدر عليه، وقامت الحجة عليه بمقتضى الحكمة والعدل ـ التي هي الشريعة ـ ولم يبقَ له شيء يدفع به عن نفسه إلا إما عقاب بمقتضى العدل وظهور الحجة، وإما عفو بمجرد الفضل من الله والرحمة. وهذه أرفع الطرق كما تقدم الكلامُ على ذلك في غير ما موضع من الكتاب، وتبيين ذلك بالكتاب والسنة.

ثم استعاذته لمولاه الجليل من شرّ ما جنى على نفسه، وإضافة ذنبه إلى نفسه، ورغبته في مغفرة ذنبه، والإقرار أنه ليس يقدر أحد على مغفرة الذنوب إلا الله سبحانه. فيحق أن يطلق عليه سيد الاستغفار، لأن صيغة الاستغفار المعلوم لغة وعادة هو (أستغفر الله). فانظر بكم وجه يفضل هذا الاستغفار المشار إليه هذه الصيغة المعروفة لغةً وعادةً، تبينْ لك حقيقة الحكمة في ذلك عياناً.

وأما قولنا: إذا سُبِك ذلك المعنى بألفاظ غير هذه، ولا ينقص من المعنى شيء، هل تبقى حقيقة هذا الاسم أم لا؟ فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن المعاني التي أخذت من ألفاظ الشارع ﷺ أنها إذا أزيلت تلك الألفاظ المباركة عن تلك المعاني أن ذلك الخير لا يوجد له مِثل، لأن الله، عزّ وجلّ، قد جعل الخير فيه ﷺ، وعلى يديه الكريمتين، وفي لفظه وإشارته، وكل ما يكون عنه أو به، لا يخلفه في ذلك غيره ﷺ.

أما ترى إلى اختلاف العلماء في نقل كلامه عليه السلام، هل ينقل بالمعنى بشرط ألا يخل فيه بشيء أو لا ينقل إلا بالفاء والواو كما ينقل القرآن؟ وعلى هذا هم جمهور العلماء، لأنه كله عن الله، وما بينهما إلا أن الكتاب بالوحي بواسطة المَلَك، وهذا عن الله بطريق الإلهام والإرشاد قال عزّ وجلّ في حقه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[1] فكيف فيما جعلت فيه فضيلة؟ فإنما حصلت تلك الفضيلة لمجموع الأمرين، وهما: حسن المعنى وبركة لفظه عليه السلام. فإنه كذلك شأنها الحكمة والقدرة الربانية. لا تبديل لحكم الله. وهذا جارٍ في هذا الحديث، وفي كل ما جاء عنه، عليه السلام، بلفظ مخصوص، فلا يبدل ذلك اللفظ بغيره أصلاً.

وأما قولنا: هل يكون المستغفر بهذا الاستغفار، ونيته ليست بتلك الجودة، سيداً على من استغفر بغير هذا الاستغفار، ونيته صالحة مباركة على ما أريد منه من الحضور والأدب؟ فاعلم ـ

---

(١) سورة النجم، من الآية ٣.

وفقنا الله وإياك ـ أن حسن النية في الأعمال لا يكون شيء خيراً منها، لقوله عليه السلام: (إنما الأعمال بالنيات)[1]، ولقوله عليه السلام: (أوقع الله أجره على قدر نيته)[2].

وإنما قال سيّدنا ﷺ إن هذا سيد الاستغفار في الذين تساوت نياتهم وأحوالهم. فإذا تساوت النيات والأحوال ففي كل نوع منها: الذي يستغفر بهذا الاستغفار فاستغفاره سيد نوعه، وكذلك جميع التعبدات من فرض ونفل وغيره، من التفضيل في كل نوع منه بوجهين: إما بما وضع له من حدّه، وإما بحسب نيات الفاعلين له وأحوالهم، وبحسب اختلافهم في ذلك.

ومن أجل ذلك قال ﷺ في الصلاة المفروضة التي هي في الدين بمنزلة الرأس من الجسد[3] (إنه يكتب له نصفها ثلثها ربعها عُشرها)[4] وفي لفظ آخر (ومنهم من تُطوَى كالثوب الخَلَق، ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول له: ضيعتَني، ضيعك الله)[5] أو كما قال عليه السلام. فدخل المسكين في الصلاة لأن يأتي[6] بخير العبادات، فانعكس عليه الأمر من أجل سوء حاله. أَنَّى هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[7].

وأما قولنا: هل المستغفر بهذا الاستغفار يفضل الذي يستغفر بغيره في الأزمنة المرغب في الاستغفار فيها أم لا؟ (فالجواب) على هذا كالجواب على النية وحسنها، لأن تلك الفضيلة التي جعلت في الزمان لا تقاس بفضيلة الألفاظ والنيات. وإنما هذا سيد الاستغفار إذا تساوت المراتب من كل الوجوه.

وإلا إذا[8] كان هذا قد استغفر بغير هذا الاستغفار في الأسحار مثلاً فقد حصل له فضيلة السحر في استغفاره، لقول مولانا جلّ جلاله ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[9]، واستغفر شخص

---

(١) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن عن عمر رضي الله عنه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه الإمام مالك في الجنائز ٣٦، والنسائي في الجنائز ١٤، والإمام أحمد ٥/٤٤٦.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد.

(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما بلفظ: إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، ربعها، ثلثها، نصفها.

(٥) أخرجه أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بلفظ: إذا أحسن الرجل الصلاة فأتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة: حفظك الله كما حفظتني فترفع، وإذا أساء الصلاة فلم يتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة: ضيعك الله كما ضيّعتني، فتلفّ كما يلف الثوب الخَلَق، فيضرب بها وجهه.

(٦) كذا بإظهار (أن) المضمرة.

(٧) سورة آل عمران، من الآية ١٦٥.

(٨) كذا والصواب: فإذا.

(٩) سورة الذاريات، من الآية ١٨.

آخر بهذا الاستغفار بالنهار حصل له سيّد استغفار بالنهار بمثل حاله، وليس للعقل طريق أن يحكم أيهما أفضل عند الله تعالى: هل الذي استغفر في السحرَ بغير هذا، أو هذا الذي استغفر في النهار بهذا الاستغفار؟ لأن هذه التحديدات لا تؤخذ بالعقل ولا بالقياس، وإنما طريقها ما يُلقى في ذلك من الشارع ﷺ. وهذا لم يأتِ عن الشارع ﷺ فيه شيء، فيُرَدُّ الأمر فيه إلى الله لا غير.

ويترتب على النظر في هذا الحديث وأشباهه أن الحكمة الربانية كما اقتضت التفضيل بين العباد وجميع الحيوان وكذلك سائر المخلوقات، على ما هو متلقى من طريق الرسل، عليهم السلام، وأخبارهم، فكذلك اقتضت الفضيلةَ بين أنواع العبادات، وتضعيفَ الأجور في ذلك من (وجوه سبعة). فمنها بنوعها، ومنها بحسن المعاني بين النوع الواحد في أنواعه أيضاً، ومنها من طريق الألفاظ، ومنها من جهة الأماكن، ومنها من جهة الأزمنة، ومنها من جهة النيات والمقاصد، ومنها من جهة الأحوال والشيم.

وقال، عزّ وجلّ، في كتابه، حضاً على طلب الأعلى فالأعلى من هذه تنبيهاً للمكلف عليها، وحضاً له على طلبها وتحصيلها ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[1]. وحضت السنّة على ذلك بتبيين فضيلة كل قسم منها وتعيينه وبما للعامل في ذلك بأتم بيان، ثم أكّد، عليه السلام، ذلك بلفظ مجمل، وهو قوله ﷺ (كفى بالعبادة شغلاً)[2]، لأنه من جعل همته أن يأخذ الأعلى فالأعلى، من تلك السبعة وجوه، لا يسعه مع ذلك شغل غيره، لأنه ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

وفيما نبهنا عليه حجة لأهل السلوك على طريق السنّة والسنن، لأنهم بهذا عمروا أوقاتهم، وبالبحث عليه والاهتمام به شغلوا أنفسهم، حتى إن بعضهم سئل عن الصباح والمساء فقال: لا أعرفهما، فَسَلْ عنهما غيري، لأنه رأى الأخذ في هذا من قبيل اللغو وشَغْل الوقت بما لا يُغني.

منَّ الله علينا بما به مَنّ عليهم بكرمه وفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الإسراء، من الآية ٥٧.

(٢) أخرجه الشيخان عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: إن في الصلاة لشغلاً.

ـ ٢٥٩ ـ

حديث بيان خوف المؤمن من ذنوبه وعدم اهتمام الفاجر بها

عَن عَبدِ الله بنِ مَسعودٍ، رَضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: إنَّ المُؤمِنَ يرى ذُنوبَهُ كأنَّهُ قاعِدٌ تَحتَ جَبلٍ يَخافُ أن يَقَعَ عليه، وَإنَّ الفاجِرَ يَرى ذُنوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ على أنفِهِ فَقالَ بهِ هَكَذا. قالَ أبو شهابٍ: بِيَدِهِ فَوقَ أنفِهِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) إخباره ﷺ بحال المؤمن وكِبَر ذنوبه في عينه حتى يراها مثلَ جبل واقع عليه. (والآخر) إخباره ﷺ بحال الفاجر، واحتقاره لذنوبه حتى يراها كذباب مرّ على أنفه. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن فيه دليلاً لأهل السنّة لأنهم لا يكفرون أحداً من أهل الإيمان بذنب، وردّاً على القَدَرية الذين يكفرون بالذنوب. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (إن المؤمن يرى ذنوبه). فسمّى هذا المذنب باسم الإيمان، ولم يخرجه بذنوبه من دائرة الإيمان.

وفيه دليل على أن (الفجور) هو أمر قلبيّ مثل الإيمان، لأنه أمر قلبيّ أيضاً. يؤخذ ذلك من أنه ﷺ وصفه بالذنوب كما وصف المؤمن بالذنوب، فجاءت التفرقة بين المؤمن والفاجر بأمر قلبيّ، وبيان ذلك من جهة النظر والعقل أنه لما كان قلب المؤمن منوَّراً بالإيمان، ورأى من نفسه ما يخالف ما تنوّر به قلبه ـ وهو الإيمان ـ عظم الأمر عليه، لأنه لا شيء أثقل على الأشياء من ضدها عقلاً ونقلاً. قال تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1] من أجل النسبة التي بينهم خفّت عليهم.

وكذلك أهل التوفيق خفّت عليهم الطاعات حتى صاروا يتنعمون بها، ويجدون لها حلاوة، حتى إنه روي عن جماعة أهل هذا الشأن أنهم يحسّون بالحلاوة تنسكب على قلوبهم عند استغراقهم في الطاعات، مثلما يجدون حلاوة الشهد على قلوبهم في حين شربهم له، بل أعظم وأرقّ وأحلى.

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٤٥.

هذا موجود خلفاً عن سلَف، إلى هَلُمّ جَرّاً. ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ في الصلاة: (أرحنا بها يا بلال)[١]، وقوله ﷺ: (وجُعِلَت قُرّةُ عيني في الصلاة)[٢] لِما كان يجد فيها. فإنه ﷺ القدوةُ في كل خير حالاً ومقالاً.

ولما كان قلب الفاجر مظلماً، لما فيه من الفجور وضعف الإيمان، خفت عليه ذنوبه من أجل النسبة التي هناك. ولذلك قد كثر في زماننا هذا إذا جئت تعظ بعض من قد ظهرت عليه علامات الفجور في ذنب وقع فيه، فيكون جوابه: هذا قريب. اشتهينا ألاّ يكون إلا هذا، فهذا قريب. وعدم الاكتراث بذنبه ظاهر عليه. أعاذنا الله من ذلك بمنّه.

ويترتب على هذا الحديث أن الدليل على فجور الشخص قلة حزنه على ذنوبه، وتهوينها عليه وخفتها، وأن الدليل على إيمانه حزنه على ذنوبه وخوفه منها - وإن قَلّت - وبقدر قوة إيمانه تكون شدة حزنه وخوفه. يؤيد ذلك قوله ﷺ (ما أصبح المؤمن فيها - يعني دارَ الدنيا - إلاّ حزيناً، ولا أمسى إلاّ حزيناً) أو كما قال عليه السلام، لأنه من ذا الذي لم يقع منه قَطّ مخالفة ولو صغيرة؟ إنما ذلك مقام الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين، ومن مَنَّ الله عليهم من الصّدّيقين، وهم قليل.

فجاء إخباره ﷺ عن الغالب، وعليه أثبتت الشريعة غالباً. وقد يكون على عمومه، فيكون حزن الرسل والصّدّيقين من أجل الغير لما يَرَوْن منهم ما اقتحموا بأنفسهم من المهالك، لكثرة ما أودع الله تعالى في قلوبهم من الشفقة والرحمة، كما قال مولانا، جلّ جلاله، لسيّدنا ﷺ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[٣] فالعاقل يقيم هذا الميزان على نفسه، حتى يتبين له من أي الفريقين هو ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٤].

ومما في معناه ما يذكر عن بعض قضاة الخير ممن تقدم أنه كان له شاهدان عدلان، وكان الذي له الإمرة في وقته ظالماً، فجبر ذلك الظالم ذينك الشاهدين أن يأكلا على مائدته، فأسقط القاضي شهادة أحدهما، وأبقى الآخر على عدالته. فقال له الذي أسقطه: لِمَ أسقطتَ شهادتي؟ فقال له القاضي: لأنك أكلت من مائدة الظالم. فقال له: وإن صاحبي أكل معي عليها. فقال له: إن

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن سالم بن أبي الجعد رضي الله عنه ولفظه: أقم الصلاة يا بلال، أرحنا بها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس رضي الله عنه ولفظه: حُبّب إليّ من دنياكم النساء والطّيب وجعلت قرة عيني في الصلاة.

(٣) سورة فاطر، من الآية ٨.

(٤) سورة الإسراء، من الآية ١٤.

صاحبك أكل وهو يبكي، وأنت أكلتَ وأنت تضحك. فلحظ القاضي هذا المعنى الذي أشرنا إليه. فدل تهاون الذي كان يضحك بما وقع فيه على فجوره، وكان سبباً إلى تجريحه.

وهنا بحث وهو أن يقال في الجواب: لِمَ مثَّل، عليه السلام، خوف المؤمن من ذنوبه بالجبل يقع عليه؟ وما الحكمة في ذلك، ولم يكن بغيره؟

والجواب: أن غير ذلك من المهلكات، مثل الغرق أو الحرق أو القتل أو غير ذلك، فقد يتسبب بعض الناس فيما يحلّ بهم من ذلك، وقد ينجو منه بلطف من الله تعالى، وقد وقع من ذلك ما رُئي عِياناً. فإنه حكي عن بعض من لحقهم الغرق أنهم نجَوا أو نجا منه بعضهم، وكذلك في الحرق والهدم، وكذلك في القتل، وجد في بعضهم من فيه النَّفَس، فعولج زماناً حتى برىء. وهذه الأشياء أعظم المهلكات بعد هذا الجبل، ولولا التطويل لذكرنا منها حكايات جملة، ووقوع الجبل ليس معه حياة أصلاً، فالهلاك في ذلك مقطوع به.

فلذلك مَثَّل به ﷺ، لأن المؤمن إذا وجد من نفسه ما يخالف الإيمان خاف على نفسه أشدّ الأشياء، وهو النفاق: الذي الهلاك معه مقطوع به لمن مات عليه، وخاف من قول الله عزّ وجلّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[1] فحزنوا من أجل كبر هذا المقت، لأن ما كبَّره الله سبحانه فهو أمرٌ عظيم لا يحمله أهل الإيمان ويصعقون منه. ولذلك لما علم مولانا سبحانه خوفَهم من ذلك طمَّعهم ورجّاهم بقوله تعالى ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2] ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3].

وهنا بحث آخر وهو أن يقال: لِمَ شبَّه ذنوبَ الفاجر بالذباب؟ وما الحكمة في ذلك؟ ولِمَ لَمْ يكن مَثَّلَ بالذَّر، أو ما هو في شبهه مثل الحشرات وغير ذلك؟

والجواب عنه: أنه لما كان الذباب أخفَّ الطير، وأقلَّه ضرَراً، وهو مما يُعايَن ويَندفِع بأقلّ الأشياء، وإن عَضَّ فليس لعضته ضرر، بخلاف الذَّر الذي هو أقل الحشرات، لأن التحفظ منه عسير، وفيه شدّة، وانفصاله بطيء، وإذا عض فلعضته حرارة، وفيها إذاية[4] في الأموال، حتى إذا كثر يكون بسبب ضرره جائحة كثيرة، وليس ذلك في الذباب، فلذلك مثّل ﷺ به.

---

(١) سورة الصف، الآيتان ٢ و ٣.
(٢) سورة الزمر، من الآية ٥٣.
(٣) سورة الملك، من الآية ١٤.
(٤) يريد: أذية.

وفي تمثيله، عليه السلام، بالأنف من بين سائر الجوارح وإشارته، عليه السلام، بيده لدفع الذباب عنه وجهان من الفقه: (أحدهما) المبالغة في تخفيف ذنوبه عليه، لأن الأنف قلّ ما ينزل الذباب عليه، وإنما يقصد في الغالب العينين، وإزالته بيده تأكيد في الخفة أيضاً حتى لا يلحقه منه شيء من الضّرر. (والوجه الآخر) أن يستعمل في التمثيل ما هو أقوى، لأن إشارته، عليه السلام، هنا بيده أقوى من القول، فكنى بالإشارة عن الكلام لقوتها في الوضع.

وفي هذا دليل على ما أُعطِي ﷺ من كثرة معرفته بالأشياء، وإدراكه ذلك على البديهة متى شاء، فإن كان آدم، عليه السلام، عُلِّم الأسماءَ كلَّها فقد وُهِب سيِّدُنا ﷺ معرفة الأشياء كلها، وفائدة معرفة الأشياء أكبر من معرفة أسمائها ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾(١).

وفيه دليل على جواز ضرب المثل بكل ما هو ممكن بحسب قدرة القادر، وإن كان لا يقع، وإن وقع فيكون بخرق العادة، لا بجريانها المتعاهَد. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (كأنه قاعد تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه)، لأن هذا من جهة القدرة ممكن، وما وقع هذا إلا لبني إسرائيل حين رفع الله عليهم الجبل، وهم يخافون أن يقع عليهم، حتى امتثلوا ما أُمِروا به، فجاء بخرقِ العادة لموسى عليه السلام.

وفائدة إخباره ﷺ لنا بهذا الحديث إرشاد لنا إلى ألا نغفُلَ عن محاسبة نفوسنا، وأن نختبر العلاماتِ الدالةَ على بقاء نعمة الإيمان علينا. فإنه قد جاء في الصحيح (إن الرجل ينام النومة فتقبض الأمانةُ من قلبه، فيظل أثرُها مثلَ الوَكْت؛ ثم ينام النومةَ فيقبَضُ أثرُ الأمانة من قلبه، فيظل أثرُها مثلَ المَجْل، كجَمْرٍ دحرجتَه على رِجلك، فَنَفِطَ، فتراه منتبراً، وليس فيه شيء. ثم أخذ حصاة ودحرجها على رجله، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد منهم يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلَدَه، وما أظرَفَه، ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان)(٢) أو كما ورد. الوكت: سواد اللون. والمجل: مَجَلَت يدُه: إذا أصابها العَمَل. والنَّبر: ورم في الجسد كله.

جعلنا الله ممن أكمل نعمة الإيمان في الدارين بمنّه فإنه منان كريم، آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٥٣.

(٢) رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن حذيفة رضي الله عنه بلفظ: أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت، إلى آخر الحديث.

ـ ٢٦٠ ـ

حديث شدة فرح الله تعالى بتوبة العبد إذا تاب

عَن ابنِ مَسعودٍ، رَضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: للهُ أفرَحُ بِتَوبةِ العَبدِ مِن رَجُلٍ نَزَلَ مَنزِلاً وَبهِ مَهلَكَة، ومَعَهُ راحِلَتُهُ عَلَيها طَعامُهُ وَشَرابُهُ، فوَضَعَ رَأْسَهُ فَنامَ نَومةً، فاستَيقَظَ وَقَد ذَهَبَت راحِلتُه. حَتى إذا اشتدَّ عَلَيهِ الحرُّ وَالعَطَشُ. أو ما شاءَ الله قالَ: أرجِعُ إلى مَكاني. فَرَجَعَ فَنامَ نَومَةً، ثُمَّ رَفعَ رَأسَهُ فَإذا راحِلَتُهُ عِندَهُ.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بشدة فرح الله، عزّ وجلّ، بتوبة العبد إذا هو تابه. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى فرح الله سبحانه بتوبة العبد؟ فالجواب: أنه قد تقدم في غير ما موضع من الكتاب: أن هذه الأوصاف التي هي من صفاتِ المحدَثاتِ، مثل الفرح والحزن والحب وما أشبَهَ ذلك، أنها في حقِّ الله سبحانه وتعالى مستحيلة، وإنما معناها ما تضمنته تلك الصفة بجري العادة عندنا؛ لأنا لا نفهم ما يُراد منّا إلا بالتمثيل بما نعلمه من عاداتنا وأوصافنا، فكنى ﷺ عن كثرة إحسان الله سبحانه للتائب، وكثرةِ تجاوزه عنه، وعظيم الإفضال عليه، بقوة هذا الفرح الذي لا شيءَ عندنا ـ فيما نعلمه من عوائدنا ـ أعظمُ من هذا الفرح الذي لحق صاحبَ هذه الراحلة عند وجودها بعد ذلك الكرب العظيم الذي لحقه. والمعلوم من عوائد الملوك الكرام إذا فرحوا بشيءٍ: أنَّ صاحب ذلك الشيءِ الذي فرحوا به، يحسنون إليه الإحسان الذي يَخرِق العقول، ويرفعونه المنازلَ الرفيعةَ التي ليس فوقها منزلة. وكذلك جاء عن مولانا سبحانه في حق التائب بالنص في ذلك من الكتاب ومن السنّة في غير ما موضع. فمن الكتاب قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ

---

(١) سورة الفرقان، من الآية ٧٠.

ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] ومن السنة قول رسول الله ﷺ: (التوبةُ تَجُبُّ ما قبْلَها)[2] وقوله عليه السلام: (إذا تابَ العبدُ يُباهِي الله به الملأ الأعلى، ويُوقد له سراجٌ بين الأرض والسماء، وينادِي منادٍ من قِبَلِ الله عزّ وجلّ: إن فلانَ بنَ فلانٍ قد صالحَ مَوْلاهُ)[3] أو كما قال. والآي والأحاديث فيه كثيرة. فأجمل هنا ﷺ بهذا المثل العجيب كما جاء مفسَّراً في الكتاب والسنّة في مواضعَ عديدة ليكون أقربَ للفهم، وأحضَّ على الرغبة في التوبة، وأيسر للحفظ.

ومما يبين ما أشرنا إليه حكايةُ مَعْن[4] لأنه كان من الملوك الأول[5]، وكان قد اشتهر بكثرة الجود والكرم، فكثُرت عليه القصّاد حتى احتجب عن الناس، فأتاه أحد الأدباء فقيل له: إنه احتجبَ منذ زمان، وكان له بإزاء قصره بستان يتفرج فيه في بعض الأيام، فقال ذلك الأديب لأحد حجابه: إنْ أنتَ أخبرتَني بيوم خروجه إلى البستان لك[6] عندي جائزةٌ كذا. وبقي يواظب على البابِ حتى قال له ذلك الحاجب إنه اليوم في البستان. فكتب على خشبة:

أيا جُودَ مَعْنٍ نادِ مَعْناً بحاجتي ... فما لي إلى مَعْنٍ سواكَ شَفيعُ

وأتى خلف البستان ووضعها في ماء كان يدخل البستان. فبينما الملك قاعد على ذلك الماء، أبصَرَ الخشبة تعوم على وجه الماء، فأمَرَ بأخذها، ونظَر ما فيها. فلما أُخبِر بالكتْب الذي عليها، فرِح به فرَحاً شديداً، وسُرَّ به سروراً عظيماً، وخرج من حينه، وأمر بحضور أرباب دولته، وبحضور كاتب هذه. فلما أبصره قال له: أنت القائل هذا؟ والخشَبَةُ بين يديه، قال له: نعم. فأمر له بعطاء عظيم أَبْهَتَ الحاضرين، وجعل له منزلةً عظيمة يكثر لها الحسّاد.

فلما كان من الغد خرج وأمر بحضور أرباب دولته وبحضور ذلك الشخص، وأعطاه مثل ما أعطاه بالأمس، وكذلك في اليوم الثالث، فلما كان في اليوم الرابع خرج وأمر بإحضاره، فطلب فلم يوجد. فقال لأرباب دولته: أما إنه لو قعد كنّا ندفع له كل يوم كمثل ما دفعنا له أول يوم، حتى لا يبقى لنا شيء نعطيه، فإنه تشفّع لنا بما يَقصُرُ مُلكُنا عن مكافأته عليه. فكثرة جوده أوجبت كثرة عطائه.

---

(١) سورة الشورى، من الآية ٢٥.

(٢) المعروف أن (الإسلام يجُبّ ما قبله)، و(التائب حبيب الله)، و(التائب من الذنب كمن لا ذنب له).

(٣) لم نقف على مصدره.

(٤) معن بن زائدة: من أشهر أجواد العرب وشجعانهم، أدرك العصرين الأموي والعباسي، وكان بينه وبين المنصور أحداث انتهت بالمصالحة وتوليته اليمن ثم سجستان وفيها قتل غيلة سنة ١٥١هـ (الأعلام ٨/ ١٩٢).

(٥) كذا. والصواب: فيها.

(٦) كذا والصواب: فلك.

هذا مِمَّن مُلكُه محصور يفنى، وهو مثله ينفد ويَفنى، وخزائنه محصورة معدودة، وجُودُه محدود. وكل معدودٍ محدودٍ يَفنى. فكيف بمن لا ينقضي أَبَـدُه؟ ولا يحصر مُلكه؟ ولا تفنى خزائنه؟ ولا يشبه كرمَه كرمٌ؟ فإذا فعل العبد ما فيه موجِب لإحسانه عزّ وجلّ، من طريق المنّ والفضل، لا من طريق الوجوب والإلزام، فكيف يكون إحسانه لهذا العبد؟ وكيف يكون ترفيعه له وتجاوزه عنه؟ جعلنا الله مِمَّن أَهَّلَه لذلك بمنّه.

واحتمل وجهاً آخر، وهو مثلما اختلف العلماء في ذكره سبحانه وتعالى عن نفسه: الوجْه واليدَين. فمن أهل السنّة من تأول (الوجه) بمعنى: الذات، لأن العرب تقول: وجه الطريق بمعنى: ذاته. و(اليد) بمعنى: النعمة. ومنهم من قال: يحمل اللفظ على ظاهره مع نفي الجارحة، ونفي التحديد والتكييف.

ويجري هذا الوجه في هذا الحديث. وما في معناه من الحب والغضب، والرضا والضحك، وكل ماجاء في الأحاديث من هذا النوع مع نفي ما تضمن تلك الصفة منّا، مثل الفرح. يُقَرُّ اللفظ على حاله مع نفي المعنى الذي نجده نحن من السرور به، والميل إلى ذلك الشيء المفروح به، والبشاشة إليه، وإيثاره على غيره، وكون ذلك كما يليق بجلاله سبحانه مع نفي الشبه والمثال، وإبقاء ما ينالنا من تلك الصفة من الخير على جري عادتنا، فإنَّ من أجل ذلك ضُرِب لنا المثل.

وكذلك يمشي هذا الوجه في الغضب والرضى والضحك، لأن القاعدة قد تقررت بمدلول العقل والنص أنه جلّ جلاله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] وقد تقدم بيان ذلك بأدلته أول الكتاب في حديث عبادة بن الصامت، فأغنى عن إعادته هنا. فلما تقعدت تلك القاعدة لم يضرّ إطلاق هذه الألفاظ، ولا يقع بها على العقول في معتقدها التباس.

وفيه دليل على جواز السفر منفرداً. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (من رجل نزل منزلاً وبه مَهلَكة)، فوصف بأنه كان في تلك المهلَكة وحده. فإنه، عليه السلام، لا يضرب مثلاً بما لا يجوز في شريعته. ويعارضنا النهي منه، عليه السلام، أن يسافر الرجل وحدَه. ويمكن الجمع بينهما بأن يكون هذا الحديث دليلاً على الجواز، وذاك النهي نهيُ كراهية وشفقة.

ومن أجل ما كان هذا في تلك المهلكة وحده جرت عليه تلك الشدة، لأنه لو كان معه رفيق ما حصل في تلك الشدة حتى أيقن بالهلاك. فإنه لو ذهبت راحلته بقيت رواحل رفقائه، فقد كانوا يقومون بضروراته، فلم يكن يجد لذهاب راحلته ذلك الهمَّ الكبير. فبان بهذا الحديث، وإن كان يدل على الجواز، فائدة نهيه، عليه السلام، عن السفر منفرداً.

---

(١) سورة الشورى، من الآية ١١.

وفيه دليل على جواز دخول موضع الهلاك إذا كان مع داخلها ما يقي به نفسه من تلك المهلكة، على ما جرت به العادة في ذلك الوجه. يؤخذ ذلك من دخول هذا تلك المهلكة ومعه ما يمنعه مما فيها من المهالك، وهي راحلته عليها طعامه وشرابه. ولو كان هذا غير جائز ما ضرب ﷺ المثَلَ به، وسكت عن الإشارة إلى منعه، كما فعل في المجاهد حين وصفه أنه غرَّر بنفسه، لأنه، عليه السلام، هو المشرّع، فلا يتكلم إلا بالشيء الجائز، ومَن تَتبّع كلامَه ﷺ يجده في المواضع التي يكون فيها إشكالٌ ما، قد تحرَّز من ذلك إمّا بقول، أو بإشارة، أو ما كان في معناهما.

وفيه دليل على أنه حيث يُعدَم الطعام والشراب يسمَّى مهلكة. يؤخذ ذلك من أن صاحب هذه الراحلة لم يكن له شيء يخافه في تلك المهلكة إلا عدم الطعام والماء الذي كان على راحلته. ولو كان له خوف مما سوى ذلك كان يذكره، لأنه يكون زيادة في قوة كربه، فيكون فرحه براحلته أكثر، ولا كان يمكنه نوم مع ذلك، كما هو المعهود من الناس ذلك، لأنه لو كان له خوف من سِباع أو لصوص لم يمكنه النوم مع ذلك، لأن الخوف من مثل هذا يَذهب بالنوم، على العوائد الجارية في الناس.

وفيه دليل على أنه من ركن إلى ما سوى مولاه فإنه يقطع به أحوج ما يكون إليه. يؤخذ ذلك من نوم هذا في تلك المهلكة، لثقته براحلته التي عليها طعامه وشرابه الذي يظن أنه ينجيه من تلك المهلكة، فأحوج ما كان إليها لم يجدها، وهو عند استيقاظه من نومه أكثرُ اضطراراً، لحاجته إذ ذاك لطعامه وشرابه.

ولذلك قال بعض أهل التوفيق (من سرّه ألاّ يرى ما يؤلمه فلا يتَّخذ شيئاً يخاف له فقداً) أي من عوّل على غير من لا يحول ولا يزول فلا بد له من الاضطراب غالباً، ومن كان عدته مولاه، فلا يفقده حيث يحتاج إليه أبداً، بل يجده به رؤوفاً رحيماً. قال عزّ وجلّ في كتابه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[1].

وفيه دليل على أن هَمّ البشرية وفرحها غالباً إنما هو على ما جرت به أثر الحكمة من العوائد المعتادة بينهم، إلا أهل التحقيق، وقليل ما هم. يؤخذ ذلك من أن حزن هذا ـ صاحبَ المهلَكَة ـ على ذهاب راحلته، إنما كان خوفه من الموت من أجل عدم الطعام والشراب، وفرحه بهما إنما كان من أجل وجوده الطعام والشراب الذي ينسبون الحياة إليه.

وقد يكون الأمر بالعكس أن تكون الحياة مع عدم الطعام والشراب، كما قال أبو حامد

(١) سورة الطلاق، من الآية ٣.

الغزالي رحمه الله: إن الرزق الذي ضمنه الله، عزّ وجلّ، لعباده ليس من شرطه أن يكون محسوساً، فقد يكون محسوساً، وقد يكون غير محسوس، وإنما ضمن لهم أن يرزقهم قوة لهذا الجسد بما يعبدونه، فيجعله كيف شاء.

والذي يقع لي أن هذا المعنى فيه إشارة لقول سيّدنا ﷺ (إني لستُ كهيئتكم، إني أبيتُ عند ربّي يطعمني ويسقيني)[1] أي إن إيماني ويقيني ليسا مثل إيمانكم ويقينكم، فإني أعلم أن الذي يقويني بالطعام والشراب هو الذي يقويني بلا طعام ولا شراب، ولو كان يأكل أكلاً حِسيّاً لم يقع عليه اسم: مواصل. لا يمكنه أن يكون يواصل بهم، ويكون هو، عليه السلام، يأكل ويشرب وأصحابه يواصلون ولا يأكلون ولا يشربون. ليس هذا من خُلُق غيره، فكيف بأخلاقه السَّنِيَّة التي لا يمكن اللحاق بها أبداً؟ وقد يكون الموت بسبب أخذك الطعام والشراب. وقد وجد هذا في الأخبار المنقولة كثيراً.

وفيه دليل على أن الأحكام والأمثال إنما تستعمل على الغالب من أحوال الناس، لأنه لما كان الغالب من الناس إنما فرحهم بالمحسوس، وحزنهم على فقده، ضرب ﷺ المثَل بهذا.

وفيه دليل على بركة الاستسلام لأمر الله، عزّ وجلّ، وسرعة النجح عند ذلك. يؤخذ ذلك من أنه لما ترك صاحب الراحلة جِدّه وطَلَبه، وسلّم لله أمرَه، واستسلم له برجوعه إلى موضعه، فأول خيراتِه إرسالُ النوم عليه، لأنه من علامات الرحمة عند الوقوع في الشدائد، وأَرفَقُ لمن وقعت به، كما أخبر سبحانه عن الصحابة رضي الله عنهم في كتابه بقوله ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾[2]. ولما أرسل الله، عزّ وجلّ، عليهم النعاس، كما أخبر، بقي المنافقون لم يرسل عليهم من النعاس شيئاً، وبقوا في كرب عظيم. ثم بعد ما استيقظ صاحب المهلكة من نعمة النوم وجد راحلته عنده قائمة، فتمت النعمة عليه بوجودها.

وفيه تنبيه على أن يقدم العبد أثرَ الحكمة ـ وهي عمل الأسباب على ما شرعت وبينت ـ فإذا لم يرها تُنجِح له في قصده يعمل على مقتضىٰ التسليم للقدر رضاءً وتسليماً، ويعلم أن ذلك هو المقصود منه، فعند ذلك يُـيَسَّرُ له مقصده بلا كلفة. يؤخذ ذلك من كون صاحب الراحلة لما ذهبت أخذ في نظرها والبحث عنها، فلمّا لحقه في ذلك ما لحقه من العطش، وما شاء الله، ورأى أن ذلك

---

(١) رواه الإمام أحمد والشيخان عن أنس رضي الله عنه والبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما وعن أبي سعيد رضي الله عنه والإمام أحمد والبخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ١١.

لا يُنجِح له مطلباً، أخذ في الاستسلام للقَدر، ورجع إلى موضعه، وترك ما كان بسببله من أثر الحكمة، فأتاه ما أمله من الخير، وهو إتيان راحلته.

وفي رجوعه إلى الموضع الذي ذهبت منه راحلته إشارة إلى الثقة بعظيم قدرة القادر، لعل من الباب الذي كان منه الكسر بالعدل يكون منه الجبر بالفضل. حالة يعقوبية، كما ذهب بصره بقميص يوسف، عليه السلام، فبالقميص كان رجوع بصره إليه. ولذلك قال ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٦٢.

— ٢٦١ —
حديث مَثَل الذاكر لربه والغافل

عَن أبي مُوسى، رَضيَ الله عَنهُ، قالَ: قالَ النبيَّ ﷺ، مَثَلُ الَّذي يَذكُرُ رَبَّهُ وَالَّذي لاَ يَذكُرُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ.

* * *

ظاهر الحديث تمثيله ﷺ الذي يذكر ربه بالحي، والذي لا يذكره بالميت. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى الذكر هنا؟ هل الذكر باللسان، أو الذكر بالأفعال، وهو اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه؟ لأن العلماء قد قالوا في معنى قوله جلّ جلاله ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[1] إنهم الذين إذا كان عليهم الحق أعطوه، وإذا كان لهم الحق أخذوه. كل ذلك على الحدّ الذي شُرِع بلا زيادة ولا نقصان. وقال عمر رضي الله عنه: (ذكر الله عند نهيه وأمره خيرٌ من ذكره باللسان) أو كما قال رضي الله عنه. وفي أي نسبة يكون الشبه فيما شبّه به على أحد الوجهين؟ وما يترتب على ذلك من الفائدة؟

أما قولنا: أيَّ وجهٍ عنى بالذكر؟ احتمل الوجهين، كل واحد على حِدة، واحتمل أنه عنى بذلك الوجهين معاً. فإن كان عنى المجموعَ فهو للفائدة أتمّ، وإن كان على أحد الوجهين فبين الذكر بالقول والذكر بالفعل فرق كبير، لأن الذكر بالفعل مثل الطهارة الكبرى تندرج فيها الصغرى، لأن الذي يمتثل الأوامر وينتهي عن النواهي فلا بدّ له من الذكر باللسان، لا محالة. فإن حاله يَحمله على ذلك جبراً وإن كان لا يقع ذلك منه فالذي فعل من امتثاله الأوامر أجزأه عن ذكر اللسان، كالطهارة الكبرى تجزىء عن الصغرى. والذي يذكر باللسان مثل الطهارة الصغرى لا تدخل تحتها الكبرى، ولا تجزىء عنها، وهو مطلوب بها.

---

(١) سورة الأنفال، من الآية ٢.

وأما قولنا: من أي وجه تكون النّسبة بين هذا وبين المثل؟ أما إن كان الذكر بالفعل على ما تقدم فالنسبة بينهما من أجل عدم الفائدة لهذا التارك لما أمر به في حياته. فإن فائدة الحياة في هذه الدار إنما هي الكسبُ لتلك الدار الباقية. فإنما جعلت هذه مزرعة للعباد، لأن يتزودوا منها للمعاد؛ فإذا ماتوا انقطع من هذه المزرعة كسبهم. فلما كانت حياة هذا في هذه المزرعة بغير كسب لمعاده كان كالميّت الذي لم يبق له فيها عمل، وكانت حياته كأنْ لا حياة.

ومما يوضح ذلك قوله، عزّ وجلّ، في كتابه العزيز حكاية عن قول من ختم عليه بالشقاء ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1] وبالضرورة أنهم حين كانوا في هذه الدار كانوا يسمعون ويعقلون، فلما كان سمعهم وعقلهم لم يجدوا لهما منفعة في تلك الدار نفوا ذلك عن أنفسهم بقولهم ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾.

وأما إن كان المعنى الذكر باللسان فالنسبة بينهما من أجل ما حرموا من ذكر مولاهم لهم، لأنه قد جاء عنه جلّ جلاله (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)[2] وقد قال عزّ وجلّ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[3] قال العلماء: معناه ذكر ربك عبدَه رحمة له. فكأن من كان أعطي هذه الرحمة العظمى مع من حُرمها كنسبة الحي من الميت، لأن من ترك هذا الخير العظيم بأيسر الأشياء وهو تحريك اللسان أو إمرار ذلك بالقلب، فقد عدم فائدة الحياة التي هي موضوعة لكسب هذه الخيرات وأشباهها.

وقد قال الله، عزّ وجلّ، في شأن الذكر ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[4] فمن يحرم نفسه من هذا الخير العظيم كيف لا يوصف بالموت؟ بل هو أحق بذلك، وبل[5] الموت له على خيرٍ خير من هذه الحياة المغبونِ صاحبها.

وإن كان المعنى في الحديث الوجهين معاً فكان الأمر في حق هذا المغبون أشد وأعظم. أعاذنا الله من الحرمان بفضله.

وأما قولنا: ما يترتب على ذلك من الفائدة؟ فغير واحدة. منها: الحض على امتثال الأوامر، ومنها الحض على الذكر والعلم بما فيه من الخير، ومنها التنبيه على أن الحياة الحقيقية إنما هي حياة

---

(١) سورة الملك، من الآية ١٠.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة مريم، الآية ٢.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية ٣٥.

(٥) كذا بزيادة الواو قبل «بل».

الآخرة، فيكون معظم الفائدة الحض على نبذ هذه الدار، والاهتمام بتلك الدار، لأن هناك هي الحياة الطيبة والعيش الرغد، كما أخبر، جلّ جلاله، في كتابه العزيز بقوله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وفيه دليل لأهل الصوفة المتبعين للسنة والسنن، لأن طريقهم الجِدُّ في اتباع الأوامر، واجتناب النواهي. ودوامُ الذكر شأنُهم، وبه فرحهم. فهم الذين فَهِموا ما إليه خُلِقوا، حتى صار حالهم ومقالهم على حدّ سواء، فَهِمُوا فسعِدوا إذْ عَلِموا وعمِلوا، وغرَسوا الشجرةَ فجنَوْا ثمرَها. أولئك موضع نظر الله من خلقه، بهم يرحم العباد والبلاد. أعاد الله علينا من بركاتهم في الحياة وفي الممات. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.

ـ ٢٦٢ ـ

حديث فرح المؤمن عند موته للقاء ربه

عَن عُبادَة بنِ الصَّامتِ[1]، رضي الله عنهُ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: مَن أحبَّ لِقاءَ الله أحَبَّ الله لقاءَهُ، وَمَن كَرِه لِقاءَ الله كَرِهَ الله لقاءَهُ. فَقالَت عائِشَةُ، أو بَعضُ أزواجِهِ: إنّا لَنكرَهُ الموتَ. قالَ: لَيسَ ذاكَ، وَلكنَّ المُؤمِنَ إذا حَضَرَهُ الموتُ بُشِّرَ بِرضوانِ الله وَكَرامَتِهِ، فَلَيسَ شَيءٌ أحَبَّ إلَيهِ ممَّا أمامَهُ، فَأحَبَّ لِقاءَ الله، وأحَبَّ الله لِقاءَهُ. وإنَّ الكَافِرَ إذا حَضَرَهُ المَوتُ بُشِّرَ بِعذابِ الله وَعُقوبَتِهِ، فَليسَ شَيءٌ أكرَهَ إلَيهِ مِمّا أمامَهُ، فَكَرِهَ لِقاءَ الله، وَكَرِهَ الله لِقاءَهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) أن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. (والثاني) إخباره ﷺ أنه لا تخرج نفس من هذه الدار حتى تعرف ما لها في تلك الدار من خير أو ضده، والكلام عليه من وجوه:

منها: الكلام على معنى (أحب) ومعنى (كره)، والكلام على هذا المؤمن أيُّ مؤمن هو؟

فأما الكلام على معنى الحب ومعنى الكراهية فهو على نحو ما تقدم الكلام عليه في الحديث قبله، على أحد الوجهين المذكورين بعلتيهما.

وأما قولنا: أيُّ مؤمن هو؟ فظاهره يعطي أن المراد به المؤمن الكامل الإيمان، الذي إيمانه بتوفية ما أُمِر به، ونُهِي عنه، لأنه جاء ذكره عليه السلام هنا للطرفين معاً، الطرف الواحد من جهة الإيمان، والطرف الآخر طرف الكفر والحرمان التام. وبقي الكلام على المتوسط بين ذلك، وهو المؤمن الذي شاب إيمانه بالمعاصي والآثام.

والجواب عليه مثل ما تقدم الجواب على المتوسط في حديث فتنة القبر فيما تقدم من الكتاب، حين أخبر ﷺ أن الموقن هو الذي يجاوب بالحق ثلاثاً، ذلك هو الناجي، وأن المرتاب

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٥١.

الذي لا يعرف دينه يقول (سمعت الناس يقولون شيئاً فقلتُه) فذلك هو الهالك. وبقي القسم المتوسط بين ذلك، وتكلمنا عليه هنالك. والكلام عليه هناك مثله يكون شأن المتوسط هنا.

وفيه دليل على فضل أزواج النبيّ ﷺ وعليهن أجمعين وفقههنّ. يؤخذ ذلك من مراجعتهن للنبيّ ﷺ في هذا الموطن بحسن الأدب بقولهن (إنّا لَنَكرهُ الموت). فانظر إلى اختصار هذا اللفظ وما تحته من الآداب والفوائد. ويترتب عليه من الفقه جواز مراجعة العالم إذا بقي على السامع في فهمه إشكال، ويكون بأدب.

وفيه دليل على جواز إطلاق اللفظ المحتمِل، وإن كان الذي قصد المتكلم من محتملاته ليس هو المستعمل بجري العادة. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) وظاهر اللفظ المستعمل بين الناس والذي يسبق إلى الفهم هو الذي راجعت به هذه السيدة. وكان قصد سيّدنا ﷺ بذلك وجهاً خاصاً، وهو ما أبداه ﷺ وبيّنه عند مراجعة هذه السيدة.

وفيه دليل على جواز إلقاء العلم للنساء، ولو لواحدة منهن. يؤخذ ذلك من إلقائه ﷺ هذه القاعدة الشرعية لهذه السيدة، وإلقاؤه ذلك إليها يدل على جواز أخذه منها، لأن علم الشريعة لا يحل كتمه. ويؤخذ منه جواز إلقاء المعلم المسألة المحتمِلة ليختبر بها أصحابه، أو يسألوه عن بيانها. يؤخذ ذلك من هذه اللفظة المتقدم ذكرها.

وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحدٍ أن يعمل على لفظ محتمِل على أحد محتمَلاته حتى يدل الدليل عليه أنه هو المقصود. يؤخذ ذلك من مراجعة هذه السيدة حتى زال الاحتمال، وأقرها ﷺ على ذلك.

وفيه دليل على تهوين الموت على المؤمن. يؤخذ ذلك من فرحه بما أمامه مما بُشّرَ به من رضى مولاه عنه وإحسانه إليه. فإنه من فرح بشيء هان عليه ما لقي عليه أو دونه من الشدائد، وهذا ندركه حساً في أهل الدنيا. فإنهم ما حملوا فيها ما حملوا من المشاق والشدائد إلا فرحهم بها وحبّهم لها، فكيف بالفرح الذي ليس مثله فرح؟ جعلنا الله من أهله بفضله.

وفيه دليل على تشديد الموت على الكافر. يؤخذ ذلك من همه وحزنه على ما هو أمامه، فتضاعفت عليه الهموم والشدائد. ومما في معنى ما أشرنا إليه أن بعض الناس مرّ في بعض طريقه بشخص نحيف البدن، وهو يُضرَب بالسّياط ضرباً شديداً، وهو مع ذلك لا يتكلم، ولا يلتفت لها، حتى إلى[1] آخر سوط صاح واستغاث استغاثة شديدة، فتعجب مَن كان حاضراً من شدة صبره أولاً، ثم تعجب منه آخراً مما ظهر منه.

---

(١) كذا بزيارة (إلى) بعد (حتى).

فلما خُلّي عنه تَبِعه. فقال له: ناشدتك الله ما شأنك؟ إني تعجبتُ منك أول ضربك، وحَمِلِك ذلك البلاء العظيم، ثم تعجبت منك من كونك آخراً من سوط واحدٍ ظهر منك ضدُّ ما كنتَ عليه؟ فقال له: إن العين التي كنت أعذَّب من أجلها كنتُ أشاهِدها. فلم أحسّ بتلك الأمور التي جرت على البدن مع ضعفه، فلما احتجبَت عني وجدتُ ألم الحجاب أشدّ من تلك الآلام، فاجتمعت عليَّ المحن فلم أحملها، فذلك الذي ظهر مني. أعاذنا الله من المحن جميعاً بمنّه وكرمه.

وفيه دليل على أنه عند بوادي أمور الآخرة يقع هناك التصديق بها للمؤمن والكافر بلا شك ولا ارتياب. يؤخذ ذلك من فرح المؤمن بما يُبشَّر به، وحزن الكافر وكراهيته بما يبشر به. فلولا أنهما في التصديق على حدٍّ سواء ما حزن هذا، وفرح هذا.

وبقي بحث وهو أن يقال متى يكون ذلك؟ فالجواب: أما من الحديث فلا يؤخذ تعيين الوقت، لكن يؤخذ من حديث غير هذا. وهو قوله ﷺ (إن الله يقبل توبة عبده المؤمن ما لم يغرغر)[1] أو كما قال، وهو إذا كانت الروح في الحلقوم، وعاين مبادىء أمور الآخرة، فهناك يكون وقت البشارة، ولأنه لو كانت البشارة للكافر قبل ذلك الوقت الذي تقبل منه التوبة والإسلام، وحصل له التصديق كان إذ ذاك يُسلِم الكافر ويتوب العاصي، فلما كانت البشارة في وقت لا تنفع فيه التوبة ولا الإسلام حصل له التصديق في وقت لا حيلة له في الخلاص، فاشتد لذلك الحزن عليه، والله أعلم.

وقد أخبرني من أثق به، ممّا يقوّي ما أشرنا إليه، أنه كان به بعض من يقرب منه، وكان مسرفاً على نفسه، فابتلي في بدنه فتاب ورجع إلى الله، وبقي معه الخوف مما تقدم، فكان يقول لذلك الشخص مع مرور الأيام: يا فلان، كيف يكون قدومي على الله؟ وبماذا ألقاه؟ ويحزن لذلك كثيراً. فلمّا مَرِضَ مَرَضَ الموت، واحتُضِرَ، التفت إلى ذلك الشخص بعدما نظر إلى السماء وتبسم، وتهلل وجهه فرحاً، فقال: يا فلان أبشِرْ، فما ثَمَّ إلا خيرٌ. وشهق شهقةً طلعت منها روحه. وفيه قيل:

للموت فاستعد إن كنت عاقلاً، وبالتقوى فتزود إن كنت راحلاً، وإلى الله فارجع فإنك عليه قادم عاجلاً، وفي البشارات إشارات بها السعيد حافلاً. جعلنا الله ممن احتفل بها، وبها سعد بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

- ٢٦٣ -

حديث ما يتبع الميت إلى قبره

عَن أنَسِ بنِ مالِك، رضي الله عنه، يقول: قال رسُول الله ﷺ: يتبع الميِّتَ ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد. يَتْبعه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجِع أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه.

* * *

ظاهر الحديث أن الميت يتبعه الأهل والمال والعمل، فلا يبقى معه إلا عمله، ويرجع الباقي. والكلام عليه من وجوه:

منها: الكلام على الاتباعية، كيف هي؟ وما الحكمة في الإخبار بهذه الثلاثة؟ ونحن نعرف ذلك ونشاهده؟

أما قولنا في الاتباعية كيف هي؟ فالتقسيم يقتضي أن نتكلم على كل واحدة من الثلاثة على حِدَة.

فاتباع الأهل هو حملهم جنازته. وصيغة اللفظ تقتضي أن يكون الماشون مع الجنازة خلفها، والسنة أن يكون الماشون مع الجنازة أمامها. وقد كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يضرب الناس بالدّرة على المشي خلفها، ويقول: إنما أنتم شفعاء لها، والشفيع يكون أمام المشفوع له. أو كما قال، رضي الله عنه.

والجمع بين ذلك أن نقول: إن الذي يخرج من أجل شخص حياً كان أو ميتاً فإنما هو تابع له، وإن كان يمشي أمامه، ألا ترى أنه ليس له اختيار أن يقصد موضعاً إلا الموضع الذي خرج إليه معه، فهو تابع له، فلما كان خروج الميت ومشيه إلى قبره فمشي أهله معه إلى القبر إنما هو من أجله، فإنهم لا حاجة لهم في القبر نفسه، فهم في مشيهم - وإن كانوا أمامه - تابعون له حيث كان قبره مشَوا معه إليه، فبان في حقهم اسم التبعية له. وتقدمهم أمامه اتباعاً لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وأما اتباع المال ففيه بحث: وهو أن الميت عند خروج نَفَسه يرجع المال لغيره، فكيف يصح أن تقول: مالُه تَبِعَهُ، وهو لغيره؟ وماذا من المال يتبعه إلى قبره؟ فمن كانت له دُور أو بهائم أو عَيْن فكيف يتبعه إلى قبره؟

والجواب: أن ذلك الزمان الذي بين دفنه وخروج الروح: المالُ فيه مضاف إليه، لأن السنّة أحكمت ألاّ يُقْتَسَمُ مالُه إلا بعدما يُخَرج منه كفنه، وما يحتاج إليه من جهازه إلى قبره، ووصيته ودَيْنه إن كان عليه. وبعد ذلك إن فَضَل من المال فضل اقتسمته الورثة بمقتضى ما فُرض لهم. والسنة تعجيل دفن الميت كما قال ﷺ (إنما هو خير تقدمونه إليه، أو شر تضعونه عن رقابكم)[1] أو كما قال عليه السلام. فصَحَّ أن يقال (ماله) فإن أمره فيه عامل، وهو إليه في الوقت مضاف، من أجل أنه إنما يكنى عن المال في الوقت بـ (تركة فلان) الذي هو الميت، ولم تحصل يد أحد ممن له فيه حق على شيء منه بعد.

وأما قولنا: ماذا يتبعه من ماله؟ فإن العرب تسمي البعض باسم الكل، والكل باسم البعض، فيتبعه من ماله عبيده إن كان له عبيد، وما يحمل عليه، وما يحفر به قبره من الآلة، وما يشبه ذلك، فيصح أن يطلق عليه اسم (ماله). ومن جهة المعنى إذا رجعوا من دفنه إنما يأخذون في تقسيم المال إلى من له حق، فيرجع الاسم معهم إلى وقت وصولهم إلى منزله وتوزيعه على من له فيه شيء، وبعد ذلك يصبح المال ملكاً لمن له فيه حق. ولهذا صح أن يقال: تبعه مالُه من جهة الحس ومن جهة المعنى.

وأما اتباع عمله له ففيه بحث أيضاً، وهو: أن عمله قد رفع وكتب، وموته جاء بعد نفاد عمله ورفعه، فكيف يكون المتقدم تابعاً للمتأخر؟ فالجواب: أنه لما كان العمل - وإن كان قد رفع - فصاحبه به مطلوب، وبه مأخوذ، لا يمنعه عنه مانع حيث كان، فصح أن يقال عنه (تابع له). وكذلك قال ﷺ في غير هذا الحديث (إن كان صالحاً لم يأنس إلا به، وإن كان سيئاً لم يستوحش إلا منه) أو كما قال عليه السلام.

وقد جاء أن العمل إذا كان صالحاً دخل على المرء في قبره في صورة شخص حسن الصورة، طيّب الرائحة، نُوري، فيأنس به من وحشة القبر فيقول له: من أنت الذي قد مَنَّ الله عليَّ بك؟ فيقول له: أما تعرفني؟ فيقول له: لا أعرفك. فيقول له: أنا عملك الصالح في دار الدنيا لا أفارقك. وإن كان العمل سيئاً دخل عليه في صورة وحشة منتنة وظلمة، فيستوحش منه زيادة على وحشة القبر وضيقه. فيقول له: من أنت الذي روّعتني؟ فيقول له: أما تعرفني؟ فيقول له: لا أعرفك. فيقول له: أنا عملك السيىء في دار الدنيا لا أفارقك، أو كما ورد. عافانا الله من سيىء الأعمال بمنّه.

وأما قولنا: ما الحكمة في الإخبار بهذا، ونحن نشاهده ونعرفه؟ فالحكمة في ذلك من وجوه:

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحةً فخير تقدّمونها إليه، وإن تَكُ سوى ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم.

منها: أنه إنما نعاين من جهة الإدراك بالحواس رجوع الأهل والمال، وإنما نعرف من طريق الإيمان بما أخبرنا من ذلك. فإعادته هنا بعد العلم به لأن ذلك من لازم الإيمان، فهو تأكيد في الإخبار حتى يرجع أمر الغيب عندنا في ذلك مثل الذي نشاهده حساً من الأهل والمال.

ومنها: التَّنبيه على الاهتمام بتحسين العمل وكثرة الاشتغال به، إذ هو الذي يبقى معنا، وغيره يرجع عنا. فتقديم من يبقى معك على من يرجع عنك ضروري، إن عقلت. ولذلك قال ﷺ (الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير، وقَدِم على ربه بِشَرّ)[1] أو كما قال عليه السلام.

ومنها: التنبيه على الزهدِ في دار أنت خارج منها على هذه الحالة لا محالة، والإقبال على دار ليس لك فيها إلا ما قدمته من هذه الذاهبة عنك. فاغتنم زمان المهلة قبل وقت الندم، ولا ينفع، وتطلب الرجوع لتجبر فيقال لك: (الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبنَ)[2].

وفيه دليل على جواز اتخاذ الأهل والمال، ولا يضران إذا كان العمل صالحاً. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (يتبعه ماله وأهله)، فلو لم يكن ذلك جائزاً ما جعله من التابعين له.

ويترتب عليه من الفقه أن يذكَّر الإنسان بالخير، وإن كان يعلمه، ويحذَّر من الشر، وإن كان يعرفه، فإن الغفلة غالبة علينا. ولذلك كان الصحابة، رضوان الله عليهم، إذا تلاقوا يقول بعضهم لبعض (تعالوا نؤمن) أي نتحدث في الإيمان وأنواع تكليفاته، لأن يذكر بعضهم بعضاً فيقوى إيمانهم، فيكون ذلك من باب التعاون على البر والتقوى كما قال جلّ جلاله ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3].

وفي هذا دليل لأهل السلوك، فإن هذا شأنهم، إذا اجتمع أحدهم مع صاحبه لم يكن حديثهم إلا في الإيمان وأنواع الأعمال والأحوال، فإن افترقوا اشتغلوا بما به تحدثوا. أولئك الذين فهِموا معاني الكتاب والسنة.

جعلنا الله من التابعين لهم بإحسان بفضله ومنّه، لا رب سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أورده الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٠٩ والعجلوني في كشف الخفا ٢/ ٤٨٢.

(٢) مثل يضرب لمن يطلب الشيء في غير أوانه.

(٣) سورة المائدة، من الآية ٢.

ـ ٢٦٤ ـ
حديث النَّهْي عن سب الأموات

عَن عائِشةَ، رَضي الله عَنها، قالَت: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: لاَ تَسُبُّوا الأمواتَ، فإنَّهُم قَد أفضَوا إلى ما قَدَّمُوا.

* * *

ظاهر الحديث النهي عن سب الأموات. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: هل هذا النهي على عمومه في المؤمن والكافر، أو في المؤمن خاصة؟

فالجواب: أن ظاهر اللفظ يعطي العموم، وما يفهم من قواعد الشريعة يخصصه بالمؤمنين؛ لأن الكافر لا حرمة له في حياته، فكيف بعد مماته؟ والمؤمن لما كانت غِيبته في الحياة ممنوعة أمر الشارع ﷺ باستصحاب تلك الحرمة بعد الموت، وزاد ذلك بياناً بتعليله، عليه السلام، النهي بقوله (فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا). وفي تعليل النهي الذي نهى عنه، عليه السلام، دليل على تبيين تعليل الأحكام لمن تلقى إليه، ليكون في أحكام الله، عزّ وجلّ، على بصيرة.

وفيه دليل على فضيلة الإيمان وحرمة أهله. يؤخذ ذلك من نهيه، عليه السلام، عن سبّ الميت من أهل الإيمان، وإن كان مجرماً.

وفيه دليل على جواز ذكر الموتى بخير، لأن النهي عن الشيء دليل على جواز ضده، على أظهر الأقاويل.

وفيه دليل على أنه حين خروج الميت من هذه الدار يلقى عمله، والمجازاة عليه خيراً كان أو ضده. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا) كما نبهنا عليه في الحديث قبل.

وفيه دليل على أنْ ليس للمرء في تلك الدار إلا ما قدم من هذه، كما أشرنا إليه في الحديث قبل. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (أفضوا إلى ما قدَّموا)، ويشهد لذلك قوله تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ

لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[1]، وفي قوله عليه السلام (فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا) تنبيه لمن بلغه هذا النهي أن ينظر في عمله خيفة أن يكون سيئاً، فيقدم عليه، ولا بد له من الجزاء عليه، فيكون فيه اجتماع أمرين: أمر بإبقاء حرمة المسلم بعد موته، وإن كان مسيئاً يستحق السبّ، وتنبيه للحي أن ينظر في صلاح عمله، بينما هو في دار المهلة خيفة أن يكون فيه ما يَسُوءُهُ، فيغفل حتى يقدم عليه، فلا يقدر لخلاص نفسه بحيلة من الحيل. ومن تبصّر انتفع. وإلا فالأمر والله جِدّ، والحاكم عدل، ولات حين مناص.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) سورة النجم، الآيتان ٣٩ و ٤٠.

\- ٢٦٥ -

حديث صفة أرض المحشر

عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ[١]، رضيَ اللهُ عَنهُ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامَةِ عَلى أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ كَقُرْصَةِ[٢] نَقيٍّ. قالَ سَهل أو غَيرُهُ: لَيسَ فيها مَعْلَم[٣] لأَحَدٍ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن الأرض التي يحشر الناس عليها يوم القيامة غير هذه الأرض، وأنها بيضاء مستوية مدوّرة، لم يتقدم فيها لأحد مِلك، ولا تصرّف، والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما الحكمة في إخبارنا بهذا؟ وهل هذه الأرض خلقت أو لم تخلق بعد، وإنما يكون خلقها في ذلك الوقت؟ وهل نفهم ما الحكمة أيضاً بألاّ يكون الحساب على هذه الأرض، أو ليس لنا طريق لذلك؟ وما الفائدة بأن نعت ﷺ تلك الأرض بصفتين، ومعناهما واحد، لأن عفراء معناها بيضاء؟

أما قولنا: ما الحكمة في أن أخبرنا بذلك؟ فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن ذلك لوجوه، منها: أن فيه دليلاً على عظم القدرة، وما فيه مما يدل على صفة من صفاته، عزّ وجلّ، يقوى به الإيمان، وكل ما فيه زيادة ما في الإيمان فهو من أعظم الفوائد والقرب إليه عزّ وجلّ. ومنها: الإعلام بجزئيات ذلك اليوم حتى يكون المؤمن في أمره على بصيرة، فيتأكد تصديقه بذلك اليوم حتى يرجع العلم به كأنه عين يقين، حتى إذا كان ذلك الوقت لم يزِده الأمر شيئاً، غير أنه انتقل من علم اليقين

---

(١) سهل بن سعد: الساعدي الأنصاري الخزرجي، أبو العباس. صحابي، من مشاهيرهم من أهل المدينة. عاش نحو مئة سنة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة. له في كتب الحديث ١٨٨ حديثاً. توفي سنة ٩١ هـ (الإعلام ٣/ ٢١٠).

(٢) القُرصَة: خبزة صغيرة مبسوطة مدوّرة. ونَقيّ: نظيف. والمراد: كرغيف خبز أبيض.

(٣) المَعلَم: العُلامة جمع معالم. وهي العلامة التي توضع في الطريق أو في سواه ليُهتدى بها.

إلى معاينته، ويكون أيضاً علمه بجزئياته عوناً له على نفسه وعلى عدوه في القهر لهما، وأخذ الأهبة لما يخلّص به نفسه، فإنه يكون علمه على يقين وتحفظ وذلك أزكى في الأعمال وأبرك.

ولذلك قال أبو بكر، رضي الله عنه (لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً)، لأنه قد حصل له من العلم بذلك اليوم وجزئياته ما لا يزيده العِيان فيه شيئاً. ومثل ذلك ما قاله المؤمنون يوم الأحزاب ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾[1] وكان غير المؤمنين كما أخبر الله عزّ وجلّ ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[2] فشبّه الفريقين في ذلك اليوم كَشَبَهِهِمْ يوم القيامة، ومعرفة جزئيات الأمر قبل وقوعه فيه رياضة للنفس على حملها على ما فيه خلاصها هناك، وتهوين عليها أيضاً في ذلك بخلاف الأمر إذا جاء فجأة، ولا علم لها به، يعظم الأمر عليها أضعافاً ممّا هو. وفوائد عديدة إذ تتبّعتها ووقفت عليها وجدتها.

وأما قولنا: هل هذه الأرض خلقت، أو إنما تخلق في ذلك الوقت الذي يحتاج إليها؟ فليس في الحديث ما يدل على واحد من ذلك، والقدرة صالحة، غير أنه قد جاء أن لله سبحانه ثمانيةَ عشرَ ألفَ عالَم. والأخبار تقتضي أن تلك الأرض أكبر من هذه، بدليل أنه قد جاء أن كل من في هذه الأرض وما عليها يحشرون يوم القيامة، وكل من في الأرَضِين السبع، وكل من في السموات من الملائكة وغيرهم، وأن هذه الأرض بنفسها تحشر أيضاً بدليل أن بقاعها تشهد بما فُعل عليها من خير وغيره، ولا تشهد إلا وهي حاضرة، يشهد لذلك قوله عزّ وجلّ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾[3] ونستفيد من الأخبار بأن لله، عزّ وجلّ، ثمانيةَ عشرَ ألف عالمَ، فإن كانت تلك الأرض مخلوقة فتكون واحدةً من هذا العدد المذكور، وإن لم تكن مخلوقة فليست من هذه العوالم وتخلق بعد. والله أعلم بحقيقة ذلك.

وأما قولنا: هل تفهم الحكمة في أن الحساب لا يكون على هذه الأرض فنقول، والله أعلم إنه لما شاء القادر أن يستنطق بقاع الأرض بما فُعل عليها فتكون شاهدة بذلك، والشاهد إنما يكون وظيفته الاشتغال بأداء الشهادة. ووجه ثان وهو أنه لما كان ذلك اليوم يومَ عدل وظهورِ حق فينبغي بمقتضى الحكمة أن يكون المحل الذي يكون فيه طاهراً كما يليق بالحكم، وهذه الأرض قد توسخت بالمعاصي والمظالم والتخاصم فيها، فلا يليق أن تكون ظرفاً لذلك الأمر الحق والخطب العظيم. ووجه آخر وهو أنه لما كان الحكم في ذلك اليوم لله وحده خالصاً بلا واسطة فينبغي من

---

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٢٢.
(٢) سورة الأحزاب، من الآية ١٩.
(٣) سورة الزلزلة، الآيتان ٤ و ٥.

طريق الإجلال والترفيع لجلاله، عزّ وجلّ، والحكم الحق أن يكون المحل الذي يكون فيه ذلك الحكم الخاص لله وحده، لا يتقدم فيها دعوى ملك لأحد، وهذه فيها الدعاوى كثيرة.

ومما روي في ذلك أن رجلين تخاصما في أرض. فأنطق الله تلك الأرض وقالت: ففيمَ تختصمان؟ وقد ملكني قبلكم ألفُ أعور دون الأصِمَّاء؟ أو كما ورد. ففيم الخصام والتشاجر فيها على هذا القدر الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فكيف يكون عليها حكم أعدل العادلين؟ فتبدلها بتلك الأرض النَّقيّة بمقتضى الحكمة.

واحتمل وجهاً آخر وهو أنه لما كان ذلك اليومُ يومَ يتجلّى الله سبحانه لعباده المؤمنين، وينظرون إلى وجهه الكريم، فلا يكون تجليه، عزّ وجلّ، لعباده إلا وهم على أرض تليق بالتجلّي.

واحتمل مجموع التوجيهات كلها. وهذا هو اللائق بالحكمة والتعظيم لحكم رب العالمين وتجليه، عزّ وجلّ، لعباده. فسبحان الذي خلق كل شيء وأتقنه.

وأما قولنا: ما الفائدة بأن نعت ﷺ الأرض بصفتين ومعناهما واحد؟ فإنما فعل، عليه السلام، ذلك لرفع الالتباس، لأن العرب تقول: أسود كالح، وأحمر قانٍ، وأصفر فاقع، فذلك تحقيق لتلك الأسماء من أجل الاشتراك الذي يلحقها في اللغة مع غيرها، إذا لم يؤكدها بزيادة تلك الصفة الرافعة للاشتراك العارض لها؟ وهذا مثله.

ويترتب على هذا من الفقه أنه ينبغي للمتكلم أن يحرر ألفاظه، ويحرزها من الاحتمالات الممكنة فيها.

وقوله (نقية)[1] أي ليس فيها جبال ولا عليها شجر ولا نبات ولا فيها خنادق إلا مستوية. وقد جاء أنها تمتد مَدَّ الأديم، فدل هذا على حسن استوائها. وفي كونها بيضاء دليل على أن البياض هو خير الألوان، لأن ما اختاره الله، عزّ وجلّ، لإنفاذ حكمه وتجليه لعباده من الألوان هو خيرها، وقد قال ﷺ: (خير لباسكم البياض)[2]. وما فيها وجه من الوجوه إلا وفيه دليل على عظم قدرته. سبحانه وعظم سلطانه تبارك وتعالى علواً كبيراً.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) كذا، والراوية: نقي.

(٢) أخرجه ابن ماجه والطبراني والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: خير ثيابكم البياض فكفنوا بها موتاكم، وألبسوها خياركم، وخير أكحالكم الإثمد، ينبت الشعر ويجلو البصر.

ـ ٢٦٦ ـ
حديث صفة الناس في الحشر يوم القيامة

عَن عائِشَة، رَضي الله عَنها، قالَت: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: تُحشَرونَ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً[١]. قالَت عائِشَةُ: فَقُلتُ: يا رَسُولَ الله: الرِّجالُ وَالنِّساءُ ينْظُرُ بَعضُهُم إلى بعضٍ؟ فَقالَ: الأمر أشدّ مِن أن يُهِمَّهُم ذاكَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن الناس يحشرون يوم القيامة بلا ثوب يسترهم، ولا شيء في أرجلهم يقيهم من ذلك الهول العظيم، وأنهم يكونون على الحالة التي خرجوا عليها من بطون أمهاتهم، غير مختونين ولا مقصوصة أظفارهم، على وضع الخلقة التي كانوا عليها عند تمام خلقهم وهم في الأرحام. والكلام عليه من وجوه:

منها: ما الفائدة في الإخبار بهذا؟ وما الحكمة في ذلك؟ وما معنى (يحشرون) هل الجنس أو النوع؟

أما قولنا: ما الفائدة في الإخبار بذلك؟ فلوجوه. منها: المعرفة بأحوالنا في ذلك الوقت، وذلك مما يزيد في قوة الإيمان.

وفيه دليل على عظم قدرة الله، عزّ وجلّ، وذلك مما يوجب زيادة تعظيم جلاله سبحانه في القلوب، وهو مما يقرّب العبد إلى مولاه.

وفيه إشارة إلى أن الخروج إلى الدارين أولاً الفاضل والمفضول في ذلك الوقت على حدٍّ سواء، وبعد ذلك يكون الترفيع بالتفضيل بحسب ما شاء الحكيم، فخروجنا إلى هذه الدار عراة حفاة غرلاً، وفي تلك الدار كذلك، وبعد وقوع الأمر يكون التفضيل. وقد جاء أن أول من يُكسَى

---

(١) الغُرلة: جلدة الصبيّ التي تقطع في الختان. وغرلاً (في الحديث) أي: غير مختونين.

يوم القيامة سيّدنا محمّد ﷺ، وبعده من شاء الله على ما جاءت به الآثار. فسبحان من أبهرت[1] حكمته العقول.

وأما قولنا: ما الحكمة فيه؟ فهي ـ والله أعلم ـ تصديق لقوله عزّ وجلّ ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[2] وهي أيضاً من أعظم الأدلة على عِظم قدرته، جلّ جلاله.

وفيه دليل لأهل السنة الذين يقولون: إن التَّقبيح والتحسين ليس للعقل فيه مدخل، وإنما ذلك بحسب ما حُدَّ وشُرِع، لأن هذه الدار كشف العورة فيها ممنوع محرم قبيح، وهناك جائز وسائغ.

وأما قولنا: ما معنى (يحشرون) يعني هل النوع أو الجنس؟ احتمل الوجهين معاً، لكن آخر الحديث يبين أنه الجنس، وهو جوابه ﷺ لها بقوله (الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)، فدل أنه ﷺ أراد جنس الآدميين.

وفي قولها رضي الله عنها (الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض) دليل على أن استصحاب الحال معلوم عندهم، ولا يترك بالمحتمَل حتى يأتي أمر لا احتمال فيه.

ويترتب عليه من الفقه أن ما يقعَّد من الأحكام بالنص لا يُزال بالمحتمَل، وإن كان ظاهراً. ويؤخذ من مراجعتها جواز مراجعة المفضول للفاضل إذا بقي عليه في كلامه احتمال، لكن يكون ذلك بأدب كما هو ظاهر كلامها.

وفي قوله ﷺ (الأمر أشد من أن يهمهم ذلك) فوائد منها ما ذكرنا آنفاً، من تحقيق ما أراد عليه السلام بقوله (يحشرون)، ومنها: التخويف والإرهاب من ذلك اليوم العظيم، ليكون ذلك سبباً للاستعداد إليه.

ومنها: أن معاينة الأهوال العظام تنقل الطباع عن عادتها المألوفة لها، لأن عادة البشرية إذا نظر الرجال إلى النساء، وهن باديات العورات، أن ذلك يحرك عندهم شهوة الاستمتاع بهن، وكذلك النساء أيضاً إذا رأين الرجال على تلك الحالة. وفي ذلك اليوم، من عظم ما يعاينون من الأهوال، انتقلت الطباع عن عادتها المعلومة منها.

ويترتب عليه من الفقه أن الخوف، إن كان حقيقياً، يذهب بإغواء النفس وخَدْعها المعلوم منها، وينقل الطباع السوء إلى الحسن والتقويم، ولهذا هي الإشارة بقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ

(١) كذا بزيادة الهمزة. والمعروف: بهرت.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٤.

بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[1] فلولا أن الخوف يُحدِث في الطباع السوء شيئاً حسناً ما جعله الله تعالى سبباً إلى تقواه الذي هو أجلّ الأحوال السنية.

ولذلك قال أهل السلوك: إن القلب إذا خلا من الخوف خرب. وقد ذكر عن بعض الرجال أنه كان إذا أوى إلى فراشه يتذكر النار وما فيها، فينتفي عنه النوم، فيقوم إلى محرابه وينادي ويقول: «اللهم إنك تعلم أن خوف نارك منعني الكرَى» فيتم ليله مصلياً، أو كما قيل. ومثل ذلك عنهم كثير، وقلة الخوف أوجب لأهل الدنيا التنافسَ فيها، والغفلةَ عن هذا الخطر العظيم.

جعلنا الله ممن خاف فازدجَرَ، وتذكَّرَ فاعتبَرَ، وعمِل وادَّخَرَ، بمنّه. وأسعَدَنا بذلك، لا رب سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الزمر، من الآية ١٦.

— ٢٦٧ —

حديث العرق الذي يلحق الناس يوم القيامة من شدة هول الموقف

عَن أبي هُرَيرَةَ، رضي الله عَنهُ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: يَعرقُ النَّاسُ يومَ القيامَةِ حَتَّى يَذهَبَ عَرَقُهُم في الأرضِ سَبعينَ ذِراعاً، وَيُلجِمُهُم حَتَّى يَبلُغَ آذانَهُم.

* * *

ظاهر الحديث الإخبار بشدة الأمر الذي يلحق الناس يوم القيامة حتى يعرقوا، فيذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ثم يلجمهم حتى يبلغ آذانهم. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا الأمر للناس عامة، أو اللفظ عام والمعنى فيه الخصوص؟ وهل الذراع المذكور فيه من هذا الذراع المعروف عندنا، أو غير هذا؟

أما قولنا: هل هو على العموم في جميع الناس أم لا؟ ظاهر اللفظ يعطي العموم، وقد جاءت أحاديث تخصصه. فمنها: أنه قد جاء (أن من الناس من يبلغ عرقه إلى الكعبين، ومنهم إلى الركبتين، ومنهم إلى وسطه، ومنهم إلى الصدر، ومنهم إلى الثديين، ومنهم من يسبح في عرقه)[1] أي يعوم فيه. أو كما ورد.

وقد جاء أن هناك من لا يحضر تلك المواطن مثل الشهداء، لأنه قد جاء أنهم يقومون من قبورهم إلى قصورهم، أو كما ورد.

وقد جاء أن الأنبياء والرسل، عليهم السلام، على كراسيّ في ظل عرش الرحمن، وأن العلماء هناك دون الأنبياء بدرجة، والصديقين دونهم، أو كما ورد. وهذه كلها أخبار، والخبر لا

---

(١) أخرجه مسلم عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه بلفظ: تُدنَى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، ويكون الناس على قدر أعمالهم من العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه.

يدخله نسخ، ويسوغ الجمع بينهما بأن يقال: هذا الحديث هو حال الأغلب من الناس، وأن غيرهم ممن ذكرناهم قوم مستثنون ممن ذكر، وهم قلائل.

ويبقى هذا على عمومه فيمن بقي لأن الأكثر من الناس يوم القيامة هم الكفار، كما جاء أن الله، عزّ وجلّ، يقول يوم القيامة لآدم عليه السلام (أَخرِجْ بَعْثَ النار من بنيك. فيقول: يا رب، وما بَعْثُ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعُمائة وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة)[١] أو كما ورد.

ثم أصحاب المعاصي بعدهم، وهم الذين دون الكفار في العرق بحسب معاصيهم، والله أعلم. والذين يسبحون في عرقهم أشدّهم، وقد يكونون من جبابرة الكفار ورؤسائهم في الضلالة، وهم بالنسبة إلىغيرهم قلائل، لأنهم هم (الإرّيسيّون)[٢] والله أعلم، لأن بهذا التوجيه تستعمل جميع الأخبار، وهو الأصلح عند أهل الحديث، لأن الوجه الذي يمكن فيه جمع الأحاديث هو الأحسن عندهم إذا لم تكن أخباراً، فإذا كانت أخباراً فمن باب أَوْلى، فإن الأخبار لا يمكن إسقاط أحدها لعدم النسخ فيها.

وأما قولنا: هل الذراع هو هذا الذراع المعلوم عندنا؟ فهذا هو الظاهر ـ والله أعلم ـ وإن كان بعض العلماء قد قال: إنه قدر الذراع الملكي[٣]، الذي هو ضعفان من هذا. وهذا يحتاج إلى توقيف من الشارع ﷺ. والأظهر أنا لا نُخاطَب إلا بما هو معروف عندنا، وإذا كان الخطاب بخلاف ذلك بُيِّن لنا بوجه نعرفه، أو نعرف نسبته بتقريب ما. هذا هو المتعاهد في الشريعة غالباً.

وأما قوله ﷺ (يلجمهم) أي يبلغ موضع اللجام وهو أفواههم. وهنا إشارة إذا نظرناها يزيد المرء بها تهويلاً وتعظيماً، وهو أنه قد أخبر ﷺ أن النار تدور بالمحشر كالخاتم بالأصبع[٤]، وأن

---

(١) روى الإمام أحمد والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيّك وسعديك، والخير في يديك. فيقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فعنده يشيب الصغير، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾. قالوا: يا رسول الله، وأيّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا، فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ثُلُث أهل الجنّة، أرجو أن تكونوا رُبُع أهل الجنّة، ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار.

(٢) الإرّيسيّون: مفردها إرّيس. الأمير المطاع القادر على هداية قومه أو إضلالهم. وقال ثعلب: أصله رئيس، وِزَان فَعِيل من الرئاسة والمؤرس: المؤمر، ثم قلب.

(٣) الذراع: ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى (لسان العرب). والذراع الملكي ـ كما شرحه المؤلف ـ ضعف هذا المقياس.

(٤) في حديث رواه الطبراني موقوفاً بإسناد جيد قوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: الأرض كلها نار يوم القيامة إلى آخر الحديث.

الشمس تقلب وجهها إلى الناس، وتدنو من رؤوسهم، حتى يكون بينها وبينهم قدر الميل وهو المِرْوَد الذي يكحل به العين[١].

فانظر كيف تكون حرارة تلك الأرض التي تكون الناس عليها، وما عسى أن يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً؟ ثم بعد ذلك يلجمهم، وكيف تكون حرارته؟ فسبحان الذي حبس أرواحهم مع هذا البلاء العظيم. أعاذنا الله منه بجاه نبيه محمّد الكريم ﷺ.

تنبيه: إذا نظرت إليه تَبيَّن لك من عظم قدرة الله تعالى ما يبهر العقول. انظر إلى إخباره عليه السلام بحالة هؤلاء في عرقهم، وتنويعهم على ما ذكرناه بحسب الأخبار الواردة في ذلك. ومع هذا قد جاء أن الناس يحشرون مثل السهام في الجعبة قدم الرجل على قدم المرأة، وقدم المرأة على قدم الرجل، ولا يعرف أحدهم الآخر.

فتأمل كيف يكون هذا القدر من اجتماع وتلاصق، وهم متفاوتون في العرق ومتفاضلون في الآلام. هذا ما يبهر العقول، ويدل على عظم قدرة الله تعالى، وأن أمور الآخرة ليس للعقل فيها مجال، وإنما تؤخذ بالقبول والتصديق الذي لا شك يدخله ولا ريب، ولا يُعْتَرض عليها بعقل ولا قياس، ولا عادة جارية، ولا حكمة، ولا بشيء من الأشياء. ومن وقع له شيء من ذلك فهو دليل على حرمانه وخسرانه، إلا أن يتداركه الله بالتوبة قبل الممات.

وفائدة الإخبار بهذا الحديث وأشباهه: أن يتنبه السامع لها لنفسه، ويأخذ في الأمور التي تخلصه من هذه الأهوال على نحو ما شرع له، ويلجأ إلى المولى الكريم بالصدق والضراعة الدائمة، عساه يمنّ عليه بالعون على ذلك، وينجيه من تلك الأهوال، وإلا كانت الفائدة عليه معكوسة، وظهرت إقامة الحجة عليه ببيان الأمر الذي هو صائر إليه، وتبيين الطرق المنجية له من ذلك. يشهد لذلك قوله جلّ جلاله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢] لأن الرسل عليهم السلام بيّنوا ما ذكرناه. فمن لم يفعل قامت الحجة عليه بالهلاك، ولا دافع له ولا واق منه.

أعاذنا الله من ذلك بمنّه وفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) وفي حديث آخر رواه مسلم عن المقداد عن النبي ﷺ أن الشمس تدنى يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل. وفي الحديث قال سليم بن عامر: والله ما أدري ما يعني بـ (الميل)؟ مسافة الأرض أو الميل التي تكحل به العين؟ إلى آخر الحديث.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ١٥.

ـ ٢٦٨ ـ

حديث الحثّ على الصدقة وأنها تدفع حرّ النار يوم القيامة

عَن عَديّ بنِ حاتِمٍ[١]، رضي الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلاّ سَيُكَلِّمُهُ الله يومَ القيامةِ، لَيسَ بَينَهُ وبينَهُ تَرجُمان، ثُمَّ يَنظُرُ فَلا يَرى شَيئاً قُدّامَه، ثُمَّ يَنظُرُ بَينَ يَديهِ فَتَستقبِلُهُ النَّارُ. فَمَن استطاعَ مِنكُم أن يَتَّقي النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمرة.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) إخباره ﷺ بأنْ ما منّا من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، أي أنه يشافهه بذاته الجليلة بلا واسطة بينهما. (والآخر) إشارته ﷺ إلى أن تتقى النار بالصدقة، ولو بما قَلَّ منها، وهو شِقُّ تمرة. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن فيه دليلاً على أن احتجابه، جلّ جلاله، عن عباده يكون يوم القيامة بغير حائل حسيّ، بل بقدرته، عزّ وجلّ، لا غير. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار). فلو كان الحجاب بشيء محسوس لكان الناظر يبصره، وكذلك حجابه، جلّ جلاله، في هذه الدار أيضاً بالقدرة والعزّ والجبروت لا بالمحسوسات. وما جاء من ذكر الحجاب في الحديث فتعظيم لمملكة المَلِك الذي ليس كمثله شيء، ومن ليس كمثله شيء فلا يحجبه شيء. ومن هذا يُستدل على أن المولى سبحانه ليس بمتحيّز، ولا في جهة من الجهات. فإن كل من هو متحيز أو في جهة من الجهات فإنما يكون حجابه بحائل محسوس مرئي.

وفيه دليل على أن رؤيته سبحانه أو كلامه، أو ما كان من صفاته، عزّ وجلّ، إذا تجلى لعبده بذاته أو بصفة من صفاته لايقدر أن يرى معه أو مع صفة من صفاته شيئاً. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (ثم ينظر) وذلك عند فراغه من سماع الكلام، فدل على أنه عندما يتجلى، عزّ وجلّ، لعبده بصفة من صفاته ـ وهي الكلام ـ لا يمكنه مع ذلك أن ينظر إلى شيء.

---

(١) تقدمت ترجمته في الحديث ٩١.

ومما يقوي ذلك ويوضحه ما جاء في الذين أكرمهم الله تعالى في دار كرامته بدوام النظر إلى وجهه الكريم، لأنهم لا يقدرون معه أن يلتفتوا إلى الجنة ولا إلى نعيمها، ولا إلى الحور والولدان، ولا لشيء من ذلك، حتى تشكو الحور والولدان إلى الله كثرة غَيبتهم عنهم، فيقول جلّ جلاله (إن الحور والولدان قد شكَوا طول الغَيبة)[1] فيقع الحجاب بينهم وبينه، فيرجعون إلى الحور والولدان، ثم يستغيثون بالله سبحانه من الحجاب، فيمنّ الله، جلّ جلاله، عليهم برفعه. هكذا دأبهم أو كما ورد.

وفيه تنبيه صوفي يدل على أن المحجوب هو الذي ينظر ويلتفت. يؤخذ ذلك من أن هذا لم ينظر حتى حجب.

وفيه دليل لأهل الصوفة المتحققين المتبعين للسنة لأنهم يقولون: الملتفت هالك. يؤخذ ذلك من أن هذا لما نظر أمامه وبين يديه ـ وهذه صورة الالتفات ـ استقبله الهلاك، وهو النار. أعاذنا الله منها بمنّه.

وفيه دليل على قرب النار من أهل المحشر. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار)، ومن استقبله الشيء بين يديه فهو أقرب الأشياء إليه.

وفيه دليل على فضل الصدقة. يؤخذ ذلك من كونه ﷺ أخبر أنها الواقية من النار بقوله عليه السلام (اتقوا النار ولو بشق تمرة) فإذا كانت هي الواقية من ذلك الأمر الخطر دلَّ ذلك على عظم فضلها من بين أعمال البرّ.

وفي هذا دليل لأهل الصوفة المتحققين، لأنهم بنوا طريقهم على كثرة البذل والإيثار. وقد قال رسول الله ﷺ عن الصدقة في هذه الدار، وفضلها فيها أيضاً (ادفعوا البلاء بالصدقة)[2] وجعله مطلقاً في أي نوع كان، أعني دفع البلاء. وقال عليه السلام (استعينوا على قضاء حوائجكم بالصدقة)[3] أو كما قال عليه السلام، فأخبر عليه السلام عنها بأنها في الدارين دافعة لبلائها بحسب ما ذكرناه آنفاً. وقد قال الله سبحانه في كتابه العزيز ما يشهد لهذا ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا

---

(١) لم نقف على مصدره.

(٢) ما روي في دفع الصدقة للبلاء: روى الترمذي وابن حبان عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع مِيتة السوء. وروى ابن المبارك في كتاب البرّ شطره الأخير ولفظه: إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين باباً من ميتة السوء. وروى البيهقي مرفوعاً وموقوفاً عن أنس رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة. أمّا ما جاء به المؤلف رحمه الله فلم نقف عليه في اللفظ الذي أورده.

(٣) لم نقف على مصدره.

﴿وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[1] .

وفيه دليل على قبول الخير من العبد، وإن قلّ. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (ولو بشق تمرة).

وبقي هنا إشارة، وهي لمن هذا الخير؟ هل لكل متصدق، وبكل صدقة كانت، من أي نوع كان كسب المتصدق بها، أم لا؟

فالجواب أنه ليس المراد ذلك، بل ذلك للذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم على أوامر ربهم يحافظون، بدليل قوله عليه السلام: (إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد الصلاة. فإن قبلت منه نُظر في سائر عمله، وإلا لم ينظر فيه)[2] أو كما قال عليه السلام: فمن لم تُقبل صلاته، ولا نُظر في باقي عمله، فأي شيء يَقيه من النار، وقد استوجب دخولها؟ وكذلك كل فرض لم يفعله لم تُغنه النوافل عنه، واستحق بتركه دخول النار والعقاب على ذلك بقدر جرمه.

فكذلك إذا كانت الصدقة من مالٍ غير طيب لم تقبل لقوله ﷺ: (إن الله لا يقبل صلاة بغير طُهور ولا صدقة من غُلول)[3]. وكذلك إن كان فيها شائبة لغير الله تعالى لا تقبل أيضاً، لقوله تعالى يوم القيامة لمن خلط في عمله لغير الله شيئاً (أنا أغنى الشركاء اذهب فاطلب الأجر من غيري)[4]. فلْيتنبَهِ المرءُ لنفسه وعمله ويُصلحْهما على حسب ما بينته الشريعة وأوضحته، وإلا دخل تحت قوله عزّ وجلّ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[5].

وبقي بحث في قوله ﷺ: (منكم) هل يعود ذلك على جنس بني آدم، أو هو لجنس المؤمنين؟ ظاهر اللفظ محتمل، وما جاء في الكتاب العزيز يخصصه، وهو قوله تعالى في حق الكفار ﴿كَلَّآ

---

(١) سورة الإنسان، ٨ ـ ١١.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة. قال يقول ربنا عزّ وجلّ لملائكته، وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتَمَّها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن والد أبي المليح رضي الله عنه. والغلول: الغش أو الحرام.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً وأشرَكَ فيه معي غيري تركته وشركه.

(٥) سورة الكهف، من الآية ١٠٤.

﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1] فبهذا يتخصص اللفظ. وبقي الكلام للمؤمنين خاصة صالحهم وغيره.

وبهذا فرح أهل الصوفة وتنعموا لمّا أيقنوا بسماع كلامه، جلّ جلاله، بلا واسطة، وتجليه سبحانه لعباده المؤمنين بلا حجاب، حتى إنه قد روي عن رابعة العدوية أنها قالت: أوليس يوبّخني ويقول لي: يا أمَةَ السوء، فعلتِ كذا وكذا؟ أو كما قالت. فهذا كان عندها من أكبر النعم أن تسمع كلام الجليل بلا واسطة، وإن كان بالتوبيخ. فكيف به أن يكون بالعطف والتأنيس، كما أخبر عزّ وجلّ في كتابه بالقول لهم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[2] يا له من فرح وسرور حارت لديه العقول!

جعلنا الله من أهله بمنّه وفضله، لا ربّ سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة المطففين، الآية ١٥.

(٢) سورة الإنسان، من الآية ٢٢.

ـ ٣٦٩ ـ

حديث خلود أهل الجنة في الجنة وخلود أهل النار فيها إلى الأبد

عَن أبي هُريرةَ، رضي الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: يُقالُ لأهلِ الجنَّة: خُلود لاَ مَوتَ، وَلأهلِ النَّارِ خُلود لاَ مَوتَ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) الإعلام بدوام خلود أهل الجنة، وتأبيدهم فيها دواماً لا انقضاء له، دون موت يلحقهم فيها. يشهد لذلك من الكتاب العزيز قوله تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1]. (والحكم الثاني) الإخبار بدوام خلود أهل النار في النار خلوداً لا انقضاء له، ولا موت يلحقهم فيها. يشهد لذلك من الكتاب العزيز قوله تعالى ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[2] والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: ما الحكمة في أن أخبرنا بالخلود؟ وما الحكمة في أن أخبر بوصفين، وكل واحد منهما يدل عليه الآخر، لأن الخلود يدل على عدم الموت، وعدم الموت يدل على الخلود؟

والجواب: أن في الإخبار لأهل النعيم بدوامه زيادة في نعيمهم، ورفعاً لتشويش ممكن وقوعه من خوف سلب ما هم فيه، فيضاعف بتحقيق ذلك السرور عليهم. ومثل ذلك أهل الشقاوة والعذاب: تضاعفت الأحزان عليهم، واشتد أَلَمُ العذاب عليهم، لعلمهم بدوامه تضاعفت الحسرات والآلام.

والجواب عن الثاني هو أن فيه لأهل السرور تأكيداً في الإخبار، حتى لا يبقى فيه احتمال بوجه من الوجوه، ويحصل لهم بذلك أكبر النعيم، وهو القطع بدوام نعم المنعم عليهم بلا تعب

---

(١) سورة الدخان، الآية ٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٢.

يلحقهم، ولا ألم بوجه من الوجوه المحتملة بحسب ما عهدوا في هذه الدار، لأن نعيمها ـ وإن دام لأحد ـ فالموت يقطعه. فأُخبِروا أن ذلك النعيم بخلاف هذا، لأن دوامه لا ينقضي، ولا لهم فيها موت يقطعه.

ومثل ذلك في ضده أهل دار الشقاء، لأن يحصل لهم العلم أن عذاب تلك الدار دائم، وأنه ليس كعذاب هذه الدار، لأن عذابها ـ وإن دام ـ فالموت قاطعه، كما قال السحرة لفرعون ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[1] وهي منقطعة، فلا نبالي بعذابك، افعل ما بدا لك. هذا بلسان الحال الذي هو أبلغ من لسان المقال، وأنه ليس هنا موت يقطع لكم ما أنتم فيه، فأيقنوا بدوام عقاب الله لهم ونقمه.

ثم مع هذا القدر من التحقيق في الإخبار لم يكفهم ذلك حتى زيدوا بأن (يؤتى بالموت في مثل كبش، وينادى لأهل الدارين جميعاً: هل تعرفون هذا؟ فكلهم يقرون أنهم يعرفونه فيذبح عند ذلك بين الجنة والنار)[2]، وكل من أهل الدارين يعاينونه حتى يرجع لهم العلم بما قيل لهم من الخلود وعدم الموت عين يقين، فينقطع إذ ذاك رجاء أهل النار من رحمة أرحم الراحمين، ويرجع لأهل الجنة بدوام نعم الله عليهم ورحمته لهم عين يقين.

وفي هذا الحديث تضمن الإخبار الحثَّ على الأعمال الموجبة لدار الخير والإحسان، والنهيَ والتحذير عن الأعمال التي توجب الحيرة والهوان. وهو حقيقة فقه الحديث، وفائدته العظمى لمن فهم، وإلا كان حجة عليه لا له ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[3].

جعلنا الله ممن ذُكِّر فوعى، وسبقت له الرحمة بدار الرضى، لا رب سواه، وهو الولي الحميد.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة طه، من الآية ٧٢.

(٢) الأحاديث المروية في خلود أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وذبح الموت كثيرة، منها ما رواه الشيخان والنسائي والترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه بلفظ: يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي به منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا هو الموت. وكلهم قد رآه؛ ثم ينادي منادٍ: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه؛ فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار بيده إلى الدنيا.

(٣) سورة فاطر، من الآية ٣٧.

ـ ٢٧٠ ـ

حديث توبيخ الكافر يوم القيامة على عدم إيمانه بالله تعالى

عَن أنسِ بنِ مالكٍ، رضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: يَقولُ الله تَبارِكَ وتَعالى لأهوَنِ أهلِ النَّارِ عَذاباً يَومَ القِيامَةِ: لَو أنَّ لَكَ ما في الأرضِ مِن شَيءٍ أكُنتَ تَفتدي بِهِ؟ فَيقول: نَعَم. فَيقولُ: أرَدتُ منكَ أهوَنَ مِن هَذا وَأنتَ في صُلبِ آدمَ، ألاّ تُشرِكَ بي شَيئاً، فَأبيتَ إلاّ أن تُشرِكَ بي.

* * *

ظاهر الحديث التوبيخ لأهل النار. يقول الله، جلّ جلاله، لأقلهم عذاباً (لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم، ألاّ تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي) والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: من هو المتكلم مع هذا؟ وما معنى أردت منك؟ وما الحكمة في أن يكون الكلام مع أقلهم عذاباً؟ وما الفائدة لنا في الإخبار بهذا؟

أما قولنا: من هو المتكلم مع هذا، هل هو الحق سبحانه أو غيره عنه ممن شاء من ملائكته أو غيرهم؟ احتمل الوجهين، لأن العرب تقول: كلم زيد عَمْراً، وما كلمه إلا غلامه أو رسوله. فإذا أرادوا الحقيقة في أنه كلمه بنفسه قالوا: كلّمه بنفسه. وقد يطلقون المجاز على الحقيقة فيقولون: كلّمه، ويريدون بنفسه. فإذا لم يُؤكَّد الكلام بالمصدر احتمل الحقيقة والمجاز، وإذا أكدوه بالمصدر كان حقيقة، ولا يمكن فيه المجاز، والكلام هنا غير مؤكد، فهو محتمل للوجهين معاً، والقدرة صالحة لذلك.

وأما قولنا: ما معنى (أردت)؟ فهل يراد بها الإرادة حقيقة، أو هي بمعنى ثان؟ الظاهر أنها بمعنى الأمر، لكن لا يخلو أن يكون فيها من معنى الإرادة شيء، لقوله: (وأنت في صلب آدم)، لأنه لو كانت الإرادة على بابها كان المقصود منها الإشارة إلى ما أخذه علينا من العهد، ونحن في

ظهر آدم، عليه الصلاة والسلام، وأخبرنا إذاً بمراد الله، عزّ وجلّ، وهو أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، وأقررنا بذلك، وأشهدنا على أنفسنا به.

فتلك الإرادة التي أخبرنا بها هي المقصودة بهذه العبارة، ثم أكدت الإرادة بعد علينا بإخبار الرسل، عليهم الصلاة والسلام، وطلب الوفاء بها. فمنها ما أخبرنا نحن به في كتابه، وهو قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[1] وقوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[2].

فالإرادة هنا لا تكون إلا بمعنى الأمر، لأنه سبحانه إذا أراد شيئاً كان لا رادّ لأمره، إذ المُلك له سبحانه وتعالى، ولا يكون في ملكه ما لا يريد. ولو أراد الله سبحانه وتعالى إسلام الكافر لكان مسلماً؛ لكن لم يرد، عزّ وجلّ، منه مع أمره له به، فالفرق بين الأمر والإرادة ظاهرٌ بيّن. وقد يعبَّر بالإرادة عن الأمر، وذلك موجود في لسان العرب، وعلى هذا تأولوا قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: لآمرهم وأنهاهم. وإلا فلو كان خلقهم لإرادة العبادة منهم لكانوا عن آخرهم كذلك، لأنه لا يقع في الوجود غير ما يريد سبحانه وتعالى. والله الموفق.

وفيه دليل لأهل السنة الذين يقولون بأن العبد له إرادة، ولولا ذلك ما اقتضت الحكمة تكليفه، لكن هي متعلقة بإرادة الله، عزّ وجلّ، وحكمته في عباده. ويشهد لذلك قوله عزّ وجلّ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[3] فأثبت، عزّ وجلّ، بهذا لعبده مشيئته، ثم أعقب ذلك بقوله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[4] فعلق، عزّ وجلّ، مشيئة عبده بمشيئته سبحانه، فصح بمدلول الآيتين التكليف بمقتضى الحكمة، ونفوذ حكمه، عزّ وجلّ، في عباده بالحق الواجب، وتصرفه، جلّ جلاله، فيهم بالقدرة القاهرة التي لا يبقى لأحد حجة، بل لله الحجة جميعاً. فيا معشر البطالين والملحدين ﴿فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[5].

وفي سكوت هذا المعذب المخاطب الذي كذبت دعواه دليل على ظهور حجة الله، عزّ وجلّ، على عباده في الآخرة، ولا مخالف منهم في ذلك. يؤخذ ذلك من أنه من يكون يبلغ به شدةُ العذاب

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٧٢.
(٢) سورة الذاريات، ٥٦ و ٥٧.
(٣) سورة المزمل، من الآية ١٩.
(٤) سورة الإنسان، من الآية ٣٠.
(٥) سورة الرحمن، من الآية ٣٣.

أن لو كان له ما في الأرض جميعاً افتدى به، فسكت إذ ذاك ولم يدّع حجة، فلو كانت له حجة يقدر أن يدفع بها عن نفسه ما سكت عنها. لا يشك في ذلك من له عقل، ولذلك جاء أنه لا يدخل أحد النار إلا وهو راض عن الله عزّ وجلّ، لما يرى من ثبوت الحق عليه، وأنه مستحق لما يفعل به.

وأما قولنا: ما الحكمة في الكلام مع من هو أقل عذاباً منهم؟ فهو إعلام لنا بتهويل الأمر وعظمه. فإنه إذا كان هذا حال من هو أقل عذاباً فما بالك بالذي هو أشدهم عذاباً لا يجد ما يفتدي به أن لو قُبِلَ؟ فلا شيء يعدل ما هو فيه، وقد يمكن أنه لا يقدر أن يتكلم للهول الذي هو فيه، وما يوافق هذا الحديث من الكتاب قوله عزّ وجلّ ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾[1].

وأما قولنا: ما الفائدة بأن أخبرنا بذلك؟ فلوجوه، منها: الإشارة إلى حقارة الدنيا وجميع ما فيها من متاعها، لأنه إذا كانت هي وجميع ما ذكر لا يؤخذ فداء عن أقل أهل النار عذاباً فأي شيء خطرها؟ وقد جاء ما يوضح ذلك ويزيده بياناً، وهو أنه إذا كان يوم القيامة تقول الدنيا يا رب: أعطني لبعض أوليائك. فيقول لها جلّ جلاله: اذهبي بلا شيء. أو كما ورد. وقد قال ﷺ (لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء)[2] أو كما قال عليه السلام.

ومنها التحذير عن هذا الأمر الخطر الذي لا يؤخذ فيه فداء، ولا يخلص منه شيء، ولا يقدر عليه، وفيه حض على الوفاء بالعهد الذي قد ألزمناه أنفسنا، وأن هذا عاقبة مَنْ نَكَثَهُ. وفيه الإعلام بعظم قدر الإيمان بالله تعالى، وأنه هو الذي ينجي من ذلك الأمر العظيم لا بغيره، ولو كان ما عسى أن يكون، قال الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[3].

وفيه أيضاً الإخبار بتيسير الإيمان على من وفق، لأنه ليس هو إلا الاعتقاد بالقلب، وهذا شيء لا تعب فيه، ولولا ذلك ما كان الله عزّ وجلّ يقول ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة، من الآية ٣٦.
(٢) رواه الترمذي والضياء في المختارة عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه بلفظ (تعدل) بدلاً من (تساوي) و(كافراً) بدل من (الكافر).
(٣) سورة النساء، من الآية ١١٦.
(٤) سورة النساء، الآية ٣٩.

وفيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى. يؤخذ ذلك من هذا الخير العظيم القدر، الخفيف الحمل، لا يقدر عليه من حرمه الله منه، ويجده عليه أثقل من الجبال الرواسخ. فسبحان من خصّ بالسعادة من شاء بفضله، وقضى على من شاء بالشقاوة بعدله.

وفيه إشارة إلى أهل الإيمان الذين مَنَّ الله عليهم به بفضله، إلى أن يشكروه على نعمة الإيمان لعلها تبقى عليهم، ويزدادون منها لأن الله عزّ وجلّ يقول ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

وفيه دليل على أن القدرة طبعت البشرية على طلب راحة نفوسها. يؤخذ ذلك من أن هذا المعذب لو وجد ما عسى أن يجد كان يبذله في راحة نفسه. وهذا المطلب هو الذي أشقى أهل الدنيا، لأنهم أرادوا ما طبعت عليه النفوس من طلب راحتها، فلم يحسنوا طلب ذلك، وأرادوا استعجال الراحة في غير موضعها، فلحقهم التعب في الدارين معاً.

وجاء أهل السلوك والتوفيق فأبصروا مواطن الراحة، وكيف الطريق إليها؟ فعملوا على ذلك، فنالوا الراحة في الدنيا والآخرة، حتى إنه قيل لبعض المتعبدين: إنك كثيراً ما تتعِب نفسك. فقال لهم: راحتَها أريد. وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله (مساكين أهل الدنيا، طلبوا الراحة فأخطؤوا الطريق، فاستقبلهم العذاب) يُبيِّن ذلك قوله ﷺ (الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا تُكثِر الهَمَّ والحَزَن)[2] أو كما قال عليه السلام.

جعلنا الله ممن رزقه راحة الدنيا والآخرة بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة إبراهيم، من الآية ٧.

(٢) جزء من حديث أخرجه القضاعي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ـ ٢٧١ ـ
حديث النهي عن النذر

عَن ابنِ عُمَر، رضي الله عَنهُما، قالَ: نَهى النَّبيُّ ﷺ عَنِ النَّذرِ وقالَ: إنه لا يَردُّ شيئاً، وإنَّما يُستخرَجُ بهِ مِن مالِ البَخيلِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: أحدهما: النهي عن النذر. والآخر: إخباره ﷺ أن النذر لا يرد شيئاً من القدر، وإنما يستخرج به من مال البخيل. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: هل النهي على الوجوب أو الكراهية؟ ومنها: هل قوله هذا على عموم النذر أو من النذر المعيَّن؟ وما معنى (يستخرج به من مال البخيل)؟ ومَن المستخرِج له؟ ومن هو البخيل؟ وأي شيء العلاقة التي نعرفه بها؟ وما معنى (لا يرد شيئاً)؟ وما الشيء الذي لا يُرَدّ؟

أما قولنا: هل النهي على التحريم أو الكراهية؟ اللفظ يحتمل، لكن ما جاء في الشرع بإلزام النذر لمن نذره، والوفاء به، يدل على أن ذلك ليس بحرام، لأنه لو كان حراماً ما لزم صاحبه الوفاء به، لأن الله، عزّ وجلّ، يقول في كتابه ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾[١] فمدحهم بالوفاء بالنذر.

وأما قولنا: هل هذا على العموم في جميع وجوه النذر، أو هو على الخصوص في وجه من وجوهه؟ فاعلم أن النذر على خمسة وجوه:

منه حرام لا يجوز، وما لا يجوز فعله لا يجوز نذره، ولا الوفاء به. وقد جاء (لا نذرَ في معصية)[٢]. ومن نذره هل تلزمه كفارة يمينٍ أم لا؟ قولان للفقهاء.

---

(١) سورة الإنسان، من الآية ٧.
(٢) أخرجه الطبراني والضياء عن عبد الله بن بدر رضي الله عنه.

ومنه نذر لا يلزم الوفاء به، ولا على قائله شيء، وهو نذر ما لا يملكه. لقوله ﷺ (لا نذر فيما لا يملك)[1] أو كما قال عليه السلام.

ومنه نذر مباح إن شئتَ فعلتَ، وإن شئتَ لم تفعل، ولا شيء عليك. وهو ما نذرتَ من الأفعال المباحات، مثل أن تنذر أن تمشي اليوم للسوق، أو تلبس الثوب الفلاني، أو ما في معناه.

ومنه نذر مستحَبّ وهو: أن تنذر لله طاعةً، ولا تعلّقها بشيء تطلبه من الله تعلى يفعله لك، فيلزم الوفاء به.

والدليل على لزوم ما كان منه طاعة بغير عوض تطلبه وترك ما هو غير طاعة لله ما جاء عنه ﷺ (أنه مرّ على ناس مجتمعين على شخص قائم في الشمس. فقال: ما بالُ هذا؟ فقالوا: إنه نَذَرَ ألاّ يتكلم، ولا يستَظل، ولا يجلس، ويصوم. فقال: مُروه فلْيتكلم، ولْيستظل، ولْيجلس، ولْيتم صومَه)[2] أو كما قال عليه السلام. فكل ما كان من طريق المباح، وكان عليه فيه مشقة، لم يلزمه منه شيء، والذي كان لله فيه طاعة وهو الصوم أمره بإتمامه.

وأما المكروه منه فهو الذي [جاءت] الإشارة إليه في هذا الحديث، وهو الذي ينذر النذر وهو يعتقد أنه يرد عنه شيئاً يخافه، أو يجلب إليه شيئاً يحبه، ويعتقد أن ذلك يؤثر على زعمه. فهذا الأمر لا يرد عنه شيئاً يكرهه، ولا يقرب إليه شيئاً يحبه. فأما إن كان نذره ذلك على طريق الشكر لله، وهو أن يقول: إن قدر لي بكذا وكذا لشيء يحبه، أو يدفع عني لشيء يكرهه، فللّه عليّ شكر هذه النعمة كذا وكذا لشيء يسميه من أنواع البر. فذلك من قبيل الحسن.

وقد فعله عليّ وفاطمة، رضي الله عنهما، فإنه مرض الحسن والحسين فقالا: إن شفاهما الله تعالى نصوم شكراً لله تعالى ثلاثة أيام. فلما شفاهما الله، وأخذا في صوم نذرهما، فعند فطرهما جاء مسكين إلى الباب، فأخرجا له جملة طعامهما، وطويا ليلتهما وأصبحا صائمين. فعند فطرهما أيضاً جاءهما يتيم، فأخرجا له جميع طعامهما وطويا الليلة الثانية فأصبحا صائمين. فعند فطرهما جاءهما أسير، فأعطياه أيضاً جميع طعامهما وطويا الليلة الثالثة. فأنزل الله، عزّ وجلّ، في حقهما ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا. وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق له فيما لا يملك، ولا طلاق له فيما لا يملك.

(٢) أخرجه البخاري وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: بينا النبيّ ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبيّ ﷺ مُرُوهُ فليتكلم وليستظل ولْيعقد وليتمّ صومه.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[١] .

وأما قولنا: ما معنى يستخرج به مال البخيل؟ ومن المستخرِج له؟ ومن هو البخيل؟ وما علامته؟ فأما البخيل شرعاً فهو الذي يبخل بزكاة ماله وما فرض عليه. هذا قول فقهاء الدين وأئمته. وأما مَن المستخرِج له؟ فالقدر المحتوم عليه بوساطة الشيطان وتسويله، لأن الله، عزّ وجلّ، جعله واسطة لكل شر مقدور، كما جعل الرسل، عليهم الصلاة والسلام، الوسائط إلى كل خير مقدور، وكذلك متبعوهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وأما قولنا: ما معنى استخراجه؟ فهو ذهابه عن يده.

وهنا إشارة إلى أنه من كان على السنن المباركة والطريقة المرضية فلا يخرج ماله إلا فيما يُرضي ربه، ويعود عليه نفعه في الدارين. ومن كان غير مُـمْتَثِل لأمر ربه يخرج ماله إمّا فيما لا يُرضي ربه، أو فيما لا ينفعه، حتى تكون النفقة بحسب الحال ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٢]، يشهد ذلك قوله ﷺ (من جمع مالاً من نَهاوِش أذهبه الله في نهابر)[٣] أو كما قال عليه السلام.

وأما قولنا: (لا يرد شيئاً) ما معناه؟ فهو بمعنى أنه لا يرد عنه شيئاً قُدِّر عليه، وكما لا يَرد عنه شيئاً قُدِّر عليه كذلك لا يُوصِل إليه شيئاً لم يُقدّر عليه، بخلاف الصدقة لأنه قال ﷺ (ادفعوا البلاء بالصدقة، واستعينوا على قضاء حوائجكم بالصدقة)[٤].

وهنا بحث: هذه الصدقة تدفع البلاء وتأتي بالحوائج، والنذر صدقة أيضاً ولا يرد شيئاً من البلاء، ولا يأتي بشيء من الخير، لأن تيسير الحوائج من أعلى وجوه الخير. والجواب من وجهين:

(أحدهما) أن الأحكام لله سبحانه، يجعل ما يشاء كما يشاء وكيف يشاء، وليس ذلك لغيره. فمن جعل لشيء من الأشياء حكماً من الأحكام من تلقاء نفسه أو رأيه لم يصح من ذلك شيء. فشاء

---

(١) سورة الإنسان، الآيات ٧ ـ ١١

(٢) سورة النور، من الآية ٢٦.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب عن أبي سلمة الحمصي (لا صحبة له وفيه أقوال كثيرة في وضعه). والنهاوِش: المظالم والإجحافات بالناس. والنَّهابِر: الحفر بين الآكام، مفردها: نُهْبُرَة.

(٤) انظر تفصيل الكلام عنه في الحديث ٢٦٨.

الحكيم أن جعل للصدقة هذه المنزلة المباركة، ولا يلهم إليها إلا من سبقت له سابقة خير، ولم يَجعل للنذر الذي هو من قبيل المكروه ـ كما تقدم في الفائدة ـ شيئاً غير استخراج مال البخيل.

(والوجه الثاني) من طريق النظر، وكيف يجب أن يكون أدب العبودية مع الربوبية. وهو أنه لما أمر الله، عزّ وجلّ، بالصدقة، وأخبر أنها تردّ البلاء فجاد هذا العبد بمال الذي هو معلق بقلبه تصديقاً لوعد مولاه، ورجاءً في فضله في دفع ما يخافه، أو تيسير ما يرجوه، فجاد الله تعالى عليه بما أمّله من ذلك بفضله. وجاء صاحب النذر المكروه، وأساء الأدب مع مولاه، وقال: إن أنتَ دفعتَ عني ما أخافه من كذا، أوبلّغتني ما أريده من كذا لشيء يسمّيه، فإني أعطيك من مالك الذي خولتني، وقد حبست منه الحقوق التي أمرتني بها، كذا[1]. فلسوء أدبه لم ينفعه نذره شيئاً، وأخرج مالَه عن يده، ولم يبلغ به ما أمله، عقاباً على سوء أدبه وتعديه في منع ما أمره به.

ويترتب على هذا من الفائدة أنه لا ينال ما عند الله إلا بما أَمَرَ به، ونهى عنه، وحدّ وشرع من الواجبات والمندوبات والمستحبات لا بغير ذلك.

جعلنا الله ممن هدي إلى ما به أمر، وجنبنا البدع والآثام بمنّه وفضله. إنه وليّ ذلك. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) هذا هو المفعول الثاني لأعطي.

- ٢٧٢ -
حديث الأمر بإتمام الصيام لمن أكل ناسياً

عَن أبي هُريرةَ، رضي الله عَنهُ، قالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: مَن أَكَلَ ناسِياً وَهُوَ صائِم فَلْيُتِمَّ صَومَهُ، فإنَّما أطعَمَهُ الله وسَقاهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن الأكل ناسياً، وهو صائم، أنه لا شيء عليه في ذلك، ويمسك بقية يومه، وصومه مجزىء عنه. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا على العموم في الفرض والنفل، أو في النفل فقط؟ وهل يقصر ذلك على الأكل وحده، أو يتعدى إلى غيره من مفسدات الصوم إذا فعلها ناسياً؟ وهل يكون ذلك في المرة الواحدة في اليوم الواحد؟ وإن تكرر الفعل منه مراراً في اليوم الواحد هل ينتقل الحكم إلى حكم ثان، أو الحكم واحد وإن تكرر ذلك منه مراراً في اليوم الواحد؟ وهل هذا أيضاً لمن يندر منه النسيان، ولمن هو مستنكَح[1] بالنسيان على حدٍّ واحد، أو هذا خاص لمن يندر منه النسيان لا غير؟

وأما قولنا: هل ذلك على العموم في صوم الفرض والنافلة أو لا؟ فقد اختلف العلماء في ذلك. فمذهب الشافعي ومن تَبِعَه أن ذلك على العموم في الفرض والنفل. ومذهب مالك ومن تبِعَه أن ذلك في النفل لا غير، وتعليله في ذلك - والله أعلم - الأخذ في الجمع بين الآية والحديث.

فأما الآية فقوله عزّ وجلّ ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[2] فأوجب الله، عزّ وجلّ، القضاء على المريض والمسافر. والناسي كالمريض، لأن النسيان من جملة الأمراض، إذ إنه عاهة تلحق الذهن الذي هو المقصود من الشخص حتى ينسى ما هو مشروع له، ومكلف به، فتقع منه المخالفة في ذلك. والنسيان من جملة ما امتُحِن به بنو آدم، وقد قال الله عزّ

---

(١) مستنكح: مغلوب، مُسَلَّط عليه. يقال: استنكح النوم عينيه: غلبهما النوم.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٨٤.

وجلّ في حقه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[1] قال أهل العلم في ذلك: سلط عليه النوم والنسيان، فكانا عاهة لحقته في حسن خلقته لحكمة اقتضتها حكمة من لا يشبهه شيء.

وأما الحديث فهو الاحتمال الذي يتطرق للحديث الذي نحن بسبيله عند قوله عليه السلام (فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه) هل هذا الإتمام لا يكون معه إعادة لعدم قصده الأكل والشرب، أو هذا الأمر من أجل حرمة الصوم لئلا يستبيح الأكل، لكونه قد أكل ناسياً وانقطع عنه صومه، فيتم اليوم مستصحباً للأكل والشرب. فأمره عليه السلام باستصحاب الإمساك ـ وإن كان قد أكل ـ لحرمة الصوم، ولعدم قصده الأكل. ويبقى الأمر بالقضاء لذلك اليوم بالقاعدة المتقدمة. وأصل مذهبه (سدّ الذريعة) وهو الأخذ بالأحوط في النوازل، وهو أبرأ للذمة. واستعمل الحديث على ظاهره في النافلة فوقع له الجمع بين الآية والحديث. ومن أجل الخلاف أيضاً في نسخ القرآن بالسنّة فيقوي ما ذهب إليه بلحظ هذه الأمور.

وأما قولنا: هل يقصر ذلك على الأكل وحده، أو يتعدى إلى غيره من مفسدات الصوم إذا فُعِلت نسياناً؟ فالكلام على هذا يحتاج إلى تقسيم المفسدات للصوم، والمتفق فيها، والمختلف فيها. فاعلم أن مفسدات الصوم ثلاثة: الأكل وما في معناه من الشرب أو ما يجري مجراهما، وهذا متفق عليه، وأنه قد يقع بالقصد وقد يقع بالنسيان. وأما الجِماع فهو يفسد الصوم بذاته. وهل يقع ذلك على طريق النسيان أم لا؟ قولان. وذلك للخلاف في أسبابه، هل حكمها حكم الجماع نفسه أم لا؟ قولان. والثالث: الغيبة. وهذا مختلف فيه. فالجمهور على أنها ليست تفطر الصائم بل هي من جملة الكبائر، وهي في حق الصائم أشد. ومن العلماء من يقول: إنها مفسدة للصوم.

وإن كانت من المفسدات للصوم فليس الواقع فيها معذوراً بالنسيان، فلا يدخل تحت ما نحن بسبيله. وبقي الكلام على الأكل والجماع لا غير. فمن يقول: إن الجماع يقع بالنسيان، كما يقع بالأكل والشرب، فيلزمه تعدي الحكم. وهو مذهب مالك، رحمه الله، ومن تبعه، فإنه يجعل في عمده وعمد الأكل والشرب القضاء والكفارة، وفي نسيانه ونسيان الأكل والشرب القضاء لا غير. ومن قال: إن النسيان لا يمكن في الجماع، وهو مذهب الشافعي، رحمه الله، ومن تبعه، فلا يجري فيه هذا الحكم، ويكون حكمه كله عنده حكم العمد، فيلزمه القضاء والكفارة.

وأما قولنا: هل ذلك لمن وقع منه في اليوم الواحد مراراً أو ليس إلا لمن وقع ذلك منه مرة

---

(١) سورة التين، الآيتان ٤ و ٥.

واحدة في اليوم الواحد؟ اللفظ يقتضي العموم مهما وقع ذلك منه على وجه النسيان حقيقة، فالعلة بعينها موجودة، فالحكم كالحكم على حدّ واحد.

وأما قولنا: هل ذلك على العموم أيضاً، يتناول كل نسيان سواء أكان نادراً ما يكون في إنسان أو كان مستنكَحاً به؟ ظاهر اللفظ يقتضي العموم، وما يعرف من قواعد الشرع من الأحكام خلاف ذلك، لأن الأحكام لم تأت إلا على الغالب من أحوال الناس وعاداتهم الجارية. والعادة من الناس في أمر النسيان إنما تصدر من الشخص مرات يسيرة، وأما الذي هو مستنكَح به فنادر، فينبغي أن يحتاط لذلك، لأنه ذلك علة بنفسها.

ولوجه آخر وهو مما عرف من فعله ﷺ أنه لما سُحِرَ، وكان يظن أنه فَعَل الشيءَ ولم يكن فعله، جعل يسأل أهله هل فعلتُ كذا أم لا؟ فيعمل بحسب ما يقولون له في ذلك[1]. فدل بهذا أن هذا هو حكم الذي يستنكِحه السَّهْو، فبيّن، عليه السلام، بما فعله هنا هذا الحكم، كما بيّنه، عليه السلام، بقوله في الذي يندر منه السهو. ولذلك قال الفقهاء في الذي لا يمكن أن يعقل من طهارته أو صلاته شيئاً يبني عليه لكثرة استيلاء السهو عليه: أنه يجعل شاهدين عند تلبّسه بالعبادة، ويعمل على حسب ما يقولان له.

وأما قولنا: هل هذا على الندب أو الوجوب؟ فهو موضع بحث، والخلاف فيه محتمل.

وفيه دليل على أن المتكلم ينبغي له مراعاة من يفهم ومن فهمه بطيء ليجتمع للكل الفائدة المقصودة. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (من أكل وهو صائم)، ثم قال في آخره (فإنما أطعمه الله وسقاه). واللفظ بـ (الأكل) يتضمن الشرب، لأنه كله أكل. ومما يبين ذلك ما روي في الحديث أنه (كان ﷺ إذا أكل طعاماً وفرغ منه، حمد الله وقال: اللهم أبدِلْنا خيراً منه. وإذا أكل لبناً وفرغ منه قال: اللهم زدنا منه)[2] واللبن مما يشرب، فسمى شربه أكلاً. لكن لما كان الأكل يحمل على ظاهره فيما يؤكل دون ما يشرب، أتى في الحديث بقوله (فإنما أطعمه الله وسقاه).

ولهذا وقع الخلاف بين العلماء في الحديث الذي ذكر فيه أنه أُتِيَ ﷺ بصبي لم يأكل الطعام، فبال على ثوبه فقال بعضهم: لم يكن شرب من لبن أمه شيئاً، وأتي به ليكون أول ما يدخل جوفه ريق ﷺ. وقال بعضهم: معنى (لم يأكل الطعام) أنه كان يرضع اللبن ولم يأكل الطعام الذي هو

---

(١) أخرج الإمام أحمد والشيخان والنسائي والحاكم والبيهقي في دلائل النبوة عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِرَ رسول الله ﷺ حتى إنه ليخيّل إليه فعل الشيء وما فعله.. الحديث.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن السني والبيهقي في الشعب عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأبدِلْنا خيراً منه. وإذا شرب لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزىء من الطعام والشراب إلا اللبن.

خلاف اللبن، فأزال، عليه السلام، بقوله (فإنما أطعمه الله وسقاه) الخلاف في ذلك حتى اجتمعوا في فهم الفائدة جميعاً. فسبحان من أيده بالفصاحة والبلاغة.

وهنا إشارة في النظر في هذا الحديث، وما هو في معناه، وفي المعارض له، وما يترتب على ذلك من الفائدة لمن له فهم وعقل راجح. انظر كيف عذرنا بالنسيان في هذه العبادة العظمى، وأبقى لنا حكمها وما فيها من الخير والأجر مع وقوع المخالفة منا بالفعل لذلك؟ وكذلك إذا تتبعت قواعد الشريعة تجدها بفضل الله قد عذرنا في النسيان وما عليه استكرهنا بمثل قوله ﷺ (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[1] أو كما قال عليه السلام. وقال الله سبحانه في شأن الإيمان الذي هو أصل الدين ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[2] وهذا كله تجده في الأمور التي بين العبد وبين مولاه.

وأما المعارض لهذا فهو ما جاء في عدم العذر بالنسيان في الأمور التي بين العبيد، فتجد قد أُخِذنا فيها بالنسيان والخطأ. يشهد لذلك قوله ﷺ (الخطأ والعمد في أموال الناس سواء) وما جعل في قتل الخطأ من غُرم العاقلة دِيَة المقتول، وما جعل في جرح الخطأ من غُرم أَرْشِه بدلاً من القصاص فيه، وما جعل في الغِيبة من الإثم في الخطأ والعمد سواء. فلم نُسامَحْ في الحقوق التي بيننا كما سومحنا في الحقوق التي بيننا وبين مولانا، جلّ جلاله، على ما فسرنا قبل.

ويترتب على ذلك من الفائدة المحافظةُ على حقوق الغير، لأن تبقى ذمته منها بريئة، فيكون القصاص أهون عليه. فإن وفّق مع ذلك لتوفية حقوق مولاه فتلك الدرجة العليا، وإن نقصه منها شيء على طريق النسيان، أو ما غلب عليه بالاستكراه، فالعذر له عند مولاه قائم. وإن كان ذلك بالقصد فالخروج منه يسير بفضل الله، وهو وقوع التوبة، ولو عند آخر نَفَس، بخلاف حقوق الغير، فإن الخلاص منها إذا ترتبت في الذمة عسير جداً. أعاذنا الله من ذلك بمنّه.

ولهذا كان أهمّ ما عند أهل السلوك التحفظ على براءة الذمة، وحينئذ يأخذون في العبادة والترقي، وإلاّ عَسُرَ عليهم الأمرُ من هذا الباب، وفيما ذكرناه دليل على استغناء الله، عزّ وجلّ، عن عبادة العابدين، وتنزيهه عن الضرر بمعصية العاصين، لأنه لو كان محتاجاً لشيء من ذلك أو يتضرر بشيء منه، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، لكان الأمر بالعكس، فيكون الذي بين العبد وربه الحكم فيه أشد من الذي بين العباد بعضهم مع بعض. فسبحان من بذاته تنزّه عن الغير وبها جلّ وتعالى.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الطبراني عن ثوبان رضي الله عنه.

(٢) سورة النحل، من الآية ١٠٦.

— ٢٧٣ —

حديث حكم جلد الميتة بعد دبغه ومذهب العلماء فيه

عَن سَودَةَ[١] زَوجِ النَّبيِّ ﷺ قالَت: ماتَت لَنا شَاة فَدَبَغنا مَسكَها[٢]، ثُمَّ ما زِلنا نَنبِذُ[٣] فيهِ حَتَّى صَار شَنّاً[٤].

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن الدِّباغَ يطهّر جلد الميتة، ويجوز استعماله والانتفاع به. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا التطهير عام أو هو في وجوه مخصوصة؟ وهل الانتفاع به عام أيضاً أو خاص؟

أما قولنا: هل الطهارة فيه عامة أو خاصة؟ ففيه خلاف بين العلماء، وإن كان اللفظ محتمِلاً لذلك. فمذهب مالك ومن تبعه أنها خاصة، ومذهب الشافعي ومن تبعه أنها عامة. ويقوي مذهبه في ذلك بقوله ﷺ في حديث غيره (أيّما إهاب دُبِـغ فقد طَهُر)[٥].

---

(١) سودة بنت زمعة القرشية، إحدى أزواج النبيّ ﷺ كانت في الجاهلية زوجة السكران بن عمرو بن عبد شمس، وأسلمت، ثم أسلم زوجها، وهاجرا إلى الحبشة في الهجرة الثانية، ثم عادا إلى مكة، فتوفي السكران، فتزوجها النبيّ ﷺ بعد موت خديجة وقبل الهجرة بثلاث سنوات، وكانت طويلة جسيمة، ووهبت نوبتها من القَسْم لعائشة رجاء أن تموت في عصمة النبيّ ﷺ فتم لها ذلك. توفيت في المدينة سنة ٥٤هـ. (الأعلام ٣/ ٢١٤ وشذرات الذهب ١/ ٣٤).

(٢) المَسْك: الجلد.

(٣) نَنبِذُ؛ أي نتخذ نبيذاً. والنبيذ: يطلق على سائر الأشربة من الطبيخ والعصير، وكل ما نبذ في الماء ونقع فيه فهو نبيذ. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يُنبَذ له ليلا فيشربه غُدوة، ويُنبذ له غدوة فيشربه عشيّة. وحديث سودة (وهو حديث الباب) يعني أنهم ما كانوا ينبذون إلا ما يَحِل شربه، ومع ذلك كان يطلق عليه اسم نبيذ. (فتح الباري ١١/ ٥٧٨).

(٤) الشن: القِربة الخَلَق الصغيرة.

(٥) أخرجه الشافعي وعبد الرزاق والإمام أحمد والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما قولنا: هل الانتفاع به عام في كل الوجوه أو خاص؟ ففي ذلك خلاف. فمذهب الشافعي ومن تبعه أن الانتفاع به عام في كل الوجوه، وبيعه جائز. ومذهب مالك ومن تبعه أن الانتفاع به خاص في اليابسات، ولا يستعمل في المائعات إلا في الماء وحده. ومن أجل هذا الحديث جعل قولها (فننبذ فيه) مبيناً ومخصصاً للوجه الذي يستعمل فيه، وعند الشافعي كونهم استعملوه لأن ينبذوا فيه بحكم الوفاق، وأن ذلك لا يعتبر.

وفيه دليل على أن تملّك المال واقتناء الماشية لا يخرج عن الزهد. لأن سيّدنا ﷺ قُدوَتُهم، وقد كانت الشاة عندهم حتى ماتت حتف أنفها. وفيه رد على من يزعم أن الزهد إنما هو بالخروج عن جميع ما يمتلك. وهذا تحكم بغير دليل. وقد بَيَّنَ ﷺ هذا أتم بيان بقوله (ليس الزهد بتحريم الحلال، وإنما الزهد بأن تقطع إياسك مما في أيدي الناس، وأن تكون بما في يد الله أوثق منك مما في يدك)[1] أو كما قال عليه السلام.

فحقيقة الزهد أمر قلبي، والإشارة في ذلك حتى لا يكون في القلب ميل إلى الدنيا ولا إلى حطامها، وإن كان في يدك منها شيء كما قيل في وصف القوم: استوى عندهم مَدَرُها وذَهَبُها وفِضَّتُها وجَميعُ متاعها، أي أنهم لا يبالون بشيء من ذلك، وإن تصرفوا فيه فبحسب امتثال الأمر.

كما ذكر عن بعض السادة أنه كان له غنم وبقر، فسمع بعض الناس عنه فأتى لزيارته، فدخل عليه والغنم التي كانت له والبقر قد خرج بها الرعاة، وهو مشمر يجعل العجاجيل في بيت ويغلق عليها، وسخال الغنم في بيت ويغلق عليها، وهو يرمي لدجاج كانت عنده علفها. فقال الشخص في نفسه: هذا الذي يوصف بالزهد، وهو يحرص على الدنيا بمثل هذا الحرص؟ فرفع إليه رأسه وقال: يا بني ليس هذا هو الحرص، وإنما أنا أرفق بهؤلاء الضعاف، فإن أمهاتهم[2]، قد خرجوا وهم لا يطيقون المشي معهم، وهؤلاء أعطيهم قُوتَهم، فإني عنهم مسؤول. وأخبره بأشياء كانت في خاطره مكنونة؛ فاستحيا ذلك الشخص، وحصل له حال مبارك.

وإنما هرب من هرب من رؤية حطامها وتملّكه لأنه رأى نفسه أنه لا يقدر أن يُعرِض عما في يده، فتركه من أجل تلك العلة. هذا حال غير المتَمَلِّكين. وأما من تركه وهو يظن أن ذلك عين الزهد فليس الكلام عليه، وقد أقمنا عليه الحجة قبل.

---

(١) أخرجه الحاكم وقال غريب ضعيف، وأخرجه الترمذي وابن ماجه والبيهقي في الزهد عن أبي ذر وأبو نعيم في الحلية عن أبي الدرداء رضي الله عنه بلفظ: الزّهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك. . وفي رواية البيهقي زيادة: وأن يكون مادحك وذامّك في الحق سواء.

(٢) كذا بضمير العاقلين هنا وفيما بعد.

وفيه دليل على أن من السنة تنمية المال. يؤخذ ذلك من أخذهم جلد الشاة ودبغه، ولم يتنزهوا عنه مع كثرة كرمهم وزهدهم رضي الله عنهم أجمعين. وقد جاء هذا نصاً منه ﷺ بقوله (إن الله نهاكم عن إضاعة المال وكثرة السؤال والقيل والقال)[1] أو كما قال عليه السلام.

وفيه دليل على أن من السنة استعمال أثر الحكمة إذا قُدِر عليها. يؤخذ ذلك من قولها (ننبذ فيه) فإن ذلك مما يوافق هواهم. فهذا استعمال أثر الحكمة. وقد كان ﷺ في وقت غير هذا يقعد الشهر والشهرين، وليس لهم طعام إلا الأسودين التمر والماء.

ويترتب على هذه الآثار المختلفة عنه، عليه الصلاة والسلام، في تطوير أحواله المباركة أن السنة إذا وجد العبد بما يفعل به أثر الحكمة أن يستعمل من الأطعمة والأشربة ما يصلح به مزاجه، لأن يكون ذلك عوناً له على عبادة الله، لأن ذلك الأقرب إلى الله، عزّ وجلّ، وهو في ذلك متبع للسنة، وإذا لم يجد على ذلك قدرة لا يشغل نفسه بطلب ذلك، والاهتمام به، إلا أنه يرضى بما تيسر له في الوقت من رخاء وشدة، ويوافق في ذلك القدر بالتسليم والرضا، ويعلم أن القدرة قد تبلغه بغير أثر الحكمة أكثر مما يبلغ به أثر الحكمة في ذلك النوع، بحسب ما جرت به العادة له أو مثل ذلك أو أقل، لا تتوقف قدرة القادر عن شيء عجزاً ولا بخلاً.

وفي هذا دليل لأهل السلوك في اقتدائهم العجيب الذي لا يقدر أحد أن يضاهيهم فيه. ومما يحكى في ذلك أن بعضهم مرض بإنزال الدم فعجز عن محاولة أمر نفسه، وكان له أخ في الله مبارك، وكان قادراً على وقفه، فوقع له أن يمشي إليه، ويكون مرضه عنده. فلما دخل عليه فرح به، فأول طعام قدم له لحماً[2] بخَلّ. فقال في نفسه: وكيف يوافق هذا لمثل[3] هذه الشكاية من طريق أثر الحكمة؟ ثم قال لنفسه: القدرة صالحة لما شاءت، وأنت قد أتيت إليه من أجل الله، فلا تردّ عليه، ولا تمتنع عما يسوق لك. فهو أبصر. فأكل ذلك الطعام وبقي أياماً متواليات لا يأتيه إلا بذلك الطعام أو مثله مما هو مخالف لشكايته، وشكايته كل يوم تنقص حتى برئت في أقرب زمان، وحينئذ رفع عنه أكل طعام الخل.

وفيه دليل على جواز دوام أكل الطيب من الطعام إذا وجد، وليس بمناف للزهد ولا للعبادة. يؤخذ ذلك من قولها (ما زلنا ننبذ فيه) فدل ذلك على دوامهم للانتباذ وهو من أطيب شرابهم بحسب

---

(١) أخرجه الإمامان مالك وأحمد كما أخرجه مسلم والبغوي في شرح السنة عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم. ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

(٢) كذا. فخبر المبتدأ أول محذوف: كائن.

(٣) اللام زائدة للتقوية والتوكيد.

أهوية بلادهم. وقد جاء عنه ﷺ أنه كان يأكل الطيّب من الطعام في وقته، والغليظ منه، ولم يذمَّ قط طعاماً.

وفيه دليل على جواز تخصيص بعض الأواني ببعض الأطعمة. إذا رأى صاحبها في ذلك مصلحة. يؤخذ ذلك من قولها: (ما زلنا ننبذ فيه حتى صار شنّاً) أي بالياً. فدل ذلك على اتخاذهم ذلك الجلد للانتباذ وتخصيصه به ودوام ذلك حتى صار بالياً.

وفيه دليل على جواز إضافة الشيء إلى الشخص بأدنى ملابسةٍ ما. يؤخذ ذلك من قولها (شاة لنا) و (مازلنا ننبذ فيه) بصيغة الجمع، والشاة إنما كانت لصاحب البيت أوْ لها، فلما كان كل ما يكون في البيت، وإن كان الذي يملكه واحداً لكن تعود المنفعة فيه على الكل، حصل فيه بلازم جري العادة اشتراك ما، فجاز أن يضيفه الشخص إلى نفسه مع الذي هو مالك له.

وفيه دليل على أن المصائب تصيب الرفيع والوضيع في المال والنفس. يؤخذ ذلك من موت هذه الشاة، وهي في ملك سيّد الأولين والآخرين، فإن ذلك إصابة في المال. وقد كان ﷺ يصاب في بدنه باعتراض الأمراض، وهذا ترفيع له في الدرجات. وقد قال ﷺ (إن الله يبغض النِّفْريتَ الذي لم يرزأ في بدنه وماله)[1] أو كما قال عليه السلام. وقد قال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[2] وقال عزّ وجلّ: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[3].

فقد بانت فائدة الامتحان في الأموال والأبدان بالكتاب والسنة. والحكمة في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب. وقد كان بعض الرجال يقول: أحب المرض لتكفير سيئاتي، وأحب الموت من أجل لقاء ربي. فانتبهْ إلى حال القوم كيف هي حال الغير يَبِنْ لك الخير أين هو ويتضحْ.

جعلنا الله ممن هداه في سرائه وضرائه إلى الطريق المبلغ إلى رضاه، بمنّه وكرمه، لا رَبَّ سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) يقال: عفريت نفريت، أي: خبيث مارد.
(٢) سورة محمد، الآية ٣١.
(٣) سورة البقرة، الآيتان ١٥٦ و ١٥٧.

ـ ٢٧٤ ـ

حديث ابن أخت القوم منهم

عَن أنَسٍ، رضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: ابنُ أُختِ القَومِ مِنهُم. أو مِن أنفُسِهِم.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن ابن أخت القوم منهم، وأنه يضاف إليهم. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى (منهم)؟ هل ذلك على العموم في كل من انقطع عن نسب أبيه، أو ذلك في وجه خاص؟ وما الحكمة في أن أتى بصيغة (القوم)؟ وماذا أراد بها، هل القبيلة أو غير ذلك من الرجال دون النساء؟ وهل لهذه النسبة أمر لا يعقل معناه، فيكون تعبداً، أو لحكمة تعرف؟

أما قولنا: ما معنى (منهم)؟ وهل ذلك على العموم، أو في أمر خاص؟ اللفظ محتمِل. وتخصيصه يؤخذ من غير هذا الحديث. ويتبين أيضاً تخصيصه من قواعد الشريعة. فأما تخصيصه من جهة قواعد الشريعة فقد قال ﷺ (من انتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام)[١] أو كما قال عليه السلام. فلا يكون على عمومه حتى يقطع الابن من أبيه ونسبه. وأما تخصيصه من غير هذا الحديث فقد قال ﷺ (الخال أحد الأبوين)[٢] معناه فيما يجب من بره وتوقيره، لا أنه اشترك هو والأبوان في الصبي، ولا له معهما من ميراثه نصيب، فكذلك ابن الأخت من القوم، أي مِثْل بَنِيهم، لأنه ما يكون من القوم إلا بُنَيُّهُمْ[٣]، فهو كبنيهم في الشفقة عليه، ولذلك قدم في الحضانة الأم وأهلها من بعدها على الأب وأهله. ويلزم الصبيَّ من البر لهم والإكرام مثل ما يلزم من جهة الأب. وقد قال بعض العلماء: إذا أردت النصرة فائت العمومة والقبيلة فهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بلفظ: من ادّعى أباً في الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام.

(٢) لم نقف على مصدره، وإنما روى الخرائطي في مكارم الأخلاق عن وَهْبِ خال النبيّ ﷺ: إنما الخال والد.

(٣) البني: جمع ابن على وزن فعول، مثل عصيّ جمع عصا.

أشد في الحماية لك، وإن أردت الأكل والحاجة من جهة بذل المال أو ما في معناه فائت الخؤولة فهم أحنّ عليك وأشفق. ومما يبيّن ما ذكرناه أنه ﷺ دخل على عائشة رضي الله عنها وهي تبكي فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: ليس لي بما أُكَنَّى، وعادة العرب يكنّون بالأكبر من بنيهم. فقال لها: (تكني بابن أختك عبدالله)[1] فجعل ابن أختها مثل ابنها.

وأما قولنا: ماذا أراد بقوله (القوم)؟ هل الرجال دون النساء أو الجميع؟

فالجواب: أنه لما كان الحكم في هذا للرجالِ والنساء سواء، وعادة العرب إذا كان مذكر ومؤنث، وأرادوا جمعهما، غلَّبوا المذكر وإن كان هو الأقل وجمعوهما جمع المذكر، فلذلك جمع هنا ﷺ بصيغة جمع المذكر.

وأما قولنا: هل هذا تعبد أو لحكمة تعرف؟ فالحكمة ـ والله أعلم ـ ظاهرة لأن العرب كانوا لا يلتفتون لجهة النساء ولا يُعنَون بهن، وكانوا يقولون في ابن البنت الذي هو أقرب منه - أعني من ابن الأخت:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا ... بنوهنَّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ[2]

فأراد ﷺ بهذا الحديث وما في معناه نسخ أحكام الجاهلية، والإلفة بين الأهل والأقارب، والله أعلم.

وفيه دليل على جواز المخاطبة باللفظ العام والمراد منه الخصوص، إذا علم من فهم المخاطب أنه فهم ما ألقي إليه. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام: (ابن أخت القوم منهم) والمقصود بقوله (منهم) ما أشرنا إليه باللفظ الخاص.

وفي هذا دليل لمالك حيث يقول: بالمعنى استُعبِدنا لا بالألفاظ. إشارة منه إلى هذا المعنى فلا تشاحّ في الألفاظ.

وفي هذا دليل على فضل الصحابة رضي الله عنهم وتحريهم في النقل. يؤخذ ذلك من قول الراوي (منهم أو من أنفسهم) وهذا دأبهم في النقل.

وفيه دليل لمن يقول: إن الحديث إنما ينقل مثل القرآن بالواو والفاء. يؤخذ ذلك من قوله

---

(١) أخرج ابن سعد والطبراني عن عبادة بن عبد الله بن الزبير أن عائشة قالت: يا رسول الله، ألا تكنيني؟ قال: اكتني بابنك عبد الله بن الزبير. وعن عروة، رضي الله عنه، عن عائشة، رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال لعائشة: ما يبكيك؟ الحديث.

(٢) البيت للفرزدق في ديوانه ص ٢١٧.

(منهم أو من أنفسهم) لأن المعنى في اللفظين سواء، فلو لم يكن الأمر عندهم أنه ينقل بالفاء والواو ما فعل هذا.

وفيه دليل لمن يقول: إن للعالم أن يعلّم قبل أن يُسأل. يؤخذ ذلك من أن سيّدنا ﷺ أخبرهم بهذا الحديث من غير سؤال تقدم، ولو تقدمه سؤال لذكره الراوي، فإن هذا هو المعروف من عادتهم رضي الله عنهم.

وفيه دليل على أن لسيّدنا ﷺ أن يقرر من الأحكام ما شاء بغير وحي في ذلك. يؤخذ ذلك من أنه ﷺ أخبر بهذا الحديث ولم يذكر بأنه بوحي، وبأي طريق أمرنا من هذين الوجهين يلزمنا العمل بذلك، لقول الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[1] وإن كانت المسألة مختَلَفاً فيها. لكن هذا هو الظاهر والذي عليه الجمهور، وهو المستقر أيضاً من أحكام الشريعة لمن تتبعها غالباً.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

(١) سورة النساء، من الآية ١٠٥.

ـ ٢٧٥ ـ

حديث يحرم على المرء أن ينتسب إلى غير أبيه

عَن سَعدٍ[١]، رضي الله عَنهُ، قالَ: سَمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: مَن ادَّعى إلى غير أبيهِ، وَهُوَ يَعلمُ أَنَّهُ غَيرُ أبيهِ، فالجنَّةُ عَليهِ حَرام.

* * *

ظاهر الحديث المنع من أن ينتسب المرء إلى غير أبيه وهو يعلم ذلك. وإن من فعل ذلك لا يدخل الجنة. والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال هل هو ممن يخلد في النار مع الكفار؟ أو كيف يكون حاله؟ وهل يلحق به الناسي والمكره، أو ليس إلا العالم بذلك القاصد له وحده؟ وهل الذي يفعله لاهياً غير مجدّ هل يلحق به أم لا؟ وهل هذا تعبد أو لحكمة تعرف؟ وهل يتعدى الحكم إلى غير هذا، أم لا؟

أما قولنا: هل يخلد في النار مع الكفار، أو كيف يكون حاله؟ أما إن مات على الإيمان فلا يخلد في النار أصلاً. ويكون معنى الحديث مثل ما قيل في معنى قوله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾[٢] قال علماء السنة: معناه فجزاؤه ـ إن جازاه ـ فيكون هذا كذلك، لأنه من حُرِم الجنة فالنار مأواه، لأنه ليس بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة أو النار.

ويكون حكم هذا بمقتضى الشريعة التخليد في النار، فيكون من الذين يخرجهم الله تعالى بشفاعته الجليلة كما جاء في الحديث (إن الله، عزّ وجلّ، يقول بعدما يشفع سيّدنا رسول الله ﷺ ويرجع إلى النار عن ثلاث مرات، يقال له في أول مرة: أخرجْ مَن في قلبه مثقالُ ذرّة من الإيمان، وفي الثانية: أدنى ذرة من الإيمان، فلا يبقى في النار إلاّ من حبسه القرآن فيقول الله جلّ جلاله:

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كما ذكر ابن حجر في فتح الباري. وقد تقدمت ترجمة سعد في الحديث ١٢٤.

(٢) سورة النساء، من الآية ٩٣.

شفعت الأنبياء والرسل، وشفعت الملائكة، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين. فيقبض الله قبضة من أهل النار ممن حبسهم القرآن فيخرجهم بشفاعته الجليلة، ويسمون عتقاء الله من النار[1].

والذين حبسهم القرآن في النار هم على نوعين: كفار وغير كفار. فغير الكفار مثل صاحب هذا الذنب الذي في هذا الحديث، ومثل الذي في الآية، وهو القاتل للمؤمن عمداً، ومثل المتلاقِيَيْنِ بسيفيهما، وما هو في معناهم مما نص الكتاب أو السنة على تخليدهم في النار. فيكون الجمع بين ذلك بأن نقول: إن الكفار لا يخرجون من النار أبداً. وذلك بنص الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين.

فتكون الشفاعة التي هي من قِبَلِ الله، عزّ وجلّ، لهذا القسم الثاني، ويَصْدق عليهم اسم (ممن حبسهم القرآن) حقيقة لأنه ما أخبرت السنَّة به فالكتاب مخبر به، لأنه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[2] وقد تقدم أول الكتاب في هذا بيان شافٍ، وما أعدنا منه هذا إلا لضرورة الموضع.

وأما قولنا: هل يلحق بالعامد في هذا الحكم: الناسي والمكره؟ أما بنص الحديث فيحتمل. وأما ما تقرر في الشريعة بقوله ﷺ: (رُفِـعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[3] أو كما قال عليه السلام. وذلك يعطي ألا يلحقوا به في وقوع الإثم. والله أعلم.

وأما قولنا: هل يلحق بهذا الذي يفعله غير مجدّ؟ لفظ الحديث يعطي العموم. ويزيد ذلك تأكيداً في حق اللاهي قوله ﷺ (إن الرجل يتكلم بالكلمة من الشر يُلهي بها أهله لا يبالي بها يهوي بها في النار سبعين خريفاً)[4] أو كما قال عليه السلام. ولوجه آخر من جهة الفقه لأنه يلعب بدين الله ويهزأ بقول الشارع، عليه السلام، وهذا أعظم الذنوب.

وأما قولنا: هل الذي يفعل ذلك مع غيره، أي ينسب إنساناً إلى غير أبيه[5]؟ فهذا لا يدخل تحت هذا الحكم، وهو من باب القذف. وحكم القاذف قد تقرر بحسب ما علم من الشريعة، وهو بحيث لا يجهل. فلا يحتاج إلى بيان.

وأما قولنا: هل هذا تعبد لا يعقل له معنى، أو هو لحكمة نعرفها؟ فإن قلنا تعبد. فلا بحث.

---

(١) قطعة من حديث طويل رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) سورة النجم، الآية ٣.

(٣) رواه الطبراني والبيهقي في الأفراد عن أبي ذر رضي الله عنه والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه الترمذي وقال حديث غريب ورواه ابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأساً فيهوي بها في نار جهنم سبعين خريفاً.

(٥) كذا. وهو لم يرد في مستهل شرح الحديث.

وإن قلنا: لحكمة فما هي؟ فنقول، والله الموفق للصواب: لما خالف هذا حكمة الله سبحانه وتعالى في عبيده ترتب على ما فعله تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله، وترتب عليه هذا الوعيد العظيم. ولو اعتقد أن ذلك جائز لكان كافراً. بيان ذلك أن الله، عزّ وجلّ، يقول ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[1].

وهذا حلّل من النسب وحرم منه ما شاء ـ أعني في التناكح بينهم حسب ما يعرف ذلك من أحكام الشريعة ـ وقد تقرر الحكم به فلا يحتاج إلى ذكره. فإذا انتسب هذا إلى غير أبيه فقد حرم هذا النظام البديع، وحرّم على نفسه وعلى غيره نكاح مَن قد أحله الله له ولغيره، وحلل لنفسه ما قد حرمه الله عليه وعلى غيره. فإنه يتزوج، بتلك النسبة التي انتسبها، ذوي محارمه الحقيقيين، وهم عليه حرام، ويحرم على نفسه أو على غير محارمه الزوريّين بحسب انتسابه، فيكون حرّم من ذلك ما أحلّه الله تعالى.

وأما قولنا: هل يتعدى الحكم إلى غير هذا أم لا؟ فحيث وجدنا من خالف حكم الله تعالى مثلما فعل هذا قلنا له: الحكم فيه كالحكم في هذا سواء، لأنه بواحدة مما فعل هذا يكون الخلود في النار ـ أعني مع الاعتقاد ـ لقول الله تعالى ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ ﴾[2] وبإجماع الأمة أن من أحلَّ واحدة مما حرمه الله سبحانه، أو حرم واحدة مما أحله الله عامداً لذلك مستبيحاً لذلك، أنه كافر يستتاب. فإن تاب وإلا قُتِل كفراً.

وفيه معنى آخر وهو: سوء أدب العبودية مع الموالِيَّة، لأن حكم العبودية اتباع كل ما أمرت به الموالِيّة. فالعبد إذا خالف حكم مولاه وجب أدبه. ولذلك قال بعض أهل التوفيق: أعظم الكرامات الاتصاف بأوصاف العبودية، وامتثال أمر الربوبية.

جعلنا الله من أهلها بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الحجرات، من الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٨٥.

— ٢٧٦ —

حديث انقطاع النبوات ولم يبق إلا الرؤيا الصالحة

عَن أبي هُريرةَ، رضي الله عَنهُ، قالَ: سَمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: لَم يَبقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلاَّ المُبشِّراتُ. قالُوا: وَما المُبشِّراتُ؟ قالَ: الرؤيا الصَّالحةُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على انقطاع النبوة ولم يبق منها إلا المبشرات، وهي الرؤيا الصالحة. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: كيف نفهم قوله (لم يبق)؟ وكيف نفهم معنى (الصالحة)؟ وهل الذي ما بين هذه الرؤيا والنبوة، من تضعيف الأجزاء والنسبة، هل نأخذه تعبداً، أو لنا طريق لمعرفة ذلك. ومنها: هل التي ليست بصالحة إن كانت حقاً فهل تكون من النبوة أم لا؟ وهل هذه المبشرات على عمومها كان الذي يراها تقياً أو غير ذلك؟ وما الحكمة في أن قال (من النبوة) ولم يقل من الرسالة؟

أما قولنا: كيف نفهم قوله عليه السلام (لم يبق)؟ فهذا إنما يستعمل في الماضي. اعلم أن العرب تأتي بالماضي وتريد به المستقبل، إذا كان في الكلام ما يدل عليه كقول الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ؟﴾[1] وهذا إنما يكون يوم القيامة. وقد بيّن ﷺ هذا في حديث غيره فقال: (لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات)[2] أو كما قال عليه السلام.

وأما قولنا: ما معنى (الصالحة)؟ فمعناها الحسنة، كما قال عزّ وجلّ في قصة موسى مع شعيب عليهما السلام ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[3] ولم يرد شعيب، عليه

---

(١) سورة المائدة، من الآية ١١٦.

(٢) قطعة من حديث رواه الإمام مالك عن عطاء بن يسار رضي الله عنه.

(٣) سورة القصص، من الآية ٢٧.

السلام، مدحَ نفسه بالخير، وإنما أراد به معنى الخير والإحسان لموسى، عليه السلام. فما فيه خير لك يسوغ فيه أن يقال: هذا صالح لك، أويصلح به أمرك أو شأنك.

وأما قولنا: كيف النسبة بينها وبين النبوة؟ ومن أين يكون الجمع بينها وبين النبوة؟ فاعلم أن النسبة بينهما وطريق الجمع من وجهين: (الواحد) من طريق أن النبوة حق لا شك فيها، فهذه كذلك حق لا شك فيها. وقد نبّه ﷺ على ذلك في الحديث بعد هذا بقوله (وما كان من النبوة فلا يكذَّب)[1]. (والوجه الآخر) هو أنه لما كانت بداية نبوته عليه السلام قبل أن يأتيه الوحي (بالرؤيا الصالحة) كما هو مذكور أول الكتاب (فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) فما كان بدؤها أولاً هو الذي يبقى منها آخراً ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾[2].

وأما قولنا: هل التي ليست بصالحة إن كانت حقاً تكون من النبوة أم لا؟ فإن فهمنا من قوله (صالحة) الخير الذي فيه سرور للنفس وفرح به لا غير فلا نحكم لها بأنها من النبوة. فعلى هذا فتقسم الرؤيا على ثلاثة أقسام: فما كان منها يَسُرّ فمن النبوة، وما كان حلماً فهو من الشيطان، وما كان منها بين ذلك ـ وهو الذي ليس بحلم ويكره ـ فهو محتمِل أن يكون حقاً فيلحق بالنبوة لأنه حق، فجاءت النسبة. ويحتمل أن يكون باطلاً فيلحق بالذي هو من الشيطان، وهي الأضغاث والأحلام. لكن هذا لا يعلم الحق منه من الباطل إلا بحسب ما تستقر به العاقبة.

وإن قلنا إن معنى (صالحة) ما يصلح به حالك. فإن مما يصلح به الحال أن يبين للمرء ما يصلح به حاله من خير يُسَرُّ به أو شرّ يحذر منه. فإنه بهذا أتت النبوة معلمة بطريق الخير، ومحرضة عليها، ومبينة لطريق الشر ومحذرة عنها، فتكون الرؤيا على هذا نوعين: ما يكون منها حقاً بحسب دلائل التعبير في ذلك فهي من النبوة. وما كان مخوفاً، ولا يعلم له معنى من طريق أدلة العبادة، فهي من الشيطان.

ومما يبين ذلك ما ذكر أنه أتى شخص إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت في المنام كأنّ رأسه[3] قطع، والرأس يتدحرج وهو يجري خلفه. فزجره وقال له: (هذه من الشيطان، أأحد يقطع رأسه ويبقى حياً يمشي)؟ أو كما قال عليه السلام. والوجه الأول أظهر. والله أعلم.

وما ذكرناه من التقسيم والتفسير بين الحسن وضده يحتاج ذلك إلى معرفة علم العبارة على

---

(١) جزء من حديث مطلعه: إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن. أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٤.

(٣) كذا بضمير الغائب هنا وفيما بعد.

مقتضى الكتاب والسنة، وحينئذ نعرف الفرق بينهما. وإن لم يكن لنا بذلك علم فلا يحلّ لنا أن نتكلم في شيء من ذلك بغير علم، فهو من باب الهزء بآثار النبوة وهذا ممنوع.

وأما قولنا هل هذه المبشرات على عمومها، كان الذي يراها تقياً أو غير ذلك؟ أما هذا الحديث فلا يفهم منه من ذلك شيء. وقد جاء هذا عنه ﷺ في حديث غيره بقوله عليه السلام (يراها الرجل الصالح أو تُرى له)[١]، لأن الغالب من غير الصالح إما أن يكون من شياطين الإنس فكفى بها، أو يكون مستغرقاً في دنياه فالغالب عليه حديث النفس وشهواتها، فلم يبق مع هؤلاء في هذا الباب كلام. هذا هو الغالب، وعليه تحمل الأحكام، وما يندر من ذلك فالنادر لا حكم له. وإذا ندر يعلل بوجوده بحسب الحال والوقت، وإن كنا قد نبهنا على هذا فيما تقدم من الكتاب.

وأما قولنا: ما الحكمة في أنه قال ﷺ (من النبوة) ولم يقل (من الرسالة)؟ فاعلم أن هذا من أكبر الدلائل على ما خصّه الله، عزّ وجلّ، به من حسن البلاغة وسرعة الإدراك لغوامض الفوائد على البديهة. وذلك أن الأنبياء، عليهم السلام، منهم من هو مرسَل للغير، ومنهم من تنبأ وليس بمرسل. فلما كانت المرائي منها ما يكون فيما يخص المرء في نفسه، ومنها ما يراها لغيره، كما ذكرنا عنه، عليه السلام، آنفاً بقوله عليه السلام (يراها الرجل الصالح أو تُرى له)، فلهذه النسبة ذكر عليه السلام (النبوة) ولم يذكر (الرسالة)، وإنما هي حقّ مثل ما هي النبوة حق. وبقي فيها احتمال هل تخص أو تعُمّ؟ كما أن النبوة قد يكون معها الإرسال فتكون عامة، أو لا يكون معها إرسال فتكون خاصة.

وفيه دليل على جواز مراجعة العالم إذا لم يفهم كلامه. يؤخذ ذلك من قولهم (وما المبشرات)؟

ويترتب على هذا من الفقه التثبت في العلوم الشرعية حتى يكون على تحقيق ويقين، والبحث عن ذلك مع الرفيع والوضيع على حدّ سواءٍ بالأدب، لأن ذلك هو الطريق اللائق بالعلم، وإلا فصاحبه يدعى: زائغ عن طريق العلم وسيرة السلف الصالح من الصحابة، رضي الله عنهم، وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين. جعلنا الله من المتبعين لهم بمنّه.

وفيه دليل على كثرة رحمته ﷺ بأمته. يؤخذ ذلك من إدخاله، عليه السلام، السرور عليهم بتحقيق الرؤيا التي هي خيرٌ بوجه لا يبقى فيه شك ـ وهو كونه، عليه السلام، جعلها من النبوة،

---

(١) أخرجه الإمام مالك عن عطاء بن يسار رضي الله عنه بلفظ: لن يبقى بعدي من النبوة إلا المبشرات، فقالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. كما أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه واحمد والدارمي بألفاظ مختلفة.

فأدخل بذلك المسرة عليهم إلى يوم القيامة ـ ونفى عنهم ما يهتمون به، ويتخوفون من الحلم، فجعله من الشيطان الذي ليس له قدرة غير التخويف أو التهويل، وعلّمهم المخرج من ذلك حسب ما تقدم ذكره في الكتاب، وبحسب ما يذكر في الحديث بعد، وترك لهم التي تدل على الشر وليست بحلم من قبيل المحتمل، وما هو من قبيل المحتمل فليس يكون عند ذلك له خطر.

وإذا تتبعت النظر رأيت عظيم الرحمة من المولى الكريم الذي مَنّ علينا بهذا النبيّ الكريم بهذه الشفقة علينا، والرحمة لنا، وقد شهد الحق، عزّ وجلّ، له بذلك بقوله تعالى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ربّنا تممها نعمة علينا، واجعلنا لها من الشاكرين.

ويترتب عليه من الفائدة أن إدخال السرور على المؤمنين من السنة، ولأهل السلوك في هذا أقوى دليل لأنهم بنوا طريقهم على جبر القلوب وإدخال السرور على المؤمنين عامة، وفيما تقدم آنفاً من استشهادنا بقوله ﷺ (يراها الرجل الصالح أو ترى له) تنبيه على أن الخير في هذه المبشرات إنما هو للصالحين، وكذلك في كل وجوه الخير في الدارين هم المقصودون به، وقد قال تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[2] فإذا كان الخير كله عاجلاً وآجلاً للصالحين، فيا ويح الطالحين، ويا خسارة الجاهلين، ويا قبح المفرطين.

اللهم اجعلنا من العاملين المتبعين لسنن المرسلين، بجاه سيّد الأولين والآخرين سيّدنا محمّد المبعوث في الأميين. آمين.

فيا عبدَ شهوته وأخا غفلته، بعتَ كل خير بصفقة بخس، فهلا حكّمتَ حاكم العقل فحَلَّ لك عقدة بيعك البخس، قبل تصرف يد المنايا في جميع بضائع حسك ومعناك، فلا تجد للحل محلاً ولا وقتاً.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٢) سورة يونس، من الآية ٦٤.

— ٢٧٧ —

حديث من رأى المصطفى ﷺ في النوم فسيراه في اليقظة

عَن أبي هُريرَةَ، رضي الله عَنهُ، قالَ: سَمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يَقولُ: مَن رآني في المنامِ فَسَيراني في اليقظَةِ، ولاَ يَتَمثَّلُ الشَّيطانُ بي.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) أنه من رآه ﷺ في النوم فسيراه في اليقظة. (والثاني) الإخبار بأن الشيطان لا يتمثل به عليه السلام. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا على عمومه في حياته، عليه السلام، وبعد مماته، أو هذا كان في حياته، عليه السلام، ليس إلاّ؟ وهل يتمثل بغيره من الأنبياء والرسل، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، أو هذا من الأمور الخاصة به، عليه السلام؟ وهل ذلك لكل من رآه مطلقاً، أو خاصاً لمن فيه الأهلية والاتباع لسنته، عليه السلام؟

أما قولنا: هل هذا على العموم في حياته، عليه السلام، وفي مماته، أو في حياته لا غير؟ اللفظ يعطي العموم. ومن يدعي الخصوص فيه بغير مخصّص منه ﷺ فمتعسِّف. وقد وقع من بعض الناس عدم التصديق بعمومه، وقال على ما أعطاه عقله: وكيف يكون من هو في دار البقاء يُرى في دار الفناء؟ وفي هذا القول من المحذور وَجهان خطران: (أحدهما) أنه قد يقع في عدم التصديق، لعموم قول الصادق عليه السلام الذي لا ينطق عن الهوى. (والثاني) الجهل بقدرة القادر وتعجيزها، كأنه لم يسمع في سورة البقرة قصة البقرة، وكيف قال الله عزّ وجلّ ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] فضُرِب قبرُ الميت، أو هو نفسُه، ببعض البقرة فقام حياً سَوِيّاً، وأخبرهم بقاتله، وذلك بعد أربعين سنة على ما ذكره أهل العلم، لأن بني إسرائيل تأخر أمرهم في طلب البقرة على الصفة التي نعتت لهم أربعين سنة، وحينئذ وجدوها. وكما أخبر أيضاً في السورة

(١) سورة البقرة، من الآية ٧٣.

نفسها عن قصة العُزَيْرِ وقصة إبراهيم، عليه السلام، في الأربع من الطير. وكيف قصّ علينا في شأنهما.

فالذي جعل ضرب الميت ببعض البقرة سبباً لحياته، وجعل دعاء إبراهيم، عليه السلام، سبباً لإحياء الطيور، وجعل تعجب العزير سبباً لإحيائه وإحياء حماره بعد بقائه مائة سنة ميتاً، قادر على أن يجعل رؤيته ﷺ في النوم سبباً لرؤيته في اليقظة.

وقد ذكر بعض الصحابة ـ وأظنه ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه رأى النبيّ ﷺ في النوم، فتذكر هذا الحديث، وبقي متفكراً فيه، ثم دخل على بعض أزواج النبيّ ﷺ، وأظنها ميمونة[١]، فقصَّ عليها قصته، فقامت وأخرجت له جبّة ومِرآة، وقالت له: هذه جبته وهذه مرآته ﷺ. قال رضي الله عنه: فنظرت في المرآة فرأيت صورة النبيّ ﷺ، ولم أرَ لنفسي صورة.

وقد ذكر عن السلف والخلف إلىهلم جراً عن جماعة ممن كانوا رأوْهُ ﷺ في النوم، وكانوا ممن يحملون هذا الحديث على ظاهره، فرأوه بعد ذلك في اليقظة، وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين، فأخبرهم بتفريجها، ونصّ لهم على الوجوه التي منها يكون فرجُها، فجاء الأمر كذلك بلا زيادة ولا نقص.

والمنكر لهذا لا يخلو أن يصدّق بكرامات الأولياء أو يكذب بها. فإن كان ممن يكذّب بها فقد سقط البحث معه، فإنه يكذب ما أثبتته السنّة بالدلائل الواضحة. وقد تكلمنا على هذا أول الكتاب وبيّناه بما فيه كفاية بفضل الله تعالى. وإن كان مصدّقاً بها فهذه من ذلك القبيل، لأن الأولياء يكشف لهم بخرق العادة عن أشياء في العالَمينِ العلويّ والسفليّ عديدة، فلا تنكر هذا مع التصديق بذلك.

وأما قولنا: هل جميع الأنبياء والرسل، عليهم السلام، مثله، عليه السلام، في ذلك، لا يتمثل الشيطان على صورهم، أو هذا خاص به، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين؟ فليس في الحديث ما يدل على الخصوص قطعاً، ولا على العموم قطعاً، ولا هذه الأمور مما تؤخذ بالقياس ولا بالعقل، وما يعلم من علوّ مكانتهم عند الله تعالى يُشعِر أن العناية تعمّهم. فإنهم، صلوات الله عليهم أجمعين، أتوا إلى إزالة الشيطان وخزيه، فأشعر ذلك أن الشيطان لا يتمثل بصورهم المباركة، كما أخبر، عليه السلام، في كرامته وكرامتهم (أن لحومهم على الأرض حرام) حتى تؤديهم كما جعلوا فيها، كذلك تساويهم في هذه الكرامة. والله أعلم.

وأما قولنا: هل ذلك على عمومه لكل من رآه عليه السلام أو ذلك خاص؟ فاعلم: أن الخير

---

(١) ميمونة: أم المؤمنين، زوجة رسول الله ﷺ: تقدمت ترجمتها في الحديث ١٩٨.

كله المقطوع به، والمنصوص عليه، والمشار إليه بأدلة الشرع وقواعده إنما هو لأهل التوفيق. ويبقى في غيرهم على طريق الرجاء، للجهل بعاقبتهم؛ فلعلهم ممن قد سبقت لهم سعادة في الأزل، فلا يقطع عليهم باليأس من الخير، لا سيما مع قوله عليه السلام (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لم يبق بينه وبين الجنة إلا شبر أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبق بينه وبين النار إلا شبر أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة)[1].

لكن كيف يراه من لا يصدق بقوله؟ هذا من طريق الأدلة بعيد. وأما من فيه مخالفة لسنته عليه السلام، فاختلف العلماء في رؤياه له ﷺ، إذا ادعى أنه رآه، هل هي حق أم لا؟ وقد تقدم البحث على هذا في الكتاب، فكيف تكون الرؤية في اليقظة مع عدم التسليم في رؤيا النوم؟ هذا فيه ما فيه.

وفي هذا الحديث إشارة وهي: لما أخبر ﷺ أن في آخر الزمان من أمته من يود أن لو خرج عن أهله وماله على أن يراه. ولهذا أبقى ﷺ لهم هذا التأنيس العظيم، بأنه من رآه في النوم فسيراه في اليقظة، فطمعت لذلك نفوس المحبين الصادقين المصدقين، فرأوا ما به أُخبروا كما أخبر. ولكن صاحب الشك لا يثبت له في خير قدم.

وإذا تتبعت أحوال الذين روي عنهم أنهم رأوا ﷺ تجدهم، مع التصديق بهذا الحديث، محبين له ﷺ حباً يزيدون فيه على غيرهم. وقد صح عندي، عن بعض الأشخاص الذين ذكرتهم قبل في أول الكلام على الحديث، أنه صح عنده من طريق لا يشك فيه أنه لما رآه في بعض مرائيه أقبل عليه ﷺ إقبالاً عجيباً. فقال له: يا رسول الله بم استوجبت أنا هذا؟ فقال له ﷺ: (بحبك فيَّ) فلم يجعل له سبباً إلى رفع منزلته غير حبه له.

وهنا إشارة لو عرفها المنكر، وذلك أن المحب فيمن أحبه فانٍ، قد أخرجه الاشتغال بمن أحب عن هذه الدار وأهلها. فلما كان معدوداً في الفانين لحق بأهل دار البقاء، برؤية أهلها والتنعم بمشاهدتهم، وكانت جثته في هذه الدار كظاهر القبر في الدنيا وباطنه في الآخرة، لأنه أول منزل من منازل الآخرة، وقد تلوح مراراً على ظاهر القبر علامات مما هو داخله من خير أو غيره. وهذا من الشهرة بين الناس، خلفاً عن سلف، من حيث لا يحتاج أن يذكر له حكاية ولا خبر.

وفيه دليل على عظم قدرة الله تعالى، كيف جعل للشيطان القدرة على أن يتصور في أيِّ صورة شاء، ويتشبه بمن شاء؟ يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (ولا يتمثل الشيطان بي)، فدل على أنه

---

(١) قطعة من حديث مطلعه: إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً.. أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يتمثل بغيره. ومثل ذلك جاء عن الملائكة، عليهم السلام، أن الله، عزّ وجلّ، أعطاهم التطوير يتمثلون على أي صورة شاؤوا. فانظر إلى حالة ما بين الملائكة وحالة الشيطان، وقد أعطيا معاً هذه الحالة العجيبة.

فمن أجل هذا لم يلتفت أهل التوفيق إلى الكرامات بخرق العادة، وطلبوا التوفيقَ لما به أمروا، ولطفَ الله بهم في الدنيا والآخرة، لأن خرق العادة قد يكون للصّدّيق والزنديق، وهي للزنديق من طريق الإملاء والإغواء، وإنما تقع التفرقة بينهما ما هو منها كرامة أو بلاء وإغواء بالاتباع للكتاب والسنة. وقد تقدم من الكلام في هذا الكتاب ما فيه شفاء. والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٧٨ ـ
حديث رؤيا النَّبيِّ ﷺ وأن الشيطان لا يتمثل به

عَن أنَسٍ، رَضي الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: مَن رَآني في المنامِ فَقد رَآني، فَإنَّ الشَّيطانَ لاَ يَتَخيَّلُ بي. وَرُؤيا المؤمِنِ جُزءٌ مِن سِتَّةٍ وَأربَعينَ جُزءاً مِنَ النُّبوةِ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) أنه من رآه عليه الصلاة والسلام في النوم فقد رآه حقاً، فإن الشيطان لا يتمثّل به ﷺ. (والثاني) أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)؟ وما الحكمة في أن قال في الحديث قبل (ولا يتمثَّل الشيطان بي)، وقال ههنا (ولا يتخيَّل بي) أي على إحدى الروايتين؟

أما قولنا: ما معنى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فقد قال بعض الناس فيه: إنه اختُلِف في كم سنة أوحي إليه ﷺ؟ فقيل: عشرين سنة ـ وقيل: ثلاثاً وعشرين سنة. فعلى القول بأنه أوحي إليه ثلاثاً وعشرين، فيجيء الجزء منها نصف سنة، لأن ثلاثاً وعشرين إذا قُسِمَتْ كل سنة منها على جزأين جاءت ستّة وأربعين. وهذا عندي ما له تلك الفائدة، ولا على هذا المعنى تكلم، صلوات الله عليه وسلامه، الذي أيده الله بالفصاحة والبلاغة، وإنما المتكلم بهذا أراد أن يجعل بين الرؤيا والنبوة نسبة ما بحسب ذلك المثال، أكانت له فائدة أم لا.

وهذا التوجيه الذي رأى لا يجري على الإطلاق في جميع الأحاديث التي جاءت في هذا النوع، حتى إنه روي عن بعض القائلين بهذا أنه جاء في بعض الأحاديث التي جاءت في هذا النوع وقال: لا أقدر أن أجعل للنسبة في هذا وجهاً، لأنه جاء في هذه النسبة جملة أحاديث، منها (أنها جزء من اثنين وسبعين)، وقد جاء (أنها جزء من خمسٍ وأربعين)[1] وجاء (أنها جزء من أربعين)[1] وجاء (أنها جزء من سبع وعشرين)[1] وجاء (أنها جزء من خمس وعشرين)[1].

---

(١) كذا.

وقد قال بعض الناس: إن هذا الاختلاف الذي جاء في هذه الأجزاء إنما هو بحسب الرائي لها. وهذا نوع منه آخر، وقد ذُكِرت فيها أقاويل، كلها متقاربة في النوع الذي أشرنا إليه.

والذي يظهر لي ـ والله الموفق للصواب ـ أن النسبة التي بينه وبين النبوة من وجهين: (أحدهما) أن النبوة كلها جاءت بالأمور البينة الواضحة، ومن الأمور ما يكون بعضها مجملاً ثم بينتها النبوة بعد، حتى لم يبق في الشريعة شيء فيه إشكال، كما أشرنا إليه في أول حديث من الكتاب. والمرائي منها ما هو نص لا يحتاج فيه إلى شيء، ومنها أشياء مجملة.

فتلك الأشياء المجملة ما تفهم منها الذي له معرفة بطريق العبارة من الحق الذي يخرج منها إلا كما جاءت الأجزاء منها، وذلك الجزء الذي فهمه ـ وهو الحق ـ جزء من النبوة، فمرة يكثر ذلك الجزء، ومرة يقل، فيكون قرب الجزء من النبوة أو بعده بحسب فهم المعبر لها. فأعلاهم يكون بينه وبين النبوة خمساً وعشرين[1] جزءاً، وأقلهم فهماً يكون بينه وبين النبوة اثنين وسبعين جزءاً[1]، وما بين هذين الحديثين تتفاوت فيه فهوم الناس.

ومما يبين هذا الوجه أن شخصاً أتى النبيّ ﷺ وقص عليه رؤيا رآها وأبو بكر قاعد عنده، فقال له: دعني يا رسول الله أُعبّرها. فقال له: افعل. فلما عبّرها قال يا رسول الله أصبتُ فيما قلتُ؟ فقال له ﷺ: أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً. فقال أبو بكر: أخبرني يا رسول الله فيماذا أصبت؟ وفيماذا أخطأت؟ فلم يخبره. رواه الترمذي[2]. وقد قال أهل العلم بالتعبير: لا يطرأ لأحد أو على أحد شيء في هذه الدار إلا وهو يراه في نومه، عَلِمه من علمه، وجهله من جهله. فبهذا يقوى ما وجهناه بفضل الله تعالى.

(والوجه الآخر) هو أن النبوة لها وجوه من الترفيعات والفوائد دنيوية وأخروية فيما يخص ويَعُمّ، منها ما نعرفه، ومنها ما لا نعرفه. والرؤيا ما بينها وبين النبوة نسبة إلا في كونها حقاً، فهي وما دلت عليه حق، كما أن ما دلت عليه النبوة وأخبرت به حقّ. وبقي لمقام النبوة التفضيل بينها وبين الرؤيا بتلك الأجزاء المذكورة في الحديث؛ ليعلم فضل النبوة، إذ الجزء من ستة وأربعين منها يخبر بالحق في الأمور الحاضرة والغائبة؛ لأن الرؤيا منها ما يدل على حالِك الذي أنت فيه، ومنها ما يدل على ما قد مضى، ومنها ما يدل على ما يكون. وفي كل الوجوه يدل على الحق، ويخبر عنه على ما هو عليه، إن كان أو يكون.

---

(١) كذا.

(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث ٢٢٩٤.

فدل هذا على تعظيم مقام النبوة، وأنه ليس لقولنا قوة إلى الوصول لذلك، فيقوى بذلك إيماننا ويعظم به أجرنا، لأنه كلما زاد في النفوس للأنبياء، عليهم السلام، تعظيماً زاد العبد بذلك لله، عزّ وجلّ، قربة، لأن الله، عزّ وجلّ، يقول في كتابه ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[1] وأي شعيرة أرفع من تعظيم مقام أنبياء الله عزّ وجلّ؟

ويكون الفرق بين الأحاديث التي ذكرناها، في اختلاف الأجزاء، التي هي من خمسة وعشرين جزءاً إلى اثنين وسبعين جزءاً، بحسب ترفيع درجات الأنبياء، عليهم السلام، بعضهم على بعض، لأن الأنبياء، عليهم السلام، منهم مرسَلون وغير مرسَلين، وليس درجة من هو نبيّ غيرُ مرسَل مثل مَن هو نبي مرسَل، والمرسَلون منهم، صلوات الله عليهم أجمعين، أعلى من بعض.

وهذا بحث لا خفاء فيه، وكفى فيه قول الله عزّ وجلّ ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ﴾[2] فنسبتها من أعلى الأنبياء المرسلين لنسبة اثنين وسبعين، ونسبتها من أقل النبيّين غيرِ المرسَلين نسبةُ خمسة وعشرين جزءاً، وما بقي بين هذين الحديثَين بحسب تفاوت الأنبياء والرسل عليهم الصلاة السلام في الدرجات بينهم. ولذلك ذكر ﷺ النبوة على العموم، ولم يذكر واحداً منهم، ولا ذكر نفسه المباركة، ولا أشار إليها.

واحتمل الوجهين وزيادة لمن زاده الله في ذلك فهماً، لأنه لا يكون كلامه، صلوات الله عليه وسلامه، إلا وتحته من الفوائد ما يكثُر تَعدادها، وقد تَعجِز الفهوم مِنّا عن إحصائها. فأقل مراتب الإيمان أن يكون هذا اعتقادَ الناظر في كلامه ﷺ، وما فتح له فيه من الفهم يقول: إلى هذا وصل فهمي. ولا يقول: هذا هو المعنى الذي يدل عليه هذا لا غير، ويمنع الزيادة على ذلك لمن فتح الله عليه في شيء من ذلك بفضله ومنّه.

وأما قولنا: ما الحكمة في أن قال في هذا الحديث على إحدى الروايتين (فإنّ الشيطان لا يتخيّل بي)، وفي الذي قبله (ولا يتمثل الشيطان بي)؟ فنقول، والله الموفق للصواب: وذلك أن مقتضى الحديثين يدل على أن الشيطان له مع الذي يتراءى في النوم حالتان: (إحداهما) أنه يتصور ويتطور ويتمثل بنفسه للذي يتراءى له على الصورة التي يريد، ما عدا صورة سيّدنا محمد ﷺ، وأنه مرة أخرى يوهم الذي يتراءى له أنه على صورةٍ ما، وهو في ذاته على صورته التي هو عليها، لم يتغير عنها.

---

(١) سورة الحج، الآية ٣٢.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٥٣.

ومثل هذا يشاهده الناس من الذين يشتغلون بالسحر في هذا؛ إذ يُري الناظرين أشياء على خلاف ما هي عليه، والشيء في نفسه على ما هو عليه لم يتغير، مثل ما روي عن سحرة فرعون مع موسى، عليه السلام، أنهم أتوا بوقر ثلاثمائة جمل حبالاً وعصياً. فلما ألقوا حبالهم وعصيّهم ظهرت في عين موسى، عليه السلام، وجميع الناظرين أن الأرض قد ملئت ثعابين. وقال الله، عزّ وجلّ، في حقهم ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[1] وتلك الحبال والعصي باقية على حالها، لم تتغير أعيانها كما كانت عليه.

يشهد لهذا ما ذكرناه في الحديث قبل في الذي أتى النبيَّ ﷺ وقال له: إنه رأى في النوم كأن رأسه قُطِع، وهو يتدحرج وهو يجري خلفه. فقال له رسول الله ﷺ (هذا من الشيطان، لأنه لا يقطع رأس أحد ويبقى يجري خلفه) أو كما قال عليه السلام. فالشيطان لا يتمثل له في هذه الرؤيا بنفسه على هذه الصورة التي لا تقبلها العقول، وإنما خيل له ذلك لكي يفزعه. والحديث الذي نحن بسببه يدل على هذه التخيلات.

وفيه دليل على ما ذكرناه في الأحاديث قبل حين أوردنا من السؤال: هل يُلحَق بذلك تشكله، عليه السلام، في خواطر المباركين وأصحاب القلوب والخواطر أم لا؟ فهذا يدل على أنه كما لا يتمثل على صورته، عليه السلام، كذلك لا يتخيل بها، لا في كلام ولا في خاطر ولا في نوع من الأنواع، لأنك إذا نظرت ما تجد ما يخيل به إلا قسمين: إما (بالذات) أو (بما يدل على الذات) من كلام أو إشارة أو حديث في السر، أو خاطر في القلب.

فدل بالحديث الذي قبل هذا على منعه من التمثل بصورته، عليه السلام، المباركة، وأنه يتصور على صورة غيره، ودل بهذا الحديث على أنه لا يتخيل بشيء مما يدل عليه من جهة ما من صفة من الصفات، أو لمحة من اللمحات، أوخطرة من الخطرات، أو إشارة من الإشارات، وأن الله، عزّ وجلّ، قد منعه من هذا كله، وأنه في غير جهة سيّدنا ﷺ يعمل من ذلك كله ما يشاء، وأن الله، عزّ وجلّ، قد أعطاه ذلك. وهذه بشارة عظيمة.

والبحث في هذا التخيل في حق غير سيّدنا ﷺ من الأنبياء، عليهم السلام، كالبحث قبله، وهذا كله بشرط يشترط فيه، وهو ما قدمنا ذكره فيما تقدم عن العلماء، في أن كل ما يقع من الأمر والنهي والزجر والمخاطبة وغير ذلك كله، فإنه يعرض على سنته، عليه السلام، فما وافقها مما سمعه الرائي فهو حق، وما خالفها فالخلل في سمع الرائي، فإنه ﷺ ما ينطق عن الهوى ﴿ وَلَوْ كَانَ

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ١١٦.

﴿مِّنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[1] فيكون رؤيا الذات المباركة حقاً، ويكون الخلل وقع في سمع الرائي، وهو الحق الذي لا شك فيه.

فكذلك فيما نحن بسبيله، من تشكله، عليه السلام، للمباركين في أسرارهم، ورؤيته، عليه السلام، في اليقظة، ومخاطبته، عليه السلام، والخواطر تمرّ بهم من قِبَلِهِ، وما يقع من هواجس النفوس من قِبَلِهِ عليه السلام، وما يقع من التخيل والتمثيل عنه، عليه السلام. فكل ذلك يُعرَض على كتاب الله وسنته، عليه السلام، كما تقدم، والله الموفق للصواب.

وفيه دليل على عظم قدرة القادر سبحانه مثل ما تقدم قبل.

وفيه بشارة للمحبين فيه، عليه السلام، المتبعين له، فإنه إذا كانت رؤياه، عليه السلام، حقاً فكل ما يكون، من إشارة أو خطرة هو، عليه السلام، فيها أو منه أَتَتْ، فإنها حق على الشرط المذكور، فزادهم بهذا فرحاً إلى فرح.

جعلنا الله منهم بمنّه في الدارين في عافية، لا ربّ سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النساء، من الآية ٨٢.

ـ ٢٧٩ ـ

حديث فضل عمر رضي الله عنه في العلم

عَن ابنِ عُمرَ، رضيَ الله عَنهُما، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقولُ: بينَما أنا نائم أُتيتُ بِقَدحِ لَبَنٍ، فَشَربتُ مِنهُ، حَتَّى إني لأرى الريَ يَخرجُ مِن أظفاري. ثُمَّ أعطَيتُ فَضلي عُمر. قالوا: فما أوَّلته يا رَسولَ الله؟ قالَ: العِلمَ.

٭ ٭ ٭

ظاهر الحديث يدل على فضل عمر رضي الله عنه، وما خصه الله به من العلم. والكلام عليه من وجوه:.

منها أن يقال: ما معنى هذا العلم الذي خُص به عمر، رضي الله عنه، وقد جاء أنه ﷺ قال: (أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها، وأنا مدينة العلم وعليّ بابها)[1]؟ فهل بين هذين الحديثين تعارض؟ وهل لهما وجه يجتمعان به؟

فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن هذين الحديثين ليس بينهما تعارض، وأن أحدهما يقوي الآخر. وذلك أن العلم في الشريعة علمان: (أحدهما) العلم بقواعد الشريعة وفروعها وأحكامها واستنباط ذلك من الكتاب والسنة، وفهم ذلك بالنور الذي يهبه الله من يشاء من خلقه، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء، عليهم السلام. وهذا هو العلم الذي خُصَّ عليٌّ، رضي الله عنه، بالزيادة فيه على غيره من الخلفاء، بحسب ما شهد له به رسول الله ﷺ. ولذلك كان عمر، رضي الله عنه، يقول: (أعوذ بالله من معضلة لا يحضرها عليّ)، وإن كان الكل، رضي الله عنهم، بذلك علماء، لكن خُصّ عليّ، رضي الله عنه، بالزيادة فيه. (والعلم الثاني) هو العلم بالله وعظم قدرته وجلاله، والعلم بأنه الغالب على أمره. وهذا العلم لا تُعلَم حقيقته حتى يكون للعالم به العلمُ به حالاً، وهم القليل من الناس،

---

(١) أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب. أخرجه الحاكم في المستدرك وتعقب عن جابر، وأخرجه الخطيب عن ابن عباس، وفي رواية للطبراني عن ابن عباس: فمن أراد العلم فليأته من بابه.

كما أخبر الله، عزَّ وجلَّ، في كتابه حيث يقول: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] وإن كان الصحابة والخلفاء لعمرَ، رضي الله عنهم أجمعين يعلمون ذلك حقيقة، لكن أعطى الله، عزَّ وجلَّ، لعمرَ، رضي الله عنه، في ذلك زيادةً، وتلك الزيادة هي التي أوجبت له الشجاعةَ في الدين، حتى شهد له بها رسول الله ﷺ بقوله: (أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها)[2]. ولم يَعنِ ﷺ الشجاعة التي هي في القتال في مقارعة الأبطال؛ فإنّ ما خَصَّ الله، عزَّ وجلَّ، به سيّدنا ﷺ في هذا لا يَقدِر أحدٌ أن يكون له باباً، لما روي عنه، عليه السلام، في ذلك، حتى قال عليّ رضي الله تعالى عنه (كنا إذا اشتد القتال اتَّقَيْنا برسول الله ﷺ)[3]. وتلك الزيادة التي أوجبت له الشجاعة هي التي أوجبت له أن يسمّى فاروقاً، لأن يوم إسلامه فَرّق الله فيه بين الحق والباطل، وعُبِدَ الله جهراً، وأعلى الله به كلمةَ الحق ومنارَه، كما هو الحديث المأثور في ذلك. فظهر مما أبديناه كيف اجتمع الحديثان، وقَوَّى أحدُهما الآخر.

وهنا بحث وهو أن يقال: ما هي الحكمة بأن تأول سيّدنا ﷺ اللبن بالعلم الذي أشرنا إليه قبل؟ والجواب: أنه إنما فعل ذلك ﷺ اعتباراً بالذي كان أول الأمر، فأخذ اللبن حين أُتي بقدحين، قدحِ خمر وقدحِ لبن، فخُيّر أن يأخذ أيّهما شاء، فأخَذَ اللبن. فقال له جبريل، عليه السلام: اخترتَ الفطرة، ولو أخذتَ الخمر لَغَوَتْ أمتُك[4] ـ يعني بالفطرة: فطرةَ الإسلام ـ يعني ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾[5].

وحقيقة الفطرة تقتضي المعرفة بحقيقة الربوبية وجلالِها وكمالِها، وأنها الغالبة على أمرها، وما نقص مَن نَقَص ذلك إلا بالمجاورة للغير، كما قال الصادق ﷺ (كل مولودٍ يولَد على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه)[6].

وفيه دليل على جواز بثّ الرؤيا لمن هو أقلّ علماً من الرائي. يؤخذ ذلك من ذكر سيّدنا ﷺ رؤياه للصحابة، رضي الله عنهم.

ويترتب على ذلك من الفقه إلقاء العالم المسائل وسؤاله فيها لمن هو دونه في المرتبة.

---

(١) سورة يوسف، من الآية ٢١.
(٢) لم نقف على مصدره.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن البراء رضي الله عنه بلفظ: كنّا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للّذي يحاذي به.
(٤) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأوله: أُتيت بالبراق.
(٥) سورة الروم، من الآية ٣٠.
(٦) أخرجه أبو يعلى والطبراني عن الأسود بن سريع رضي الله عنه.

وفيه دليل على أنّ من الأدب في علم العبارة، إذا قص الرؤيا من هو أعلم بها على من دونه، أن يردّ الأمر في ذلك إليه ويسأل عن معناها، فإنه يغلب على الظن أنْ ما كان ذكره ذلك لمن هو دونه إلا أن يسألوه فيعلمهم. يؤخذ ذلك من قول الصحابة، رضي الله عنهم، لما قصّ سيّدنا ﷺ الرؤيا، لأنه، عليه السلام، ما أراد منهم أن يعلموه تأويلها، وإنما كان قصده أن يسألوه فيعلمهم. فلحسن أدبهم فهموا عنه فعملوا على ما يقتضيه الأدب، فاستفادوا وأفادوا. وكذلك ينبغي الأدب في جميع العلوم، فإن من سنة العلم الأدبَ فيه ومع أهله إذا كان لله.

وفيه دليل على أن علم سيّدنا ﷺ بالله، عزّ وجلّ، وجلاله لا يبلغه فيه غيره. يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام، شرب كما أخبر حتى رأى الريّ يخرج من أظفاره، ثم أعطى فضله عمر. فانظر بنظرك إلى الذي شرب فضلة رسول الله ﷺ كيف كان قوة علمه الذي لم يقدر أحد من الخلفاء يماثله فيه؟ فكيف بغيرهم من الصحابة، رضي الله عنهم؟ وكيف بمن جاء بعد الصحابة؟ ثم انظر كيف يكون من شرب حتى رأى الريّ يخرج من أظفاره؟ لا يمكن أن يبلغ أحد ذلك المقام.

فجاء شربه ﷺ وشُرب عمر كما مثل ﷺ بقوله (أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها). فإن نسبة ما شرب، عليه السلام، من ذلك اللبن والذي شربه عمر كنسبة المدينة وسعتها من الباب، وقدر مساحته وقدر سعته. فما أحسن عباراته، عليه السلام! وما أحلى إشارته. وفي تمثيله، عليه السلام، في اليقظة بالمدينة وبابها، وما مثل له في النوم بالشرب على ما هو مذكور في الحديث، وكيف ظهرت النسبة بينهما على حدّ سواء.

وفيه دليل على أن كلامه، عليه السلام، بالله وعن الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وفيه دليل على ما قدمناه في الحديث قبل: أن من الرؤيا ما يكون يدلّ على الحال وعلى الماضي، فإن هذا الذي رأى سيّدنا ﷺ هو تمثيل بأمر قد وقع. فإن الذي أعطي، عليه السلام، من العلم بالله قد كان، وكذلك عمر، فكانت فائدة الرؤيا أن عرّف بقدر النسبة التي بين ما أُعطي، عليه السلام، من العلم وما أُعطي منه عمر، وإن كان، عليه السلام، السبب فيه لعمر، رضي الله عنه، وعلى يديه الكريمتين كان ذلك الخير، ولأن يعرف به الغير حتى يقدر لكل أحد قَدْرَه بحسب ما فتح الله عليه من الخير. ولذلك قال ﷺ (أنزلوا الناسَ منازلهم، ـ أي بقدر ما جعل الله لهم ـ ولا تبخسوا، ولا تتغالوا، وأقيموا الوزن بالقسط، وكونوا عبيداً ولا تكونوا موالي)[1] أو كما قال عليه السلام.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم ٤٢ و٤٨ والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٦٥.

— ٢٨٠ —

حديث فضل عمر رضي الله عنه وعلوّه في الدين

عَن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، رضي الله عَنهُ، يَقُولُ: قال رَسولُ الله ﷺ: بينَما أنا نائم رَأيتُ النَّاسَ يُعرَضُونَ عَلَيَّ وَعلَيهِم قُمُصٌ، منها ما يَبلغُ الثُّدِيَّ، ومنها ما يَبلُغُ دونَ ذلكَ. ومرَّ علَيَّ عمر بن الخَطَّاب وَعَليهِ قَميصٌ يَجُرُّهُ. قالوا: ما أوَّلتَهَ يا رسولَ الله؟ قال: الدّين.

* * *

ظاهر الحديث يدل على فضل عمر، رضي الله عنه، في الدين، وعلوّ منزلته فيه. والكلام عليه من وجوه.

منها أن يقال: ما معنى (الناس المعرَضون)؟ هل على العموم، أو على الخصوص؟ وما معنى (الدين) هنا؟.

أما قولنا: هل يعني بـ (الناس) العموم أو الخصوص؟ فالظاهر أن المراد به الخصوص، لأنه لا يمكن أن يكون المراد العموم؛ لأنه إذا كان ذلك دخل تحته الكفار، ولا يمكن ذلك، لأن كل من رآه كانت عليهم قمص، منها ما يبلغ الثدي - وهو أقلهم - حتى إلى[1] الذي يجرّ قميصه وهو أعلاهم. ثم تأول، عليه السلام، ذلك بالدين. والكفار لا يدخلون في هذا، لأنه ليس لهم من الدين ما يبلغ لا الثدي ولا إلى غيره. فهو لفظ عام والمعنيّ به الخصوص، وهم أهل الإيمان والإسلام.

وبقي الاحتمال: هل المراد بذلك جنس المؤمنين من أمته، عليه السلام، وغيرهم، أو المراد بذلك أمته ﷺ، أو المراد بذلك ناس من أمته، عليه السلام، لا جميع الأمة؟ محتمل لكل ذلك. لكن الأخير هو الأظهر؛ بدليل قوله في غير هذا الحديث ما ذكر فيه من فضل أبي بكر، رضي الله عنه، وغيره من الخلفاء، رضي الله عنهم، ولم يذكر لهم هنا مثالاً، فدلّ بذلك أنهم ناس من المؤمنين، لا جميع أمته، ولا جميع جنس المؤمنين. والله أعلم.

---

(١) كذا بزيادة «إلى» بعد «حتى».

- ٢٨١ -

حديث صدق رؤيا المؤمن عند قرب قيام الساعة

عن أبي هُريرةَ، رضيَ الله عَنهُ، يَقولُ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: **إذا اقتربَ الزَّمانُ لَم تَـكَد تَـكذبُ رُؤيا المؤمنِ. وَرُؤيا المؤمنِ جزء من ستَّة وأربعينَ جُزءاً مِنَ النُّبوةِ. وما كانَ مِنَ النُّبوَّةِ فإنّه لا يكذِب.**

* * *

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام: (أحدها) أنه إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب. (والثاني) أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. (والثالث) أن ما كان من النبوة فإنه لا يكذب، وإن قلّت نسبته وضعفت. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى (اقترب الزمان) وأي زمان هو؟ وقوله (لم تكد تكذب) هل قبل اقتراب الزمان يكون في رؤيا المؤمن ما يكذب، وليس بحق؟ وكيف يجتمع ذلك مع قوله، عليه السلام، آخر الحديث (وما كان من النبوة فإنه لا يكذب)؟ وكيف نسبة هذه الستة والأربعين من رؤيا المؤمن؟ من أي وجه هي؟ ومالفائدة في تكرار هذه الأحاديث في معنى نسبتها من النبوة؟.

أما قولنا: ما معنى (اقترب الزمان)، وأي زمان هو؟ فأما اقتراب الزمان فهو قربه لقول الله تبارك وتعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[1] أي قربت. وأما الزمان فهو الزمان الذي تقوم فيه الساعة. ولذلك عرّفه بالألف واللاّم لقوله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[2] أي زمان وقت حسابهم. وهي: الساعة.

وأما قولنا: هل يدل قوله ﷺ (لم تكد تكذب رؤيا المؤمن) على أنها قبل اقتراب الزمان فيها ما يكذب؟ المسألة فيها خلاف بين أهل الفقه: هل الأمر بجواز الشيء يدل على منع ضده، أو لا؟

---

(١) سورة القمر، من الآية ١.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ١.

قولان. ولذلك الإخبار بجواز الشيء هل يدل على جواز ضده أو لا؟ فإن قلنا: إنه لا يدل على جواز ضده، فلا بحث. وإن قلنا: إنه يدل على عدم جواز ضده، فعلى هذا يكون البحث في كيفية جمع الحديث أوّله مع آخره.

فقد قدمنا في الحديث الذي قبل هذا بحديثين: أن الرؤيا فيها ما هو بيّن لا يخفى على أحدٍ من أهل العلم بعبارة الرؤيا وغيرهم، ومنها ما لا يفهمه إلا أهل العلم بعبارة الرؤيا، والذي يفهم منه فقليل. فبقلة فهمهم لمعنى تلك الإشارات والأمور المحتملة لا يخرج لهم من ذلك التعبير الذي يعبرونه بحسب فُهُومِهم إلا القليل. فيصدق لغة أن يقال: كذبت رؤيا فلان ـ وإن كانت في نفسها حقاً ـ لأنه ما هو من النبوة فليس يكذب، بل هو حق لا شك فيه، وإنما جاء الكذب من المعبّر لها.

يشهد لهذا قول الله سبحانه في حق كتابه العزيز ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾[1] والكتاب كله في نفسه حق وهدى، لكن بسوء فهم الضال الذي نظر فيه بغير هدى جاءه الضلال، فنسب ضلاله إلى الكتاب لافترائه على الكتاب بتأويله الفاسد. والعرب تضيف الشيء إلى الشيء بأدنى ملابسة ما أو شبهة ما. فإذا قربت الساعة لم تكن رؤيا المؤمن إلا بالأمور البيّنة والإشارات الواضحة حتى لا يبقى فيها ولا في تعبيرها على أحد وجه من وجوه الإشكالات، فلا يقع بسببها لأحد ممن تكلم فيها إشكال ولا كذب، فيصدق عليها أنها لا تكاد تكذب. فبهذا الوجه يصحّ الجمع بين أول الحديث وآخره. وفيما أبديناه دليل لمن يقول: إن الأمر بالشيء نهي عن ضدّه.

وأما قولنا: كيف نسبة رؤيا المؤمن من النبوة؟ ومن أي وجه يكون؟ فالجواب على هذا قد تقدم في الحديث الذي قبل هذا بحديثين، حيث ذكرنا الأحاديث التي وردت في تنويع عدد الأجزاء التي أتت فيها بين رؤيا المؤمن والنبوة، وما يترتب على ذلك من التأويل لجميعها بحسب ما هو مذكور هناك. وبقي هذا الحديث الذي نحن بسبيله لم نذكره هناك وحديث آخر وهو قوله ﷺ في الرؤيا (إنها من النبوة) ولم يذكر فيه جزءاً من الأجزاء، لا قليلاً ولا كثيراً.

فالجواب على الحديث الذي لم يذكر فيه جزءاً من الأجزاء أن أهل الحديث من عادتهم إذا أتى حديث عام وآخر مقيَّد جعلوا المقيَّد مفسِّراً للمجمَل، فكيف إذا كانت المقيَّدات كثيرة والمجمَل واحداً؟ فمن باب أحرى. لكن زدنا هنا لتلك التوجيهات التي وجهناها هناك وجهاً آخر بمقتضى هذا الحديث. وهو: أن ذكره ﷺ اختلاف تلك الأجزاء من خمسة وعشرين جزءاً إلى اثنين وسبعين جزءاً؛ وقد جاء أثر آخر ـ على ما يغلب على ظني، ولا أقطع به في الوقت ـ بخمسة وسبعين جزءاً، أن اختلاف تلك الأجزاء تكون بحسب صلاح الزمان وفساده.

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٦.

فعند صلاح الزمان وقوة إيمان أهله، مثل الصحابة، والذين من بعدهم، وهم خير القرون - كما أخبر ﷺ - تكون نسبة الرؤيا من النبوة بعيدة مثل اثنين وسبعين أو خمسة وسبعين - إن صح - لأنهم عاملون على ما جاءت به النبوة، ولا يلتفتون إلى شيء، كما ذكر عن سحنون[1] رحمه الله أنه أتاه بعض إخوانه مكروباً من رؤيا رآها، فقال له: (الشيطان أراد أن يحزنك). ثم إنه وجّه وراء قسيس من قسس النصارى، فقال له: هل رأى البارحة منكم أحد رؤيا تسره؟ فقال له: نعم. فلان منّا. وهو كبير في دينه، رأى رؤيا سرته. فقال له: ألم أقل لك إنها من الشيطان، ذهب إليك ليحزنك، وذهب لهذا ليثبته على ضلاله. أو كما قيل. فانظر إلى قوة إيمانهم، لا يعرّجون على شيء، بل هم مصدقون لما قيل لهم، عاملون على ذلك بلا شيء يعارضهم، وإن عارضهم لم يلتفتوا إليه ولم يعرجوا عليه.

وإذا كان آخر الزمان عند اقتراب الساعة وضعف الإيمان وقلة أهله قويت النسبة بين رؤيا المؤمن وبين النبوة بسبعة وعشرين جزءاً، أو خمسة وعشرين جزءاً، لأن المؤمن في ذلك الوقت غريب، كما قال ﷺ (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً. فطوبى للغرباء)[2]. رواه مسلم. فلا يكون للمؤمن في ذلك الوقت أنيس ولا معين إلا من طريق الرؤيا غالباً، وما بين ذينك الحديثين تفاوتت أحوال الناس فيما بين الزمانين على الترتيب.

وهنا بحث هو: ما الحكمة في هذا التأويل، بحسب ما شهد له قول الصادق ﷺ في الحديث الذي نحن بسبيله بقوله (لم تكد تكذب رؤيا المؤمن)؟ فاعلم - وفقنا الله وإياك - أنه مما قد علم من حكمة الله تعالى أن الله سبحانه ما كان يبعث الرسل إلا بعَد الفترات التي كانت تأتي بعد الرسل عليهم السلام.

فلما كان سيّدنا ﷺ آخر الرسل ولا نبي بعده، وأن بين موته وقيام الساعة زمان أطول من الفترات التي تقدمته بين الرسل، عليهم السلام، وعلم الحق، عزَّ وجلَّ، من عباده أنه مع طول المدى بلا رسول بينهم يهديهم أن الإيمان ينقص، وأهله يقلون، وأراد بفضله (أن تبقى من هذه الأمة عصابة على الحق إلى يوم القيامة لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة)[3] وصح بنقل الرسل، صلوات الله عليهم، عنه، جلَّ جلاله، كثرة لطفه بعباده المؤمنين ورحمته لهم، ورفقه بهم، فجعل لهم من أثر النبوة شيئاً يستأنسون به، ويتقوى إيمانهم به، ويجدون فيه شفاء لبرء دائهم،

---

(١) تقدم ذكره في الحديث ٧٨.

(٢) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن سنة الأشجعي رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ولفظه: لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك.

وعوناً على مخالفيهم، وهي الرؤيا الحسنة التي بدىء نبيهم ﷺ بها، كما جاء في أول حديث من الكتاب (كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح)[1]. فبالذي بدىء به هذا الخير به ختم، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[2].

وفي هذا دليل على فضيلة سيّدنا ﷺ، وهو أن أبقى لأمته من الخير الذي أُعطي أثراً يهتدون به، ويستريحون إليه، حتى لا تخلو بركته، ولا أثره الجليل من أمته، وبقي هديه، عليه السلام، لهم في عالم الحس والمعنى. ففي عالم الحس بالثقلين، وهما الكتاب والسنة، وفي عالم المعنى بالرؤيا الحسنة، وكل واحد منهما يصدق صاحبه ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[3].

وأما قولنا: ما الحكمة في تكراره ﷺ هذه الأحاديث العديدة، في شأن نسبة رؤيا المؤمن من النبوة؟ فذلك لوجوه، منها: أن يحصل لها قوة، ولو كان ذلك كله في حديث واحد لم يكن كذلك، ولأن يُظهر بكثرة ذكره، عليه السلام، لذلك لأمته كثرة اعتنائه، عليه السلام، بالرؤيا والبحث عنها، لكونها من النبوة، لأنه كان من سنته، عليه السلام، إذا اهتم بالأمر يكرره مراراً.

وفيه من الحكمة أن الحكم إذا كان لا يظهر حقيقة إلا بجمع الآثار التي وردت فيه فلا يعلم ذلك إلا القليل، لأنه لا يعلم جميع تلك الأحاديث كثير من الناس، حتى يكون الأمر على ما ذكره عليه السلام أول الكتاب بقوله (إنما أنا قاسم والله يعطي)[4].

وفيه أيضاً من الحكمة أن من ظهر له في أحدها حكم، ثم لا يقدر أن يجربه في باقيها، فذلك دال على ضعفه، وإن كان يمكن جريه في جميعها كان ذلك دالاً على صلاحه وحسنه، لأن كلامه ﷺ كلّه لا يوجد فيه خلاف ولا تناقض إلا من قلة فهم الناظر فيه، ولولا تكرارها وكل واحدة منها لا بد أن يوجد فيها معنى زائد على غيرها ما ظهرت بتوفيق الله تلك التوجيهات التي وجهناها، من الفهم في جميع الأحاديث التي وردت في هذا الشأن مفترقة ومجموعة. فإذا تأملتها تجدها جملة عديدة، ولوجوه من الحكمة عديدة، لمن وفق وتأملها.

جعلنا الله ممن أسعده بما وهبه بفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الشيخان عن السيدة عائشة رضي الله عنها وأوله: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٤.

(٣) سورة الحجرات، من الآية ٨.

(٤) قطعة من حديث أوله: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. رواه الشيخان عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

ـ ٢٨٢ ـ

حديث تحريم الكذب في الرؤيا والتجسس والتصوير

عَن ابنِ عبَّاسٍ، رضي الله عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: مَن تَحلَّم بحُلم لَم يرَهُ كُلِّفَ أن يَعْقِدَ بينَ شَعيرتَينِ، وَلن يفعلَ، وَمَن استَمَعَ إلى حديثِ قومٍ وَهُم لهُ كارِهونَ صُبَّ في أُذُنَيْهِ الآنُكُ يومَ القيامةِ، وَمَن صَوَّرَ صُورةً عُذِّبَ وَكُلِّف أن يَنفخَ فيها، وَلَيسَ بنافخٍ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام: (أحدها) أنه من قال: إنه رأى رؤيا، وهو في ذلك كاذب، (كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل)، ومعناه أنه يعذب طول الزمان الذي لا يقدر أن يعقد بينهما، وهو لا يقدر، فعذابه دائم. (والثاني) أنه (من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة). وهو الرصاص المذاب. (والثالث) أنه (من صوّر صورةً عُذِّب وكُلِّف يوم القيامة أن ينفخ فيها، وليس بنافخ). ومعناه أنه يعذَّب طول الزمان الذي لا يقدر أن ينفخ فيها، وهو ليس بنافخ، وقد جاء من طريق آخر (وليس بنافخ فيها أبداً)، فدل على دوام عذابه مثل الأول. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما الحكمة في أن سمّاه عليه السلام (حُلماً)؟ وما معنى (يعقد) في هذا الموضع؟ وما نسبة هذا مما فعله بمقتضى الحكمة، لأن باقي الحديث يدل على أن عذاب كل واحد مناسب لِذَنْبِهِ؟ ولِمَ جعل هذا من أعظم الذنوب، لأن من طال مقامه في النار فهو دال على عِظَم ذنبه؟ وكيف استماع الحديث الذي يترتب عليه هذا العذاب المؤلم؟ هل هو كيفما سمعه، أو هو على وجه خاص؟ وكيف يكلف أن يعلم كراهيتهم لسماعه؟ هل يطلب بذلك بحسب قرينة الحال، أو بعلم قطعي؟ وقوله (صورة) هل هي على العموم أو الخصوص؟.

أما قولنا: ما الحكمة في أن سماه عليه السلام (حُلماً) ولم يسمه (رؤيا)، فلأنه لما كان هذا الرائي ادعى أنه رآها، ولم ير شيئاً، فكانت كذباً، والكذب إنما هو من الشيطان، وقد قال ﷺ في

غير هذا الحديث (إن الحُلْم من الشيطان)[1]، وهو غير حق، فعبر عنه بحقيقة معناه، لأنه غير حق، ولأنه من الشيطان.

وفي هذا دليل لما قلناه في الحديث قبله أن كلامه كله ﷺ ليس فيه تناقض، وأنه يصدق بعضه بعضاً.

وأما قولنا: ما معنى يعقد بين شعيرتين؟ فمعناه: يصل إحداهما بالأخرى حتى يردّهما واحدة، وهذا لا يقدر عليه أبداً. وجاءت رواية (بين شَعَرَتَين)، ومعناه: يصلهما حتى يردهما شَعَرة واحدة، لا أن يعقدهما بعقدة يعقدها، لأنه قد يعقد بين شَعَرتين، ولو كان يطلب منه ربطهما بعقد يعقده لِعَقْدهما، كما يسبق لفهم السامع، لم يكن في ذلك صعوبة حتى لا يقدر أن يفعله؛ وإنما معناه ـ والله أعلم ـ أن يعقد بينهما، أي يصلهما بعضاً ببعض حتى يعودا واحدة.

فهذا لا يقدر عليه لا هو ولا أحد إلا الله سبحانه. وكذلك البناء، وهو الذي يصل بعضه ببعض حتى يعود البناء شيئاً واحداً، ولذلك ضرب ﷺ المثل للمؤمنين بقوله ﷺ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً)[2] حتى يكون شيئاً واحداً.

وأما قولنا: ما نسبة ما كلف مما فعل بمقتضى الحكمة، وذلك أنه لما كذب على الله في خلقه، لأن الرؤيا خلق من خلق الله، فأدخل في الوجود صورة معنوية لم تقع، كما فعل الذي صَوّر الصورة الحسيّة، لأنه أدخل في الوجود في عالم الحس صورة ليست بحقيقة، لأن حقيقة الصورة المقصود منها ما جعل فيها من الروح والحياة، فكلف صاحب الصورة الكثيفة أن يتم ما خلقه بنفخ الروح فيها، وكلّف صاحب الحلم الذي أتى بالصورة اللطيفة أمراً لطيفاً، وهو أن يعقد بين شعيرتين.

وفي هذا دليل على أن كل ما هنا من الأمور المعنويات يكون الأمر فيها في الآخرة حسياً غير أنه يكون بينهما نسبة ما، كما جاء في الحسنات والسيئات، ومنها ما هو معنى، وكلها تكون في الآخرة حسيّات، لأنها توزن في الميزان، ولا يوزن في الميزان المحسوس إلا حسيّ. لكن يبقى بينهما نسبة ما، وهي من وجهين: الخفة والثقل، وبحسب قدرها يكون في عالم الحس هناك قدرها أيضاً والوزن أيضاً كذلك.

فجنس الحسنات نوري، وجنس السيئات سواد وظلمة، فلما ادعى هنا معنى لم يخلقه الله ـ وهو تلك الرؤيا التي زعم ـ قيل له: كما فعلت هناك أمراً لطيفاً لم يخلقه الله فافعل هنا أمراً لطيفاً لم

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي سلمة رضي الله عنه بلفظ: الرؤيا الصادقة من الله، والحلم من الشيطان.

(٢) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

يشأه الله، فإن الله، عزَّ وجلَّ، قد شاء أن تكون هاتان الشعيرتان منفصلتين. فاخلق أنت بينهما اتصالاً حتى يرجعا واحدة. وهذا أمر لطيف. ومهما لم تقدر على هذا مع لطافته تُعذَّب، ولن تقدر على ذلك الأمر مع دقته ولطافته أبداً.

وفي هذا دليل لأهل السنة الذين يقولون: إن الخلق كله لله. فلو لم يكن كذلك لكان هذا يصل بين تينك الشعيرتين. وقد تقدم في الكتاب في هذا ما فيه كفاية، فأغنى عن بسطه هنا.

وأما قولنا: ما الحكمة بأن جعل هذا من أعظم الذنوب؟ فلأنه نازع الحق، جلّ جلاله، في قدرته وخلقه. أما قدرته فلأنه ادعى بلسان حاله أنه خالق، ومنازعته لله في ادعائه أنه خلق خلقاً يشبه خلق الله، وليس الأمر حقاً في ذاته، فامتحن بأن يخلق أهون الأشياء، وهو العقد بين شعيرتين.

من ادعى ما ليس فيه كذبته شواهد الامتحان

والوجه الثاني: أنه كذب على النبوة، لأن الرؤيا جزء من النبوة، وقد قال ﷺ (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[1] فلجمعه بين هذين الأمرين العظيمين عظم ذنبه.

وقوله ﷺ (ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون) هل هذا الاستماع على العموم على أي وجه كان، أو على الخصوص؟ الظاهر أنه على الخصوص، لأنه لو كان على العموم لكان الأكثر منه من تكليف ما لا يطاق، ومولانا سبحانه قد منّ علينا ولم يكلفنا ما لا يطاق، إنما كلفنا في العلم بذلك بحسب قرائن الحال التي تدل على كراهيتهم لسماعنا إلى حديثهم. فالاستماع على وجه خاص وليس على عمومه.

وذلك مثل قوم يتحدثون في منزلهم، فإن استمعت إلى حديثهم فقد دخلت تحت هذا الحد، لأنهم بقرينة حالهم ـ وهو كونهم في منزلهم، وقد أغلقوا دونك بابهم ـ فدل ذلك على أنهم إنما أرادوا أن ينفردوا بحديثهم دونك، ودون غيرك ممن خلف بابهم، وكذلك إذا تسارَّ شخص مع آخر ومع جماعة دونك فقد كرهوا أن يسمعوك حديثهم، فإن تسمعت إليه دخلت هذا الحدّ.

ولذلك نهى ﷺ (أن يتناجى اثنان دون واحد)[2] لمّا كان الواحد ممنوعاً أن يتسمع إلى حديثهما مُنِعا أيضاً أن يتناجيا دونه، فيقع عنده منهما توهم ويظن بهما، فمنعا من ذلك بقوله ﷺ (لا يتناجى اثنان دون واحد). وأما إن كانوا يتحدثون أمامك جهراً، وإن كان في قلوبهم كراهية منك أن

---

(١) رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود والطيالسي عن أنس رضي الله عنه، وله روايات كثيرة بلغت درجة التواتر.

(٢) رواه الطبراني والخطيب عن ابن عمر رضي الله عنهما.

تسمع كلامهم، فهذا لا يلزمك منه شيء، ولا أنت مطلوب بأن تعلم كراهيتهم لاستماعك حديثهم. وفيما مثلنا به كفاية في الجواب عن المسألتين.

وقوله ﷺ (من صوّر صورة) هل هو على العموم في كل صورة من الصور أو على الخصوص؟ اللفظ محتمل، وقرينة الحال التي بعد تقتضي الخصوص، وهي قوله ﷺ (كلّف أن ينفخ فيها). فإنه لا ينفخ في صورة من الصور إلا صورة لها روح، فتخصص بهذه القرينة أنها كل صورة لها روح، من أي أنواع المخلوقات كانت. وقد جاء معنى هذا نصّاً عن عبد الله ابن عمر، حين سأله شخص كان يتعانى هذا، فقال له: (صوّر كل ما شئت، مما ليس له روح، مثل الشجر والفواكه وشبههما) أو كما قال رضي الله عنه.

وبقي هنا بحث من طريق الفقه وهو: هل هذه التصويرات التي عملها بعض الناس من العجين والسكر أيضاً أو من العسل، هل تؤكل، أو أكلها حرام، كما هو فعلها حرام؟ فإن كل من عمل شيئاً، وهو يعذب من أجله ففعله حرام بلا خلاف. فعلى القول بأن النهي يعود على فساد المنهيّ عنه، فأكلها حرام، ولا يجوز الانتفاع بها، ولا أن تطعم لدواب ولا غير ذلك من الحيوان، بل ترمى في البحر أو تدفن في الأرض. فبيعها حرام، ولا يجوز، ويفسخ إن وقع.

وعلى القول بأنْ لا يعود على فساد المنهيّ عنه، وفاعله آثم، فيكون أكله مكروهاً من طريق لسان العلم، لكن الذي يشتريها: الأمر في حقه أشدّ، لأنه يعين بائعها وفاعلها على أمر لا يحل له عمله، ويدخل من أجله النار، وأمره يتردد بين الحرام والمكروه، والتحريم أظهر فيه، لا سيما إن كان مما لا يبالي به في دنيا أو دين فيزيد الأمر عليه شدة لاقتداء الغير به، فيكون عليه إثم من تبعه، فدخل في (الأريسيّين). وقد تقدم لقوله ﷺ (فإنما عليه إثم الأَرِيسِيّين)[1].

وأما من طريق الورع، أو طريق أهل السلوك، فممنوع بلا خلاف لقوله ﷺ (لو صمتم حتى تكونوا كالأوتار، وقمتم حتى تكونوا كالحنايا، ولم يكن لكم ورع حاجز، لم يمنعكم ذلك من النار)[2]. والورع فيما هو أقل من هذا، فإن هذا عند أهل التحقيق من الفقهاء حرام، فكيف بطريق الورع أو طريق الصحابة، رضي الله عنهم، والسلف الصالح الذين كانوا يقولون: (ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام)، لأن الطعام إذا كان فيه شبهة أظلم القلب وقسا به، وقد قال ﷺ: (القاسي القلب بعيد من الله) أعاذنا الله من ذلك بفضله. آمين.

---

(١) قطعة من الحديث الذي هو رسالة النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم. أخرجه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما ولفظه: فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيّين.

(٢) رواه ابن مَنْدَهْ من حديث عمر رضي الله عنها ولفظه: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تبلغوا الاستقامة. قال الذهبي: باطل.

وفي الحديث بتضمنه إشارةٌ لطيفة، وهي أنه من خرج عن وصف العبودية وجب عقابه، ويكون عقابه بقدر جرمه.

وفيه تنبيه على أن الجاهل لايعذر بجهله. يؤخذ ذلك من كونه، عليه السلام، أخبر عن أصحاب هذه الذنوب كيف عذابهم، ولم يفرق فيه بين من يعلم تحريم ذلك وبين من لا يعلمه، فالكل مؤاخذون بذنوبهم، جهلوها أو علموها.

وفيه تنبيه على أن الذي يعمل على تأويل ليس على الوجه المأمور به أنه لايعذر بذلك التأويل، وإن كانت المسألة فيها خلاف بين العلماء.

وفيه تنبيه على أنه من سئل في مسألة فأفتى فيها بغير علم، وعمل عليه، أنه ليس له في ذلك عند الله عذر، وأنه يعذب على المخالفة التي وقعت منه. يؤخذ ذلك من عموم الأخبار من الصادق ﷺ بعذاب هؤلاء، ولم يستثن فيه نوعاً من هذه الأنواع، ولا أشار إليه، وقد جاء النص منه عليه السلام على هذه الإشارة التي أشرنا إليها بقوله، عليه السلام (اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)[1].

وفي مجموع هذه دليل على طلب علم الكتاب والسنة، لأنه لا تعلم هذه وأمثالها إلا من هذا العلم المبارك الذي جعله الله، عزّ وجلّ، طريقاً إلى معرفته ومعرفة أحكامه، وغيره ضلال أو بطالة، كما قال ﷺ في علم الأنساب (علم لا ينفع وجهالة لا تضر)[2].

وفقنا الله إلى علم كتابه، وسنة نبيه ﷺ.

وجعلنا ممن سعد به، لا ربَّ سواه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وتمامه: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلماء. حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا.

(٢) أخرجه ابن عبد البر عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: علم النسب علم لا ينفع، وجهالته لا تضر.

ـ ٢٨٣ ـ
حديث الأمر بألاّ تحدِّث رؤيا الخير إلا من تحبّ ولا تحدِّث بالذي تكره

عَن أبي قَتادة[1]، رضي الله عَنهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَقولُ: الرُّؤيا الحسنَةُ مِنَ الله. فإذا رَأى أحدكم ما يحبُّ فَلا يُحدِّثْ بِهِ إلاَّ مَن يُحِبُّ. وإذا رأى ما يكرهُ فَلْيتعوَّذْ بالله مِن شَرِّها، وَمِن شَرِّ الشَّيطان. وَلْيتفُلْ ثلاثاً، ولا يُحدِّثْ بها أحَداً، فإنَّها لا تَضُرُّهُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أربعة أحكام: (أحدها) إخباره ﷺ بأن الرؤيا الحسنة من الله، (الثاني) الأمر منه ﷺ أنه (إذا رأى أحد ما يحبّ فلا يحدثْ به إلا من يحب). (الثالث) أمره ﷺ لمن رأى ما يكره (أن يتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان ويتفل ثلاثاً ولا يحدث بها أحداً). (والرابع) إعلامه ﷺ أنه من امتثل أمره، عليه السلام، في الرؤيا التي يكرهها فإنها لا تضرّه. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى (الحسنة)؟ وما الحكمة في نسبتها إلى الله سبحانه؟ وما الحكمة أيضاً في ألا يحدّث بالحسنة إلاّ من يحب؟ وكيف صفة التعوّذ وصفة التفل؟ وما الحكمة أيضاً في ألا يحدث بالمكروهة أحداً لا من يحب ولا من لا يحب؟

وأما قولنا: ما معنى الحسنة؟ فمعناها: كل ما يكون لك فيها خير. ويحتاج ذلك إلى العلم بالتعبير، إن كانت مما يحتاج إلى تعبير، لأنه قد يكون ظاهرها خيراً وهو غير ذلك، وقد يكون الأمر فيها بالعكس، إلا إن كانت بيّنة لا تحتاج إلى تعبير فحينئذ تجري على هذا الحكم.

وأما قولنا: ما الحكمة في نسبتها إلى الله تعالى؟ فهذا جارٍ على أدب العبودية، وعلى ما جاء

---

(١) تقدم ذكره في الحديث ١٨٢.

به القرآن من قوله عزّ وجلّ ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[1] ويشهد لذلك أيضاً قوله عليه السلام: (إنها من النبوة)[2] كما ذكر في الأحاديث قبل، لأن النبوة من الله، أي من عند الله.

وفيه إشارة إلى أن الخير الذي مَنّ الله به على العبد، من الرؤيا الحسنة أو النبوءة أو أي نوع كان من أنواع الخير، أنه من عند الله، أي بفضله ورحمته لا بحق لازم عليه لأحد من العباد، كان العبد من أي نوع كان من أنواع عبيده ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[3].

وأما قولنا: ما الحكمة في ألا يُحدِّث بالحسنة إلا من يُحب؟ فالكلام على هذا من وجهين: (أحدهما) هل يعني بذلك من تحبه أنت، وإن كان هو لا يحبك؟ أو معناه: لمن تحب أنت ويحبك هو؟ ظاهر اللفظ محتمل. لكن يعلم من العادة الجارية بين الناس أن المحادثة لا تكون غالباً إلا مع من يكون بينهما تواد ومحبة من الطرفين، أو محبة من الطرف الواحد وعدم البغض من الطرف الآخر.

وأما الذي يكون فيه من أحد الطرفين بغض فلا يمكن بينهما محادثة، بل منافرة وفرار كلّي، لحديث بريرة ومغيث المتقدم ذكرهما، كان يمشي خلفها يبكي من فرط حبها، وهي من فرط بغضها لا تلتفت إليه. فكيف يكون بين من هما على ذلك الحال محادثة؟ هذا بعيد. والنبيّ ﷺ لا يخاطبنا إلا على ما هو المتعاهد من عوائدنا.

فالمحادثة على وجهين: إما مع من تحبه ويحبك، أو مع من تحبه وهو لا يكرهك. لأنه لا بدّ في الذي تحبه وهو لا يبغضك أن يكون له إليك ميلٌ ما. فهذان الشخصان هما اللذان تحدثهما برؤياك الحسنة.

وأما قولنا: ما الحكمة في منعك أن تحدث بها من يبغضك أو تبغضه؟ أما من تبغضه أنت فلا بد أن يجد لك بغضاً ما، لأن الحكمة الإلّهية جرت بأن تكون بين القلوب مادة يجذب بعضها من بعض، بحسب ما في هذا يجد الآخر منه نسبةً ما، إما أقل أو أكثر أو بالتساوي. هذا متعارف عند أرباب القلوب، حتى إن من كلامهم في هذا النوع (انظر إلى فؤادك: كما تجدنا نجدك). يعنون: كما تجدنا فيه من حسن أو قبح كذلك نجدك. وجاء هذا الحديث شاهداً لهم.

---

(١) سورة النساء، من الآية ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري ومسلم عن ابن عمر وعن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهم. ولفظه: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان ٧٣ و ٧٤.

وقد ذكر مما يقوي هذا النوع أن بعض التجار في مدينة مَرّاكُش كان يجلس عنده أحد أبناء الدنيا ممن له تعلق بالملك، ويظهر له تواداً، فإذا انفصل عنه يقول لأصحابه: هذا الرجل يعاملني بالبر، وأجد له في نفسي كراهية. فلما كان يوم عيد من الأعياد خرج ذلك التاجر إلى الصلاة بزينة العيد، وكان أثر مطر، وإذا بذلك الشخص خارج وهو راكب جواداً. فلما قرب منه لوثت الدابة التي كان عليها ثياب ذلك التاجر وشوّهتها، ورجع إلى بيته على حالة مسكينة، فقال لأصحابه: ظهر الموجب للكراهية التي كنت أجد له.

فإن المبغض لك، إمّا البغضَ الظاهرَ، وإما الباطنَ. الغالب أنه لا يقصر عنك في إذاية[١] إن قدر عليها. فلعلك إن قصصت عليه الرؤيا أن يعبرها لك على وجهٍ مكروهٍ وهي حسنة. وقد جاء (أن الرؤيا مثل الطائر فإذا عبرت وقعت ولزمت)[٢].

ومما يقوي هذا قصة يوسف عليه السلام، لما أتاه الشخصان، وقد أبدل كل واحد منهما رؤياه برؤيا صاحبه، فلما عبّرها يوسف عليه السلام، ورأى الذي كانت رؤياه دالة على الخير ـ وهو قد أبدلها مع صاحبه ـ فقال له: لم يكن الذي رأى هذه إلا صاحبي هذا، ولم تكن رؤياي إلا حسنة. فقال لهما يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٣] أي بالتعبير، قد وجب لكل واحد منكما ما عبّر له. فكان الأمر كذلك.

ولوجه آخر، وهو أنه إن كانت قد عبرت لك بخير يحتال عليك في ذلك الخير الذي بشرت به كيف يشوش عليك، لعله يدفعه عنك، كما فعل إخوة يوسف، عليه السلام، حين رأى الرؤيا وقصها على أبيه يعقوب، عليه السلام، فقال ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٤] فجاء الأمر كما أخبر يعقوب عليه السلام.

فمن أجل هذين الأمرين نهى ﷺ ألا تحدث برؤيا الخير إلا من تحب، ولأن الغالب على من يحبك أو يميل إليك بقلبه من أجل حبك له أنه لا يحسدك، ولا يريد لك إلا خيراً. ولذلك منع، عليه السلام، من أن تحدث بها من لا تحبه، وإن كان لا يبغضك، خوفاً أن يحدث الشيطان عنده بذلك حسداً، أو يتلفظ في تعبيرها بلفظ يلحق منه إذاية، كما ذكر عن ابن سيرين[٥] الذي كان مشهوراً

---

(١) يريد: أذية.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه بلفظ: الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت. ولا تقصّها إلا على وادٍّ وذي رأي.

(٣) سورة يوسف، من الآية ٤١.

(٤) سورة يوسف، من الآية ٥.

(٥) ابن سيرين: محمد، أنصاري بالولاء، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة وتابعي من أشراف الكتاب. مولده=

بعلم التعبير أنه جاءه شخص برؤيا فلم يجده في الدار، فقال له الخادم: وما كنت تريده؟ فقال له: يعبر لي رؤياي. فقال: وما هي؟ فقال: إني رأيت كأني أشرب البحر. فقال له الخادم: أولم ينفتق بطنك؟

فولى عن الدار. وإذا بابن سيرين. فذكر له الرؤيا فسأله: هل ذكرتها لأحد؟ فقال له: لخادمك، وقال: كيت وكيت. فقال: احتفظ على نفسك. فولى عنه، فإذا ببقرة شرود قد أفلتت من صاحبها وهو خلفها يجري، فتعرض لها فنطحته بقرنها فشقت بطنه، أو كما قال. وفي هذا دليل على كثرة شفقته ﷺ على أمته.

وفيه دليل على التحضيض على اتباع أثر الحكمة. يؤخذ ذلك من نهيه، عليه السلام، عن أن تحدث برؤياك من لا تحب، وهو عمل سبب من أثر الحكمة في دفع الضرر عنك كما فعل يعقوب مع يوسف، عليهما السلام. لكن إذا جاء القدر لا ينفع معه أثر الحكمة، مثلما جاءت قصة يوسف، عليه الصلاة والسلام، لما أوصاه أبوه ولم تنفعه تلك الوصية للقدر الذي سببه بفراقه، ولما عمل إخوة يوسف ذلك السبب بألا يظهر عليهم لم ينفعهم ذلك أيضاً، وكان هو الظاهر عليهم لذلك قال جلّ جلاله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ما شاء هو، عزّ وجلّ، بقدرته ينفذ لا محالة، ولا ينفع فيه أثر الحكمة، لكن نحن بها مخاطبون، فنفعلها امتثالاً، ونعلم مع ذلك أنه لا ينفع منها إلا ما وافق القدر من ذلك، وإلا فالقدر هو النافذ لذلك لا محالة، ولذلك قال بعضهم:

وإذا حَـذِرتَ مِـنَ الأمـورِ مُقَدَّراً وفَـــرَرْتَ مِنْـــهُ فَنَحْـــوَهُ تَتَـــوجَّـــهُ

وهذه أجل الطرق لأنها جمعت بين الشريعة والحقيقة، ومن أجل ذلك أثنى الله على يعقوب عليه السلام، وقال في حقه ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾(٢).

وأما كيفية التعوذ: فاعلم أن صفة التعوذ قد جاء عنه ﷺ في غير هذا الحديث نصاً وهو أن يقول (أعوذ بالله من شرّ ما رأيت أن يضرني في ديني ودنياي). والتعوذ من الشيطان معلوم.

وأما صفة التفل: فقد عبر عنه بعض العلماء بشبهك إذا ألقيت نوى الزبيب من فيك حين

= ووفاته بالبصرة. نشأ بزازاً، في أذنه صمم. وتفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. ينسب له كتاب (تعبير الرؤيا). توفي سنة ١١٠ هـ ٧٢٩م (الأعلام ٧/ ٢٥).

(١) سورة يوسف، من الآية ٢١.

(٢) سورة يوسف، من الآية ٦٨.

تأكله، وهو وجه حسن من التمثيل. وقد جاء عنه ﷺ في حديث غير هذا أن تتحول عن الجنب الذي رأيت فيه ما تكره إلى الجنب الثاني.

وقوله ﷺ (فليتعوذ بالله من شرّها ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثاً) عطفُه بالواو توسعةٌ؛ بأيها بدأت فلا شيء عليك فيه.

وأما قولنا: ما الحكمة في ألا تحدث بالتي تكرهها أحداً، لا من تحب ولا من لا تحب؟ فإن كان تعبداً فلا بحث، وإن كان لحكمة ـ وهو الأظهر ـ فما هي؟ احتملت وجوهاً. منها: أن يكون عدم تحدثك بها حتى تلقيها عن قلبك، فلا يبقى لك منها حزن، فيكون هذا من باب الشفقة.

واحتمل أن يكون هذا من أجل الغير فتُحزِنَ الذي يودك بشيء لا يضرك، وإن كان ممن يبغضك فيُسرّ بها، فلسروره بتحزين مسلم يكون مأثوماً، وتكون أنت سبباً لأن تدخل على أخيك المسلم سوءاً في عمله بشيء لا يضرك.

واحتمل أن يكون، عليه السلام، جعل عدم ذكرك لها دالاً على تصديقه، عليه السلام، في الذي أخبرك به. فتصديقك له ﷺ وامتثالك لأمره هو الذي يدفع عنك ذلك الضرر الذي كان يلحقك منها.

واحتمل مجموع التوجيهات كلها، والآخر منها هو أظهرها، والله أعلم. ولذلك قال العلماء: إن الرؤيا إذا كانت تدل على شرّ، ولم تكن حلماً، وامتثل صاحبها السنة كما أخبر ﷺ في هذا الحديث، إنها لا تضره ببركة اتباعه السنة، وهو الحق الذي لا شك فيه، لأن الله، عزّ وجلّ، يقول ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] وهذا لفظ عام، فلا يقصر على جهة واحدة، ولا معنى واحد، بل يبقى على عمومه، لأن ذلك فضل من الله. وما كان من طريق فضل الربوبية يعتقد فيه أكمل وجوه الخير، لأن ذلك هو اللائق بجلاله سبحانه.

جعلنا الله ممن تمسك بالكتاب والسنة، وتوفانا على ذلك مغفوراً لنا بفضله.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

ـ ٢٨٤ ـ

حديث الأمر بالصبر على طاعة الأمير وعدم مفارقة الجماعة

عَن ابنِ عبَّاسٍ، رَضي الله عَنهُما، عَنِ النبيِّ ﷺ قَال: مَن رأى مِن أميرِهِ شيئاً يكرهُهُ فَلْيَصبِرْ عَليهِ، فإنَّهُ مَن فارقَ الجماعَةَ شِبراً فَماتَ إلاَّ ماتَ مِيتةً جاهِليَّةً[1].

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) الأمر لمن رأى من أميره ما يكرهه بالصبر على ذلك ولا ينكث في بيعته. (والثاني) إخباره ﷺ أنه من فارق جماعة المسلمين قدر شبر مات على سنة الجاهلية. والكلام عليه من وجوه:

منها: الشيء الذي يكرهه من أميره هل هو على العموم في أمور الدنيا والآخرة، أو هو على الخصوص في أمور الدنيا، وما يتعلق بالأمور النفسانية؟ وما صفة هذه الجماعة، هل هم الذين تسموا باسم (الإسلام)، كانوا على أي حالة كانوا عليها، أو معناه الخصوص؟ وكيفية هذه المفارقة، وما معنى تحديدها بالشبر؟ وما هو معنى (ميتة جاهلية)؟ هل يكون معناه على الكفر المحض، أو على صفة من صفات الجاهلية مع بقاء الإيمان؟

أما قولنا: الشيء الذي يكرهه من أميره، وأمر بالصبر عليه، هل ذلك على العموم أو على الخصوص؟ اللفظ محتمل. لكن يتخصص بالأحاديث المبينة لهذا العموم بأنه مما يتعلق بالأمور الدنيوية والأمور النفسانية، تحفظاً على أمر الدين الذي هو طريق الآخرة، فمنها قوله عليه السلام، في الصحيح (اسمعوا وأطيعوا وإن تأمَّرَ عليكم عبد حبشيّ كأن رأسه زبيبة)[2]. وهذه كلها أمور نفسانية ودنيوية أو كما قال. والحديث الآخر ذكر فيه أنهم قالوا: (أرأيت إن وُلّي علينا أمراءُ فُسَّاقٌ

---

(١) إلاّ للحصر هنا، لما في الشرط «من» من تضمن النفي. فكان المعنى: ما فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري وابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشيّ كأن رأسه زبيبة.

أنقتلهم)؟ قال ﷺ: (لا ما صلّوا، لا ما صلّوا)[1]، فدلّ بقوله عليه السلام: (لا ما صلّوا) أنهم إذا لم يصلوا قُتِلوا، ولا سَمْعَ لهم ولا طاعة.

وكذلك قال عمر، رضي الله عنه، على المنبر حين بيعته قال: (ما أطعتُ الله ورسوله، وإلا فلا سمع لي عليكم ولا طاعة) أو كما قال. فدلّ بهذا أن الأمور التي يكون فيها مخالفة في الدين لا يطاع فيها أمير ولا غيره، لأنه ما جعلت الإمارة أن ينقاد الناس لها إلا من أجل أن (لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق)[2]. وقد قال علماء الدين: إنه لا يجوز لشرطي أن يؤدب أحداً بقول أميره، حتى يعلم أن ذلك حق عليه بأمر الله واجب. والأحاديث في هذا النوع كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

وأما قولنا: ما صفة هذه الجماعة، هل على العموم حتى في الذين تسموا باسم (الإسلام)، أو ذلك على الخصوص في المسلمين حقاً؟ البحث في هؤلاء والجواب عليه كالجواب على الأمير، وحديث حذيفة الذي بعد هذا يبين هؤلاء الجماعة، ويشرح هذا الموضع، حيث قال له ﷺ (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك).

وأما قولنا: كيف صفة هذه المفارقة؟ فمعناها أن تسعى في حل تِلْكَ البيعة التي للأمير ولو بأدنى شيء. فعبر عليه السلام عنه بمقدار الشبر، لأن الأخذ في حل تلك البيعة هو مخالفة لجماعة المسلمين المنعقدين عليها، وهو مع ذلك أمر يؤول إلى سفك الدماء بغير حق، وقد قال ﷺ (من شارك في قتل مسلم، ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب على جبهته: آيس من رحمة الله)[3] أو كما قال عليه السلام.

وأما قولنا: ما معنى قوله عليه السلام: (فمات إلا مات مِيتة جاهلية)؟ هل ذلك كفر صراح، أو أنه مات على صفة من صفات الجاهلية، وإيمانه باق؟ اللفظ محتمل. وقد جاء ما يبينه وهو قوله عليه السلام: (من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)[4] أو كما قال عليه السلام. فشبهه عليه السلام بالمرتدّ عن الإسلام. وهذا أمر خطر.

اللهم عافنا من الخطر.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه بلفظ: خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلُّون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قلنا: يا رسول الله، أفَلا نُنابِذُهم عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا الصلاة، لا، ما أقاموا الصلاة، لا، ما أقاموا الصلاة.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن خزيمة والطبراني وابن قانع والحاكم عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله يوم القيامة مكتوب بين عينيه: ايس من رحمة الله.

(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

ـ ٢٨٥ ـ

حديث من علامات الساعة قلة البركة في الزمان وكثرة الفتن والقتل

عَن أبي هُريرةَ، رضي الله عنه، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: يَتقاربُ الزَّمانُ، وينقُصُ العملُ، ويُلقى الشُّحُّ، وتَظهرُ الفِتنُ، ويكثُرُ الهَرجُ. قالُوا: يا رَسولَ الله: أيّما هُوَ؟[١] قال: القَتلُ القتلُ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام: (الأول) الإخبار بتقارب الزمان. (والثاني) نقص العمل. (والثالث) إلقاء الشح. (والرابع) ظهور الفتن. (والخامس) كثرة الهرج وهو القتل. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى (تقارب الزمان)؟ وكيف يكون نقص العمل؟ وما معنى هذا الشح الملقى؟ هل هو على العموم، أو على الخصوص؟ وما الفتن المشار إليها؟ وما صفة القتل الذي يكثر؟ هل هو بحق أو بغيره؟ وما معنى الهرج؟

أما قولنا: ما معنى: تقارب الزمان؟ فمعناه: أن يقصر ويقل طوله. وأتى به على أبنية التأكيد، وهي المفاعلة، فدل ذلك على أن قصره يكون كثيراً. وقد جاء نصاً في حديث غير هذا كقوله ﷺ (تكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة، والساعة كالنَّفَس) أو كما قال عليه السلام. ولا يخلو هذا القصر أن يكون المراد به معنوياً أو حسياً.

فأما المعنوي فقد ظهر، وله سنون عديدة، يعرف ذلك أهل الأعمال ومن له فطنة ما من أهل الدنيا المشتغلين بالأسباب فيها، فإنهم يجدون أنفسهم لا يقدرون أن يبلغوا من عمل أسباب الدنيا قَدْر الذي كانوا يعملون، ويَشْكون ذلك، ولا يدرون العلة من أين هي؟ وكذلك أهل أعمال الآخرة قد وجدوا نقص العمل، ونقص تلك المعاني الخاصة بالقلوب الحاملة على الأعمال.

---

(١) أي: اسم استفهام. وما نكرة تامة بمعنى شيء. والتقدير: أي شيء هو؟

والعلة في ذلك ـ والله أعلم ـ ما دخل في الإيمان من الضعف من كثرة إظهار الأمور المخالفة للسان العلم من وجوه عديدة، من حيث لا يخفى على ذي بصيرة، ومما دخل من أجلها في الأقوات من الشُبه، بل من الحرام المحض، حتى إن كثيراً من الناس ما يتوقف في هذا الباب عن شيء، وكيف قدر أن يصل إلى شيء فعل، ولا يبالي. فإن البركة في الزمان والرزق في البدن من طريق قوة الإيمان واتباع الأمر واجتناب النهي. يشهد لذلك قوله جلّ جلاله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

وأما إن كان المقصود بتقارب الزمان أن يكون حساً ظاهراً فهذا لم يظهر بعد، ولعله من الأمور التي تكون عند قرب الساعة. ولعله، عليه السلام، عنى بذلك الوجهين معاً، فيكون الواحد ـ وهو المعنوي ـ قد ظهر، وبقي الآخر ـ وهو الحسيّ ـ حتى يصل وقته مع ما بقي من الشروط.

وأما كيفية نقص العمل فعلى وجهين: إن كان في الحسي الذي لم يظهر بعد، فهذا بيّن لا يُحتاج فيه إلى تعليل، لأن الزمان ظرف الأعمال. فإذا نقص العمل لا محالة. وأما نقصه في المعنوي فمن وجهين: (أحدهما) ما أشرنا إليه آنفاً. وهو من جهة المطعم وما دخل فيه من الخلل، وقلة الباعث الذي هو حامل على الأعمال ومحرض عليها. وذلك من ضعف الإيمان.

(الثاني) من قلة المساعد على ذلك في الخارج ـ والنفس من طبعها أنها ميالة إلى جنسها، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[2] ـ ولكثرة شياطين الإنس الذين هم أضر عليك من الشيطان الرجيم، اللهم إلا تلك العصابة التي شاء سبحانه وتعالى بقاءها على الحق، لا يضرها من خالفها، فهي محمولة بالقدرة واللطف الرباني. وإنما جاءت الأخبار على الغالب من أحوال الناس.

وأما قولنا: ما معنى الشح الذي يلقى؟ هل هو على العموم، أو على الخصوص؟ محتمل. والظاهر العموم، لأن الشح الخاص المستعمل عند الناس فيما عدا الفرائض لا يعود منه ذلك الضرر المخوف، وإنما الشح الذي يخاف منه ومن وباله الشح بالفرائض، ومن شَحَّ بها فمن باب أولى أن يشح بغيرها، فيكون عاماً والله أعلم. يشهد لهذا قوله ﷺ (لا تزداد الدنيا إلا إدباراً ولا الناس إلا شحاً) أو كما قال عليه السلام. فجاء لفظ عام في الحديثين معاً.

ولا يسمّي الفقهاء (شحيحاً) إلا الذي يشحّ بالفرائض. والناس يسمون الشحيح كلّ من لا

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٩٦.

(٢) سورة المائدة، من الآية ٢.

يجود عليهم، ولا ينظرون هل أدى فرضه أم لا؟ كما يزعمون أن (الكنز) هو ما جعل من المال تحت الأرض. والعلماء يقولون: الكنز هو المال لذي لم تُخرَج زكاتُه، كان على وجه الأرض أو في بطنها مدفوناً. وإذا كان مدفوناً وهو يُخرَج زكاتُه فليس عندهم بكنز. وحبس حقوق الأموال سبب إلى ذهابها وقلة بركتها وطُروء الجوائح عليها.

ولذلك قال ﷺ (لا ينقص مال من صدقة)[1] أو كما قال عليه السلام. قال أهل العلم: معناه أن المال الذي تخرج منه الزكاة لا يلحقه عاهة ولا يتلف ولا يلحقه شيء من الأشياء التي تأتي على الأموال فينقص بها. فإن الزكاة تحرسه من ذلك، ولذلك سميت زكاة، فإن المال يزكو بها وينمو، وكذلك صاحبه، ولذلك قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2].

وفي هذا إشارة لأهل الطريق الذين بنوا طريقهم على الإيثار، لكي يسلموا من الشح على كلا الوجهين. ولذلك لما لقي الشافعي[3] شَيْبَان[4] رحمهما الله فسأله عن الزكاة: في الغنم في كم تجب؟ فقال له: أما عندكم ففي أربعين شاةٌ، وعندنا كلها زكاة. فقال الإمام لأصحابه: وُفّق لما عَلّمناه. أو كما قال.

وأما قولنا: ما الفتن التي قد عرفها بالألف واللام؟ فهي ـ والله أعلم ـ التي قد بيّنها ﷺ بقوله: (فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا)[5] أو كما قال عليه السلام، لأن كل فتنة يَسلم فيها الدين فليست بفتنة مخوفة. أعاذنا الله من جميعها بمنّه وفضله.

والهرج يحتمل معنيين: (أحدهما) الفتن التي تقع بين الناس ويخوض بعضهم في بعض لأمر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.

(٢) سورة التوبة، من الآية ١٠٣.

(٣) الإمام الشافعي: تقدم الحديث عنه في الحديث ٢٠٢.

(٤) شيبان: يريد به هنا ـ والله أعلم ـ محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بني شيبان. وهو إمام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة، أصله من قرية حرستا في غوطة دمشق، ولد بواسط ونشأ بالكوفة، وسمع من أبي حنيفة وغلب عليه مذهبه وعرف به، وانتقل إلى بغداد، فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله، ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه، فمات بالري. قال الشافعي: لو أشاء أن أقول: نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت، لفصاحته. وكانت بين محمد بن الحسن والشافعي صحبه ومحبة، ذكر بعضاً منها صاحب شذرات الذهب في حوادث سنة ١٨٩هـ.

(٥) أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه بلفظ: تكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا.

يدهمهم. (والثاني) القتل ولذلك استفهم الصحابة، رضي الله عنهم، سيّدنا ﷺ بقولهم (أيّما هو)؟ فأزال، عليه السلام، الاحتمال الأول بقوله: القتل، ثم أَكَّدَهُ ثانية لزوال الاحتمال الأول.

وأما قولنا: ما معنى كثرة القتل؟ هل يكون ذلك لحقوق لازمة أو لغير ذلك؟ فاعلم أن القتل الذي هو في الحقوق اللازمة شرعاً رحمة للعباد والبلاد. يشهد لذلك قوله ﷺ (لأن يقام حدّ من حدود الله في بقعة خير لهم من أن تمطر السماء عليهم ثلاثين يوماً، وقيل أربعين يوماً)[1] أو كما قال عليه السلام. فهذا في حدّ واحدٍ، فكيف إذا كثر القيام بالحدود، وفشا أمرها، وتعدد؟

وإنما يكون القتل ـ والله أعلم ـ في الوجهين اللذين قد ذكرهما ﷺ في أحاديث متفرقة، منها قوله عليه السلام: (لا تقوم الساعة حتى لا يَعرفَ المقتول فيم قُتِل؟ ولا القاتل فيم قَتَلَ)[2]؟ أو كما قال عليه السلام، ولا يكون ذلك إلا لكثرة القتل بغير لسان العلم حتى لا يعرف القاتل ولا المقتول لم وقع بهم[3] ذلك الأمر. (والوجه الثاني) قوله عليه السلام: (لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتل عليه من كل مائة تسعة وتسعون)[4] أو كما قال عليه السلام.

وهنا بحث وهو: ما الفائدة بأن أخبرنا بهذه الفتن؟ فنقول، والله الموفق: لوجوه منها أن نستعيذ منها كما قال ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ونعوذ بك من فتنة القبر، ونعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات)[5]، وهو ﷺ معافى من جميعها، لكن ذلك على طريق التعليم لنا، وعلى جهة الأدب منه، عليه السلام، مع مقام الربوبية، حتى يجعل نفسه المكرمة في جملة العبيد الذين يخافون.

ومنها لأن يستعمل منا من رأى منها شيئاً الدواء الذي قد علمناه، وهو قوله ﷺ لما سأله بعض الصحابة عند ذكره ﷺ الفتن فقال له: (ما تأمرني إن أدركني ذلك الزمان)؟ فقال ﷺ: (الجؤوا إلى

---

(١) رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: إقامة حدّ من حدود الله خير من مطر أربعين ليلة في بلاد الله.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قَتَل، ولا يدري المقتول في أي شيء قُتِل. قيل: وكيف ذلك؟ قال: الهرج. القاتل والمقتول في النار.

(٣) كذا بضمير الجماعة.

(٤) رواه الطبراني عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل عليه الناس فيقتل تسعة أعشارهم. وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: . . . فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لَعَلّي أكون الذي أنجو.

(٥) رواه الإمام مالك ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن. قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات.

الإيمان والأعمال الصالحات)، فبين ﷺ كيف العمل فيها؟ وقد جاء من طريق آخر أنه لا يسلم منها إلا (من يكون حلساً من أحلاس بيته)(١).

ومنها لأن تتبين لنا الوجوه التي منها الفتن، فنأخذ في سدّ تلك الطرق، مستعينين بالله على ذلك. ومنها لأن تكون معجزاته ﷺ متابعة إلى يوم القيامة، لأنه كلما خرجت واحدة مما ذكر، عليه السلام، في هذا الحديث وغيره هي معجزة له، عليه السلام، في الوقت. وفي ظهورها متتابعة إلى يوم القيامة حق لله تعالى وحق له، عليه السلام، وحق لأمته.

فالحق الذي هو لله سبحانه وتعالى هو استصحاب ظهور حجته، عزّ وجلّ، على عباده، لأن ظهور معجزة الرسول، عليه السلام، حجة لله تعالى، عزّ وجلّ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢) وحجة للرسل في تصديق ما جاؤوا به، وتصديق رسله حجة على عباده، وزيادة قوة في إيمانهم.

وأما الذي هو حق له ﷺ فدوام معجزاته، ودوام إنذاره إلى يوم القيامة بالطريقين العظيمين: بالكتاب لقوله تعالى ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(٣) فإنذاره، عليه السلام، باق إلى يوم القيامة، بإظهار معجزاته، عليه السلام، وهي ظهور كل ما أخبر به، عليه السلام. فإن على ظهور كل واحدة منها علماً بتصديقه، عليه السلام مُقَوِّياً لما جاء به. وهذا مما خص به، عليه السلام، دون غيره من الأنبياء، عليهم السلام.

وأما الذي هو حق لأمته فهو أن يكون هذا الخير الذي جاء به، عليه السلام، متساوياً في أمته من أولها إلى آخرها من طريقين: بالكتاب العزيز الذي حفظ عليهم ولم يوكلوا في ذلك إلى أنفسهم، فكان يقع فيه التغيير والتبديل كما وقع في الكتب المتقدمة، وبمعجزاته، عليه السلام، التي هي من أول أمته إلى آخرها على نوعين: منها ما هي ظاهرة لأهل ذلك الزمان، ومنها ما يصدقون بها، ولم يروها حتى يكون الشاهد منها ما يصدق الغائب، وإن كانت كلها صدقاً.

لكن فاق الصحابة، رضي الله عنهم، غيرهم بزيادة الصحبة، وعاينوا ما كان في وقتهم منها، وآمنوا بما أخبر به، عليه السلام، أنه يكون بعدهم، ومن جاء بعدهم آمن بالذي شاهد منها الصحابة

---

(١) إشارة إلى الحديث في الفتنة: كن حلساً من أحلاس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منيّة قاضية. وفي حديث أبي موسى: قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: كونوا أحلاس بيوتكم أي: الزموها. والحِلس: ما يبسط تحت حُرّ المتاع من مِسح وغيره؛ وكل شيء ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسَّرْج.

(٢) سورة الإسراء، من الآية ١٥.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١٩.

رضي الله عنهم، وبالتي أتت بعدهم إيمان تصديق، فحصل لهم بها إيمان ومشاهدة، والذين يأتون في آخر الزمان يؤمنون بما تقدم منها تقليداً وبما في زمانهم معاينة. فجاء هذا الخير الذي جاء به ﷺ في أمته من أولها إلى آخرها.

ولبقاء هذا الخير دائماً أخبر ﷺ (أنه لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)[١] أو كما قال عليه السلام. فإن الخير إذا بقي في الأرض لابدّ له من أهل له قائمين به. وكذلك هي إشارته، عليه السلام بقوله (أمتي مثل المطر لا يدرى أيه أنفع، أوّله خير أو آخره)[٢] أو كما قال عليه السلام.

وهنا بحث وهو أنه لا يكون هذا الخير إلا للذين يعلمون علم الكتاب والسنة. فإنه لا يعلم ما أخبر ﷺ به إلا من سمع الحديث، واعتنى به. فمن اشتغل بغير ذلك من العلوم فاته هذا الخير، وبقيت الحجة عليه قائمة بتضييعه لأثر النبوة التي بها الخير بدءاً وعوداً، وأصلاً وفرعاً.

ومنها أن تكون النفوس تُراض على دفعها وكراهيتها، حتى إن ظهر منها شيء تجد النفس لها كراهية. فإذا كرهتها أولاً ووقيت أولها كفيت فيما بقي منها، لقوله ﷺ (تُعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربَها نَكَتَتْ فيه نـكْتة سوداء، وأي قلب أنكرها نَكَتَت فيه نَكْتَة بيضاء حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا، لا تضرّه فتنة مادامت السّماوات والأرض. والآخر أسودَ مُرْبَدّاً كالكوز مَجْخِيّاً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه)[٣] والأسود المربد هو شدة البياض في سواد. والكوز المجنحيّ هو الكوز المنكوس. ولذلك قيل: قلبك فاحفظه من الفتن، وإلى الله فالجأ في ذلك وأدمِن[٤].

عافانا الله منها أجمعين بفضله. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه، والإمام أحمد عن عمار بن ياسِر رضي الله عنهما، وأبو يعلى عن علي رضي الله عنه، والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره.

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٤) كذا بحذف الياء. والصواب: وأديمن.

ـ ٢٨٦ ـ

حديث النهي عن اتباع الفرق الضالة والمحافظة على الدين

عَنِ حُذيفةَ بن اليمانِ[١]، رضي الله عنهُ، قالَ: كانَ النَّاسُ يسألونَ رسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيرِ، وكُنتُ أسألُهُ عن الشرِّ مخافةَ أن يُدركني فقُلتُ: يا رَسولَ الله، إنَّا كُنا في جاهليَّة وشَرٍّ، فجاءَنا الله بِهذا الخيرِ، فهَل بَعد هذا الخَير مِن شَرٍّ؟ قالَ: نَعم.

قُلتُ: وهَل بَعد ذلكَ الشَّرِّ من خَيْرٍ؟ قالَ: نعم، وفيهِ دَخَنٌ. قُلت: وما دخَنُهُ؟ قالَ: قوم يهدونَ بغَيرِ هَدْيِي، تعرفُ مِنهمُ وتُنكِر. قُلتُ: فَهل بعد ذلك الخَير مِن شَرٍ؟ قالَ: نعم، دُعاةٌ على أبواب جهنَّم، مَن أجابهُم إليها قذفوهُ فيها. قُلتُ: يا رسولَ الله صِفْهُمْ لنا. قالَ: هُم من جلدتنا، ويتكلَّمونَ بألسنتنا.

قُلتُ: فَما تأمرُني إن أدركني ذلكَ؟ قالَ: تَلزمُ جماعةَ المُسلمينَ وإمامهم. قُلتُ: فَإن لَم يكُن لهُم جماعة ولا إمام؟ قالَ: فاعْتَزِلْ تلكَ الفرقَ كُلَّها: ولَو أن تعضَّ بأصلِ شَجرةٍ حتَّى يُدرِكَكَ الموتُ، وأنتَ على ذلِكَ.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) الإخبار بالخلل الواقع في الدين. (والثاني) الأمر بالتمسك به مع جماعة المسلمين وإمامهم، فإن عدم ذلك فتبقى عليه وحدك، وتفارق كل من ليس على طريقة الإسلام الحقيقي، وإن آل الأمر بك إلى الخروج إلى البرية منفرداً، وترك الأهل والمال والقرابة والعشيرة وجميع أهل الوقت من قريب وبعيد.

وإن كان الأمر يضيق عليك في البرية حتى لا تجد أين تأوي، حتى تنحصر إلى أصل شجرة مع سلامة دينك، فَلْتَعَضَّ بها، أي تشد عليها حتى يأتيك الموت، وأنت على ما أمرت به من أمر الله

---

(١) تقدم ذكره في الحديث ١٨٨.

تعالى، واجتناب نهيه، ومنه قوله تعالى﴿ قُلْ : إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[1] وقوله تعالى﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]. والكلام عليه من وجوه:

منها: النظر في حكمة الله تعالى في عباده، كيف يحبّب لكل شخص ما شاء الله أن يقيمه فيه؟ يؤخذ ذلك من أنه، عزّ وجلّ، حبّب للصحابة، رضي الله عنهم، سؤالهم له ﷺ عن وجوه الخير كي يقتبسوها ويكونوا باباً لها، وحبّب لهذا السيّد سؤاله له ﷺ عن وجوه الشرّ كي يحذرها، ويكون سبباً في سدّها عمن قدّر الله تعالى له النجاة منها.

ومنها النظر والاعتبار فيما أعطى الله تعالى سيّدنا ﷺ، من سعة الصدر والمعرفة بحكمة الحكيم الذي يجاوب كل شخص عما سأل، ويعلم أن ذلك هو الذي شاء الحكيم أن يقيمه فيه ويسدّده له. ويدخل هذا تحت متضمن قوله ﷺ (إنما أنا قاسِمٌ والله يعطي)[3]. فهو ﷺ الذي أُرسِل لقسمة الأمور على ما اقتضتها الحكمة الربانية، والله يقيم من يشاء فيما شاء، فهو، عليه السلام، المبيّن لوجوه الخير والشر، والله يعطي منها ما شاء، لمن شاء، كيف شاء.

ويترتب على هذا من الحكمة والنظر أن الذي حبّب لشخص هو الذي يفوق فيه غيره. يؤخذ ذلك من حال حذيفة، رضي الله عنه، لأنه لما حبّب الله له معرفة وجوه الشر كي يتقيه، ويحذّر منه غيره، فضل فيه عشرة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين. ولما علم سيّدنا ﷺ هذا الذي أشرنا إليه خصّه بأن أعلمه بجميع أسماء المنافقين، لأنه من هذا النوع الذي حبّب إليه، حتى كان عمر، رضي الله عنه، يأتيه ليلاً ويناشده الله: هل هو ممن سماه رسول الله ﷺ من المنافقين أو لا؟ فيحلف له أنه ليس منهم.

ورتب أهل الحكمة على هذا من الفائدة أنك إذا كان لك ابن، أو غلام أو مَن لك عليه كفالة، وأردت أن تشغله بشغل من الأشغال، أو علم من العلوم، أن تعرض عليه أنواع الأشغال إن أردت أن تشغله، أو أنواع العلوم إن أردت به طريق ذلك، وكانت تلك الأنواع مما تجيزها الشريعة. فالذي تراه يحبّه ويعجبه من ذلك ففيه اجعله، فإنه يفوق فيه أهل زمانه، لأن الذي حبّب إليه هو

---

(١) سورة التوبة، الآية ٢٤.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ١٠٢.

(٣) أوله: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي. رواه الشيخان عن معاوية رضي الله عنه.

المراد منه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[1]. واختبروا ذلك بعلم التجربة فوجدوه لا ينعكس. ومن جمع الله له بين الطريقين فهو الحال الجليل، وهو معرفة الخير والعمل عليه، ومعرفة الشر واتقاؤه، ولذلك كان من دعاء عليّ رضي الله عنه (اللهم اجعلني مفتاحاً للخير، ومغلاقاً للشر، طيباً مباركاً حيث كنت) أو كما قال رضي الله عنه.

وفي هذا بيان الطريق لأهل السلوك والمعاملات مع الله تعالى، فإنهم يقولون: (المبتدي حاله الكسب، والمنتهي حاله الترك)، ومعناه: أن المبتدي يسأل عن وجوه الخير ويعمل عليها، كما كان حال الصحابة، رضي الله عنهم، في الحديث الذي نحن بسبيله، وأن المنتهي يسأل عن الشر كله، وأنواع المفاسد كلها فيتركها ويتقيها، كما كان حال حذيفة.

وحقيقة المعنى فيما أشاروا إليه أن هذا هو الغالب على أحوالهم، لأن المبتدي يقع في الشر - أعوذ بالله من ذلك [ولا يترك عمل الخير][2] ولو كان ذلك ما صح له فعل خير، وكذلك حال الصحابة، رضي الله عنهم. وإن المنتهي الغالب عليه تنقية النفس والبحث عن المفاسد كلها، ولا أنهم[3] أيضاً يتركون عمل الخير، ولو كان ذلك كذلك ما صح منهم ترك شر. وكذلك كان حذيفة رضي الله عنه.

وفيه دليل على أن كل ما كان يهدي إلى طريق الآخرة، ويهدي إلى أنواع الرشاد، وكلّ ما يقرّب إلى الله سبحانه، يسمى خيراً لغةً وشرعاً، وأن كل كفر وضلالة، أي نوع كانت كبرى أو صغرى، وكل ما دعا إليها، يسمى شراً لغةً وشرعاً. يؤخذ ذلك من قول حذيفة (كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير)، وكرر ذلك في الحديث مراراً، ووافقه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما من طريق أنه لغة فلأنهم عرب، وأما من طريق أنه شرع فلأن رسول الله ﷺ وافقه على ذلك، بأن سلّم له فيه وجاوبه عليه، بأن جعل فيه اسم الشر سواء للكفر أو الجاهلية التي كانوا عليها، وسواء للضلال الذي طرأ على الإسلام بعده ﷺ من الفتن والمعاصي. غير أن الفرق بينهما من طريق النظر أن الأولى - وهي الكفر - كبرى، والتي بعده وفيها الخلل في الدين من طريق المعاصي صغرى.

وفيه دليل على أنه لا يطلق عليه اسم (خير) حتى يكون تاماً لا عوج فيه. ويستدل بذلك على

---

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٩١.
(٢) تتمة لا بد منها لتصحيح السياق.
(٣) كذا بضمير الجماعة.

أنه لا يطلق عليه اسم (مسلم) إلاّ من هو كامل الإيمان، وألا يكون إيمانه فيه دخَن، كما أخبر الصادق عليه السلام بقوله (وفيه دَخَن).

وفيه دليل على أن كل هَدْي أو علم إنما معياره وما يختبر به ما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة. فالذي يكون على ذلك بلا زيادة ولا نقصان فهو طريق الحق والمبلِّغ إلى الله عزّ وجلّ، وألاّ يكونَ من أحد القسمين: إما من القسم الذي فيه الدخن، وإما من أهل القسم الذين هم على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام، (وفيه دخن)، ثم فسَّر ذلك الدخن بكونهم يهدون بغير هديه ﷺ.

فاحذر هدي قوم جعلوا للدين أصلاً خلاف الكتاب والسنة، وجعلوا الكتاب والسنة له فرعاً. لقد عمَّ دخَنُهم الأرض وطبَّقها حتى تناهى فيه قوم، فوقفوا به على باب جهنم، فمن أجابهم إليها قذفوه فيها.

وفيه دليل على وجوب قبول الحق حيث كان وتحقيقه. يؤخذ ذلك من قوله ﷺ (تعرف منهم وتنكر).

وفيه دليل على وجوب ردّ الباطل وكل ما خالف هديه ﷺ، ولو قاله من قاله، رفيع أو وضيع. يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (تعرف منهم وتنكر).

وهنا بحث وهو: ما هو هذا الشر الذي أشار إليه ﷺ؟ وما هو هذا الخير الذي فيه الدخن؟ فنقول، والله الموفق: يحتمل أن يكون الشر الذي أشار إليه، عليه الصلاة والسلام، هو ما كان بعده من الفتن إلى زمان قتل العلماء، وقد أخبر، عليه السلام، به في حديث آخر ـ أعني بقتل العلماء ـ فإنه، عليه السلام، قال فيه (يا ليت العلماء تحامقوا)[1] أو كما قال عليه السلام. معناه لو أظهروا ذلك سلموا من القتل.

وأما الهدي الذي فيه الدخَن فهو ما ظهر في الأمة من الشِّيَع والبِدَع. يفسر ذلك قوله، عليه السلام (افترقت بنو إسرائيل على اثنين[2] وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة)[3]. فكل من حصل له من الاثنين[2] والسبعين ولو مسألة واحدة، وإن كان لا يعلم بها، فقد دخل في دينه دَخَن، وبالحديث الآخر وهو قوله عليه السلام (كل بدعة ضلالة،

---

(١) رواه الديلمي في فردوس الأخبار عن ابن عباس رضي الله عنه بلفظ: يأتي على الناس زمان يقتل فيه العلماء كما تقتل الكلاب، فيا ليت العلماء تحامقوا.

(٢) كذا أوردها المؤلف بالتذكير.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكل ضلالة في النار)[١]، وبقوله عليه السلام (كل من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ) أو كما قال عليه السلام.

فكل من حصل على بدعة من البدع فقد حصل في دينه وهديه دخن، ولا يغره كثرة عمل الناس لتلك البدعة وانتشارها، فإنها من جملة الدخن. وقد قال ﷺ في شأن تجنب الفتن (وعليك بخويصة نفسك) أو كما قال عليه السلام. ولا يغرك صاحب البدع وإن كانت لديه علوم جمة أو أعمال صالحة ونسك وتعبد أو مجموعها، فقد قال ﷺ في القدرية (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، تنظر في النَّصْل فلا ترى شيئاً، وتنظر في القِدْح فلا ترى شيئاً، سَبَقَ الفَرْثَ والدم)[٢]، أو كما قال عليه السلام.

وقوله عليه السلام (دعاةٌ على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها) أي أنهم يرشدون إلى الطرق التي يدخل بها النار من الاعتقادات والأعمال المخالفة للسنة، وهم يظهرون أنها هي المبلغة إلى الله تعالى، وهم الذين قال عليه السلام فيهم: (اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسألوا فأفتوا بغير علم، فضَلّوا وأضَلوا، فمن صدَّقهم واتّبعهم دخل النار)[٣].

وفي قوله عليه السلام (هم من جِلدتنا ويتكلمون بألسنتنا) دليل على أنهم من هذه الملة وبزيها وعلى طريقها ولغتها؛ لأن معنى (من جلدتنا) أي على لغة العرب، حتى لا ينكر أحد منهم شيئاً.

وفيه دليل على أن أهم ما على المرء في الدين نفسُه. يؤخذ ذلك من قول حذيفة رضي الله عنه (فما تأمرني إن أدركني ذلك)؟ فما سأل إلا عن نفسه كيف يكون خلاصه؟

ويترتب على هذا من الفقه أن كل وجه يعلمه الشخص من وجوه الخير كان يدركه أو لا يدركه، يعتقد فعله إن أدركه فيكون على ذلك مأجوراً، وأي وجه علمه من وجوه الشر يكون بحيث يلحقه أو لا يلحقه، يعتقد أنه لا يفعله، وأنه يتبع السنة في الأعمال والأسباب المنجية منه، فإن هذا هو طريق السنة، ومن كان مرتكباً طريق السنة فإنه مأجور.

---

(١) قطعة من حديث أوله: أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهَدْي هَدْي محمد، وشر الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدْعة، وكل بِدعَة ضلالة، وكل ضلالة في النار. أخرجه الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه مالك في الموطأ ١/ ٢٠٤ و ٢٠٥ والإمام أحمد في المسند ٣/ ٥٦ و ٦٥ والبخاري في فضائل القرآن باب إثم من رأى بالقرآن أو تأكّل به، وفي استتابة المرتدين باب قتال الخوارج، ومسلم في الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم وأبو داود في السنة باب في قتال الخوارج والنسائي في الزكاة باب في المؤلفة قلوبهم، وابن ماجه في المقدمة فيذكر الخوارج وعلماء كثيرين آخرين.

(٣) تقدم تخريجه في الحديث ٢٨٢.

ويقوي ذلك قوله ﷺ (نية المؤمن أبلغ من عمله)[1]، لأنه ينوي عملاً من أعمال الخير، أو ترك عمل من أعمال الشر، وقد لا يدرك من ذلك شيئاً لقصر عمره، فكانت نيته أكثر من عمله، ولكونه ﷺ كان يستعيذ من فتنة الدجال، وهو بالعلم القطعي عنده أنه لا يدركه. وقد قال عليه السلام (إن يخرج وأنا فيكم فأنا أكفيكموه)[2]. فقد علم، عليه السلام، أنه إن لحقه فلا يضره، بل هو، عليه السلام يكفي المسلمين ضرره، ومع ذلك كان عليه السلام يستعيذ من فتنته. فهذا من باب الإرشاد لنا إلى ما أشرنا إليه.

وقوله ﷺ (تلزم جماعة المسلمين) يعني الفرقة الناجية من الثلاثة والسبعين، الذين هم على ما هو عليه وأصحابه، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين. جعلنا الله منهم ومعهم في الدارين بمنّه وفضله.

وقوله (وإمامهم) يعني الذي يقتدون به، ويكون الإمام على تلك الطريق المباركة أيضاً. وفيه دليل على أن من السنة ألا تكون جماعة إلا ولها إمام.

وقوله (فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام) يعني أن الموضع الذي يكون فيه ليس فيه من أهل الخير جماعة، ولا إمام، لأن هذه الأمة لاتزال جماعة من أهل الخير فيها باقية، وكذلك أئمة الخير لا ينقطعون منها، لكن قد يقِلّون، أو يكونون في موضع من الأرض دون غيره. يشهد لهذا قوله ﷺ (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)[3] أو كما قال عليه السلام. وقوله عليه السلام في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (وإمامكم منكم)[4] أي أنه يكون على طريق هديـي، متّبعاً للكتاب والسنّة.

وفيه بحث وهو أنه إن كان واجداً لأحد الطرفين، إما جماعة على الخير ولا إمام معهم، أو إمام على خير ولا جماعة له، فالبقاء مع أحدهما خير من الانفراد لأنه أعون على الدين، ولفظ الحديث يدل على ذلك. فإن الأمر بأن يتبع الجماعة والإمام لا ينفي إذا لم يجد إلا الواحد منهما ألا يتبعه. غير أنه يأخذ أولاً الأكمل فالأكمل، فإذا كانا في موضع مجتمعين، وكان في موضع آخر

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه.

(٢) قطعة من حديث الدجال.. ومنه: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم.

(٣) أخرجه مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك.

(٤) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: كيف أنتم إذا أنزل ابن مريم وإمامكم منكم.

أحدهما، فحيث جمعهما أولى، فإن لم يجد إلا أحدهما فهو خير من أصل الشجرة. فإن تلك هي الغاية في الهروب والاحتياط للدين.

وقد قال ﷺ (الجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجليس السوء)[1] ففقه الموضع أن يكون صلاح الدين هو المعوّل عليه، ويكون ذلك الصلاح على مقتضى الكتاب والسنة. فإن قدر على الاجتماع بإخوانه المسلمين وبالإمام أو بأحدهما إن أمكنه ذلك مع الإقامة مع الأهل فحسن، وإن لم يكن ذلك وأمكنه الجلوس في العمارة منفرداً فحسن أيضاً، وإلا فالبرية على هذه الحالة الموصوفة في الحديث.

ويقوي ذلك قوله ﷺ (بشر الفرارين بدينهم من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، أنهم معي ومع إبراهيم في الجنة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى) أو كما قال عليه السلام. فقدم عليه السلام الفرار من العمارة إلى العمارة على الفرار إلى الجبال. ويقويه أيضاً من كتاب الله عزّ وجلّ قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾[2]؟

وفي تسمية ما جاء به ﷺ خير دليل على ما سمينا به الكتاب الذي هذا شرحه بـ (جمع النهاية في بدء الخير والغاية) أن ذلك موافق بفضل الله لما قاله الصحابي رضي الله عنه، ووافقه عليه سيّدنا ﷺ، فقوي عند ذلك رجائي في فضل الله أن يكون كل ما سلكت فيه وفي شرحه موافقاً لما يرضي الله ورسوله، ودالاً على الخيرات وأبوابها، وسادّاً للشر وأبوابه. بفضل الله ورحمته.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه بلفظ: الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة، وإملاء الخير من السكوت، والسكوت خير من إملاء الشرّ.

(٢) سورة النساء، من الآية ٩٧.

ـ ٢٨٧ ـ

حديث إذا نزل عذاب بقوم يعم الصالح منهم ويبعث كل على عمله

عَن عَبدِ الله بنِ عُمرَ، رضي الله عَنهُما، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: إذا أنزلَ الله بَقوم عَذاباً أصَابَ العَذابُ مَن كانَ فيهِم، ثُمَّ بُعِثُوا على حَسَبِ أعمالِهِم.

* * *

ظاهر الحديث يدل على أن العذاب إذا أرسل على قوم عمَّ الجميع، ويبعثون في الآخرة على قدر أعمالهم، وعليها يجازون. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما معنى (قوم)؟ هل يكونون مؤمنين أو غير مؤمنين؟ وما معنى (من كان فيهم)؟ وما الحكمة بأن يؤخذ القوم ومن فيهم في هذه الدار على حدٍّ سواء، ثم عند البعث تقع التَّفرقة بينهم بحسب الأعمال؟ هل هذا تعبد أو لحكمة تعلم، فيتحرز من هذا الأمر العظيم؟

أما قولنا: ما معنى (قوم)؟ هل يكونون مؤمنين أو غير مؤمنين؟ أما المؤمنون حقيقةً فلا يرسل الله عليهم عذاباً، بل بهم يدفع الله العذاب، كما جاءت في ذلك الآثار والآي تبين ذلك. أما الآي فقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2] وأما الآثار فمثل قوله ﷺ (إن الله يحفظ الرجل الصالح في أهله ودُوَيراتٍ من جيرانه)[3] أو كما قال عليه السلام. فقوله ﷺ هنا (على قوم) يعم الكفار والعصاة، وغيرهم ممن هم على ما يشبه حال هؤلاء الذين يرسل عليهم العذاب.

وأما قولنا: ما معنى (من كان فيهم)؟ فالجواب: أن معناه أن يكون معهم وليس على حالهم، لأنه لما خالف المُجَالس معهم الأمر، لأن الله، عزّ وجلّ، يقول ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

---

(١) سورة القصص، من الآية ٥٩.
(٢) سورة الأنفال، من الآية ٣٣.
(٣) لم نقف على مصدره.

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[1] وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وقال الله تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[3] وقال ﷺ (من والى قوماً فهو منهم)[4] أو كما قال عليه السلام. والآي والآثار في هذا كثيرة. وهذه سنة الله تعالى أبداً في عباده.

وقد ذكر عن عيسى، عليه السلام، أنه مرّ في سياحته على قرية وأهلها صرعى موتى، فقال للحواريين: لو كان موت هؤلاء من غير أخذ بلاء لدفن بعضهم بعضاً. ثم ناداهم: يا أهل القرية. فلم يجب منهم أحد ـ على ثلاث مرات ـ ثم جاوبه واحد. فقال له، عليه السلام: ما شأنكم؟ قال له: كانوا في عافية، فأصبحوا وهم في الهاوية. فقال له: ما بالك أنت تكلمت، وأصحابك لم يتكلموا؟ قال: إني لم أكن منهم، وإنما مررت عليهم، فبت عندهم، فأخذني الأمر معهم، فكل واحد منهم ملجَم بلجامٍ من نار، لا يقدر أن يتكلم، وأنا لست مثلهم. فتعجب هو والحواريون وتركوهم وذهبوا. أو كما جرى.

ويترتب على هذا من الفقه الهروب من بين الكفار ومن بين الظالمين لأنفسهم بالمعاصي، لأن الجلوس بينهم من إلقاء النفس إلى التهلكة. هذا إذا كان معهم ولم يُعِنْهم على ما هم فيه، أو يرضى[5] من أفعالهم شيئاً، فإن وقع في واحد من ذلك فهو منهم ـ وبالله العياذ.

ولذلك كان سيّدنا ﷺ حين مرّ هو وأصحابه على ديار عادٍ وثمود قال لهم: (أسرعوا في الخروج من هذا ولا تدخلوها إلا وأنتم خاشعون باكون)[6] أو كما قال عليه السلام. وحين عجنوا العجين من بئر الناقة أمرهم، عليه السلام، ألا يأكلوه ويطعموه للبهائم. وهذا كله منه ﷺ خوفاً[7] من أجل أن يعود عليهم من شؤم تلك البقعة ووبالها. وجميع ما ذكر كله خوفاً من القرب من أهل المخالفات والمغضوب عليهم، وإن كانوا قد فنوا.

---

(١) سورة هود، من الآية ١١٣.
(٢) سورة النساء، من الآية ١٤٤.
(٣) سورة النساء، من الآية ١٤٠.
(٤) رواه الديلمي عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: من كثر سواد قوم فهو منهم.
(٥) كذا بعدم الجزم.
(٦) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه بلفظ: لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم.
(٧) أي: كائن خوفاً. فخبر «هذا» محذوف.

وأما قولنا: ما الحكمة في أن يؤخذ القوم ومن فيهم في هذه الدار مع أهل البلاء على حدٍّ سواء، ثم في الآخرة يبعث على عمله كل منهم بحسب ما كان عليه؟ فهذا حكم عدل بمقتضى ما دلت عليه الشريعة، لأن الله تعالى يقول ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1] وقال عزّ وجلّ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[2] ومسّ النار لهم إذا ركنوا إليهم فبقدر رُكونهم. فلما لم يركنوا لهؤلاء الذين أرسل عليهم العذاب إلا بالجلوس معهم أصابهم من النار أن أُخذوا معهم، وكانوا في البرزخ الذي هو ما بين موتهم إلى حين بعثهم معهم في ذلك العذاب الذي هم فيه، ثم يبعثون عند البعث كلّ على ما كان عليه من خير أو ضده. فدلّ ذلك على أن قدر عذابهم على ذلك الجزء اليسير ـ وهي الإقامة معهم ـ هو أن يؤخذوا معهم، وأن يكونوا معهم على حالهم المهلكة حتى إلى[3] وقت البعث. فعند ذلك يرجع كلّ إلى حاله المختص به أولاً.

يؤخذ ذلك من قوله، عليه السلام (ثم بعثوا على أعمالهم). واحتمل البعث هنا أن يكون بعث سؤال القبر، لأنه إن حملنا (ثم) على المهلة الطويلة فيكون بعثهم على أعمالهم عند بعث النفخ في الصور ـ والله أعلم ـ لأن سؤال القبر مع الموت بسرعة ليس بينهما طول زمان. وإن حملنا (ثم) على المهلة القصيرة في الزمان فيكون بعث سؤال القبر، لأن ذلك هو الذي بعد الموت لا شيء آخر بينهما. والله أعلم.

ومما يقوي ما قلناه قوله ﷺ في غير هذا الحديث (يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه)[4]. فهؤلاء أخذوا على ما كانوا عليه من مخالطة أهل العذاب، فماتوا على تلك الحالة، ثم عند البعث لم يبعثوا عليها، وبعث كلٌّ منهم على حالتهم التي كان عليها قبل إرسال العذاب، وذلك كان على قدر عذابهم على مخالطتهم بالجلوس بينهم.

ولا يكون هؤلاء المأخوذون مع أهل العذاب المرسل الذين قد عذرهم الله، عزّ وجلّ، بقوله ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[5]، لأن من جعل الله له عذراً فلا يؤاخذه على ما قد عذره فيه بفضله ورحمته. فعلى هذا يكون لفظ الحديث عاماً

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.
(٢) سورة هود، من الآية ١١٣.
(٣) كذا بزيادة «إلى» بعد «حتى».
(٤) أخرجه مسلم وابن ماجه عن جابر رضي الله عنه.
(٥) سورة النساء، الآية ٩٨.

فيما عدا أهلَ الأعذار الذين بيّن الله، عزّ وجلّ، عذرهم: هو عام ومعناه الخصوص فيمن لم يعذره الله سبحانه وتعالى.

وفيه تخويف عظيم بالضمن، وهو أن إرسال العذاب على المخالفين لأمره سبحانه وتعالى ونهيه باق متوقع، كما كان فيمن تقدم. ومما يقوي هذا قول عائشة، رضي الله عنها، لرسول الله ﷺ (أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث)[1].

فيا اَللّه، يا اَللّه، يا رباه، أغثنا، فقد كثر الخبَث، ولا مهرب إلا إليك، يا أرحم الراحمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: لا إلّه إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها. فقالت زينب: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث.

ـ ٢٨٨ ـ

حديث الأمر بصوم يوم عاشوراء

عَن سَلمةَ بنِ الأكوَعِ[١]، رضي الله عَنهُ، أنَّ رَسُولَ الله، ﷺ قالَ لِرَجُلٍ مِن أسلمَ[٢]: أذِّن في قومِكَ ـ أو في النَّاسِ ـ يومَ عاشوراء: أنَّ مَن أكلَ فَلْيَتِمَّ بقيةَ يومِهِ، وَمَن لَم يكُنْ أكلَ فَلْيَصُمْ.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) أن صوم يوم عاشوراء يجزىء لمن أمسك فيه عن الأكل والشرب، وإن لم يكن بَيَّتَ صومه من الليل، بخلاف غيره من الصوم، لقوله ﷺ في غير عاشوراء (لا صوم لمن لم يُجمِع على الصوم من الليل)[٣] أو كما قال عليه السلام. (والحكم الثاني) أن حرمته ليست كحرمة غيره من النوافل، بل هو مثل حرمة الفرض، لأن غيره من النوافل إذا أكل أحد فيه متعمداً لا يمسك بقية يومه، والفرض إذا أكل أحد فيه متعمداً يمسك بقية يومه. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا الحكم فيه مستصحب إلى هلم جرّاً، أو ذلك كان في ذلك اليوم، لكونهم لم يكونوا يعلمون حرمته فيفوتهم، ولا يكون ذلك بعد بلوغ العلم به؟ أما صومه لمن لم يعلم به إلا بعد طلوع الفجر أو الشمس، أو علم ونسي، ولم يبيّت صومه، فالظاهر أنه يجزيه صومه

---

(١) سلمة بن الأكوع: الأسلمي، صحابي، من الذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة على الموت يوم الحديبية. غزا مع النبي ﷺ سبع غزوات، منها الحديبية وخيبر وحنين. وكان بطلاً رامياً شجاعاً عداءً يسبق الفرس شدّاً، وله سوابق ومشاهد محمودة، وهو ممن غزا إفريقية في أيام عثمان رضي الله عنه. له ٧٧ حديثاً. توفي في المدينة سنة ٧٤ هـ (الأعلام ٣/ ١٧٢ والشذرات ١/ ٨١).

(٢) أسلم: قبيلة سميت باسم رجل كان أباً لأبناء كُثْر. وأسلم هذا من مراد، ومراد فرع من كهلان، وكهلان من القحطانيين.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن السيدة حفصة رضي الله عنها بلفظ: من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له.

إذا أمسك ولم يأكل ولم يشرب بعد. والدليل عليه من الحديث أنه سماه ﷺ صوماً. وقد قال بعضهم: إنما ذلك حين كان هو الفرض قبل فرض رمضان.

وأما الذي أكل وشرب - وهو عالم - هل يمسك أوْ لا؟ موضع خلاف أيضاً، لأن منهم من قال: إنما ذلك حين كان فرضاً صومه، فكان حكمه حكم الفرض. فأما اليوم فلا.

وأما هل يكون له أجر صومه؟ فكذلك أيضاً موضع خلاف، وليس في الحديث ما يدل عليه، لأن قوله ﷺ (من أكل فليتمَّ بقية يومه) احتمل أن يبقى على أكله، واحتمل أن يتمّ بقية يومه صائماً أو ممسكاً عن الأكل. فمن جعله صوماً قال: هو فيه مأجور. ومن لم يجعله صوماً قال: ليس له أجر الصوم. وعلى كلا الوجهين قد ثبتت له حرمة ليست لغيره، ولا سيما مع قوله ﷺ في صومه أنه (يكفِّر السنة التي قبله والسنة التي بعده)[1].

ومنها: أي يوم هو؟ فقد اختلف العلماء فيه، فقيل: اليوم التاسع وقيل: اليوم العاشر. فمن أراد الخروج من الخلاف جمع بين اليومين. لكن ظاهر الحديث يدل على أنه اليوم العاشر. وكذلك ما نقل عنه ﷺ أن اليوم الذي صامه كان العاشر، وأنه ﷺ قال: إذا كان - إن شاء الله - في السنة الآتية أصوم التاسع. فانتقل إلى كرامة ربه عزّ وجلّ قبل وصوله إليه ﷺ.

وأما قوله (أذن في الناس، أو في قومك) الشك هنا من الراوي. وهذا مما قد تكرر الكلام عليه مراراً أنه مما يدل على صدقهم وتحريهم في النقل.

و (أذّنْ) بمعنى: أعلِمْ. ويؤخذ منه الدليل على جواز النيابة في تبليغ العلم، لأن سيّدنا ﷺ أناب هذا الرجل من أسْلَمَ أن يعلم الناس عنه.

ويؤخذ منه أن من السنّة أن يعظم ما عظم الله تعالى، من أي المخلوقات كان، من جماد أو حيوان أو زمان، اتباعاً لحكمة الحكيم. يؤخذ ذلك من تعظيم سيّدنا ﷺ لهذا اليوم، لأنه عليه السلام، لما دخل المدينة وجد اليهود يصومونه، فسأل: لِمَ يصومونه؟ فأخبروه أنه اليوم الذي نجّى الله فيه موسى، عليه السلام، وأغرق فيه فرعون، فقال عليه السلام: (فنحن أحق وأولى بموسى منكم)[2]، فصامه وأمر بصومه، وكان هو الفرض، حتى فرض رمضان.

وفيه دليل على أن تعظيم ما عظمه الله تعالى، من هذه الأزمنة والأماكن، إنما هو بعمل الطاعات فيها لله تعالى بحسب ما تقتضيه الشريعة، مع اعتقاد الإيثار له على غيره من جنسه.

---

(١) لعلّه يريد الحديث: صيام يوم عاشوراء إني أحتسب إلى الله أن يكفّر السنة التي قبله والسنة التي بعده. أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنعام، من الآية ٩٠.

وفيه دليل لمن يقول من العلماء إن سيدنا ﷺ له أن يشرّع من الأحكام ما شاء، وإن ذلك حكم الله تعالى يجب العمل به، وهو الحق. يؤخذ ذلك من أمره، عليه السلام، بصوم هذا اليوم، ولم يذكر فيه عن الله شيئاً لأن الأمور التي أمر، عليه السلام، بها عن الله كان يخبر أنها عن الله. وهذا مستقراً من السنة.

وفي قوله عليه السلام (فنحن أحق وأولى بموسى منكم) دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد عليه نسخ في شريعتنا، وعلى هذا جماعة من العلماء، ويقويه قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾[1].

وفي ترفيع الله تعالى بعض الأزمنة على بعض، وكذلك الأماكن إلى غير ذلك، دليل على عظيم رحمته، عزّ وجلّ، بعباده المؤمنين. يؤخذ ذلك من إرشاد الرسل، عليهم السلام، إلى تعظيمها وإلى أعمال البر فيها وزيادة الأجور في ذلك للعاملين. وذلك مثلما قال، عليه السلام (صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أنه يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده)[2] متفق عليه. فظاهر ما قصد منها كثرة الأجور والخير لنا، فضلاً من الله ونعمة. لله الحمد على ذلك.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأما قولنا: هل الأمة تشهد لها برها وفاجرها، أو لا يشهد إلا من هو أهل لذلك؟ أما لفظ الحديث فمحتمل، لأن العرب قد تسمي البعض باسم الكل، لكن التخصيص يظهر فيه من وجهين:

(أحدهما) من الحديث الذي أوردنا، شاهداً في قولهم (وجدنا في الكتاب الذي أنزلت). فهذا لا يكون جواباً إلا ممن يكون له علم بالكتاب، وكثير من هذه الأمة لا يعلمون من الكتاب شيئاً، ومن طريق النظر يكون في هذه الأمة إذ ذاك من هو في نوع من أنواع العذاب المتقدم ذكره في الأحاديث، كيف يستشهد بهم، وكيف تقبل لهم شهادة؟

ولمتضمن الآية أيضاً بقوله (وسطاً) أي خياراً. فلا يشهد منها إلا خيارها، أو كما أشرنا إليه أولاً، لأن الحكم هناك كالحكم هنا، وكما لا يقبل هنا إلا العدول الخيار كذلك هناك لقوله تعالى ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾. فلما كان هنا لا يؤخذ إلا المرضيُّ الحال فلا يؤخذ هناك ضدّه. هذا ما تقضيه الحكمة.

وفيه إشارة لطيفة وهي أن إعلامك بهذه المرتبة الرفيعة عناية بك، لتحافظ عليها، لعلك ممن تكون يشهد إذ ذاك، لأنه يرجى من فضل الكريم أن من قبلت شهادته أن يسامحه ويتفضل عليه بالخلاص من ذلك الهول العظيم.

وفيه تنبيه إلى أن الشهود، وإن اختلفت مراتبهم في الرفعة، إذا لم يخرجوا من دائرة العدالة قبلوا كلهم. يؤخذ ذلك من قول نوح، عليه السلام، حين يسأل عن شهوده فقال: (محمّد وأمته)، فجعله ﷺ من جملة الشهود، وبه صحت العدالة لِمُتَّبِعيه.

وفيه دليل على أن المخالف للسنة لا يكون ممن يشهد معه، ولا يشهد معه إلا من تبعه بالإحسان، لأن أولئك هم العدول، وغيرهم أطراف، لا وسط ولا عدول. يقوي ذلك قوله عليه السلام: (كلها في النار إلا واحدة: ما أنا عليه وأصحابي)[1]. فمن يكون في النار أنّى له بالوسط من الأمة والتعديل؟ هذا في ترجيحه أتمّ دليل.

تنبيه: يا أخا البطالة والتلويث، لنفسك انتبه. الحاكم قد زكاك، وأنت بما ارتكبت من قبيح الأوصاف تجرح نفسك، وبذلك تفرح، فقد خضت بحر المهالك، وعلى عقبك من الخير نكصت.

وفيه دليل على أن أقوى الأدلة في الأحكام كتاب الله تعالى. يؤخذ ذلك من ترك سيّدنا ﷺ

---

(١) قطعة من حديث أوله: افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة.. الحديث. قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمر وحسّنه. وقال الزبيدي في الإتحاف ٨/ ١٤٠ ورواه الحاكم في المستدرك والبزار في مسنده والبيهقي في المدخل. وفي الباب عن أربعة عشر صحابياً ذكرهم الزبيدي في الإتحاف، وعليه فإن الحديث له حكم المتواتر.

تمام الكلام الذي أبداه، وأتى بالآية من الكتاب العزيز. ومما يقوي ذلك قول معاذ له ﷺ، حين وجّهه إلى اليمن، قال له عليه السلام (بماذا تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد؟ قال أجتهد رأيي. فقال ﷺ: الحمد لله الذي وفق رسول رسوله إلى ما يحب الله ورسوله) أو كما ورد. وفّقنا الله في جميع الأمور إلى ذلك بمنّه وأسعدنا به. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٩٠ ـ

حديث مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى

عَن عَبدِ الله بنِ عُمرَ، رضي الله عَنهُما، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: مفاتيحُ الغَيبِ خَمس، لاَ يَعلَمُها إلاَّ الله. لا يَعلَمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلاَّ الله، ولاَ يَعلمُ ما في غَدٍ إلاَّ الله، ولاَ يَعلمُ مَتى يَأتي المطَرُ أحَد إلاَّ الله، ولاَ تَدري نَفس بأيِّ أرضٍ تَمُوتُ إلاَّ الله، ولاَ يَعلمُ مَتى تَقُومُ السَّاعةُ إلاَّ الله.

* * *

ظاهر الحديث يدل على هذه الخمسة المذكورة في الحديث، لا يعلمها إلا الله. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح؟ وما الحكمة في أن جعلها خمساً؟ وهل للغيب زيادة على تلك الخمس مفاتيح أم لا؟ وما الحكمة في أن لم يذكر من أمور الغيب إلا تلك الخمس؟

وأما قولنا: ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح؟ فلوجوه: منها الاقتداء بما به نطق الكتاب في ذلك بقوله تعالى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾[1]. ومنها لتقريب الأمر على المخاطب، لأن أمور الغيب لا يحصيها أحد إلا عالمها، وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب، وأقرب الأشياء في ذلك هي الأبواب، والأبواب أقل ما يحبسها عن الفتح وأيسرها المفاتيح. فإذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب لا يعرف أحد لها موضعاً فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر من ذلك؟ هذا محال. وهذا من أبلغ البيان وأخصره.

ومنها أنه أراد بالغيب: الغيب الذي لا يعلمه أحد حقيقة، لأن الغيوب على ما هي عليه، وإن كانت لبعض الغيوب أسباب قد يستدل في بعض المرات بها عليها، أن ذلك ليس بحقيقي في علم

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ٥٩.

تلك الغيوب، وأما حقيقتها فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى. يشهد لهذا التوجيه قوله ﷺ كناية عن الله سبحانه (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي. فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب. وأما من قال: مُطِرنا بِنَوْء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[1].

فعلى هذا فالغيب على نوعين: غيبه سبحانه عنا بذاته وصفاته، وغيب بالأمور الجارية في مخلوقاته. فلما كانت تلك الأمور غائبة عنا، لا نقدر على العلم بها، ولا الوصول إليها، وهي محصورة بالكتاب بقوله تعالى ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2] ولقوله تعالى ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ. قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[3].

فلما كان جميع الوجود محصوراً في علمه سبحانه شبّهه، عليه السلام، بالمخازن، وكل مخزن لا بدّ له من باب، وكل باب لا بد له من مفتاح، فاستعار، عليه السلام، له المفاتيح. يشهد لهذا التوجيه قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[4] فإذا كانت الخزائن والمفاتيح عنده، سبحانه، ولا يعلم أحدٌ المفاتيحَ أين هي؟ فكيف يخبر بما في المخازن؟ هذا لا يتعقل لمخلوق أصلاً. وإذا كانت هذه التي هي أثر قدرته سبحانه، ولا يقدر أحد أن يعلم منها شيئاً إلا أن يخبره هو سبحانه بها، كما قال تعالى في كتابه ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[5] فكيف بقدرته جلّ جلاله، أو بصفة من صفاته على ما هي عليه من الجلال والكمال؟ فكيف بذاته التي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[6]؟ هذا ممنوع عقلاً وشرعاً. ومن تعانى شيئاً من المعرفة في شيء مما قَسّمنا من الغيوب، أو نوع من أنواعه، أو تشبيه أو تمثيل بدليل من الأدلة، فمحال دعواه، وهو ضرب من الحمق.

وأما قولنا: ما الحكمة في أن جعلها خمساً؟ وهل للغيب زيادة على هذه المفاتيح؟ فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن الحكمة في أن جعلها خمساً الكلام عليه مثلما تقدم الكلام على قول عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ يحب التيامن في شأنه كله)، ثم قالت: (في طهوره وترجله

---

(١) أخرجه الإمامان مالك وأحمد والشيخان وأبو داود عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.
(٢) سورة الأنعام، من الآية ٥٩.
(٣) سورة طه، الآيتان ٥١و ٥٢.
(٤) سورة الحجر، الآية ٢١.
(٥) سورة الجن، من الآية ٢٧.
(٦) سورة الشورى، من الآية ١١.

وتنعله)[1]، فأتت من الفرائض بآكدها وهو الطهور، ومن السنة كذلك الترجل، ومن المباح كذلك التنعل، فحصرت بهذه الثلاث جميع ما يتصرف فيه المرء.

وكذلك هذه الخمس حصر بها ﷺ العوالم. فقوله ﷺ (ما تغيض الأرحام) دليل على ما يزيد في النفوس وينقص. وذكر منها الأرحام لكونها للناس في ذلك عوائد يعرفونها، وقد تقررت على ذلك أحكام شرعية، فهذه أعلاها. فإذا كانت هذه التي قد تقررت عليها الأحكام بحسب جري العادة، ولا يعرف حقيقتها لا متى تزيد، ولا متى تنقص، فغيرها من باب أحرى، وقد قال تعالى ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[2] فدل أن غيره سبحانه لا يعلم ذلك.

ومن هذا الباب كلام العلماء في عدة الحرة بثلاث حيض. فهل ذلك دلالة حقيقة على براءة الرحم، أو ذلك تعبد بحسب ما هو مذكور في كتبهم؟ ولذلك قال جلّ جلاله ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[3] ؟ فإذا كان الشيء الذي هو فيك لا تعرفه فكيف غيره؟ من باب أحرى.

ودل بقوله (ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله) على أمور العالم العلوي، وذكر منها المطر، لأن لنا أسباباً قد تدل عليه، ونجدها في بعض المرار يجري فيها ما يغلب على الظن من جري العادة المتقدمة في مثلها، وهو أيضاً كثير كما يتردد إلينا، وجعل لنا فيه وبأثره بحسب مقتضى الحكمة الإلّهية رزقاً وخيراً لا نعرفه حقيقة، فكيف غيره؟ من باب أحرى.

وكذلك جاء الحديث الذي قد ذكرناه وهو قوله (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي) وكان أبو هريرة، رضي الله عنه، إذا أصبح وقد مطر الناس يقول: مُطِرْنا بِنَوْءِ الفتح، ويتلو هذه الآية ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[4].

ودل بقوله ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ على الجهل بهذه الأمور الأرضيات، وذكر موضع الموت منها، لأن العادة قد جرت غالباً أن أكثر الناس موتهم بالأرض التي هم بها، والحكم في الأمور يُعطَى للغالب، وإن مات بها لا يدري حقيقة ضريحه منها أين هو؟ فإذا كان هذا المقدار

---

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ولفظه: كان رسول الله ﷺ يعجبه التيامن في شأنه كله في طهوره وترجله وتنعله.

(٢) سورة الرعد، من الآية ٨.

(٣) سورة الذاريات، الآية ٢١.

(٤) سورة فاطر، من الآية ٢.

الذي يخصّه منها ـ على قلته وندارته ـ لا يعلمه، فمن باب أحرى غيره من رزقٍ أو خيرٍ أو ضده. ولذلك قال عزّ وجلّ في كتابه ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[١].

ودل بقوله (ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله) على أنواع الزمان وما فيه من التقلبات والعلوم الطارئة فيه، والحوادث، وخصَّ منه غداً على غيره، لأنه أقرب الأزمنة من يومك. فإن ما تعرفه في يومك بظهوره كان أوله أو آخره كأنه شيء واحد، لأن عادة العرب ما يكون في ساعة واحدة أو في بعضها ينسبونه كله إلى اليوم، مثل قولهم: جاء زيد يوم الخميس، ولم يكن مجيئه إلا في ساعة منه أو في بعضها. وكذلك أيضاً أحكام الشريعة غالباً. منها العدة، ومنها الحيض إذا رأت المرأة الدم في اليوم ولو دفعة واحدة حسبت ذلك اليوم يوم دم، فإذا كنت في أقرب الأزمنة ـ وهو غد ـ لا تعرفه فمن باب أحرى غيره.

ودل بقوله (ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله) على علم الآخرة بأجمعها، وذكر يوم القيامة منها لأنه أولها وأَقْرَبُها. فإذا كنت لا تعلم أقرب الأشياء منها ـ وهو يوم ظهورها وبدايتها ـ فمن باب أحرى غير ذلك، وقد قال الله تعالى ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾[٢] أي على غفلة. وقد قال تعالى ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[٢] أي عَظُم أمرها على أهل السّماوات والأرض، والكل جاهلون بها.

ومما يشهد لذلك قول سيّدنا محمّد ﷺ لجبريل، عليه السلام، حين سأله عنها (ما المَسْؤولُ عنها بأعلَم من السائل ولكن أخبرك عن شروطها: أن تَلِدَ الأَمَةُ ربَّتَها)، فذلك من أشراطها، (وأن ترى الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوكَ الأرض)[٣]، فذلك من أشراطها، (وأن ترى رعاة البَهْم يتطاولون في البنيان) أو كما قال عليه السلام.

فهذا من أبدع الكلام وأبلغه الذي حصر فيه جميع أنواع الغيوب، وأزال به جميع الدعاوى الفاسدة والأدلة كلها، ما عدا أدلة الشريعة على الحد الذي جعلتها، وعلى الوجه الذي بيّنتها وتحقق به لأهل الإيمان إيمانهم وحسن اعتقادهم، بغير سبر، ولا تقسيم، ولا تنويع، ولا تخييل، ولا تحديد، ولا تكييف، ولا دعوى، ولا اعتراض، ولا مقدمة، ولا نتيجة، ولا هياكل، ولا عناصر، ولا أعراض، ولا جواهر، ولا حكمة، ولا طباع، إلا بفضل كريم وهاب عليم قدير مدبّر حكيم،

---

(١) سورة لقمان، من الآية ٣٤.

(٢) سورة الأعراف، من الآية ١٨٧.

(٣) قطعة من حديث سيدنا جبريل المطوّل وفيه يسأل النبيّ ﷺ عن الساعة، فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها علامات تعرف بها. إذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة العراة ملوك الأرض، ورأيت الأمة تلد ربَّتها. أخرجه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ليس كمثله شيء، وبيده ملكوت كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، وهو اللطيف الخبيرُ.

وفيه تنبيه لطريق أهل الفضل والسلوك، وهو تركُ الالتفات إلى ما سواه، عزّ وجلّ، والاشتغالُ بما به أُمروا، والانتهاء عما عنه نهوا، ولم يَدَّعوا مع ما به مَنَّ عليهم من الأحوال السنية والعلوم الجليلة شيئاً ما إلا دوام الفقر والافتقار، وخوف العدل العظيم، والتعلق بجناب الفضل العميم، ولا يرون خلاصاً إلا به سبحانه. منَّ الله علينا بذلك، ولا ربّ سواه. يشهد لطريقهم المبارك، واعتقادهم الحسن الموافق الكتابُ والسنة. أما الكتاب فمعلوم في غير ما آية، وأما السنة فقوله، عليه السلام، إخباراً عن ربه، عزّ وجلّ، بقوله: (يا عبادي، كلّكم ضالٌّ إلاّ مَن هديتُه. فاستهدوني أهدِكُم. يا عبادي كلُّكُم جائعٌ إلا مَن أطعمتُه. فاستطعِموني أُطعِمْكُم. يا عبادي كلُّكم عارٍ إلاّ مَن كَسَوتُه. فاستَكْسُوني أكْسِكُم. يا عبادي إنكم تُخطِئون بالليلِ والنهار، وأنا أغفِرُ الذنوبَ جميعاً. فاستغفروني أغفِرْ لكم. يا عبادي إنكم لن تَبلُغوا ضُرّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. ياعبادي لو أنّ أولَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نقَصَ ذلك من مُلكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجنّكم قاموا في صَعيدٍ واحدٍ وسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسان مَسْألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِل في البحر. يا عبادي إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها. فمن وَجَد خيراً فلْيحمَدِ الله، ومن وجد غيرَ ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نفسَه)[1]، أو كما قال عليه السلام.

فتحقّقْ بمتضمن ما أوردناه أوصاف الربوبية وجلالها، وفضيلة سيّدنا ﷺ وحسن هديه لأمته، وأوصاف العبودية ونقصها، وحقارتها، وعظم افتقارها للربوبية، ودوام اضطرارها، كما قال الكليم عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2].

جبر الله تعالى بغناه فقرنا، وأزال بفضله جهلنا، وتجاوز برحمته عنّا، لا ربَّ سواه، ولا مرجو إلا إياه، والحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً إلى يوم الدين.

---

(١) أول الحديث القدسي هذا: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٢) سورة القصص، من الآية ٢٤.

— ٢٩١ —

حديث ذكر الله تعالى لعبده إذا ذكره

عَن أبي هُريرةَ، رضي الله عنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: يَقُولُ الله عزَّ وجلَّ: أنا عِند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معهُ إذا ذكَرني، فإن ذكرَني في نفسِهِ ذَكرتُهُ في نَفسي، وَإن ذَكرَني في مَلأٍ ذَكَرتُهُ في مَلأ خَيرٍ مِنهُم، وَإن تقرَّبَ إليَّ شِبْراً تقرَّبتُ إلَيهِ ذِراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذِراعاً تَقرَّبتُ إلَيهِ باعاً، وَإن أتاني يَمشي أَتَيتُهُ هَرولَةً.

* * *

ظاهر الحديث يدل على حكمين: (أحدهما) إخبار الصادق ﷺ أنّ المولى سبحانه مع عبده على قدر ظنه بمولاه. (والثاني) الإخبار بأنه معه بحسب معاملته أو عبادته له، والزيادة على ذلك بحسب التضعيف المذكور في الحديث. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: هل هذا الظن على بابه، أو هو بمعنى العلم والقطع؟ ومنها: هل الذكر هنا مجرد الذكر بالقلب أو باللسان، وإن كان لا يعلم من الأوامر شيئاً، أو يكون ذكره بالأفعال بالأمر والنهي لأن الذكر بساطها؟ وهل تلك الصفات المذكورة في الحديث من قِبَل المولى سبحانه على مدلولاتها: أو لها تأويل غير ذلك؟

أما قولنا: هل الظن هنا على بابه، أو بمعنى العلم القطعي؟ فالجواب: أنه لا يمكن أن يكون الظن هنا على بابه، بل معناه العلم الحقيقي، كقوله تعالى ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾[1] وهم قد علموه علماً حقيقياً، ولأن هذه الأمور القلبية كلها ما نحن فيها مطلوبون إلا بتحقيق الإخلاص، لقوله عزّ وجلّ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[2] والتصديق القطعي في كل ما به أخبرنا عن الإله، وما به أنعم علينا من قبيل ما كلفنا من التعبدات والتحقيق

---

(١) سورة التوبة، من الآية ١١٨.

(٢) سورة البينة، من الآية ٥.

بجزيل الثواب الذي وعدنا، والخوف مما به توعدنا لمن خالف أمره عزّ وجلّ، ذلك كله بلا شك ولا ريب، وكذلك ما به من أمور الآخرة أخبرنا.

ولذلك قال تعالى في صفتهم ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[١]. وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[٢]. فالإشارة هنا إلى هذا بقرينة الحال، وهي ما ذكر بعد في باقي الحديث من قوله تعالى (إذا ذكرني) إلى قوله (أتيته هرولة) حتى يفهم معاني تلك الألفاظ ويصدّق بها، حتى لا يدخل على المرء فيها شك ولا ريب، فيعامل مولاه بجدٍّ وتحقيق بما وعده، ويتحقق أن ذلك فضل منه سبحانه على عباده، وهو الغنيّ المستغني.

ولأجل هذا قال ﷺ (ما فضلكم أبو بكرٍ بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ، ولكن بشيء وَقَرَ في صدره)[٣]، وقال عليه السلام في حديث تعليم الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٤].

وقد روي في الإسرائيليات: أن أخوين كان أحدهما عابداً مشهوراً بالتعبد، والآخر مشهوراً بضده، فماتا معاً، فأخبر موسى، عليه السلام، أن العابد منهما من أهل النار، وأن المسرف منهما من أهل الجنة. فتعجّب موسى، عليه السلام، وبنو إسرائيل من ذلك. ثم إن موسى، عليه السلام، بعث إلى امرأة العابد فسألها عن حاله، فقالت: لا أعرف منه إلا ما تعرفون أنتم. غير أنه كان إذا فرغ من تعبده ودخل فراشه قال: أفلحنا إن كان ما جاء به موسى حقاً. فقال موسى، عليه السلام: من هذا أُتي. ثم سأل زوجة المسرف فقالت: لا أعلم منه إلا مثل عِلْمِكم به. ولكنه كان إذا أفاق من نشوته مع آخر الليل يخرج إلى ساحة الدار، ويُقرّ لله بالوحدانية ولك بالرسالة، ويبكي ويقول: يا رب، أي زاوية من زوايا جهنم تملأ بهذا الجسد الخبيث؟ فقال موسى، عليه السلام: بهذا سعد. أو كما روي.

وأما قولنا: هل يريد بالذكر أن نذكره كيف كان، أو يريد به الذكر بالأعمال؟ اللفظ يحتمل.

---

(١) سورة آل عمران، ١٩٣ و ١٩٤.
(٢) سورة التوبة، من الآية ١١١.
(٣) قال السخاوي في المقاصد ٣٦٩ رقم ٩٧٠: قال العراقي: لم أجده مرفوعاً، وهو عند الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: من قول بكر بن عبد الله المزني.
(٤) جزء من حديث مطول عن سؤال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة أخرجه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لكن الذي تدل عليه الأدلة الشرعية أن الذكر على نوعين: ذكر مقطوع لذاكره بهذا الخير الذي في الحديث الذي نحن بسبيله، وذكر تأتي الأدلةُ فيه متعارضة، منها ما يدل على أنه في جملة الذاكرين لقوله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1] وأدلة أخر تمنع ذلك، كقول مولانا سبحانه وتعالى لموسى، عليه السلام (قل للظالمين: لا يذكروني. فإني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته، فإذا ذكروني ذكرتهم بالغضب)، ولقول سيّدنا ﷺ في المصلّي الذي لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر: (لم يزدد من الله إلا بعداً)[2].

فكيف بالذكر وحده؟ ولم يجعل، عزّ وجلّ، الذكر في كتابه إلا بعد تحقيق الإيمان بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3] فهذه مبينة لما نحن بسبيله.

وأما ذكره، عزّ وجلّ، بالأفعال فهو الأفضل، ويكفي في ذكر ذلك قول عمر، رضي الله عنه: «ذِكْرُ الله عند أمرِه ونهيه خيرٌ من ذكره باللسان، إلا إن كان هذا العاصي ذَكَرَ مولاه بخوفٍ وخجلٍ مما هو فيه، فيرجى له فضل المولى مثل ما تقدم من ذكر أحد الأخوين، المسرف على نفسه منهما، ولقول مولانا سبحانه (اطلبوني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)»[4].

وأما قولنا: ما تأويل الصفات التي في الحديث من قبل مولانا سبحانه؟ فهذه من التي لها تأويل غير ظاهرها، ونحتاج أن نتكلم عليها واحدةً واحدةً.

أما قوله (وأنا معه إذا ذكرني) فمعناه: إذا ذكرني فأنا معه، بحسب ما قصد في ذكره لي. فإن ذكرني بالتعظيم كنت معه بالإنعام عليه والإحسان، كقوله تعالى في كتابه ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[5]

---

(١) سورة الزلزلة، ٧ و ٨.

(٢) قطعة من حديث أوله: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر. أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٥.

(٤) ذكر السخاوي في المقاصد وقال: ذكره الغزالي في البداية. وتعقبه القاري في الأسرار المرفوعة / ٧١/ بقوله: ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ الغاية. قلت ـ أي القاري في الأسرار: وتمامه: وأنا عند المندرسة قبورهم لأجلي. ولا أصل لهما في المرفوع.

(٥) سورة البقرة، من الآية ١٥٢.

أي أرحمكم إذا ذكرتموني. وقد قال تعالى ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[١] أي هو أكبر العبادات. وإذا ذكرته في خوفٍ ذكرك بالرحمة لك والخلاص مما خفته، لقوله عزّ وجلّ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[٢] ولقوله تعالى في الحديث القدسي (من شغله ذِكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين)[٣]، لأن شغلك في خوفك واضطرارك عن مسألته سبحانه بذكره أوجب لك النجاة مما تخافه.

وكذلك فقِسْ في كل الأمور تجده لا ينكسر، فإن ذكرته عند وحشتك آنسك بذكره، وقد جاء عنه سبحانه أنه قال (أنا جليس من ذكرني)[٤]. ولذلك لما أن دُخِل على بعض المباركين، وهو وحده، وهو يذكر، فقيل له: وحدك؟ فقال لهم: الآن أنا وحدي. لأن هذه كلها دالة على ما قلناه أولاً، من أن الظن يكون بمعنى العلم القطعي.

ومما يقويه أنه سئل بعض المباركين: ما نلتَ من عبادتك؟ قال: الأنس بالله تعالى. فقال له السائل: حسْبُك. فلم ينل به الأنس إلا مع صدقه وتصديقه بما قيل له ووعد به. وقد قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[٥] أي التي مَنَّ الله سبحانه عليها بالعلم والعمل والحضور، لأنّ صاحب القلب الغافل لسانه يذكر وقلبه فيما هو بسبيله يجول. وكيف يجد هذا بذكر الله طمأنينة؟ وأنى له ذلك؟ وقد قال عليه السلام (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[٦].

وقوله (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) احتمل أن يكون هذا إشارة إلى فضيلة الذكر الخفي على الذكر الجليّ، لأن ما ينفرد به المولى سبحانه وحده بذاته الجليلة أفضل مما سواه، وقد جاء هذا نصاً منه ﷺ بأن قال (الذكر الخفيّ يفضل الجليّ بسبعين درجة)[٧] أو كما قال.

واحتمل أن يحمل على ظاهره، مع نفي التكييف والتحديد، فيكون المعنى: أن الذي يذكر

---

(١) سورة العنكبوت، من الآية ٤٥.

(٢) سورة النمل، من الآية ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد وابن شاهين في الترغيب في الذكر، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما وعبد الرزاق عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في الحلية عن كعب الأحبار بلفظ: قال موسى: أي رب، أقريب فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى، أنا جليس من ذكرني..

(٥) سورة الرعد، من الآية ٢٨.

(٦) أخرجه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البيهقي في الشعب عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ: (الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً) وقال الألباني: حديث ضعيف جداً. انظر رقم ٢٠٦٠ في ضعيف الجامع.

الله في نفسه من جملة ما أنعم الله عليه، من أجل أن ذكره في نفسه، أن مولاه سبحانه ذكره في نفسه. أعني أن الله يجازيه على ذكره بثواب لا يطلع عليه غيره سبحانه وتعالى. وإن ذكره في ملأ ذكره الله بجزاء الثواب بحضرة الملأ الأعلى وشهادتهم. ونبه هنا بالأعلى مما منَّ به على عبده على الأدنى، فإنّ ما سوى ذلك من الحسنات والخير هذا أعلى منه.

وقوله (فإن ذكرني في مَلإٍ ذكرته في مَلإٍ خيرٍ منهم) أي في العالم العلوي. فدل بهذا على تفضيل العالَم العُلْوِيّ على هذا العالَم، وسكت عما له من الأجر في ذلك، لأنه قد ثبت بالكتاب والسنة أن ذكر المولى سبحانه عبده رحمة له. والآي فيه والأحاديث كثيرة.

وفي هذا أعظم دليل على أن المولى، جلّ جلاله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾. يؤخذ ذلك من قوله تعالى (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في مَلإٍ ذكرته في ملإٍ خيرٍ منهم)، وبالعلم القطعي أنْ في الزمان المفرد يذكره، جلّ جلاله، جميعٌ كثيرٌ في أنفسهم في مشارق الأرض ومغاربها، وفي ذلك الزمان نفسه يذكره تعالى جميع كثير بالجهر، ولا يعلم قدرهم إلا هو سبحانه، وهو، عزّ وجلّ، يذكر الجميع واحداً واحداً بحسب ذكرهم له من سرٍّ أو جهرٍ، مع ما هو سبحانه فيه من حمل جميع الموجودات بقدرته وحكمته على ما جرى فيهم سابق علمه.

هذا لا تحده العقول ولا تتخيله الأذهان، ولا يحدّ ولا يوصف، جلّ جلاله، وتقدست أسماؤه. ومن أجل الإيمان بهذا وما يشبهه استفتح، عليه السلام، الحديث بقوله سبحانه (أنا عند ظنّ عبدي بي).

وأما قوله تعالى (وإن تقرب إليّ شِبراً تقربتُ إليه ذراعاً) إلى آخر الحديث فهذا ليس على ظاهره، بدليل أنك تجد ذلك من نفسك الذي أنت محدود متحيّز على غيره، فكيف في جانب من لا يُحدّ ولا يُكيف؟ وإلاّ فأين الموضع الذي تتقرب فيه من مولاك شبراً أو ذراعاً أو باعاً أو أي موضع تأتيه تمشي، لأنه، عزّ وجلّ، ليس له جهة محدودة، فيقرب من تلك الجهة بحسب هذه التنويعات؟

فما بقي إلا التأويل من الجهتين. ويكون المعنى في ذلك: أنك مهما تقربت إلى مولاك، بوجه من وجوه القرب، فهو بفضله يجازيك على ذلك بأكثر مما جئت به. وقد بيّن، عزّ وجلّ ذلك بقوله ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[1] وقد جاء أن الحسنة بعشر، وجاء بسبعين، وجاء بسبعمائة، وجاء بأكثر من ذلك بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ١٦٠.
(٢) سورة البقرة، من الآية ٢٦١.

وهنا بحث في تبيين هذه الحالات من الشبر إلى المشي، هل هذه الدرجات من جهة الأعمال المحسوسة، أو من جهة النيات، أو من مجموعهما؟ احتمل، والأظهر المجموع، بدليل قوله سبحانه على لسان نبيه، عليه السلام (لن يتقرب إليّ المتقربون بأحبَّ من أداء ما افترضت عليهم، ثم لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها)[1].

وجاء قوله ﷺ (أوقع الله أجره على قَدْر نيته)[2] فبان بهذا أن الأعمال في نفسها بعضها أقربُ إلى الله تعالى من بعض، ولذلك قال تعالى ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[3] وبان أنّ حسن النية يزيد العمل رفعة وقرباً إلى الله سبحانه، ولذلك قال سبحانه ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[4] فما أثنى، عزّ وجلّ، عليهم إلا بحسن نياتهم وجميل قصدهم.

ويترتب على هذا من الفقه أن يكون للمرء اعتناء بترفيع عمله، بأن ينظر الأعلى فالأعلى في أعيان الأعمال، وفي تحسينِ النية فيها ما أمكنه، ولا يخلي قلبه من ذكرِ مولاه، والشغلِ بما يقرّب إليه، لأن هذه هي الفائدة التي تترتب على معرفة هذا الحديث، مع قوة اليقين وخالص الإيمان والصدق والتصديق الذي لا يخالطه شك ولا ريب، وإلا كان الأمر عليه لا له.

جعلنا الله ممن هداه ووفقه لما يقرّبه إليه، ونفعه به بمنّه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) حديث قدسي أوله: لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٣ و٩/ ٦١٠ والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧١.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٥٧.

(٤) سورة الأنعام، من الآية ٥٢.

— ٢٩٢ —

حديث الحث على قيام الليل

عَن عَليِّ بنِ أبي طالِبٍ، كَرَّمَ الله وَجهَهُ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ وفَاطِمةَ بِنتَ رَسولِ الله ﷺ لَيلةً، فَقالَ لَهُم: ألا تُصَلُّونَ؟ قالَ عَليّ: فَقُلتُ يا رَسُولَ الله، إنَّما أنفُسنا بيَدِ الله، فإذا شاءَ أن يَبعثنا بعَثَنا. فانصَرفَ رَسُولُ الله ﷺ حينَ قُلتُ لَهُ ذلكَ، وَلَم يَرجِعْ إليَّ شيئاً، ثُمَّ سَمِعْتُـهُ وَهُوَ مُدبر يَضربُ فَخِذهُ وَيقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[١].

* * *

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام: (أحدهما) الحض على قيام الليل. (والثاني) أن استيقاظ النائم إنما هو بيد الله تعالى، لا عمل فيه للخلق. (والثالث) أن الجواب بالقدرة على الحكمة من باب الجدل، لا من طريق الحكمة والتكليف، وإنما الشّأن أن يكون الجواب على الحكمة بمقتضى الحكمة، وعلى القدرة بمقتضى القدرة. والكلام عليه من وجوه:

منها: جواز المشي بالليل إلى دور القرابة وذوي الأرحام. يؤخذ ذلك من قوله (طرقه وفاطمة ليلة)، لأن كل ما يأتي بالليل يقال له: طارق، وكذلك بالنهار. ولذلك كان من دعائه ﷺ أنه كان يستعيذ من (طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير)[٢].

وفيه دليل على أنه إذا تكلم العالم بمقتضى الحكمة وكان ذلك في غير واجب، فوقع الجواب على ذلك بالقدرة، أن ذلك كافٍ في الجواب، ويقطع البحث. يؤخذ ذلك من أنه لما طالبهم سيّدنا

---

(١) سورة الكهف، من الآية ٥٤.

(٢) أخرج الإمام مالك والنسائي في سننه والبيهقي في الأسماء والصفات عن يحيى بن سعيد رضي الله عنه أنه قال: لما أسري برسول الله فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رسول الله ﷺ راه. فقال له جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولهن، إذا قلتهنّ طفئت شعلته، وخرّ لفيه؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى. فقال جبريل: فقل: أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات اللّاتي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر، من شرّ ما ينزل من السماء وشرّ ما يعرج فيها، وشرّ ما ذرأ في الأرض، وشرّ ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير، يا رحمن.

ﷺ بأثر الحكمة، وهو قيام الليل ـ وجاوبه عليّ، رضي الله عنه، بأثر القدرة ـ وهو إخباره بقوله (إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا) ـ فانصرف[1] رسول الله ﷺ حين قال له ذلك، ولم يراجعه بشيء.

وفيه دليل على أن الرجل إذا كان الخطاب له ولأهله فهو أولى بالجواب. يؤخذ ذلك من خطاب سيّدنا رسول الله ﷺ لبنته ولعلي، صلوات الله عليهم ورضي عنه ورضي الله عنهم أجمعين، فجاوبه عليّ، رضي الله عنه، وسلّم له رسول الله ﷺ ذلك بانصرافه من حينه. ولم يقل له شيئاً.

وفيه دليل على جواز محادثة الشخص نفسه بأمر الغير. يؤخذ ذلك من قول سيّدنا ﷺ بعدما ولى عنهم، وهو وحده: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

وفيه دليل على جواز ضرب المرء بعض أعضائه ببعض على أمرٍ يتعجب منه، أو يعلم به غيره، إشعاراً له أنه ما رأى منه لم يوافقه ولا يعجبه. يؤخذ ذلك من ضربه ﷺ فخذه بَعْدما ولّى عنهم[2]، وكلامه إذ ذاك بقوله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ ليعلمهم أن ذلك الجواب لم يرتضه منهم.

وهنا بحث وهو أن يقال: لِمَ لَمْ يقل لهم ذلك مشافهة؟ فالجواب: أنه لما علم سيّدنا ﷺ أن علياً، رضي الله عنه، لا يجهل أن الجواب بالقدرة عن الحكمة أنه ليس من الحكمة، واحتمل أن كان لهما عذر يمنعهما من الصلاة، واستَحْيا أن يذكره للنبيّ ﷺ، ولا يمكنه عدم الجواب له، فدفع الخجل عن نفسه وعن أهله بذكر القدرة، ولذلك الإمكان ولّى النبيّ ﷺ عنهم[2] مسرعاً، من أجل ألاّ يشغلهم عن أخذ الأهبة للصلاة.

واحتمل أن يكون ذلك من عليّ، رضي الله عنه، استدعاء جواب من النبيّ ﷺ ليزيده فائدة، فكان ضرب فخذه ﷺ، وهو مولٍّ، وكلامه بما به تكلم جواباً لعليّ، رضي الله عنه، لأن يحقق عنده الأمر على ما هو عليه، وأن العبودية شأنها ألا تطلب لنفسها عذراً مع الشريعة أبداً إلا الاعتراف بالتقصير، والأخذ بالاستغفار والاعتذار.

وفيه دليل على فضل عليّ، رضي الله عنه. يؤخذ ذلك من روايته لهذا الحديث، وقد يسبق لفهم من لا يعرف قدره ما يحتمل الحديث من العتب عليه، وحاشاه من ذلك. فلما كان الإخبار به مما يترتب عليه في الدين فوائد لم يبال بشيء من ذلك.

---

(١) كذا بدخول الفاء على جواب «لَمَّا».

(٢) كذا بضمير الجماعة هنا وفيما بعد.

وفيه إشارة إلى أن من حقيقة الصحبة والقرابة التذكار عند الغفلة. يؤخذ ذلك من كون سيّدنا ﷺ لم يطرقهم ليلاً إلا ليذكرهم بالصلاة، لأن الليل وقت غفلة، وإن كان حالهم جميعاً لا يقتضي غفلة، لكن في زمان الغفلة ينبغي أن يلتفت فيه إلى القرابة والإخوان ـ وهذا من السنة ـ وإن كانوا لا يغفلون غالباً، لكن ذلك الخوف ما طبعت عليه البشرية.

وفيه إشارة إلى الالتفات إلى الأصل، وإن كان الظاهر خلافه، لأن الأصلَ الغفلة وأشباهها، والتوفيقَ والتزكيةَ فضل رباني ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾(١) فينبغي على هذا أن يتفقد المرء نفسه وأحبابه، بتذكار الخير والعون عليه، وإن كان سبحانه قد منّ عليهم بذلك، لكن ذلك من أجل ما ذكرناه، ولكي يحصل فضل آخر، وهو دخولهم بذلك تحت حد قوله عزّ وجلّ ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(٢) وكذلك كانت سنة سيّدنا ﷺ، تفقُّد الصحابة، رضي الله عنهم، بالموعظة في بعض الأيام، وهم على ما هم عليه من قوة الإيمان، وكانوا يودون أن لو كان ذلك كل يوم، فقال لهم (ما يمنعني من ذلك إلا خوف السآمة والملل عليكم). فبهداهم اقتده. جعلنا الله ممن اهتدى بهديهم بمنّه.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(١) سورة النور، من الآية ٢١.
(٢) سورة المائدة، من الآية ٢.

ـ ٢٩٣ ـ

حديث إذا أحب الله عبداً أمر جبريل بأن يحبه

عَن أبي هُريرَةَ، رضي الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: إنَّ الله، تباركَ وتعالى، **إذا أحبَّ عَبداً نادى جِبريلَ عليهِ السَّلام: إنَّ الله قَد أحبَّ فُلاناً فأحِبَّهُ. فيُحِبُّهُ جِبريلُ. ثُمَّ يُنادي جِبريلُ في السَّماءِ: إنَّ الله قَد أحبَّ فُلاناً فأحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أهلُ السَّماءِ، وَيوضَعُ لَهُ القَبولُ في أهلِ الأرضِ.**

* * *

ظاهر الحديث يدلّ على أن الله، عزّ وجلّ، إذا أحبّ عبداً خلع عليه خِلَعَ العناية، **فيأمر** جبريل، عليه السلام، بأن يحبه، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب عبده **فلاناً**، ويأمرهم بحب ذلك العبد المحبوب عند مولاه، ويضع له في أهل الأرض القبول. والكلام عليه **من** وجوه:

منها أن يقال: ما معنى حبّ الله تعالى للعبد؟ وما معنى حبّ جبريل، عليه السلام، له، وحب الملائكة؟ وما معنى القبول؟

فأما قولنا: ما معنى حب الله لعبده؟ فقد تقدم الكلام على هذا المعنى وما يشبهه، أن حقيقة الحب من الله لعبده ليس كحب العبيد بعضهم لبعض بالولوع به والأنس به وميل القلب إليه، وإنما معناه رضاه بحاله، وما هو عليه، وكثرة إحسانه، لقوله عزّ وجلّ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1] أي يحبهم فيحسن إليهم على حبهم له. فلكثرة الإحسان منه، عزّ وجلّ، عَبَّر، عليه السلام، عنه بالحب، لأنه مما عرفنا بيننا أن كثرة الإحسان منا بعضنا لبعض إنما بساطه الحب من المحسن للذي إليه

(١) سورة المائدة، من الآية ٥٤.

الإحسان، ولذلك قال ﷺ (حبّك الشيء يعمي ويصم)[1] أي يعميك عما سواه، وكذلك يصمّك عما سواه، فلا تكاد ترى وتبصر إلا هو، ويعميك أيضاً عن عيوبه، وهذه صفة المحدَثين، وهي في حق المولى، جلّ جلاله، مستحيلة.

وفي تعبيره، عليه السلام، عن كثرة الإحسان بالحب تأنيس للعباد وإدخال مسرة عليهم، لأن العبد إذا سمع عن مولاه أنه يحبه هو أغلى السرور عنده، وتحقق بكل خير ونعمة زائدة على ذلك. وهذا الخطاب إنما هو لمن في طبعه فتوة ومروءة وعروبية وفضيلة وخير وإنابة، ولذلك قال عزّ وجلّ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[2]. ومن في نفسه شراهية ورعونة وله شهوة غالبة فلا يردعه إلا الضرب والزجر والتعنيف، ولذلك قال ﷺ (ينتزع الله بالسلطان ما لا ينتزع بالقرآن)، لأن السلطان هو الذي جعل له الزجر والتعنيف بالضرب والقتل وغير ذلك.

وأما قولنا: ما معنى حب جبريل، عليه السلام؟ فهو يحتمل وجهين: أن يكون حبَّ ولوع بالشخص، يخلقه الله فيه عند أمره له بحبّ العبد، ويكون من جملة فوائد حبه له أن يكون يواليه ويدعو له بالخير، كما جاء (إن الملائكة تحبّ صاحب العلم الذي هو لله، وترغب في صحبته وتدعو له، وبأجنحتها تمسحه). وقد يحتمل أن يكون معنى حبه له ترفعته وتكرمته، لكونه له عند الله تعالى مكانة حسنة، لأن العبيد في الحب والبغض للمولى متَّبِعون، وكذلك في الغضب والرحمة للمولى متبعون أيضاً.

ولذلك جاء في حق الزَّبانية أنه (إذا أمر الله، عزّ وجلّ، بالمجرمين أن يقذفوا في النار فتأخذهم الزبانية فيتمزقون في أيديهم، فيقولون لهم: ألا ترحمونا؟ فيقولون لهم: إذا كان أرحم الراحمين لم يرحمكم فكيف نرحمكم نحن)؟ أو كما ورد. فالعبيد كلهم أهل العالم العلوي والسفلي تابعون لما به يؤمرون، إما بالمقال وإما بالموضع، ولذلك لم يشتغل أهل العقول الوافرة إلا بالعمل على رضى مولاهم، ولم يبالوا بغيره، حتى إن من كلام بعضهم:

فيا ليت ما بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب[3]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري في التاريخ والحكيم الترمذي والعسكري في الأمثال والطبراني والبيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) سورة غافر، من الآية ١٣

(٣) ينسب البيت إلى رابعة العدوية وينسب إلى أبي فراس الحمداني. ولفظه:

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

ومثل: الجواب عن حب جبريل، عليه السلام، الجوابُ عن حب الملائكة، عليهم السلام، لكن في تقديم الأمر لجبريل، عليه السلام، قبل غيره من الملائكة، إظهار لترفيع منزلته عند الله تعالى على غيره من الملائكة.

وأما قولنا: ما معنى القبول؟ احتمل أن يكون على ظاهره، وهو معنى الترفيع له والإكرام. يقال: أقبل فلان على فلان، إذا أكرمه ورحب به. وقد جاء من طريق آخر في حديث غير هذا (ويوضَع حُبُّه على الماءِ) فعلى هذا يكون جميع من في الأرض من إنس وجنّ وملائكة. وقد جاء أن (ما من موضع شبر في السماء إلا ومَلَكٌ واضعٌ جبهته فيها ساجداً لله تعالى) أو كما ورد[1]، (وما من حيوان على اختلافهم إلا يقبل عليه).

وقد جاء ما يفسر هذا، في حق صاحب العلم الذي هو لله، أنه يستغفر له كل شيء في الأرض حتى الطير في الهواء، والحوت في البحر، وهوامّه، وجميع الأنعام وحشرات الأرض، وشجرها ومدرها وكل ما فيها. هؤلاء كلهم يدخلون تحت قوله هنا (أهل الأرض) أي كل ما فيها. فإنه إذا جمع من يعقل مع من لا يعقل يجمع بلفظ من يعقل. فقد يكون معنى ما ذكرناه في حق العلم الذي هو لله، فإن هذه المنزلة أرفع المنازل عند الله تعالى، لأن هؤلاء السادة هم (ورثة الأنبياء)[2] عليهم السلام، ويكون في غير العالَم في غير أهل جنسه. وهو تفسير (القبول) الذي يوضع له في الأرض.

وقد ذكر الإمام يمن بن رزق، رحمه الله، أن الله تعالى لا يزال بعبده الصالح حتى يحببه لعباده، ويلقي خوفه في قلوبهم ويسهل عليه طاعته، ويرزقه حلاوتها. ويشهد لقول هذا الإمام هذا الحديث الذي نحن بسبيله، مع قوله ﷺ (من خاف الله خوّف الله منه كل شيء)[3]. فإذا جمع الله في

---

(١) ولفظ الحديث: قال رسول الله ﷺ: إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ ومَلَك واضع جبهته، ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفراش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله. أخرجه الترمذي عن أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه الترمذي عن قيس بن كثير رضي الله عنه قال: قدم رجل من أهل المدينة على أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. وقال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو الشيخ عن واثلة بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالكريم الكرجي في أماليه والرافعي عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء.

قلوب عباده الحب والخوف جاء ما قاله الإمام سواء سواء، فلا يكون في هذه المنزلة إلا وقد خفّت الطاعة عليه وأنس بها، فيحصل له من ميراث (أَرِحْنا بها يا بلال) نسبة صدق الاتِّباع والتصديق.

فيا مبصراً نَشْرَ رياحِ المحبوبين، هذه ثمرة أغصان فؤادك، هل تجد من تلك الرياح نسمة تنعش بها أسماع قلوب المشتاقين، ولو نسمة ما يرتاحون إليها؟ كان بعض أهل الصدق والتصديق والتوفيق إذا كان عند انشقاق الفجر، وهو تحت السقف بين الجدران، يقول لمن حضره: قد طلع الفجر فيخرجون فيبصرون الفجر، كما انشق رتق جوه، لأنه جاء (إذا كان عند السَّحر، يرسل الله عزّ وجلّ من تحت العرش ريحاً عطرة، تنوّر وجه كل من كان يقظان في طاعة مولاه).

ويؤخذ بقوة الكلام من مفهوم هذا الحديث الندبُ على توفية أفعال البر، على اختلاف أنواعها، من فرض وسنة وندب إلى غير ذلك من أنواعه، إذ إنه بذلك يحصل للعبد بفضل الله هذه المنزلة الرفيعة.

ويفهم منه أيضاً كثرة الحذر وشدة النهي عن المعاصي والبدع التي بهما يحرم العبد هذه المنزلة الجليلة. فمن فهم هذا، وعمل به، صفا قلبه لما صَفَت القلوب.

تلمّحوا روائح القرب، وإن كَثُفَتْ حجب الجدران. عللوا قلبي بذكراهم، فالقلب لهم والله مشتاق.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

ـ ٢٩٤ ـ

حديث أمر الله تعالىٰ للحفظة بكتب حسنات العبد وسيئاته

عَن أبي هُريرةَ، رضي الله عَنهُ، أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ: يَقولُ الله، تَباركَ وتَعالى: إذا أرادَ عَبدي أن يَعملَ سَيِّئةً فَلا تكتُبوها عَليهِ حَتَّى يَعملها. فإن عملها فاكتبُوها بمِثلِها، وَإن تركَها مِن أجلي فاكتُبوها لَهُ حَسنَةً. وَإذا أرادَ أن يَعملَ حَسنَةً فَلم يَعملها فاكتُبوها لَهُ حَسَنَةً، فإن عمِلها فاكتُبوها بِعَشر أمثالِها إلى سَبعِمائَةٍ.

* * *

ظاهر الحديث يدلّ على ثلاثة أحكام: (أحدها) أمر الله سبحانه ملائكته أنّ العبد من بني آدم إذا أراد أن يعمل سيّئة فلا يكتبونها عليه حتى يعملها، فإذا عملها يكتبونها بمثلها. (والحكم الثاني) أمره تعالى للملائكة أن العبد إذا أراد فعل سيئة، فتركها من أجل الله تعالى، يكتبون له بها حسنة. (والثالث) أمره، سبحانه وتعالى، للملائكة إذا أراد العبد أن يعمل حسنة، فلم يعملها، يكتبونها له حسنة واحدة، فإن عملها كتبوها له بعشر أمثالها حتى إلى[1] سبعمائة مثلها. والكلام عليه من وجوه:

منها أن يُقال: هل لفظ (العبد) على العموم: في المؤمن وغيره. ومنها: مَن هؤلاء المأمورون بذلك؟ ومن أين تعلم الملائكة ما في قلب هذا العبد، وهذا من باب علم الغيب، ولا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ؟ ومنها: كيفية الترك من أجله سبحانه؟ وقوله (فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة) هل هذه التفرقة بين الأجور تعبُّدٌ لا يُعقَل له معنى، أو يُعرَف سبَبُه؟ وهل لا[2] يزاد على السبعمائة شيء أصلاً، أو للزيادة طريق غير هذا؟

أما قولنا: هل هذا على العموم في جميع العباد؟ اللفظ محتمل. لكن يخصصه ما يعلم من

---

(١) كذا بزيادة «إلى» بعد «حتى».

(٢) كذا بإدخال «هل» على «لا».

قواعد الشريعة، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[1] أي أن كلمة الإخلاص هي التي يرفع بها العمل الصالح، ومن ليس من أهلها فلا يقبل منه عمل. هذا على قول من يقول: إنهم مخاطبون بفروع الشريعة. وعلى القول بأنهم غير مخاطبين بفروع الشريعة فلا يدخلون تحت هذاالحد. وقد جاء في بعض الآثار (عبدي المؤمن)[2]، فارتفع بهذا النص الاحتمال الذي في اللفظ.

وأما قولنا: من هؤلاء المأمورون بالكَتْب؟ فقد نصّ عليهم الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله عزّ وجلّ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ . كِرَامًا كَـٰتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[3]، وأما السنة فقوله عليه السلام: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم)[4]. وفي هذا تنبيه لك لعلك تستحي من مباشرتهم لك، وقعودهم معك، فتكف عما فيه هلاكك من سوء عملك، وأنت مع عملك بهذا معرض كأنك لا تعلم أن من العلم لجهلاً.

وأما قولنا: من أين تعلم الملائكة ما في قلب العبد؟ فقد جاء (أن الله عزّ وجلّ أجرى لهم عادة، إذا أراد العبد أن يعمل سيئة يخرج على فيه رائحة نتنة، فيعلم الملك أنه قد هَمَّ بسيّئة فلا يكتبها حتى يفعلها، وإذا أراد أن يعمل حسنة يخرج على فيه رائحة حسنة، فيعلم الملك أنه أراد أن يعمل حسنة فيكتبها له حسنة) كما هو مذكور في الحديث أو كما قال عليه السلام.

لا حيّا الله أخا البطالة، عطّر رياشه بالمسك والطيب، وقد طبق الآفاق نتنُ فمه وجوارحه. هلاّ غيّرتَ هذه الحالة بطيب، ونَهْيِ النفسِ عن الهوى؟

وأما كيفية الترك الذي هو لله؟ فكيفيته ألاّ يرده عن تلك السيئة التي أراد فعلها إلا خوف الله تعالى، من أجل عقابه أو حياءً منه، لأنه أهل أن يستحيا منه، أو طمعاً في وعده الجميل، وهو قوله الحق ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[5] كما ذكر عن أصحاب الغار.

---

(١) سورة فاطر، من الآية ١٠.

(٢) أخرج الإمام أحمد والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أن الله يقول؛ عبدي المؤمن بمنزلة كل خير، يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه.

(٣) سورة الانفطار، ١٠ ـ ١٢.

(٤) أخرجه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون.

(٥) سورة النازعات، ٤٠ و ٤١.

وذلك (أنه كان في غار ثلاثة أناس، فنزلت على بابه صخرة عظيمة سدّته. فقالوا: ما ينجينا من هذا إلاّ أن يدعو كل واحد منا بخيرِ عملٍ خالصاً لله تعالى. فدعا أحدهم وسمّى عمله الذي أخلص فيه لله، فانفرج من تلك الصخرة بعضاً، ثم الثاني فعل مثل صاحبه، فانفرج بدعائه من الصخرة مثل ما انفرج بدعاء صاحبه، ثم الثالث قال في دعائه: اللهم إنك تعلم أني أحببت امرأة، وراودتها عن نفسها، فأبت حتى أدفع لها مائة دينار. فلما دفعت لها المائة دينار أمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين شِعبيها قالت لي: اتقِ الله، ولا تفُضّ الخاتم إلا بحقه فاستحييتُ منك، وتركت لها المائة دينار. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك خوفاً منك وحياء، ففرّج عنا ما بقي علينا من هذه الصخرة. فانفرجت عنهم من حينها وخرجوا من الغار)[1] أو كما ورد.

وقد جاء (أن الله عزّ وجلّ، جعل ملك اليمين يكتب الحسنات، وملك الشمال يكتب السيئات، وأن ملك اليمين مقدّم على ملك الشمال وحاكم عليه. فإذا فعل العبد السيئة وأراد ملك الشمال أن يكتبها قال له ملك اليمين: اصبر عليه لعله يستغفر أو يتوب. فإن تاب أو استغفر لم يكتب عليه شيئاً، وإن فعل حسنة خاصة منها بقدر السيئة كتب باقي أجره، فإن لم يفعل شيئاً من ذلك فحينئذ يكتبها عليه كما فعل، بغير زيادة على ذلك)[2]. وفي هذا أتمّ دليل على عظم لطف المولى بعباده المؤمنين وكثرة رحمته لهم.

وقوله (اكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة) هل هذا تعبد لا يعرف له معنى، يعطي الله من شاء ما شاء، أو ذلك لسبب يعلم؟ ظاهر اللفظ محتمل. لكن يظهر ذلك من غير هذا الموضع، وهو قوله ﷺ (أوقع الله أجره على قدر نيته). وقد يكون مع حسن النيّة زيادة أسباب من الخير في الحسنة نفسها توجب لصاحبها التضعيف في الأجور، مثلما جاء (أن الذي يقرأ القرآن له بكل حرف عشر حسنات، وأن الذي يقرؤه ويعلم لم خفض ولم رفع له بكل حرف مائة حسنة)[3]، وقد جاء (أن الذي يقرأ القرآن وهو قائم في الصلاة له بكل حرف مائة حسنة، وإن كان قاعداً خمسون، وإن كان

---

(١) حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار، أوله: بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر فآووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم.. الحديث أخرجه الإمام أحمد بنحوه والشيخان واللفظ لهما عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مروي بالمعنى، والحديث أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة رضي الله عنه أوله: صاحب اليمين أمين على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد حسنة كتبها بعشر أمثالها، وإذاعمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين: أمسك. فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئاً، وإن لم يستغفر كتبت عليه سيئة واحدة.

(٣) أخرج الترمذي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: آلم حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف.

في غير صلاة وهو على طهارة خمسة وعشرون، وإن كان على غير طهارة عشر) أو كما ورد. والله يوفق من يشاء إلى أسباب الزيادة في أجور حسناته فضلاً من الله ومنّه.

وأما قولنا: هل السبعمائة هي الحد لا يزاد عليها أو لا؟ لفظ الحديث ليس فيه ما يدل على الزيادة ولا منعها، لكن الكتاب العزيز أخبرنا بالزيادة على ذلك بقوله عزّ وجلّ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1] وبقوله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] فحسبك من كريم مليء، ليس كمثله شيء، يعطي من يشاء بغير حساب، هل يدخل ذلك فيما تحدّه العقول؟

ويترتب من الفائدة على العلم بهذا الحديث وجوه: منها قوة الرجاء في الله تعالى الذي قد بسط لنا ظل فضله بهذا القدر من لطفه واعتنائه بالمسيء منا، وبالمحسن، وتضاعف الحب والتكريم لمن جعل لنا وسيلة إلى العلم بهذا الخير العميم ﷺ، والنظر في الأسباب التي بها تزكو أعمالنا، والأخذ فيما به يكفر خطايانا، ولذلك قال ﷺ (ويل لمن غلبت آحاده عشراته) لأن السيئة بواحدة كما نص الحديث، وأقل مراتب الحسنة عشر، فتعساً لغافل يقترف عشر سيئات، ثم لا يقدر أن يعمل حسنة واحدة تكفر عنه تلك العشر السيئات. والويل واد في جهنم.

تنبيه: فإن سمعته ولم تنتفع، أو علمت ولم تعمل، كنت كالحمار يحمل أسفاراً ويا ليتها أسفار، بل جبال تكبه في النار. أعاذنا الله من ذلك بفضله ومنّه. لا خَير إلاّ خَيرُهُ، ولا ربّ سواه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٦١.
(٢) سورة الزمر، من الآية ١٠.

— ٢٩٥ —

حديث حسن ظن العبد بربه يوجب له أمله فيه

عَن أبي هُريرةَ، رضيَ الله عَنهُ، أنَّ رسول الله ﷺ، قالَ: قالَ الله تعالى: أنا عِند ظَنِّ عَبدي بي.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على أن الله، عزّ وجلّ، مع عبده، على قدر ظنه به، والكلام عليه من وجوه:

منها أن يقال: هل هذا عام في جنس العبيد كلهم، مؤمنهم وكافرهم؟ أو خاص بالمؤمنين؟

الظاهر أنه عام في كل العبيد، لأن الكلّ عبيد لله، عزّ وجلّ.

وهل (الظن) هنا على بابه، أو هو بمعنى (العلم)؟ هذا يحتاج إلى تقسيم. إما أن يكون يريد بالظن ما هو راجع إلى العلم به، جلّ جلاله، أو إلى أمور الآخرة وما فيها من رحمته، عزّ وجلّ، وعقابه، وما في معناه، أو إلى أمور هذه الدار وما أجرى، عزّ وجلّ، فيها من خيراته وإحسانه لعباده، وما فيها أيضاً من نقمه وابتلائه، أو راجع إلى ما كلّف سبحانه عباده من طاعته، واتباع رسله، صلوات الله عليهم، وما وعدتهم به الرسل عنه تعالى، وما بشرتهم به من الشفاء من الآلام والأمور المخوفة بأيسر الأشياء، مثل الإرشاد إلى الثقة به، عزّ وجلّ، والتوكل عليه، وكيف حال من فعل ذلك، وصدَّقه، وعمل عليه، وما في معناه؟

فالموضع يدل على كل نوع من هذا أو ما في معناه بوجوه عديدة إذا تتبعناها، لكنها كلها مندرجة تحت هذه التنويعات ليس تخرج عنها. فالذي هو راجع منها إلى العلم به، جلّ جلاله، فيجزىء فيه الوجهان: أن يكون بمعنى العلم، وأن يكون على بابه، وهو الظن، فأهل العلم به، جلّ جلاله، هو معهم، لكل واحد منهم على قدر علمه به، جلّ جلاله.

وهنا تنقسم تلك التقسيمات التي تقدم ذكرها في الكتاب على: علم العوام، وعلم الخواص، وعلم خواص الخواص، وكل منهم يجده سبحانه على قدر علمه به، وقد تقدم في هذا ما فيه شفاء.

ومما قد ذكرنا فيه أن بعض من علّمه الله، جلّ جلاله، بأوصاف الجلال والكمال ونفي الشَّبَهِ والمثال رأى من أمور الغيب ما أخجله فصرع، وقال: أنّى لي هذا؟ فقيل له: عملت على الحق فأريت الحقيقة، وعملوا على التأويل فعوملوا بحسب ما عملوا.

وأما أهل الجحد له أو الجهل بجلالهِ وتنزيههِ ـ وهم الكفار على اختلاف مراتبهم والمنافقون ـ فليس يجدونه هناك بل هم محجوبون عنه، جلّ جلاله، لقوله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1] وليس لهم مولى حتى يجدوا منه هناك رحمة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2] وهم كما قال الله تعالى ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[3].

وأما أهل الشك ـ وهم أهل الظنون به سبحانه، بلا قطع لأحد الجهات ـ فإنهم من جنس الكفار، لأن الشك هنا يجري مجرى الكفر. قال تعالى ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[4].

وإن كان فيما هو راجع إلى الآخرة فإن كان من جهة التصديق بها، أو بما فيها، فنمشي على تقسيم الإيمان به، عزّ وجلّ. فإن من شروط الإيمان به، عزّ وجلّ، التصديقَ بالآخرة وبما فيها. وذلك من أوصاف المؤمنين، كقوله عزّ وجلّ ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[5]. فإن كان على الرجاء في فضله عزّ وجلّ أن ينجيهم من عذابها، ويمنّ عليهم بنعيمها، فهناك يكون الظن بمعنى الرجاء أو الخوف. لكن لا يخلو أن يكون الخوف والرجاء لما هناك مع الأعمال المأمور بها أو مع عدمها. فإن كان مع عدمها فلا يسمّى ذلك رجاء، بل يسميه أهل العلم غروراً، وذلك مظنة الهلاك.

وقد تقدم من البيان فيه بفضل الله ما فيه شفاء، وكفى في ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[6]. وإن كان مع امتثال الأمر، واجتناب النهي، فذلك الذي يدخل تحت معنى هذا الحديث، وكل على قدر حاله من حال العوام

---

(١) سورة المطففين، الآية ١٥.
(٢) سورة محمد، من الآية ١١.
(٣) سورة الفتح، من الآية ٦.
(٤) سورة فصلت، الآية ٢٣.
(٥) سورة البقرة، من الآية ٤.
(٦) سورة البقرة، من الآية ٢١٨.

والخصوص وخصوص الخصوص، لأن الله عز وجلّ يقول ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾[1] فقد رجّاهم، عزّ وجلّ، إلى الطمع فيه وفي فضله على غير عوض، فظن كل واحد هنا على قدر علمه به سبحانه.

فإن كان الظن راجعاً إلى هذه الدار، وما فيها من نعمه سبحانه وأرزاقه، فهنا كل يجده حيث أمله إذا كان مقراً به، وإن كان من غير المؤمنين لأنه، جلّ جلاله، قال مجاوباً للخليل عليه السلام حين قال ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾[2] قال جلّ جلاله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ ﴾[3] معناه أرزق من آمن، وأرزق من كفر، ثم الكافر أسوقه إلى النار.

وقد ذكر أن ناساً سافروا في برية، ليس يوجد الماء فيها إلا قليلاً فلحقهم العطش حتى مات أكثرهم. وكان فيهم ذمي، وكان البحر المالح قريباً منه، فأتى البحر ورفع بصره إلى السماء وقال: إن كنت لا ترضى بديني فإنك تعلم اضطراري، فلا تهلكني. وغرف من ماء البحر فوجده عذباً فشرب حتى روي.

وإن كان ممن لا يعرفه، فهو سبحانه ينعم عليه بمقتضى قوله ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾. وإن كان من المؤمنين فهنا تتسع الدائرة، فإن مقاصد المؤمنين في هذه الدار وما فيها كلّ على حسب همته وحاله من عوام وخصوص، ولذلك قال أهل التحقيق: عدد الطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلائق. معناه: أن لكل واحد منهم طريقاً يخصه، كما أن صفاتهم في حواسهم الظاهرة واحدة، ولكل واحد فيها صفة تخصه، يمتاز بها زيد عن عمرو، وبكر عن خالد. حكمة حكيم.

وإن كان الظن هنا راجعاً إلى ما كلفوا من عبادته، عزّ وجلّ، واتباع رسله وما به وعدتهم الرسل، صلوات الله عليهم، وما به بشّرتهم عن مولاهم من وجوه الخير، على نحو ما تقدم ذكره في الأحاديث المتقدمة، وفي الكتاب والسنة، ومثل ما حدّ لهم في بعض الأشياء من الشقاء من الأمور المهولة والمهلكة بأيسر شيء، مثل ما تقدم في أحاديث الكتاب الذي نحن بسبيله، ومثل إرشادهم إلى التوكل على مولاهم، وقوة الثقة به سبحانه، وما في معناه، فهذا خاص بالمؤمنين، وهم في ذلك كلّه قدر هممهم، وقوة إيمانهم، وحسن تصديقهم، وغلبة ظنهم الجميل بمولاهم الجليل،

---

(١) سورة النساء، من الآية ١٧٣.
(٢) سورة البقرة، من الآية ١٢٦.
(٣) سورة البقرة، من الآية ١٢٦.

والنظر إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[1]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[2]، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[3] ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[4] وقوة عزمهم على حمل النفوس على الحمل بالصدق والتصديق.

ولذلك قال أهل العلم والعمل: من صدق وصدَّق قرُب لا محالة؛ والضعفاء منهم على حالهم، كل منهم على قدر ضعفه وتلوثه وكثرة تأويله، وترجيح العادة على القدرة، ويجعل ذلك بتأويله شرعاً، كل على قدر حاله.

وإذا نظرت إلى ما قدمناه من الكلام تجد كل نوع من هؤلاء قد بيناه ـ والحمد لله ـ بما فيه كفاية لمن نظره، وهدي إلى العمل بحسب الطريق الراجحة منه. ففي بعض هذه الأمور يكون (الظن) بمعنى (العلم) مثل ما يرجع إلى الطاعات والأمر والنهي، فيكون الظن فيها وفيما هو في معناه بمعنى العلم، لأن ذلك من كمال الإيمان.

وما هو منها مثل البشائر، وما جعل لهم من الشفاء من الأمور المخوفة والمهلكة بالأشياء اليسيرة، فذلك وما في معناه راجع إلى أن يكون الظن فيه على بابه. فمتى كان ظنه هناك قوياً وجد ما قيل له وزيادة، ومتى كان ظنه ضعيفاً فبحسب حاله في ذلك يجده.

ومن وقع له بذلك تكذيب فذلك يلحق بالكافرين إلا أن يتوب ويرجع كما قال، جلّ جلاله ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[5] لأن الظالم لنفسه هو السكذب به والشاك فيه، والذي يفعل شيئاً من ذلك على تجربة يعود ذلك كله على صاحبه بالخسارة، وقد بينا ذلك في ما تقدم من الكتاب، وذكرنا في بعض المواضع فعل ابن عباس حين تطلع له الدماميل، ويطليها بالعسل، ويتلو الآية في ذلك، أو كما ورد، وقوله ﷺ في الذي سقى أخاه العسل (صدق الله وكذب بَطْن أخيك)[6] وفعل ابن عمر حين كان يرمد ويكتحل بالعسل أيضاً،

---

(١) سورة النساء، من الآية ٨٧.

(٢) سورة النساء، من الآية ١٢٢.

(٣) سورة التوبة، من الآية ١١١.

(٤) سورة الجاثية، من الآية ٦.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

(٦) أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله ﷺ اسقه عسلاً، فسقاه، ثم جاء فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال له رسول الله ﷺ صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فبرأ.

ويتلو الآية في ذلك أو كما ورد، وما كان من بعض المشايخ في الشّونيز[1]، والكلام عليه في حديثه المختص به من الكتاب، وكذلك كل ما أشرنا إليه هنا قد تقدم الكلام عليه في موضعه من الكتاب بفضل الله.

وبقي في هذا الحديث أن ينظر ما فيه من الإيجاز، لفظة واحدة جاءت جامعة بمعاني الكتاب كله، والسنّة كلها، ومَنْبَهَة على كل الأديان وما عليه تحتوي، لأن كل ما جاءت به الرسل، عليهم الصلاة والسلام، من آدم إلى محمّد، ﷺ، وما أنزلت عليهم من الكتب والصحف، إنما هي لتحقيق حقيقة الإيمان وشروطه، وتبيين ذلك وطرقه، وتبيين طرق الشكوك والظنون السوء، والنهي عنها بأخبار الآخرة وما فيهما. وهذا كله داخل تحت شروط الإيمان، لكن أوردناها منفردة لعظيم ولخفّة ذلك عند بعض السامعين.

وجاءت الرسل، عليهم الصلاة والسلام، بتبيين هذه الدار وغرورها وما فيها، وبالزهد فيها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[2] لكن الله، عزّ وجلّ، بحكمته، يضلّ بذلك من يشاء ـ بحسب ما قدّر عليه من سوء فهمه ـ ويهدي من يشاء بفضله، ولذلك قال تعالى ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾[3] أي: بسببه، لأنه هدي كله، لكن العرب تضيف الشيء إلى الشيء بأدنى ملابسة بينهما.

ولذلك قال ﷺ: (إنما أنا قاسم، والله يعطي من يشاء)[4] أي: أنا قاسم لكم الأمور والأحكام على نحو ما أمرت به، والله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، يعطي ما شاء على نحو ما شاء، فلا يسأل عمّا يفعل وهم يُسألون. وكذلك جميع الرسل، عليهم الصلاة والسلام، فما من لفظة من جميع الكتب كلها أو كلام الرسل كلهم، صلوات الله وسلامه عليهم، إلا وقوله (أنا عند ظن عبدي) قائم معها، مخبر عما أحدثت، فظن سماعها معها، فالله عند ذلك العبد بحسب ما أحدثت، تلك اللفظة عنده.

فانظر إلى هذا الإعجاز العظيم الذي في كلام المولى سبحانه. لفظة واحدة جمعت كل ما ذكرناه من الكتب وكلام الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعلى ما استنبطت العلماء

---

(١) الشونيز: الحبة السوداء، أو ما تسمى ببعض البلدان: حبّة البركة.
(٢) سورة الأعلى، ١٨ و ١٩.
(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٦.
(٤) قطعة من حديث: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين إلخ... أخرجه الشيخان من حديث معاوية رضي الله عنه.

من ذلك مما لاتلحق له عقولنا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

ويدل أيضاً على عظمة الله تعالى وعظم قدرته وعلى جلال صفاته. يؤخذ ذلك من قوله (أنا عند ظن عبدي بي). فإذا كان مع جميع العبيد على كثرتهم مع كل واحد منفرداً بحسب ظنه به في الزمن الفرد، وهذا جارٍ على ممر الدهور والأيام وكذلك الأنفاس، لأن قلب ابن آدم أشد تقلباً من القِدر إذا اجتمعت غلياناً، فكل تقلب من تقلبات قلوب الجميع هو، عزّ وجلّ، معهم على ما يكونون عليه. هذا يدل على أنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2] ولا يدرك بالعقل، ولا يحد بالأذهان ولا يخطر بالأوهام موجود حقاً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

وإذا تأملت معنى ما أشرنا إليه هنا، بتوفيق الله تعالى، تجتمع لك الشريعة والحقيقة، وحسن العقيدة، وصالح الإيمان، وجميع خير الدنيا والآخرة، ويشعرك بكل ما خلف ما ذكرناه. جعلنا الله ممن فهّمه ذلك، وجعله من أهله بفضله لا رب سواه. آمين.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) سورة النساء، من الآية ٨٢.
(٢) سورة الشورى، من الآية ١١.

ـ ٢٩٦ ـ

حديث خطاب الله تعالى لأهل الجنة ورضانه عنهم

عَن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، رضي الله عَنهُ، قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: إنَّ الله سُبحانَهُ وتَعالى يَقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةَ فيقولونَ: لَبَّيكَ ربَّنا وسعديكَ، والخيرُ كُلُّه في يَديكَ. فَيقولُ: هَل رَضيتُم؟ فَيقولون: وما لَنا لا نَرضى يا ربَّنا، وقَد أعطيتَنا ما لَم تُعطِ أحداً مِن خَلقِكَ؟ فَيَقولُ: ألاَ أُعطيكُم أفضَلَ مِن ذلِكَ؟ فَيقولونَ: يا ربَّنا، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذَلِكَ؟ فَيقولُ: أُحِلُّ عَليكُم رِضواني، فَلا أسخَطُ عَليكُم بَعدهُ أبَداً.

❁ ❁ ❁

ظاهر الحديث يدل على أن فضل نعيم الآخرة دوام رضى المولى سبحانه عن عبيده المؤمنين، أهل دار كرامته. والكلام عليه من وجوه:

منها: إثبات كلام الله سبحانه بذاته الجليلة لأهل الجنة. يؤخذ ذلك من قوله (إن الله سبحانه وتعالى يقول) فدل بقوله، سبحانه، أنه، عزّ وجلّ، المخاطِب لهم، ثم بقرينة أخرى وهي جواب أهل الجنة بقولهم: (لبيك ربّنا وسعديك، والخير كله في يديك)، وبقولهم أيضاً: (وما لنا لا نرضى يا ربنا)؟ وبقولهم: (وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك)، وبقوله سبحانه: (ألا أعطيكم أفضل من ذلك)، وبقولهم: (يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك)؟ وبقوله سبحانه: (أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً). فهذه كلها دلائل على أنه، عزّ وجلّ، هو المتكلم معهم بذاته الجليلة.

وفيه دليل على ما تقدم أول الكتاب، من مذهب أهل السنة في كتابه العزيز، أن كلامه القديم الأزلي ميسّر بلغة العرب، وأن النظر في الكيفية في ذلك ممنوع، ولا نقول بالحلول في المُحدَث التي هي الحروف والأصوات، ولا نقول إنه دال عليه وليس بموجود، بل الإيمان بأنه منزَّل حق، ميسَّر باللغة العربية، صِدْق. يشهد لذلك هنا خطاب مولانا جلّ جلاله لأهل الجنة، وكيف يسّر لهم سماع كلامه القديم الأزلي بلغة العرب، لأن الألفاظ التي في الحديث هي على مقتضى اللغة العربية.

وكذلك جاء أن كلام أهل الجنة بلغة العرب، فيَسَّرَ لهم، عزَّ وجلَّ، سماع كلامه القديم القائم بذاته الجليلة لأن الصفة الجليلة لا تفارق الموصوف، فأسمعهم إياه بالنوع الذي هو لغتهم ليفهموا عنه سبحانه ما أراده لهم بفضله، ولا يمكن لأحد أن يتعرض للكيفية. فكما لا يمكن هنا ذلك فكذلك الحكم في كتابه العزيز، لأن هذا كلامه الجليل. فالحجة لأهل السنة والحمد لله قائمة.

وفيه دليل على إضافة المنزل لساكنه، وإن لم يكن الأصل له. يؤخذ ذلك من قوله سبحانه (يا أهل الجنة)، والجنة له، عزّ وجلّ، في الحقيقة.

وهنا بحث وهو أن يقال: لم ذكر، جلّ جلاله، لهم دوام رضاه بعد استقرارهم في الجنة، ولم يكن ذلك عند أول دخولهم؟

فالجواب ـ والله الموفق ـ أنه، جلّ جلاله، لو أخبرهم برضاه أولاً قبل سكناهم والتمتع بما هنالك لكان ذلك إخباراً على ما تقدم عندهم من علم اليقين، وعين اليقين أبلغ. فلما أن حصل لهم عين اليقين مما رأوا فيها مما لا يقدر أحد منّا أن يذكره بعقل ولا نقل ولا فهم ولا دليل ـ أعني حقيقة تلك الأعيان ـ أخبرهم بذلك، وكفى على ذلك دليلاً قوله عزّ وجلّ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1] وقول مولانا سبحانه لما وصف فرش الجنة قال: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾[2] لأنه ليس في هذه الدار ما يشبه الوجوه.

ولما كانت العادة عند أهل هذه الدار أن بين بطائن الفرش ووجوهها بوناً عظيماً عبّر لهم أن البطائن هناك من إستبرق، إذ هو أعظم الملبوسات في هذه الدار، ولو كان عندنا شيء أرفع منه لشبه به. فدلّ على عظم قدر الوجوه وحقيقة ذواتها، لأنا لا نعرف كيف صفتها. فلما عرفوا ما هناك عياناً أخبرهم بما منَّ عليهم بفضله من رضاه عليهم، ليقدروا للنعمة بعض قدرها، لأن حقيقة قدرها لا يمكن معرفته، لأن ما لا آخِرَ له كيف يعرف له قدر؟ هذا من وجه واحد، وهو طريق التحديد، لأنا لا نعرف قدر الأشياء إلا إذا كانت محدودة.

وأما من الجهة الأخرى وهي حقيقة رضاه فلا نقدر على معرفته ولا نشبهه، غير أنْ بالأثر الدال عليه نعرف أنه، عزّ وجلّ، عظيم في ذاته الجليلة بلا تكييف، فجعل حسن الدار التي هي من أثر قدرته سبحانه وتعالى دالاً على عظمة فضله وجلاله. جعلنا الله بحرمته من أهله في الدارين بلا محنة فإنه لا رب سواه.

---

(١) سورة السجدة، من الآية ١٧.
(٢) سورة الرحمن، من الآية ٥٤.

ويترتب على هذا من الحكمة ألاّ يخاطب أحد بشيء حتى يكون عنده ما يستدل عليه أو على بعضه. ولذلك قال علي، عليه السلام (خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله ورسوله)؟ أي على قدر ما يفهمون. وكذلك ينبغي أن يكون الشخص في نفسه لا يأخذ من الأمور إلا قدر ما يحمله عقله.

وفيه دليل على أنه ليس في الآخرة دار إلا الجنة أو النار. يؤخذ ذلك من قولهم (وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك)، وقد جاء هذا عنه ﷺ بقوله (ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار) أو كما قال عليه السلام.

وفيه دليل على أن من لم يعرف حقيقة ما خوطب به فإنه يسأل بأدب. يؤخذ ذلك من قولهم: (وأي شيء أفضل من ذلك)؟ فلما لم يعلموا في تلك الدار أفضل مما هم فيه استفهموا عن هذا الشيء الذي لا يعلمونه.

وفيه دليل على أن لفظ الآية دال على انقطاع الشيء. يؤخذ ذلك من قوله عزّ وجلّ: (لا أسخط عليكم بعده أبداً). فلو لم يكن هذا دليلاً على عدم الانقطاع ما كانوا يخبرون أنه أفضل مما هم فيه.

وفيه دليل على أن طبع البشرية إنما تنظر لوقتها. يؤخذ ذلك من فرح أهل الجنة بما هم فيه، ونسوا ما كابدوا من أهوال القيامة قبل ذلك.

وفيه دليل على أن الخير كله إنما هو في رضى المولى سبحانه وتعالى، وأن ما دونه من النعيم على اختلاف أنواعه في كلا الدارين إنما هو من أثر ذلك الخير، وهو النعيم الحقيقي.

وفيه دليل لأهل الطريق العارفين، لأنهم لم يعملوا على نعيم الجنان، وإنما عملوا على طلب رِضى، الرحمن. ومما يدل على ذلك من كلامهم (وهل نعيم في الخلد أشهىٰ من الرضى والقرب)؟

ومن أجل التحقيق لهذه المراجعة العجيبة، طاشت قلوب المحبين وتعاموا عن نعيم الدارين، فضلاً عن نعيم هذه الدار. وللجهل به عميت بصائر أهل الدنيا حتى تفانوا عليها، ولم يحصلوا منها على طائل وحصلوا على صفقة خاسرة، خسروا الدنيا والآخرة. ولتصديق أهل التوفيق بهذه الأخبار الجليلة وجدوا الحلاوة في نفس الطاعة إلى هذا الحال الجليل، وتنسّموا تلك الروائح العطرة بقلوب زكية ونفوس أبية.

وفيه دليل على أن رضى أهل الجنّة كلّ منهم بحاله مع اختلاف منازلهم. يؤخذ ذلك من كون جوابهم الكل على حد واحد بقولهم (وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك).

تنبيه: وعند بسط جناح الرحمة وإظهار خلع القرب والانبساط تساوى الرفيع في النعيم والدنيء. يؤخذ ذلك من قوله سبحانه (يا أهل الجنة) عموماً للرفيع المنزلة وغيره على حد سواء. فاجهد نفسك لعل أن يكون لك في القوم نسبة ما، لعلك تدخل في ضمن الخطاب الجليل، واعلم أن سماع خطاب المولى الجليل بهذا الخير العميم أعلى النعيم.

إشارة وتنبيه: يحق أن يسمى كل ما جاءت به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، خيراً، لأنها أسباب إلى بلوغ هذا الخير العظيم، وكل ما لا يوصل إلى الشيء إلا به فهو منه كقول العلماء (**ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب**).

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.



(خاتمة الكتاب للمؤلف رضي الله عنه)
(بالدعاء له ولمن قرأ كتابه أو اقتناه أو انتفع به)

إلَهي دَعوتُك، وأنتَ الكريم، كما مننتَ علينا بالأسباب المبلِّغة إلى هذا الخير العميم، وعرَّفتنا بدايتَه ونهايَتَه، ورزقتنا التصديقَ بفضلك بما به أخبرتنا، أن تتمَّ بفضلك ما به من التصديق رزقتنا، بأن تعيننا على ما فيه رضاك ودوامه في الدارين علينا بلا محنة.

وأتوسل إليك بجاهِ مَنْ على رسلك اصطفيتَه، والمقام المحمود وعدته، أن تنعم علينا بما فيه رغبتنا، وأن تنعم علينا بالشكر لما به من نعمائك خولتنا، وأن تجعلها رحمة لنا، ولوالدنيا، ولمعلمينا، ولمن تعلم منا، ولمن استمع لما به فتحت علينا، ولمن اقتناه ابتغاء مرضاتك، وتصديقاً لما به عن الصادق الكريم أخبرتنا، وتعرفنا جميعاً في الدارين بركته، وأن تحشرنا بحرمته في زمرة عبادك المتقين، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وتجعل كلما فتح به هذا الكتاب، وفي أصله، على عبدك الفقير المضطر إلى نوالك، وغفرانك، وجودك، وإحسانك، يا عليّ، يا عظيم، يا أرحم الراحمين، خالصاً لوجهك الكريم، مقبولاً بفضلك العميم، قبولاً لا يعقبه خزي ولا تبديل، وتجعل ذلك سنة فيمن قرأه أو سمعه، أو عمل به، أو اقتناه، إنك وليّ حميد.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد، النبيِّ الكريم، وعلى آله وسلّم وشرّف، وكرّم.

ورحم الله من سمعه، أو قرأه فأمّن، وأخلص في التأمين، آمين، آمين. يا رب العالمين. وصلّى الله على محمّد وآله وسلّم. ووالى ورفع.

(دعاء آخر)

اللهم أنت مننت عليَّ بهذا الشرح، وأخبرتني في النوم، أنك أخبرت به آدم عليه السلام قبل موته، فاجعله نوراً في الدنيا والآخرة، واجعله لي حجة، ولا تجعله حجة عليّ، واجعل لي نوره تاماً إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو سمعه أو تملّكه نوراً تاماً إلى يوم القيامة، ولي مثلهم.

ومن كذب به فلا تملكه إياه، واحرمه بركته. ومن ملكه ولم يعمل به، ولا ببعضه، فاجعله عليه حجة، واجعله لنا دليلاً، وإماماً للحق، وقائداً إليه، ومؤنساً لنا في قبورنا، ومنوراً لقلوبنا. وأرنا فضله في الدنيا والآخرة، واجعلنا ممن رحمته به، ولا تجعلنا ممن حرمته، وأعِد علينا بركته في الدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وآله وسلّم تسليماً.

وهذا الدعاء الآخر هو بأمر من مولانا سبحانه في النوم للعبد الفقير بعدما فرغ من الكتاب، وأمره أن يختم به الكتاب، بعدما وعد به بفضله من الخير الجزيل عليه، وعلى من قرأه، وعمل به، أو ببعضه، أو تملكه حسب ما هو مذكور في المرائي[1] التي رأيتها في خير هذا الشرح، وقد جعلت لذلك كتاباً خاصاً به، جعله الله نعمة تامة بمنّه.

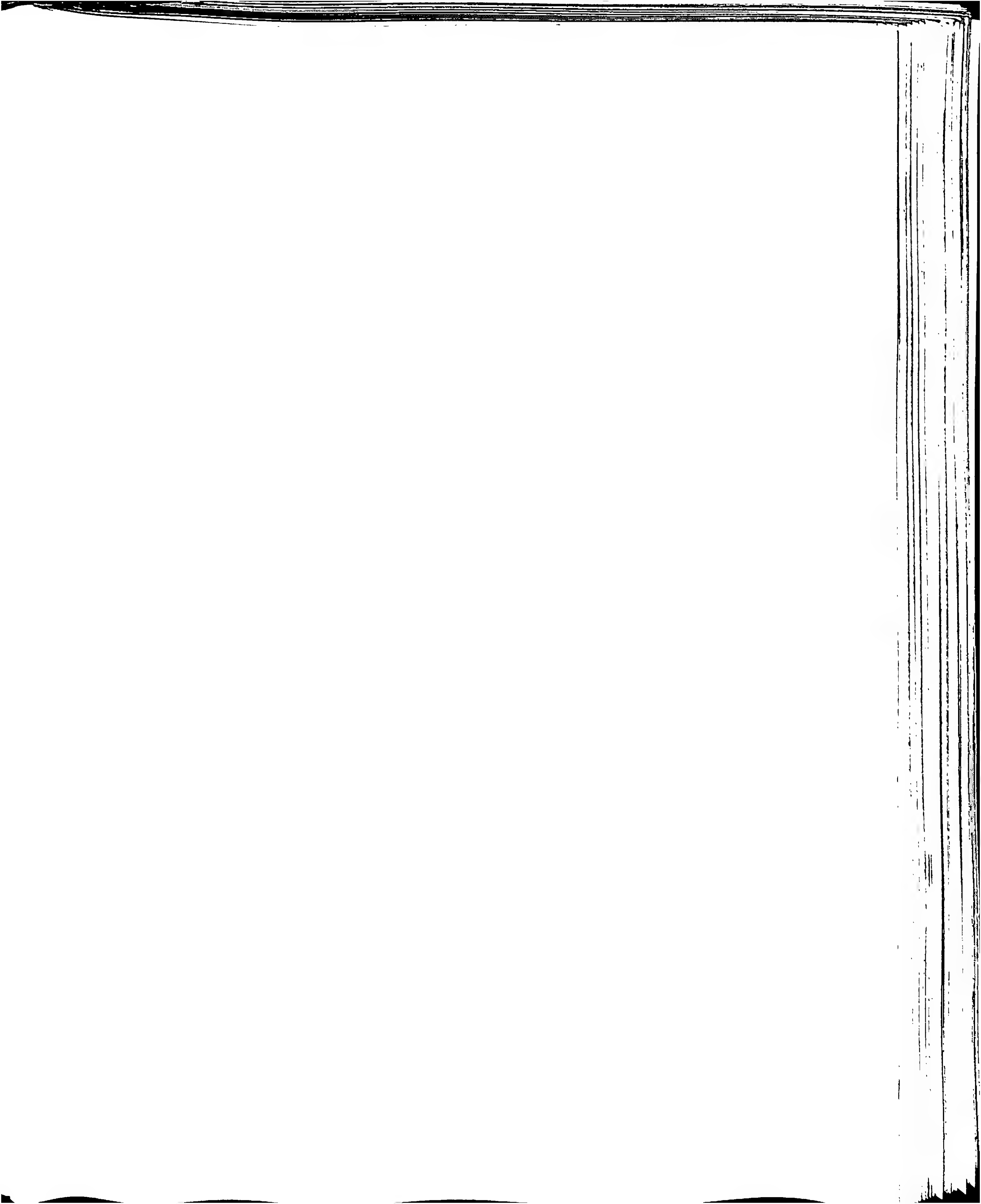
وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

---

(١) كان المصنف رضي الله عنه من الصالحين المخلصين في علمهم وعملهم. ولما ألف هذا الشرح المبارك كان يرى المصطفى ﷺ في النوم يبشره بخير عمله في شرح هذا الكتاب الجليل حديثاً حديثاً، فجمع كل المرائي التي رآها بخصوص هذا الشرح، وجعلها كتاباً سماه، «المرائي الحسان».



المرائي الحِسَان



المرائي الحسان

للإمام الحافظ المحدّث الحجة العالم الورع العارف بربّه أبي محمّد

عبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي

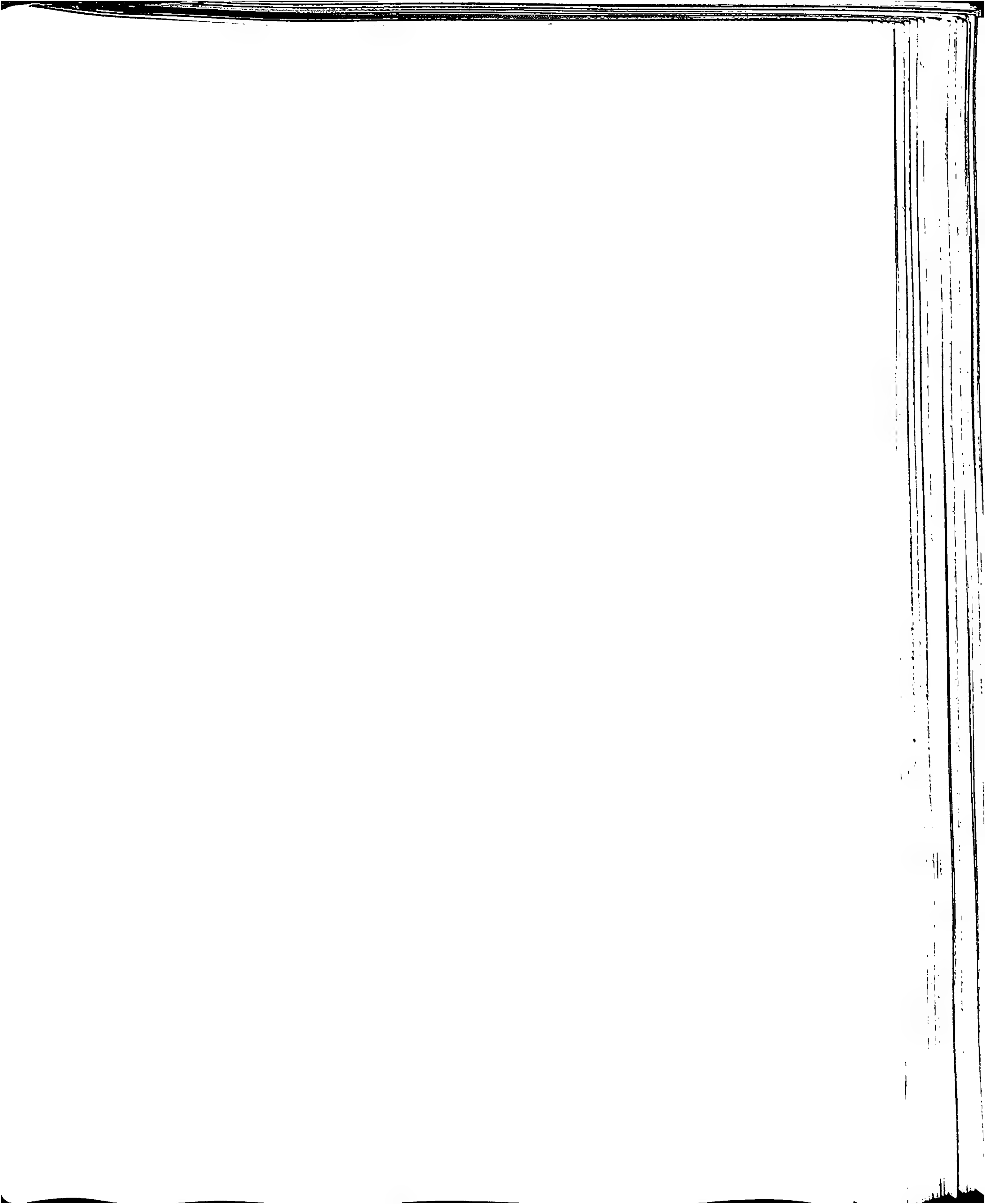
المتوفى سنة ٦٩٥ هجرية

وهي مجموعة الرؤى التي رآها المصنف حين شرح مختصره لصحيح البخاري،

فهي تقاريظ ربّانية ونبوية شريفة لكتابه المسمى

بهجة النفوس

وتحلّيها بمعرفة ما لها وعَليها



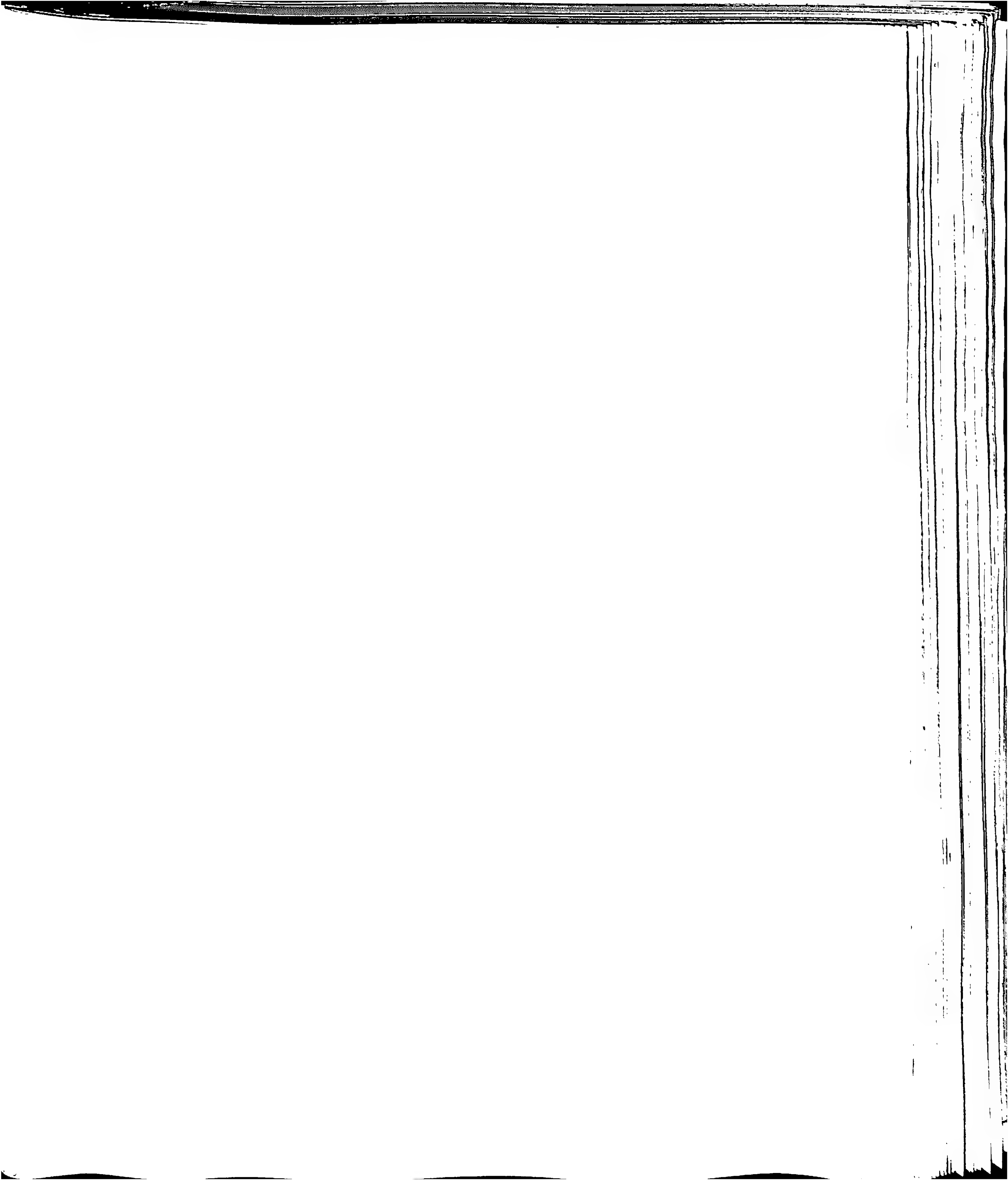
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

قال الشيخ الفقيه، الإمام، الحجّة، العارف بالله تعالى، والمحبّ في رسول الله ﷺ، البركة: أبو محمّد، عبد الله بن سعد بن أبي جمرة، الأزدي، الأندلسي، رحمه الله تعالى، ورضي عنه وأرضاه وجعل الجنة منزله ومثواه، ونفعنا به وبأمثاله، بمنّه وفضله، إنه وليّ حميد:

الحمد لله المبدي بالنعم لخلقه، الباعث محمداً الخيرة من بريّته، تماماً لما به منّ عليهم تفضّلاً، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه، وكَرَّمَ وبَجَّلَ.

وبعد، فهذا كتاب جمعت فيه كل ما روي من المرائي الدالة **على فضل شرح مختصر البخاري**، الذي سميته «**بهجة النفوس وتَحَلّيها**» وما لمن قرأه وعمل به واقتناه من الأجر العظيم والثواب الجزيل، بفضل المولى العظيم الجليل الغفور الرحيم. ولم أذكر منها إلا ما رأيته أنا، أو مَن لا أشك في دينه وصدقه، أو من أخبرني عنه سيّدنا محمّد، ﷺ، في نومي أنه صادق فيما نقله عنه لي من نومه، وبالله أستعين وبه أعتصم، وهو حسبي وكفى.



الرؤيا الأولى

لمّا تكلمت بتوفيق الله في حديث أبي هريرة الذي ذكر فيه «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون» [1] إلى آخر الحديث، ووجهت فيه جملة وجوه من الفقه بديعة، حسب ما هي هناك مذكورة، فكان من جملتها أن قلت بتوفيق الله: إن الصلاة الوسطى هي واحدة من صلاة الليل، وهي الصبح، وواحدة من صلاة النهار وهي صلاة العصر. واستدللت على ذلك بحسب ما هو مذكور في الشرح، فوافقت عليه جماعة من الفقهاء بغير حضرتي، وكل منهم أعجبته تلك الوجوه، وسلّموا فيها إلا واحداً لم يسلّم بأن الصلاة الوسطى كما ذكرت، على ما بلغني. فلمّا سمع إنكارَ ذلك الفقيه بعضُ مَن له تعلّق بالعبد الفقير، عزّ عليه ذلك، ونام ليلته على تلك الحال. فأخبرني، وهو ممن لا أتهمه، أنه رأى في النوم كأن رسول الله ﷺ جالس وعبد الله بن أبي جمرة بين يديه الكريمتين وهو يذكر له التوجيهات التي وجّهها في الحديث. وهو ﷺ وشرّف يستحسنها إلى أن ذكر الصلاة الوسطى، وكيف وجّه فيها التوجيه المذكور قبل، وذكر له الانتقاد الذي انتقده ذلك الشخص المذكور. فاستحسن ﷺ التوجيهَ الذي وجّهه ابن أبي جمرة، بفضل الله، وأنكر على المُنْكِر عليه في ذلك وزيفه. فقلت له حين أخبرني بذلك: كفاني تجويزه ﷺ كفاني.

الرؤيا الثانية

لمّا أنشأت ـ بتوفيق الله ـ خطبة الكتاب [2]، كان في النوم من رأى أني قد قدمت الكتاب بين يدي رسول الله ﷺ، وكأني بين يديه، فقرأ الخطبة والصحابةُ بين يديه، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فأعجبته، وأعطاها بعض الخلفاء. وقال لهم: انظروا، ما قصّر معنا فيما عمل، ولم يزل لا يقصر معنا.

---

(١) الحديث ٣٤.

(٢) انظر ص ٣.

الـــرؤيـــا الثـالثـة

كأن سيّدنا محمّداً ﷺ أخذ بيده قلماً، وزاد في موضع من الخطبة شيئاً[1]، وهو يقول لعبد الله بن أبي جمرة: لا بدّ من هذا ها هنا، أنت لم تجهله ولكن أغفلته، ولا بد منه. فقلت له: وما هو؟ فذكر لي أنه نسيه. ثم قال لي: إن رأيت الكتاب عرفت الموضع. فلما أوقفتُه على الكتاب نظره وعدّ سطوراً ثم قال: بين هذين السطرين. فزاد بعده ذلك الكلام. فتأملت، بفضل الله، ذلك الموضع، فظهر لي أنه لا بد من زيادة فيه يرتفع بها إلباس[2] كان يحتمله ذلك الموضع. فلما زدت هناك ما فتح الله به، وتحرر به ما كنت قصدته أولاً، قال لي: مثل ذلك كانت الزيادة التي زادها هنا صلى الله عليه وسلم.

الـــرؤيـــا الرابعـة

كأن رسول الله ﷺ في منزل ابن أبي جمرة وأصحابه وأزواجه، رضوان الله عن جميعهم، والشرح بين يديه ينظر فيه. ثم إن عبد الله قدّم له، عليه السلام، حديث الإفك[3] فأعجبه، ثم دفعه لأم المؤمنين عائشة، رضي الله تعالى عنها، وقال لها: انظري ما فعل في حقك. وأمرها بالدعاء له، ففعلت. ثم إن رسول الله ﷺ دعا دعاء كثيراً.

الـــرؤيـــا الخامسة

كان عبد الله المذكور رأى رسول الله، ﷺ، في النوم. وكان عبد الله قبل ذلك قد نظر في الشرح مرتين أو ثلاثاً، وما فيها مرة إلا ويجد فيه ما يحتاج إلى الإصلاح فيصلحه. فوقع له أنه لا يتم الصلاح فيه حتى ينظر من الأصحاب من يكون فيه دِين ومعرفة يقابله معه، وهو أيضاً مع ذلك يسأل الله سبحانه أن يمنّ بقبوله، ويجعله خيراً متعدياً. فكان رسول الله ﷺ يقول له: ليس في ذلك الشرح خلل. ثم يأمره أن يزيد في بعض المواضع وجهاً من وجوه الفقه ـ وكان حسناً جداً ـ فوقع في خاطر عبد الله أنه كيف يقول لي: ليس فيه خلل ثم يأمرني بزيادة هذا الوجه؟ فيجاوبه ﷺ على ذلك الخاطر بأن قال له: ليس فيه خلل، وما هذه إلا زيادة كمال لا جبر لخلل، ولو لم يكن لك إلا

---

(١) انظر الخطبة.

(٢) يريد: لَبْسٌ.

(٣) الحديث ١١٩.

حديث الإفك[١] لكان كافياً من المعافاة من النار، ولو لم يكن لك إلا حديث الإسراء[٢] لكان لك كافياً، ولو لم يكن لك إلا حديث ابن الصامت[٣] لكان كافياً. وما من حديث إلا ولك فيه خير لا يقدّر قدره، وستأتيك الزيادة في ذلك من فلان. وسمّى شخصاً لا يشكّ عبد الله في دينه وصدقه.

الرؤيا السادسة

كان يراها ذلك الشخص الذي سمّاه رسول الله ﷺ، في الرؤيا التي قبل، الذي قال في حقه: (وستأتيك الزيادة في ذلك من فلان) قال: كأنه رأى رسول الله ﷺ في منزل ابن أبي جمرة وفيه حسن وجمال، وبعض الأصحاب يتكلم مع رسول الله ﷺ في حديث ابن الصامت[٣].

فبينما هم كذلك إذ طلعت من بينهم أترجة لها كبر عظيم، وحسن كذلك. فقال رسول الله ﷺ: هذا الشرح ليس فيه نقد لمنتقد ولا ردّ بحجة قائمة. وبعض فقهاء هذا الزمان المشتغلين بعلم الكلام والعلوم الفاسدة يقول: لا أسلّم إلا بحجة قائمة. ثم يقول لعبد الله بن أبي جمرة: الناس في هذا الشرح على ثلاثة أقسام:

من صدّق به وعمل به، لا يعلم أحد ما له.

ومن صدق به أو كان عنده، فأنت يوم القيامة وسيلته إلى الله تشفع فيه وتدخله الجنة، ومن لم تعرف منهم أو كان بعدك إلى يوم القيامة فالله يعرّف بينك وبينهم يوم القيامة، وأنت وسيلتهم إلى الله تعالى.

ومن كذّب به، وإن كنت في الدنيا تصحبه، وهو قريب منك، فهو أبعد الناس من الله يوم القيامة ومنك، ولا تناله شفاعتي. فإنك جمعت فيه الإيمان والإسلام وسنتي وسنة أصحابي والتابعين. فمن كذب به كمن كذب بما جئتُ به، ولا ريب.

---

(١) الحديث ١١٩.
(٢) الحديث ١٦٠.
(٣) الحديث ٣.

الـرؤيـا السـابعـة

شممت ليلة رائحة طيبة بعد العشاء، واستمرت حتى دخلت في الفراش، فلم نقدر على النوم لأجلها. فسألت الأولاد: هل تشمّون شيئاً أم[1] لا؟ فقالوا: لا. ثم نام الأولاد، فرأى بعضهم في النوم كأن بيتهم فيه حسن واتساع، وهو مدوّر بكراسٍ لها حُسْن كثير، والنبيّ ﷺ جالس على كرسي في وسطهم، والخلفاء حوله، وباقي الكراسي عليها الصحابة والملائكة.

فذكر للنبيّ ﷺ تلك الرائحة التي شم أبوه، فقال عليه السلام: تلك الرائحة كانت مِنَّا حين نزولنا عليكم قبل العِشاء، وأنتم تتكلمون في مسألة كذا وكذا. فذكر المسألة التي كانوا يتحدثون فيها، ثم دخل علينا أصحابكم الأموات بالطيب. فأول من دخل علينا المجد، وهو أكثرهم طيباً، وفتح الذي حج مع أبيك، والسنهودي، وابن الوافدة، والسنجاري، والمجد معالي، فسلموا، وطلبوا الدعاء وانصرفوا. فذلك الذي شم أبوك.

ثم أتت الملائكة بأطباق الطعام، فتلك الرائحة الباقية. ثم بقينا نحن حتى صلّى أبوك العشاء وصلينا معه، وكنت أنا عن يمينه، وحين دعا بعد صلاته أمّنت أنا وهؤلاء على دعائه، وقد استجيب دعاؤه، ولو دعا بأكثر لأجيب.

ثم دخل المجد وعليه حلّة حسنة، ثم دخل الأصحاب الأحياء بعده. فقال النبيّ ﷺ: كيف حالك يا حسن؟ فقال: بخير ببركتك. فقال: بل بالعمل واتباع سنتي.

ثم أمر النبيّ ﷺ الملائكة أن يقوموا فيسلموا على أصحاب ابن أبي جمرة، ففعلوا.

ثم أمر، عليه السلام، لأصحاب ابن أبي جمرة أن يخلع كل واحد منهم على المجد ثوباً ففعلوا، إلا محمّداً الفاسي، فإنه خلع عليه ثوبين.

فأخذ المجد تلك الأثواب كلها، فخرج بها فغاب ساعة، ثم أعادها وقال: خذوا عني خلعكم، قد أخذت منها ما احتجت، وهي تثقل عليّ، ولا أريد منكم إلا أن تعطوني من ماء ذلك الشرح، فإني لم أر في أعمالي كلها والعلوم ماء نفعني مثله. وكان يعني طلب ذلك من أربعة وهم: ابن أبي جمرة، وأبو عثمان، ومحمّد الفاسي، والحموي. فقالوا: كيف يكون للشرح ماء؟ فقال النبيّ ﷺ: معنى الماء: العلم. فقال ابن أبي جمرة: فكيف نعطيك العلم وأنت في دار البقاء؟ فقال النبيّ ﷺ: الفقراء طريقتهم الفتوة. وبيّن كيفية إعطائه العلم وهو في دار البقاء. فقال: يقرأ أحدكم

---

(١) كذا، والصواب: أو.

الحديث أو الحديثين بحسب ما سهل عليه، ومن لم يحفظ الحديث يعيّن بنيّته الحديث الفلاني ثم يقول: اللهم إن ثوابه صدقة على فلان، خالصاً لوجهك، وتنفيذ الوصية. فكان المجد يقول للنبيّ ﷺ: ما أريد منهم إلا أن يكملوا لي الذي بقي لي من الشرح، فقال النبيّ ﷺ: كيفية العمل في هذا أن ينسخ له باقيه ويوقف عليه.

فقال المجد: أول ما قَدِمت على الحق سأل سبحانه جماعتي: من هذا؟ فقالوا: هو من أصحاب ابن أبي جمرة. فقال جلّ جلاله: مرحباً بالسادس من أصحاب ابن أبي جمرة، وهو أفضلهم. فقلت: يا رب، بأي عمل فضلتهم؟ فقال جلّ جلاله: كانوا يصحبونه ويحبونه، ولم يقدروا على طريقته، وأنت مع صحبتك له ومحبتك له كنت على طريقته، فبذلك فضلتهم. فقلت: يا مولاي أنت علاّم الغيوب، فكيف تسأل: من هذا؟ فقال: يا حسن، تعرف من هم ومن أصحاب من هم حتى أعرفهم بمنزلتهم عندي.

فأول ما قدّمت من عملي الشرح. فقلت: يا رب، وأنت أعلم، هذا كلام ابن أبي جمرة. فقال جلّ جلاله: أنا عرفته له، وأنا كتبته له في اللوح المحفوظ قبل أن خلقت الخلقَ، وأنه ليس له في الدنيا ثانٍ، وأنه مؤيَّد إلى يوم القيامة، وأنه من صدَّق به، أو بحديث واحد منه رحمته، ومَن رحمته لا يحتاج إلى شيء. وأما من عمل به فلا يعلم ما له إلا أنا الذي مننت به عليه. وأقل ما أعطيه أنني أكتبه في عِلِيّين، والزيادة على ذلك لا نهاية لها، أو الخطر لمن كذَّب به.

وأن الثلاثة أحاديث وهي: حديث الإفك وحديث ابن الصامت وحديث المعراج[1]، مَنْ صدّق بواحد منها كان كمن قام سنة وصامها، وأقل ما أعطيه أني أحل عليه الرحمة، وأكتبه في حضرتي.

وإذا قَدِم ابن أبي جمرة عليَّ يرى أن ليس في عمله أفضل منه، وأني أخبرت به آدمَ قبل موته[2].

فقلت: يا مولاي، كيف أخبرت به آدم؟ فقال جلّ جلاله: أخبرته بأنه يكون من ذريته من أمة محمّد في آخر الزمان شخص يقال له: عبد الله بن أبي جمرة، أوتيه علماً من عندي، لم أعطه أحداً غيره.

والويل لمن كذب به من هؤلاء. فقلت: يا رب، ومن هم؟ فقال: المنتهكون لحرمة نبيي،

---

(١) أرقامها: ١١٩، ٣، ١٦٠.
(٢) كذا.

وأنا لا أمهلهم. فقلت: يا رب، أليس قد أمهلتهم ثلاث سنين؟ فقال سبحانه وتعالى: لم يكن إمهالي لهم إلا لحكمة، ولو شئتُ عرفتك بها، ولكن لا أعرفك.

والنبيّ ﷺ في كل كلمة يقولها المجد يقول: اسمعوا خطاب الحق سبحانه لكم. فقال بعض الأصحاب للنبيّ ﷺ: لم لا كنت أنت الذي تخبرنا بهذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إنما فعل ذلك لكي تعرفوا قدر ما لقي من صحبتكم.

فقال أبو عثمان لحسن: لم لا تطلب هذا الذي طلبت لنا من أبويك؟ فقال: هم لم يعطوني شيئاً، ويا ليتهم يخلّصون أنفسهم، وأنا أشفع فيهم وفي أهلي يوم القيامة، ليعلموا قدر العناية الربانية. وأبشر يا أبا عثمان فإن الله قد استجاب دعاءك في أن يحفظ الله ابن أبي جمرة وأصحابه كما حفظ رسول الله ﷺ وأصحابه.

فقال النبيّ ﷺ لعبد الله: إن الله سبحانه وتعالى قد اختار لك أصحابك قبل الخلق، كما اختار لي أصحابي قبل الخلق[1].

ثم قال عليه الصلاة والسلام: فيجب لي على كل واحد منكم شكرانة. فقالوا: كيف يكون لك شكرانة وأنت في دار البقاء؟ فقال: لا أريد منكم شكرانة حسياً، وإنما أريد منكم شكراً معنوياً، وهو الزيادة في العمل، ودوام الشكر لله سبحانه وتعالى، فإن الوقت يحتاج لذلك.

الرؤيا الثامنة

رئي كأن القيامة قد قامت، وحشر الناس في المحشر، وعبد الله في المحشر، والحق سبحانه قد قال: كيف حالك يا عبد الله بن أبي جمرة؟ فقال عبد الله: في نعمتك التي لم تحوجني إلى أحد غيرك. فكان الحق يعرض عليه أعماله، والشرح من جملتها، وهو أفضلها. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: كيف رأيت أعمالك، وكيف فضل الشرح عليها؟ فقال عبد الله: ولم لا يكون هذا مخفيًا عن الناس؟ فيقول سبحانه: لا خفاء اليوم. اليوم يفتخر أهل الفخر.

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يقول: اليوم أزين المحشر بالأنبياء والرسل وبالشهداء وبك وبأصحابك. ثم يوضع في المحشر كراسيّ من اللؤلؤ والذهب والفضة، ثم يؤتى بالأنبياء والرسل فيجلسون على تلك الكراسي، ويجعل بإزاء كل نبي الخيرة من أمته، ويجلس سيّدنا محمّد ﷺ على

(١) كذا.

كرسي ليس في الكراسي مثله في الحسن، ويجعل على يمينه الصحابة والخلفاء، وعن يساره ابن أبي جمرة وأصحابه.

ثم إن المجد يأخذ أبويه وجميع أهله وعبدهم الذي مات، والحق سبحانه وتعالى يقول له: أنت اليوم مالُك لأبويك وأهلك. فيجوز بجميعهم الصراط.

ثم إن الله سبحانه يفرغ من الفصل بين العباد، وتبقى الأنبياء والرسل على ما كانوا عليه، فيقول الحق سبحانه: اشهدوا يا جميع أنبيائي ورسلي أن ما في أمة محمّد بعد أصحابه أفضل من ابن أبي جمرة. ثم يقول سبحانه: شهدتم؟ فيقولون: شهدنا. فيقول عبد الله: يا مولاي، بم استوجبت ذلك؟ فيقول الحق سبحانه: بثلاث[1] خصال مننت بها عليك، وهي: اتباع السنة، وأنك لا تخاف سواي، وأن قلبك لا يتعلق بغيري، والرابعة جلوسك في منزلك ومعاداتك الخلق في حقي وحق رسلي، وقليل من يفعلها.

ثم إن الحق سبحانه يقول: تَمَنَّ عليَّ، واطلب مني عند حضورك بين يدي ما شئت أعطك. فيقول عبد الله: كيف لي أن أكون بين يديك وهذه القيامة؟ فيقول الحق سبحانه: ليس هو يوم القيامة حقيقة، وإنما هو وقت تجلّي لك، وإفضالي عليك، وإظهار أعمالك، وقت حكمي وفصلي بينك وبين هؤلاء بعدلي.

وأما حضورك بين يدي ألست إذا كنت في الصلاة أنت بين يديّ وعند اضطرارك[2] فإني قلت في كتابي ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[3] وقلت: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[4] فتمنّ عليّ. فيقول عبد الله: أسألك النصر. وأن ترزقني العمل بهذا الشرح، وأن تحفظه لي، وأن تيسر لي في مقابلته. فيقول الحق سبحانه: وعزتي وجلالي (لأنصرنّك نصراً عزيزاً) وأما حفظه فَلأُحَفِّظَنَّكَ إياه كما حفّظتك الكتاب العزيز، وأما العمل به فلا تشك أني مننت به عليك وأنا أرزقك العمل به. وأما مقابلته: ألم يأتك على لسان نبيّي: أنه ليس فيه خلل؟ فيقول عبد الله: أتوقع ذلك فيه من طريق الهجاء ومن طريق العربية. فيقول سبحانه: ليس فيه خلل لا من طريق الهجاء ولا من طريق العربية، ولا فيه نقد لمنتقد[5].

---

(١) لعلّه يريد: بأربع خصال.
(٢) العبارة مضطربة.
(٣) سورة النمل، من الآية ٦٢.
(٤) سورة البقرة، من الآية ١٨٦.
(٥) كذا.

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يقول للنبيّ ﷺ: ألم تخبره بذلك؟ فيقول: بلى. فيقول الحق سبحانه: أبعد ذلك يبقى عليك فيه شك؟ فيقول عبد الله: أرغب منك أن يكون لي مؤيداً إلى يوم القيامة، ويظهر نوره. فيقول الحق سبحانه: قد مننت به عليك مكتوباً في اللوح المحفوظ[١]، وأنه مؤيد إلى يوم القيامة.

واعلَمْ أنه من كان عنده، أو واحد من الثلاثة الأحاديث، وهي: حديث الإفك، وحديث ابن الصامت، وحديث المعراج[٢]، فإن الملائكة تدخل كل يوم منزله ما لم تكن فيه بدعة، فتسلّم عليه، وتتبرك به. واعلم أني لا أجعله في قلب أحد ويبقى فيه من العلوم الفاسدة شيء.

ثم إن عبد الله يرغب من الحق سبحانه أن يخفيه عن الناس. فيقول الحق سبحانه: كيف تطلب ذلك وأنا قد أشهرتك في الدنيا، وأخبرت بك آدم[١]، لأنت في الدنيا والآخرة أشهر من المصباح في الظلام، لكن اطلب الاستعانة مني، فإني أعينك.

ثم إن عبد الله يقول: أخاف على الشرح من الضياع، وأخاف من هؤلاء أن يبدلوه. فيقول الحق سبحانه: ما خطر لك من تحبيسه[٣] فإنه حسن، ولا يدري أحد ما لك من الخير فيه، فحبسك هذه النسخة التي خطر لك أن تحبسها مع النسخة التي عندك حبستهما معاً، فإنه أحفظ لهما، وهو لا يحل بيعه.

ثم إن الحق سبحانه يقول لمحمّد الفاسي أن يحبس نسخته أيضاً. فيقول محمّد: يا رب، الشرح عندي، وأخاف ألا أعمل به، فيكون عليَّ حجة. فيقول الحق سبحانه: استعن بي وأنا أعينك.

ثم يأمر سبحانه أبا عثمان أن يحرص على تحصيل حديث الإفك وحديث المعراج فيحبسهما مع حديث ابن الصامت الذي عنده.

وأما الحموي فلا يحبس، فإن له عقباً.

ثم بعد ذلك انفصلنا من المحشر مع سيّدنا ﷺ ودخلنا معه الجنان، ثم بعد هذا كأن عبد الله في منزله مع سيّدنا محمّد ﷺ وبعض الأصحاب، فإذا بالمجد دخل عليهم وهو يرغب في تعجيل

---

(١) كذا.

(٢) أرقامها: ١١٩، ٣، ١٦٠.

(٣) تحبيسه: وقفه وجعله حَبْساً على الخير. ووزارة الأوقاف تسمى في الأندلس والشمال الإفريقي: وزارة الأحباس.

نسخ الشرح، فيقول له عبد الله: لو حرصت عليه مثل هذا في حياتك كنت قد حصلته. فقال له محمّد: ما كنت أعرف قدره، والآن قد عرفت قدره، فما أريد أن يفوتني. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله: سمعت خطاب الحق لك؟ قال: نعم. قال عليه السلام: هذا دليل على صدق ما قلت لك أول البارحة[١].

الرؤيا التاسعة

رئي أن النبيّ ﷺ في منزل عبد الله، وعبد الله وبنوه جلوس بين يديه، وإذا بسقف البيت إما زال أو انفرج، وإذا بخطاب الحق سبحانه وهو يقول لهم: لِمَ تركتم الرؤيا البارحة، يعني الرؤيا التي تقدم ذكرها، عند قولك: (أخاف على الشرح من هؤلاء أن يبدلوه)؟ فقلت لك: وكيف يقدرون على ذلك وأنا قد طبعت على قلوبهم، وجعلت على آذانهم وأبصارهم غشاوة، فكيف يقدرون على تبديله[٢]؟

ثم إن الحق سبحانه يأمر عبد الله أن يزيد آخر الشرح هذا الدعاء[٣]:

اللهم أنت قد مننتَ عليَّ بهذا الشرح، وأخبرتَني في النوم أنك أخبرت به آدم قبل موته، فاجعله لي نوراً في الدنيا والآخرة، واجعله لي حجة، ولا تجعله عليَّ حجة، واجعله لي نوراً تاماً إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو سمعه أو تملّكه نوراً تامًّا إلى يوم القيامة، ولي مثلهم. ومن كذّب به فلا تملّكه إياه، واحرمه بركته. ومَن مَلَكه ولم يعمل به ولا ببعضه فاجعله عليه حجة. واجعله لنا دليلاً وإماماً للحق، وقائداً إليه، ومنوّراً لقلوبنا، ومؤنساً لنا في قبورنا، وأرنا فضله في الدنيا والآخرة، واجعلنا ممن رحمته به، ولا تجعلنا ممن حرمته به، وأعد علينا بركته في الدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله.

فوقع له توهم وهو أنه قال: كيف أسمع خطاب الحق سبحانه في الدنيا؟ فسَمْع الخطاب من قِبَل الحق سبحانه هذا آخر الليل هو وقت تجلٍّ له، فإذا استيقظت تجده يصلي. فوقع له أيضاً توقف. وهو أن قال: كيف أخبره بهذا، ولعلّه لا يصدقني[٤]؟ فالتفت النبيّ ﷺ وقال له: بَلّغْ كلَّ ما قيل لك، فإن الوقت محتاج إليه، ولا يحل لك كتمه، فإنه إن لم تخبر به ذهبت الفائدة التي أردنا.

---

(١) كذا. ورسول الله ﷺ لا يحتاج إلى دليل على صدقه.

(٢) لم يرد هذا القول في الرؤيا السابقة.

(٣) يريد بقوله: (آخر الشرح): شرح أحاديث (جمع النهاية).

(٤) كذا.

ثم قال ﷺ لعبد الله: ما وقع لك من أن تكتب هذه المراني التي تتعلق بهذا الشرح فهو حسن، وهو مما يرغب فيه، ويعلم به قدره.

فاستيقظ الولد، فوجد أباه يصلي، كما قيل له.

الرؤيا العاشرة

رئي أن رسول الله ﷺ دخل منزل عبد الله، وكان في يده ﷺ كتاب في غاية الحسن، فقعد ﷺ على وسادة، ثم قال لعبد الله: تعال اسمع كتاب الحق سبحانه إليك، ويقرأه عليه، وفيه من أنواع الخير ما لا يليق إلا بكرم الربوبية وجلالها، وكان فيه بيان في فضل هذا الشرح. فكان، جلّ جلاله، مخبراً فيه أنه ليس في هذا الشرح خير من (حديث ابن الصامت)، وبعده (حديث الإسراء)، وبعده (حديث الإفك) وبعده (حديث بدء الوحي)[1]. وأن ما ظهر لك فيه من التوجيهات كلها حسنة.

وتعلم أن فلاناً، وسمّاه باسمه المعروف به، هو الذي اختصر (حديث ابن الصامت)، وما كان قصده إلا أن يوقع فيه الخلل، فيعيبه الناس باختصاره، وقصد بذلك الإشمات. وما قدرت أنا بإظهاره لا يقدر هو ولا غيره على زواله، وإنه قد اشتهر شرقاً وغرباً، وعلى قدر الشهرة فيه يكون لك الأجر، ولمحمّد الفاسي الذي كان السبب فيه.

وذلك الشخص خطر له أن يطلب (حديث الإسراء) ويعمل فيه مثل ما عمل في (حديث ابن الصامت). فإذا جاءك يطلبه، فلا تعطه إياه، وقل لمحمّد الفاسي يعظه أن يرجع عما عمل في حديث ابن الصامت، ويقول له: ذلك الذي عملت لا يحل لك، فإن ذلك خير من الله مجرىً على لسان ابن أبي جمرة. فإن رجع وإلا نفذ فيه الدعاء الذي أمرتك أن تجعله في آخر الشرح. ومن أجل هذا وغيره أمرتك بذلك الدعاء.

فقال عبد الله: ولم ذكر (حديث الوحي) في هذه المرة ولم يذكر قبل؟ قيل له: من أجل شخص في الشام انتقد فيه موضعاً واحداً، وليس فيه نقد لمنتقد.

الرؤيا الحادية عشرة

رئي أن رسول الله ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه أزواجه، صلوات الله عليهم

---

(١) أرقامها بالترتيب: ٣، ١٦٠، ١١٩، ١.

أجمعين. وكان بعبد الله وببعض الأولاد تشويش، فيخبرهم أنه لا بأس عليهم، ويخبرهم بسبب ذلك التشويش ويداويه.

ثم يُخرِج لعبد الله بن أبي جمرة ماء في غاية الحسن والصفاء والحلاوة ومسكاً كثيراً وعنبراً، ويقول له: اشرب من هذا الماء. فيشرب عبد الله شرباً ذريعاً، وجَدَ له طعماً عجيباً. فيقول ﷺ: كيف وجدت طيبه؟ فيخبره بحسن ما وجد فيه. فيقول ﷺ: هذا الماء والمسك والعنبر هو من ذلك الشرح.

ثم إن النبيّ ﷺ يدعو لعبد الله دعاء حسناً، ويأمر عائشة، رضي الله عنها، بالدعاء له، ويقول لها: ادعي له، فإن أحداً ما عمل في حقك ما فعل هو، فتدعو له، ثم تقول لرسول الله ﷺ: أراك تفعل معه ما لم تفعل مع غيره؟ فيقول النبيّ ﷺ: لو فعل أحد ما فعل هو لفعلت معه ما فعلت معه، لأنه فعل معي مثل ما فعل معك[1]، حين تكلم في (حديث هجر الرجل) الذي أخذ فيه الناس، وقالوا له ما لا يليق. وبيّن هو فيه ما هو الحق.

فاستيقظ عبد الله وبنوه، وما بهم من ذلك التشويش شيء.

الـرؤيـا الثانية عشرة
في المصطفى والحسن من شرح الأحاديث

رئي أن سيّدنا محمّداً ﷺ في دار عبد الله بن أبي جمرة وبعضَ الأصحاب، وإذ بالمجد قد دخل ويقول لمحمّد: أبطأتَ عليَّ بالنسخ، ثم يسوق له وَرِقاً وفضة ويقول له: يا أخي، ما أطلب منك شيئاً باطلاً، هذه الفضة وهذا الوَرِق، فيأخذ الوَرِق. وقال: الفضة ما نأخذها، فإني ما دخلت على عِوَض.

وكان المجد يقول لمحمّد: ليلةَ زرتَ قبري دعوتَ بأربع دعوات، وقد توقف قضاؤها حتى تبتدىء بالنسخ. فأول يوم تبتدىء في النسخ تُقضى لك. ثم يلتفت لعبد الله ويقول: إن الله اصطفى من هذا الشرح أربعة أحاديث: حديث ابن الصامت، وحديث الإسراء، وحديث الإفك، وحديث بدء الوحي. وكل ما قيل من التوجيهات كلها مصطفاة. ثم يذكر الأحاديث حديثاً حديثاً فما هو مصطفى فيها. فيقول: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به من قوله كذا إلى قوله كذا، وباقي ما قيل فيه حسن.

---

(١) في التعبير ضعف وركاكة. وحاشا لكلام النبوة أن يكون بهذا المستوى.

وبدأ بتلك الأحاديث من أولها، وساق الكلام فيها نسقاً متصلاً.

فأول الحديث (حلاوة الإيمان)[1]: ما قيل فيه في الشرح من أوله إلى قوله (مما سواهما) فكله مصطفى، وما قيل في باقي الحديث كله حسن.

حديث (إذا التقى المسلمان بسيفيهما)[2]: المصطفى منه: ما شرح به قوله عليه السلام (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)، وباقي ما قيل في شرح الحديث كله حسن.

حديث (ليلة القدر)[3]: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به معنى ليلة القدر، وباقي ما قيل فيه كله حسن.

حديث (إن الدِّينَ يُسْر)[4]: المصطفى منه ما شرح به قوله عليه السلام (إن الدين يُسْر ولن يُشَادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه)، وباقي ما شرح به باقي الحديث كله حسن.

حديث (وفد عبد القيس)[5]: المصطفى من الكلام عليه ما شرح به من أوله إلى قوله (هذا الحي من كِفَاء مضر)، وباقي ما شرح به في الحديث كله حسن.

حديث (إذا أنفق الرجل على أهله)[6]: كل ما قيل في جميعه كله مصطفى.

حديث (مَن يُرِد الله به خيراً)[7] وحديث (مَن سلَكَ طريقاً يطلب به علماً)[8] وحديث (من يُرِدِ الله به خيرا يُفَقِّهْه في الدِّين)[9]: جميع ما قيل فيها كله مصطفى.

حديث (فتنة القبر)[10]: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به من قوله (ما عِلْمُك بهذا الرجل؟) إلى قوله (قد علمنا إنْ كنتَ لَموقناً به)، وباقي ما قيل في باقيه كله حسن.

---

(١) رقمه ٢.
(٢) رقمه ٤.
(٣) رقمه ٥.
(٤) رقمه ٦.
(٥) رقمه ٧.
(٦) رقمه ٨.
(٧) رقمه ٩.
(٨) رقمه ١٠.
(٩) رقمه ١١.
(١٠) رقمه ١٢.

حديث (مَن أسعَدُ الناسِ بشفاعتك يومَ القيامة)[1]: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به أوله وآخره، وباقي ما قيل في الحديث كله حسن.

حديث (إن الله لا يَـقبَض العلمَ انتزاعاً)[2]: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به من قوله (حتى إذا لم يَبق عالِمٌ) إلى آخره، وباقي ما قيل في باقيهِ كله حسن.

حديث (كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه)[3]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (إن أحدنا يقاتل غضباً)[4]: المصطفى منه ما شرح به من قوله (ما رفع إليه رأسه) إلى آخره، وباقي ما قيل في باقيهِ كله حسن.

حديث (يخيل إليه أنه يجد الشيءَ في الصلاة)[5]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (إذا بال أحدكم)[6]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (رأى كلباً يأكل الثرى)[7]: وحديث (إذا نَعَس أحدكم)[8] وحديث (غسل المنيّ)[9] وحديث (كانت إحدانا تحيض)[10] وحديث (سؤال المرأة عن الغُسل من الحيض)[11] وحديث (وكّلَ الله بالرَّحِم مَلَكاً)[12] وحديث (صلَّيَا في السفينة)[13] وحديث (يضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر)[14]: كل ما قيل في جميعها مصطفى.

حديث (رأى نخامة في المسجد)[15]: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به من أوله إلى قوله (ربُّـه بينه وبين القِبلة)، وباقي ما قيل في باقيـهِ كله حسن.

---

(١) رقمه ١٣.
(٢) رقمه ١٤.
(٣) رقمه ١٥.
(٤) رقمه ١٦.
(٥) رقمه ١٧.
(٦) رقمه ١٨.
(٧) رقمه ١٩.
(٨) رقمه ٢٠.
(٩) رقمه ٢١.
(١٠) رقمه ٢٢.
(١١) رقمه ٢٣.
(١٢) رقمه ٢٤.
(١٣) رقمه ٢٥.
(١٤) رقمه ٢٦.
(١٥) رقمه ٢٧

حديث (كان يحب التيامن في شأنه كله)[1] وحديث (إذا قدم من سفر)[2] وحديث (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه)[3] وحديث (صلى بنا إحدى صلاتي العشيّ)[4] وحديث (إذا صلى أحدكم إلى شيء)[5] وحديث (فتنة الرجل في أهله)[6] وحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة)[7] وحديث (من نسي صلاة)[8]: كل ما قيل في جميعها كلها مصطفى.

حديث (أراك تحب الغنم والبادية)[9]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (ارفع صوتك) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (سماع النداء والصف الأول)[10]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (بينما نحن نصلي)[11]: المصطفى منه ما شرح به قوله (لا تفعلوا) إلى آخر الحديث، وجميع ما قيل في باقيه كله حسن.

حديث (إذا أقيمت الصلاة)[12] وحديث (أقيمت الصلاة فسوّى الناس صفوفهم)[13] وحديث (سبعة يظلهم الله)[14] وحديث (إذا وُضِع العَشاء)[15] وحديث (ما صليت وراء إمام قطُّ)[16]: كل ما قيل فيها جميعها مصطفى.

حديث (اتخذ حجرة من حصير)[17]: المصطفى منه ما شرح به قوله (قد عرفت الذي رأيت من صنيعكم) إلى آخره، وباقي ما قيل فيه كله حسن.

---

(١) رقمه ٢٨.
(٢) رقمه ٢٩.
(٣) رقمه ٣٠.
(٤) رقمه ٣١.
(٥) رقمه ٣٢.
(٦) رقمه ٣٣.
(٧) رقمه ٣٤.
(٨) رقمه ٣٥.
(٩) رقمه ٣٦.
(١٠) رقمه ٣٧.
(١١) رقمه ٣٨.
(١٢) رقمه ٣٩.
(١٣) رقمه ٤٠.
(١٤) رقمه ٤١.
(١٥) رقمه ٤٢.
(١٦) رقمه ٤٣.
(١٧) رقمه ٤٤.

حديث (انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو راكع)[1]: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به قوله (زادك الله حرصاً ولا تَعُدْ)، وباقي ما قيل فيه كله حسن.

حديث (أن النبيّ ﷺ دخل المسجد فدخل رجل)[2]: المصطفى مما قيل فيه ما شرح به قوله (إذا أقيمت الصلاة) إلى آخره، وباقي ما قيل فيه كله حسن.

حديث (إذا قال الإمام: سمع الله لمن حَمِده)[3]: المصطفى منه ما شرح به من قوله (من وافق قولُه قولَ الملائكة)، وباقي ما قيل فيه كله حسن.

حديث (هل نرى ربَّنا؟)[4]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (علِّمْني دعاء أدعو به في صلاتي)[5]: المصطفى منه إلى قوله عليه السلام (ولا يَغفِرُ الذنوبَ إلا أنت)، وباقيهِ حسن.

حديث (رفع الصوت بالذِّكْر)[6]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (كلكم راعٍ)[7]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله (والمرأة راعية في بيت زوجها ومسوؤلة عن رعيتها)، وباقيهِ حسن.

حديث (إذا اشتد البرد)[8]: وحديث (أصلّيتَ يا فلان)[9]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (أصابت الناسَ سَنَة)[10]: المصطفى منه ما قيل من قوله (فرفع يديه) إلى قوله (يتحادر على لحيته عليه السلام)، وباقيهِ حسن.

حديث (كان يصلي عليه السلام قبل الظهر ركعتين)[11]: كل ما قيل فيه مصطفى.

---

(١) رقمه ٤٥.
(٢) رقمه ٤٦.
(٣) رقمه ٤٧.
(٤) رقمه ٤٨.
(٥) رقمه ٤٩.
(٦) رقمه ٥٠.
(٧) رقمه ٥١.
(٨) رقمه ٥٢.
(٩) رقمه ٥٣.
(١٠) رقمه ٥٤.
(١١) رقمه ٥٥.

حديث (رجوعه ﷺ من الأحزاب)[١]: المصطفى ما قيل من قوله (وأدرك بعضُهم العصرَ في الطريق) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (كان لا يغدو عليه السلام يوم الفطر)[٢] وحديث (العمل في أيام التشريق)[٣] وحديث (كان عليه السلام يصلي في السفر على راحلته)[٤]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم)[٥]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله عليه السلام (وتظهر الفتن)، وباقيه حسن.

حديث (ألَم أُخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار)[٦] وحديث (صلاة الاستخارة)[٧] وحديث (ما بين بيتي ومنبري)[٨] وحديث (لمّا صلّى عليه السلام العصر قام سريعاً)[٩]: كل ما قيل فيها كلها مصطفى.

حديث (الركعتين بعد العصر)[١٠]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله (رأيته يصليهما حين صلّى العصر)، ومن قوله عليه السلام (سألت عن الركعتين) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (أمرَنا النبيّ ﷺ بسبع)[١١] وحديث (خروج أبي بكر، رضي الله عنه، بعد وفاة النبي ﷺ): كل ما قيل فيهما كله مصطفى.

حديث (أرسلت ابنة النبيّ ﷺ إليه أن ابناً لي قُبِض)[١٢]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله (أجل مسمّى)، ومن قوله (رفع إلى النبيّ ﷺ) إلى آخره، وباقي ما قيل فيه حسن.

---

(١) رقمه ٥٦.
(٢) رقمه ٥٧.
(٣) رقمه ٥٨.
(٤) رقمه ٥٩.
(٥) رقمه ٦٠.
(٦) رقمه ٦١.
(٧) رقمه ٦٢.
(٨) رقمه ٦٣.
(٩) رقمه ٦٤.
(١٠) رقمه ٦٥.
(١١) رقمه ٦٦.
(١٢) رقمه ٦٨.

حديث (كان النبيّ ﷺ إذا صلّى صلاة أقبل علينا بوجهه)[١] وحديث (لا حسد إلا في اثنتين)[٢]: ما قيل فيهما كله مصطفى.

حديث (لأتصدَّقَنَّ بصدقة)[٣]: المصطفى منه ما قيل من قوله (فأتى فقيل) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إذا أنفقت المرأة)[٤]: كل ما فيه مصطفى.

حديث (من أخذ أموال الناس)[٥]: المصطفى منه ما قيل فيه من قوله (كفعل أبي بكر) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (على كل مسلم صدقة)[٦]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (سألت رسول الله ﷺ فأعطاني)[٧]: المصطفى منه ما قيل من قوله (إن هذا المال حُلْوة خَضِرة) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (ما يزال الرجل يسأل الناس)[٨] وحديث (إن فريضة الله على عباده في الحج)[٩] وحديث (وادي العقيق)[١٠]: ما قيل فيها كله مصطفى.

حديث (ما يلبس المُحْرِم في الحج)[١١]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله (ولْيَقْطَعْهما)، وباقيه حسن.

حديث (مجيئه عليه السلام للسقاية)[١٢]: المصطفى منه ما قيل من قوله (فأتى زمزم) إلى آخره، وباقيه حسن.

---

(١) رقمه ٦٩.
(٢) رقمه ٧٠.
(٣) رقمه ٧١.
(٤) رقمه ٧٢.
(٥) رقمه ٧٣.
(٦) رقمه ٧٤.
(٧) رقمه ٧٥.
(٨) رقمه ٧٦.
(٩) رقمه ٧٧.
(١٠) رقمه ٧٨.
(١١) رقمه ٧٩.
(١٢) رقمه ٨٠.

حديث (ما رأيت رسول الله ﷺ صلَّى صلاةً لغير ميقاتها)[1] وحديث (التصدق بجِلال البُـدْن)[2] وحديث (إذا تطيب ناسياً)[3]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (قدم عليه السلام المدينةَ وأمر ببناء المسجد)[4] المصطفى من أوله إلى قوله (فأمر ببناء المسجد)، وباقيهِ حسن.

حديث (ينزل الدجال بعضَ السِّباخ)[5]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله (أخبرنا عنك رسول الله ﷺ)، وباقيهِ حسن.

حديث (من استطاع منكم الباءَةَ)[6] وحديث (تَسحَّرنا مع النبيِّ ﷺ)[7] وحديث (من أفطر يوماً من رمضان)[8] وحديث (أوصاني خليلي)[9]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (أُرسِل كلبي)[10]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله (آخر)، وباقيهِ حسن.

حديث (الصرف)[11]: كله مصطفى.

حديث (ما أكل أحد طعاماً قَطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده)[12]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله عليه السلام (وأن نبيَّ الله داود) إلى آخره، وباقيهِ حسن.

حديث (البيّعان بالخيار)[13]: المصطفى منه من أوله إلى قوله (بورك لهما في بيعهما)، وباقيهِ حسن.

---

(١) رقمه ٨١.
(٢) رقمه ٨٢.
(٣) رقمه ٨٣.
(٤) رقمه ٨٤.
(٥) رقمه ٨٥.
(٦) رقمه ٨٧.
(٧) رقمه ٨٨.
(٨) رقمه ٨٩.
(٩) رقمه ٩٠.
(١٠) رقمه ٩١.
(١١) رقمه ٩٢.
(١٢) رقمه ٩٣.
(١٣) رقمه ٩٤.

حديث (إن أبا سفيان رجل شحيح)[١]: المصطفى منه من قوله عليه السلام (خذي أنت) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (من صوَّر صورة)[٢]: كله مصطفى.

حديث (أحقُّ ما أخذتم عليه أجراً)[٣]: كله مصطفى.

حديث (انطلق نفر من أصحاب النبيّ ﷺ في سفرة سافروها)[٤]: المصطفى منه من قوله (الحمد لله رب العالمين) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (لا حِمى إلا لله ولرسوله)[٥]: كله مصطفى.

حديث (كنت مع النبيّ ﷺ فلما أبصر أُحُداً)[٦]: المصطفى من قوله (وقليلٌ ما هم) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إياكم والجلوسَ على الطرقات)[٧]: المصطفى من قوله (أَعْطوا الطريق حقها) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحُليفة)[٨]: المصطفى منه من قوله (إنا لنرجو أو نخاف العدو غداً)، وباقيه حسن.

حديث (مثل القائم على حدود الله)[٩] وحديث (الظَّهر يُركَب بنفقته)[١٠] وحديث (كنا نؤمَر عند الخسوف بالعَتاقة)[١١] وحديث (لكل امرئ ما نوى)[١٢] وحديث (إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه)[١٣] وحديث (لو دُعيتُ إلى ذراع)[١٤]: كل ما قيل فيها مصطفى.

---

(١) رقمه ٩٥.
(٢) رقمه ٩٦.
(٣) رقمه ٩٧.
(٤) رقمه ٩٨.
(٥) رقمه ٩٩.
(٦) رقمه ١٠٠.
(٧) رقمه ١٠١.
(٨) رقمه ١٠٢.
(٩) رقمه ١٠٣.
(١٠) رقمه ١٠٤.
(١١) رقمه ١٠٥.
(١٢) رقمه ١٠٦.
(١٣) رقمه ١٠٧.
(١٤) رقمه ١٠٨.

حديث (أتانا رسول الله ﷺ في دارنا هذه)[١]: المصطفى من قوله (أعطى الأعرابي) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية)[٢] وحديث (من كان عليه حق)[٣] وحديث (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر)[٤]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (من كانت له أرض)[٥]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (فليزرعها)، وباقيه حسن.

حديث (حَمَلتُ على فرس في سبيل الله)[٦]: المصطفى مما قيل فيه إلى قوله (لا تشتره) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (جاءت امرأةُ رفاعةَ)[٧]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (قال ﷺ في بنت حمزة)[٨]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (سمع عليه السلام ثناءً على رجل)[٩]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (ويطريه في مدحه)، وباقيه حسن.

حديث (ثلاثة لا يكلمهم الله)[١٠]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (مَن بايَعَ رجلاً) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (من حَلَف على يمين)[١١]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (هو فيها فاجر)، وباقيه حسن.

---

(١) رقمه ١٠٩.
(٢) رقمه ١١٠.
(٣) رقمه ١١١.
(٤) رقمه ١١٢.
(٥) رقمه ١١٣.
(٦) رقمه ١١٤.
(٧) رقمه ١١٥.
(٨) رقمه ١١٦.
(٩) رقمه ١١٧.
(١٠) رقمه ١١٨.
(١١) رقمه ١٢٠.

حديث (لا تصدقوا أهل الكتاب)[1]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (ولا تكذبوهم)، وباقيه حسن.

حديث (ليس الكذاب)[2]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (صالح رسول الله ﷺ المشركين)[3]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (من أتاه من المشركين) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (جاء النبيّ ﷺ يعودني وأنا بمكة)[4]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (يتكففون الناس في أيديهم)، وباقيه حسن.

حديث (وأنذرْ عشيرتك الأقربين)[5]: وحديث (رأى رجلاً يسوق بَدَنَة)[6]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (إن أمي تُوفيت)[7]: المصطفى منه قوله (فإني أُشهِدك) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (قدِم النبيّ ﷺ المدينة وليس له خادم)[8]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (فلْيخدُمْك)، وباقيه حسن.

حديث (أفضل الأعمال الصلاةُ على ميقاتها)[9]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (الجهاد في سبيل الله)، وباقيه حسن.

حديث (لا هجرةَ بعد الفتح)[10]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (لأطوفَنّ الليلةَ على مائة امرأة)[11]: المصطفى مما قيل فيه (قال له صاحبه) إلى آخره، وباقيه حسن.

---

(١) رقمه ١٢١.
(٢) رقمه ١٢٢.
(٣) رقمه ١٢٣.
(٤) رقمه ١٢٤.
(٥) رقمه ١٢٥.
(٦) رقمه ١٢٦.
(٧) رقمه ١٢٧.
(٨) رقمه ١٢٨.
(٩) رقمه ١٢٩.
(١٠) رقمه ١٣٠.
(١١) رقمه ١٣١.

حديث (الطاعون شهادة)[١]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (رأيت النبيّ ﷺ ينقل التراب)[٢]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (لولا أنت) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (من صام يوماً في سبيل الله)[٣]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (مَن جَهَّز غازياً)[٤]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (فقد غزا)، وباقيه حسن.

حديث (من احتبس فرساً)[٥]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (هل تدري ما حق الله على عباده)[٦]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (حق الله على عباده) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (الخيل لثلاثة)[٧]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (كان يوم عيد عندي يلعب السودان)[٨]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (حتى إذا مللت) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (جعل رزقي تحت ظل رمحي)[٩] وحديث (رَخَّص لعبد الرحمن بن عوف)[١٠]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك)[١١]: المصطفى منه من قوله (ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر) إلى آخره، وباقيه حسن.

---

(١) رقمه ١٣٢.
(٢) رقمه ١٣٣.
(٣) رقمه ١٣٤.
(٤) رقمه ١٣٥.
(٥) رقمه ١٣٦.
(٦) رقمه ١٣٧.
(٧) رقمه ١٣٨.
(٨) رقمه ١٣٩.
(٩) رقمه ١٤٠.
(١٠) رقمه ١٤١.
(١١) رقمه ١٤٢.

حديث (أُمِرت أن أقاتل الناس)[1]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (في بعض أيامه التي لقي، عليه السلام، فيها العدو)[2]: المصطفى منه من قوله (لا تتمنوا لقاء العدو) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (كل سُلامَى من الناس عليه صدقة)[3]: المصطفى منه ما قيل من أوله إلى قوله (يعدل بين اثنين صدقة)، وباقيه حسن.

حديث (لو يعلم الناس ما في الوحدة)[4] وحديث (استأذنته في الجهاد)[5]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (لا يَخلُوَنَّ رجل بامرأة)[6]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله إلا ومعها ذو محرم)، وباقيه حسن.

حديث (ثلاث يُؤتَون أجرَهم مرتين)[7] وحديث (نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان)[8] وحديث (بعد ما كان رسول الله ﷺ أمر بحرق فلان وفلان)[9]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (دخوله ﷺ عام الفتح وعلى رأسه المِغفَر)[10]: المصطفى مما قيل فيه (إن ابن خَطَل متعلق بأستار الكعبة) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (ذهب فرس له فأخذه العدو)[11] وحديث (تكفل الله لمن جاهد في سبيله)[12]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

---

(١) رقمه ١٤٣.
(٢) رقمه ١٤٤.
(٣) رقمه ١٤٥.
(٤) رقمه ١٤٦.
(٥) رقمه ١٤٧.
(٦) رقمه ١٤٨.
(٧) رقمه ١٤٩.
(٨) رقمه ١٥٠.
(٩) رقمه ١٥١.
(١٠) رقمه ١٥٢.
(١١) رقمه ١٥٣.
(١٢) رقمه ١٥٤.

حديث (الأشعَرِيّين)[١]: المصطفى منه ما قيل من قوله (فانطلقت) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (أصابتنا مجاعة ليالي خيبر)[٢]: المصطفى منه مما قيل فيه من أوله إلى قوله (ولا تَطْعَموا من لحوم الحمر شيئاً)، وباقيه حسن.

حديث (شهدت القتال مع رسول الله ﷺ)[٣]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (قَدِمَت عليَّ أمي)[٤]: المصطفى منه من قوله (فاستفتيت) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (لما قضى الله الخلقَ)[٥]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (إن أحدكم يُجمع خَلقه)[٦]: المصطفى مما قيل فيه (ما بيّن به وهو الصادق المصدوق)، ومن قوله (إن الرجل منكم يعمل) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إن الملائكة تنزل في العَنان)[٧]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (فتسترق الشياطين السمع) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (كيف يأتيك الوحي؟)[٨] وحديث (كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس)[٩] وحديث (إذا دعا الرجل امرأته)[١٠]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (إذا مات أحدكم فإنه يُعرَض عليه مقعده)[١١]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (والعشيّ)، وباقيه حسن.

حديث (يعقد الشيطان)[١٢]: كل ما قيل فيه مصطفى.

---

(١) رقمه ١٥٥.
(٢) رقمه ١٥٦.
(٣) رقمه ١٥٧
(٤) رقمه ١٥٨
(٥) رقمه ١٥٩
(٦) رقمه ١٦١
(٧) رقمه ١٦٢.
(٨) رقمه ١٦٣.
(٩) رقمه ١٦٤.
(١٠) رقمه ١٦٥.
(١١) رقمه ١٦٦.
(١٢) رقمه ١٦٧.

حديث (أمَا إن أحدَكم إذا أتى أهلَه قال بسم الله)[1]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (فرزقا) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إذا طلع حاجب الشمس)[2]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (طلوع الشمس إلى غروبها)، وباقيه حسن.

حديث (يأتي الشيطانُ أحدَكم)[3] وحديث (اطلاعه، عليه السلام، في الجنة)[4]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (أول زمرة تَلِج الجنةَ)[5]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (ليلة القدر)، ومن قوله (يرى مخ ساقها) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إن في الجنة لشجرة)[6] وحديث (الحمى من فَوْر جهنم)[7] وحديث (ناركم جزء من سبعين جزءاً)[8]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (يُجاء بالرجل يوم القيامة)[9]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (ما شأنك؟) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إذا استجنح الليل)[10] وحديث (إذا دخل رمضان)[11] وحديث (لو أن أحدكم إذا أتى أهله)[12] وحديث (إذا نودي بالصلاة)[13] وحديث (التفات الرجل)[14]: كل ما قيل فيها مصطفى.

---

(١) رقمه ١٦٨.
(٢) رقمه ١٦٩.
(٣) رقمه ١٧٠.
(٤) رقمه ١٧١.
(٥) رقمه ١٧٢.
(٦) رقمه ١٧٣.
(٧) رقمه ١٧٤.
(٨) رقمه ١٧٥.
(٩) رقمه ١٧٦.
(١٠) رقمه ١٧٧.
(١١) رقمه ١٧٨.
(١٢) رقمه ١٧٩.
(١٣) رقمه ١٨٠.
(١٤) رقمه ١٨١.

حديث (الرؤيا الصالحة)[1]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (من الشيطان)، وباقيه حسن.

حديث (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له)[2]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (والله لأصومَنّ النهار ولأقومَنّ الليل)[3]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (بعشر أمثالها)، وباقيه حسن.

حديث (أحَبّ الصيام إلى الله)[4] وحديث (أي مسجد وضع أولاً)[5]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة)[6]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (من طين)، وباقيه حسن.

حديث (إن رجلاً حضره الموت)[7]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (لِمَ فعلتَ ذلك) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء)[8]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (لا نبي بعدي)، وباقيه حسن.

حديث (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم)[9]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (الطاعون رجس)[10]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (إذا سمعتم به) إلى آخره، وباقيه حسن.

---

(١) رقمه ١٨٢.
(٢) رقمه ١٨٣.
(٣) رقمه ١٨٤.
(٤) رقمه ١٨٥.
(٥) رقمه ١٨٦.
(٦) رقمه ١٨٧.
(٧) رقمه ١٨٨.
(٨) رقمه ١٨٩.
(٩) رقمه ١٩٠.
(١٠) رقمه ١٩١.

حديث (سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون)[1]: المصطفى مما قيل فيه (إن الله جعله رحمة) وباقيه حسن.

حديث (المرأة المخزومية)[2]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (وإذا سرق فيهم الشريف) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (بينما رجل يجر إزاره خيلاء)[3] وحديث (ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين)[4]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (حفر الخندق)[5]: المصطفى مما قيل فيه من قولها (لا تفضحني برسول الله) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (استعمل رجلاً على خيبر)[6]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (فأخذ الصاع) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (تزوج رسول الله ﷺ ميمونة رضي الله عنها وهو مُحْرِم)[7]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (بعث رسول الله ﷺ سَرِيّة)[8]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (أليس أَمَرَكم) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (مَثَل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له)[9]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (السَّفَرة الكرام)، وباقيه حسن.

حديث (من قام بالآيتين من آخر سورة البقرة)[10] وحديث (إن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى

---

(١) رقمه ١٩٢.
(٢) رقمه ١٩٣.
(٣) رقمه ١٩٤.
(٤) رقمه ١٩٥.
(٥) رقمه ١٩٦.
(٦) رقمه ١٩٧.
(٧) رقمه ١٩٨.
(٨) رقمه ١٩٩.
(٩) رقمه ٢٠٠.
(١٠) رقمه ٢٠١.

فراشه)[١] وحديث (رأيت رسول الله ﷺ وهو على ناقته)[٢] وحديث (اقرؤوا القرآن)[٣]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (إني رجل شاب)[٤]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (جف القلم) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (ضباعة)[٥]: المصطفى مما قيل قيل فيه من قوله (حجي) إلى قوله (حيث حبستني)، وباقيه حسن.

حديث (كراهيته عليه السلام أن يأتي الرجل أهله طُروقاً)[٦]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (بَرِيرة)[٧]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (لو راجعتيه) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (كان عليه السلام يبيع نخل بني النضير)[٨] وحديث (ما كان عليه السلام يعمل في بيته؟)[٩] وحديث (أذكروا اسم الله، ولْيأكلْ كل رجل مما يليه)[١٠] وحديث (مَن تصبَّح كل يوم بسبع تمرات)[١١] وحديث (إذا أكل أحدكم)[١٢]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (إنّا بأرض قوم أهلِ كتاب)[١٣]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (فإن وجدتم غيرها)، وباقيه حسن.

حديث (ذَبحْنا فرساً)[١٤] وحديث (نهى رسول الله ﷺ أن تُصبَّر بهيمةٌ)[١٥] وحديث (نهى

---

(١) رقمه ٢٠٢.
(٢) رقمه ٢٠٣.
(٣) رقمه ٢٠٤.
(٤) رقمه ٢٠٥.
(٥) رقمه ٢٠٦.
(٦) رقمه ٢٠٧.
(٧) رقمه ٢٠٨.
(٨) رقمه ٢٠٩.
(٩) رقمه ٢١٠.
(١٠) رقمه ٢١١.
(١١) رقمه ٢١٢.
(١٢) رقمه ٢١٣.
(١٣) رقمه ٢١٤.
(١٤) رقمه ٢١٥.
(١٥) رقمه ٢١٦.

عليه السلام يوم خيبر عن لحوم الحمُر)[١] وحديث (النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع)[٢] وحديث (إن رسول الله ﷺ مرّ بشاة ميتة)[٣] وحديث (إن فأرة وقعت في سمن)[٤]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (أول ما نبدأ به في يومنا هذا)[٥]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (أصاب سُنَّتَـنَا)، وباقيه حسن.

حديث (حاضت بسَرَف)[٦]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (ولا تطوفي بالبيت)، وباقيه حسن.

حديث (إن الزمان قد استدار)[٧] وحديث (أُتِيَ على باب الرَّحْبة)[٨]: كل ما فيهما مصطفى.

حديث (النهي عن الشرب من فم السقاء)[٩]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (والقربة)، وباقيه حسن.

حديث (لن يُدخِل أحداً عملُه الجنةَ)[١٠]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (بفضله ورحمته)، وباقيه حسن.

حديث (الشفاء في ثلاثة)[١١] وحديث (الحبة السوداء)[١٢] وحديث (لا عدوى)[١٣] وحديث (بلال جاء بعَنَزة)[١٤]: كل ما قيل فيها مصطفى.

---

(١) رقمه ٢١٧.
(٢) رقمه ٢١٨.
(٣) رقمه ٢١٩.
(٤) رقمه ٢٢٠.
(٥) رقمه ٢٢١.
(٦) رقمه ٢٢٢.
(٧) رقمه ٢٢٣.
(٨) رقمه ٢٢٤.
(٩) رقمه ٢٢٥.
(١٠) رقمه ٢٢٦.
(١١) رقمه ٢٢٧.
(١٢) رقمه ٢٢٨.
(١٣) رقمه ٢٢٩.
(١٤) رقمه ٢٣٠.

حديث (أُهدِي لرسول الله ﷺ فَرُّوج حرير)[١]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (نزعاً) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (لعن عليه السلام المتشبهين من الرجال بالنساء)[٢] وحديث (لعن عليه السلام الواصلة)[٣]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (بينا أنا رديف النبيّ ﷺ)[٤] وحديث (إن من أكبر الكبائر)[٥] وحديث (إن الله خلق الخلق)[٦]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (جاءتني امرأة ومعها ابنتان)[٧]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (من بُلي) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (قدِم سَبْي)[٨]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (أرحم) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (جعل الله الرحمة)[٩] وحديث (ترى المؤمنين في تراحمهم)[١٠] وحديث (ما من مسلم غرس غرساً)[١١] وحديث (من لا يَرحَمْ لا يُرحم)[١٢] وحديث (ما زال جبريل يوصيني بالجار)[١٣] وحديث (إن لي جارَين)[١٤] وحديث (كل معروف صدقة)[١٥] وحديث (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً)[١٦] وحديث (إن الغادر يرفع له لواء)[١٧] وحديث (لا يقولن أحدكم خَبُثَت

---

(١) رقمه ٢٣١.
(٢) رقمه ٢٣٢.
(٣) رقمه ٢٣٣.
(٤) رقمه ٢٣٤.
(٥) رقمه ٢٣٥.
(٦) رقمه ٢٣٦.
(٧) رقمه ٢٣٧.
(٨) رقمه ٢٣٨.
(٩) رقمه ٢٣٩.
(١٠) رقمه ٢٤٠.
(١١) رقمه ٢٤١.
(١٢) رقمه ٢٤٢.
(١٣) رقمه ٢٤٣.
(١٤) رقمه ٢٤٤.
(١٥) رقمه ٢٤٥.
(١٦) رقمه ٢٤٦.
(١٧) رقمه ٢٤٧.

نفسي)[1] وحديث (قال الله: يَسُبّ ابن آدم الدهرَ)[2] وحديث (يقولون: الكَرْمُ)[3] وحديث (قوله عليه السلام تسمّوا باسمي)[4] وحديث (قوله عليه السلام: أخنع الأسماء)[5]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (عطس رجلان)[6]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (فإن هذه) إلى آخره، وباقيهِ حسن.

حديث (قلنا: السلام على الله قبل عباده)[7]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (التحيات لله) إلى آخره، وباقيهِ حسن.

حديث (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى)[8] وحديث (النهي أن يقام الرجل من مجلسه)[9]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (من قال في حَلِفه باللاّت والعُزّى)[10]: المصطفى مما قيل فيه من أوله إلى قوله (لا إله إلا الله)، وباقيهِ حسن.

حديث (سيد الاستغفار)[11] وحديث (إن المؤمن يرى ذنوبه)[12] وحديث (لله أفرَحُ بتوبة العبد)[13] وحديث (مَثَل الذي يذكر ربه)[14]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (مَن أحبَّ لقاءَ الله)[15]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (إن المؤمن) إلى آخره، وباقيهِ حسن.

---

(١) رقمه ٢٤٨.
(٢) رقمه ٢٤٩.
(٣) رقمه ٢٥٠.
(٤) رقمه ٢٥١.
(٥) رقمه ٢٥٢.
(٦) رقمه ٢٥٣.
(٧) رقمه ٢٥٤.
(٨) رقمه ٢٥٥.
(٩) رقمه ٢٥٦.
(١٠) رقمه ٢٥٧.
(١١) رقمه ٢٥٨.
(١٢) رقمه ٢٥٩.
(١٣) رقمه ٢٦٠.
(١٤) رقمه ٢٦١.
(١٥) رقمه ٢٦٢.

حديث (يتبع الميتَ ثلاثةٌ)[1] وحديث (لا تسبّوا الأموات)[2]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (يُحشَر الناس يوم القيامة)[3]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (كقُرْصَةِ نقيّة)، وباقيهِ حسن.

حديث (تحشرون يوم القيامة)[4]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (الأمر أشدّ) إلى آخره، وباقيهِ حسن.

حديث (يَعرقُ الناس يوم القيامة)[5] وحديث (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله)[6] وحديث (يقال لأهل الجنة خلود)[7]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار)[8]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (أردت منك) إلى آخره، وباقيهِ حسن.

حديث (النهي عن النذر)[9] وحديث (من أكل ناسياً)[10] وحديث (ماتت لنا شاة)[11] وحديث (ابن أخت القوم منهم)[12]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (من ادّعى إلى غير أبيه)[13]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (فالجنة عليه حرام)، وباقيهِ حسن.

حديث (لم يبق من النبوة إلا المبشرات)[14] وحديث (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة)[15] وحديث قوله عليه السلام (من رآني في المنام)[16]: كل ما قيل فيها مصطفى.

---

(١) رقمه ٢٦٣.
(٢) رقمه ٢٦٤.
(٣) رقمه ٢٦٥.
(٤) رقمه ٢٦٦.
(٥) رقمه ٢٦٧.
(٦) رقمه ٢٦٨.
(٧) رقمه ٢٦٩.
(٨) رقمه ٢٧٠.
(٩) رقمه ٢٧١.
(١٠) رقمه ٢٧٢.
(١١) رقمه ٢٧٣.
(١٢) رقمه ٢٧٤.
(١٣) رقمه ٢٧٥.
(١٤) رقمه ٢٧٦.
(١٥) رقمه ٢٧٧.
(١٦) رقمه ٢٧٨.

حديث (بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن)[١]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (أعطيت فضلي) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (بينما أنا نائم رأيت الناس يُعرَضون عَلَيَّ)[٢]: المصطفى مما قيل فيه من قوله عليه السلام (ومَرَّ عَلَيَّ عمر بن الخطاب) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إذا اقترب الزمان)[٣]: كل ما قيل فيه مصطفى.

حديث (من تحلَّم بحُلم)[٤]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (صوَّر صورة) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (الرؤيا الحسنة من الله)[٥] وحديث (من رأى من أميره شيئاً يكرهه)[٦] وحديث (يتقارب الزمان)[٧]: كل ما قيل فيها مصطفى.

حديث (كان الناس يَسألون رسول الله ﷺ عن الخير)[٨]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (دعا) إلى آخره، وباقيه حسن.

حديث (إذا أنزل الله بقوم عذاباً)[٩] وحديث (أذِّنْ في قومك)[١٠]: كل ما قيل فيهما مصطفى.

حديث (يُجاء بنوح يوم القيامة)[١١]: المصطفى مما قيل فيه من قوله (يُجاء بكم) إلى آخره، وباقيه حسن.

---

(١) رقمه ٢٧٩.
(٢) رقمه ٢٨٠.
(٣) رقمه ٢٨١.
(٤) رقمه ٢٨٢.
(٥) رقمه ٢٨٣.
(٦) رقمه ٢٨٤.
(٧) رقمه ٢٨٥.
(٨) رقمه ٢٨٦.
(٩) رقمه ٢٨٧.
(١٠) رقمه ٢٨٨.
(١١) رقمه ٢٨٩.

حديث (مفاتيح الغيب خمس)[1] وحديث (أنا عند ظن عبدي)[2] وحديث (إن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمةَ ليلةً)[3] وحديث (إن الله إذا أحب عبداً)[4] وحديث (إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة)[5] وحديث (أنا عند ظن عبدي بي)[6] وحديث (إن الله سبحانه يقول لأهل الجنة)[7]: كل ما قيل فيها مصطفى.

ثم إن عبد الله يقول للمجد: لِمَ لم تقل هذا التقسيم أولاً؟ فيقول له المجد: سبب هذا أن ناساً بالشام من أصحاب الحموي دعا واحد منهم في حديث (ابن الصامت) وفي حديث (بدء الوحي) ودعا آخر في (حديث المعراج) وفي (حديث الإفك) ودعا آخر في جميع الأحاديث كلها، وقال: اللهم كما اصطفيت هذا الرجل من أمة محمّد عليه السلام، فاصطفِ جميع هذه الأحاديث على جميع كتب الأحاديث النبوية.

ثم إن رسول الله ﷺ يقول لعبد الله بن أبي جمرة: سمعت مقالته هذه مبينة لمجمل ما قيل لك، إنه ليس فيه خلل، لا في هجاء، ولا في غيره.

ثم إن رسول الله ﷺ يقول لعبد الله: لم لا تحضُّ الحموي على أن يحصل باقيه قبل أن يفوت هذا الخير؟ فإنه يجي وقت لا يمكن فيه نَسْخه ولا غير ذلك، وتعلمه بهذه المرائي، وتعلمه أن له أجراً قدر أجر هؤلاء الذين أعلمهم به، وأن له كل يوم يقرؤونه يدخل عليه أجر بقدر أجرهم، وأن له أجر كل من قرأه في الشام، أو عمل به إلى يوم القيامة، لكونه كان سبب إشهاره في الشام. ثم يقول عليه السلام لعبد الله: حَرِّضْه عليه، فإن لك الأجر في ذلك. فيقول له عبد الله. لا أحب ذكر هذه المرائي. فيقول عليه السلام إذ ذاك: فالذي مَنَّ بها يشهرها بغير اختيارك، فإن خيرها متعدٍّ.

ثم يقول عليه السلام لأبي عثمان: لم لا تكتب هذه المرائي والأدعية؟ ولا تخلِّ نفسك منها فقيراً. فيقول أبو عثمان: حتى تتم. فيقول ﷺ: من قال لك إنها تتم، أو أن لها آخراً، فإذا جاءك أحد مضطر يكون عندك بما تنفعه. فيقول أبو عثمان له عليه السلام: من أنا حتى نكلمك؟ فقال: لا تقل ذلك، وإنما اشكر الله واسكت.

---

(١) رقمه ٢٩٠.
(٢) رقمه ٢٩١.
(٣) رقمه ٢٩٢.
(٤) رقمه ٢٩٣.
(٥) رقمه ٢٩٤.
(٦) رقمه ٢٩٥.
(٧) رقمه ٢٩٦.

ثم إنه عليه السلام يقول للأصحاب: ما منّ الله على ابن أبي جمرة بهذا الخير، وخير الدنيا والآخرة إلا باتباعه للسنّـة، وكل ما جاء به يدل على السنّـة، فسبحان الذي منّ عليه باتباع السنّـة.

الـــرؤيــا الثــالثــة عشرة

كأن سيّدنا ﷺ يدخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ويعطيه كسوة حسنة، ويقول له: هذا ثواب خطبة تعلمها. ثم يقول عليه السلام: هات الشرح أنظره أنا وأنت. فيقدم عبد الله الشرح بين يديه فينظر عليه السلام فيه، ثم يقول لعبد الله: هذا من قوتك؟ فيقول عبد الله: ما هذا مني. فيقول عليه السلام: الذي منّ به عليك لم يجعل فيه خللاً.

ثم يقول عليه السلام: ذاك الذي قيّدته في الرؤيا قبل هذه في حق الأحاديث مجملاً، لم يرد الحق سبحانه ذلك، وإنما إرادته أن تكتب كل حديث وما قيل فيه.

وكان عبد الله كتب أن جميع الأحاديث ما عدا الثلاثة وهي (حديث ابن الصامت) و (حديث الإسراء) و (حديث الإفك) فيها مصطفى، وفيها حسن. فرجع فكتبها كما هي مذكورة قبل، كما كان المجد، رحمه الله، ذكر ذلك على ما هو منصوص.

الـــرؤيــا الـرابعــة عشرة

جاء سيّدنا ﷺ في جَمْعٍ كبير إلى منزل عبد الله، فلما دخل سأله عبد الله عن ذلك الجمع، فقال عليه السلام: هم جميع الأنبياء والرسل، وفيهم بعض الصحابة. فقعد عليه السلام، وقعدوا جميعاً، صلوات الله عليهم أجمعين. ثم أخرج، عليه السلام، قمحاً وحمّصاً مقليًّا، ثم قال لعبد الله: ناد أصحابك. فصعد عبد الله على سطحه، فناداهم بأعلى صوته، فإذا هم قد اجتمعوا. ثم قال عليه السلام لعبد الله: ناد أصحابك الذين بالشام، فناداهم فإذا هم قد دخلوا، فعجز واحد من الأصحاب، الذي كان منزله بالقرب من منزل عبد الله. فقال عليه السلام: عمله حجبه. يا للعجب، الذين بالشام يأتون والقريب لا يسمع. ليس الصحبة بالظاهر والقرب، إنما الصحبة بالصدق والإخلاص. فأكل ﷺ وجميع الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم، وأكل عبد الله وجميع أصحابه. وأما من كان هناك من الصحابة فلم يأكلوا شيئاً.

ثم قام، عليه السلام، فصلى بجميع من كان في المجلس ركعتين جهريتين، ثم دعا بعد ذلك دعاء حسناً، وإذا بشخص قد نزل عليه، ومعه قمقم من فضة مملوء ماء، وتكلم معه، وما عرف أحد ما قال له، ثم انصرف. فقال عليه السلام، هذا جبريل.

ثم كأن الكعبة في قبلة بيت عبد الله، وفي وسطها خصة من ماء، ثم جرى ذلك الماء حتى ملأ البيت، وله رائحة حسنة، ولون حسن. ثم إن ذلك الماء فرغ من تلك الخصة، ثم يأتي ماء ثانٍ له رائحة ولون أحسن من الأول، وله نور، غير أنه لم يجرِ مثل الأول. ثم إن رسول الله ﷺ يأخذ طبقاً من فضة، ويفرغ فيه الماء الذي كان في القمقم، وله نور يصعد إلى السماء، ثم يطلب نسخ ذلك الشرح. فتحضر له كلها إلا واحدة، فيأخذها جميعها، ويطهرها في ذلك الماء مرتين. ثم يقول لمحمّد الفاسي: أبَقِيَ عندك بعد هذا شك أن ليس في الشرح خلل؟ فيقول: لا، يا رسول الله. ثم يقول عليه السلام: من يرد أن يعمل بهذا الشرح يشرب من هذا الماء، وعلى قدر شربه يكون عمله به. ثم يملأ منه زبدية فضية، فيعطيها لعبد الله، فيشربها كلها. ثم يعطي الأصحاب، كلاًّ على قدر حاله. ثم ينبع من الجانب الأيسر نهر، فيقول عليه السلام: هذا الكوثر، وكأن بئر زمزم في البيت بإزاء الكعبة. ثم يأخذ ﷺ من ماء الكوثر فيسقي عبد الله، ويسقي الأصحاب. ثم يأخذ منه جرة ماء، فيصبها على عبد الله، ويصبها على الأصحاب. فكان ما يصبّ على الأصحاب ما يظهر على ثيابهم منه شيء، والذي يصبه على عبد الله يظهر على ثيابه، ومع ذلك يفيض من عبد الله ماء كثير، حتى يسيل ويملأ البيت.

ثم يقوم، عليه السلام، فيصلي ركعتين، ويصلي معه كل من كان في البيت، ثم يدعو بعدهما، ثم يأخذ، عليه السلام، ثياباً في غاية الحسن، فيطهرها في ماء الكوثر، ويكسو عبد الله كسوة حسنة، ويكسو الأصحاب، كل واحد على قدر حاله.

ثم يؤتى بخيل كثيرة، فيركب ﷺ أعلاها، ويركب الأنبياء، صلوات الله عليهم، والرسل، ويركب عبد الله وأهله وأصحابه، ويترك الصحابة، رضوان الله عليهم، في البيت، فيمشي ﷺ ويمشون معه جميعاً في أرض سوداء، وفيها شجرة سوداء عظيمة، ثم يمشون في أرض بيضاء حسنة متسعة، ثم يمشون في أرض حمراء، وفيها شجرة عظيمة حمراء، ثم يمشون في الهواء، ثم كأن خشبة منصوبة بين السماء والأرض، فيمشون عليها، وهي بلا شيء يحبسها. ثم ينزلون إلى أرض خضراء، وفيها شجرة عظيمة، وبقرب الشجرة كتب مبددة، وبالبعد منها كذلك. فينزل عبد الله فيجمع تلك الكتب كلها، ثم يعود إلى مركبه، ثم يَصِلون إلى باب عظيم، فيدخلونه، فيجدون ثلاثة بساتين، فيها أنهار جارية، وثمار يانعة، وحسن وجمال. وفي بعض تلك الأنهار حيتان عظام. ثم ينزل سيّدنا ﷺ وينزلون.

ثم يقول ﷺ: هذه البساتين لك. الواحد منها ثواب خطبة الإفك، والآخر ثواب إدخالك السرور على الحموي بتلك المرائي، لأنه زاد بها إيمانه، والآخر ثواب كونك حرضته على نسخ باقي الشرح، وبينت له كيف يفعل، لأن الدالّ على الخير كفاعله.

ثم إنه ﷺ يعبّر ما تقدم من فعله في الرؤيا، فيقول عن الماء الذي غسل به الشرح مرتين: إن ذينك عالِمان، فيسميهما وهما يبينان لمحمّد الفاسي أنه ليس في الشرح خلل، وأنه تطهير له من جميع الانتقادات والاعتراضات. وأن الطريق السوداء من السؤدد والرفعة، وحسن تسديد الأعمال بهذا الشرح، وأن الأرض البيضاء هي طريق ذلك الشرح. وأن الطريق الحمراء هي الشهرة التي فيه، وأن تلك الخشبة التي كانت في الهواء هي طريق الرجاء. فإن المشي في الهواء هو المعافاة من هذه الفتن، وإن اجتماع الأنبياء والرسل أمان لك ولأهلك ولأصحابك، وإن الأرض الخضراء هي الأعمال الصالحة وحسن في الإيمان. وإن جمعك الكتب هو مسائل من السنّة قد ضاعت فجمعتها أنت. وأما كون الماء قد فاض منك حتى جرى، فعلمك يشيع في الناس وينتفعون به، وإنما لم يظهر الماء على أصحابك فعلم كل واحد منهم على قدر حاله وما يكفيه، ولو لم يفعل ذلك معكم لكنتم تقولون: إذا جاء الأمر نحن معهم.

وستأتيك رؤيا أخرى تبين لك هذا.

ثم إن أبا عثمان يشكو إليه الوسواس في الصلاة، فيقول له: من حفظ ما قيل في حديث الإسراء لا يبقى له وسواس في الصلاة، ومن حفظ حديث الإفك يكثر حبه في عائشة وفي الصحابة، ومن حفظ ما قيل في حديث ابن الصامت يقوى إيمانه، ويذهب وسواس الشيطان، ويزداد يقينه، ومن حفظ ما قيل في حديث بدء الوحي يكثر ثقته بالله، ورجاؤه فيه، وخوفه منه.

ثم يدخل المجد، ويقول لعبد الله: جزاك الله كل خير، فإنك كنت السبب في نسخ الفاسي الشرح، وعلى الله جزاؤك في أنك كنت السبب في إعطاء والدي ذلك الشرح. ويقول لمحمّد الفاسي: جزاك الله خيراً أن أدخلت عليّ السرور بذلك الشرح. ويقول للحموي: جزاك الله خيراً، ما زال إحسانك يصلني. ويقول لمحمّد الفاسي: اِعلم أن الله قد استجاب دعواتك. فيقول له محمّد: سمّها لي. فيقول: هل أنت إلا فقير؟ لا أسميها لك.

ثم إن رسول الله ﷺ يجعل في رأس عبد الله عمامة بيضاء كبيرة، ويعطيه أربعة خواتم: واحداً من فضة، وآخر من ياقوتة حمراء، وآخر من زمرد، وآخر من جوهر. ويعطيه كتاباً، ويقول: هذا كتاب أنوار الإيمان وهو حديث ابن الصامت، ويعطيه كتاباً ثانياً، ويقول: هذا كتاب أنوار الصلاة وأعمالها، والنيات فيها، وهو حديث الإسراء.

وكأن البيت يمتلىء نوراً، حتى إنه لا يظهر له سقف.

ثم إن الحق سبحانه يخاطب عبد الله بن أبي جمرة، وكان من جملة خطابه، جلّ جلاله، أن يأمره بأن يزيد في ثلاثة أحاديث من الشرح جملة معانٍ حسان رائقة. فكان عبد الله يقول: يا مولاي، أليس قد قلت: إنه ليس فيه خلل؟ فيقول له: هذا زيادة حسن في الكتاب.

ثم كأن الكعبة في قبلة بيت عبد الله، وفي وسطها خُصة من ماء، ثم جرى ذلك الماء حتى ملأ البيت، وله رائحة حسنة، ولون حسن. ثم إن ذلك الماء فرغ من تلك الخصة، ثم يأتي ماء ثانٍ له رائحة ولون أحسن من الأول، وله نور، غير أنه لم يجرِ مثل الأول. ثم إن رسول الله ﷺ يأخذ طبقاً من فضة، ويفرغ فيه الماء الذي كان في القمقم، وله نور يصعد إلى السماء، ثم يطلب نسخ ذلك الشرح. فتحضر له كلها إلا واحدة، فيأخذها جميعها، ويطهرها في ذلك الماء مرتين. ثم يقول لمحمّد الفاسي: أَبَقِيَ عندك بعد هذا شك أن ليس في الشرح خلل؟ فيقول: لا، يا رسول الله. ثم يقول عليه السلام: من يرد أن يعمل بهذا الشرح يشرب من هذا الماء، وعلى قدر شربه يكون عمله به. ثم يملأ منه زبدية فضية، فيعطيها لعبد الله، فيشربها كلها. ثم يعطي الأصحاب، كلاًّ على قدر حاله. ثم ينبع من الجانب الأيسر نهر، فيقول عليه السلام: هذا الكوثر، وكأن بئر زمزم في البيت بإزاء الكعبة. ثم يأخذ ﷺ من ماء الكوثر فيسقي عبد الله، ويسقي الأصحاب. ثم يأخذ منه جرة ماء، فيصبها على عبد الله، ويصبها على الأصحاب، فكان ما يصبّ على الأصحاب ما يظهر على ثيابهم منه شيء، والذي يصبه على عبد الله يظهر على ثيابه، ومع ذلك يفيض من عبد الله ماء كثير، حتى يسيل ويملأ البيت.

ثم يقوم، عليه السلام، فيصلي ركعتين، ويصلي معه كل من كان في البيت، ثم يدعو بعدهما، ثم يأخذ، عليه السلام، ثياباً في غاية الحسن، فيطهرها في ماء الكوثر، ويكسو عبد الله كسوة حسنة، ويكسو الأصحاب، كل واحد على قدر حاله.

ثم يؤتى بخيل كثيرة، فيركب ﷺ أعلاها، ويركب الأنبياء، صلوات الله عليهم، والرسل، ويركب عبد الله وأهله وأصحابه، ويترك الصحابة، رضوان الله عليهم، في البيت، فيمشي ﷺ ويمشون معه جميعاً في أرض سوداء، وفيها شجرة سوداء عظيمة، ثم يمشون في أرض بيضاء حسنة متسعة، ثم يمشون في أرض حمراء، وفيها شجرة عظيمة حمراء، ثم يمشون في الهواء، ثم كأن خشبة منصوبة بين السماء والأرض، فيمشون عليها، وهي بلا شيء يحبسها. ثم ينزلون إلى أرض خضراء، وفيها شجرة عظيمة، وبقرب الشجرة كتب مبددة، وبالبعد منها كذلك. فينزل عبد الله فيجمع تلك الكتب كلها، ثم يعود إلى مركبه، ثم يَصِلون إلى باب عظيم، فيدخلونه، فيجدون ثلاثة بساتين، فيها أنهار جارية، وثمار يانعة، وحسن وجمال. وفي بعض تلك الأنهار حيتان عظام. ثم ينزل سيّدنا ﷺ وينزلون.

ثم يقول ﷺ: هذه البساتين لك. الواحد منها ثواب خطبة الإفك، والآخر ثواب إدخالك السرور على الحموي بتلك المرائي، لأنه زاد بها إيمانه، والآخر ثواب كونك حرضته على نسخ باقي الشرح، وبينت له كيف يفعل، لأن الدالّ على الخير كفاعله.

ثم إنه ﷺ يعبّر ما تقدم من فعله في الرؤيا، فيقول عن الماء الذي غسل به الشرح مرتين: إن ذينك عالِمان، فبسميهما وهما يبينان لمحمّد الفاسي أنه ليس في الشرح خلل، وأنه تطهير له من جميع الانتقادات والاعتراضات. وأن الطريق السوداء من السؤدد والرفعة، وحسن تسديد الأعمال بهذا الشرح، وأن الأرض البيضاء هي طريق ذلك الشرح. وأن الطريق الحمراء هي الشهرة التي فيه، وأن تلك الخشبة التي كانت في الهواء هي طريق الرجاء. فإن المشي في الهواء هو المعافاة من هذه الفتن، وإن اجتماع الأنبياء والرسل أمان لك ولأهلك ولأصحابك، وإن الأرض الخضراء هي الأعمال الصالحة وحسن في الإيمان. وإن جمعك الكتب هو مسائل من السنّة قد ضاعت فجمعتها أنت. وأما كون الماء قد فاض منك حتى جرى، فعلمك يشيع في الناس وينتفعون به، وإنما لم يظهر الماء على أصحابك فعلم كل واحد منهم على قدر حاله وما يكفيه، ولو لم يفعل ذلك معكم لكنتم تقولون: إذا جاء الأمر نحن معهم.

وستأتيك رؤيا أخرى تبين لك هذا.

ثم إن أبا عثمان يشكو إليه الوسواس في الصلاة، فيقول له: من حفظ ما قيل في حديث الإسراء لا يبقى له وسواس في الصلاة، ومن حفظ حديث الإفك يكثر حبه في عائشة وفي الصحابة، ومن حفظ ما قيل في حديث ابن الصامت يقوى إيمانه، ويذهب وسواس الشيطان، ويزداد يقينه، ومن حفظ ما قيل في حديث بدء الوحي يكثر ثقته بالله، ورجاؤه فيه، وخوفه منه.

ثم يدخل المجد، ويقول لعبد الله: جزاك الله كل خير، فإنك كنت السبب في نسخ الفاسي الشرح، وعلى الله جزاؤك في أنك كنت السبب في إعطاء والدي ذلك الشرح. ويقول لمحمّد الفاسي: جزاك الله خيراً أن أدخلت عليّ السرور بذلك الشرح. ويقول للحموي: جزاك الله خيراً، ما زال إحسانك يصلني. ويقول لمحمّد الفاسي: إِعلم أن الله قد استجاب دعواتك. فيقول له محمّد: سمّها لي. فيقول: هل أنت إلا فقير؟ لا أسميها لك.

ثم إن رسول الله ﷺ يجعل في رأس عبد الله عمامة بيضاء كبيرة، ويعطيه أربعة خواتم: واحداً من فضة، وآخر من ياقوتة حمراء، وآخر من زمرد، وآخر من جوهر. ويعطيه كتاباً، ويقول: هذا كتاب أنوار الإيمان وهو حديث ابن الصامت، ويعطيه كتاباً ثانياً، ويقول: هذا كتاب أنوار الصلاة وأعمالها، والنيات فيها، وهو حديث الإسراء.

وكأن البيت يمتلىء نوراً، حتى إنه لا يظهر له سقف.

ثم إن الحق سبحانه يخاطب عبد الله بن أبي جمرة، وكان من جملة خطابه، جلّ جلاله، أن يأمره بأن يزيد في ثلاثة أحاديث من الشرح جملة معانٍ حسان رائقة. فكان عبد الله يقول: يا مولاي، أليس قد قلت: إنه ليس فيه خلل؟ فيقول له: هذا زيادة حسن في الكتاب.

ثم إن عبد الله يطلب من الله النصر، ويقول: يا مولاي، ليس لي من طلب حاجة ولا شكوى إلا إليك. فيقول سبحانه: أنا أعلم بك، وبما بك، وأنا أفرّج عنك إذا شئت، وأنا أقرّ عينيك بالنصر في الدنيا والآخرة. ثم إن عبد الله يسكت حياء من الله، فيقول له سيّدنا محمّد ﷺ: هذا موضع الحياء. هذا موضع الإدلال والطلب، اطلب ما شئت يقضى. من يبلغ هذه الدرجة يتمنى ما شاء يعطاه.

ثم إن عبد الله يطلب من الله حوائج كثيرة، فمنها الموت على الإسلام له ولأهله ولأصحابه، وأن يمن عليه وعليهم بالسنّة، والموت عليها، ومنها أن يكتب في قلبه وقلوبهم الإيمان، وأن يؤيدهم بروح منه، ومنها الستر له ولهم في الدنيا والآخرة، ومنها العصمة له ولهم من الفتن. فكل ذلك أنعم به عليه.

الرؤيا الخامسة عشرة

دخل سيّدنا ﷺ منزل عبد الله، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، وفي يده قارورة وفيها ماء. فيطلبها عبد الله، فيقول له: حتى تأتيني بشرح حديث (ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم)[1] فيأتيه به، فيقرؤه فيعجبه. ثم يكتب بعضه، ويخبيه عنده، ويعطيه تلك القارورة ثم يدخل بعض الأصحاب، وهو من أهل الفقه، فيطلب من النبيّ، عليه السلام، أن يقوي الله يقينه. فيقول عليه السلام: إن أردت أن يقوى يقينك، فعليك بالشرح الذي عمله ابن أبي جمرة، والمرائي التي رأى. فيقول له: ليس يعطيني إياها. فيقول له عليه السلام: المفاتيح عنده. والله هو المعطي.

الرؤيا السادسة عشرة

كأن النبي ﷺ دخل منزل عبد الله ابن أبي جمرة ويأمره ألاّ ينسخ أحد ذلك الشرح حتى يوقفه على تلك المرائي التي جاءت فيه ليعلم قدره، وقدر ما فيه، وألاّ ينسخه أحد أيضاً حتى ينسخ حديث الإسراء، وحديث ابن الصامت، لأن هذه تقتضيه الحكمة في الوقت. ثم ينظر ﷺ كتاب الشرح، وما سمي به، فيعجبه ذلك أيضاً. ثم يقول عليه السلام: يحق لهذين الكتابين أن يسميا بهذين الاسمين. ثم يدعو لعبد الله بخير عميم.

---

(١) رقم الحديث ١٧٥.

الــــرؤيــا السابعـــة عشرة

دخل سيّدنا ﷺ منزل عبد الله، ومعه خير كثير، ثم ينظر في حديث ابن الصامت، فيشير إلى الفصول التي احتج بها عبد الله على المُجَسِّمَة الذين يقولون بالحلول والانتقال، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً، والفصل المشار إليه هو من قول عبد الله: «فإن ادَّعوا أنه كان أولاً على شيء. . . إلى قوله: بإجماع أهل العقل والنظر في حق الباري جلّ جلاله» فقال عليه السلام: لمّا تكلمت بهذا الفصل أعطيت في ذلك جملة بساتين، كل بستان له نور كنور الشمس.

وأما ذلك التقسيم الذي قسمته في البيعة، فأعطيت في كل قسم منها ما لو أخبرتك به لم تطق سمعه.

ثم أشار، عليه السلام، في حديث الإسراء إلى موضع فيه، وهو عند الكلام في معاني أم الكتاب على قوله (الرحمن الرحيم) من أول التوجيه في هذين الاسمين الجليلين إلى آخره، فقال عليه السلام: عند كلامك في هذا الفصل أعطيت نوراً كنور الشمس، ملأ ما بين السماء والأرض. وعند قولك (مالك يوم الدين) فكل ما ذكرت فيه من القيامة وأهوالها عوفيت من كل ما ذكرته. وما من لفظة منها إلا ولك عليها من الخير ما لا تطيق أن تسمعه حين تراه، إن شاء الله.

وإنما أخبرتك بهذا لتعلم ما لك فيه، ولئلا تكسل عن العمل به، لأنه إذا كان هذا في القول، فمن باب أولى وأحرى في العمل.

الــــرؤيــا الثامنـــة عشرة

كأن سيّدنا ﷺ يأتي منزل عبد الله، ومعه من الصحابة الذين كانوا معه في بيعة حديث ابن الصامت. ثم كأن أصحاب عبد الله اجتمعوا، فيطلب سيّدنا ﷺ منهم البيعة، من عبد الله، ومن أصحابه. ويبين لكل واحد على ما يبايع، كل واحد بحسب حاله. فالكل بايعوا إلا محمّداً الفاسي، طلب منه ثلاثة أشياء: الواحد التصديق بصحة الشرح. فبايع على اثنتين، ولم يبايع على التصديق بصحة الشرح. وقال: لا أكذب. فقال عليه السلام: أبعد هذه المرائي كلها لا تصدق؟ فالظاهر منك أنك لا تصدق حتى يبينه لك ذلك العالِمان، ثم إنه عليه السلام يبين تلك الوجوه التي ذكرت في حديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل)[1] ويستحسنها، ويقول: مثل هذا يكون فيه خلل؟ ولو كان فيه فكيف يجعل الله منه حَسناً، ومنه مصطفى، وكيف يعجبني ويكون فيه خلل؟

---

(١) رقمه ٣٤.

الـــرؤيـــا التاسعة عشرة

رُئي كأن غرفة بين السماء والأرض وفيها جمع كبير، وكأنّ ملكاً نزل من السماء، ويطلب ذلك الشرح لعبد الله، ويقول له: أعطني ذلك الشرح وكل ما تراني أفعل به لا تفعل شيئاً حتى أخبرك به. فيأخذ ذلك الشرح، ويصعد به إلى تلك الغرفة، ثم إن تلك الغرفة تعود غرفاً كثيرة. فيأخذ الشرح، ويفرق كراريسه في تلك الغرف، ثم يجمعها، ويفرقها في الهواء. ثم إن شخصاً آخر يجمعها، فيصعد بها إلى السماء، ثم إن ذلك الملك الذي جاء يطلبه أولاً نزل بالشرح وهو مسفر تسفيراً حسناً، ويقول: ما رأيتموني فرقت كراريسه؟ فإني عرضته على الملائكة الذين بين السماء والأرض، والكل أعجبهم، والشخص الذي جمعه وصعد به كان جبريل، عليه السلام، وطاف به سبع سماوات، وأوقف عليه ملائكتها، ثم إني أخذته وصعدت به إلى حضرة الحق سبحانه، وأعجبه، وأحضر الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم، وأصحابك الموتى جميعهم هناك، وعرضه عليهم فالكل أعجبهم. وعرضه على ملائكة الأرض، فكلهم أعجبهم، وسلموا فيه.

ثم يقول لمحمّد الفاسي: أبقي لك بعد هذا شك؟ ثم يقول لعبد الله: أبقيت لك حاجة؟ قال: لا. لم يبق لي حاجة.

ثم إن الموصلي والحموي يطلبان الحوائج التي طلب لعبد الله، فينعم بها، ويقول للموصلي: بشرط ألا تخالف لسان العلم.

الـــرؤيـــا العشـــرون

كان سيّدنا محمّد ﷺ يأتي منزل عبد الله والخلفاء وجمع من الصحابة، ثم إن سيّدنا ﷺ يطلب من عبد الله وأصحابه البيعة، كما طلبها في الرؤيا التي قبل، فالكل بايعوا على ما طلب منهم، وكذلك محمّد الفاسي بايع على كل ما طلبه.

ثم إن بعض الأولاد يقول لسيدنا ﷺ: ما فعل المَلَك بالشرح في الرؤيا التي قبل؟ فيقول عليه السلام: فلان من الملائكة ـ ويسميه باسمه ـ وهو من الذين وكلهم الله بأعداء عبد الله بن أبي جمرة، وهم عشرون ملَكاً، ذلك واحد منهم.

ثم إن عمر، رضي الله عنه، دعا لعبد الله بأربع دعوات، وهي: ألاّ يكِلَه الله إلى نفسه، ويمنّ عليه باتباع السنّة، وبالنصر، وينصره الله على نفسه وأعدائه. وأمَّن سيّدنا ﷺ على دعائه. وكان الخطاب من قِبَل الحق سبحانه يقول له تعالى: قد سمعت دعاءكم، وإني مننت به على عبدي. ثم إن عبد الله يطلب ثلاث حوائج، فينعم بها عليه.

ثم إن الحق سبحانه يستدعي محمّداً الفاسي، فيأتي، وعليه كسوة حسنة كان رسول الله ﷺ قد كساه إياها. فكان الحق سبحانه يعرض ما منّ به على عبد الله من الخير في ثواب الشرح، وثواب كل حرف على حِدَة. ثم يقول الله جلّ جلاله: كيف يكون إعطاء هذا الثواب مع أن يكون فيه خلل؟ هذا من المحال. ثم يعرض على محمّد الفاسي ما له من الخير لكونه كان سبباً فيه. ثم يقول الحق سبحانه: بقي لك عندي حاجة هي أكبر من هذا كله، ولا أعطيكها إلا أن تصدق بصحة الشرح قبل أن يخبرك به ذانك العالِمان، ولو كان فيه خلل لم يكن عندي خيراً من كل العلوم التي وهبتها عبادي. ولو لم يكن فيه إلا حديث ابن الصامت الذي بيّن فيه العقيدة، وسنّة نبيّي، وسنّـة الخلفاء، والطريقة الناجية، والطرق الفاسدة. وكل الناس محتاجون إلى ذلك. وحديث الإسراء الذي فيه الصلاة ومعانيها، وما فيها، والناس إليه محتاجون. وحديث الإفك وما بيّن فيه مما هو الحق، وبرّأ الصحابة وعائشة مما قال الناس فيهم. وحديث الإفك ما أبقى عليه من ذنوبه شيئاً. فإن لم تصدّق بهذا فبأي شيء تصدّق بعده؟

ثم إن سيّدنا ﷺ يقول لمحمّد الفاسي: أبعد هذا بقي عندك شك؟ أي شيء تصدّق: كلام الحق سبحانه وقولي، أو قول ذينك العالِمين؟ فيقول محمّد الفاسي: قولك وقول الحق سبحانه. فيقول عليه السلام: أرى أي شيء أتاك لا يزيل ما عندك، وأراك أخذت من طريق شيخك شيئاً، لأنه كل ما يأتيه من قبلي، أو من قبل الحق سبحانه أخذه بكلتا يديه، وأنت تتوقف، وكيف يكون فيه خلل وأنا أفصح العرب؟ ولو كان فيه شيء عرَّفته به، وبينته له. وكذلك الخلفاء، ومن أعرف بالهجاء: أنا والخلفاء أو غيرنا؟ فيقول محمّد: أنتم. ثم قال عليه السلام: وكم مرة وقفت أنا وهم عليه، ولم نر فيه خللاً. ولو كان فيه شيء عرفناه به. ثم كيف تطلب العمل به وأنت لم يحصل لك التصديق بتصحيحه؟ فيقول الفاسي: أشهدك، وأشهد الله وملائكته أنه ما بقي لي فيه شيء. ثم يقول عليه السلام له ولأبي عثمان: اجعلوا بالكم من أرواحكم بعد هذه أن يبقى لكم فيه شيء، وإن بقي لكم شيء خفت عليكم.

ثم إنه عليه السلام ينظر حديث أبي هريرة الذي قال فيه (أخاف على نفسي العنت)[1] وما قيل فيه من الوجوه، فيستحسنها. فيقول له عبد الله عن اختلاف الروايات الذي جاءت فيه، فيقول له عليه السلام: اجعل الذي صح عندك منها. وإن جعلت الثلاثة فحسن.

---

(١) رقمه ٢٠٥.

ثم إن الحموي والموصلي يذكران له الحوائج التي ذكراها للملك، فيقول لهم، عليه السلام: هي مقضية، وهي معلّقة بوقت. ثم يقول: خُلِقَ الإنسان عجولاً[١].

الرؤيا الحادية والعشرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله وفي يده ماء، ويقول: هذا من العين الزرقاء. ثم إن عين ماء تنبع في بيت عبد الله. فيقول عليه السلام: هذا من تلك المسألة التي تكلمت بها في حديث ذي اليدين الذي قال فيه (صلّى بنا إحدى صلاتي العَشِيّ)[٢] عند قوله (فهابا أن يكلماه) وهذا الشرح هو على لغة تميم ولغة ثقيف ـ وهما من خيار لغات العرب ـ فمَن يظهر له فيه خلل يقال له: انظره بهاتين اللغتين، فإذا نظره بهما يرى صلاحه مثل الشمس، ولا يبقى له فيه خلل. وهذا الشرح كله على هاتين اللغتين إلا موضعين: الواحد يجوز على لغة قريش، والآخر يجوز على لغة طيّ. ويقول لمحمّد الفاسي: ما أتي عليك إلا أنك لم تنظره بهاتين اللغتين، فإذا نظرته بهما لم يبق عليك فيه خلل.

الرؤيا الثانية والعشرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله، ومعه جمع من الأنبياء، صلوات الله عليهم، والصحابة، وجميع مشايخ عبد الله ووالده وبعض قرابته الأموات.

وكان في منزل عبد الله موضع فيه بناء حسن، وله نور، وفيه ماء جار، وله نور كثير. فقعد الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، حول ذلك الموضع الذي فيه النور، فتقدم سيّدنا محمّد ﷺ إلى ذلك الموضع الذي فيه النور، وصلّى فيه، وصلّى معه كل من ذكر. فلما فرغ من صلاته فإذا به قد أخرج ذلك الشرح للحاضرين، ويقول لهم: ألا تنظرون إلى حسن هذا الكلام؟ ومن أحسن ما فيه هذا الموضع. ويريهم حديث (وفد عبد القيس)[٣] والكلام على قوله (مرحباً بالقوم ـ أو بالوفد ـ غير خزايا ولا ندامى).

ثم يقول لمحمّد الفاسي: إن هذا الشرح يُنظر بلغة تميم وثقيف ـ كما ذكرت لك ـ إلا موضعين: الواحد في (حديث الإفك)[٤] عند قوله (يا عائشة، احمدي الله فقد برّأك) والآخر في

---

(١) أصل الآية القرآنية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ (الإسراء، ١١). و ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء، ٣٧).
(٢) رقمه ٣١.
(٣) رقمه ٧.
(٤) رقمه ١١٩.

(حديث الإسراء)[1] عند قول موسى (أنا أعلم بالناس منك، عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، وإنّ أمّتك لا تطيق) أحدهما جائز على لغة قريش، والآخر على لغة طي. والموضع الذي قال لك شيخك في الخطبة في قوله: نصًا ظاهراً ومعنى باطناً: إنه لا يجوز، تنظره بلغة تميم وثقيف تجده جائزاً، والكتب إنما تُنظر بلغة العرب، والذي يُنظر بغير ذلك ويقول: فيه خلل، كالذي يَنظر الكتابَ العزيز بغير لغة العرب.

ثم يقول لعبد الله: زد في آخر كل حديث من تلك الأحاديث الثلاثة دعاء. فيقول عبد الله: ادع الله أن يلهمني ذلك. فيدعو الله أن يلهمه دعاءً ما، يليق بتلك الأحاديث.

ثم يقول عليه السلام لعبد الله: إذا كان غداً الجمعة، إذا خرجت من منزلك فاقرأ قول إبراهيم حيث قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، فإذا عدت إلى منزلك فقل ما كنتُ أقول أنا عند رجوعي من الأسفار «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون، صدَق الله وعدَه، ونصَرَ عبدَه، وأعزَّ جندَه، وهزم الأحزابَ وحدَه».

فيقول له عبد الله: وما الفائدة في ذلك؟ فيقول له ﷺ: ما أقول لك شيئاً حتى أعود.

ومن الفوائد التي فيه أن ناساً قد كادوا له سبعة وجوه من المكر وتنعكس عليهم، وأنه يكون معك جمع كثير، فتكون فيه محمولاً.

ثم إن والد عبد الله يقول: أريد أن يكون لي من هذا الشرح نصيب. فيقول المجد، رحمه الله: يحق لك أن تطلب منه نصيباً، فإني لم أر شيئاً أنفع منه، وإني من اليوم الذي بدىء لي نسخه في خيرات، لا أقدر أن أصفها.

ثم إن موسى، عليه السلام، يقول لعبد الله: أنت صاحبي. فيقول له عبد الله: وبماذا تكون الصحبة بيني وبينك؟ فيقول له موسى، عليه الصلاة السلام: شَبَهُك مع أعدائك كشَبَهي مع فرعونَ وقومه، فكما أنا نُصِرتُ عليهم كذلك نُصرتَ على أعدائك.

---

(١) رقمه ١٦٠.

(٢) الشعراء: ٧٨ ـ ٨٩.

فسأل بعض الأولاد النبي ﷺ: ما معنى صلاتك يا رسول الله في النوم ودعائك؟ فيقول ﷺ: زيادة في الأمن، وتأنيس لك.

الـــرؤيـــا الثـــالثـــة والعشـــرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، فسأله عبد الله عن ذلك البناء الذي كان في منزله، والماء الذي كان في منزله في الرؤيا التي كانت قبل هذه. فيقول ﷺ: ذلك البناء هو الإيمان، والماء هو العلم، وكون الأنبياء حوله: هو مقيد بالسنة.

ثم يقول ﷺ لعبد الله: لا تسمح لأحد يبدل في ذلك الشرح حرفاً واحداً، ولا يزيد ولا ينقص منه، فإنه ليس فيه خلل، على ما تقتضيه تلك اللغتان اللتان قلت لك، وما يحتاج أن تدعو فيه بشيء أكثر مما دعوت، فإن الله قد أجاب دعاءك فيه، وزادك عليه ما لم يخطر بخاطرك.

ثم يقول ﷺ: ليقل كل واحد منكم كلما أصبح وأمسى: (اللهم ارزقنا الصدق بما وعدتَنا، والتصديقَ بما ضمِنتَ لنا، والتسليمَ لِما أردت منا، والهداية لما أمرتنا، والاجتناب عما نهيتَنا) فيقول عبد الله: وما الحكمة بأن أمرتنا بهذا في هذا الوقت؟ فيقول ﷺ: انظر إلى حروفه يتبين لك ذلك.

ثم يقول لمحمّد الفاسي: اكتب من تلك المرائي نسخة يحملها الحموي إذا مشى إلى الشام، لأنها يقوى بها إيمان أولئك الأصحاب الذين لكم هناك، ويعرفون قدر الشرح والخير الذي فيه.

الـــرؤيـــا الرابعـــة والعشـــرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، والصحابة رضي الله عنهم، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ومريم بنت عمران، عليها السلام، ثم يدخل أصحاب عبد الله بن أبي جمرة، وفيهم أبو محمّد المرجاني، ثم يدخل مشايخ عبد الله.

ثم إن سيّدنا ﷺ يُخرِج لهم خبزاً رفيعاً طيباً، ويأكل هو ﷺ والأنبياء والصحابة وجميع من حضر. ثم يقوم ﷺ يصلي ركعتين جهريتين، الواحدة بأم الكتاب وصَ، والأخرى بأم الكتاب والفتح، ويصلي معه كل من كان حاضراً. ثم يكسو عبدَ الله كسوة حسنة، ثم يقول: ارفع رأسَك، فإذا فوق رأسك جبل عظيم، نصفه أبيض ونصفه أحمر، فيقول له: ذلك لك. ثم يكسو معه أهلَه وأصحابَه، كلٌّ واحد على قَدْر حاله.

ثم يؤتَى عليه السلام بالبُراق، فيركبه ويمشي نحو السماء، ويمشي معه كل من كان في المنزل حتى يأتي السماءَ، فتستقبله الملائكة بالسلام، ويرى لعبد الله فيها خيراً كثيراً، ثم كذلك في كل سماء، حتى يأتوا تحت العرش، فينزل عن البُراق ويجلس، ويجلس كل من كان صعد معه، ثم يدعو بأبوي عبد الله وأهله وقرابته الأموات، فلما اجتمعوا، وهم في زي حسن، فيأمر عليه السلام محمّداً الفاسي بأن يأتي بالشرح والمرائي، فيأتيه بهما. ثم إنه ﷺ يقدمهما للحق جلّ جلاله.

ثم إن الحق سبحانه يتجلى له وللحاضرين، ويقول لبعضهم: اشهدوا أن هذا الشرح ليس فيه خلل، ويكون النظر باللغتين اللتين أخبر بهما نبيي، وهما لغة تميم ولغة ثقيف. وإني مننت به على عبدي، وأجريته على لسانه، لآتيه عليه هذا الثواب. ويكشف لهم عن الثواب الذي مُنَّ به على عبد الله من أجل ذلك الشرح. فيبصرون شيئاً لا تقدره العقول.

ثم يقول جلّ جلاله: أثيبه عليه مثل هذا، ويكون فيه خلل؟ ومن كذّب بهذا الشرح كمن كذب بما جاء به النبيّ، وإن الذي يعمل بواحد من هذه الأحاديث أعطيه ما هو خير من جميع الدنيا وما فيها.

ثم إن عبد الله يطلب من مولاه حوائج عديدة، فيُنعِم بها عليه، ثم إنه يستجير من الفتن، ويقول له الحق سبحانه: إنها لكائنة مثل الجبال، ولكن ليس عليك منها شيء.

ثم إن الحق سبحانه يُري محمّداً الفاسي بعض أجره، لكونه كان السبب في هذا الشرح. ويقول له: لا أريد باقيه حتى توفي ما أريد منك. فيرغب الفاسي أن يريه ثواب المجد، فيريه خيراً كثيراً، ويقول له الحق سبحانه: مثل هذا يدخل عليك كل يوم.

ثم إن سيّدنا ﷺ يرغب من الحق سبحانه أن يُطَمْئِن قلبَ عبد الله، فيقول تعالى: المؤمن لا يأمن قلبه، بل يزداد رجاؤه فيَّ. ثم إن سيّدنا ﷺ ينظر في حديث (الخيل لثلاثة)[1] فيعجبه ويقول: ليس أحد من المفسرين ذكر مثل هذا.

ثم ينظر في حديث (أهل الجنة)[2] ثم حديث (الأحزاب)[3] ثم حديث (الطاعون شهادة)[4]

---

(١) رقمه ١٣٨.
(٢) رقمه ٢٩٦.
(٣) رقمه ١٣٣.
(٤) رقمه ١٣٢.

ثم أحاديث الشفاء مثل (الحبة السوداء)[1] وغيره، ثم في حديث (أنا عند ظن عبدي بي)[2]، وفي كل حديث منها يقول مثل ما قال في الأول. وكان يزيد مدحاً وإعجاباً في الذي قيل في حديث (أنا عند ظن عبدي بي) فيقول ﷺ: ما سبقك أحد في هذه المعاني، وإنها في غاية الحسن.

فعند ذلك يقول أبو محمد المرجاني: أريد أن تمنّ عليّ بمثل هذا الشرح. فيقول له ﷺ: اعلم أنه ليس له ثانٍ، وإني أعلم أنك من أصحابه، وإن كان ليس عندك منه خبر، وأنا أعلم أنك إذا سمعت به تأخذه كله.

ثم إن عائشة رضي الله عنها تنظر في حديث (يلعب السودان بالدّرق) وفي حديث (الإفك)[3] فتقول فيهما مثل ما قال ﷺ في الأحاديث قبل، فيسلم لها مقالتها تلك، فيقول ﷺ لعبد الله: انظر نحو الجنان. فيريه بستاناً فيه ستمائة قصر، كل قصر له نور وجمال. ويقول: ذلك ثواب أعمال أدخلت بها السرور على الإخوان بتبليغك لهم بعض ما قلت لك. ثم يعيّن له جملة من تلك القصور، ويقول له: ما أقول لك إن شئت تبلغه فمثل هذا ثوابه، وإن لم تفعل تضيع مثل هذا وأنت بالخيار.

ثم ينزل ﷺ، وينزل كل من كان صعد معه، حتى يأتوا منزل عبد الله كما كانوا أول مرة.

ثم يقول لعبد الله: الحوائج التي طلبتها البارحة قُضيت لك. ثم يعطيه ورقة فيقول له: هذه الأدعية التي أمرتك أن تجعلها في تلك الأحاديث الثلاثة، ويقول له: اعلم أن من جملة الفوائد التي في ذلك الدعاء الذي علّمتك، وأمرتك أن تعلّمه أصحابك أن من قاله صادقاً لا يضره في ذلك اليوم سحر، واعلم أنه يشفع في كثير من الناس، وأن أحداً من قوم، فيسميهم بأسمائهم، ينتقد فيه موضعاً ويكون ذلك سبب بخسه.

والسبب الذي علّمتك ذلك الدعاء أني رأيت قوماً قد أكثروا لك بعمل الأسحار ولأصحابك، فجعلت ذلك دفعاً لضررهم من حيث لا يعلمون، وتخبر بهذا الذين تعلم أنهم أصحابك، وتعلم أن بتغيير المنكر في الوقت اندفع عن الناس بلاء عظيم أو كثير شك.

ثم كأن بئر زمزم ببيت عبد الله، وبإزائه بئر ثانٍ، وكأن الحجر الأسود في محراب المسجد، ويطلع عليه محمّد الحلواني، وينادي بأذان الظهر.

---

(١) رقمه ٢٢٧ و٢٢٨.

(٢) رقمه ٢٩١.

(٣) رقمه ١٣٩و١١٩.

الـــرؤيـــا الخـــامـسـة والعشرون

كأن سيّدنا ﷺ في منزل عبد الله بن أبي جمرة يسأله عن الشرح. ثم يقول ﷺ: انظر. فإذا بقرب منزله ماء في غاية الحسن، وله نور ساطع، وفي وسط ذلك الماء ثمرة كبيرة لها حسن وجمال، وفيها ثمر أحمر اللون، يقرب من خلقة الأترج، إلا أنه للتدوير، وله رائحة في غاية الحسن. فيقول ﷺ: ذلك الماء هو العلم، وهذه الثمرة ثمرة ذلك الشرح، وهذا طعمها، مُنَّ عليك بها قبل أن تتكلم في ذلك الشرح. ثم يقول ﷺ: كُلْ من ذلك الثمر. فيأكل منه، فيجد له طعماً في غاية الحسن لا يشبه طعام الدنيا. فيقول عبد الله: لو أعطيتني هذا قبل الكلام، فلم أخر إلى هذا الوقت؟ فيقول ﷺ: لحكمة، فإذا نظرتها تعرفها.

ثم يريه ﷺ في أسفل الماء مباني كثيرة في غاية الحسن، وعلى تلك المباني أشخاص في غاية الحسن، فيقول ﷺ: ذلك البناء ثواب الموضعين اللذين تكلمت فيهما في حديث (رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة)[1]، ثم إن عبد الله سأل عن تلك الأشخاص، هل هم ملائكة أو حور؟ فيقول ﷺ: ليس، إنما هم[2] المعاني التي ذكرت في ذينك الموضعين، حتى تجدها يوم القيامة.

الـــرؤيـــا الســادسـة والعشرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ومعه وعاء كبير شبيه بالجفنة، وهي في غاية الحسن، ويقول لعبد الله: هذا ثواب حديث (إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان)[3] فيفتحها فإذا فيها ثياب في غاية الحسن، وياقوت، وزمرد، في غاية الحسن والجمال، فيناوله إياها.

الـــرؤيـــا الســابـعـة والعشرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله، ومعه جمع من الصحابة، وفيهم الخلفاء، رضي الله عنهم، فيقول، ﷺ، لعبد الله: انظر، فيريه جملة قصور نحو المائة، وجملة بساتين نحو ذلك، كلها في غاية الحسن وجملة أنوار، ويقول ﷺ: هذا ثواب (حديث الإفك)[4]. ثم يريه زائداً على

---

(١) رقمه ٦٩.
(٢) كذا.
(٣) رقمه ١٨٠.
(٤) رقمه ١١٩.

ذلك جملة قصور وبساتين، ما يقرب من النصف مما رآه في حديث الإفك، ويقول ﷺ: هذا ثواب حديث (كان رسول الله ﷺ أجود الناس)[1] ثم يريه نيفاً عن ثلثمائة ثمرة، كلها في غاية الحسن، لا يشبه بعضها بعضاً. فيقول ﷺ: هذه الثمار عن كل حديث من تلك الأحاديث، ثمرة ومعها ثمرة، كما قلت في الخطبة. فيقول عبد الله: ولِمَ لا تريني ثوابه جملة واحدة مفسّراً؟ فيقول ﷺ: هذا أبلغ لك في الخير، وأقوى لك في الإيمان.

ثم كان الأصحاب يدخلون، وفيهم المجد، رحمه الله، وإذا بجملة خيل تزيد على المائتين بالتقدير، كلها محملة. فيقول ﷺ: هذه هدية الحق إليك. فيبادر المجد ويُدخل تلك الأوقار كلها وحده، فيريد أحد الأصحاب أن يعينه على ذلك، فيحلف ألاّ يعينه أحد. فيقول له: أراك تجتهد في خدمة ابن أبي جمرة؟ فيقول: كيف لا، وما رأيت في صحبته إلا كل خير في الدنيا والآخرة، ولقد كنت رأيت ـ في تلك الأيام التي كنت أمشي إلى ميعاده في الحر والقائلة ـ كل خير، وجزيت عليها خيراً.

ثم إن سيّدنا ﷺ يقول لمحمّد الفاسي: إذا بلغت الرؤيا التي يحصل لك منها التصديق بصحة الشرح يعطيك الله الخير الذي لك عنده مخبأ، ويظهر منه عليك في عالم الحسّ. فيقول محمّد الفاسي: ادع الله أن يرزقني علم الظاهر والباطن. فيقول ﷺ: اجتهد تناله إن شاء الله.

ثم إن بعض الإخوان يطلب من سيّدنا ﷺ أن يعطيه من تلك الهدية التي مُنّ بها على عبد الله. فيقول ﷺ: لكل واحد منكم فيها نصيب، وليس ابن أبي جمرة ممن يبخل على أصحابه.

ثم إن عبد الله يطلب من سيّدنا ﷺ إجابة دعائه. وكان عبد الله دعا بدعاء من جملته: أن يجعل الله قراءة هذا الشرح مفرجاً للهموم والشدائد، كما جعل كتاب البخاري وأكثر. فيقول ﷺ: إن الله قد أجاب دعاءك فيما دعوت به في هذا السحر، وكل من دعا فيه بصدق، فإنه كان شرحاً مباركاً.

ثم إن سيّدنا ﷺ يعطي لعبد الله جملة كتب مفسرة، ويقول ﷺ: هذه علوم يفتح الله بها عليك إذا خرجت.

---

(١) رقمه ١٦٤.

الرؤيا الثامنة والعشرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، فيطلب شرح حديث الإفك، وشرح حديث المعراج، فيقدمه عبد الله له، فينظر في حديث الإفك في موضعين: الأول الكلام على قولها (فيدخل فيسلم) والآخر الكلام على قولها (يا رسول الله ائذن إلى أبوَيّ) وينظر في حديث الإسراء في الكلام (لِمَ خُصَّ موسى عليه السلام، دون غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام أجمعين) فيقيد ثلاثة مواضع، ويُخَبّيها عنده. فيقول عبد الله له ﷺ: ولم تكتبها، وتخبيها عندي؟ فيقول ﷺ: لا أخبرك بها حتى تخرج.

ثم إن محمّداً الفاسي يقدم له سيّدنا ﷺ كتاب الأنوار، ويذكر له ما قال عبد الله في قول صاحب الكتاب: فرض عن فرض لفرض لازم. فيعجبه ﷺ ذلك، ويقول: ما سبقه أحد من المفسرين إلى هذا.

ويقول ﷺ عن الكتاب: هو حسن في طريقه، لكن هذا الشرح عندي خير منه.

ثم يُعْطي لمحمّد الفاسي داراً في غاية الحسن، ويقول له: هذه هدية مني إليك، لِما كان منك في أمس. ثم يريه جملة قصور وبساتين ودور، ويقول له: هذه هدية الحق إليك لِما كان منك في أمس. وانظر ماذا كان حَرَمَك الشيطان بذلك الخاطر الذي قام معك؟ فيقول عبد الله: لا أقولها حتى تأتي في موضعها من المرائي. فيقول ﷺ: لا، وقد حصل منه المراد، وما يضر تقديمها.

الرؤيا التاسعة والعشرون

كأن سيّدنا ﷺ دخل بيت عبد الله، وإذا بمحمّد الفاسي دخل وسلم، ويقول لسيّدنا ﷺ: زَلّت قدمي، وطردتموني. فيقول ﷺ: لم تزِلَّ قدمك، ولا طردناك، وإن أصحاب ابن أبي جمرة ما نطردهم ما داموا في صحبته، وإنما كان ذلك خيراً بك، ولولا ذلك ما زال ذلك من خاطرك، والساعة لمّا ذهب ذلك من خاطرك يقيناً نحن ننظرك بعين أخرى، وكذلك الغير. وما بقي لك إلا خير مُتوالٍ إن شاء الله، وبعد هذا ما يأتيك شيء يشوّشك. والساعة يحق لك أن تطلب العمل بهذا الشرح. وإذا اجتهدت يحصل لك العمل به، وتبلغ به درجة العلماء. والآن ظاهرك وباطنك قد صلحا، وهما خير مما كانا، ولولا هذا ما كان يحصل لك ما طلبته من علم الظاهر والباطن مع هذا الخير.

ثم يكسوه كسوة حسنة، ويقول له: انظر، وإذا بثلاث دور حسان، فيقول ﷺ: هي لك زيادة

على ما تقدم. ثم يقول له: هات ذلك الشرح أنظره أنا وأنت على تينك اللغتين اللتين ذكرت لك. فيأتي بالشرح فينظره ﷺ ويبين له جميعه، حتى ما بقي عليه فيه خلل.

ثم ينظر ﷺ حديث (ثلاثة لا يكلمهم الله)[1] ويقول لعبد الله: زد هنا معنى، ويريه الموضع. ويقول له المعنى. فيقول له عبد الله: ألم تخبرني أنه ليس فيه خلل؟ فيقول ﷺ: ليس فيه خلل، وما أقول لك أن تزيده إنما هو زيادة حسنة.

الرؤيا الثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه عليّ واثنان من الصحابة، رضي الله عنهم، فقال عبد الله: يا رسول الله، ما الحكمة بأن جعل هذا الشرح على هاتين اللغتين وأنا لم أقصدهما؟ فيقول ﷺ: لوجهين من الحكمة. (أحدهما) أن الوقت كثر فيه علم الكلام والمجادلة به عن الحق ويظهر به الباطل، فجاء بهاتين ليكون إعجازاً لهم وردًّا عليهم. (والآخر) لكثرة أعدائك وقلة مناصفتهم لك في الحق. فجعل ذلك نصرة لك عليهم، وليعلموا قدر جلال الله وعظم قدرته وعنايته سبحانه بمن تعلق به صادقاً.

الرؤيا الحادية والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ أتى المسجد الذي بقرب منزل عبد الله ومعه جميع الأنبياء والصحابة، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأصحاب عبد الله الأموات، ثم يأتي باقي أصحاب عبد الله الأحياء، ثم يتقدم ﷺ ويصلي بهم الجمعة، ثم يدعو لمحمّد الفاسي دعاء كثيراً.

ثم يقول ﷺ لعبد الله: هل لك من حاجة أدعو لك بها؟ فيقول عبد الله: حوائج كثيرة. فيدعو ﷺ لعبد الله بما في نفسه وزيادة على ذلك كثيرة، ثم يدعو لجميع الإخوان.

ثم إنه ﷺ يأتي منزل عبد الله وحده، ويوصيه بما يقول عند خروجه لصلاة الجمعة، ثم يُخرج ﷺ الشرح، وتلك المرائي التي جاءت فيه، وكلاهما مكتوبان بالأحمر، ويقول ﷺ: هذه الحمرة شهرة فيهما.

---

(١) رقمه ١١٨.

ثم ينظر في حديث (بدء الوحي)[1] فيعجبه ذلك، ويعطي لعبدالله غِفَارَة حمراء[2] في غاية الحسن، وجملة مفاتيح، ويعطيه جملة دور حسان، ويقول عليه السلام: هذه كلها ثواب هذا الحديث.

ثم ينظر في حديث (حلاوة الإيمان)[3] ويعجبه، ويقول: هذا حسن، وخير ما فيه كلامك على (الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) وهذا الكلام في هذا الموضع ما سبقك إليه أحد، ولا خليت لأحد فيه اعتراضاً ولا مطعناً، وقطعت به كل حجة. ثم يعطيه ألف عبد حسان، وعليهم ثياب حسان، وجوارٍ مثل ذلك، فيقول عليه السلام: هؤلاء من عبيدك وجواريك في الجنة، ويعطيه مثل ذلك العدد من خيل مسرجة ملجمة في غاية الحسن، ويقول ﷺ: مجموع هذا ثواب الحديث.

وسئل ﷺ عن صلاة الجمعة، فقال ﷺ: جمع الخاطر على الخير، وظهور في الخير.

الرؤيا الثانية والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ومعه الخلفاء وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم، وكان بيده قدح في غاية الحسن مملوء ماء. فيقول ﷺ: هذا من النهرين الباطنين اللذين في سدرة المنتهى، ويسقي منه لعبد الله وأهله وأصحابه، فيجدون طعمه في غاية الحسن، ثم يخرج لهم طعاماً في غاية الحسن، ليس يشبه طعام الدنيا لا في الطعم ولا في الصفة، ويأكل ﷺ ويأكلون معه، ثم يصلي بهم الظهر، ثم يدعو لهم بعد ذلك.

ثم ينظر في (حديث الإسراء) فيقول ﷺ: في قول عبد الله في الأنهار الأربعة التي في أصل الشجرة التي في سدرة المنتهى: (هل قوله: ينبع في أصل الشجرة هل هو على الحقيقة أو هو من باب تسمية الشيء بما قرب منه)؟ فيقول ﷺ: ليس فيه مجاز، بل هو حقيقة. وكذلك في قول عبد الله (هل الشجرة مغروسة في شيء أم[4] لا؟ محتمل) فقال ﷺ حقيقة إنها في شيء، لا مجاز.

---

(١) رقمه ١.

(٢) جاء في معجم دوزي المسمّى: «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» ص٢٥٥: الغفارة نوع طاقية من طواقي المرأة، قد تكون اسماً للمقنعة التي تغطي بها الرأس، وتكون حمراء لتناسب الشوابّ. ثم قال: إن عرب الأندلس لم يكونوا يلبسون العمامة وإنما يلبسون الغفارة، وتكون بلونين حمراء وخضراء، أما الغفارة الصفراء فهي خاصة باليهود.

(٣) رقمه ٢.

(٤) كذا وردت. والأفصح أو.

وكذلك قول عبد الله في الأرض التي فيها الشجرة (هل هي من تراب الجنة أو غير ذلك)؟ فقال ﷺ: (ليس هنا محتمل بل حقيقة). فتخصص بقوله (بل حقيقة إذ الأرض هي فيها من تراب الجنة).

ثم قال عليه الصلاة والسلام: كل ما قلت في هذا الحديث (يحتمل) ليس فيه محتمل، بل كل موضع من ذلك حقيقة، وكان ذلك حقًّا بلا احتمال.

ثم ينظر ﷺ ما ذكره عبد الله في تقسيم الصلاة وأسمائها ويعجبه ويقول: كل مرة أنظر فيه يزداد عندي حسناً.

فيذكر له بعض الأصحاب عن تأخر نَسْخ الإخوان هذا الشرح، فيقول ﷺ: لم يرد الله أن يُنسخ حتى يكون يُعدّله ويقابله، ولا يبقى لأحد فيه مطعن، ولو كان نسخ قبل هذه المرائي لقال فيه كل أحد بحسب ما يظهر له. وكان ﷺ يحب قول ابن أبي جمرة في الخطبة: (وعدالة المبلّغ شرط في صحة التبليغ). ثم يقف، عليه السلام، على الدعاء الذي عمله عبد الله لحديث ابن الصامت وحديث الإسراء ويستحسنهما. ويقول لعبد الله: منّ الله عليك بما دعوت فيه، ويحق لمثل هذين أن يكونا إثر هذين الحديثين.

ثم يكسو، عليه السلام، لعبد الله كسوة حسنة، ولجميع أصحابه وأهله، ثم يصعد بهم جميعاً إلى موضع في غاية الحسن، ويقدم لهم عنباً وفقوساً[1] ليس يشبه ما في الدنيا، ويأكل ﷺ ويأكلون معه كلهم أجمعون.

ثم يري لعبد الله جملة بساتين، لا يأخذها حرز، في غاية الحسن، وجملة دور كذلك، وجملة قصور كذلك، فيقول ﷺ: هذه كلها ثواب (حديث الإسراء).

ثم إن الحق سبحانه يخاطب عبد الله بخير، كما يليق بجلاله، ويطلب منه عبد الله أن يبقى له كل خير منّ الله به عليه في الشرح موفوراً، ويقيه ضرر الحاسدين. فيقول جلّ جلاله: الدعاء الذي يأتيك في آخر المرائي يوفي بهذا كله وغيره.

ويقول جلّ جلاله: قل لمحمّد الفاسي يجتهد، ولا يعظم عليه شيء، ولا ينظر في الأمور بنفسه، ويطلب العون مني، فأنا أعينه، فإذا أعنته فلا يصعب عليه فيه شغل، وإن كان عليه شغل الدنيا كله.

وكأن سيّدنا ﷺ قبل أن يصعد بعبد الله وأصحابه ينظر في حديث (إذا نودي بالصلاة أدبر

(١) الفَقّوس: في الشام: نوع من البطيخ الصغير لم يتمّ نُضْجُهُ بعد، وفي مصر: نوع من القثّاء.

الشيطان)[١] ويعجبه، وينظر فيه إلى قول عبدالله (وظننت بسوء فهمك أنك في الغالب تراه) يكرره ويعجبه ويقول: هذا حق.

وينظر في (حديث السقاية)[٢] ويعجبه، ويقول: حق هذا. ثم ينظر ما ذكر عبد الله فيه (فإن العين إذا لم تركم لم ترَ شيئاً يسرّها وإذا أبصرتكم لم ترَ شيئاً يسوءها). فيعجبه ويكرره.

ثم إن محمّداً الفاسي يشكو له ما به من التشويش من بعض الناس، فيقول: تصدّق كل يوم بما تقدر اتباعاً لسنتي تُـكْفَ ضرره، وإن لم تقدر على الصدقة فاقرأ كل يوم بعد الصبح حزباً من القرآن وقل: ثواب هذا صدقة على والدي أن يكفيني شر هذا الشخص، وتقرأ المعوذتين وتدعو بهذا الدعاء:

«اللهم اكفنا شر كل ذي شر، وحسد كل ذي حسد، وسحر كل ذي سحر، وارزقنا الاستقامة حتى لا يضرنا أعداؤنا، لا في الباطن ولا في الظاهر، واسترنا بسترك، واحمنا بحمايتك التي لا يقدر أحد على زوالها، وارزقنا اتباع سنّـة نبيّـك محمّد عليه السلام، وملة أبينا إبراهيم خليلك عليه السلام، وارزقنا ما رزقت الخواص من عبادك، ولا تجعل خوفنا ولا رجاءنا إلا فيك، واملأ قلوبنا بحبك وحب نبيك عليه الصلاة والسلام حتى لا يضرنا معه ضرر كل ذي ضرر، من إنس وجن، واحفظنا في السر والعلانية، برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم».

الرؤيا الثالثة والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبدالله بن أبي جمرة ومعه جمع من الأنصار، ويصلي، ويصلي عبدالله معه.

ثم إن عبدالله يدعو بما خطر له، وكأنه ﷺ يؤمّن على دعائه.

ثم إنه ﷺ ينظر في (حديث الإفك) ويريه فيه موضعاً، ويقول له: زِدْ هنا معنى. ويذكر له ذلك المعنى، ثم يعطيه خيلاً خضراً وكحلاً في غاية الحسن وجملة ثياب خضر، وهو ﷺ يتلو ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[٣] ونحو الخمسين داراً حساناً، وجملة طيور خضر في

---

(١) رقمه ١٨٠.
(٢) رقمه ٨٠.
(٣) سورة الكهف، من الآية ٣١.

غاية الحسن، ويقول ﷺ: هذا ثواب الدعاءين اللذين جعلت أحدهما آخر (حديث ابن الصامت) والثاني آخر (حديث الإسراء).

ثم إن الأصحاب الأحياء دخلوا وبعض الأموات فيكون في الأموات المجد والسنجاري، وعليهم حالة حسنة.

ويقول السنجاري لبعض الإخوان: قطعتم عليّ بدخول النار، وظننتم أنه لا تسعني رحمة أرحم الراحمين. فأول ما قدمت على الحق سبحانه قال: من هذا؟ قيل: هو من أصحاب ابن أبي جمرة. فقال جلّ جلاله: إني قد غفرت له بصحبة ابن أبي جمرة. وأنا في حال حسن. واعلموا أن المجد المعالي لقي من مشيه في هذه المسألة خيراً كثيراً، وسيأتيكم يحدثكم به. فيقول سيّدنا ﷺ: لا يقطع أحد على رحمة الله، فقد يغفر الله للظالم ويؤاخذ الصالح، يفعل الله ما يشاء سبحانه.

ثم يقول ﷺ: نفعل بكل من صحب عبد الله بن أبي جمرة صادقاً، فإنه من تعلق به إنما[1] تعلق بالله، ومن تعلق بالله صادقاً لا[1] يضيعه، وليعلم الذين يشتغلون في هذا الوقت بهذا العلم أنه من تعلق بالله صادقاً لا[1] يخيبه، وذهب فقههم في هذا الوقت وفي غيره[2].

وكان المجد رحمه الله تعالى يقول للأصحاب: يوم رأيتكم حسدتموني في موتي على هذا الحال، فافعلوا مثل ما فعلته تلقوا مثل ما لقيته.

الرؤيا الرابعة والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ثم ينظر في شرح حديث (يُجمَع خَلْقُ أحدكم في بطن أمه)[3] فيعجبه ما قيل فيه، ويقول ﷺ: ما سبقك لهذا أحد قبلك، ومن أحسن ما فيه كلامُك في أول الحديث حتى إلى (ويكتب أربع كلمات) وكله حسن.

ثم يعطيه جملة ثياب حسان وجملة عبيد وجملة جوارٍ، كل في غاية الحسن، ولجميعهم زي حسن، وجملة بساتين حسان رائعة، وجملة فدادين مزروعة زرعاً حسناً رائقة، وثمراً في غاية الحسن والكبر، ولها ثمر في غاية الحسن في الصفة والرائحة، وليس لها ورق لكثرة ثمرها، وهي بين السماء والأرض، وفيها ثلاث جوارٍ، وهن يجنين من ذلك الثمر ويناولنه أولاد عبد الله، فيقول ﷺ: جميع ذلك ثواب هذا الحديث، ثم يقول: كل مرة أنظر هذا الشرح يزداد في عيني حسناً.

---

(١) كذا. وحقها أن تكون: (فإنما) و (فلا).

(٢) في العبارة غموض.

(٣) رقمه ١٦١.

الـرؤيـا الخامسة والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه عمه العباس رضي الله عنه، وجمع كثير لا أعرفه، فيقول ﷺ لعبد الله: قد أجاب الله دعاءك في هذا الشرح، وجعله مفرّجاً للهموم، وشفاء للصدور، ومنوّراً للقلوب، ومؤنساً في القبور، ومُذهِباً للأحزان، ومفرّجاً لكل الشدائد، كما هو كتاب البخاري. فإن من المحال أن يكون الشفاء في الأصل، ولا يكون في الفرع، فإن في هذا زيادة على الأصل تلك الأدعية التي في أواخر الأحاديث، وإن شرح كل حديث منه ينفع لما تضمنه، وسيأتيك ذلك مفسراً، إن شاء الله، كل حديث لما ينفع لكن حتى تدعو بذلك.

وإذا جاءت الفتنة ـ التي قلت لكم ـ فعليكم بقراءته، فإنه مفرج لها، وعليكم باتباع السنّة.

ثم يعطي لعبد الله جملة دور حسان وجملة بلاد حسان وجملة مفاتيح حسان، ويعطيه مفتاحين في غاية الحسن، ويقول ﷺ: الأول مفتاح باب النصر، والآخر مفتاح باب الفتح.

ويقول: هذا ثواب الدعاء الذي هو إثر (حديث الإفك).

ويأتيه ﷺ بعض الأصحابِ يشكو له تشويشاً في قضية، ويقول: هل تتكلم في هذا أم[1] لا؟ فيقول ﷺ: لا يكن كلامك لِحَظ نَفس، وليكن بنية صلاح في الدين، فإن الكلام إذا كان بحظ نفس لا يعقب خيراً، وطريق القوم[2] مبني على ترك حظ النفس، والكلام به قبيح، وأقبحه ما هو للذي يتعلق بطريق القوم.

ثم إن عبد الله يرغب منه أن يدعو أن يجعل الله هذه المرائي رحمةً كما جعل الشرح. فيقول ﷺ: هي رحمة للمتبعين، وحجة على المنتقدين.

الـرؤيـا السادسة والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل بيت عبد الله بن أبي جمرة، ثم إن الأصحاب قد دخلوا، فيصلي بهم ﷺ الظهر، ثم يقول ﷺ: الموضع الذي لكم معيّن، والميعاد الذي لكم معلوم.

ثم يصعد ﷺ نحو السماء، ويصعد معه عبد الله وأهله وأصحابه، حتى يجاوز بهم السماوات

---

(١) كذا.

(٢) القوم، هنا، يراد بها أهل الصوفة.

السبع، ثم يقعد ﷺ ويقعدون معه، وإذا بكتاب من قبل الحق سبحانه يوضع في يد عبد الله، مكتوب فيه أن هذا الشرح قد برىء وطهر من الهفوات والغفلات والإشكالات والاعتراضات، وأن هذا الشرح قد تضمن جميع ما في الكتاب والسنّة، وتَبيين طرق الحق، والطريق الفاسدة، وما أنا عليه من الجلال والكمال، وعلى فضل نبيّي ومنزلته، وفضل أصحابه وأزواجه، وتبرئة عائشة والصحابة مما نسب إليهم، وتَبيين طريقهم، وأنه ليس فيه خلل، ولا مطعن لطاعن، ولا اعتراض لمعترض، ولا حجة لمحتج، لا من طريق العقل، ولا من طريق النقل، ولا من طريق النفس والشيطان. وإني ما جعلت قائله يقوله حتى مننت عليه بأربع خصال: اتباع السنّة، وأنه ما وضع فيه حرفاً إلا بدليل من الكتاب والسنّة دون حظ نفس ولا شهوة إلا ابتغاء مرضاتي، وأنه ما عمل فيه شيئاً إلا بعد الاستخارة، وأنه جعل قاعدته ألا يخاف ولا يرجو إلا الإنابة.

وإن هذا الشرح مقوٍّ للإيمان والحب لله ولرسوله، ومذهب لنزغات الشيطان والغفلات والهفوات، وشفاء لمرض القلوب، ومزيل لما يقع في النفوس من الشكوك والإشكالات، وفيه تبيين الصلاة ومعانيها، والخير الذي فيها وتقسيمها، ولمن هي. وفيه حديث واحد جمع فيه معاني ما جاءت به كتبي ورسلي وجميع معاني كتب كل الفقهاء من عبادي، وهو (حديث أنا عند ظن عبدي بي)[1].

وهو خير العلوم والكتب التي تقتنى، وأنه يحق له أن يسمى (بهجة النفوس وتحلّيها)، وإني لا أعطيه أحداً إلا لمن كانت فيه واحدة من ثلاثة خصال وهو: أن يكون فيه أهلية، أو يكون مصدقاً، أو يكون يعمل به أو بأكثره أو من جميعها كلها.

ثم إن سيّدنا ﷺ ينزل ومن كان صعد معه حتى يأتوا منزل عبد الله كما كانوا أولاً، ويقول ﷺ: هذه الرؤيا أبلغ ما جاء في هذا الشرح.

ثم يشكو له أبو عثمان دوخ رأسه إذا نظر في الكتاب، وأنه كثير النسيان فيقول ﷺ: أما النسيان فانظر في (حديث الأشعريين)[2] وأما الدوخة فانظر في الشرح فإنه جعل شفاء، لكن لمن ينظر فيه بنية. فيقول أبو عثمان: ما أقدر على أن أنظر فيه، فيقول ﷺ: من المحال أن يجعل شفاء ويدوخ رأسك بالنظر فيه. وقد أعلمك ابن أبي جمرة ما فعل مع غيرك من الشفاء.

---

(١) رقمه ٢٩٥.
(٢) رقمه ١٥٥.

الـرؤيـا السابعة والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، فنظر في حديث (صلّى بنا إحدى صلاتي العشيّ)[1] ويقول لعبدالله: زدنا هنا معنى. ثم يقول ﷺ: لست أنت جهلت هذا المعنى، وإنما لم يكن وَصَلَ وقتُه. ولوجه آخر، وهو لا يكون في هذا الشرح من كلامي مواضع لتكمل فيه البركة من كل الوجوه، وتخبر بهذا الأصحاب، أو تجعله في المرائي، وتذكر فيها أن كل زيادة في هذا الشرح إنما هي زيادة حسن وبركة، لأنه لما أن اصطفى الله سبحانه من هذا الشرح لم يبق منه حديث واحد حتى وقف عليه جميع الأنبياء والرسل وجميع ملائكة السماوات والأرض وما فيهما، والكل أعجبهم، وتكلموا فيه.

ثم سمى لعبد الله قوماً قد أجمعوا له على مكرٍ، فسماهم له، وأمره بشيء يفعله، فإذا فعله ينعكس عليهم مكرهم، إن شاء الله تعالى.

الـرؤيـا الثامنة والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه أزواجه رضي الله عنهن، فنظر في حديث (ماتت لنا شاة فدبغنا مَسْكَها)[2] وفي (حديث بريرة)[3] فيعجبه ذلك، فيعطيه خيراً كثيراً ويقول له: هذا ثواب كلامك على آخر حديث بريرة، ولم يسبقك إلى تلك المعاني أحد. ثم يعطيه جملة ثياب وعنبراً، ويقول: هذا ثواب حديث (ماتت لنا شاة) ثم يعطيه ورداً ومِسكاً، ويقول ﷺ: هذا على ذلك المعنى الذي زدته في حديث (صلّى بنا إحدى صلاتي العَشِيّ)[4]، ثم يقول ﷺ: كل مرة أنظر في هذا الشرح يزداد في عيني حُسناً. ثم يقول لعبد الله: هذه الزيادة التي زدتها لك في الشرح من كلامي ولم نفعل مع أحد قبلك، ولا بلغها.

ثم يقول ﷺ لأبي عثمان: ولِمَ منعتَ من نسخ المرائي وقلت: حتى تكمل، فأنت تعلم الغيب حتى تعلم أن لها آخراً؟ ومع هذا ففي نسخها خير متعدٍ.

ثم إن الزوجات رضي الله عنهن يقلن: نحن أولى بنسخ هذا الشرح، ثم يخرجن ورقاً لأن ينسخنه.

---

(١) رقمه ٣١.
(٢) رقمه ٢٧٣.
(٣) رقمه ٢٠٨.
(٤) رقمه ٣١.

الرؤيا التاسعة والثلاثون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ثم يقول له: اعلم أنك لما تكلمت في حديث (مفاتيح الغيب خمس)[1] أعطاك الله مفاتيح السماوات السبع، والجنان السبع، تفتح أيها شئت. ولما تكلمت في حديث (فتنة القبر)[2] أعطاك الله مفاتيح طريق القوم تفتح أيها شئت، وأعطاك العون. هذا غير ما لَكَ عنده حتى تراه إن شاء الله. ويعطيه جملة مسك وعنبر، ويقول ﷺ: مثل هذا يدخل عليك كل يوم بالنسخ الذي أنت نسخته من ذلك الشرح.

الرؤيا الأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ومعه الخلفاء، وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، فينظر في الشرح فيقول له بعض الحاضرين: يا رسول الله، إلى كم تنظر في هذا الشرح؟ فيقول ﷺ: كل مرة أنظر فيه يزداد عندي حسناً، وهذا أيضاً من بركته.

ثم ينظر في (حديث إذا أحب الله عبداً)[3] وفي (حديث أتى عليه السلام عليّاً وفاطمة طُروقاً)[4] فيعجبه. ثم إن عليّاً، رضي الله عنه، ينظر في (حديث طروقاً) ويقول: سبحان الله، ما أعرفه بمعاني كلامنا! فيقول بعض الحاضرين: لعلمه بالعربية. فيقول رضي الله عنه: بالتوفيق، فإن غيره يعرف العربية ولا يقدر أن يفهم من كلامنا ما يفهم هو.

ثم إن النبيّ ﷺ يقول لعبد الله: قم نصلي وندعو، وحينئذ نصعد بك ونريك ثواب هذين الحديثين. فيقوم ﷺ ويصلي بهم اثنتي عشرة ركعة. في كل ركعة يقرأ بالفاتحة ومعها في الأولى (بأول البقرة) حتى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[5].

والثانية (بآية الكرسي) حتى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ويزيد عليها إلى قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[6].

---

(١) رقمه ٢٩.
(٢) رقمه ١٢.
(٣) رقمه ٢٩٣.
(٤) رقمه ٢٩٢.
(٥) البقرة، ١ ـ ٥.
(٦) البقرة، ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

والثالثة ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[1] إلى آخر السورة.

والرابعة (بأول آل عمران) إلى قوله ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[2] و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[3].

والخامسة ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾[4] و﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[5] الذي في آخر آل عمران.

والسادسة ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾[6].

والسابعة ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[7] التي في الأعراف.

والثامنة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾[8] إلى آخر الآيات ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[9].

والتاسعة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[10].

والعاشرة ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾[11] إلى آخر السورة.

والحادية عشرة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[12] و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[13].

الثانية عشرة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾[14] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾[15].

وكان يسلّم من كل ركعتين، ويدعو بينهما بهذا الدعاء:

---

(١) البقرة، ٢٨٥ ـ ٢٨٦.
(٢) آل عمران، ١ ـ ٨.
(٣) آل عمران، ١٨.
(٤) آل عمران، ٢٦ ـ ٢٧.
(٥) آل عمران، ١٩٠ ـ ١٩٤.
(٦) الأنعام، ٥٩
(٧) الأعراف، ٥٤.
(٨) التوبة، الآية ١٢٨ و١٢٩.
(٩) الإسراء، الآية ٨٢.
(١٠) الشعراء، من الآية ٧٨ إلى ٨٩.
(١١) الحشر، من الآية ٢١ إلى ٢٤.
(١٢) النصر.
(١٣) الإخلاص.
(١٤) الفلق.
(١٥) الناس.

«اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. اللهم لا مضلّ لمن هديته، ولا هادي لمن أضللته، ولا مشقي لمن أسعدته، ولا مسعد لمن أشقيته، ولا معزّ لمن ذللته، ولا مذلّ لمن عززته، ولا رافع لمن خفضته، ولا خافض لمن رفعته.

اللهم اهدنا لما أمرتنا، ووفّ لنا بما ضمنت لنا من خير الدنيا والآخرة، وقوّ يقيننا فيما رجيّتنا، وانصرنا على أعدائنا في الباطن والظاهر.

وأسألك اللهم ما سألك به خليلك إبراهيم، عليه السلام، من النور واليقين، وما سألك به محمّد نبيك من النصر والتوفيق، إنك حميد مجيد، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم».

ثم يصعد ﷺ إلى السماء الثالثة ويصعد معه عبد الله وحده، ويترك الخلفاء والصحابة في منزل عبد الله، فيريه هناك جملة بساتين وجملة قصور، وجملة دور، وجملة جنّات مزروعة زرعاً حسناً، ويكون واحد من تلك البساتين لثمره حسن زائد. فيسأل عبد الله له ﷺ عن تلك الثمار ما هي؟ فيقول: هي من المسك.

ثم إنه ﷺ يقول لعبد الله: هذا ثوب ذينك. ويعيّن له الذي لكل حديث على حدة، فيكون الذي (لحديث طروقاً) أكثر من الآخر.

ثم يعود ﷺ إلى المنزل كما كان أولاً، فيقول عبد الله: يا رسول الله، أراك لا تريني ثواب حديث حتى تقف عليه؟ فيقول ﷺ: قبل أن أقف عليه لا أعرف ما لك فيه، فإذا وقفت عليه أخبرت بالذي لك فيه، وأنا حي وميت لا أفعل شيئاً إلا بعد الإذن. وفي هذا تعليم أنه لا يفعل أحد شيئاً حتى يعرف الأمر فيه.

ثم يعطيه خيراً كثيراً، ومن جملته ثياب، ويقول له: هذا ثواب ذلك النسخ الذي تنسخ. فيقول عبد الله: الثياب اليوم إيمان، وكيف تعطيني في الجزاء ثياباً؟ فيقول ﷺ: إن إيمانك يقوى ببعض تلك الأحاديث أكثر من الآخر، فلذلك أعطيك الثياب. ثم يقول عبد الله: ولمَ علّمْتَنِي هذه الصلاة في هذا الوقت؟ فيقول ﷺ: فيها اثنان وأربعون وجهاً من الحكمة، وإذا نظرتها تعرفها منها، لكون الوقت محتاجاً إليها، ومنها من أجل الحوائج التي طلبتها في الأمس، ومنها أنه من صلّى هذه الصلاة، ودعا بهذا الدعاء، كما فعلتُها أنا، مصدّقاً لقولي، وممثلاً لأمري، فأي شيء دعا به أستجيب له: فيقول عبد الله لا أدعو بهذا الدعاء إلا في هذه الصلاة ليس إلا؟ فيقول ﷺ: ادع به إذا شئت، وتقدّمه في أول دعائك، ثم تدعو بعده بما شئت يستجاب لك. ومن الفوائد التي فيه: أن

الإيمان قد ضعف، ومن يقف على هذا ويدعو به يقوى إيمانه، وإذا قوي إيمانه يكون لك أنت الأجر في ذلك. واجتهد في الدعاء، فإن الخير في إقبال، كالزرع إذا بدأ خيره.

الـــرؤيـــا الحادية والأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، ثم دخل بعض أصحاب ابن أبي جمرة، فيكسو ﷺ لعبد الله كسوة حسنة، ويكسو أهله وأصحابه، ثم يقول ﷺ لعبد الله: تعال نريك ما لك من الخير في ذلك الشرح.

ثم يصعد ﷺ ومعه عبد الله والحاضرون إلى موضع في غاية الحسن، ثم إن عبد الله يقوم ويصلي ركعتين، فإذا فرغ منهما يتجلى له الحق سبحانه ويخاطبه بفضله، ثم يسأله، وهو العليم: لماذا حبست ذلك الشرح؟ فيقول عبد الله: لك وابتغاء مرضاتك، وإنفاذاً لأمرك. فيقول جلّ جلاله: أكبر نعمة أعطي عبدي أن يفعل الشيء فيّ ولي، وأنا قد مننت عليك بأن فعلت هذا الشرح فيّ ولي، وأنا أمنن عليك بالعمل به وأعينك عليه.

ثم إن عبد الله يطلب من مولاه، عزّ وجلّ، حوائج. فيقول سبحانه: قد مننت بها عليك، لكن حتى تتبع في ذلك السنّـة، وهي: أن تطلبها في عالم الحس وأنت مستيقظ.

ثم إن سيّدنا ﷺ يُري لعبد الله جملة قصور وجملة دور وجملة بساتين، الكل في غاية الحسن، ولا يأخذها تقدير لكثرتها. فيقول عبد الله: هذا ثواب هذا الشرح كله؟ فيقول ﷺ: ليس بل ثواب الحديثين (حديث خطاب الحق سبحانه أهل الجنة)[١] و(حديث أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)[٢] فيقول عبد الله: أريتني هذا الثواب قبل أن تقف على الأحاديث. فيقول ﷺ: كان عندي العلم بها، فلم أحتج إلى الوقوف على الأحاديث.

الـــرؤيـــا الثانية والأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ومعه الخلفاء، رضي الله عنهم، ثم إذا بلال وزيد وأسامة وأنس، رضي الله عنهم، ومعهم خبز علامة في غاية الحسن، وإدام ليس فيه لحم، وهو في غاية الحسن، ولا يشبه طعام الدنيا، وإذا بالصحابه رضي الله عنهم قد دخلوا، وإذا

---

(١) رقمه ٢٩٦.
(٢) رقمه ٢٩٥.

بأصحاب ابن أبي جمرة. فيقدم ذلك الطعام، ويقول للصحابة، رضي الله عنهم: تعالوا كلوا الطعام شكرانة النصر، فيأكل ﷺ وكل من ذكرنا. فيقول عبد الله: وكيف يكون شكرانة قبل ظهور الشيء؟ فيقول سيّدنا ﷺ: الساعة يظهر.

ثم إنه ﷺ يقول لعبد الله: إن ليلة القدر تكون السنة في رمضان ليلة سبع وعشرين كما كانت عام أول، وإنها تبقى في ليلة سبع وعشرين من رمضان سبع سنين، وإنها لم تكن قط في شهر واحد سنتين متواليتين، وإنها بعد تمام السبع سنين ترجع تدور كما كانت قبل. فيقول عبد الله: ولم أخبرتنا بها السنة قبل رمضان؟ فيقول ﷺ: لأن يكون عندك خبرها، وتأخذ الأهبة لها.

ثم إن عبد الله يسأله ﷺ: ما الحكمة بأن تكون في هذه السبع سنين متوالية؟ فيقول ﷺ: إذا نظرتها تعرف ذلك.

ثم إنه ﷺ يُري لعبد الله مباني في غاية الحسن، ليس في مباني الدنيا مثلها، وهي بعضها فوق بعض، ويقول ﷺ: هذا ثواب حديث (من يقم ليلة القدر)[١].

الرؤيا الثالثة والأربعون

كأن سيدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ودخل معه الخلفاء، رضي الله عنهم، فيصلي بعبد الله وأهله وأصحابه صلاة الظهر، ثم يصعد بالجميع حتى يجاوز السبع سماوات، ثم ينظرون، وإذا بتشويش عظيم قد وقع في الأرض، فيفزع لذلك بعض الأصحاب، فيقول ﷺ: ليس عليكم منه شيء، وإنما أنتم هنا.

ثم يُري لعبد الله دوراً في غاية الحسن نحو الخمسين، ومساجد في غاية الحسن والكبر، وفي كل واحد منها مئذنة في غاية الكبر والارتفاع والحسن، وهي نحو العشرين، وبساتين في غاية الحسن والكبر، وفي كل واحدة منها برج فيه ارتفاع وجمال، وفيه طاقات في غاية الحسن، والبساتين نحو الخمسة عشر، ويقول ﷺ: هذا ثواب حديث (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة)[٢] ثم إن ذلك التشويش يذهب ببعض الناس، وتتهدن الأرض، ويحسن الحال. ثم يحين وقت صلاة الصبح، فيقوم محمّد الحلواني ويؤذن ويصلي ﷺ الصبح، ويصلي معه كل من كان معه. ثم يقول عبد الله: ولم صليت بنا هنا صلاة الصبح؟ فيقول ﷺ: هي صلاح في الدين، وصلح وطهور.

---

(١) رقمه ٥.
(٢) رقمه ١٨٧.

والدليل على ذلك من الحديث قول عائشة، رضي الله عنها، الذي عبّرت به عن ظهور الحق بفلق الصبح، وذكر عن صلاة الظهر أنها نصر وظهور.

ثم ينزل ﷺ وينزل معه عبد الله وكل من صعد معه إلى منزل عبد الله، كما كانوا أوّلاً.

ثم يقول لعبد الله: اجتهد في الدعاء، وقل لأصحابك يجتهدون في الدعاء، فإن الوقت يحتاج إلى ذلك، وهو وقت إجابة.

ثم يقول له: وإذا كنت في صلاة أول خمس من رجب وليلة النصف من شعبان: اجتهد أنت وأصحابك في الدعاء، فإن الدعاء فيها مقبول، وإن الخلفاء يعمرون في تلك الليلة المسجد. فيقول له عبد الله: نصلّيهما مجتمعين؟ فيقول ﷺ: بل يصلّيها كل إنسان منكم في منزله. ويقول هنا لعبد الله كلاماً، ويقول له: لا تذكره حتى تخرج.

الرؤيا الرابعة والأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، وكان عند دخوله ﷺ يظهر في منزل عبد الله بناء حسن، يُشبَّه بالبيوت المغربية، وهو مملوء نوراً، وداخله ناس في غاية الحسن، وبإزائه ماء في غاية الحسن. ويدور بالماء ثمار عنب مثمرة حسان، ويسوق معه ﷺ خبز علامة في غاية الحسن، وحليباً كثيراً، وعليه زيت طيب، وعنب كثير، وتين أخضر. ويقول لعبد الله وأصحابه: تعالوا كلوا شكرانة الشرح. فيقول عبد الله: وعلى ماذا؟ فيقول ﷺ: لأنه يهتدي به ناس كثيرون، إن هذه المرائي يهتدي بها ناس كثير، وإن لم يعاينوا الشرح.

ويقول ﷺ عن ذلك الماء هو علم ذلك، وذلك البناء هو حسن الحال به، وعن الثلاثة الأشخاص الذين في حراسته فيقول عبد الله لأحد أولئك الأشخاص الذين هم داخل ذلك البناء: ألا تدعو أن يجعل الله هذا الشرح خالصاً لوجهه، مقبولاً بفضله؟ وإذا بالخطاب من قبل الحق سبحانه: إنني قد قبلته، وجعلته خالصاً لوجهي، وإني أهدي به ناساً كثيراً، وإن الوقت يحتاج إليه، لأن الإيمان قلَّ عند بعض الناس.

الرؤيا الخامسة والأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ويصلي به وبأهله وبأصحابه الظهر، ثم ينظر

في الشرح في حديث (القائم على حدود الله)[1] ويعجبه، ثم يصعد بعبد الله وبأهله وبأصحابه إلى فوق السماوات السبع كما فعل في الرؤيا قبل، وإذ بتشويش قد وقع في الأرض، كما كان في الرؤيا قبل، ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه جملة دور وقصور في غاية الارتفاع والحسن، ويعطيه جملة ثياب، ويقول: هذا ثواب ذلك الحديث. ثم يريه شجرة عظيمة خضراء قد ملأت ما بين الأرض والسماء، وثمرها أبيض، وفيها أشخاص في غاية الحسن، فيقول عليه السلام: تلك الشجرة هي إيمانك، والثمر الذي فيها هو عملك، والأشخاص الذين فيها حراسها.

ثم إن ذلك التشويش يزول، فيهبط عليه السلام وكل من صعد معه حتى يأتوا منزل عبد الله، ثم يخرج عليه السلام إلى المسجد، ويخرج معه عبد الله وأصحابه، فيصلي بهم، ويجمع بالناس صلاة نافلة، ثم يعود عليه السلام إلى منزل عبد الله، فينظر في (حديث ابن الصامت)[2] في الكلام على (الرحمن على العرش استوى) فيعجبه. فيقول لعبد الله: انظر، وإذا بنحو المائة فرس حسان كلها ملجمة مسروجة، وإذا بما يقرب من عددها صناديق كبار مختلفة الألوان، مملوءة ياقوتاً وجواهر وثياب حرير رفيع في غاية الحسن. ويقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الموضع. فيقول عبد الله: لم لا تريني ثوابها جملة؟ فيقول عليه السلام: الأحاديث الكبار لا أريد أن أريك ثوابها جملة.

ثم إن بعض الحاضرين يسأله عن توالي هذه المرائي. فيقول عليه السلام: لما كان بدء الرسالة بالمرائي، وتتابعت حتى جاء الخير ـ كما هو مذكور في الحديث، وهو الحق ـ كذلك النصرة لها، تكون أولاً بالمرائي متتابعات، حتى يأتي النصر، ويظهر الحق، ويكمل ظهوره.

ثم إن بعض الأولاد كان رأى بالنهار رؤيا، فيذكرها له عليه السلام، فيعبرها، وكانت الرؤيا أن منزل عبد الله كأنه باب انفتح، وهو قد كبر واتسع، فكان عبد الله يروم غلقه فلا يقدر، وإذا بهاتف يقول: قد انفتح الباب، فلا يقدر على غلقه، وكان بيت أبي عثمان يرتفع ويحسن ويتّسع، وكان بعض الحكام في الوقت يأتي عند باب عبد الله ويبسط فوطة ويصلي العصر، فيقول عليه السلام: الذي قاله الهاتف حق. معناه على ثلاثة أقسام: قد انفتحت القلوب لقبول الحق والتصديق به، وقد انفتح باب الله سبحانه لقبول التوبة وقبول الدعاء، وانفتح باب النصر. وأما ارتفاع المنزل وحسنه فإيمانه يتسع ويحسن. وأما صلاة العصر فيحتمل وجهين: تيسير الخير، ويحتمل التفسير. وإنما هو في الوقت تيسير الخير. فيقول ذلك الشخص: وصلاة المغرب يا رسول الله في النوم؟ فيقول عليه السلام غروب الشر وإقبال الخير.

---

(١) رقمه ١٠٣.

(٢) رقمه ٣.

الرؤيا السادسة والأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، ويُري لعبد الله ثلاثين بيتاً مملوءة درًّا وياقوتاً وزمرداً، وبينها مصاحف وكتب من كتب السنة، ويقول عليه السلام: هذا بقية ثواب (حديث ابن الصامت) ويعطيه مفاتيحها.

ثم يريه، عليه السلام، نحو ألف بستان في غاية الحسن، وكتب الأحاديث كلها، وصناديق نحو المائة مملوءة بالرجال، ويعطيه لواء أبيض، ويقول: هذا لوائي إلى يوم القيامة، وجميع هذا بقية ثواب (حديث الإسراء). فيسأله عبد الله ما معنى تلك الصناديق التي فيها الرجال؟ فيقول عليه السلام: قلوب رجال تقبل معاني هذه الأحاديث.

الرؤيا السابعة والأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، وبيده كتاب من عند الحق سبحانه، ويكون فيه جملة من الخير مما يليق بفضله، جلّ جلاله، وأكثرها في شأن الشرح، وفيه أنواع من الخير لعبد الله، وشيء لمحمّد الفاسي، لكونه كان السبب فيه، وما لمن نسخه من الخير، أو صدّق به، ولمن عمل بشيء منه، ومنها في شأن الشرح نفسه.

وكان من جملتها أن (حديث ابن الصامت) وحده لا تعدله كتب جميع الفقهاء، وأن (حديث الإسراء) لا يعدله كتب أهل الطريق، وأن الحديث الذي قيل فيه (من تصبّح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر)[1] أنه من فعل ذلك صادقاً مصدقاً لا يضره ذلك اليوم ما نص عليه في الحديث نفسه.

ثم إنه، عليه السلام، يصعد بعبد الله وأهله وأصحابه إلى فوق سبع سماوات، ثم يريه، عليه السلام، بيتاً في غاية الحسن، ويدور بالبيت كله مصابيح في غاية الحسن من فضة، وجملة خدام في غاية الحسن يدورون به، والخلفاء الأربعة، رضي الله عنهم، داخل البيت، كل واحد منهم على سرير، فيقول عليه السلام: هذا ثواب حديث (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة)[2] ثم يريه عليه السلام بيتاً ثانياً مثل ذلك مملوءاً مسكاً، ونحو المائة فرس في غاية الحسن مسرجة ملجمة.

---

(١) رقمه ٢١٢.
(٢) رقمه ٢٧٧.

ويقول عليه السلام: هذا ثواب حديث (إن الزمان قد استدار)[1] ثم يريه ﷺ نحو المائة بستان في غاية الحسن ومثلها دوراً، ويقول ﷺ: هذا ثواب حديث حذيفة الذي قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير)[2] الحديث. ثم يريه دوراً وبساتين مثل ما تقدم، ونحو المائة عبد في غاية الحسن في الذات والزيّ، ومثلهم جوارٍ، وجملة ثياب ويقول: هذا ثواب حديث (من استطاع منكم الباءة)[3] ثم يريه عليه السلام من الخير ما لا يلحق البصر آخره، ولا يقدر اللسان على وصفه. ويقول عليه السلام: هذا ثواب شهرة هذا الشرح في هذا البلد. فيقول عبد الله: هذا هو ثواب شهرته لا غير؟ فيقول عليه السلام: الخير أكثر من ذلك، مثل هذا يدخل عليك كل يوم إذا اشتهر في هذا البلد، وإنه قد اشتهر شرقاً وغرباً، وعلى قدر ما يشتهر في كل بلد يكون لك من الثواب كل يوم، ولا ينقصك من هذا شيء. ولمحمّد الفاسي دون ذلك كل يوم، لكونه كان السبب فيه.

الرؤيا الثامنة والأربعون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، فكان عبد الله يعرض عليه الرؤيا المتقدمة لموضع كان بقي عليه فيه إشكال. فيقول عليه السلام: أريك ما هو خير من هذا، ما لك في النص، وما لك في الشرح. فيريه ثلاثين بيتاً في غاية الارتفاع والاتساع والطول، وهي في غاية الحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وعلى كل بيت بواب، فتكون بعض تلك البيوتات مملوءة بالأوامر التي يحتاج إليها هذا النص، وما يجري فيه من الأمور الكليات والجزئيات. ويقول عليه السلام: هذه كلها ثواب النص. فمن جملة ما ملئت به تلك البيوت بيت مملوء نوراً. فيقول عليه السلام: هذا ثواب الرضى ومثله. فيقول عليه السلام: وهذا ثواب التوكل ومثله. فيقول عليه السلام: هذا ثواب اتباع الأمر في هذه القضية ومثله. فيقول عليه السلام: هذا ثواب التوفيق والنصر ومثله. فيقول عليه السلام: هذا ثواب النور واليقين ومثله، فيقول عليه السلام: هذا ثواب مجاهدتك في حق الله ورسوله. وبيت مملوء زمرداً، وآخر مملوء ياقوتاً، وآخر مملوء ثياباً، وآخر مملوء عنبراً، وآخر مملوء حُوراً عيناً، وآخر مملوء مسكاً، وآخر مملوء ورداً، وباقيها لا يقدر أحد يصف ما فيها من الخير.

ثم يريه، عليه السلام، مائة بيت مثل ما تقدم في الحسن، ويقول عليه السلام: جميع هذه

---

(١) رقمه ٢٢٣.

(٢) رقمه ٢٨٦.

(٣) رقمه ٨٧.

مالك في هذا الشرح. فيكون أحد تلك البيوت مملوءاً بما يكون في هذا الشرح، ومن يقبله، ويعمل به، وما له من الخير، ومن يراه ويصدّق به، ومن يصدّق به ولا يراه، وما له من الخير على ذلك، ومن يعمل ببعضه. وأموراً مما يشبه هذا: كليات وجزئيات. وعليه بواب، كذلك على كل بيت من المائة بواب، فيكون منها اثنان مملوءان مصابيح في غاية الحسن موقدة، وأربعة مملوءة نوراً، واثنان مملوءان إيماناً وحكمة.

ومن كل ما ذكرنا في بيوت النصر من كل نوع بيتان: واحد مملوء خيراً، وآخر مملوء سندساً، وباقيها لا يقدر أحد على أن يصف ما فيها من الخير. ويقول عليه السلام: هذا جمع لك خير الدنيا والآخرة، ولمحمّد الفاسي خمسون بيتاً دون ذلك لكونه كان هو السبب. فيقول عبد الله: يا رسول الله ما معنى تأخر النصر إلى هذا الوقت؟ فيقول عليه السلام: إنه قد قرب، ولأنه لا يكون تحلٍّ إلا بعد تخلٍّ - كما ذكرت في الشرح - ولأنه لا يكون الفرح إلا عند التناهي ولا يكون التناهي إلا بعد المبادي. واسأل الخزان يخبروك، فإنه أبلغ في البيان، لأن الأمر عندهم.

فيسأل عبد الله خازن بيت أوامر النصر فيقول له: لثلاثة أوجه من الحكمة (الواحدة) لقربه، ويعين له عدد الأيام التي بقيت، ولأن تعرف الأمر الذي يسرّك فتشكر الله عليه، وتعرف الذي تحتاج أن تأخذ حذرك منه، فتستعد له.

فيقول عبد الله لسيّدنا ﷺ: لقد كانت مجاهدة. فيقول عليه السلام: ولولا ذلك ما حصل لك هذا، وما بقيت إن شاء الله مجاهدة أكثر، والله لا يجعل لك عودة لمثلها.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الرؤيا التاسعة والأربعون

كان سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه عليّ بن أبي طالب، واثنان من الصحابة رضي الله عنهم. فيسأله عبد الله عن الذي قاله خازن بيت أوامر النصر «أن تعرف الذي تحتاج أن تأخذ حذرك منه فتستعد له» فيقول عليه السلام: ليس المراد منك شيئاً من جهة المحسوس، وإنما هو من جهة المعنى، وهو أن تجتهد في الدعاء، وتحض أصحابك الجوانيين والبرانيين على الصدقة، واتباع السنّة، وتحض ذينك الشخصين اللذين تعلقا به على ألا يلتفتا إلى العوائد ولا يخافا ولا يرجوا إلا الله، ولا يفارقا ما أوصيتهما به أولاً وآخراً.

فيسأله، عليه السلام، بعض الأولاد: وما الحكمة في كثرة تردد مجيء عليّ معك في هذا

الوقت؟ فيقول عليه السلام: لعلو الأمر ورفعته. وسأله عليه السلام عبد الله: هل تلك البيوت التي كانت في الرؤيا قبل هذه محسوسة أو إشارات معنويات؟ فقال عليه السلام: أما البيتان اللذان فيهما أوامر النصر وأوامر الشرح، فإن الأمرين أنزلا في أول ليلة من رجب من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، وجعلا في موضعين، كل واحد منهما في موضع، ووكل بكل واحد أشخاص لتنفيذ الأمر، وغير ذلك من البيوت فيها ما هو حسي، وفيها ما هو معنوي.

الرؤيا الخمسون

كأن سيدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، وينظر في حديث (إذا التقى المسلمان بسيفيهما)(1) فيعجبه ذلك القول. فلما بلغ لقول عبد الله بن أبي جمرة «لم خص ﷺ ذكر السيف دون غيره» فيعجبه ذلك الجواب الذي جاوب عليه ابن أبي جمرة، وقال: ما قصدت إلا هذا. ومن فهم خلاف هذا ما فهم عني ما قصدته.

ثم ينظر في (حديث ليلة القدر)(2) فلما بلغ قول ابن أبي جمرة «وهل قيامها أفضل من كل ليلة من ألف شهر على انفراد الليالي أو قيامها أفضل من مجموع قيام الألف شهر؟ محتمل للوجهين معاً» فقال عليه السلام: ليس فيه احتمال، كله حقيقة وحق، وكل ما ذكرته في هذا الشرح من محتمل فليس فيه احتمال، كله حقيقة، فإنه كله عن الله، وما هو عن الله فليس فيه احتمال، كله حقيقة. فيقول عبد الله: ولم لم تخبرني بهذا الأمر إلا في هذه المرة؟ فيقول عليه السلام: لم يكن عندي علم بذلك. فيقول له بعض الحاضرين: وكيف يكون كله عن الله؟ أهو ممن يوحى إليه؟ فقال عليه السلام: ما يكون عن الله إلا بوحي. والوحي من الله على وجهين: وحي يوحى بالواسطة، ووحي بإلهام، وهو للناس كلهم. وهذا منه وحي إلهام.

الرؤيا الحادية والخمسون

كأن سيدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الأنبياء والصحابة، صلوات الله عليهم، فيكسو عبد الله كسوة حسنة، ويجلسه على شيء مرتفع له حسن وصفاء، ويعطيه جملة مفاتيح حديد، ثم يريه، عليه السلام، نحو الخمسة عشر بيتاً في غاية الحسن، وأربع دور حسان، وخمسين بستاناً في غاية الكبر والحسن، ويقول: هذا كله ثواب حديث (إذا التقى المسلمان

---

(1) رقمه ٤.

(2) رقمه ٥.

بسيفيهما)[١] ثم يريه عشرين بيتاً في غاية الحسن مختومة، وأربع دور حسان، وجملة بساتين لا يرى لها آخر، ولا يأخذها تقدير، ويقول عليه السلام: هذا ثواب حديث (ليلة القدر)[٢]. ثم ينظر عليه السلام في خطبة الشرح فإذا وصل إلى قول ابن أبي جمرة من كتاب الله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٣] إلى آخر الخطبة، فيعجبه ذلك الموضع ويكرره، ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه دارَين وأربعة بيوت مختومة، الكل في غاية الحسن، ونحو الخمسة عشر بستاناً في غاية الحسن، ويقول ﷺ: هذا ثواب الموضع.

ثم يقول ﷺ: اعلم أن كل ليلة اثنين وليلة خميس من هذا الشهر رجب يتجلى الله لعبيده، والدعاء فيهما مقبول.

الرؤيا الثانية والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، فيقول ﷺ لعبد الله: انظر، فيريه مباني في غاية الحسن، وهي من الكثرة بحيث لا يأخذها تقدير أيضاً، ثم يريه جملة مواضع مملوءة نوراً، ويقول عليه السلام: جميع ذلك ثواب (حديث الاستخارة)[٤] ثم يريه عليه السلام جملة مبانٍ، وجملة بساتين على نحو ما تقدم ومثلها، ويقول عليه السلام: هذا ثواب (حديث عبد الله بن عمر والذي قال فيه: ألم أُخبَر أنك تقول: أصوم النهار وأقوم الليل ما عشت)[٥].

الرؤيا الثالثة والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، ثم يأتي جمع من الأنبياء، صلوات الله عليهم، وهم ركبان على خيل خضر وكُحلٍ في غاية الكبر والحسن، ويسوقون معها نحو المائتين من الخيل مثل تلك برسم ابن أبي جمرة.

---

(١) رقمه ٤.
(٢) رقمه ٥.
(٣) سورة الأنبياء، من الآية ١٠٧.
(٤) رقمه ٦٢.
(٥) رقمه ٦١.

ثم إن سيّدنا ﷺ ينظر في حديث (ليس من بلد إلاّ سيطؤه الدجال)[1] وحديث (ينزل الدجال ببعض السباخ)[2] فيعجبه ما قيل فيهما، ويقول: ما سبقك بهذا أحد. ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه جملة دور في غاية الحسن والجمال، وأما عددها فلا يقدر أحد يحصره، فيريه جملة بساتين في غاية الحسن والسعة، وأما عددها فلا يؤخذ بتقدير، ثم يريه جملة غرف في غاية الجمال، مبنية بناء لا يشبه حسنها شيء، بعضها فوق بعض، ثم يريه جملة مساجد وجملة مدارس، الكل في غاية الحسن، وأنواعاً من الخير ليس لها شبه في الدنيا، ولا بماذا تمثل، ويقول عليه السلام: جميع ذلك كله ثواب هذين الحديثين. فيقول عبد الله: ولِمَ أريتني ثواب هذين الحديثين مجموعين؟ فيقول عليه السلام: لتقارب معانيهما، لأن ما قَرُب من الشيء أُعطي حكمة.

ثم ينظر عليه السلام في حديث (حفر الخندق)[3] وفي حديث (السرية التي قدم عليها الأنصاري، وأمرهم بجمع الحطب ووقد النار)[4] فيعجبه. ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه عليه السلام من الخيرات والنعم ما يقرب مما رآه في الحديثين المتقدمين آنفاً، ويقول ﷺ: هذا كله ثواب هذين الحديثين.

ثم ينظر عليه السلام في (حديث الاستخارة)[5] ويعجبه، ويقول عليه السلام: إن الثواب الذي أريتك قبلُ في هذا الحديث لقليل في حقه.

ثم يخرج عليه السلام لصلاة الصبح، ويخرج معه عبد الله، فيصلون الصبح في المسجد، ويرجع، عليه السلام، ومعه عبد الله، فإذا قعد في البيت يقول عليه السلام لعبد الله: لتعلم أن هذه الليلة كانت من الليالي التي قُبِلَ فيها الدعاء، واجعلوا بالكم من هذه الليالي، فإن الدعاء فيها مستجاب.

الرؤيا الرابعة والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه الخلفاء، وجمع من الصحابة رضي الله عنهم، فيقول لعبد الله: تعال نريك. فيريه بناء في غاية الاتساع والارتفاع والحسن، وهو مملوء

---

(١) رقمه ٨٦.
(٢) رقمه ٨٥.
(٣) رقمه ١٣٣.
(٤) رقمه ١٩٩.
(٥) رقمه ٦٢.

بأنواع الخيرات، لا يقدر أحد أن يصفها ولا ينعتها، ويقول: هذا ثواب اتباعك لسنتي. ثم يريه بناء ثانياً، وهو دون الأول بيسير، ويقول عليه السلام: هذا ثواب حديث (سيّد الاستغفار)[1] ثم يريه، عليه السلام، بناء ثالثاً، وهو دون البناء الثاني بيسير، ويقول عليه السلام: هذا ثواب حديث (لله أفرَحُ بتوبة العبد)[2] ويقول ﷺ: هذه جمعت لك كل خير في الدنيا والآخرة. فيقول عبد الله: وأنَّى لي بهذا؟ فيقول عليه السلام: هكذا يفعل الله بكل من يتبع سنّة نبيه صادقاً.

الرؤيا الخامسة والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه موسى، عليه السلام، وأبو بكر وعمر وعلي، وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم. وكان عبد الله يسأله عن أشياء فيما يخصه، فمنها أنه ذكر له وحدته، وأن بعض من فيه مخالفة قد يشوشون عليه، وهم جمع متمالئون. فيقول عليه السلام: الذي معك أنت خير وأعظم مما معهم، فإن الله معك وأنا وهؤلاء الحاضرون، ثم يعطيه عدة عظيمة من عدد الحرب، ويقول له عليه الصلاة والسلام: لا تبال، هذه عدتك، وهي خير من عُدَدِهم.

ثم ينظر في الشرح، فينظر في حديث (صليا في السفينة قائمين)[3] وفي حديث (إن الله وكل بالرحم مَلَكاً)[4] فيعجبه. ويقول عليه السلام لعبد الله: انظر. فيريه نحو المائة دار في غاية الحسن، وبساتين مثل ذلك، ومن الخير أنواعاً لا يمكن لأحد أن يصفها، ويقول عليه السلام: هذا ثواب (صليا في السفينة قائمين) ثم يريه دوراً وبساتين أكثر مما ذكرنا، ومن أنواع الخير التي لا يقدر أحد أن يصفها، ويقول ﷺ: هذا ثواب حديث (إن الله وكل بالرحم ملَكاً) ثم يريه ﷺ شجرة عظيمة بين السماء والأرض في غاية الحسن، ومن حولها شجرة ما يقرب منها ويقول عليه السلام: هذه شجرة الإيمان، وتلك الكبيرة شجرة إيمانك.

ثم يخرج، عليه السلام، إلى صلاة العيد ومن كان معه، ويخرج عبد اللّه معهم، فإذا فرغوا من صلاة العيد رجع، عليه السلام، وكل من كان معه خرج حتى يدخل منزل عبد اللّه فيصلي فيه تلك الصلاة التي علّمنا في المرائي قبل، ثم يدعو بعدها دعاءً كثيراً.

---

(١) رقمه ٢٥٨.
(٢) رقمه ٢٦٠.
(٣) رقمه ٢٥.
(٤) رقمه ٢٤.

وينظر، عليه السلام، في حديث (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء)[1] فيعجبه لموسى، فيقف عليه ويعجبه، ثم ينظر في حديث (يجاء بنوح عليه السلام)[2] فيعجبه، ويعطيه للصحابة رضي الله عنهم، فيقفون عليه فيعجبهم.

الرؤيا السادسة والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه ثلاث من أزواجه، رضي الله عنهن، وجمع من الصحابة رضي الله عنهم، فينظر في حديث (إن الدين يسر)[3] فيعجبه، ويقول عليه السلام: ما سبقك أحد من المفسرين لهذه المعاني. فيقول بعض الحاضرين: ولم كرر لفظ الحديث مراراً، فيقول عليه السلام: لما فيه من المعاني، وهذا شيء لا تعرفه أنت.

ثم يقول ﷺ لعبد الله: تعال، فصل ركعتين، ونريك ثواب هذا الحديث، فإني ما مهدت معك بعد تلك الأربعة أحاديث في الشرح مثله. فيقول عبد الله: ولم نصلي الركعتين؟ فيقول عليه السلام: نستفتح العمل بالعبادة. فيصلي، عليه السلام، ركعتين، ويصلي معه عبد الله، ثم يريه، عليه السلام، جملة بساتين في غاية الحسن، وأما عددها فلا يقدر أحد أن يقدّره، ويريه جملة قصور في غاية الحسن، وأما عددها فلا يأخذه حزر أيضاً. ثم يريه جملة لؤلؤ وجملة ياقوت، وجملة زمرد، من كل واحد غرفتان في غاية الكبر، ثم يريه جملة ثياب في غاية الحسن والكثرة، وجملة من عدد الحرب في غاية الحسن، وهي قد ملىء بها بيت في غاية من الكبر. ثم يريه، عليه السلام، أنواعاً من الخير لا يقدر أحد أن يصفه. ويقول عليه السلام: هذا كله ثواب هذا، وهو اللائق به.

ثم ينظر، عليه السلام، في حديث (صلّى العصرَ فقام سريعاً)[4] فيعجبه، ثم يقول: تعال نريك ثواب هذا الحديث، فيريه دوراً وقصوراً وبساتين وغرفاً وجملة ثياب ولؤلؤاً وزمرداً وياقوتاً، وكل ما ذكرنا في الحسن مثل ما تقدم في حديث (إنّ الدين يسر). وأما في الكثرة فعلى قدر الثلثين منه.

ثم ينظر في حديث (منبري على حوضي)[5] فيعجبه، ويقول ﷺ: تعال نريك ثوابه. فيريه جملة دور وجملة قصور وجملة غرف وجملة بساتين وجملة ثياب وجملة لؤلؤ وجملة زمرد وجملة

---

(١) رقمه ١٨٩.
(٢) رقمه ٢٨٩.
(٣) رقمه ٦.
(٤) رقمه ٦٤.
(٥) رقمه ٦٣.

ياقوت. الكل في غاية الحسن على ما تقدم في حديث (إن الدين يسر)، وأما في الكثرة فعلى قدر النصف منه.

ويقول عليه السلام: لو أريتك بقية ثواب حديث (إنّ الدين يسر) ما كنت تطيق رؤيته، ولا يقدر أحد أن يصفه. فيقول عبد الله: بقي منه شيء؟ فيقول عليه السلام: بقي الخير الكثير.

ثم يقول عليه السلام: الذي فُعِل معك في هذا الشرح ما فُعل مع أحد من المفسرين من قبلك، وما أحد منهم أُري ثواب عمله كما فُعل معك.

وينظر عليه السلام في حديث (إنّ الدين يسر) موضعين، ويزيد فيهما معنيين بيده المباركة، ويقول عليه السلام: هذه زيادة حسن في الكتاب وبركة، وما أنت جاهل بهما، ولو كنت جاهلاً بهما ما قيدتهما لك بيدي.

فنظرت ذينك الموضعين في اليقظة، فألهمت لذينك المعنيين، وزدتهما في الحديث، بفضل الله ورحمته.

الرؤيا السابعة والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه موسى، عليه السلام، وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وجمع من الصحابة رضي الله عنهم، فينظر، عليه السلام، في حديث (وفد عبد القيس)[1] فيعجبه، ثم يقول لعبد الله: انظر، فينظر فيريه أنواعاً من الخير، لا يقدر أحد أن يصفها. ويقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الحديث.

ثم ينظر عليه السلام في حديث (إنّ الدين يسر) ثم يقول: انظر. فيريه من الخيرات ما يقرب من التي أريها في الرؤيا قبل من ثواب الحديثين نفسه على اختلاف أنواعها. ويقول عليه السلام: هذا من ثواب هذا الحديث، وبقية ثواب هذا الحديث، وبقية ثواب كل حديث من الأربعة أحاديث، التي هي (حديث بدء الوحي)[2] و (حديث ابن الصامت)[3] و (حديث الإفك)[4] و (حديث المعراج)[5] لا تستطيع أن ترى واحداً منها ولا أحداً إلا إذا كان في الآخرة، إن شاء الله، وهذا

---

(١) رقمه ٧.
(٢) رقمه ١.
(٣) رقمه ٣.
(٤) رقمه ١١٩.
(٥) رقمه ١٦٠.

مصداق ما قلت لك في المراثي أولاً، وهو قولي لك: لو لم يكن معك إلا حديث (إن الدين يسر) لكان لك كافياً ومنقذاً من النار.

الرؤيا الثامنة والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع كثير من الأنبياء، صلوات الله عليهم، وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم، فعند دخولهم يغشى المنزل ستور منها حمر ومنها خضر ومنها كحل ومنها بيض، والكل لها نور وجمال.

ثم إنه، عليه السلام، ينظر في حديث (من أسعد الناس بشفاعتك)[1] ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه جملة دور في غاية الحسن ما يقرب من المائتين داراً[2] وبساتين في غاية الحسن، وتكون في العدد مثل الدور، وزائداً على ذلك خيرات لا يقدر أحد أن يصفها، ويقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الحديث.

ثم ينظر، عليه السلام، في حديث (هل نرى ربنا؟)[3] فيريه دوراً وبساتين وغرفاً بعضها فوق بعض، وبيوتاً كل نوع مما ذكر في غاية الحسن، وأما عددها فلا يقدر أحد على إحصائه، وزائداً على ذلك أنواع من الخير لا يقدر أحد أن يصفها أو يشبّهها. ويقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الحديث، وباقيه لا تطيق أن تراه إلا في الآخرة، إن شاء الله.

وهذا الحديث قد أخذ الناس فيه أخذاً كثيراً، ورجع به قوم إلى مذهب الاعتزال إلى غير ذلك من الوجوه الفاسدة. وبعد هذا البيان في هذا الشرح قامت حجة الله على عباده، كل إنسان بحسب حاله وطرائقه، فلم تبق حجة لأحد منهم.

ثم يقول له: خذ حذرك للنصر، واعلم أنه إذا وقع التشويش فإن لله ليالي خصها بنفحات، فتعرض لها. فليلة الإثنين وليلة الخميس لك ولأهل حومتك، دعاؤكم فيها مستجاب، وليلة الثلاثاء لأهل الحسينية، دعاؤهم فيها مستجاب. وليلة الجمعة لأهل مصر، دعاؤهم فيها مستجاب. وليلة الأربعاء لأهل القاهرة، دعاؤهم فيها مستجاب. وليلة السبت لأهل القرافة، دعاؤهم فيها مستجاب.

---

(١) رقمه ١٣.
(٢) كذا.
(٣) رقمه ٤٨.

فيقول له عبد الله: ألم تخبرني أن ليلة الإثنين والخميس إنما خُصّتا باستجابة الدعاء فيهما في هذا الشهر رجب ليس إلا؟ فيقول عليه السلام: كان ذلك قبل ظهور الفتنة، وهذا الحكم الثاني هو بعد ظهور الفتنة. فيقول عبد الله: يا رسول الله وما الحكمة بأن جعلت هذه الليالي؟ فيقول عليه السلام: لأن يكون الفضل واللطف بالعباد دائماً، ولأجل أن الناس لا يمكن أن يجتمعوا كلهم للدعاء في ليلة واحدة.

ثم يقوم عليه السلام ويصلي صلاة جهرية، ويصلي معه كل من كان في المنزل، ثم يقول عليه السلام: هذا الدعاء الذي عمل معكم لم يعمل مع أحد.

الرؤيا التاسعة والخمسون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه آدم، عليه السلام، وجمع من الصحابة رضي الله عنهم، فينظر في حديث (لو يعلم الناس ما في العَتَمة والصبح)[1] فيقول عليه السلام: انظر، فيريه جملة بساتين في غاية الحسن، وجملة ثياب، وجملة أسلحة من آلة الحرب، ومع ذلك خير كثير لا يقدر على حزره. فيقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الحديث. فيقول عبد الله: وما فائدة هذه الأسلحة؟ فيقول عليه السلام: هذه الأسلحة التي أُعطِيتَ على نفسك وعلى عدوك. ومعاني هذا الحديث ما سبقك إليها أحد.

الرؤيا الستون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، وينظر في حديث (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً)[2] فيعجبه، ويقول: ما سبقك بهذا أحد. ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه جملة دور في غاية الحسن، ويعطيه جملة كتب. ويقول عليه السلام: هذه كتب جميع العلوم. ويريه، عليه السلام، زائداً على ذلك جملة أنواع من الخيرات، ما يقدر أحد أن يصفها، ويقول: جميع هذا كله ثواب هذا الحديث.

ثم ينظر عليه السلام في حديث (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل)[3] فيعجبه،

---

(١) رقمه ٣٧.
(٢) رقمه ٤٤.
(٣) رقمه ٢٥٩.

ويقول فيه مثل مقالته في الأول. ثم يقول عليه السلام: تعال حتى نريك ثواب هذا الحديث، فيصعد ﷺ ومعه عبد الله وأهله، حتى يدخل بهم الثلاث من الجنات، فيقول عليه السلام لعبد الله: ارفع رأسك، فيريه جملة مبانٍ في غاية الحسن، بعضها فوق بعض، وفيها جملة من الأشخاص، ويريه عليه السلام جملة من أنهار وأشجار وخيرات، لا يقدر أحد أن يصفها، ويقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الحديث.

* * *

وهذا الدعاء علمه ﷺ لعبد الله في بعض المراني:

اللهم أنت مولاي، وكاشف بلواي، إليك أشكو وحدتي، وقلة أنصاري في حقك وحق نبيك، وأنت عدّتي وحسبي، ونبيّك وسيلتي إليك فيما أؤمله، فاكفني شر كل من أتقي شره منهم، وانصرني عليهم، برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

الرؤيا الحادية والستون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة ومعه بعض أزواجه، رضي الله عنهن، وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم، فينظر في حديث (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله)[1] فيعجبه، ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه ثلاثين بستاناً، كل بستان في غاية الحسن، ومثل ذلك قصور، ومثل ذلك دور، وأنواع من الخيرات زائداً على ذلك، لا يقدر أحد أن يصفها. ويقول عليه السلام: هذا كله ثواب هذا الحديث.

الرؤيا الثانية والستون

كأن سيّدنا ﷺ دخل بيت عبد الله بن أبي جمرة، ومعه بعض أزواجه، رضوان الله عليهن، وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم، فينظر عليه السلام في حديث (إذا نعس أحدكم وهو يصلي)[2] فيعجبه، ويقول: ما سبقك بهذه المعاني أحد. ثم يعطي لعبد الله جملة ثياب في غاية

(١) رقمه ١٤٣.
(٢) رقمه ٢٠.

الحسن على ألوان متعددة، وجملة سيوف في غاية الحسن، وجملة كتب مُسَفَّرة[١] في غاية الحسن، وزائداً على ذلك أنواعاً من الخير لا يقدر أحد أن يصفها، ويقول: جميع هذا ثواب هذا الحديث.

الـــرؤيـــا الثـالثـة والستـون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، فيشير لعبد الله بنفوذ النصر وتمامه.

ثم ينظر في حديث (كنا إذا صلينا مع النبيّ ﷺ يضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر في مكان السجود)[٢] فيعجبه، ويقول: ما سبقك أحد بهذا التفسير، وكذلك جميع هذا الشرح.

ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه ثلاث بيوت في غاية الكبر والحسن، وهي مقفلة، ويريه شجرة عظيمة خضراء، وظلها أحمر، ويعطيه جملة ثياب في غاية الحسن، ويعطيه مفاتيح تلك البيوت. ويقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الحديث، وخير هذا الحديث في هذه البيوت.

ثم ينظر في حديث (صلّيا في السفينة قائمين)[٣] فيعجبه، ثم يُري لعبد الله مثل ما في الحديث آنفاً، وزيادة على ذلك جملة فدادين في غاية الكبر، كلها مزروعة ورداً في غاية الحسن، ويقول عليه السلام: جميع هذا ثواب هذا الحديث. فيقول عبد الله: قد كنت أريتني عليه ثواباً قبل هذا[٤]. فيقول عليه السلام: الأجر مرتين، وفضل الله أكثر من ذلك.

الـــرؤيـــا الـرابعـة والستـون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، وكذلك جمع من أزواجه، وجمع من الملائكة، صلوات الله عليهم أجمعين. وينظر عليه السلام في حديث (من نسيَ صلاة)[٥] فيعجبه، ويقول: ما سبقك أحد لهذه المعاني. ثم يقول لعبد الله: انظر، فيبصر ثلاثة كنوز، وجملة ثياب في غاية الحسن، وحلة وتاجاً وسيفاً، كل واحد منها في غاية الحسن. ويقول ﷺ: هذا ثواب هذا الحديث.

---

(١) مسفَّرة: أي مجلّدة ومحبوكة.
(٢) رقمه ٢٦
(٣) رقمه ٢٥.
(٤) يقصد الرؤيا الخامسة والخمسين.
(٥) رقمه ٣٥.

ثم إن عبد الله يسأل سيّدنا محمداً ﷺ: ما هي الفائدة الزائدة التي في حديث (صلّيا في السفينة قائمين)[1] حتى أعطيت فيه الثواب مرتين؟ فيقول عليه السلام: لأنك جمعت فيه جميع حكم الله في ركوب السفينة والناس يمرون عليه بالقراءة، ولا ينظرون إلى تلك الأحكام التي ذكرتها، وهي أيضاً لا يجدونها كذلك في كتب الفقه، فلذلك أعطيت فيه ما أعطيت. والذي بقي لك فيه عند الله أكثر من ذلك.

الرؤيا الخامسة والستون

كأن سيدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، وكأنه غضبان، ويقول عليه السلام: إن جمعاً من هؤلاء المشايخ أغاظوني الليلة، ويدعو عليهم[2]، ويسميهم واحداً واحداً. ثم يقول: وفلان من الأمراء أغاظني الليلة، ويدعو عليه، ثم يخبر أنهم يصيبهم ما يستحقون، ثم يزول عنه ذلك الغيظ، ويأخذ أربع نسخ من الشرح، وهي «نسخة ابن أبي جمرة» و«نسخة محمّد الفاسي» و«نسخة الحموي» و«نسخة المجد» رحمهم الله، وينسخها كل واحدة منها بيده المباركة[3] أجزاء أجزاء، وينسخ من (حديث ابن الصامت) جملة نسخ ويقول عليه السلام: هذا الشرح ليس فيه خلل، فمن شاء فليصدق، ومن شاء فليكذب.

ثم إنه، عليه السلام، يُري لعبد الله من الخير جملاً عديدة، وأنواعاً مختلفة لا يقدر أحد أن يصفها، ولا ينعتها. ويقول: هذا ثواب هذا الشرح. فيقول له عبد الله: وقد أريتني عليه من الخير مراراً؟ فيقول عليه السلام: خير ذلك لا يتم، والذي بقي لك أكثر مما رأيت، وأن خيره يدخل عليك كل يوم ثلاث مرات.

الرؤيا السادسة والستون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، رضي الله عنهم، فينظر في حديث (أول زمرة تلج الجنة)[4] فيعجبه، ويقول هذه معانٍ ما سبقك بها أحد.

---

(١) رقمه ٢٥.

(٢) كذا. والمعروف أن رسول الله ﷺ لا يدعو على من أغاظه.

(٣) كذا.

(٤) رقمه ١١٢.

ثم ينظر في حديث (كنا إذا صلينا مع النبيّ ﷺ قلنا: السلام على الله قبل عباده)[1] فيعجبه، ويقول فيه مثل مقالته في الذي قبل، ثم يخرج، عليه السلام، ومن كان معه من الصحابة وعبد الله وأهله، ويمشي بهم في أرض بيضاء في غاية الحسن، ثم يخرج منها إلى أرض خضراء في غاية الحسن، فيقول عنهما: هذه طريق الإيمان وطريق القوم، ولم يبق من يمشي فيهما إلا القليل. ثم يخرج إلى أرض حمراء في غاية الحسن، ثم يخرج إلى أرض في غاية الحسن والاتساع، قد غشيها نور عظيم، ثم يدخل في بساتين في غاية الحسن والكثرة وفيها نحو ألفي سرير، كل سرير في غاية الحسن، على كل سرير حورية في غاية الحسن، كلهن يأتين إلى عبد الله، ويسلمن عليه، ويقلن: نحن لك، ونحن هنا ننتظرك حتى يجمع، إن شاء الله، بيننا.

ثم إنه ﷺ يريه زائداً على تلك الأسرة والحور أنواعاً من الخيرات، لا يقدر أحد على وصفها، ويقول: هذا كله ثواب حديث (أول زمرة تلج الجنة) فيقول عبد الله: هل بقي غيره؟ فيقول عليه السلام: لا علم لي بذلك.

ثم إنه، عليه السلام، يريه بساتين غير تلك في غاية الحسن، وفيها ألف سرير، كل سرير في غاية الحسن، على كل سرير حورية في غاية الحسن، فالكل منهن يأتين ويسلمن على عبد الله، ويقلن مثل مقالة من كان قبلهن.

ثم إنه عليه السلام يريه من أنواع الخير ما لا يقدر أحد أن يصفها، ويقول: جميع ذلك كله ثواب حديث (كنا إذا صلّينا مع النبيّ ﷺ قلنا: السلام على الله قبل عباده).

الرؤيا السابعة والستون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه إبراهيم وموسى، عليهما السلام، وجمع من زوجاته، عليهن السلام، وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم، فسلموا على عبد الله وقالوا: يهنيك النصر.

ثم إن سيّدنا ﷺ ينظر في حديث (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله)[2] فيعجبه، ويعطيه للحاضرين لينظروه، فالكل يعجبهم.

ثم إنه، عليه السلام، يقول لعبد الله: انظر، فيريه نحو ألفي بستان، كل واحد منها في غاية

---

(١) رقمه ٢٥٤.
(٢) رقمه ٢٦٨.

الكبر والحسن، ونحو الثلاثين دار في غاية الكبر والحسن، وغرفاً مثل ذلك في العدد والحسن، وجملة عبيد، وجملة جوارٍ في غاية الحسن، وهم بالحلي والحلل التامّين في الحسن، وزائداً على ذلك خير لا يقدر الرائي أن يصفه، ويقول عليه السلام: جميع ذلك ثواب هذا الحديث.

الرؤيا الثامنة والستون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه جمع من الصحابة، وبعض أمهات المؤمنين، رضي الله عن جميعهن.

ثم ينظر في حديث (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)[1] فيعجبه ويقول عليه السلام: ما سبقك إلى هذه المعاني أحد، وإنها لحسنة.

ثم يفتح عن جانبه باباً ويقول لعبد الله: انظر، فيريه جملة من ثياب في غاية الحسن، وهي مكوّمة مثل الجبال، وقمحاً في غاية النقاء والطيب، وهي من الكثرة مثل الجبال، وأنواعاً من الخير لا يقدر الرائي أن يصفها. ويقول: هذا ثواب هذا الحديث.

وكان قبل هذا دخل عليه بعض الإخوان، وهو من المباركين، فيقول له عليه السلام: ما لك تصدّق ببعض تلك المرائي ولا تصدّق ببعضها، إما رُدَّ الكل وإما فصدّق بالكل. فيقول له عبد الله: يا رسول الله، إنك أمرتني بإظهار هذه المرائي وبعض الناس لا يصدّق بها. فيقول عليه السلام: ذلك ليميز الله الحق من الباطل. من آمن بي فهو يصدّق بها، ومن لا يؤمن بي فلا يصدّق، ولا ثالث.

ثم إنه عليه السلام يقول لعبد الله: لتكن عندك قاعدة: إذا ذكرت لك في هذه المرائي عن أحد من أصحابك شيئاً فلا تخبر به غيره. فيقول له عبد الله: إن محمداً الفاسي مذكور فيها، وقد أمرتني بإظهاره. فيقول عليه السلام: كان ذلك يرتجع من قدر له بالارتجاع.

وينظر في حديث (أتانا رسول الله ﷺ في دارنا هذه)[2] وينظر تلك الأحكام فيشير إلى موضع منها لأن يزاد فيه وجه من الفقه، وهو حسن جدًّا، فيقول له عبد الله: ألم تقل لي: إنه ليس فيه خلل؟ فيقول: إنما هو زيادة حسن، ولست أنت أيضاً ممن يجهله.

---

(١) رقمه ٤١.
(٢) رقمه ١٠٩.

الرؤيا التاسعة والستون

كأن سيّدنا ﷺ دخل منزل عبد الله بن أبي جمرة، ومعه إبراهيم، عليه السلام، وموسى وعيسى ويحيى، عليهم السلام، وزكريا، عليه السلام، وسليمان، عليه السلام، وجمع من الصحابة، رضي الله عنهم، وما يدخل واحد منهم إلا يسلّم على عبد الله، ويقول: ليهنك النصر.

ثم إن سيّدنا ﷺ يأخذ طبق فضة كبيراً، ويجعل فيه طيباً كثيراً، ويأخذ ذلك الشرح ويطيّبه بذلك الطيب، ويعرضه على جميع الحاضرين، فيعجبهم. فيقول عليه السلام: لو أن أهل التفسير يفسرونه مثل هذا كان الناس يهتدون به، لكن لم يرد الله أن يكون له ثانٍ.

ثم يقول لعبد الله: انظر، فيريه خيراً عظيماً لا يقدر أحد أن يصفه. فيقول عليه السلام: هذا ثواب هذا الشرح. فيقول له عبد الله: وقد أريتني مثل هذا على الشرح؟ فيقول له عليه السلام: لك الخير فيه على سبعة وجوه، هذا رابعها سوى ما لك عند الله من خير في الآخرة، ويأتي السبعة ثوابها في الدنيا قبل أن تموت. والحمد لله رب العالمين.

الرؤيا السبعون في فضل ابن أبي جمرة، رضي الله عنه

قد تواتر أن القطب الغوث تاج الدين بن عطاء الله السكندري رأى سيد المرسلين ﷺ في النوم يقول له: «ما زرت سلطان المشرق والمغرب؟» فقال له يا سيدي: ومن سلطان المشرق والمغرب؟ فقال له: «عبد الله بن أبي جبرة[1]. ما وقع نظره على أحد إلا وجبر».

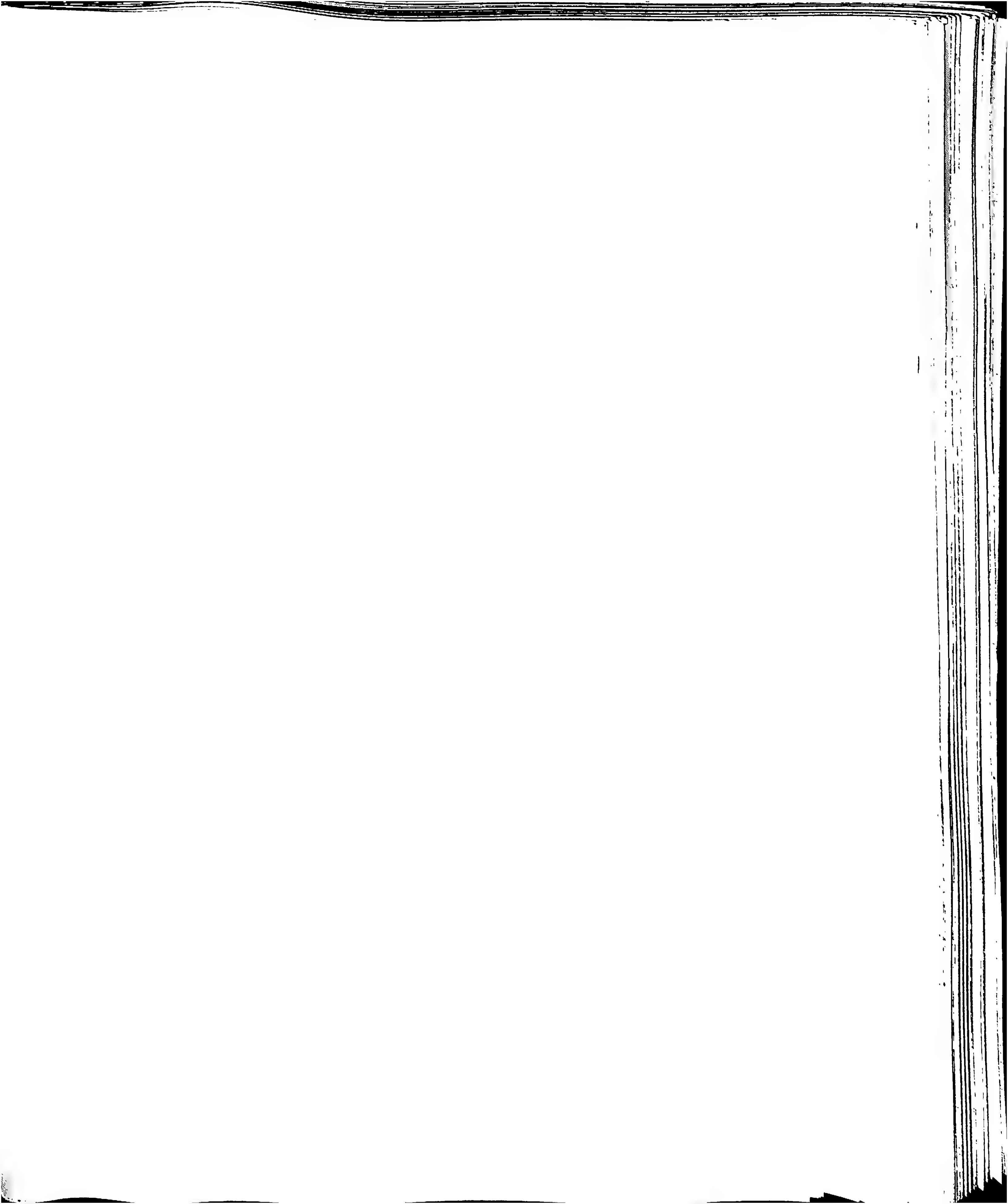
* * *

---

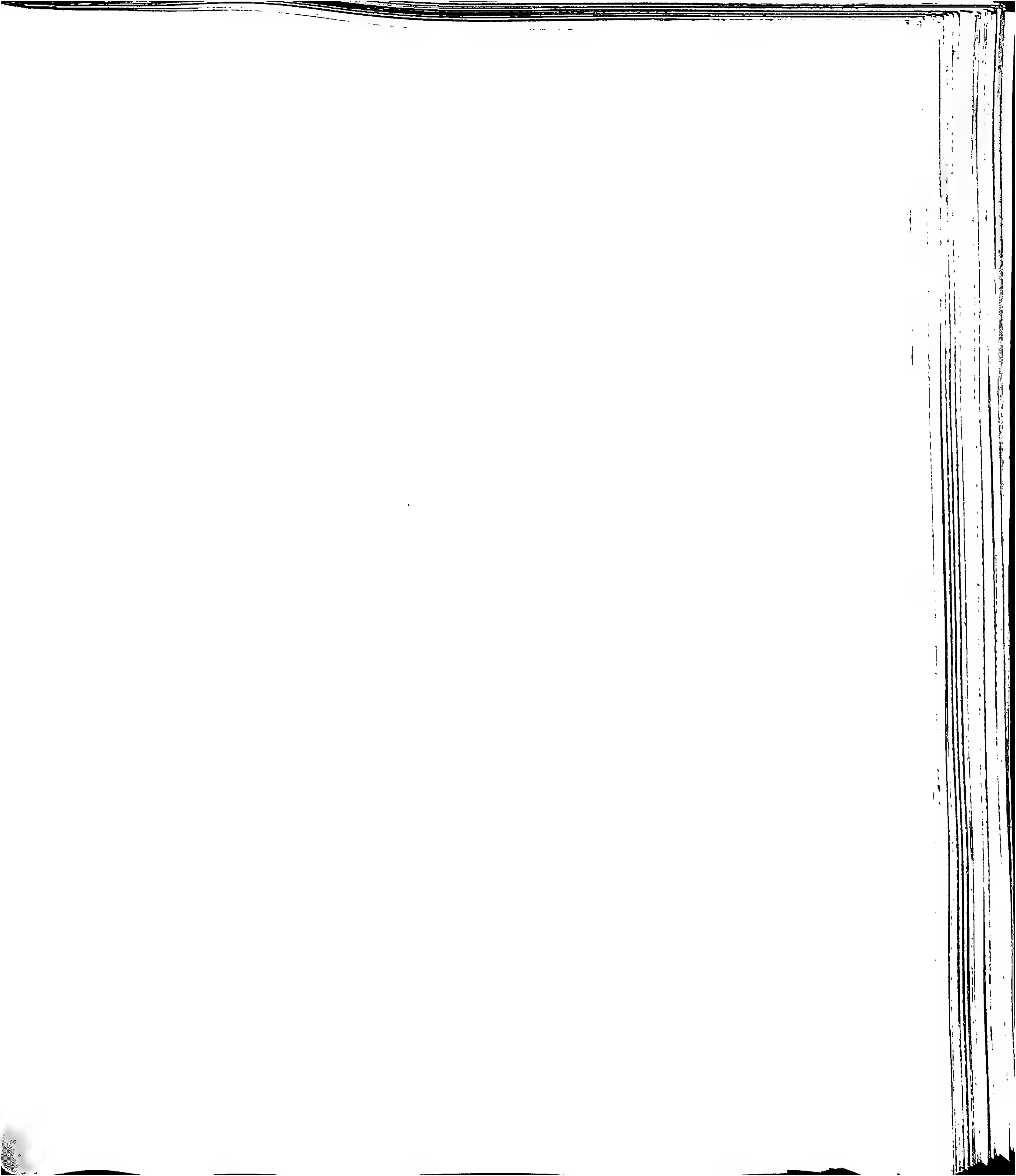
(١) بإبدال الميم باءً.

«تمت المرائي الحسان بفضل من الله الملك المنّان»

فهارس الكتاب



فهارس الكتاب



١ ـ فهرس الأعلام

٢ ـ فهرس أحاديث بهجة النفوس ومطالعها بحسب تسلسلها

الجزء الثاني

٣ ـ فهرس الأحاديث
موضوع الرؤيا بحسب تسلسلها

٤٦ ٣ وهو حديث ابن الصامت، وزيارة النبي عليه السلام بيت المؤلف، وإهدائه الهدايا المادية والمعنوية، وإعطائه لواء أبيض يبقى معه يوم القيامة ١٦٠٣

٤٧ ٢١٢/ ٢٧٧/ ٢٢٣و ٨٧ وهي أحاديث (من تصبح بسبع تمرات) و (من رآني في المنام) و (إن الزمان قد استدار) ومن (استطاع منكم الباءة) إضافة إلى حديث ابن الصامت، وحديث الإسراء، وما كرّم الله المؤلف على هذا الشرح، وهو تكريم يفوق ما يتخيله الإنسان ١٦٠٣

٤٨ فضل الله على المؤلف وأصحابه، ومكافأة الشارح ألواناً من نعم الله المادية وألواناً من الثواب، منها ثواب النص، وثواب الرضى، وثواب اتباع الأمر، وثواب التوفيق والنصر، وثواب النور واليقين، وثواب مجاهدته في حق الله ورسوله، ولمحمد الفاسي خمسون قصراً لكونه كان سبب الشرح والنسخ ١٦٠٤

٤٩ رحمة الله وتفضّله على المؤلف، ونصيحة النبي عليه السلام للمؤلف بالاجتهاد في الدعاء وحض أصحابه على اتّباع السّنة والصدقة ١٦٠٥

٥٠ ٤/ ٥ وهما حديث (إذا التقى المسلمان بسيفيهما) وحديث (من يقم ليلة القدر) وإعجاب النبي عليه السلام بتحليل المؤلف لكلمة (سيفيهما)، ثم دفاعه ﷺ عن الشرح كاملاً، وأنه ليس فيه من محتمل، إنما كله حق، وما كان عن الله تعالى فليس فيه احتمال. ويقسم النبي عليه السلام الوحي إلى قسمين، وحي من الله بالواسطة، وهو وحي الأنبياء، ووحي بإلهام، وهو للناس كلهم، ووحي ابن أبي جمرة هو وحي إلهام ١٦٠٦

٥١ ٤/ ٥/ وهما نفس الحديثين السابقين مع خطبة الشرح وتعيين بعض فضل الله على المؤلف ثواباً، ثم تعيين ليلة الإثنين والخميس من شهر رجب يتجلى الله فيهما ويستجيب الدعاء ١٦٠٦

٥٢ ٦٢/ ٦١ وهما حديث (الاستخارة) وحديث عبد الله بن عمرو الذي قال فيه: «ألم أُخبر أنك تقول: أصوم النهار)، وبشارة النبي عليه السلام له ببعض الأجر والقصور والدور والنور ١٦٠٧

٥٣ ٨٦/ ٨٥/ ١٣٣/ ١٩٩/ ٦٢ وهي أحاديث (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال) و (ينزل الدجال ببعض السباخ) و (حفر الخندق) و (بعث النبي سرية) و (الاستخارة) وفي هذه الرؤيا تفصيل لما أعد الله للمؤلف من خيل خضر وكحل في غاية الحسن، ومن الخيرات والنعم ما لا يحصى ١٦٠٧

٥٤ ٢٥٨/ ٢٦٠ وهما حديث (سيد الاستغفار) و (للّهُ أفرح بعبده) وفي الرؤيا جزء من جزاء الله وخيراته للمؤلف الشارح، وقوله عليه السلام له: هكذا يفعل الله بكل من يتبع سنة نبيه صادقاً ١٦٠٨

٥٥ ٢٥/ ٢٤/ ١٨٩/ ٢٨٩ وهي أحاديث (صلّيا في السفينة قائمين) و (إن الله وكّل بالرحم مَلَكاً) و (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء) و (يجاء بنوح عليه السلام) وفي هذه الرؤيا يشكو المؤلف للنبي عليه السلام كثرة المناوئين له، والمشوشين عليه، وأنه وحيد ويعيش في وحدة، ويزيل النبي همومه بإذن الله وفضله، ويطمئنه بأن الله ناصره عليهم، وأنه على الحق، ويريه بعض أفضال الله عليه، ويعلمه دعاء يفرج الله به كربه ١٦٠٩

٤٦	٣ وهو حديث ابن الصامت، وزيارة النبي عليه السلام بيت المؤلف، وإهدائه الهدايا المادية والمعنوية، وإعطائه لواء أبيض يبقى معه يوم القيامة	١٦٠٣
٤٧	٢١٢/ ٢٧٧/ ٢٢٣و ٨٧ وهي أحاديث (من تصبح بسبع تمرات) و (من رآني في المنام) و (إن الزمان قد استدار) ومن (استطاع منكم الباءة) إضافة إلى حديث ابن الصامت، وحديث الإسراء، وما كرّم الله المؤلف على هذا الشرح، وهو تكريم يفوق ما يتخيله الإنسان	١٦٠٣
٤٨	فضل الله على المؤلف وأصحابه، ومكافأة الشارح ألواناً من نعم الله المادية وألواناً من الثواب، منها ثواب النص، وثواب الرضى، وثواب اتباع الأمر، وثواب التوفيق والنصر، وثواب النور واليقين، وثواب مجاهدته في حق الله ورسوله، ولمحمد الفاسي خمسون قصراً لكونه كان سبب الشرح والنسخ	١٦٠٤
٤٩	رحمة الله وتفضله على المؤلف، ونصيحة النبي عليه السلام للمؤلف بالاجتهاد في الدعاء وحض أصحابه على اتّباع السّنة والصدقة	١٦٠٥
٥٠	٤/ ٥ وهما حديث (إذا التقى المسلمان بسيفيهما) وحديث (من يقم ليلة القدر) وإعجاب النبي عليه السلام بتحليل المؤلف لكلمة (سيفيهما)، ثم دفاعه ﷺ عن الشرح كاملاً، وأنه ليس فيه من محتمل، إنما كله حق، وما كان عن الله تعالى فليس فيه احتمال. ويقسم النبي عليه السلام الوحي إلى قسمين، وحي من الله بالواسطة، وهو وحي الأنبياء، ووحي بإلهام، وهو للناس كلهم، ووحي ابن أبي جمرة هو وحي إلهام	١٦٠٦
٥١	٤/ ٥/ وهما نفس الحديثين السابقين مع خطبة الشرح وتعيين بعض فضل الله على المؤلف ثواباً، ثم تعيين ليلة الإثنين والخميس من شهر رجب يتجلى الله فيهما ويستجيب الدعاء	١٦٠٦
٥٢	٦٢/ ٦١ وهما حديث (الاستخارة) وحديث عبد الله بن عمر والذي قال فيه: «ألم أُخبر أنك تقول: أصوم النهار»، وبشارة النبي عليه السلام له ببعض الأجر والقصور والدور والنور	١٦٠٧
٥٣	٨٦/ ٨٥/ ١٣٣/ ١٩٩/ ٦٢ وهي أحاديث (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال) و (ينزل الدجال ببعض السباخ) و (حفر الخندق) و (بعث النبي سرية) و (الاستخارة) وفي هذه الرؤيا تفصيل لما أعد الله للمؤلف من خيل خضر وكحل في غاية الحسن، ومن الخيرات والنعم ما لا يحصى	١٦٠٧
٥٤	٢٥٨/ ٢٦٠ وهما حديث (سيد الاستغفار) و (للَّهُ أفرح بعبده) وفي الرؤيا جزء من جزاء الله وخيراته للمؤلف الشارح، وقوله عليه السلام له: هكذا يفعل الله بكل من يتبع سنة نبيه صادقاً	١٦٠٨
٥٥	٢٥/ ٢٤/ ١٨٩/ ٢٨٩ وهي أحاديث (صلّيا في السفينة قائمين) و (إن الله وكّل بالرحم مَلَكاً) و (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء) و (يجاء بنوح عليه السلام) وفي هذه الرؤيا يشكو المؤلف للنبي عليه السلام كثرة المناوئين له، والمشوشين عليه، وأنه وحيد ويعيش في وحدة، ويزيل النبي همومه بإذن الله وفضله، ويطمئنه بأن الله ناصره عليهم، وأنه على الحق، ويريه بعض أفضال الله عليه، ويعلمه دعاء يفرج الله به كربه	١٦٠٩

٦٧	٢٦٨ وهو حديث (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله) ويرى في الرؤيا أن النبي ﷺ زاره مع جمع من الأنبياء وبشره ببعض ما وهبه الله من نعيم على شرح هذا الحديث، وكان ما بشر به شيئاً يفوق الوصف والخيال، ويذكر الشارح بعضاً منها	١٦١٧
٦٨	١٠٩/٤١ وهما حديث (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) و (أتانا رسول الله ﷺ في دارنا هذه) وفي الكلام على الأول حوار بين النبي عليه السلام والمؤلف حول هذه المرائي، فيخبره بأن فريقاً من الناس يصدقها، وآخر لا يؤمن بصدقها، وأنت أمرتني بإظهارها. فيجيبه عليه السلام: ذلك ليميز الله الحق من الباطل، من آمن بي فهو يصدق بها، ومن لا يؤمن بي فلا يصدق، ولا ثالث. وفي الحديث عن الثاني أنه عليه السلام زاد فيه زيادة مستحبة، ولا يخبر المؤلف أين كانت الزيادة	١٦١٨
٦٩	فضل جميع الشرح وثوابه. وهي آخر مرائي ابن أبي جمرة، وفيها أن الرسول عليه السلام ومعه إبراهيم، وموسى، وعيسى، ويحيى، وزكريا، عليهم السلام، زاروه وهنؤوه بالنصر، وأطلعه النبي ﷺ على ما كتب الله له من خيرات على كامل الشرح، وأنه أذن له أن ينتشر، ويكون علامة إيمان لكل من قرأه، واقتناه، وعمل به	١٦١٩
٧٠	ابن عطاء الله الإسكندري يرى رسول الله ﷺ في المنام فيخبره أن ابن أبي جمرة سلطان المشرق والمغرب، ما وقع نظره على أحد إلا وجُبر	١٦١٩

٤ ـ فهرس أحاديث بهجة النفوس بحسب مضامينها

٥ ـ فهرس الأحاديث التي استشهد بها ابن أبي جمرة خلال الشرح

يا رسول الله، ما يلبس المحرم من الثياب؟ ٧٩/ ٥٦٥
يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ ١٣/ ١٨١

فهرس الكتاب

كتاب بهجة النفوس وتحليها بما لها وعليها
للشيخ عبد الله بن أبي جمرة
الأزدي الأندلسي
الجزء الثاني

المرائي الحسان

فهارس الكتاب

